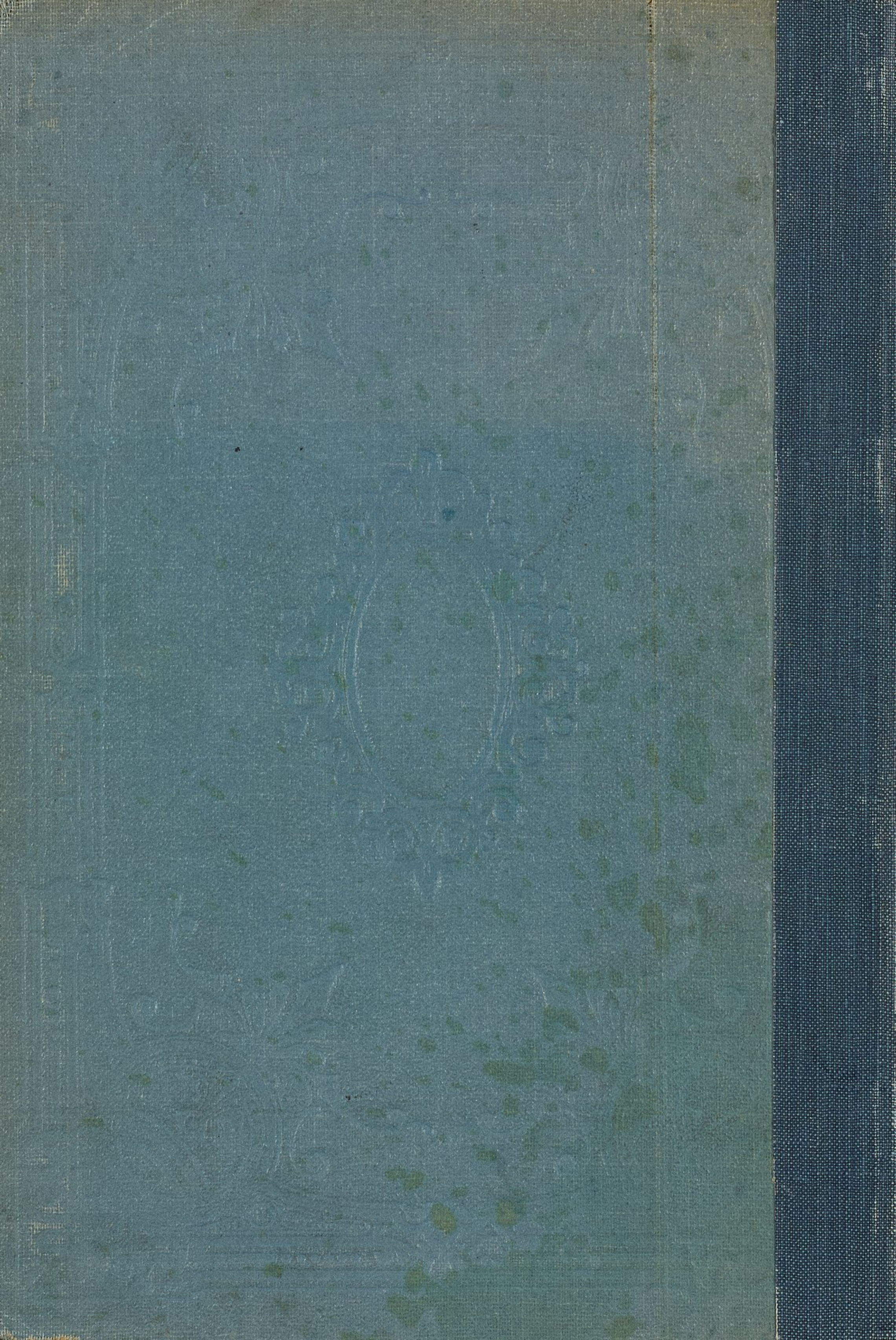


4 vols

30/.

al-Makrizi Kitab al Khitat



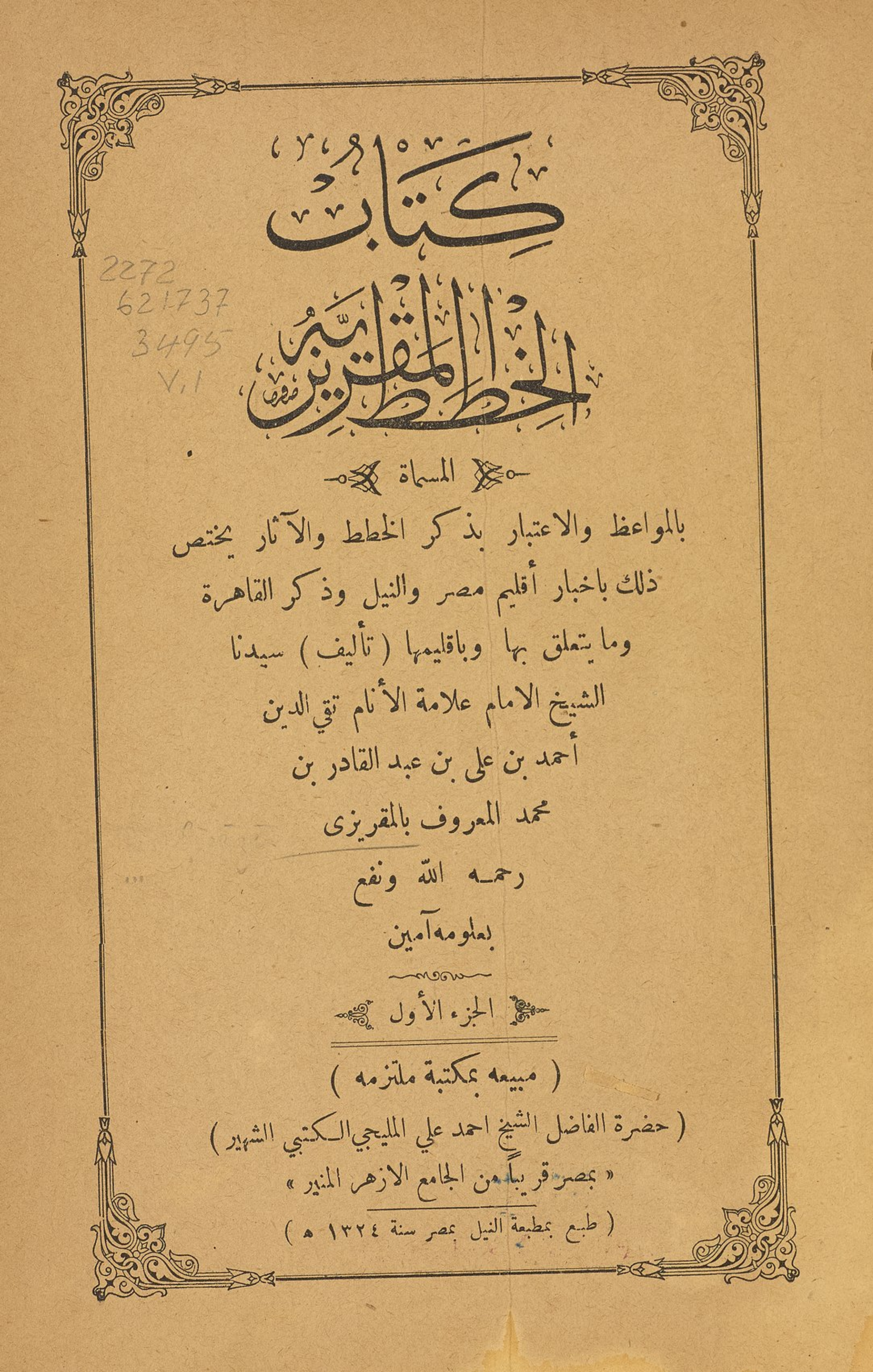
Princeton University Library
32101 075684918

(فهرست)

الجزء الاول من كتاب الخطط للعلامة المقريزي

(تمت فهرست الجزء الاول من الخطط المقريزيه)





كتاب الخطط المقريزية

المسماة

بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك باخبار أقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وباقليمها (تأليف) سيدنا الشيخ الامام علامة الأنام تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى

رحمه الله ونفع

بعلومه آمين

الجزء الأول

(مبيعه بمكتبة ملتزمه)

(حضرة الفاضل الشيخ احمد علي المليجي الكتبي الشهير)

«بمصر قريبا من الجامع الازهر المنير»

(طبع بمطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عرّف وفهم . وعلم الانسان ما لم يكن يعلم . وأسبغ على عباده نعما باطنة وظاهره . ووالى عليهم من مزيد آلائه مننا متظافرة متواتره . وبثهم في أرضه حينا يتقلبون واستخلفهم في ماله فهم به يتنعمون . وهدى قوما الى اقتناص شوارد المعارف والعلوم . وشوّقهم للتفنن في مسارح التدبر والركض بميادين الفهوم . وأرشد قوما الى الانقطاع من دون الخلق اليه . ووفقهم للاعتماد في كل أمر عليه . وصرف آخرين عن كل مكرمة وفضيله . وقيض لهم قرناء قادوهم الى كل ذميمة من الاخلاق ورذيله . وطبع على قلوب آخرين فلا يكادون يفقهون قولا . وثبطهم عن سبل الخيرات فما استطاعوا قوّة ولا حولا ثم حكم على الكل بالفناء . ونقلهم جميعا من دار التمحيص والابتلاء . الى برزخ الهيود والبلاء وسيحشرهم أجمعين الى دار الجزاء . ليوفى كل عامل منهم عمله . ويسأله عما أعطاه وخوّله وعن موقفه بين يديه سبحانه وما أعدّ له . لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون . أحمده سبحانه حمد من علم أنه اله لا يعبد الا اياه . ولا خالق للخالق سواه . حمدا يقتضى المزيد من النعماء ويوالى المنن بتجدّد الآلاء . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله . ونبيه وخليله . سيد البشر . وأفضل من مضى وغبر . الجامع لمحاسن الاخلاق والسير . والمستحق لاسم الكمال على الاطلاق من البشر . الذي كان نبيا وآدم بين الماء والطين . ورقم اسمه من الازل في عليين . ثم تنقل من الاصلاب الفاخرة الزكيه . الى الارحام الطاهرة المرضيه حتى بعثه الله عزوجلّ الى الخلائق أجمعين . وختم به الأنبياء والمرسلين . وأعطاه مالم يعط أحدا من العالمين . وعلى آله وصحابته والتابعين . وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

(وبعد) فان علم التاريخ من أجل العلوم قدرا . وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا . لما يحويه من المواعظ والانذار . بالرحيل الى الآخرة عن هذه الدار . والاطلاع على مكارم الاخلاق ليقتدى بها . واستعلام مذامّ الفعال ليرغب عنها أولو النهى . لاجرم ان كانت الانفس الفاضلة به رامقه . والهمم العالية اليه مائلة وله عاشقه . وقد صنف فيه الائمة كثيرا . وضمن الاجلة كتبهم منه شيئا كبيرا . وكانت مصر هى مسقط راسي . وملعب أترابي ومجمع ناسي . ومغني عشيرتي وحامتي . وموطن خاصتي وعامتي . وجؤجؤي الذى ربى جناحي في وكره .

وعش مأربي فلا تهوى الانفس غير ذكره • لا زلت مذ شذوت العلم • وآتاني ربي الفطانة والفهم • أرغب في معرفة أخبارها • وأحبّ الاشراف على الاغتراف من آبارها • وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها • فقيدت بخطي في الاعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب • أو يحويها لعزتها وغرابتها اهاب • الا أنها ليست بمرتبة على مثال • ولا مهذبة بطريقة مانسج على منوال • فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقيه • عن الامم الماضية والقرون الخاليه . وما بقي بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه البلى والقدم • ولم يبق الا أن يمحو رسمها الفناء والعدم . وأذكر ما بمدينة القاهره من آثار القصور الزاهره • وما اشتملت عليه من الخطط والاصقاع • وحوته من المباني البديعة الاوضاع • مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الاماثل . والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الاعاظم والافاضل . وأنثر خلال ذلك نكتاً لطيفه . وحكما بديعة شريفه • من غير اطالة ولا اكثار • ولا اجحاف مخل بالغرض ولا اختصار • بل وسط بين الطرفين . وطريق بين بين • فلهذا سميته (كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) واني لارجو أن يحظى ان شاء الله تعالى عند الملوك • ولا ينبو عنه طباع العامي والصعلوك • ويجله العالم المنتهى • ويعجب به الطالب المبتدى • وترضاه خلائق العابد الناسك ولا يمجه سمع الخليع الفاتك • ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سمرا • ويعدّه أولو الرأى والتدبير موعظة وعبرا . يستدلون به على عظيم قدرة الله تعالى في تبديل الابدال • ويعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الامور الى حال بعد حال • فان كنت أحسنت فيما جمعت وأصبت في الذى صنعت ووضعت . فذلك من عميم منن الله تعالى وجزيل فضله • وعظيم أنعمه عليّ وجليل طوله • وان أنا أسأت فيما فعلت • وأخطأت اذ وضعت • فما أجدر الانسان بالاساءة والعيوب • اذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب

وما أبرّئ نفسي انني بشر * أسهو وأخطئ مالم يحمني قدر
ولا ترى عذرا اولى بذى زلل * من أن يقول مقرّا انني بشر

فليسبل الناظر فى هـذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره ان مرّت به هفوه . وليغض تجاوزا وصفحا ان وقف منـه على كبوة أو نبوه • فأىّ جواد وان عتق ما يكبو . وأىّ عضب مهند لا يكل ولا ينبو • لاسيما والخاطر بالافكار مشغول • والعزم لالتواء الامور وتعسرها فاتر محلول • والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل • والقلب لتوالى المحن وتواتر الاحن عليل

يعاندني دهرى كأني عدوه * وفي كل يوم بالكريهة يلقاني
فان رمت شيئاً جاءني منه ضده * وان راق لى يوما تكدر في الثاني

اللهمّ غفرا ما هـذا من التبرّم بالقضاء ولا التضجر بالمقدور . بل أنه سـقيم ونفثة مصدور * يستروح ان أبدى التوجع والانين . ويجد خفا من ثقله اذا باح بالشكوى والحنين

ولو نظروا بين الجوانح والحشا * رأوا من كتاب الحب فى كبدى سطرا
ولو جرّبوا ما قد لقيت من الهوى * اذاً عذروني أو جعلت لهم عذرا

والله أسأل أن يحلي هـذا الكتاب بالقبـول عند الجلة والعلماء . كما أعوذ به من تطرّق أيدى الحساد اليه والجهـلاء . وأن يهدينى فيـه وفيما سواه من الاقوال والافعال الى سواء السبيل . انه حسبنا ونعم الوكيل . وفيه جلت قدرته لي سلوّ من كل حادث . وعليه عز وجل أتوكل في جميع الحوادث . لااله الا هو ولا معبود سواه

ذكر الرؤس الثمانيه

اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤس الثمانية قبـل افتتاح كل كتاب وهى الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبـة وصحة الكتاب ومن أى صناعة هو وكم فيه من اجزاء وأىّ أنحاء التعاليم المستعملة فيه فنقول (أما الغرض) في هذا التأليف فانه جمع ماتفرق من أخبار أرض مصر وأحوال سكانها كي يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار أقليم مصر وهى التي اذا حصلت في ذهن انسان اقتدر على أن يخبر في كل وقت بما كان في أرض مصر من الآثار الباقية والبايدة ويقص أحوال من ابتـدأها ومن حلها وكيف كانت مصاير أمورهم وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لهـا بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر (وأما عنوان هذا الكتاب) أعني الذى وسمته به فاني لما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلطة متفرقة فلم يتهيأ لى اذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتبا على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة لاسيما فى الاعصر الخالية ولا أن أضعها على أسماء النـاس لعلل أخر تظهر عند تصفح هذا التأليف فلهذا فرقتها في ذكر الخطط والآثار فاحتوي كل فصل منها على ما يلايمه ويشاكله وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبـدد من أخبار مصر ولم أتحاش من تكرار الخبر اذا احتجت اليـه بطريقة يستحسنها الاريب ولا يستهجنها الفطن الاديب كي يستغنى مطالع كل فصل بما فيه عما فى غيره من الفصول فلذلك سميته (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) * (وأما منفعة هذا الكتاب) فان الامر فيها يتبين من الغرض فى وضعه ومن عنوانه أعنى أن منفعته هي أن يشرف المرء في زمن قصير على ما كان فى أرض مصر من الحوادث والتغييرات فى الازمنة المتطاولة والاعوام الكثيرة فتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه ويعرف فنـاء الدنيا فيحظي بالاعراض عنها والاقبال على مايبقى (وأما مرتبة هذا الكتاب) فانه من جملة أحد قسمي العلم اللذين هما العقلي والنقلى فينبغي أن يتفرغ لمطالعته وتدبر مواعظه بعد اتقان ماتجب معرفته

من العلوم النقلية والعقلية فانه يحصل بتدبره لمن أزال الله أكنة قلبه وغشاوة بصره نتيجة العلم بما صار اليه أبناء جنسه بعد التخول فى الاموال والجنود من الفناء والبيود فاذاً مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم العقلية والنقلية ليعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل (وأما واضع هذا الكتاب ومرتبه) فاسمه أحمد بن علي بن عبد القادر ابن محمد ويعرف بالمقريزى رحمه الله تعالى ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعد سنة ستين وسبعمائة من سني الهجرة المحمدية ورتبته من العلوم ما يدل عليه هذا الكتاب وغيره مما جمعه وألفه (وأما من أى علم هذا الكتاب) فانه من علم الاخبار وبها عرفت شرائع الله تعالى التي شرعها وحفظت سنن أنبيائه ورسله ودون هداهم الذى يقتدى به من وفقه الله تعالى الى عبادته وهداه الى طاعته وحفظه من مخالفته وبها نقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة وكيف حل بهم سخط الله تعالى لما أتوا ما نهوا عنه وبها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة مادونوه من العلوم والصنائع وتأتي لهم علم ماغاب عنهم من الاقطار الشاسعة والامصار النائية وغير ذلك مما لا ينكر فضله ولكل أمة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلاف عقائدهم أخبار عندهم معروفة مشهورة ذائعة بينهم ولكل مصر من الامصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصر في كل عصر ولو استقصيت ما صنف علماء العرب والعجم في ذلك لتجاوز حد الكثرة وعجزت القدرة البشرية عن حصره (وأما أجزاء هذا الكتاب فانها سبعة) أولها يشتمل على جمل من أخبار أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها * وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها * وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها * ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار * وخامسها يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الاحوال * وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها * وسابعها يشتمل على ذكر الاسباب التي نشأ عنها خراب أقليم مصر * وقد تضمن كل جزء من هذه الاجزاء السبعة عدة أقسام (وأما أى أنحاء التعاليم التى قصدت في هذا الكتاب) فاني سلكت فيه ثلاثة أنحاء • وهي النقل من الكتب المصنفة فى العلوم • والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس • والمشاهدة لما عاينته ورأيته * فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها في أنواع العلوم فأني أعزو كل نقل الى الكتاب الذى نقلته منه لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته فكثيراً ممن ضمني واياه العصر واشتمل علينا المصر صار لقلة اشرافه على العلوم وقصور باعه فى معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس يهجم بالانكار على ما لا يعرفه ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه ولا يحتاج فى الشريعة اليه

وحسب العالم أن يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه * وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فاني فى الغالب والاكثر أصرح باسم من حدثني الا أن لا يحتاج الى تعيينه أو أكون قد أنسيته وقل ما يتفق مثل ذلك * وأما ما شاهدته فاني أرجو ان أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين • وقد قلت فى هذه الرؤس الثمانية ما فيه قنع وكفاية ولم يبق الا أن أشرع فيما قصدت وعزمي أن أجعل الكلام في كل خط من الاخطاط وفي كل أثر من الآثار على حدة ليكون العلم بما يشتمل عليه من الاخبار أجمع وأكثر فائدة وأسهل تناولا والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وفوق كل ذى علم عليم

(فصل) أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر أسبابها فى ديوان جمعه أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ثم كتب بعده القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى كتابه المنعوت بالمختار فى ذكر الخطط والآثار ومات في سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنى الشدة فدثر أكثر ما ذكراه ولم يبق الا يلمع وموضع بلقع بما حل بمصر من سنى الشدة المستنصرية من سنة سبع وخمسين الى سنة أربع وستين وأربعمائة من الغلاء والوباء فمات أهلها وخربت ديارها وتغيرت أحوالها واستولى الخراب على عمل فوق من الطرفين بجانبي الفسطاط الغربى والشرقي فأما الغربى فمن قنطرة بني وائل حيث الوراقات الآن قريبا من باب القنطرة خارج مدينة مصر الى الشرف المعروف الآن بالرصد وأنت مار الى القرافة الكبرى وأما الشرقي فمن طرف بركة الحبش التي تلى القرافة نحو جامع أحمد بن طولون ثم دخل أمير الجيوش بدر الجمالي مصر فى سنة ست وستين وأربعمائة وهذه المواضع خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها قد أبادهم الوباء والتباب وشتتهم الموت والخراب ولم يبق بمصر الا بقايا من الناس كانهم أموات قد اصفرت وجوههم وتغيرت سحنهم من غلاء الاسعار وكثرة الخوف من العسكرية وفساد طوائف العبيد والملحية ولم يجد من يزرع الاراضي هذا والطرقات قد انقطعت بحرا وبرا الا بخفارة وكلفة كثيرة وصارت القاهرة أيضاً يباباً داثرة فأباح للناس من العسكرية والملحية والارمن وكل من وصلت قدرته الى عمارة أن يعمر ماشاء فى القاهرة مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها فأخذ الناس فى هدم المساكن ونحوها بمصر وعمروا بها فى القاهرة وكان هذا أول وقت اختط الناس فيه بالقاهرة ثم كان المنبه بعد القضاعى على الخطط والتعريف بها تلميذه أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى في تأليف لطيف نبه فيه الافضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى على مواضع قد اغتصبت وتملكت بعد ما كانت أحباسا ثم كتب الشريف محمد بن أسعد الجوانى كتاب النقط بعجم ما أشكل من الخطط نبه فيه على معالم قد جهلت وآثار قد دثرت

وآخر من كتب فى ذلك القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج كتاب ايعاظ المتأمل وايقاظ المتغفل فى الخطط بين فيه جملا من أحوال مصر وخططها الى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة قد دثرت بعده معظم ذلك فى وباء سنة تسع واربعين وسبعمائة ثم فى وباء سنة احدى وستين ثم فى غلاء سنة ست وسبعين وسبعمائة وكتب القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ففتح فيه بابا كانت الحاجة داعية اليه ثم تزايدت العمارة من بعده فى الايام الناصرية محمد بن قلاوون بالقاهرة وظواهرها الى أن كادت تضيق على أهلها حتي حل بها وباء سنة تسع واربعين وسنة احدى وستين ثم غلاء سنة ست وسبعين فخربت بها عدة أماكن فلما كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة شمل الخراب القاهرة ومصر وعامة الاقليم وسأورد من ذكر الخطط ماتصل اليه قدرتى ان شاء الله تعالى

ذكر طرف من هيئة الافلاك

اعلم أنه لما كانت مصر قطعة من الارض تعين قبل التعريف بموقعها من الارض وتبيين موضع الارض من الفلك أن أذكر طرفا من هيئة الافلاك ثم اذكر صورة الارض وموضع الاقاليم منها وأذكر محل مصر من الارض وموضعها من الاقاليم وأذكر حدودها واشتقاقها وفضائلها وعجائبها وكنوزها وأخلاق أهلها وأذكر نيلها وخلجانها وكورها ومبلغ خراجها وغير ذلك مما يتعلق بها قبل الشروع فى ذكر خطط مصر والقاهرة فأقول علم النجوم ثلاثة أقسام الاول معرفة تركيب الافلاك وكمية الكواكب واقسام البروج وابعادها وعظمها وحركتها ويقال لهذا القسم علم الهيئة والقسم الثانى علم الزيج وعلم التقويم والقسم الثالث معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج على الحوادث قبل كونها ويسمي هذا القسم علم الاحكام والغرض هنا ايراد نبذ من علم الهيئة تكون توطئة لما يأتى ذكره * اعلم ان الكواكب أجسام كريات والذى أدرك منها الحكماء بالرصد الف كوكب وتسعة وعشرون كوكبا وهى على قسمين سيارة وثابتة فالسيارة سبعة وهى زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر وقد نظمت فى بيت واحد وهو

زحل شرى مريخه من شمسه * فتزاهرت بعطارد الاقمار

ويقال لهذه السبعة الخنس وقيل انها التي عناها الله تعالى بقوله فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس والتي عناها الله تعالى بقوله فالمدبرات أمرا وقيل لها الخنس لاستقامتها فى سيرها ورجوعها وقيل لها الكنس لانها تجرى فى البروج ثم تكنس أي تستتر كما يكنس الظبي وقيل الكنس والخنس منها خمسة وهي ماسوى الشمس والقمر سميت بذلك من الانخناس وهو الانقباض وفي الحديث الشيطان يوسوس للعبد فاذا ذكر الله

خنس أى انقبض ورجع فيكون الخنس على هذا في الكواكب بمعنى الرجوع وسميت بالكنس من قولهم كنس الظبى اذا دخل الكناس وهو مقره فالكنس على هذا في الكواكب بمعنى اختفائها تحت ضوء الشمس ويقال لهذه الكواكب المتحيرة لانها ترجع أحيانا عن سمت مسيرها بالحركة الشرقية وتتبع الغربية في رأى العين فيكون هذا الارتداد لها شبه التحير وهذه الاسماء التي لهذه الكواكب يقال انها مشتقة من صفاتها فزحل مشتق من زحل فلان اذا أبطأ سمي بذلك لبطء سيره وقيل للزحل والزحل الحقد وهو بزعمهم يدل على ذلك ويقال انه المراد في قوله تعالى والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب والمشترى سمى بذلك لحسنه كانه اشترى الحسن لنفسه وقيل لانه نجم الشراء والبيع ودليل الربح والمال في قولهم والمريخ مأخوذ من المرخ وهو شجر يحتك بعض أغصانه ببعض فيورى نارا سمى بذلك لاحمراره وقيل المريخ سهم لاريش له اذا رمى به لايستوى في ممره وكذا المريخ فيه التواء كثير في سيره ودلالته بزعمهم تشبه ذلك والشمس لما كانت واسطة بين ثلاثة كواكب علوية لانهم من فوقها وثلاثة سفلية لانهم من تحتها سميت بذلك لان الواسطة التي في المخنقة تسمى شمسة والزهرة من الزاهر وهو الابيض النير من كل شئ وعطارد هو النافذ في كل الامور ولذلك يقال له أيضا الكاتب فانه كثير التصرف مع ما يقارنه ويلابسه من الكواكب والقمر مأخوذ من القمرة وهي البياض والاقمر الابيض ويقال لزحل كيوان وللمشترى تير والبرجيس أيضا وللمريخ بهرام وللشمس مهر وللزهرة أياهيد وسدحت أيضاً ولعطارد هرمس وللقمر ماه وقد جمعت فى بيت واحد وهو هذا

لازلت تبقى وترقى للعلا أبدا * ما دام للسبعة الافلاك احكام

مهر وماه وكيوان وتير معا * وهرمس وأياهيد وبهرام

ويقال لما عدا هذه الكواكب السبعة من بقية نجوم السماء الكواكب الثابتة سميت بذلك لثباتها في الفلك بموضع واحد وقيل لبطء حركتها فانها تقطع الفلك بزعمهم بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة شمسية مرة واحدة * ولكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة فلك من الافلاك يخصه والافلاك أجسام كريات مشفات بعضها في جوف بعض وهي تسعة أقربها الينا فلك القمر وبعده فلك عطارد ثم بعده فلك الزهرة وبعده فلك الشمس وفوقه فلك المريخ ثم فلك المشترى وفوقه فلك زحل ثم فلك الثوابت وفيه كل كوكب يرى فى السماء سوى السبعة السيارة ومن فوق فلك الثوابت الفلك المحيط وهو الفلك التاسع ويسمي الاطلس وفلك الافلاك وفلك الكل وقد اختلف في الافلاك فقيل هى السموات وقيل بل السموات غيرها وقيل بل هي كرية وقيل غير ذلك وقيل الفلك

الثامن هو الكرسى والفلك التاسع هو العرش وقيل غير ذلك وهذا الفلك التاسع دائم الدوران كالدولاب ويدور في كل أربعة وعشرين ساعة مستوية دورة واحدة ودورانه يكون أبداً من المشرق الى المغرب ويدور بدورانه جميع الافلاك الثمانية وماحوته من الكواكب دورانا حركته قسرية لادارة التاسع لهما وعن حركة التاسع المذكور يكون الليل والنهار فالنهار مدة بقاء الشمس فوق أفق الارض والليل مدة غيبوبة الشمس تحت أفق الارض وفلك الكواكب الثابتة مقسوم باثني عشر قسما كحجز البطيخة كل قسم منها يقال له برج وهى الحمل • والثور • والجوزاء • والسرطان • والاسد • والسنبلة • والميزان • والعقرب والقوس • والجدى • والدلو • والحوت • وكل برج من هذه البروج الاثنى عشر ينقسم ثلاثين قسما يقال لكل قسم منها درجة وكل درجة من هذه الثلاثين مقسومة ستين قسما يقال لكل قسم منها دقيقة وكل دقيقة من هذه الستين مقسومة ستين قسما يقال لكل قسم منها ثانية وهكذا الى الثوالث والروابع والخوامس الى الثوانى عشر وما فوقها من الاجزاء وكل ثلاثة بروج تسمى فصلا فالزمان على ذلك أربعة فصول وهى الربيع والصيف والخريف والشتاء * وجهات الاقطار أربعة الشرق والغرب والشمال والجنوب * والاركان أربعة النار • والهواء . والماء . والتراب * والطبائع أربعة • الحرارة . والبرودة . والرطوبة • واليبوسة • والاخلاط اربعة • الصفراء . والسوداء • والبلغم • والدم والرياح أربعة . الصبا • والدبور والشمال • والجنوب * فالبروج منها ثلاثة ربيعية صاعدة فى الشمال زائدة النهار على الليل وهي الحمل والثور والجوزاء وثلاثة صيفية هابطة في الشمال آخذة الليل من النهار وهي السرطان والاسد والسنبلة وثلاثة خريفية هابطة فى الجنوب زائدة الليل على النهار وهي الميزان والعقرب والقوس وثلاثة شتوية صاعدة في الجنوب آخذة النهار من الليل وهي الجدى والدلو والحوت * والفلك المحيط كما تقدّم دائم الدوران كالدولاب يدور أبدا من المشرق الى المغرب فوق الارض ومن المغرب الى المشرق تحتها فيكون دائما نصف الفلك وهو ستة بروج بمائة وثمانين درجة فوق الارض ونصفه الآخر وهو ستة بروج بمائة وثمانين درجة تحت الارض وكلما طلعت من أفق المشرق درجة من درجات الفلك التي عدّتها ثلثمائة وستون درجة غرب نظيرها فى أفق المغرب من البرج السابع فلا يزال دائما ستة بروج طلوعها بالنهار وستة بروج طلوعها بالليل والافق عبارة عن الحدّ الفاصل من الارض بين المرئيّ والخفيّ من السماء والفلك يدور على قطبين شمالىّ وجنوبى كما يدور الحق على قطبي الخروطة ويقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين متساويين بعدهما من كلا القطبين سواء وتسمى هذه الدائرة دائرة معدّل النهار فهي تقاطع فلك البروج ودائرة فلك البروج تقاطع دائرة معدل النهار ويميل نصفها الى الجانب الشمالى بقدر أربع وعشرين درجة تقريبا وهذا النصف

فيه قسمة البروج الستة الشمالية وهي من أول الحمل الى آخر السنبلة ويميل نصفها الثاني عنها الى الجنوب بمثل ذلك وفيه قسمة البروج الستة الجنوبية وهي من أول برج الميزان الى آخر برج الحوت وموضع تقاطع هاتين الدائرتين أعني دائرة معدل النهار ودائرة فلك البروج من الجانبين هما نقطتا الاعتدالين أعني رأس الحمل ورأس الميزان ومدار الشمس والقمر وسائر النجوم على محاذاة دائرة فلك البروج دون دائرة معدّل النهار وتمر الشمس على دائرة معدل النهار عند حلولها بنقطتي الاعتدالين فقط لأنها موضع تقاطع الدائرتين وهذا هو خط الاستواء الذي لا يختلف فيه الزمان بزيادة الليل على النهار ولا النهار على الليل لان ميل الشمس عنه الى كلا الجانبين الشمالي والجنوبي سواء فالشمس تدور الفلك وتقطع الاثني عشر برجا في مدة ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم بالتقريب وهذه هي مدة السنة الشمسية وتقيم في كل برج ثلاثين يوما وكسرا من يوم وتكون أبدا بالنهار ظاهرة فوق الارض وبالليل بخلاف ذلك واذا حلت في البروج الستة الشمالية التي هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة فانها تكون مرتفعة في الهواء قريبة من سمت رؤسنا وذلك زمن فصل الربيع وفصل الصيف واذا حلت في البروج الجنوبية وهي الميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت كان فصل الخريف وفصل الشتاء وانحطت الشمس وبعدت عن سمت الرؤس وزعم وهب بن منبه أن أول ما خلق الله تعالى من الازمنة الاربعة الشتاء فجعله باردا رطبا وخلق الربيع فجعله حارا رطبا وخلق الصيف فجعله حارا يابساً وخلق الخريف فجعله بارداً يابساً وأول الفصول عند أهل زماننا الربيع ويكون فصل الربيع عند ما تنتقل الشمس من برج الحوت وقد اختلف القدماء في البداية من الفصول فمنهم من اختار فصل الربيع وخيره أول السنة ومنهم من اختار تقديم الانقلاب الصيفي ومنهم من اختار تقديم الاعتدال الخريفي ومنهم من اختار تقديم الانقلاب الشتوي فاذا حلت أول جزء من برج الحمل استوي الليل والنهار واعتدل الزمان وانصرف الشتاء ودخل الربيع وطاب الهواء وهب النسيم وذاب الثلج وسالت الاودية ومدت الانهار فيما عدا مصر ونبت العشب وطال الزرع ونما الحشيش وتلألأ الزهر وأورق الشجر وتفتح النور واخضر وجه الارض ونتجت البهائم ودرت الضروع وأخرجت الارض زخرفها وازينت وصارت كصبية شابة قد تزينت للناظرين ولله در القائل وهو الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليعمرى رحمه الله تعالى

واستنشقوا هوا الربيع فانه * نعم النسيم وعنده ألطاف

يغذى الجسوم نسيمه وكأنه * روح حواها جوهر شفاف

وقال ابن قتيبة ومن ذلك الربيع يذهب الناس الى أنه الفصل الذي يتبع الشتاء ويأتي فيه النور والورد ولا يعرفون الربيع غيره والعرب تختلف في ذلك فمنهم من يجعل الربيع

الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذى تدعوه العامة الربيع ثم فصل القيظ وهو الذي تدعوه العامة الصيف ومن العرب من يسمى الفصل الذي يعتدل وتدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الاول ويسمى الفصل الذى يتلوه الشتاء ويأتي فيه الكمام والنور الربيع الثانى وكلهم مجتمعون على أن الربيع هو الخريف فاذا حلت الشمس آخر برج الجوزاء وأول برج السرطان تناهى طول النهار وقصر الليل وابتدأ نقص النهار وزيادة الليل وانصرم فصل الربيع ودخل فصل الصيف واشتد الحر وحمى الهواء وهبت السمائم ونقصت المياه الا بمصر ويبس العشب واستحكم الحب وأدرك حصاد الغلال ونضجت الثمار وسمنت البهائم واشتدت قوة الابدان ودرت اخلاف النعم وصارت الارض كانها عروس فاذا بلغت آخر برج السنبلة وأول برج الميزان تساوي الليل والنهار مرة ثانية وأخذ الليل فى الزيادة والنهار في النقصان وانصرم فصل الصيف ودخل فصل الخريف فبرد الهواء وهبت الرياح وتغير الزمان وجفت الانهار وغارت العيون واصفر ورق الشجر وصرمت الثمار ودرست البيادر واختزن الحب واقتنى العشب واغبر وجه الارض الا بمصر وهزلت البهائم وماتت الهوام وانجحرت الحشرات وانصرف الطير والوحش يريد البلاد الدافئة وأخذ الناس يخزنون القوت للشتاء وصارت الدنيا كأنها امرأة كهلة قد أدبرت وأخذ شبابها يولى ولله در القائل وهو الامام عز الدين أبو الحسن أحمد بن على بن معقل الازدى المهلبي الحمصى حيث يقول

لله فصل الخريف المستلذ به * برد الهواء لقد أبدى لنا عجبا
أهدي الى الارض من أوراقه ذهبا * والارض من شأنها أن تهدى الذهبا

وقال أيضا

لله فصل الخريف فصلا * رقت حواشيه فهو رائق
فالماء يجرى من قلب سال * والدمع يبدو بوجه عاشق
فبرد هذا ولون هذا * يلذه ذائق ووامق

وقال أيضا

أتى فصل الخريف بكل طيب * وحسن معجب قلبا وعينا
أرانا الدوح مصفرا نضارا * وصافى الماء مبيضا لجينا
فأحسن كل احسان الينا * وأنعم كل انعام علينا

وقال آخر يذم الخريف

خذ فى التدثر فى الخريف فانه * مستوبل ونسيمه خطاف
يجرى مع الاجسام جرى حياتها * كصديقها ومن الصديق يخاف

وقال آخر

ياعائبا فصل الخريف وغائبا * عن فضله في ذمه لزمانه
لاشئ ألطف منه عندى موقعا * أبدا يعري الغصن من قمصانه

وتراه يفرش تحته أثوابه * فاعجب لرأفته وفرط حنانه
وألذ ساعات الوصال اذا دنا * وقت الرحيل وحان حين أوانه

فاذا حلت الشمس آخر برج القوس وأول برج الجدى تناهي طول الليل وقصر النهار وأخذ النهار فى الزيادة والليل فى النقصان وانصرم فصل الخريف وحل فصل الشتاء واشتد البرد وخشن الهواء وتساقط ورق الشجر ومات أكثر النبات وغارت الحيوانات فى جوف الارض وضعف قوى الابدان وعرى وجه الارض من الزينة ونشأت الغيوم وكثرت الانداء وأظلم الجو وكلح وجه الارض الا بمصر وامتنع الناس من التصرف وصارت الدنيا كانها عجوز هرمة قد دنا منها الموت فاذا بلغت آخر برج الحوت وأول برج الحمل عاد الزمان كما كان عام أول وهــذا دأبه ذلك تقدير العزيز العليم وتدبير الخبير الحكيم لااله الا هو وقد شبه بطليموس فصل الربيع بزمان الطفولية وفصل الصيف بالشباب والخريف بالكهولة والشتاء بالشيخوخة • وعن حركة الشمس وتنقلها فى البروج الاثنى عشر المذكورة تكون أزمان السنة وأوقات اليوم من الليل والنهار وساعاتهما وعن حركة القمر في البروج الاثنى عشر تكون الشهور القمرية والسنة القمرية فالقمر يدور البروج الاثنى عشر ويقطع الفلك كله في مدة ثمانية وعشرين يوما وبعض يوم ويقيم فى كل برج يومين وثلث يوم بالتقريب ويقيم فى كل منزلة من منازل القمر الثمانية والعشرين منزلة يوما وليلة فيظهر عند اهلاله من ناحية الغرب بعد غروب جرم الشمس ويزيد نوره فى كل ليلة قدر نصف سبع حتى يكمل نوره ويمتلئ في ليلة الرابع عشر من اهلاله ثم يأخذ من الليـلة الخامسة عشر في النقصان فينقص من نوره فى كل ليـلة نصف سبع كما بدا الي أن يمحق نوره في آخر الثمانية وعشرين يوما من اهلاله ويمر فى هــذه المدة منــذ يفارق الشمس ويبدو في ناحية الغرب ويستمر الى أن يجامعها بثمانية وعشرين منزلة وهى السرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانا والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعـد السعود وسعد الاخبية والفرع المقدم والفرع المؤخر وبطن الحوت *ولحساب ذلك كتب موضوعة وفيما ذكر كفاية والله يعلم وأنتم لا تعلمون

ذكر صورة الارض وموضع الاقاليم منها

ولما تقدم في الافلاك من القول ما يتبين به لمن ألهمه الله تعالى كيف تكون الحركة التى بها الليل والنهار وتركب الشهور والاعوام منهما جاز حينئذ الكلام على الارض فأقول* الجهات من حيث هي ست الشرق وهو حيث تطلع الشمس والقمر وسائر الكواكب في كل قطر من الافق والغرب وهو حيث تغرب والشمال وهو حيث مـدار الجدي والفرقدين

والجنوب وهو حيث مدار سهيل والفوق وهو مما يلي السماء والتحت وهو مما يلي مركز الارض * والارض جسم مستدير كالكرة وقيل ليست بكرية الشكل وهي واقفة في الهواء بجميع جبالها وبحارها وعامرها وغامرها والهواء محيط بها من جميع جهاتها كالمخ في جوف البيضة وبعدها من السماء متساو من جميع الجهات وأسفل الارض ما تحقيقه هو عمق باطنها مما يلي مركزها من أى جانب كان ذهب الجمهور الى أن الارض كالكرة موضوعة في جوف الفلك كالمخ في البيضة وأنها في الوسط وبعدها في الفلك من جميع الجهات على التساوي وزعم هشام بن الحكم أن تحت الارض جسما من شأنه الارتفاع وهو المانع للارض من الانحدار وهو ليس محتاجا الى ما بعده لانه ليس يطلب الانحدار بل الارتفاع وقال ان الله تعالى وقفها بلا عماد وقال ريمقراطس انها تقوم على الماء وقد حصر الماء تحتها حتى لا يجد مخرجا فيضطر الى الانتقال وقال آخر هي واقفة على الوسط على مقدار واحد من كل جانب والفلك يجذبها من كل وجه فلذلك لا تميل الى ناحية من الفلك دون ناحية لان قوة الاجزاء متكافئة وذلك كحجر المغناطيس فى جذبه الحديد فان الفلك بالطبع مغناطيس الارض فهو يجذبها فهى واقفة في الوسط وسبب وقوفها فى الوسط سرعة تدبير الفلك ودفعه اياها من كل جهة الى الوسط كما اذا وضعت ترابا في قارورة وأدرتها بقوة فان التراب يقوم فى الوسط وقال محمد بن أحمد الخوارزمي الارض في وسط السماء والوسط هو السفلى بالحقيقة وهي مدورة مضرسة من جهة الجبال البارزة والوهاد الغائرة وذلك لا يخرجها عن الكرية اذا اعتبرت جملتها لان مقادير الجبال وان شمخت يسيرة بالقياس الى كرة الارض فان الكرة التى قطرها ذراع أو ذراعان مثلا اذا نتأ منها شيء أو غار فيها لا يخرجها عن الكرية ولا هذه التضاريس لاحاطة الماء بها من جميع جوانبها وغمرها بحيث لا يظهر منها شيء فحينئذ تبطل الحكمة المؤدية المودعة فى المعادن والنبات والحيوان فسبحان من لا يعلم أسرار حكمه الا هو * وأما سطحها الظاهر المماس للهواء من جميع الجهات فانه فوق والهواء فوق الارض يحيط بها ويجذبها من سائر الجهات وفوق الهواء الافلاك المذكورة فيما تقدم واحدا فوق آخر الى الفلك التاسع الذى هو أعلى الافلاك ونهاية المخلوقات بأسرها وقد اختلف فيما وراء ذلك فقيل خلاء وقيل ملاء وقيل لا خلاء ولا ملاء وكل موضع يقف فيه الانسان من سطح الارض فان رأسه أبدا يكون مما يلى السماء الى فوق ورجلاه أبدا تكون أسفل مما يلى مركز الارض وهو دائما يرى من السماء نصفها ويستر عنه النصف الآخر حدبة الارض وكلما انتقل من موضع الى آخر ظهر له من السماء بقدر ما خفى عنه * والارض غامرة بالماء كعنبة طافية فوق الماء قد انحسر عنها نحو النصف وانغمر النصف الآخر في الارض وصار المنكشف من الارض نصفين كأنما قسم بخط مسامت لخط معدّل النهار يمر تحت دائرته

وجميع البلاد التى على هذا الخط لاعرض لها البتة والقطبان غير مرتين فيها ويكونان هناك على دائرة الافق من الجانبين وكلما بعد موضع بلد عن هذا الخط الى ناحية الشمال قدر درجة ارتفع القطب الشمالي الذى هو الجدى على أهل ذلك البلد درجة وانخفض القطب الجنوبى الذي هو سهيل درجة وهكذا ما زاد ويكون الامر فيما بعد من البلاد الواقعة في ناحية الجنوب كذلك من ارتفاع القطب الجنوبي وانحطاط القطب الشمالي وبهذا عرف عرض البلدان وصار عرض البلد عبارة عن ميل دائرة معدل النهار عن سمت رؤس أهله وارتفاع القطب عليهم وهو أيضا بعد ما بين سمت رؤس أهل ذلك البلد وسمت رؤس أهل بلد لاعرض له فأما ما انكشف من الارض مما يلى الجنوب من خط الاستواء فانه خراب والنصف الآخر الذي يلى الشمال من خط الاستواء فهو الربع العامر وهو المسكون من الارض وخط الاستواء لا وجود له فى الخارج وانما هو فرض بوهمنا أنه خط ابتداؤه من المشرق الى المغرب تحت مدار رأس الحمل وسمى بذلك من أجل أن النهار والليل هناك ابدا سواء لا يزيد ولا ينقص أحدهما عن الآخر شيأ البتة في سائر أوقات السنة كلها ونقطتا هـذا الخط ملازمتان للافق احداهما على مدار سهيـل فى ناحيـة الجنوب والاخرى مما يلى الجدى فى ناحيـة الشمال * والعمارة من المشرق الى المغرب مائة وثمانون درجة من الجنوب الى الشمال من خط أريس الى بنات نعش ثمان وأربعون درجة وهو مقدار ميل الشمس مرتين وخلف خط أريس وهو مقدار ستة عشر درجة وجملة معمور الارض نحو من سبعين درجة لاعتـدال مسير الشمس في هذا الوسط ومرورها على ماوراء الحمل والميزان مرتين فى السنة وأما الشمال والجنوب فالشمس لا تحاذيهما الا مرة واحدة ولان اوج الشمس مرتين في جهة الشمال كانت العمارة فيه لارتفاعها وانتفاء ضرر قوتها غير ساكنة ولان حضيضها في الجنوب عدمت العمارة هنالك * وقد اختلف الناس فى مسافة الارض فقيل مسافتها خمسمائة عام ثلث عمران وثلث خراب وثلث بحار وقيل المعمور من الارض مائة وعشرون سنة تسعون ليأجوج ومأجوج واثنا عشر للسودان وثمانية للروم وثلاثة للعرب وسبعة لسائر الأمم وقيل الدنيا سبعة أجزاء ستة ليأجوج ومأجوج وواحد لسائر الناس وقيل الارض خمسمائة عام البحار ثلثمائة ومائة خراب ومائة عمران وقيـل الارض أربعة وعشرون ألف فرسخ للسودان اثنا عشر ألف وللروم ثمانية آلاف ولفارس ثلاثة آلاف وللعرب ألف * وعن وهب بن منبـه ما العمارة من الدنيا في الخراب الا كفسطاط فى الصحراء وقال ازدشير بن تابك الارض أربعة أجزاء جزء منهـا للترك وجزء للعرب وجزء للفرس وجزء للسودان وقيل الاقاليـم سبعة والاطراف أربعة والنواحى خمسة وأربعون والمداين عشرة آلاف والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفا وقيـل المدن والحصون أحد وعشرون ألفا وستمائة مدينة وحصن فى الاقليم الاول

ثلاثة آلاف ومائة مدينة كبيرة وفى الثانى الفان وسبعمائة وثلاثة عشر مدينة وقرية كبيرة وفي الثالث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون مدينة وقرية وفي الرابع وهو بابل اثنان وتسعمائة وأربع وسبعون مدينة وفي الخامس ثلاثة آلاف مدينة وست مدائن وفي السادس ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمان مدن وفي السابع ثلاثة آلاف وثلاثمائة مدينة في الجزائر وقال الخوارزمي قطر الارض سبعة آلاف فرسخ وهو نصف سدس الارض والجبال والمفاوز والبحار والباقي خراب يباب لا نبات فيه ولاحيوان وقيل المعمور من الارض مثل طائر رأسه الصين والجناح الايمن الهند والسند والجناح الايسر الخزر وصدره مكة والعراق والشام ومصر وذنبه الغرب * وقيل قطر الارض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا ودورها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل وذلك جميع ما أحاطت به من بر وبحر وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخي طول الارض من أقصي المشرق الى أقصى المغرب نحو أربعمائة مرحلة وعرضها من حيث العمران الذي من جهة الشمال وهو مساكن يأجوج ومأجوج الى حيث العمران الذى من جهة الجنوب وهو مساكن السودان مائتان وعشرون مرحلة وما بين برارى يأجوج ومأجوج الى البحر المحيط في الشمال وما بين برارى السودان والبحر المحيط في الجنوب خراب ليس فيه عمارة ويقال ان مساحة ذلك خمسة آلاف فرسخ وهذه أقوال لا دليل على صدقها • والطريق فى معرفة مساحة الارض أنا لو سرنا على خط نصف النهار من الجنوب الى الشمال بقدر ميل دائرة معدّل النهار عن سمت رؤسنا الى الجنوب درجة من درج الفلك التى هى جزء من ثلاثمائة وستين جزأ وارتفع القطب علينا درجة نظير تلك الدرجة فانا نعلم أنا قد قطعنا من محيط جرم الارض جزأ من ثلاثمائة وستين جزأ وهو نظير ذلك الجزء من الفلك فلو قسنا من ابتداء مسيرنا الى انتهاء مكاننا الذي وصلنا اليه حيث ارتفع القطب علينا درجة فانا نجد حقيقة الدرجة الواحدة من الفلك قد قطعت من الارض ستة وخمسين ميلا وثلثى ميل عنها خمسة وعشرون فرسخا فاذا ضربنا حصة الدرجة الواحدة وهو ما ذكر من الاميال فى ثلاثمائة وستين خرج من الضرب عشرون ألفا وأربعمائة ميل وذلك مساحة دور الارض فاذا قسمنا هذه الاميال التى هى مساحة دور الارض على ثلاثة وسبع خرج من القسمة ستة آلاف وأربعمائة وأربعون ميلا وهى مساحة قطر الارض فلو ضربنا هذا القطر فى مبلغ دور الارض لبلغت مساحة بسط الارض بالتكسير مائة ألف ألف واثنين وثلاثين ألف ألف وستمائة ألف ميل بالتقريب فعلى هذا مساحة ربع الارض المسكون بالتكسير ثلاثة وثلاثون ألف ألف ميل ومائة وخمسون ألف ميل وعرض المسكون من هذا الربع بقدر بعد مدار السرطان عن القطب وهو خمسة وخمسون جزأ و سدس جزء وهذا هو سدس الارض

وانتهاؤه الى جزيرة تولي في برطانية وهي آخر المعمور من الشمال وهو من الاميال ثلاثة آلاف وسبعمائة وأربعة وستون ميلا فاذا ضربنا هذا السدس الذى هو مساحة عرض الارض في النصف وهو مقدار الطول كان المعمور من الشمال قدر نصف سدس الارض وأما الطول فانه يقل لتضايق أقسام كرة الارض ومقداره مثل خمس الدور وهو بالتقريب أربعة آلاف وثمانون ميلا وفي الربع المسكون من الارض سبعة أبحر كبار وفى كل بحر منها عدة جزائر وفيه خمسة عشر بحيرة منها ملح وعذب وفيه مائتا جبل طوال ومائتا نهر وأربعون نهرا طوالا ويشتمل على سبعة أقاليم تحتوى على سبعة عشر ألف مدينة كبيرة * وقال في كتاب هروشيوس لما استقامت طاعة بوليس الملقب قيصر الملك في عامة الدنيا تخير أربعة من الفلاسفة سماهم فأمرهم أن يأخذوا له وصف حدود الدنيا وعدة بحارها وكورها أرباعا فولى أحدهم أخذ وصف جزء المشرق وولى آخر أخذ وصف جزء المغرب وولى الثالث أخذ وصف جزء الشمال وولى الرابع أخذ وصف جزء الجنوب فتمت كتابة الجميع على أيديهم فى نحو من ثلاثين سنة فكانت جملة البحار المسماة في الدنيا تسعة وعشرين بحرا قد سموها منها بجزء الشرق ثمانية وبجزء الغرب ثمانية وبجزء الشمال أحد عشر وبجزء الجنوب اثنان وعدة الجزائر المعروفة الامهات أحدى وسبعون جزيرة منها في الشرق ثمان وفى الغرب ست عشرة وفي جهة الشمال احدى وثلاثون وفى جهة الجنوب ست عشرة وعدة الجبال الكبار المعروفة في جميع الدنيا ستة وثلاثون وهى أمهات الجبال وقد سموها فما فسروه منها في جهة الشرق سبعة وفي جهة الغرب خمسة عشر وفي الشمال اثنا عشر وفي الجنوب اثنان والبلدان الكبار ثلاثة وستون منها في المشرق سبعة وفي المغرب خمسة وعشرون وفى الشمال تسعة عشر وفى الجنوب اثنا عشر وقد سموها والكور الكبار المعروفة تسع ومائتان منها في المشرق خمس وسبعون وفي المغرب ست وستون وفي الشمال ست وفي الجنوب اثنان وستون والانهار الكبار المعروفة فى جميع الدنيا ستة وخمسون منها لجزء الشرق سبعة عشر ولجزء الغرب ثلاثة عشر ولجزء الشمال تسعة عشر ولجزء الجنوب سبعة والاقاليم السبعة كل أقليم منها كانه بساط مفروش قد مد طوله من الشرق الى الغرب وعرضه من الشمال الى الجنوب وهذه الاقاليم مختلفة الطول والعرض فالاقليم الاول منها يمر وسطه بالمواضع التي طول نهارها الاطول ثلاثة عشر ساعة والسابع منها يمر وسطه بالمواضع التى طول نهارها الاطول ست عشر ساعة لان ما حاذى حد الاقليم الاول الى نحو الجنوب يشتمل عليه البحر ولا عمارة فيه وما حاذى الاقليم السابع الى الشمال لا يعلم فيه عمارة فجعل طول الاقاليم السبعة من الشرق الى الغرب مسافه أثني عشرة ساعة من دور الفلك وصارت عروضها تتفاضل نصف ساعه من ساعات النهار الاطول فأطولها وأعرضها الاقليم الاول وطوله من المشرق الى

المغرب نحو ثلاثة آلاف فرسخ وعرضه من الشمال الى الجنوب مائة وخمسون فرسخاً وأقصرها طولا وعرضا الاقليم السابع وطوله من الشرق الى الغرب ألف وخمسمائة فرسخ وعرضه من الشمال الى الجنوب نحو من سبعين فرسخا وبقية الاقاليم الخمسة فيما بين ذلك وهذه الاقاليم خطوط متوهمة لا وجود لها في الخارج وضعها القدماء الذين جالوا في الارض ليقفوا على حقيقة حدودها ويتيقنوا مواضع البلدان منها ويعرفوا طرق مسالكها هذا حال الربع المسكون وأما الثلاثة الارباع الباقية فانها خراب فجهة الشمال واقعة تحت مدار الجدى قد أفرط هناك البرد وصارت ستة أشهر ليلا مستمرا وهى مدة الشتاء عندهم لا يعرف فيها نهار ويظلم الهواء ظلمة شديدة وتجمد المياه لقوة البرد فلا يكون هناك نبات ولا حيوان ويقابل هذه الجهة الشمالية ناحية الجنوب حيث مدار سهيل فيكون النهار ستة أشهر بغير ليل وهى مدة الصيف عندهم فيحمى الهواء ويصير سموما محرقا يهلك بشدة حره الحيوان والنبات فلا يمكن سلوكه ولا السكنى فيه وأما ناحية الغرب فيمنع البحر المحيط من السلوك فيه لتلاطم أمواجه وشدة ظلماته وناحية الشرق تمنع من سلوك الجبال الشامخة وصار الناس أجمعهم قد انحصروا في الربع المسكون من الارض ولا علم لاحد منهم بالارض أى بالثلاثة الارباع الباقية والارض كلها بجميع ما عليها من الجبال والبحار نسبتها الى الفلك كنقطة في دائرة وقد اعتبرت حدود الاقاليم السبعة بساعات النهار وذلك أن الشمس اذا حلت برأس الحمل تساوى طول النهار والليل فى سائر الاقاليم كلها فاذا انتقلت فى درجات برج الحمل والثور والجوزاء اختلفت ساعات نهار كل أقليم فاذا بلغت آخر الجوزاء وأول برج السرطان بلغ طول النهار في وسط الاقليم الاول ثلاث عشرة ساعة سواء وصارت في وسط الاقليم الثاني ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة وفي وسط الاقليم الثالث اربع عشرة ساعة وفى وسط الاقليم الرابع اربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي وسط الاقليم الخامس خمس عشرة ساعة وفي وسط الاقليم السادس خمس عشرة ساعة ونصف ساعة وفى وسط الاقليم السابع ست عشرة ساعة سواء وما زاد على ذلك الى عرض تسعين درجة يصير نهارا كله * ومعني طول البلد هو بعدها من أقصى العمارة في الغرب وعرضها هو بعدها عن خط الاستواء وخط الاستواء كما تقدم هو الموضع الذى يكون فيه الليل والنهار طول الزمان سواء فكل بلد على هذا الخط لا عرض له وكل بلد في أقصى الغرب لا طول له ومن أقصى الغرب الى أقصى الشرق مائة وثمانون درجة وكل بلد يكون طوله تسعين درجة فانه في وسط ما بين الشرق والغرب وكل بلد كان طوله أقل من تسعين درجة فانه أقرب الى الغرب وأبعد من الشرق وما كان طوله من البلاد أكثر من تسعين درجة فانه أبعد عن الغرب وأقرب الى الشرق * وقد ذكر القدماء أن العالم السفلي مقسوم سبعة أقسام كل قسم يقال له أقليم فاقليم

الهند لزحل وأقليم بابل للمشترى وأقليم الترك للمريخ وأقليم الروم للشمس وأقليم مصر لعطارد وأقليم الصين للقمر ٠ وقال قوم الحمل والمشترى لبابل والجدى وعطارد للهند والاسد والمريخ للترك والميزان والشمس للروم ثم صارت السنة على اثنى عشر برجا فالحمل ومثلاه للمشرق والثور ومثلاه للجنوب والجوزاء ومثلاها للمغرب والسرطان ومثلاه للشمال قالوا وفي كل أقليم مدينتان عظيمتان يحسب بين كل كوكب الا أقليم الشمس وأقليم القمر فانه ليس في كل أقليم منهما سوى مدينة واحدة عظيمة وجميع مدائن الاقاليم السبعة وحصونها أحد وعشرون ألف مدينة وستمائة مدينة وحصن بقدر دقائق درج الفلك وقال هرمس اذا جملت هذه الدقائق روابع كانت أناس هذه الاقاليم واذا مات أحد ولد نظيره ويقال ان عدد مدن الاقليم الاول من مطالع الشمس وقراها ثلاثة آلاف ومائة مدينة وقرية كبيرة وأن في الثاني ألفان وسبعمائة وثلاث عشرة مدينة وقرية كبيرة وفي الثالث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون وفى الرابع وهو بابل ألفان وتسعمائة وأربع وسبعون وفي الخامس ثلاثة آلاف وست مدن وفى السادس ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمان مدن وفى السابع ثلاثة آلاف وثلاثمائة مدينة وقرية كبيرة فى الجزائر ٠ فالاقليم الاول يمر وسطه بالمواضع التي طول نهارها الاطول ثلاث عشرة ساعة ويرتفع القطب الشمالي فيها عن الافق ست عشرة درجة وثلثا درجة وهو العرض وانتهاء عرض هـذا الاقليم من حيث يكون طول النهار الاطول فيه ثلاث عشرة ساعة وربع ساعة وارتفاع القطب الشمالي وهو العرض عشرون درجة ونصف درجة وهو مسافة أربعمائة وأربعين ميلا وابتداؤه من أقصى بلاد الصين فيمر فيها الى ما يلي الجنوب ويمر بسواحل الهند ثم ببلاد السند ويمر فى البحر على جزيرة العرب وأرض اليمن ويقطع بحر القلزم فيمر ببـلاد الحبشة ويقطع نيل مصر الى بلاد الحبشة ومدينة دنقلة من أرض النوبة ويمر في أرض المغرب على جنوب بلاد البربر الى نحو البحر المحيط وفي هذا الاقليم عشرون جبلا فيها ما طوله من عشرين فرسخا الى ألف فرسخ وفيه ثلاثون نهرا طوالا منها ما طوله ألف فرسخ الى عشرين فرسخا وفيه خمسون مدينة كبيرة وعامة أهل هـذا الاقليم سود الالوان ولهذا الاقليم من البروج الحمل والقوس وله من الكواكب السيارة المشترى وهو مع فرط حرارته كثير المياه كثير المروج وزرع أهله الذرة والارز الا أن الاعتدال عندهم معدوم فلا يثمر عندهم كرم ولا حنطة والبقر عندهم كثير لكثرة المروج وفي مشرقه البحر الخارج وراء خط الاستواء بثلاث عشرة درجة وفى مغربه النيل وبحر الغرب ومن هذا الاقليم يأتى نيل مصر وشرقهم معمور بالبحر الشرقى الذى هو بحر الهند واليمن ٠ والاقليم الثانى حيث يكون طول النهار الاطول ثلاث عشرة ساعة ونصف ويرتفع القطب الشمالى فيه قدر أربعة وعشرين جزأ وعشر جزء وعرضه من حد الاقليم الاول الى حيث يكون النهار الاطول

ثلاث عشرة ساعة ونصف وربع ساعة وارتفاع القطب الشمالى وهو العرض سبعة وعشرون درجة ونصف درجة ومساحة هذا الاقليم أربعمائة ميل ويبتدئ من بلاد الشرق مارا ببلاد الصين الى بلاد الهند والسند ثم بملتقى البحر الاخضر وبحر البصرة ويقطع جزيرة العرب في أرض نجد وتهامة فيدخل في هذا الاقليم اليمامة والبحران وهجر ومكة والمدينة والطائف وأرض الحجاز ويقطع بحر القلزم فيمر بصعيد مصر الاعلى ويقطع النيل فيصير فيه مدينة قوص واخميم واسنى وانصنا واسوان ويمر فى أرض المغرب على وسط بلاد افريقية فيمر على بلاد البربر الى البحر فى المغرب وفي هذا الاقليم سبعة عشر جبلا وسبعة عشر نهرا طوالا وأربعمائة وخمسون مدينة كبيرة وألوان أهل هـذا الاقليم مابين السمرة والسواد وله من البروج الجدي ومن السيارة زحل ويسكن هـذا الاقليم الرحالة فى المغرب منهم حداله وصنهاجه ولمتونه ومسوفه ويتصل بهم رحالة مصر من الواح وفى هذا الاقليم يكون بحل وفيه مكة والمدينة ومن السماوة من أهل العراق الى رحاله الترك * والاقليم الثالث وسطه حيث يكون طول النهار الاطول اربع عشرة ساعة وارتفاع القطب وهو العرض ثلاثون درجة ونصف وخمس درجة وعرض هذا الاقليم من حـد الاقليم الثانى الى حيث يكون النهار الاطول أربع عشرة ساعة وربع ساعة وارتفاع القطب وهو العرض ثلاث وثلاثون درجة ومسافته ثلاثمائة وخمسون ميلا ويبتدئ من الشرق فيمر بشمال الصين وبلاد الهند وفيه مدينة الهندهار ثم بشمال السند وبلاد كابل وكرمان وسجستان الى سواحل بحر البصرة وفيه اصطخر وسابور وشيراز وسيراف ويمر بالاهواز والعراق والبصرة وواسط وبغداد والكوفة والانبار وهيت ويمر ببلاد الشام الى سامية وصور وعكا ودمشق وطبرية وقيسارية وبيت المقدس وعسقلان وغزة ومدين والقلزم ويقطع أسفل أرض مصر من شمال انصنا الى فسطاط مصر وسواحل البحر وفيه الفيوم والاسكندرية والعرما وتنيس ودمياط ويمر ببلاد برقة الى افريقة فيدخل فيه القيروان وينتهى فى البحر الي الغرب وبهذا الاقليم ثلاث وثلاثون جبلا كبارا واثنان وعشرون نهرا طوالا ومائة وثمانية وعشرون مدينة وأهله سمر الالوان وله من البروج العقرب ومن السيارة الزهرة وفى هذا الاقليم العمائر المتواصلة من أوله الى آخره اه * والاقليم الرابع وسطه حيث يكون النهار الاطول أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وارتفـاع القطب الشمالى وهو العرض ست وثلاثون درجة وخمس درجة وحدّ هذا الاقليم من حد الاقليم الثالث الى حيث يكون النهار الاطول أربع عشرة ساعة ونصف وربع ساعـة والعرض تسعا وعشرين درجة وثلث درجة ومسافة هـذا الاقليم ثلاثمائة ميل ويبتدئ من الشرق فيمر ببلاد البيت وخراسان وحجنده وفرغانه وسمرقند وبخاري وهراه ومرو والرود وسرخس وطوس ونيسابور وجرجان وقومس وطبرستان

وقزوين والديلم والرى وأصفهان وهمذان ونها وند ودينور والموصل ونصيبين وآمدوراس العين وشميساط والرقة ويمر ببلاد الشام فيدخل فيه بالس ومسح وملطية وحلب وانطاكية وطرابلس والصيصة وحماه وصيدا وطرسوس وعمورية واللاذقية ويقطع بحر الشام على جزيرة قبرس ورودس ويمر ببلاد طنجه فينتهى الى بحر المغرب وفى هذا الاقليم خمسة وعشرون جبلا كبارا وخمسة وعشرون نهرا طوالا ومائتا مدينة واثنتا عشرة مدينة وألوان أهله ما بين السمرة والبياض وله من البروج الجوزاء ومن السيارة عطارد وفيه البحر الرومي من مغربه الى القسطنطينية ومن هـذا الاقليم ظهرت الانبياء والرسـل صلوات الله عليهم أجمعين ومنه انتشر الحكماء والعلماء فانه وسط الاقاليم ثلاثة جنوبية وثلاثة شمالية وهو فى قسم الشمس وبعده في الفضيلة الاقليم الثالث والخامس فانهما على جنبيه وبقية الاقاليم منحطة أهلوها ناقصون ومنحطون عن الفضيلة لسماجة صورهم وتوحش أخلاقهم كالزنج والحبشة وأكثر أمم الاقليم الاول والثانى والسادس والسابع يأجوج ومأجوج والتغرغر والصقالبة ونحوهم * والاقليم الخامس وسطه حيث يكون النهار الاطول خمس عشر ساعة وارتفاع القطب الشمالى وهو العرض احدى وأربعون درجة وثلث درجة وابتداؤه من نهاية عرض الاقليم الرابع الى حيث يكون النهار الاطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة والعرض ثلاثا وأربعين درجة ومسافته خمسون ومائتا ميل ويبتـدئ من المشرق الى بلاد يأجوج ومأجوج ويمر بشمال خراسان وفيه خوارزم واسبيجاب واذربيجان وبردعه وسجستان وأردن وخلاط ويمر على بلاد الروم الى رومية الكبرى والاندلس حتى ينتهى الى البحر الذى فى المغرب وفى هـذا الاقليم من الجبال الطوال ثلاثون جبلا ومن الانهار الـكبار خمسة عشر نهرا ومن المدائن الكبار مائتا مدينة وأكثر أهـله بيض الالوان وله من البروج الدلو ومن السيارة القمر * والاقليم السادس وسطه حيث يكون النهار الاطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة وارتفاع القطب الشمالي وهو العرض خمسا وأربعين درجة وخمسى درجة وابتداؤه من حد نهاية عرض الاقليم الخامس الى حيث يكون النهار الاطول خمس عشرة ساعة ونصف وربع ساعة والعرض سبعا وأربعين درجة وربع درجة ومسافة هذا الاقليم مائتا ميل وعشرة أميال ويبتدئ من المشرق فيمر بمساكن الترك من أبحر خير والتغرغر الى بلاد الخزر من شمال نجومهم على اللان والشرير وأرض برحان والقسطنطينية وشمال الاندلس الى البحر المحيط الغربي وفي هذا الاقليم من الجبال الطوال اثنان وعشرون جبلا ومن الانهار الطوال اثنان وثلاثون نهرا ومن المدن الـكبار تسعون مدينة وأكثر أهل هذا الاقليم ألوانهم ما بين الشقرة والبياض وله من البروج السرطان ومن السيارة المريخ * والاقليم السابع وسطه حيث يكون النهار الاطول ست عشرة ساعة سواء وارتفاع القطب الشمالي وهو العرض ثمانيا وأربعين درجة

وثلثى درجة وابتداء هذا الاقليم من حد نهاية الاقليم السادس الى حيث يكون النهار الاطول ست عشرة ساعة وربع ساعة والعرض خمسين درجة ونصف درجة ومسافته مائة وخمسة وثمانون ميلا فتبين أن ما بين أول حد الاقليم الاول وآخر حد الاقليم السابع ثلاث ساعات ونصف وأن ارتفاع القطب الشمالي ثمانية وثلاثون درجة تكون من الاميال ألفين ومائة وأربعين ميلا ويبتدئ الاقليم السابع من المشرق على بلاد يأجوج ومأجوج ويمر ببلاد الترك على سواحل بحر جرجان مما يلى الشمال ويقطع بحر الروم على بلاد جرجان والصقالبة الى أن ينتهى الى البحر المحيط فى المغرب وبهذا الاقليم عشرة جبال طوال وأربعون نهرا طوالا واثنتان وعشرون مدينة كبيرة وأهله شقر الالوان وله من البروج الميزان ومن السيارة الشمس وفى كل أقليم من هذه الاقاليم السبعة أمم مختلفة الألسن والالوان وغير ذلك من الطبائع والاخلاق والآراء والديانات والمذاهب والعقائد والاعمال والصنائع والعادات والعبادات لا يشبه بعضهم بعضا وكذلك الحيوانات والمعادن والنبات مختلفة في الشكل والطعم واللون والريح بحسب اختلاف أهوية البلدان وتربة البقاع وعذوبة المياه وملوحتها على ما اقتضته طوالع كل بلد من البروج على أفقه وممر الكواكب على مسامتة البقاع من الارض ومطارح شعاعاتها على المواضع كما هو مقرر فى مواضعه من كتب الحكمة ليتدبر أولو النهي ويعتبر ذوو الحجي بتدبير الله في خلقه وتقديره لما يشاء وفعله لما يريد لا اله الا هو ومع ذلك فان الربع المسكون من الارض على تفاوت أقطاره مقسوم بين سبع أمم كبار وهم الصين والهند والسودان والبربر والروم والترك والفرس فجنوب مشرق الارض فى يد الصين وشماله فى يد الترك ووسط جنوب الارض في يد الهند وفى وسط شمال الارض الروم وفي جنوب مغرب الارض السودان وفي شمال مغرب الارض البربر وكانت الفرس في وسط هذه الممالك قد أحاطت بهم الأمم الست

ذكر محل مصر من الارض وموضعها من الاقسام السبعة

واذ يسر الله سبحانه بذكر جمل أحوال الارض ومعرفة ما في كل أقليم من أقاليم الارض فلنذكر محل مصر من ذلك فنقول ديار مصر بعضها واقع في الاقليم الثانى وبعضها واقع في الاقليم الثالث فما كان منها في الصعيد الاعلى كقوص واخميم واسنى وأنصنا وأسوان فان ذلك واقع في أقسام الاقليم الثانى وما كان من ديار مصر في جهة الشمال من انصنا وهو الصعيد الادنى من سيوط الى فسطاط مصر والفيوم والقاهرة والاسكندرية والفرما وتنيس ودمياط فان ذلك من أقسام الاقاليم الثالث وطول مدينة مصر الفسطاط والقاهرة وهو بعدها من أول العمارة في جهة المغرب خمس وخمسون درجة والعرض وهو البعد من خط الاستواء ثلاثون درجة وطول النهار الاطول أربع عشرة ساعة وغاية

ارتفاع الشمس فى الفلك بها ثلاث وثمانون درجة وثلث وربع درجة وفسطاط مصر مع القاهرة من مكة شرفها الله تعالى واقعان فى الربع الجنوبى الشرقي والصعيد الاعلى أشد تشريقاً لبعده عن مدينة الفسطاط بأيام عديدة فى جهة الجنوب فيكون على ذلك مقابلا لمكة من غربيها ومصر لا يتوصل اليها الا من مفازة ففى شرقيها بحر القلزم من وراء الجبل الشرقي وفى غربيها صحراء المغرب وفى جنوبها مفازة النوبة والحبشة وفي شمالها البحر الشامي والرمال التي فيما بين بحر الروم وبحر القلزم وبين مصر وبغداد على ما ذكره ابن جرداديه في كتاب الممالك والمسالك ألف وسبعمائة وعشرة أميال يكون خمسمائة وسبعين فرسخاو مائة وبضعا وأربعين بريدا وبين مصر والشام أعنى دمشق ثلاثمائة وخمسة وستون ميلا تكون من الفراسخ مائة واحدى وعشرين فرسخا وثلثي فرسخ عنها ثلاثون بريدا وكسر وقال ابن جرداديه أرض الحبشة والسودان مسيرة سبع سنين وأرض مصر جزء واحد من ستين جزأ من أرض السودان وأرض السودان جزء واحد من الارض كلها وفي كتاب هردوشيش بلد مصر الادنى شرقه فلسطين وغربه أرض ليبسه وأرض مصر الاعلى تمتد الى ناحية الشرق وحده فى الشمال خليج الغرب وفي الجنوب البحر المحيط وفى الغرب مصر الادنى وفى الشرق بحر القلزم وفيه من الاجناس ثمانية وعشرون جنسا

ذكر حدود مصر وجهاتها

اعلم أن التحديد هو صفة المحدود على ماهو عليه والحد هو نهاية الشيء والحدود تكثر وتقل بحسب المحدود والجهات التى تحد بها المساكن والبقاع أربع جهات وهى جهة الشمال التى هي اشارة الى موضع قطب الفلك الشمالي المعروف من كواكبه الجدى والفرقدان ويقابل جهة الشمال الجهة الجنوبية والجنوب عبارة عن موضع قطب الفلك الجنوبى الذى يقرب منه سهيل وما يتبعه من كواكب السفينة والجهة الثالثة جهة المشرق وهو مشرق الشمس فى الاعتدالين اللذين هما رأس الحمل أول فصل الربيع ورأس الميزان أول فصل الخريف والجهة الرابعة جهة المغرب وهو مغرب الشمس فى الاعتدالين المذكورين فهذه الجهات الاربع ثابتة بثبوت الفلك غير متغيرة بتغيز الاوقات وبها تحد الاراضي ونحوها من المساكن وبها يهتدي الناس فى أسفارهم وبها يستخرجون سمت محاريبهم فالمشرق والمغرب معروفان والشمال والجنوب جهتان مقاطعتان لجهتي المشرق والمغرب على تربيع الفلك فالخط المار بنقطتي الشمال والجنوب يسمى خط نصف النهار وهو مقاطع للخط المار بنقطتي المشرق والمغرب المسمي بخط الاستواء على زوايا قائمة وأبعاد مابين هذين الخطين متساوية فالمستقبل للجنوب يكون أبدا مستدبرا للشمال ويصير المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره وهذه الجهات الاربع هى التي ينسب اليها مايحد من البلاد والاراضى والدور الا أن أهل

مصر يستعملون في تحديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية فيقولون الحد القبلى ينتهي الى كذا ولا يقولون الحد الجنوبى وكذلك يقولون الحد البحرى ينتهي الى كذا ويريدون بالبحرى الحد الشمالى وقد يقع في هاتين الجهتين الغلط فى بعض البلاد وذلك أن البلاد التي توافق عروضها عرض مكة اذا كانت أطوالها أقل من طول مكة فان القبلة تكون فى هذه البلاد نفس الشرق بخلاف التي توافق عروضها عرض مكة الا أن أطوالها أطول من طول مكة فان القبلة في هذه البلاد تكون نفس الغرب فمن حدّد في شئ من هذه البلاد أرضاً أو مسكناً بحدود أربعة فانه يصير حدان منها حدًّا واحدا وكذلك جهة البحر لما جعلوها قبالة جهة القبلة وحددوا ما بينهما من الاراضى والدور بما يسامتها منه فانهم أيضا ربما غلطوا وذلك أن القبلة والبحر يكونان في بعض البلاد في جهة واحدة فاذا عرفت ذلك فاعلم أن أرض مصر لها حدّ يأخذ من بحر الروم من الاسكندرية وزعم قوم من برقة في البر حتي ينتهى الى ظهر الواحات ويمتد الى بلد النوبة ثم يعطف على حدود النوبه في حد أسوان على حد أرض السبخة فى قبلى أسوان حتي ينتهي الى بحر القلزم ثم يمتد على بحر القلزم ويجاوز القلزم الى طورسينا ويعطف على تيه بني اسرائيل مارا الى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورح ويرجع الى الساحل مارا على بحر الروم الى الاسكندرية ويتصل بالحد الذى قدّمت ذكره من نواحي برقة وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز في رسالته المصرية أرض مصر باسرها واقعة في المعمورة في قسمي الاقليم الثانى والاقليم الثالث ومعظمها فى الثالث وحكي المعتنون بأخبارها وتواريخها أن حدها في الطول من مدينة برقة التي فى جنوب البحر الرومي الى ايلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين ومسافة ذلك قريب من أربعين يوما وحدّها في العرض من مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الاعلى المتاخم لارض النوبة الى رشيد وما حاذاها من مساقط النيل في البحر الرومي ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوما ويكتنفها فى العرض الى منتهاها جبلان أحدهما في الضفة الشرقية من النيل وهو المقطم والآخر في الضفة الغربية منه والنيل متشرف فيما بينهما وهما جبلان أجردان غير شامخين يتقاربان جدا فى وضعهما من لدن اسوان الى أن ينتهيا الى الفسطاط ثم يتسع ما بينهما وينفرج قليلا ويأخذ المقطم منهما مشرّقا والآخر مغرّبا على وراب فى مأخذيهما وتفريج في مسلكيهما فتتسع أرض مصر من الفسطاط الى ساحل البحر الرومي الذى عليه الفرماء وتنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية فهناك تنقطع في عرضها الذى هو مسافة ما بين أوغلها في الجنوب واوغلها في الشمال واذا نظرنا بالطريق البرهانية في مقدار هذه المسافة من الاميال لم تبلغ ثلاثين ميلا بل تنقص عنها نقصانا ماله قدر وذلك لان فضل ما بين عرض مدينة أسوان التي هى أوغلها فى الجنوب وعرض مدينة تنيس التي

هي أوغلها في الشمال تسعة أجزاء ونحو سدس جزء وليس بين طوليها فضل له قدر يعتد به وبنوب ذلك نحو خمسمائة وعشرين ميلا بالقريب وذلك مسافة عشرين يوما أوقريب منها وفي هذه المدة من الزمان تقطع السفار ما بين البلدين بالسير المعتدل أو أكثر من ذلك لما في الطريق من التعويج وعدم الاستقامة وقال القضاعي الذي يقع عليه اسم مصر من العريش الى آخر لوبية ومراقية وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابلس وهي برقة ومن العريش فصاعدا يكون ذلك مسيرة أربعين ليلة وهو ساحل كله على البحر الرومي وهو بحريّ أرض مصر وهو مهب الشمال منها الى القبلة شيأ مّا فاذا بلغت آخر أرض مراقية عدت ذات الشمال واستقبلت الجنوب وتسير في الرمل وأنت متوجه الى القبلة يكون الرمل من مصبه عن يمينك الى أفريقة وعن يسارك من أرض مصر الى أرض الفيوم منها وأرض الواحات الأربعة فذلك غربي مصر وهو ما استقبلته منه ثم تعوج من آخر أرض الواحات وتستقبل المشرق سائرا الى النيل تسير ثماني مراحل الى النيل ثم على النيل فصاعدا وهي آخر أرض الاسلام هناك ويليها بلاد النوبة ثم ينقطع النيل فتأخذ من أسوان في المشرق منكبا عن بلد أسوان الى عيذاب ساحل البحر الحجازى فمن أسوان الى عيذاب خمس عشرة مرحلة وذلك كله قبلي أرض مصر ومهب الجنوب منها ثم ينقطع البحر الملح من عيذاب الى أرض الحجاز فينزل الحوراء أول أرض مصر وهي متصلة باعراض مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهـذا البحر المحدود هو بحر القلزم وهو داخل في أرض مصر بشرقيه وغربيه وبحريه فالشرقي منه أرض الحوراء وطنبه والنبك وأرض مدين وأرض ايلة فصاعدا الى المقطم بمصر والغربي منه ساحل عيذاب الى بحر النعام الى المقطم والبحرى منه مدينة القلزم وجبل الطور ومن القلزم الى الفرماء مسيرة يوم وليلة وهو الحاجز فيما بين البحرين بحر الحجاز وبحر الروم وهـذا كله شرقي أرض مصر من الحوراء الى العريش وهو مهب الصبا منها فهذا المحدود من أرض مصر وما كان بعد هذا من الحد الغربي فمن فتوح أهـل مصر وثغورهم من البرقة الى الاندلس

﴿ ذكر بحر القلزم ﴾

القلازم الدواهي والمضايقة ومنه بحر القلزم لانه مضيق بين جبال ولما كانت أرض مصر منحصرة بين بحرين هما بحر القلزم من شرقها وبحر الروم من شماليها وكان بحر القلزم داخلا في ارض مصر كما تقدم صار من شرط هذا الكتاب التعريف به فنقول هذا البحر انما عرف في ناحية ديار مصر بالقلزم لانه كان بساحله الغربيّ في شرقيّ أرض مصر مدينة تسمى القلزم وقد خربت كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى في موضعه من هذا الكتاب عند ذكرى قرى مصر ومدنها فسمي هـذا البحر باسم تلك المدينة وقيل له بحر القلزم على

الاضافة ويقال له بالعبرانية ثم تسوب وهذا البحر انما هو خليج يخرج من البحر الكبير المحيط بالأرض الذي يقال له بحر اقيانس ويعرف أيضا بحر الظلمات لتكاثف البخار المتصاعد منه وضعف الشمس عن حله فيغلظ وتشتد الظلمة ويعظم موج هذا البحر وتكثر اهواله ولم يوقف من خبره الا على ما عرف من بعض سواحله وما قرب من جزائره وفي جانب هذا البحر الغربي الذى يخرج منه البحر الرومي الآتي ذكره ان شاء الله الجزائر الخالدات وهى فيما يقال ست جزائر يسكنها قوم متوحشون وفي جانب هـذا البحر الشرقي مما يلى الصين ست جزائر أيضاً تعرف بجزائر السيلى نزلها بعض العلويين فى أول الاسلام خوفا على أنفسهم من القتل ويخرج من هذا المحيط ستة أبحر أعظمها اثنان وهما اللذان عناهما الله تعالى بقوله مرج البحرين يلتقيان وقوله وجعل بين البحرين حاجزا فأحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الغرب فالخارج من جهة الشرق يقال له البحر الصيني والبحر الهندي والبحر الفارسى والبحر اليمني والبحر الحبشي بحسب ما يمر عليـه من البلدان وأما الخارج من الغرب فيقال له البحر الرومي فأما البحر الهندى الخارج من جهة الشرق فان مبدأ خروجه من مشرق الصين وراء خط الاستواء بثلاثة عشر درجة ويجرى الى ناحية الغرب فيمر على بلاد الصين وبلاد الهند الى مـدينة كنبانه والى التعير من بلاد كمران فاذا صار الى بلاد كمران ينقسم هناك قسمين أحدهما يسمى بحر فارس والآخر يسمى بحر اليمن فيخرج بحر اليمن من ركن جبل خارج في البحر يسمى هذا الركن رأس الجمجمة فيمتد من هناك الى مـدينة ظفار ويسير الى المسجر وساحل بلاد حضرموت الى عـدن والى باب المندب وطول هـذا البحر الهندي ثمانية آلاف ميل في عرض ألف وسبعمائة ميل عنـد بعض المواضع وربما ضاق عن هذا القدر من العرض فاذا انتهى الى باب المندب يخرج الى بحر القلزم والمندب جبل طوله اثناعشر ميلا وسعة فوهته قدر ما يرى الرجل الآخر من البر تجاهه فاذا فارق باب المندب مر فى جهة الشمال بساحلى زبيد والحرون الى عثر وكانت عثر مقر الملك فى القديم ويمر من هناك على حلى الى عسفان وأثمار وهى فرضة المدينة النبوية على الحالّ بها أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام ومنها على ما يقابل الجحفة حيث يسمي اليوم رابع الي الحوراء ومدين وايلة والطور وفاران ومدينة القلزم فاذا وصـل الي القلزم انعطف من جهة الجنوب ومر الي القصير وهى فرضة قوص ومن القصير الى عيذاب وهي فرضة النحية ويمتد من عيذاب الى بلد الزيلع وهو ساحل بلاد الحبشة ويتصل ببربر وطول هـذا البحر ألف وخمسمائة ميل وعرضه من أربعمائة ميل الي مادونها وهو بحر كريه المنظر والرائحة وفي هذا البحر مصب دجلة والفرات وعلى أطرافه بلاد السند وبلاد اليمن كانها جزائر أحاط بها الماء من جهاتها الثلاث وهو نهر يردع مهران كردع البحر

الرومي لنيل مصر وفيه فيما بين مدينة القلزم ومدينة ايلة مكان يعرف بمدينة فاران وعندها جبل لا يكاد يجو منه مركب لشدة اختلاف الريح وقوة ممرها من بين شعبتي جبلين وهي بركة سعتها ستة أميال تعرف ببركة الغرندل يقال ان فرعون غرق فيها فاذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة ويقال أن الغرندل اسم صنم كان في القديم هناك قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضبا للملك أوفارا منه وأن موسى عليه السلام لما خرج ببنى اسرائيل من مصر وسار بهم مشرقا أمره الله سبحانه وتعالى أن ينزل تجاه هذا الصنم فلما بلغ ذلك فرعون ظن أن الصنم قد حبس موسى ومن معه ومنعهم من المسير كما يعهدونه منه فخرج بجنوده في طلب موسى وقومه ليأخذهم بزعمه فكان من غرقه ما قصه الله تعالى وسيرد خبر موسى عليه السلام عند ذكر كنيسة دموه من هذا الكتاب في ذكر كنائس اليهود وفي بحر القلزم هذا خمس عشرة جزيرة منها أربع عامرات وهي جزيرة دهلك وجزيرة سواكن وجزيرة النعمان وجزيرة السامري ويخرج من هذا البحر خليجان خليج لطيف ببلاد الهند المتصلة بالبحر الاعظم وخليج يحول بين بلاد السودان وبلاد اليمن عرض دقاقه نحو من فرسخين ويقرب هذا البحر من البحر الرومي في أعمال بلاد الشام وديار مصر حتي يكون بينهما نحو يوم

ذكر البحر الرومي

ولما كانت عدة بلاد من أرض مصر مطلة على البحر الرومي كمدينة الاسكندرية ودمياط وتيس والفرماء والعريش وغير ذلك وكان حد أرض مصر ينتهي في الجهة الشمالية الى هذا البحر وهو نهاية مصب النيل حسن التعريف بشيء من أخباره وقد تقدم أن مخرج البحر الرومي هذا من جهة الغرب وهو يخرج في الاقليم الرابع بين الاندلس والغرب سائرا الى القسطنطينية ويقال أن اسكندر الجبار حفره وأجراه من البحر المحيط الغربي وأن جزيرة الاندلس وبلاد البربر كانت أرضاً واحدة يسكنها البربر والاشبان فكان بعضهم يغير على بعض الي أن ملك اسكندر الجبار ابن سلقوس بن اعريقس بن دوبان فرغب اليه الاشبان في أن يجعل بينهم وبين البربر خليجا من البحر يمكن به احتراز كل طائفه عن الاخرى فحفر زقاقا طوله ثمانية عشر ميلا في عرض اثني عشر ميلا وبنى بجانبيه سكرين وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها وجعل عندها حرسا يمنعون البربر من الجواز عليها الا باذن وكان قاموس البحر أعلى من أرض هذا الزقاق فطما الماء حتى غطى السكرين مع القنطرة وساق بين يديه بلادا كثيرة وطغى على عدة بلاد ويقال أن المسافرين في هذا الزقاق بالبحر يخبرون أن المراكب في بعض الاوقات يتوقف سيرها مع وجود الريح فيجدون المانع لها كونها قد سلكت بين شرافات السور وبين حائطين ثم عظم هذا الزقاق في الطول والعرض

حتى صار بحرا عرضه ثمانية عشر ميلا ويذكرون أن البحر اذا جزر ترى القنطرة حينئذ
وهذا الخبر أظنه غير صحيح فان أخبار هذا البحر وكونه بسواحل مصر لم يزل ذكره في
الدهر الاول قبل اسكندر بزمان طويل فاما أن يكون ذلك قد كان فى أول الدهر مما عمله
بعض الاوائل واما أن يكون خبرا واهيا والا فزمان اسكندر حادث بعد كون هذا البحر
والله أعلم * وهذا الزقاق صعب السلوك شديد الهول متلاطم الامواج واذا خرج البحر من
هذا الزقاق مر مشرقا في بلاد البربر وشمال الغرب الاقصى الى وسط بلاد المغرب على
افريقة وبرقة والاسكندرية وشمال التيه وأرض فلسطين والسواحل من بلاد الشام ثم
يعطف من هناك الى العلايا وانطاكية الى ظهر بلاد القسطنطينية حتى ينتهى الى البحر
المحيط الذى خرج منه وطول هذا البحر خمسة آلاف ميل وقيل ستة آلاف ميل وعرضه
من سبعمائة ميل الى ثلاثمائة ميل وفيه مائة وسبعون جزيرة عامرة فيها أمم كثيرة معروفة
الا أنه ليس من شرط هذا الكتاب منها صقلية وصورقه واقريطش وقبالة البحر الهندى
من جهة المغرب بحر خارج من المحيط في مغرب بلاد الزنج ينتهى الى قريب من جبل القمر
وفيه مصب النيل المار على بلاد الحبشة وفى أسفله جزائر الخالدات التي هي منتهى الطول
في المغرب ويقابل البحر الشامى من ناحية المشرق بحر جرجان وقيل انه يتصل بالبحر
المحيط من بين جبال شامخة وبحر الصقلب بحر يخرج من جهة المغرب بين الاقليم السادس
والاقليم السابع وهو متسع وفيه جزائر كثيرة ومنها جزيرة الاندلس الا أنها تتصل
بالبر الكبير وهو جبل كالذراع يتصل بهذا البر عند برسلونه ولهم بحر يعرف يأجوج
ومأجوج غزير وفيه عجائب الا انه ليس من شرط هذا الكتاب ذكرها ويقال ان
مسافة هذا البر الرومى نحو أربعة أشهر وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيروتى في كتاب
تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن وقد كان حرض بعض ملوك الفرس في
بعض استيلائهم على مصر على أن يحفروا ما بين البحرين القلزم والرومى ويرفعوا من
بينهما البرزخ وكان أولهم شاسيس بن طراطس الملك ثم من بعده دارنوش الملك فلم يتمكن
لهم ذلك لارتفاع ماء القلزم على أرض مصر فلما كانت دولة اليونانيين جاء بطليموس
الثالث ففعل ذلك على يد أرسمدس بحيث يحصل الغرض بلا ضرر فلما كانت دولة الروم
القياصرة طموه منعا لمن يصل اليهم من أعدائهم وذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة
أن ما بين الاسكندرية وبلادها وبين القسطنطينية كان فى قديم الزمان أرضا تنبت الجميز
وكانت مسكونة وخمة وكان أهلها من اليونانية وأن الاسكندر خرق اليها البحر فغلب على
تلك الارض وكان بها فيما يزعمون الطائر الذى يقال له ققنس وهو طائر حسن الصوت واذا
حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لانه يغلب

على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع وأنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح وزعموا أن عامل الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت ققنس في تلك الحال فخشى ان هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسد أذنيه سدا محكما ثم قرب اليه فجعل يفتح من أذنيه شيأ بعد شيء حتى استكمل فتح الاذنين فى ثلاثة أيام يريد أن يتوصل الى سماعه رتبة بعد رتبة فلا يبغته حسنه في أول مرة فيأتي عليه وزعموا أن ذلك الطائر هلك ولم يبق منه ولا من فراخه شيء بسبب هجوم ماء البحر عليه وعلى رهطه بالليل فى الاوكار فلم يبق له بقية ويقال ان بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فأعطاه قدحا فيه سم ليشربه فأعلمه بذلك فظهر منه مسرة وفرح فقال له ما هذا أيها الحكيم فقال هل أعجز أن أكون مثل ققنس

ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعداد أسمائها

ويقال كان اسمها فى الدهر الاول قبل الطوفان جزله ثم سميت مصر وقد اختلف أهل العلم في المعنى الذى من أجله سميت هذه الارض بمصر فقال قوم سميت بمصر بن مركابيل ابن دوابيل بن عرياب بن آدم وهو مصر الاول وقيل بل سميت بمصر الثانى وهو مصرام بن يعراوش الجبار بن مصريم الاول وبه سمى مصر بن بنصر بن حام بعد الطوفان وقيل بل سميت بمصر الثالث وهو مصر بن بنصر بن حام بن نوح وهو اسم أعجمي لا ينصرف وقال آخرون هى اسم عربى مشتق فأما من ذهب الى أن مصر اسم أعجمى فانه استدل بما رواه أهل العلم بالاخبار من نزول مصر بن بنصر بهذه الارض وقسمها بين أولاده فعرفت به اه وذكر الحسن بن أحمد الهمدانى أن مصر بن حام وهو مصريم وقيل أن بنصر بن هرمس ابن هردوس جد الاسكندر قال ونكح لوما بن حام بنت شاويل بن يافث بن نوح فولدت له بوقير وقبط أبا القبط قبط مصر ومن ههنا أن مصر بن حام وانما هو مصر بن هرمس بن هردش بن بيطون بن روى بن ليطى بن يونان وبه سميت مصر فهى معدونية وذكر أبو الحسن المسعودى في كتاب أخبار الزمان أن بني آدم لما تحاسدوا وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم ركب بقراوس الجبار بن مصريم بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام فى نيف وسبعين راكبا من بني عرياب جبابرة كلهم يطلبون موضعا من الارض يقطنون فيه فرارا من بنى أبيهم فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا الى النيل فأطالوا المشى عليه فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه أعجبهم وقالوا هذه بلد زرع وعمارة فأقطنوا فيه واستوطنوا وبنوا فيه الابنية المحكمة والصنائع العجيبة وبني نقراوس مصر وسماها باسم ابيه مصريم وكان نقراوس جبارا له قوة وكان مع ذلك عالما وله ائتمر الجن في هلاك بني ابيه ولم يزل مطاعا وقد كان وقع اليه من العلوم التى كان زواميل علمها لآدم عليه السلام ما قهر به الجبابرة الذين كانوا قبله

وملوكهم ثم امر حين ملك ببناء مدينة في موضع خيمته فقطعوا له الصخور من الجبال
وأثاروا معادن الرصاص وبنوا مدينة سماها امسوس وأقاموا فيها أعلاما طول كل علم منها
مائة ذراع وزرعوا وعمروا الارض ثم امرهم ببناء المدائن والقرى وأسكن كل ناحية
من الارض من رأى ثم حفروا النيل حتى أجروا ماءه اليهم ولم يكن قبل ذلك معتدل
الجرى انما كان ينطبح ويتفرّق في الارض حتى يتوجه الى النوبة فهندسوه وساقوا منه
انهارا الى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها وساقوا منه نهرا الى مدينتهم امسوس يجرى
فى وسطها ثم سميت مصر بعد الطوفان بمصر بن بنصر بن حام بن نوح وذلك أن قليمون
الكاهن خرج من مصر ولحق بنوح عليه السلام وآمن به هو وأهله وولده وتلامذته
وركب معه في السفينة وزوج ابنته من بنصر بن حام بن نوح فلما خرج نوح من السفينة
وقسم الارض بين اولاده وكانت ابنته قليمون قد ولدت لبنصر ولدا سماه مصرايم فقال قليمون
لنوح ابعث معي يانبيّ الله ابني حتى أمضى به بلدى وأظهره على كنوزى وأوقفه على علومه
ورموزه فأنفذه معه في جماعة من أهل بيته وكان غلاما مرفها فلما قرب من مصر بني له
عريشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الارض ثم بني له بعد ذلك في هذا الموضع مدينة
وسماها درسان أى باب الجنة فزرعوا وغرسوا الاشجار والا جنة من درسان الى البحر
فصارت هناك زروع وأجنة وعمارة وكان الذى مع مصرايم جبابرة فقطعوا الصخور وبنوا
المعالم والمصانع وأقاموا في أرغد عيش ويقال ان اهل مصر أقاموا عليهم مصرايم بن بنصر
ملكا في ايام تالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح فملك مصر وهى مدينة
منيعة على النيل وسماها باسمه ويقال ان مصرايم غرس الاشجار بيده وكانت ثمارها
عظيمة بحيث يشق الا ترجة نصفين فيحمل على البعير نصفها وكان القثاء فى طول أربعة عشر
شبرا ويقال انه أوّل من صنع السفن بالنيل وان أوّل سفينة كانت ثلثمائة ذراع طولا فى عرض
مائة ذراع ويقال أن مصرايم نكح امرأة من بني الكهنة فولدت له ولدا فسماه قبطيم ونكح
قبطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر قبطيم واشمون وأتريب وصا فكثروا
وعمروا الارض وبورك لهم فيها وقيل أنه كان عدد من وصل معهم ثلاثين رجلا فبنوا
مدينة سموها نافة ومعنى نافة ثلاثون بلغتهم وهى منف وكشف اصحاب قليمون الكاهن
عن كنوز مصر وعلومهم وأثاروا المعادن وعلموهم علم الطلسمات ووضعوا لهم علم الصنعة
وبنوا على غير البحر مدنا منها رقودة مكان الاسكندرية ولما حضر مصرايم الوفاة عهد الى
ابنه قبطيم وكان قد قسم ارض مصر بين بنيه فجعل لقبطيم من قفط الى اسوان ولا شمون
من اشمون الى منف ولا تريب الحوف كله ولصا من ناحية صا البحرية الى قرب برقة
وقال لاخيه فارق لك من برقة الى الغرب فهو صاحب افريقة واولاد الافارق وأمر كل

واحد من بنيه أن يبني لنفسه مدينة في موضعه وأمرهم عند موته أن يحفروا له في الارض سربا وان يفرشوه بالمرمر الابيض ويجعلوا فيه جسده ويدفنوا معه جميع ما في خزائنه من الذهب والجوهر ويزبروا عليه اسماء الله تعالى المانعة من أخذه فحفروا له سربا طوله مائة وخمسون ذراعا وجعلوا في وسطه مجلسا مصفحا بصفائح الذهب وجعلوا اربعة ابواب على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصع بالجوهر وهو جالس على كرسي من ذهب قوائمه من زبرجد وزبروا في صدر كل تمثال آيات مانعة وجعلوا جسده في جمد مرمر مصفح بالذهب وزبروا على مجلسه مات مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان ولم يعبد الاصنام اذ لاهرم ولا سقام ولا حزن ولا اهتمام وحصنه باسماء الله العظام ولا يصل اليه الا ملك ولدته سبعة ملوك تدين بدين الملك الديان ويؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعي الى الايمان آخر الزمان وجعلوا معه في ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط وألف تمثال من الجوهر النفيس وألف برنية مملوءة من الدر الفاخر والصنعة الالهية والعقاقير والطلسمات العجيبة وسبائك الذهب وسقفوا ذلك بالصخور وهالوا فوقها الرمال بين جبلين وولى ابنه قبطيم الملك قال أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب التحائف أن عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود أخي عاد بن عامر بن شالخ بن أرفخشد ابن سام بن نوح عليه السلام واسم عبد شمس هذا عامر وعرف بعبد شمس لانه أول من عبد الشمس وقيل له أيضا سبا لانه أول من سبا وهو سبا الا كبر ابو حمير وكهلان ملك بعد أبيه يشجب بأرض اليمن جمع بني قحطان وبني هود عليه السلام وحثهم على الغزو ثم سار بهم الى أرض بابل ففتحها وقتل من كان بها من الثوار حتى بلغ أرض ارمينية وملك أرض بني يافث بن نوح وأراد أن يعبر من هناك الى الشام وأرض الجزيرة فقيل له ليس لك مجاز غير الرجوع في طريقك فبني قنطرة على البحر وجاز عليها الى الشام فأخذ تلك الاراضي الى الدرب ولم يكن خلف الدرب اذ ذاك أحد ثم نهض يريد بلاد العرب فنزل على النيل وجمع اهل مشورته وقال لهم اني رأيت أن أبني مصرا الى حدّ بين هذين البحرين يعني بحر الروم وبحر القلزم فيكون فاصلا بين الشرق والغرب فقالوا نعم الرأى أيها الملك فبنى مدينة سماها مصر وولى عليها ابنه بابليون ومضى الى بنى حام بن نوح وهم نزول في البراى الى يمونية ويعمونية القبط فاوقع بجميع تلك الطوائف وسبى ذراريهم كما فعل ببلاد الشرق فقيل له من أجل ذلك سبا ثم عاد الى مصر ومضى فيها الى الشام يريد الحجاز وأوصى ابنه بابليون عند رحيله اه

ألا قل لبابليون والقول حكمة * ملكت زمام الشرق والغرب فاجمل
وخذ لبني حام من الامر وسطه * فان صدفوا يوما عن الحق فاقبل

وان جنحوا بالقول للرفق طاعة * يريدون وجه الحق والعدل فاعدل
ولا تظهرن الرأى فى البأس يعبروا * عليك به واجمله ضربة فيصل
ولا تأخذن المال في غير حقه * وان جاء لا تدنيه نحوك وابذل
وداوى ذوى الاحقاد بالسيف انه * متى يلق منك العزم ذو الحقد يجمل
وجد لذوي الاحساب لينا وشدة * ولا تك جبارا عليهم وأجمل
وكن لسؤال الناس غوثا ورحمة * ومن يك ذا عرف من الناس يسأل
واياك والسفر القريب فانه * سيغنى بما يوليه في كل منهل

ثم عاد الى اليمن وبنى سد مارب وهو سد فيه سبعون نهرا ويصل اليه السيل من مسيرة ثلاثة اشهر في مثلها ثم مات عن خمسمائة سنة وقام من بعده ابنه حمير بن سبا فعتا بنو حام على بابليون وارادوا تخريب مصر فاستدعي أخاه حمير لينجده عليهم فقدم عليه مصر ومضي الى بلاد المغرب فأقام بها مائة عام يبنى المدائن ويتخذ المصانع فمات بابليون بن سبا بمصر وولى بعده ابنه امرىء القيس ببابليون ثم مات حمير بن سبا عن أربعمائة سنة وخمس وأربعين سنة منها فى الملك اربعمائة سنة وأقام من بعده ويل بن حمير ثم مات فقام من بعده ابنه سليميك ابن وائل الذى يقال له مقعقع الحمد وقد افترق ملك حمير فحارب الثوار وسار الى الشام فلقيه عمرو بن امرىء القيس بن بابليون بن سبا بالرملة وقد ملك بعد ابيه وقدم له هدية فأقره على مصر حتي قدم عليه ابراهيم الخليل عليه السلام ووهبه هاجر * وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في كتاب فتوح مصر وأخبارها عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال كان لنوح عليه السلام أربعة من الولد سام وحام ويافث ويحطون وأن نوحا رغب الى الله عز وجل وسأله أن يرزقه الاجابة في ولده وذريته حين تكاملوا بالنماء والبركة فوعده ذلك فنادى نوح ولده وهم نيام عند السحر فنادي ساما فأجابه يسعى وصاح سام فى ولده فلم يجبه أحد منهم الا ابنه أرفخشد فانطلق به معه حتى أتياه فوضع نوح يمينه على سام وشماله على أرفخشد بن سام وسأل الله عز وجل أن يبارك في سام أفضل البركة وأن يجعل الملك والنبوة في ولد أرفخشد ثم نادى حاما وتلفت يمينا وشمالا فلم يجبه ولم يقم اليه هو ولا أحد من ولده فدعا الله عز وجل نوح أن يجعل ولده أذلاء وأن يجعلهم عبيدا لولد سام وكان مصر ابن بنصر بن حام نائما الى جنب جده فلما سمع دعاء نوح على جده وولده قام يسعى الى نوح وقال ياجدى قد أجبتك اذ لم يجبك جدى ولا أحد من ولده فاجعل لى دعوة من دعائك ففرح نوح ووضع يده على رأسه وقال اللهم انه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته وأسكنه الارض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد التي نهرها أفضل أنهار الدنيا واجعل فيها أفضل البركات وسخر له ولولده الارض وذللها لهم وقوهم عليها ثم دعا ابنه يافث فلم يجبه أحد

من ولده فدعا الله عليهم أن يجعلهم شرار الخلق وعاش سام مباركا الي أن مات وعاش ابنه أرنخشد ابن سام مباركا حتى مات وكان الملك الذى يحبه الله والنبوة والبركة فى ولد أرنخشد بن سام وكان أكبر ولد حام كنعان بن حام وهو الذى حمل به فى الرجز في الفلك فدعا عليه نوح فخرج اسود وكان في ولده الملك والجبروت والجفاء وهو أبو السودان والحبش كلهم وابنه الثاني كوش بن حام وهو أبو السند والهند وابنه الثالث قوط بن حام وهو أبو البربر وابنه الاصغر الرابع بنصر ابن حام وهو أبو القبط كلهم فولد بنصر بن حام أربعة مصر بن بنصر وهو أكبرهم والذى دعاله نوح بما دعاله وفارق بن بنصر وماح بن بنصر وقيل ولد مصر أربعة قفط بن مصر وأشمن بن مصر واتريب بن مصر وصا ابن مصر وعن أبي لهيعة وعبد الله بن خالد أول من سكن مصر بنصر بن حام بن نوح عليه السلام بعد أن أغرق الله تعالى قومه وأول مدينة عمرت بمصر منف فسكنها بنصر بولده وهم ثلاثون نفسا منهم أربعة اولاد له قد بلغوا وتزوجوا وهم مصر وفارق وباح وماح وكان مصر أكبرهم فبنوا مصر وكان اقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم ونقروا هناك منازل كثيرة وكان نوح عليه السلام قد دعا لمصر أن يسكنه الله الارض الطيبة المباركة التي هى أمّ البلاد وغوث العباد ونهرها افضل الانهار ويجعل له فيها افضل البركات ويسخر له الارض ولولده ويذللها لهم ويقويهم عليها فسأله عنها فوصفها له وأخبره بها قالوا وكان مصر بن بنصر مع نوح فى السفينة لما دعا له وكان بنصر بن حام قد كبر وضعف فساق ولده مصر وجميع اخوته الي مصر فنزلوها وبذلك سميت مصر فلما قر قرار بنصر وبنيه بمصر قال لمصر اخوته فارق وماح وباح بنو بنصر قد علمنا أنك أكبرنا وأفضلنا وأن هذه الارض التى اسكنك اياها جدك نوح ونحن نضيق عليك أرضك وذلك حين كثر ولده وأولادهم ونحن نطلب اليك البركة التى جعلها فيك جدنا نوح أن تبارك لنا فى أرض نلحق بها ونسكنها وتكون لنا ولاولادنا فقال نعم عليكم بأقرب البلاد الى ولا تباعدوا منى فان لى في بلادى مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسي فتكون لى ولولدى ولاولادهم فحاز مصر بن بنصر لنفسه مابين الشجرتين التي بالعريش الى اسوان طولا ومن برقة الى ايلة عرضاً وحاز فارقا لنفسه ما بين برقة الى أفريقية وكان ولده الافارقة ولذلك سميت افريقية وذلك مسيرة شهر وحاز ماح ما بين الشجرتين من منتهي حد مصر الى الجزيرة مسيرة شهر وهو أبو قبط الشام وحاز باح ماوراء الجزيرة كلها مابين البحر الى الشرق مسيرة شهر وهو أبو قبط العراق ثم توفى بنصر بن حام ودفن في موضع دير ابي هرميس غربي الاهرام فهى أول مقبرة قبر فيها بأرض مصر وكثر أولاد مصر وكان الاكابر منهم قفط واتريب واشمن وصا والقبط من ولد مصر هذا ويقال أن قبط أخو قفط وهو بلسانهم قفطيم وقبطيم ومصرايم قال ثم ان بنصر بن حام توفى واستخلف

ابنه مصر وحاز كل واحد من اخوة مصر قطعة من الارض لنفسه سوى ارض مصر التي حازها لنفسه ولولده فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم قطع مصر لكل واحد من ولده قطيعة يحوزها لنفسه ولولده وقسم لهم هذا النيل فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها وبه سميت قفط قفطا وما فوقها الى اسوان وما دونها الى اشمون فى الشرق والغرب وقطع لاشمن من اشمون فما دونها الى منف فى الشرق والغرب فسكن اشمن اشمون فسميت به وقطع لاتريب ما بين منف الى صا فسكن اتريبا فسميت به وقطع لصا ما بين صا الى البحر فسكن صا فسميت به فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء جزأين بالصعيد وجزأين بأسفل الارض قال البكري ومصر مؤنثة قال تعالى أليس لي ملك مصر وقال ادخلوا مصر وقال عامر بن أبي واثلة الكناني لمعاوية أما عمرو بن العاص فأقطعته مصر وأما قوله سبحانه اهبطوا مصرا فانه أراد مصرا من الامصار وقرأ سليم الاعمش اهبطوا مصر وقال هي مصر التي عليها سليم بن على فلم يجرّها وقال القضاعى وكان بنصر بن حام قد كبر وضعف فساقه ولده مصر وجميع اخوته الى مصر فنزلوها وبذلك سميت مصر وهو اسم لاينصرف في المعرفة لانه اسم مذكر سميت به هذه المدينة فاجتمع فيها التأنيث والتعريف فمنعاها الصرف ثم قيل لكل مدينة عظيمة يطرقها السفار مصر فاذا أريد مصر من الامصار صرف لزوال احدى العلتين وهى التعريف وأما قوله تعالى اخبارا عن موسى عليه السلام اهبطوا مصرا فانّ لكم ما سألتم فانه مصروف في قراءة سائر القراء وفي قراءة الحسن والاعمش غير مصروف فمن صرفها فله وجهان أحدهما انه اراد اهبطوا مصرا من الامصار لانهم كانوا يومئذ فى التيه والآخر أنه اراد مصر هذه بعينها وصرفها لانه جعل مصرا أسماء للبلد وهو مذكر اسم سمى به مذكر فلم يمنعه الصرف وأما من لم يصرفه فانه اراد بمصر هذه المدينة وكذلك قوله تعالى اخبارا عن يوسف عليه السلام أدخلوا مصر ان شاء الله آمنين وقول فرعون أليس لي ملك مصر انما يراد به مصر هذه فاما المصر في كلام العرب فهو الحدّ بين الارضين ويقال ان اهل هجر يقولون اشتريت الدار بمصورها أي بحدودها وقال الجاحظ في كتاب مدح مصر انما سميت مصر بمصر لمصير الناس اليها واجتماعهم بها كما سمى مصير الجوف مصيرا ومصر انا لمصير الطعام اليه قال وجمع المصر من البلدان أمصار وجمع مصير الطعام مصر ان وليس لمصر هذه جمع لانها واحدة قال وقال الاخطل هممت بالاسلام ثم توقفت عنه قيل ولم ذلك قال أتيت امرأة لى وانا جائع فقلت أطعميني شيئاً فقالت ياجارية ضعى لابي مالك مصيرا في النار ففعلت فاستعجلتها بالطعام فقالت ياجارية أين مصير أبي مالك قالت في النار قال فتطيرت وهممت بأن اسلم فتوقفت وقال الجوهري في كتاب الصحاح مصر هي المدينة المعروفة تذكر وتؤنث عن ابن السراج والمصر ان الكوفة والبصرة وقال

ابن خالويه في كتاب ليس أحد فسر لنا لم سميت مصر مقدونية قديما الا فى اللسان العبرانى قال مقدونية مغيث وانما سميت مصر لما سكنها بنصر بن حام وتزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعا وقف على الكنيسة العظمى التي بالقسطنطينية ويسمون بلاد مقدونية الاوصفية وهى عندهم الاسكندرية وما يضاف اليها وهي مصر كلها بأسرها الا الصعيد الاعلى ويقال لمصر ام خنور وتفسيره النعمة والمصر الفرق بين الشيئين قال الشاعر يصف الله تعالى

وجاعل الشمس مصرا لاخفاء به * بين النهار وبين الليل قد فصلا

هذا البيت قائله عدى بن زيد العبادي ويروى لامية بن الصلب الثقفى وهو من أبيات أولها

اسمع حديثا كما يوما تحدثه * عن ظهر غيب اذا ماسائل سألا
كيف بدا ثم ربالله نعمته * فيها وعلمنا آياته الأولا
كانت رياح وسيل ذو كرانية * وظلمة لم تدع فتقا ولا خللا
فامر الظلمة السوداء فانكشفت * وعزل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الارض بسطا ثم قدرها * تحت السماء سوا ميل وما نقلا
وجاعل الشمس مصرا لاخفاء به * بين النهار وبين الليل قد فصلا
وفي السماء مصابيح تضيء لنا * ما ان تكلفنا زيتا ولا فتلا
قضى لستة أيام من خليقته * وكان آخر شئ صور الرجلا
فاخذ الله من طين فصوره * لما رأى أنه قد تم واعتدلا
دعاه آدم صوتا فاستجاب له * فنفخ الروح في الجسم الذى جبلا
ثمة اورثه الفردوس يسكنها * وزوجه صلعة من جنبه جعلا
لم ينهه ربه عن غير واحدة * من شجر طيب ان شم او أكلا
وكانت الحية الرقشاء اذ خلقت * كما ترى ناقة فى الخلق أو جملا
فلامها الله اذ أطغت حليفته * طول الليالي ولم يجعل لها أجلا
تمشى على بطنها في الارض ماعمرت * والترب تاكله حزنا وان سهلا

وقال الحافظ أبو الخطاب مجد الدين عمر بن دحية ومصر أخصب بلاد الله وسماها الله بمصر وهي هذه دون غيرها باجماع القراء على ترك صرفها وهي اسم لاينصرف فى معرفة لانه اسم مذكر سميت به هذه المدينة واجتمع فيه التأنيث والتعريف فمنعاه الصرف وهي عندنا مشتقة من مصرت الشاة اذا اخذت من ضرعها اللبن فسميت مصر لكثرة مافيها من الخير مما ليس فى غيرها فلا يخلو ساكنها من خير يدر عليه منها كالشاة التي ينتفع بلبنها وصوفها وولادتها وقال ابن الاعرابي المصر الوعاء ويقال للمعا المصير وجمعه مصران ومصارين وكذلك هي خزائن الارض قال أبو نضرة الغفارى من اصحاب رسول الله صلى

الله عليه وسلم مصر خزائن الارض كلها ألا ترى الى قول يوسف عليه السلام اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم فأغاثه الله بمصر يومئذ وخزائنها كل حاضر وباد ذكره الحوفيّ فى تفسيره وقال البكرى أم خنور بفتح أوله وتشديد ثانيه وبالراء المهملة اسم لمصر وقال أرطاه بن شهبة قال ذبيان ذودوا عن دمائكم * ولا تكونوا كقوم أم خنور يقول لا تكونوا أذلاء ينالكم من اراد ويأخذ منكم من حب كما يمتار مصر وهي أم خنور قال كراع أم خنور النعمة ولذلك سميت مصر أم خنور لكثرة خيرها وقال على بن حمزة سميت أم خنور لأنها يساق اليها القصار الاعمار ويقال للضبع خنور وخنوز بالراء والزاى وقال ابن قتيبة فى غرائب الحديث ومصر الحد واهل هجر يكتبون في شروطهم اشترى فلان الدار بمصورها كلها أى بحدودها وقال عدى بن زيد

وجاعل الشمس مصرا لاخفاء به * بين النهار وبين الليل قد فصلا

أى حدّا

ذكر طرف من فضائل مصر

ولمصر فضائل كثيرة منها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة ايماء * قال تعالى اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم قال أبو محمد عبد الحق بن عطية في تفسيره وجمهور الناس يقرؤن مصرا بالتنوين وهو خط المصاحف الا ما حكى عن بعض مصاحف عثمان رضى الله عنه وقال مجاهد وغيره من صرفها أراد مصرا من الامصار غير معين واستدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه وقالت طائفة ممن صرفها أراد مصر فرعون بعينها واستدلوا بما في القرآن ان الله تعالى أورث بنى اسرائيل ديار فرعون وآثاره وأجازوا صرفها قال الاخفش لخفتها وشبهها بهند ودعد وسيبويه لا يجيز هذا وقال غير الاخفش أراد المكان فصرف وقرأ الحسن وابان بن ثعلب وغيرهما اهبطوا مصر بترك الصرف وكذلك هى في مصحف أبي بن كعب وقال هى مصر فرعون قال الاعمش هى مصر التي عليها صالح بن على وقال أشهب قال لى مالك هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون قال تعالى ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن فرقد الشيخي قال خرج يوسف عليه السلام يتلقى يعقوب عليه السلام وركب أهل مصر مع يوسف وكانوا يعظمونه فلما دنا أحدهما من صاحبه وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على رجل من ولده يقال له يهوذا فنظر يعقوب الى الخيل والى الناس فقال يايهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه قال يعقوب عليه السلام عليك ياذاهب الاحزان عني * هكذا قال ياذاهب الاحزان عني وقال تعالى وأوحينا الى موسي وأخيه

أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة قال الطبرى عن ابن عباس وغيره كانت بنو اسرائيل تخاف فرعون فأمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلون فيها قال قتادة وذلك حين منعهم فرعون الصلاة فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وأن يوجهوا نحو القبلة وعن مجاهد بيوتكم قبلة قال نحو الكعبة حين خاف موسى ومن معه من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة فأمروا أن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرا وعن مجاهد في قوله أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً قال مصر الاسكندرية * وقال تعالى مخبرا عن فرعون انه قال أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون قال ابن عبد الحكم وأبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس وغيرهما عن أبى زهم السماعى انه قال فى قوله تعالى أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتي قال ولم يكن يومئذ في الارض ملك أعظم من ملك مصر وكان جميع أهل الارضين يحتاجون الى مصر وأما الانهار فكانت قناطر وجسورا بتقدير وتدبير حتى أن الماء يجرى من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا فهذا ما ذكره الله سبحانه في مصر من آي الكتاب العزيز بصريح الذكر (وأما) ماوقعت اليها الاشارة فيه من الآيات فعدة * قال تعالى ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق وقال تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين قال ابن عباس وسعيد بن المسيب ووهب بن منبه هي مصر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه هى الاسكندرية وقال تعالى فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم وقال تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين قال ابن يونس في قول الله سبحانه فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم قال أبو زهم كانت الجنات بحافتي النيل من أوله الي آخره من الجانبين ما بين أسوان الى رشيد وسبعة خلج خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج سردوس وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهى متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر الى آخرها مما يبلغه الماء وكان جميع أرض مصر كلها تروى يومئذ من ستة عشر ذراعا لما قد دبروا من قناطرها وجسورها قال والمقام الكريم المنابر كان بها ألف منبر وقال مجاهد وسعيد بن جبير المقام الكريم المنابر وقال قتادة ومقام كريم أى حسن ونعمة كانوا فيها فاكهين ناعمين قال أى والله أخرجه الله من جنانه وعيونه وزروعه حتى ورطه في البحر وقال سعيد ابن كثير بن عفير كنا بقبة الهواء عند المأمون لما قدم مصر فقال لنا ما أدري ما أعجب فرعون من مصر حيث يقول أليس لى ملك مصر فقلت أقول يا أمير المؤمنين فقال قل ياسعيد فقلت ان الذي ترى بقية مدمر لان الله عز وجل يقول ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون قال صدقت ثم أمسك وقال تعالى ونريد أن نمن على الذين

استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون
وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وقال تعالى مخبرا عن فرعون انه قال ياقوم لكم
الملك اليوم ظاهرين فى الارض وقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا
ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وقال تعالى مخبرا عن قوم فرعون
أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض يعني أرض مصر وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه
السلام انه قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ علم روى ابن يونس عن أبى نضرة
الغفارى رضى الله عنه قال مصر خزائن الارض كلها وسلطانها سلطان الارض كلها ألا ترى الى
قول يوسف عليه السلام لملك مصر اجعلني على خزائن الارض ففعل فاغيث بمصر وخزائنها
يومئذ كل حاضر وباد من جميع الارض وقال تعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ
منها حيث يشاء فكان ليوسف بسلطانه بمصر جميع سلطان الارض كلها لحاجتهم اليه والى
ما تحت يديه وقال تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام انه قال ربنا انك آتيت فرعون وملأه
زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على
قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وقال تعالى عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم
فى الارض فينظر كيف تعملون وقال تعالى وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه
انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الارض الفساد يعني أرض مصر وقال تعالي ان
فرعون علا في الارض يعنى أرض مصر وقال تعالي حكاية عن بعض اخوة يوسف عليه
السلام فلن أبرح الارض يعني أرض مصر وقال تعالى ان تريد الا أن تكون جبارا في
الارض يعني أرض مصر قال ابن عباس رضي الله عنهما سميت مصر بالارض كلها في عشرة
مواضع من القرآن فهذا ما يحضرني مما ذكرت فيه مصر من آي كتاب الله العزيز * وقد
جاء في فضل مصر أحاديث روى عبد الله بن لهيعة من حديث عمرو بن العاص أنه قال
حدثني عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا
فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الارض قال أبو
بكر رضى الله عنه ولم ذلك يا رسول الله قال لانهم في رباط الى يوم القيامة وعن عمرو بن
الحمق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكون فتنة أسلم الناس فيها أو خير الناس فيها
الجند العربى قال فلذلك قدمت عليكم مصر وعن تبيع بن عامر الكلاعي قال أقبلت من
الصائفة فلقيت أبا موسى الاشعرى رضى الله عنه فقال لي من أين أنت فقلت من أهل مصر
قال من الجند العربى فقلت نعم قال الجند الضعيف قال قلت أهو الضعيف قال نعم قال أما
انه ما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته اذهب الى معاذ بن جبل حتى يحدثك قال فذهبت
الى معاذ بن جبل فقال لي ما قال لك الشيخ فاخبرته فقال لي وأى شيء تذهب به الى بلادك

أحسن من هذا الحديث أكتبت فى أسفل ألواحك فلما رجعت الى معاذ أخبرنى أن بذلك أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى ابن وهب من حديث صفوان بن عسال قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فتح الله بابا للتوبة في الغرب عرضه سبعون عاما لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه وروى ابن لهيعة من حديث عمر بن العاص حدثني عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمة وروى ابن وهب قال أخبرني حرملة بن عمران النجيبي عن عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال سمعت أباذر رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما فاذا رأيتم رجلان يقتتلان في موضع لبنة فاخرجوا منها قال فمر بربيعة وعبد الرحمن ابنى شرحبيل يتنازعان فى موضع لبنة نخرج منها وفى رواية ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها فان لهم ذمة ورحما أو قال ذمة وصهرا الحديث ورواه مالك والليث وزاد فاستوصوا بالقبط خيرا أخرجه مسلم فى الصحيح عن أبى الطاهر عن ابن وهب قال ابن شهاب وكان يقال ان أم اسماعيل منهم قال الليث بن سعد قلت لابن شهاب ما رحمهم قال ان أم اسماعيل بن ابراهيم صلوات الله عليهما منهم وقال محمد بن اسحاق قلت للزهرى ما الرحم التي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كانت هاجر أم اسماعيل منهم وروي ابن لهيعة من حديث أبى سالم الجيشاني أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستكونون أجنادا وان خير أجنادكم أهل الغرب منكم فاتقوا الله فى القبط لا تأكلوهم أكل الخضر وعن مسلم بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال استوصوا بالقبط خيرا فانكم ستجدونهم نعم الاعوان على قتال العدو وعن يزيد بن أبي حبيب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته أن تخرج اليهود من جزيرة العرب وقال الله الله في قبط مصر فانكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله وروى ابن وهب عن موسى بن أيوب الغافقى عن رجل من الزند أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض فأغمى عليه ثم أفاق فقال استوصوا بالادم الجعد ثم أغمى عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك ثم أغمى عليه الثالثة فقال مثل ذلك فقال القوم لو سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الادم الجعد فافاق فسألوه فقال قبط مصر فانهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم قالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا يارسول الله قال يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة فالراضى بما يؤتى اليهم كالفاعل بهم والكاره لما يؤتى اليهم من الظلم

كالمتنزه عنهم وعن عمرو بن حريب وأبي عبد الرحمن الحلبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انكم ستقدمون على قوم جعد رؤسهم فاستوصوا بهم خيرا فانهم قوة لكم وبلاغ الى عدوكم باذن الله يعني قبط مصر وعن ابن لهيعة حدثني مولى عفرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله الله في أهل المدرة السوداء السحم الجعاد فان لهم نسبا وصهرا قال عمر مولى عفرة صهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى فيهم ونسبهم ان أم اسماعيل عليه السلام منهم قال ابن وهب فاخبرني ابن لهيعة أن أم اسماعيل هاجر من أم العرب قرية كانت أمام الفرما من مصر وقال مروان القصاص صاهر الى القبط من الانبياء ثلاثة ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام تسري هاجر ويوسف تزوج بنت صاحب عين شمس ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية وقال يزيد بن ابى حبيب قرية هاجر باق التي عندها أم دنين وقال هشام العرب تقول هاجر وآجر فيبدلون من الهاء الالف كما قالوا هراق الماء وأراق الماء ونحوه وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال الامصار سبعة * فالمدينة مصر والشأم مصر ومصر والجزيرة والبحرين والبصرة والكوفة وقال مكحول أول الارض خرابا أرمينة ثم مصر وقال عبد الله بن عمر و قبطة مصر أكرم الاعاجم كلها وأسمحهم يدا وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها وقال كعب الاحبار من أراد أن ينظر الى شبه الجنة فلينظر الى مصر اذا أخرفت وفي رواية اذا أزهرت (ومن فضائل مصر) أنه كان من أهلها السحرة وقد آمنوا جميعا فى ساعة واحدة ولا يعلم جماعة اسلمت فى ساعة واحدة أكثر من جماعة القبط وكانوا في قول يزيد بن أبي حبيب وغيره اثنى عشر ساحرا رؤساء تحت يد كل ساحر منهم عشرون عريفا تحت يد كل عريف منهم ألف من السحرة فكان جميع السحرة مائتي ألف وأربعين الفا ومائتين واثنين وخمسين انسانا بالرؤساء والعرفاء فلما عاينوا ما عاينوا أيقنوا أن ذلك من السماء وأن السحر لا يقوم لامر الله فخر الرؤساء الاثنا عشر عند ذلك سجدا فاتبعهم العرفاء واتبع العرفاء من بقي وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال تبيع كانوا من أصحاب موسى عليه السلام ولم يفتتن منهم احد مع من افتتن من بني اسرائيل في عبادة العجل قال تبيع ما آمن جماعة قط في ساعة واحدة مثل جماعة القبط وقال كعب الاحبار مثل قبط مصر كالغيضة كلما قطعت نبتت حتى يخرب الله عز وجل بهم وبصناعتهم جزائر الروم وقال عبد الله بن عمرو خلقت الدنيا على خمس صور على صورة الطير برأسه وصدره وجناحيه وذنبه فالرأس مكة والمدينة واليمن والصدر الشام ومصر والجناح الايمن العراق وخلف العراق امة يقال لها واق وخلف واق امة يقال لها واق واق وخلف ذلك من الامم مالا يعلمه الا الله عز وجل والجناح الايسر السند وخلف

السند الهند وخلف الهند امة يقال لها ناسك وخلف ناسك امة يقال لها منسك وخلف ذلك من الامم مالا يعلمه الا الله عز وجل والذنب من ذات الحمام الى مغرب الشمس وشر ما في الطير الذنب وقال الجاحظ الامصار عشرة *الصناعة بالبصرة *والفصاحة بالكوفة *والتخنيث ببغداد *والعي بالري *والجفا بنيسابور *والحسن بهراة *والطرمدة بسمرقند *والمروءة ببلخ والتجارة بمصر * والبخل بمرو الطرمدة كلام ليس له فعل وعن يحيي بن داخر الحافري أنه سمع عمر بن العاص يقول فى خطبته واعلموا انكم فى رباط الى يوم القيامة لمكث الاعداء حولكم ولاشراف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية وعن عبد الرحمن بن غنم الاشعرى أنه قدم من الشام الى عبد الله بن عمرو ابن العاص فقال ما أقدمك الى بلادنا قال كنت تحدثني أن مصر أسرع الارض خرابا ثم أراك قد اتخذت منها وبنيت فيها القصور واطمأننت فيها قال ان مصر قد أوفت خرابها حطمها البخت نصر فلم يدع فيها الا السباع والضباع فهي اليوم أطيب الارضين ترابا وأبعدها خرابا ولا يزال فيها بركة مادام في شئ من الارض بركة ويقال مصر متوسطة الدنيا قد سلمت من حر الاقليم الاول والثاني ومن برد الاقليم السادس والسابع ووقعت في الاقليم الثالث فطاب هواها وضعف حرها وخف بردها وسلم أهلها من مشاتى الاهواز * ومصايف عمان *وصواعق تهامة * ودماميل الجزيرة * وجرب اليمن * وطواعين الشام *وبرسام العراق * وعقارب عسكر مكرم * وطحال البحرين * وحمي خيبر * وأمنوا من غارات الترك *وجيوش الروم *وهجوم العرب *ومكايد الديلم *وسرايا القرامطة *ونزف الانهار *وقحط الامطار وبها ثمانون كورة مافيها كورة الا وبها طرائف وعجائب من أنواع البر والابنية والطعام والشراب والفاكهة وسائر ماتنتفع به الناس وتدخره الملوك يعرف بكل كورة وجهاتها وينسب كل لون الى كورة فصعيدها أرض حجازية حره حر العراق وينبت النخل والاراك والقرظ والدوم والعشر وأسفل أرضها شامي يمطر مطر الشأم وينبت ثمار الشأم من الكروم والزيتون واللوز والتين والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين ويقع به الثلج والبرد *وكورة الاسكندرية ولوبية ومراقية برارى وجبال وغياض تنبت الزيتون والاعناب وهى بلاد ابل وماشية وعسل ولبن وفى كل كورة من كور مصر مدينة في كل مدينة منها آثار كريمة من الابنية والصخور والرخام والعجائب وفي نيلها السفن التي تحمل السفينة الواحدة منها ما يحمله خمسمائة بعير وكل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة يؤيد ذلك قول الله سبحانه وتعالي وابعث فى المدائن حاشرين ويعمل بمصر معامل كالتنانير يعمل بها البيض بصنعة يوقد عليه فيحاكى نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة لبيضها ويخرج من تلك المعامل الفراريج وهى معظم دجاج مصر ولا يتم عمل هذا بغير مصر وقال عمر بن ميمون خرج موسى

عليه السلام ببني اسرائيل فلما أصبح فرعون أمر بشاة فأتى بها فأمر بها أن تذبح ثم قال لايفرغ من سلخها حتى يجتمع عندى خمسمائة ألف من القبط فاجتمعوا اليه فقال لهم فرعون ان هؤلاء لشرذمة قليلون وكان أصحاب موسى عليه السلام ستمائة ألف وسبعين ألفاً ووصف بعضهم مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء فأما اللؤلؤة البيضاء فان مصر في أشهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابى وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بها المياه من كل وجه فلا سبيل الى قرية من قراها الا في الزوارق • وأما المسكة السوداء فان في أشهر بابه وهاتور وكيهك ينكشف الماء عن الارض فتصير أرضا سوداء وفي هذه الاشهر تقع الزراعات وأما الزمردة الخضراء فان في أشهر طوبه وأمشير وبرمهات يكثر نبات الارض وربيعها فتصير خضراء كأنها زمردة • وأما السبيكة الحمراء فان في أشهر برمودة وبشنش وبؤنة يتورد العشب ويبلغ الزرع الحصاد فيكون كالسبيكة التي من الذهب منظرا ومنفعة * وسأل بعض الخلفاء الليث بن سعد عن الوقت الذى تطيب فيه مصر • فقال اذا غاض ماؤها وارتفع وباها وجف ثراها وأمكن مرعاها * وقال آخر نيلها عجب * وأرضها ذهب * وخيرها جلب * وملكها سلب * ومالها رغب *وفي أهلها صخب وطاعتهم رهب*وسلامهم شعب * وحربهم حرب * وهى لمن غلب * وقال آخر مصر من سادات القرى ورؤساء المدن * وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى فان لم يصبها وابل فطل هى مصر ان لم يصبها مطر أزكت وان أصابها مطر أضعفت قاله المسعودى في تاريخه ويقال لما خلق الله آدم عليه السلام مثل له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وبناءها وخرابها ومن يسكنها من الامم ومن يملكها من الملوك فلما رأى مصر أرضا سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تحدر فيه البركة ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا لايخلو من نظر الرب اليه بالرحمة فى سفحه أشجار مثمرة وفروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة فدعا آدم عليه السلام في النيل بالبركة ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك في نيلها وجبلها سبع مرات وقال يا أيها الجبل المرحوم سفحك جنة وتربتك مسكة يدفن فيها غراس الجنة أرض حافظة مطيعة رحيمة لاخلتك يامصر بركة ولا زال بك حفظ ولا زال منك ملك وعزيا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز ولك البر والثروة وسال نهرك عسلا كثر الله زرعك ودر ضرعك وزكى نباتك وعظمت بركتك وخصبت ولا زال فيك خير مالم تتجبرى وتتكبرى أو تخوني فاذا فعلت ذلك عداك شر ثم يغور خيرك فكان آدم أول من دعالها بالرحمة والخصب والرأفة والبركة * وعن ابن عباس أن نوحا عليه السلام دعا لمصر بن بيصر بن حام فقال اللهم انه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفى ذريته وأسكنه

الارض المباركة التي هى أم البلاد وغوث العباد التي نهرها أفضل أنهار الدنيا واجعل فيها أفضل البركات وسخر له ولولده الارض وذللها لهم وقوهم عليها * وقال كعب الاحبار لولا رغبتي فى بيت المقدس لما سكنت الا مصر فقيل له لم فقال لانها بلد معافاة من الفتن ومن أرادها بسوء أكبه الله على وجهه وهو بلد مبارك لاهله فيه وقال ابن وهب أخبرني يحيى ابن أيوب عن خالد بن يزيد عن ابن أبي هلال أن كعب الاحبار كان يقول انى لاحب مصر وأهلها لان مصر بلد معافاة وأهلها أصحاب عافية وهم بذلك مفارقون ويقال ان في بعض الكتب الالاهية مصر خزائن الارض كلها فمن أرادها بسوء قصمه الله تعالى * وقال عمرو ابن العاص ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة يعنى اذا جمع الخراج مع الامارة * وقال أحمد ابن مدبر تحتاج مصر الى ثمانية وعشرين ألف ألف فدان وانما يعمر منها الف الف فدان وقد كشفت أرض مصر فوجدت غامرها أضعاف عامرها ولو اشتغل السلطان بعمارتها لوفت له بخراج الدنيا وقال بعضهم ان خراج العراق لم يكن قط أوفر منه في ايام عمر بن عبد العزيز فانه بلغ الف الف درهم وسبعة عشر الف الف درهم ولم تكن مصر قط أقل من خراجها في ايام عمرو بن العاص وأنه بلغ اثنى عشر الف الف دينار وكانت الشامات باربعة عشر الف الف سوى الثغور * ومن فضائل مصر أنه ولد بها من الانبياء موسى وهارون ويوشع عليهم السلام ويقال ان عيسى بن مريم صلوات الله عليه أخذ على سفح الجبل المقطم وهو سائر الى الشام فالتفت الى أمّه وقال يا أمّاه هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويذكر أنه ولد فى قرية اهناس من نواحي صعيد مصر وانه كانت به نخلة يقال انها النخلة المذكورة فى القرآن بقوله سبحانه وتعالى وهزى اليك بجذع النخلة وهذا القول وهم فانه لاخلاف بين علماء الاحبار من أهل الكتاب ومن يعتمد عليه من علماء المسلمين أن عيسى صلوات الله عليه ولد بقرية بيت لحم من بيت المقدس ودخل مصر من الانبياء ابراهيم خليل الرحمن وقد ذكر خبر ذلك عند ذكر خليج القاهرة من هذا الكتاب ودخلها أيضا يعقوب ويوسف والاسباط وقد ذكر ذلك في خبر الفيوم ودخلها ارميا وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذى أثنى عليه الله جلّ جلاله فى القرآن ويقال انه ابن فرعون لصلبه وأظنه أنه غير صحيح وكان منها جلساء فرعون الذين أبان الله فضيلة عقلهم بحسن مشورتهم فى امر موسى وهارون عليهما السلام لما استشارهم فرعون فى امرهما فقال تعالى قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم وأين هذا من قول أصحاب النمرود فى ابراهيم صلوات الله عليه حيث أشاروا بقتله قال تعالى حكاية عنهم قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين * ومن أهل مصر امرأة فرعون التى مدحها الله

تعالى في كتابه العزيز بقوله وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ومن اهلها ماشطة بنت فرعون وآمنت بموسى عليه السلام فمشطها فرعون بامشاط الحديد كما يمشط الكتان وهى ثابتة على ايمانها بالله * وقال صاعد اللغوى فى كتاب طبقات الامم ان جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان انما صدرت عن هرمس الاول الساكن بصعيد مصر الاعلى وهو أول من تكلم فى الجواهر العلوية والحركات النجومية وهو أول من ابتنى الهياكل ومجد الله فيها وأول من نظر فى علم الطب وألف لاهل زمانه قصائد موزونة فى الاشياء الارضية والسماوية وقالوا انه اول من أنذر بالطوفان ورأى أن آفة سماوية تصيب الارض من الماء أو النار فخاف ذهاب العلم واندراس الصنائع فبني الاهرام والبرابى التي فى صعيد مصر الاعلى وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم فيها صفات العلوم حرصا على تخليدها لمن بعده وخيفة أن يذهب رسمها من العالم ٠ وهرمس هذا هو ادريس عليه السلام وقال أبو محمد الحسن بن اسماعيل بن الفرات في أخبار مصر أن الخضر جاز البحر مع موسى عليه السلام وكان مقدما عنده وكان بمصر من الحكماء جماعة ممن عمرت الدنيا بكلامهم وحكمهم وتدبيرهم وكان من علومهم علم الطب وعلم النجوم وعلم المساحة وعلم الهندسة وعلم الكيمياء وعلم الطلسمات ويقال كانت مصر في الزمن الاول يسير اليها طلاب العلوم لتزكو عقولهم وتجود أذهانهم ويتميز عندهم الذكاء وتدق الفطنة * ومن فضائل مصر أنها تميز أهل الحرمين وتوسع عليهم ومصر فرضة الدنيا يحمل خيرها الى ما سواها فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه الي الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلاد الروم والافرنج وسواحل الشام والثغور الى حدود العراق وثغر اسكندرية فرضة اقريطس وصقلية وبلاد المغرب ومن جهة الصعيد يحمل الي بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن وبمصر عدة من الثغور المعدة للرباط في سبيل الله تعالى وهي البرلس ورشيد والاسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والاشتوم والفرما والورادة والعريش وأسوان وقوص والواحات فيغزى من هذه الثغور الروم والفرنج والبربر والنوبة والحبشة والسودان وبمصر عدة مشاهد وكثير من المساجد وبها النيل والاهرام والبرابى والاديار والكنائس وأهلها يستغنون بها عن كل بلد حتى انه لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد وبمصر دهن البلسان الذى عظمت منفعته وصارت ملوك الارض تطلبه من مصر وتعتنى به وملوك النصرانية تترامي على طلبه والنصارى كافة تعتقد تعظيمه وترى أنه لا يتم تنصير نصرانى الا بوضع شيء من دهن البلسان في ماء المعمودية عند تغطيسه فيها وبها السقنقور ومنافعه لا تنكر وبها النمس والعرس

ولهما في أكل الثعابين فضيلة لا تنكر فقد قيل لولا العرس والنمس لما سكنت مصر من كثرة الثعابين وبها السمكة الرعادة ونفعها في البرء من الحمى اذا علقت على المحموم عجيب وبمصر حطب السنط ولا نظير له في معناه فلو وقد منه تحت قدر يوما كاملا لما بقى منه رماد وهو مع ذلك صلب الكسر سريع الاشتعال بطئ الخمود ويقال انه أبنوس غيرته بقعة مصر فصار أحمر وبها الافيون عصارة الخشخاش ولا يجهل منافعه الا جاهل وبها البنج وهو ثمر قدر اللوز الاخضر كان من محاسن مصر الا أنه انقطع قبل سنة سبعمائة من الهجرة وبها الاترج قال أبو داود صاحب السير في كتاب الزكاة شبرت قثاءة بمصر ثلاثة عشر شبرا ورأيت أترجة على بعير قطعتين وصيرت مثل عدلين قال المسعودى في التاريخ والاترج المدور حمل من أرض الهند بعد الثلاثمائة من سني الهجرة وزرع بعمان ثم نقل منها الى البصرة والعراق والشام حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية وفي انطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر وما كان يعهد ولا يعرف فعدمت منه الاراهج الحمراء الطيبة واللون الحسن الذي كان فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصية البلد وفي مصر معدن الزمرد ومعدن النفط والشب والبرام ومقاطع الرخام ويقال كان بمصر من المعادن ثلاثون معدنا وأهل مصر يأكلون صيد بحر الروم وصيد بحر اليمن طريا لان بين البحرين مسافة مابين مدينة القلزم والفرما وذلك يوم وليلة وهو الحاجز المذكور في القرآن قال تعالى (وجعل بين البحرين حاجزا) قيل هما بحر الروم وبحر القلزم وقال تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) قال بعض المفسرين البرزخ ما بين القلزم والفرما ومن محاسن مصر أنه يوجد بها فى كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول والمشموم دون ماعداه من بقية الشهور فيقال رطب توت ورمان بابه وموز هاتور وسمك كيهك وماء طوبه وخروف أمشير ولبن برمهات وورد برموده ونبق بشنس وتين بؤنه وعسل أبيب وعنب مسرى * ومنها أن صيفها خريف لكثرة فواكهه وشتاءها ربيع لما يكون بمصر حينئذ من القرظ والكتان • ومن محاسنها أن الذى ينقطع من الفواكه فى سائر البلدان أيام الشتاء يوجد حينئذ بمصر ومنها أن أهل مصر لا يحتاجون في حر الصيف الى استعمال الخيش والدخول في جوف الارض كما يعانيه أهل بغداد ولا يحتاجون في برد الشتاء الى لبس الفرو والاصطلاء بالنار الذى لا يستغنى عنه أهل الشام كما أنهم أيضا في الصيف غير محتاجين الى استعمال الثلج ويقال زبرجد مصر وقباطى مصر وحمير مصر وثعابين مصر ومنافعها في الدرياق جليلة • ومن فضائل مصر أن الرخامه التى في الحجر من الكعبة من مصر بعث بها محمد بن طريف مولى العباس بن محمد في سنة احدى وأربعين ومائتين مع رخامة أخرى خضراء هدية للحجر فجعلت احدى الرخامتين على

سطح مدر الكعبة وهما من أحسن الرخام في المسجد خضرة وكان المتولى عليهما عبد الله بن محمد بن داود ذرعها ذراع وثلاث أصابع قاله الفاكهى فى أخبار مكة * ومن فضائل مصر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى من أهلها وولد له صلى الله عليه وسلم من نساء مصر ولم يولد له ولد من غير نساء العرب الا من نساء مصر * قال ابن عبد الحكم لما كانت سنة ست من مهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية بعث الى الملوك فمضى حاطب بن أبي بلتعة بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى الى الاسكندرية وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر فركب البحر فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصبعيه فلما رآه أمر بالكتاب فقبض وأمر به فأوصل اليه فلما قرأ الكتاب قال مامنعه ان كان نبيا أن يدعو عليّ فيسلط عليّ فقال له حاطب ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل به ويفعل فوجم ساعة ثم استعادها فأعادها عليه حاطب فسكت فقال له حاطب انه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الاعلى فانتقم الله به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا تعتبر بك وان لك دينا لن تدعه الا لما هو خير منه وهو الاسلام الكافي الله به فقد ماسواه وما بشارة موسى بعيسي الا كبشارة عيسي بمحمد وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ولسنا نهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به * ثم قرأ الكتاب فاذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فلما قرأه أخذه فجعله في حق من عاج وختم عليه * وعن ابان بن صالح قال أرسل المقوقس الى حاطب ليلة وليس عنده أحد الا الترجمان فقال له ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها فاني أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك قلت لا تسألني عن شئ الا صدقتك قال الى م يدعو محمد قال الى أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتخلع ما سواه ويأمر بالصلاة قال فكم تصلون قال خمس صلوات في اليوم والليلة وصيام شهر رمضان وحج البيت والوفاء بالعهد وينهى عن أكل الميتة والدم قال من أتباعه قال الفتيان من قومه وغيرهم قال وهل يقبل قوله قال نعم قال صفه لى قال فوصفته بصفة من صفته ولم آت عليها قال قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها في عينيه حمرة قل ما تفارقه وبين كتفيه خاتم النبوة يركب الحمار ويلبس الشملة ويجتزي بالتمرات والكسر لا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم قلت هذه صفته قال أعلم قد كنت أن نبيا بقى وقد كنت أظن أن مخرجه الشام وهناك كانت تخرج الانبياء من

قبله فأراه قد خرج في أرض العرب في أرض جهد وبؤس والقبط لا تطاوعني في اتباعه
ولا أحب أن تعلم بمحاورتي اياك وسيظهر على البلاد ويترك أصحابه من بعده بساحتنا هذه
حتى يظهروا على ما ههنا وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفا فارجع الى صاحبك قال ثم
دعا كاتبا يكتب بالعربية فكتب « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام أما
بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو اليه وقد علمت أن نبيا قد بقي وقد
كنت أظن أن نبيا يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان
في القبط عظيم وبكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام » * وعن عبد الرحمن بن عبد
القاري قال لما مضى حاطب بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل المقوقس الكتاب
وأكرم حاطبا وأحسن نزله ثم شرحه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له كسوة
وبغلة بسرجها وجاريتين احداهما أم ابراهيم ووهب الاخرى لجهم بن قيس العبدري فهي
أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر ويقال بل وهبها رسول
الله صلى الله عليه وسلم لمحمد بن مسلمة الانصاري ويقال بل لدحية بن خليفة الكلبي وقيل
بل لحسان بن ثابت * وعن يزيد بن أبي حبيب أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم ضمه الى صدره وقال هذا زمان يخرج فيه النبي الذي نجد نعته وصفته في
كتاب الله تعالى وانا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين ولا نكاح وأنه يقبل
الهدية ولا يقبل الصدقة وأن جلساءه المساكين وأن خاتم النبوة بين كتفيه ثم دعا رجلا
عاقلا ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية وأختها وهما من أهل حفن بفتح أوله
وسكون ثانيه ثم نون بعده من كورة أنصنا فبعث بهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأهدى له بغلة شهباء وحمارا أشهب وثيابا من قباطي مصر وعسلا من عسل بنها و بعث
اليه بمال صدقة ويقال ان المقوقس أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع جوارى
وقيل جاريتين وبغلة اسمها الدلدل وحمارا اسمه يعفور وقباؤ ألف مثقال ذهبا وعشرين
ثوبا من قباطي مصر وخصيا يسمي مابور ويقال انه ابن عم مارية وفرسا يقال لها الكرار
وقدحا من زجاج وعسلا من عسل بنها فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم ودعا فيه بالبركة
وقال ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه فان المقوقس قال خيرا وأكرم حاطب بن أبي
بلتعة وقارب الامر ولم يسلم * وقال ابن سعد أخبرنا محمد بن عمر الواقدي أبو يعقوب
ابن محمد بن أبي صعصعة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال أهدى المقوقس
صاحب الاسكندرية الى النبي صلى الله عليه وسلم في سنة سبع من الهجرة مارية وأختها
سيرين وألف مثقال ذهبا وعشرين ثوبا وبغلته الدلدل وحماره عفيرا وخصيا يقال له مابور
فعرض حاطب على مارية الاسلام فأسلمت هي وأختها ثم أسلم الخصي بعد وكان الذي بعثه

المقوقس مع مارية اسمه ابن عبد الله القبطي مولى بني عفار قال ابن عبد الحكم وأمر رسوله أن ينظر من جلساؤه وينظر الى ظهره هل يرى شامة كبيرة ذات شعر ففعل ذلك الرسول فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّم اليه الاختين والدابتين والعسل والثياب وأعلمه أن ذلك كله هدية فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدية وكان لا يردها من أحد من الناس قال فلما نظر الى مارية وأختها اعجبتاه وكره أن يجمع بينهما وكانت احداهما تشبه الاخرى فقال اللهم اختر لنبيك فاختار الله له مارية وذلك انه لما قال لهما اشهدا أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله فبادرت مارية فتشهدت وآمنت قبل أختها ومكثت أختها ساعة ثم تشهدت وآمنت فوهب رسول الله صلى الله عليه وسلم أختها لمسلمة ابن محمد الانصاريّ وقال بعضهم بل وهبها لدحية بن خليفة الكلبي * وعن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الرحمن بن شامة المهرى عن عبد الله بن عمر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمّ ابراهيم أم ولده القبطية فوجد عندها نسيبا لها كان قدم معها من مصر وكان كثيرا ما يدخل عليها فوقع فى نفسه شئ فرجع فلقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعرف ذلك في وجهه فسأله فاخبره فاخذ عمر السيف ثم دخل على مارية وقريبها عندها فأهوى اليه بالسيف فلما رأى ذلك كشف عن نفسه وكان مجبوبا ليس بين رجليه شئ فلما رآه عمر رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان جبريل أتانى فاخبرنى أن الله عزوجل قد برأها وقريبها وأن في بطنها غلاما منى وأنه أشبه الخلق بى وأمرنى أن أسميه ابراهيم وكنانى بأبى ابراهيم * وقال الزهري عن أنس لما ولدت أمّ ابراهيم ابراهيم كانه وقع في نفس النبى صلى الله عليه وسلم منه شيء حتى جاءه جبريل فقال السلام عليك يا أبا ابراهيم ويقال أن المقوقس بعث معها بخصي كان يأوى اليها وقيل ان المقوقس أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم جوارى منهن أم ابراهيم وواحدة وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى جهم بن حذيفة وواحدة وهبها لحسان ابن ثابت فولدت مارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابراهيم وكان أحب الناس اليه حتى مات فوجد به وكان سنه يوم مات ستة عشر شهرا وكانت البغلة والحمار أحب دوابه اليه وسمى البغلة الدلدل وسمى الحمار يعفورا وأعجبه العسل فدعا فى عسل بنها بالبركة وبقيت تلك الثياب حتى كفن فى بعضها صلى الله عليه وسلم وكان اسم أخت مارية قيصر وقيل بل كان اسمها سيرين وقيل حمنة * وكلم الحسن بن على معاوية بن أبي سفيان فى أن يضع الجزية عن جميع قرية أم ابراهيم لحرمتها ففعل ووضع الخراج عنهم فلم يكن على احد منهم خراج وكان جميع أهل القرية من أهلها وأقربائها فانقطعوا * ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لو بقى ابراهيم ما تركت قبطيا الا وضعت عنه الجزية وماتت

مارية فى محرم سنة خمس عشرة بالمدينة وقال ابن وهب أخبرني يحي بن أيوب وابن لهيعة عن عقيل عن الزهرى عن يعقوب بن عبد الله بن المغيرة بن الاخفش عن ابن عمر أن النبى صلي الله عليه وسلم قال دخل ابليس العراق فقضى حاجته منها ثم دخل الشام فطردوه حتى دخل جبل شاق ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقريه حديث صحيح غريب وقد عاب بعضهم مصر فقال محاسنها مجلوبة اليها حتى العناصر الاربعة الماء وهو فى النيل مجلوب من الجنوب والتراب مجلوب في حمل الماء والا فهى رمل محض لا تنبت الزرع والنار لا يوجد بها شجرها والهواء لا يهب بها الا من أحد البحرين اما من الرومي واما من القلزم وقد زاد هذا فى تحامله * وقال كعب الاحبار الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب ارمينه ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة والكوفة آمنة من الخراب حتى تكون الملحمة

﴿ ذكر العجائب التي كانت بمصر من الطلسمات والبرابى ونحو ذلك ﴾

ذكر في كتاب عجائب الحكايات وغرائب الماجريات أنه كان بمصر حجر من جمع كفيه عليه تقيأ جميع مافى جوفه قال القضاعى ذكر الجاحظ وغيره أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة منها بسائر الدنيا عشر أعجوبات وهي • مسجد دمشق • وكنيسة الرها • وقنطرة سنجر وقصر غمدان • وكنيسة رومية • وصنم الزيتون • وايوان كسرى بالمدائن • وبيت الريح بتدمر • والخورنق • والسدير بالحيرة . والثلاثة الاحجار ببعلبك وذكر أنها بيت المشتري والزهره وانه كان لكل كوكب من السبعة بيت فيها فهدمت (ومنها بمصر عشرون أعجوبة) فمن ذلك الهرمان وهما أطول بناء وأعجبه ليس على وجه الدنيا بناء باليد حجر على حجر أطول منهما واذا رأيتهما ظننت انهما جبلان موضوعان ولذلك قال بعض من رآهما ليس من شئ الا وأنا أرحمه من الدهر الا الهرمين فاني لأرحم الدهر منهما • ومن ذلك صنم الهرمين وهو بلهوية ويقال بلهيت ويقال انه طلسم للرمل لئلا يغلب على ابليز الجيزه • ومن ذلك بربا سمنود وهو من أعاجيبها وذكر عن أبى عمرو الكندى أنه قال رأيته وقد خزن فيه بعض عمالها قرظا فرأيت الجمل اذا دنا من بابه بحمله وأراد ان يدخله سقط كل ديبب في القرظ لم يدخل منه شيء الى البربا ثم خرب عند الخمسين والثلثمائة • ومن ذلك بربا اخميم عجب من العجائب بما فيه من الصور وأعاجيب وصور الملوك الذين يملكون مصر وكان ذو النون الاخميمي يقرأ البرابى فرأى فيها حكما عظيمة فأفسد أكثرها • ومن ذلك بربا دندره وهو بربا عجيب فيه ثمانون ومائة كوة تدخل الشمس كل يوم من كوة منها ثم الثانية حتى تنتهى الى آخرها ثم تكر راجعة الى موضع بدائها • ومن ذلك حائط العجوز من العريش الى اسوان يحيط بأرض مصر شرقا وغربا * ومن ذلك الاسكندرية وما فيها من العجائب فمن عجائبها المنارة والسوارى والملعب الذى كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة

ثم يرمون بكرة فلا تقع فى حجر أحد الا ملك مصر وحضر عيدا من أعيادهم عمرو بن العاص فوقعت السكرة فى حجره فملك البلد بعد ذلك في الاسلام ثم يحضر هذا الملعب ألف ألف من الناس فلا يكون فيهم أحد الا وهو ينظر فى وجه صاحبه ثم ان قرئ كتاب سمعوه جميعا أو لعب نوع من أنواع اللعب رأوه عن آخرهم لايتطاولون فيه بأكثر من المراتب العلية والسفلية * ومن عجائبها المسلتان وهما جبلان قائمان على سرطانات نحاس فى اركانها كل ركن على سرطان فلو أراد مريد أن يدخل تحتها شيئاً حتى يعبره من جانبه الآخر لفعل * ومن عجائبها عمودا الاعيا وهما عمودان ملقيان وراء كل عمود منهما جبل حصبا كصبر الجمار بمنى يقبل المعنى التعب النصب بسبع حصيات حتى يلتقى على احدهما ثم يرمي وراءه السبع ويقوم ولا يلتفت ويمضى لطيته فكأنما يحمل حملا لايحس بشيء من تعبه ومن عجائبها القبة الخضراء وهى أعجب قبة ملبسة نحاسا كانه الذهب الابريز لايبليه القدم ولايخلقه الدهر * ومن عجائبها منية عقبة وقصر فارس وكنيسة أسفل الارض ثم هى مدينة على مدينة ليس على وجه الارض مدينة بهذه الصفة سواها ويقال انها ارم ذات العماد سميت بذلك لان عمدها ورخامها من البدنجنا والاصطنيدس المخطط طولا وعرضا * ومن عجائب مصر أيضا الجبال التي هى بصعيدها على نيلها وهى ثلاثة أجبل فمنها جبل الكهف ويقال الكهف • ومنها الطيلمون • ومنها جبل زماجير الساحرة يقال ان فيه حلقة من الجبل ظاهرة مشرفة على النيل لايصل اليها احد يلوح فيها خط مخلوق باسمك اللهم * ومن عجائبها شعب البوقيرات بناحية اشمون من ارض الصعيد وهو شعب في جبل فيه صدع تأتيه البوقيرات في يوم من السنة كان معروفا فتعرض انفسها على الصدع فكلما أدخل بوقير منها منقاره في الصدع مضى لسبيله فلا يزال يفعل ذلك حتى يلتقى الصدع على بوقير منها فتحبسه وتمضى كلها ولا يزال ذلك الذى يحبسه متعلقا حتى يتساقط ويتلاشى * ومن عجائبها عين شمس وهي هيكل الشمس وبها العمود ان اللذان لم ير أعجب منهما ولا من شأنهما طولهما في السماء نحو من خمسين ذراعا وهما محمولان على وجه الارض وفيهما صورة انسان على دابة وعلى رأسهما شبه الصومعتين من نحاس فاذا جاء النيل قطر من رأسهما ماء وتستبينه وتراه منهما واضحا ينبع حتى يجري في أسفلهما فينبت في أصلهما العوسج وغيره واذا حلت الشمس دقيقة من الجدى وهو أقصر يوم في السنة انتهت الى الجنوبى منها فطلعت عليه على قمة رأسه وهى منتهى الميلين وخط الاستواء في الواسطة منهما ثم خطرت بينهما ذاهبة وجائية سائر السنة كذا يقول أهل العلم بذلك * ومن عجائبها منف وعجائبها وأصنامها وأبنيتها ودفائنها وكنوزها ومايذكر فيها أكثر من أن يحصى من آثار الملوك والحكماء والانبياء لايدفع ذلك * ومن عجائبها الفرما وهي اكثر عجائبا واكثر آثارا * ومن عجائبها الفيوم * ومن عجائبها نيلها • ومن عجائبها

الحجر المعروف بحجر الخل يطفو على الخل ويسبح فيه كأنه سمكة وكان يوجد بها حجر اذا أمسكه الانسان بكلتا يديه تقايأ كل شئ فى بطنه وكان بها خرزة تحملها المرأة على حقوها فلا تحبل وكان بها حجر يوضع على حرف التنور فيتساقط خبزه وكان يوجد بصعيدها حجارة رخوة تكسر فتتقد كالمصابيح *ومن عجائبها حوض كان بدلالات تدورمن حجارة يركب فيها الواحد والاربعة ويحركون الماء بشئ فيعبرون من جانب الى جانب لايعلم من عمله فأخذه كافور الاخشيدى الى مصر فنظر اليه ثم أخرج من الماء فالقى في البر وكان في اسفله كتابة لايدرى ماهي ثم بطل* ومن عجائبها أن بصعيدها ضيعة تعرف بدشنى فيها سنطة اذا تهددت بالقطع تدبل وتجتمع وتضمر فيقال لها قد عفونا عنك وتركناك فتتراجع والمشهور وهو الموجود الآن سنطة في الصعيد اذا نزلت اليد عليها دبلت واذا رفعت عنها تراجعت وقد حملت الى مصر وشوهدت وبها نوع من الخشب يرسب في الماء كالآبنوس وبها الخشب السنط الذي يوقد منه القدر الكثير في الزمن الطويل فلايوجد له رماد * وذكر ابن نصر المصرى أنه كان على باب القصر الكبير الذي يقال له باب الريحان عند الكنيسة المعلقة صنم من نحاس على خلقة الجمل وعليه رجل راكب عليه عمامة متنكب قوسا عربية وفي رجليه نعلان كانت الروم والقبط وغيرهم اذا تظالموا بينهم واعتدى بعضهم على بعض تحاروا اليه حتى يقفوا بين يدي ذلك الجمل فيقول المظلوم للظالم أنصفني قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل فيأخذ الحق لي منك شئت أم أبيت يعنون بالراكب النبي محمدا صلى الله عليه وسلم فلما قدم عمرو بن العاص غيبت الروم ذلك الجمل لئلا يكون شاهدا عليهم قال ابن لهيعة بلغني أن تلك الصورة في ذلك الموضع قد أتى الآن عليها سنين لايدرى من عملها * قال القضاعى فهذه عشرون أعجوبة من جملتها ما يتضمن عدة عجائب فلو بسطت لجاء منها عدد كثير ويقال ليس من بلد فيه شئ غريب الا وفي مصر مثله أو شبيه به * ثم تفضل مصر على البلدان بعجائبها التي ليست في بلد سواها ٠ وفي كتاب تحفة الالباب انه كان بمصر بيت تحت الارض فيه رهبان من النصارى وفي البيت سرير صغير من خشب تحته صبيّ ميت ملفوف في نطع اديم مشدود بحبل وعلى السرير مثل الباطية فيها انبوب من نحاس فيه فتيل اذا اشتعل الفتيل بالنار وصار سراجا خرج من ذلك الانبوب الزيت الصافي الحسن الفائق حتى تمتلئ تلك الباطية وينطفي السراج بكثرة الزيت فاذا انطفأ لم يخرج من الدهن شئ فاذا خرج الصبي الميت من تحت السرير لم يخرج من الزيت شئ والباطية يريقها الانسان فلا يرى تحتها شيئا ولا موضعا فيه ثقب وأولئك الرهبان يتعيشون من ذلك الزيت يشتريه الناس منهم فينتفعون به* وقال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه عديم الملك ابن تقطريم كان جبارا لايطاق عظيم الخلق فأمر بقطع الصخور ليعمل هرما كما عمل الاولون وكان في وقته الملكان اللذان أهبطا

من السماء وكانا في بئر يقال له اقتاره وكان يعلمان اهل مصر السحر وكان يقال ان الملك
عديم بن البودشير استكثر من علمهما ثم انتقلا الى بابل وأهل مصر من القبط يقولون
انهما شيطانان يقال لهما مهله وبها له وليس هما الملكين والملكان ببابل في بئر هناك يغشاها
السحرة الى أن تقوم الساعة ومن ذلك الوقت عبدت الاصنام وقال قوم كان الشيطان يظهر
وينصبها لهم وقال قوم أول من نصبها بدوره وأول صنم أقامه صنم الشمس وقال آخرون
بل النمرود الاول أمر الملوك بنصبها وعبادتها وعديم أول من صلب وذلك أن امرأة زنت
برجل من اهل الصناعات وكان لها زوج من اصحاب الملك فأمر بصلبهما على منارين وجعل
ظهر كل واحد منهما الى ظهر الآخر وزبر على المنارين اسمهما وما فعلاه وتاريخ الوقت الذى
عمل ذلك بهما فيه فانتهى الناس عن الزنا وبني اربع مداين وأودعها صنوفا كثيرة من
عجائب الاعمال والطلسمات وكنز فيها كنوزا كثيرة وعمل في الشرق منارا وأقام على رأسه
صنما موجها الى الشرق مادّا يديه يمنع دواب البحر والرمال أن تجاوز حده وزبر في صدره
تاريخ الوقت الذي نصبه فيه ويقال ان هذا المنار قائم الى وقتنا هذا ولولا هذا لغلب الماء
الملح من البحر الشرقي على ارض مصر وعمل على النيل قنطرة في أول بلد النوبة ونصب
عليها اربعة اصنام موجهة الى اربع جهات الدنيا في يدى كل واحد من الاصنام حربتان
يضرب بهما اذا أتاهم آت من تلك الجهة فلم تزل بحالها الى أن هدمها فرعون موسى عليه السلام
وعمل البربا على باب النوبة وهو هناك الى وقتنا هذا وعمل في احدى المداين الاربع التي
ذكرناها حوضا من صوان أسود مملوء ماء لا ينقص طول الدهر ولا يتغير ماؤه لانه اجتلب
اليه من رطوبة الهواء وكان اهل تلك الناحية واهل تلك المدينة يشربون منه ولا ينقص ماؤه
وعمل ذلك لبعدهم عن النيل وذكر بعض كهنة القبط أن ذلك الماء ثم لقربه من البحر
الملح فان الشمس ترفع بحرها بخار البحر فينحصر من ذلك البخار جزء بالهندسة او بالسحر
ويجعله يحط ذلك في ذلك الموضع بالجوهر مثل الظل وتمده بالهواء فلا ينقص بذلك ماؤه على
الدهر ولو شرب منه العالم وعمل قدحا لطيفا على مثل هذا العمل وأهداه حوميل الملك
الى اسكندر اليوناني وملكهم عديم مائة واربعين سنة ومات وهو ابن سبعمائة وثلاثين سنة
ودفن في احدى المدائن ذات العجائب وقيل فى صحراء قفط * وذكر بعض القبط أن ناووس
عديم عمل في صحراء قفط على وجه الارض تحت قبة عظيمة من زجاج اخضر برّاق
معقود على رأسها كرة من ذهب عليها طائر من ذهب موشح بجوهر منشور الجناحين يمنع
من الدخول الى القبة وكان قطرها مائة ذراع فى مثلها وجعل جسده فى وسطها على سرير
من ذهب مشبك وهو مكشوف الوجه وعليه ثياب منسوجة بالذهب المغروز بالجوهر المنظوم
وطول القبة اربعون ذراعا وجعل في القبة مائة وسبعين مصحفا من مصاحف الحكمة وسبع

موائد بأوانيها منها مائدة من در رماني احمر وأوانيها منها ومائدة من ذهب قلموني أوانيها منها ومائدة من حجر الشمس المضيء بآنيتها وهو الزبرجد الذى اذا نظرت اليه الافاعى سالت اعينها ومائدة من كبريت احمر مدبر بآنيتها ومائدة من ملح ابيض مدبر براق بآنيتها ومائدة من زيبق معقود وجعل في القبة جواهر كثيرة وبرابي صنعة مدبرة وحوله سبعة اسياف وأتراس من حديد أبيض مدبر وتماثيل افراس من ذهب عليها سروج من ذهب وسبعة توابيت من دنانير عليها صورته وجعل معه من اصناف العقاقير والسمومات والادوية في برابي من حجارة وقد ذكر من رأى هذه القبة أنهم أقاموا أياما فما قدروا على الوصول اليها وأنهم اذا قصدوها وكانوا منها على ثمانية اذرع دارت القبة عن ايمانهم أو عن شمائلهم * ومن اعجب ماذكروه أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزجا أزجا فلا يرون غير الصورة التي يرونها من الازج الآخر على معنى واحد وذكروا انهم رأوا وجه الملك قدر ذراع ونصف بالكبير ولحيته كبيرة مكشوفة وقدّروا طول بدنه عشرة اذرع وزيادة وذكر هؤلاء الذين رأوها أنهم خرجوا لحاجة فوجدوها اتفاقا وانهم سألوا اهل قفط عنها فلم يجدوا احدا يعرفها سوى شيخ منهم وأوصى عديم الملك ابنه شداب بن عديم ان ينصب في كل حيز من أحياز ولايته منارا ويزبر عليه اسمه فانحدر الى الاشمونين وعمل مناراتها وزبر عليها اسمه وعمل بها ملاعب وعمل فى صحرائها منارا اقام عليه صنما برأسين على اسم كوكبين كانا مقترنين في الوقت الذي خرج فيه الى اتريب وبنى فيها قبة عظيمة مرتفعة على عمد وأساطين بعضها فوق بعض وعلى رأسها صنما صغيرا من ذهب وعمل هيكلا للكواكب ومضى الى حيز صا فعمل فيه منارا على رأسه مرآة من اخلاط تورى الاقاليم ورجع وعمل شداب ابن عديم هيكل ارمنت وأقام فيه اصناما باسماء الكواكب من جميع المعادن وزينه بأحسن الزينة ونقشه بالجواهر والزجاج الملون وكساه الوشي والديباج وعمل في المدائن الداخلة من انصنا هيكلا وأقام فيه باتريب وهيكلا شرقي الاسكندرية وأقام صنما من صوان اسود باسم زحل على عبرة النيل من الجانب الغربي وبني في الجانب الشرقي مداين في احداها صورة صنم قائم وله احليل اذا أتاه المعقود والمسحور ومن لاينتشر ذكره فمسحه بكلتي يديه انتشر ذكره وقوى على الباه وفي احداها بقرة لها ضرعان كبيران اذا انعقد لبن امرأة أتتها ومسحتها بيديها فانه يدر لبنها وجمع التماسيح بطلسم عمله بناحية اسيوط فكانت تنصب من النيل الى اخميم انصبابا فيقتلها ويستعملها جلودا في السفن وغيرها * وعمل منقاوس الملك بيتا تدور به تماثيل بجميع العلل وكتب على رأس كل تمثال ما يصلح من العلاج فانتفع الناس بها زمانا الى أن افسدها بعض الملوك وعمل صورة امرأة متبسمة لايراها مهموم الازال همه ونسيه فكان الناس يتناوبونها ويطوفون حولها ثم عبدوها من جملة ماعبدوه

بعد ذلك * وعمل تمثالا من صفر مذهب بجناحين لايمر به زان ولا زانية الا كشف عورته بيده وكان الناس يمتحنون به الزناة فامتنعوا من الزنا فرقا منه فلما ملك كاكن عشقت حظية عنده رجلا من خدمه وخافت أن تمتحن بذلك الصنم فأخذت فى ذكر الزواني مع الملك وأكثرت من سبهن وذمهن فذكر كاكن ذلك الصنم وما فيه من المنافع فقالت صدق الملك غير أن منقاوس لم يصب في امره لانه أتعب نفسه وحكماءه فيما جمله لاصلاح العامة دون نفسه وكان حكم هذا ان ينصب في دار الملك حيث يكون نساؤه وجواريه فان اقترفت احداهن ذنبا علم بها فيكون رادعا لهن متى عرض بقلوبهن شيء من الشهوة فقال كاكن صدقت وظن أن هذا منها نصح فأمر بنزع الصنم من موضعه ونقله الى داره فبطل عمله وعملت المرأة ماكانت همت به * وبنى هيكلا على جبل القصير للسحرة فكانوا لايطلقون الرياح للمراكب المقلعة الا بضريبة يأخذونها منهم للملك * وبنى مناوس بن منقاوس في صحراء الغرب مدينة بالقرب من مدينة السحرة تعرف بقنطرة ذات عجائب وجعل بوسطها قبة عليها كالسحابة تمطر شتاء وصيفا مطرا خفيفا وتحت القبة سطهرة فيها ماء أخضر يداوى به من كل داء فيبريه وعمل في شرقيها بربا لطيفا له اربعة ابواب لكل باب عضادتان في كل عضادة صورة وجه يخاطب كل واحد منهما صاحبه بما يحدث في يومه فمن دخل البربا على غير طهارة نفخا فى وجهه فأصابه رعدة فظيعة لاتفارقه حتى يموت وكانوا يقولون ان فى وسطه مهبط النور فى صورة العمود من اعتنقه لم يحتجب عن نظره شيء من الروحانية وسمع كلامهم ورأي مايعملون وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب في يده مصحف فيه علم من العلوم فمن أحب معرفة ذلك العلم اتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرهما على صدره فيثبت ذلك العلم في صدره ويقال ان هاتين المدينتين بنيتا على اسم هرمس وهو عطارد وأنهما بحالهما (وحكي) عن رجل انه أتى عبد العزيز بن مروان وهو أمير مصر فعرفه أنه تاه في صحراء الشرق فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صنف من الفاكهة وأنه اكل منها وتزود فقال له رجل من القبط هذه احدى مدينتي هرمس وفيها كنوز كثيرة فوجه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء وزاد فأقاموا يطوفون تلك الصحارى شهرا فلم يقفوا لها على اثر * وعملت أم ميلاطس الملك بركة عظيمة في صحراء الغرب وجعلت في وسطها عمودا طوله ثلاثون ذراعا وفى اعلاه قصعة من حجارة يفور منها الماء فلا ينقص ابدا وجعلت حول البركة اصناما من حجارة ملونة على صور الحيوانات من الوحش والطير والبهائم فكان كل جنس يأتى الي صورته ويألفها فيؤخذ باليد وينتفع به * وعملت لابنها متنزها لانه كان يحب الصيد فجعلت فيه مجالس مركبة على اساطين من مرمر مصفح بالذهب مرصع بالجوهر والزجاج الملون وزخرفته بالتصاوير العجيبة والنقوش فكان الماء يطلع من

فوارات وينصب الى أنهار قد صفحت بالفضة تجرى الى حدائق فيها بديع الفروشات وقد أقيم حولها تماثيل تصفر بانواع اللغات وأرخت على المجالس ستورا من ديباج واختارت لابنها من حسان بنات عمه وبنات الملوك وزوجته وحولته الى هذه الجنة وبنت حول الجنة مجالس للوزراء والكهنة وأشراف اهل الصناعات فكانوا يرفعون اليه جميع ما يعملونه فاذا فرغوا من أعمالهم حمل اليهم الطعام والشراب وكان ميلاطس تقلد الملك بعد ابيه مرقوه وهو صبي وكانت أمه مدبرة الملك وهي حازمة مجربة فأجرت الامور على ما كانت عليه فى حياة ابيه وأحسنت وعدلت في الرعية ووضعت عنهم بعض الخراج وكانت ايامه سعيدة كلها في الخصب الكثير والسعة للناس والعدل وكان له يوم يخرج فيه الى الصيد ويرجع الى جنته فيأمر لكل من معه بالجوائز والاطعمة ويجلس للنظر يوما في مصالح الناس وقضاء حوائجهم ويخلو يوما بنسائه وكان ملكه ثلاث عشرة سنة وجدر فمات * وعمل فرسون بن قيلمون ابن اتريب منارا على بحر القلزم وعلى رأسه مرآة تجتذب بها المراكب الى شاطيء البحر فلا يمكنها أن تبرح الا أن تعشر فاذا عشرت سترت المرآة حتى تجوز المراكب وأقام فرسون مائتي سنة وستين سنة وعمل لنفسه ناووسا خلف الجبل الاسود الشرقي فى وسطه قبة حولها اثنا عشر بيتا في كل بيت أعجوبة لاتشبه الاخرى وزبر عليها اسمه ومدة ملكه * وكان مرقونس الملك حكيما محبا للنجوم والعلوم والحكمة فعمل في ايامه درهما اذا ابتاع به صاحبه شيئاً اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم ولا يطلب عليه زيادة فيغتر البائع بذلك ويقبل الشرط فاذا تم ذلك بينهما وقع فى وزن الدرهم ارطال كثيرة تساوى عشرة أضعافه وكان اذا أحب أن يدخل في وزنه اضعاف تلك الارطال دخل وقد وجد هذا الدرهم فى كنوزهم ثم في خزائن بنى أمية وكان الناس يتعجبون منه ووجدوا دراهم أخر قيل انها عملت في وقته ايضا فيكون الدرهم منها في ميزان الرجل فاذا اراد أن يبتاع حاجة أخذ ذلك الدرهم وقبله وقال اذكر العهد وابتاع به ما اراد فاذا اخذ السلعة ومضي الى بيته وجد الدرهم قد سبقه الى منزله ويجد البائع موضع ذلك الدرهم ورقة آس أو قرطاسا أو مثل ذلك بدور الدرهم وفى وقته عملت الآنية الزجاج التى توزن فاذا ملئت ماء أو غيره ثم وزنت لم تزد عن وزنها الاول شيئاً وعمل فى وقته الآنية التى اذا جعل فيها الماء صار خمرا فى لونه ورائحته وفعله وقد وجد من هذه الآنية باطفيح في امارة هارون بن جارويه بن احمد بن طولون شربة جزع بعروة زرقاء ببياض وكان الذى وجدها ابو الحسن الصائغ الخراساني هو ونفر معه فأكلوا على شاطيء النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمرا سكروا منه وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع فاغتم الرجل وجاء بها الى هارون فاسف عليها وقال لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكى * وأما الآنية النحاسية التي تجعل الماء خمرا

فانها منسوبة الى قلوبطرة بنت بطليموس ملكة الاسكندرية فكثير وفى وقته عملت الصور الحيثمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر الحشرات وكانت اذا جعلت فى موضع اجتمع اليها ذلك الجنس ولا يقدر على مفارقة تلك الصورة حتى يقتل وكأنه يعمل اعماله كلها بصور درج الفلك واسمائها وطوالعها فيتم له من ذلك ما يريده * وعمل فى صحراء الغرب ملعبا من زجاج ملون في وسطه قبة من زجاج اخضر صافى اللون فاذا طلعت عليها الشمس ألقت شعاعها على مواضع بعيدة وعمل فى جوانبه الاربعة اربعة مجالس عالية من زجاج كل مجلس لون ونقش عليها بغير لونها طلسمات عجيبة ونقوشات غريبة وصورا بديعة كل ذلك من زجاج مطلق يشف وكان يقيم فى هذا الملعب الايام وعمل له ثلاثة أعياد فى كل سنة فكان الناس يحجون اليه في كل عيد ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام ولم يزل هذا الملعب تقصده الامم فانه لم يكن له نظير ولا عمل في العالم مثله الى أن هدمه بعض الملوك لعجزه عن عمل مثله * وكانت أم مرقونس ابنة ملك النوبة وكان أبوها يعبد الكوكب الذى يقال له السها ويسميه الها سألت ابنها أن يعمل لها هيكلا يفردها به فعمله وصفحه بالذهب والفضة وأقام فيه صنما وأرخى عليه الستور الحرير فكانت تدخل اليه بجواريها وحشمها وتسجد له فى كل يوم ثلاث مرات وعملت لكل شهر عيدا تقرب له قرابين وتبخره ليله ونهاره ونصبت له كاهنا من النوبة يقوم به ويقرب له ويبخره ولم تزل بابنها حتى سجد له ودعا الى عبادته فلما رأى الكاهن الامر فى عبادة الكواكب قد تم وأحكم من جهة الملك أحب أن يكون لكوكب السها مثالا في الارض على صورة حيوان يتعبد له فاقام يعمل الحيلة فى ذلك الى أن اتفق أن العقبان كثرت بمصر وأضرت بالناس فاحضر الملك هذا الكاهن وسأله عن سبب كثرتها فقال ان الهك أرسلها لتعمل لها نظيرا ليسجد له فقال مرقونس ان كان يرضيه ذلك فانا فاعله فقال ان ذلك رضاه فأمر بعمل عقاب طوله ذراعان في عرض ذراع من ذهب مسبوك وعمل عينيه من ياقوتتين وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر أخضر وفى منقاره درة معلقة وسروله بالدر الاحمر وأقامه على قاعدة من فضة منقوشة قد ركبت على قائمة زجاج أزرق وجعله فى ازج عن يمين الهيكل وألقى عليه ستور الحرير وجعل له دخنة من جميع الافاويه والصموغ وقرب له عجلا أسود وبكارة الفراريج وباكورة الفواكه والرياحين فلما تمت له سبعة أيام دعاهم الى السجود اليه فأجابه الناس ولم يزل الكاهن يجهد نفسه فى عبادة العقاب وعمل له عيدا فلما تم لذلك أربعون يوما نطق الشيطان من جوفه * وكان أول ما دعاهم اليه أن يبخر له فى أنصاف الشهور بالمندل ويرش الهيكل بالخمر العتيقة التى تؤخذ من رؤس الخوابي وعرفهم أنه قد أزال عنهم العقبان وضررها وكذلك يفعل في غيرها مما يخافون فسر

الكاهن بذلك وتوجه الى أم الملك يعرفها ذلك فسارت الى الهيكل وسمعت كلام العقاب فسرها ذلك وأعظمته وبلغ الملك فركب الى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه فسجد له وأقام له سدنة وأمر أن يزين بأصناف الزينة وكان مرقونس يقوم بهذا الهيكل ويسجد لتلك الصورة ويسألها عما يريد فتخبره * وعمل من الكيمياء ما لم يعمله أحد من الملوك فيقال انه دفن فى صحراء الغرب خمسمائة دفين * ويقال انه عمل على باب مدينة صا عمودا عليه صنم فى صورة امرأة جالسة وفى يدها مرآة تنظر اليها وكان العليل يأتى الى هذه المرآة وينظر فيها أو ينظر له أحد فيها فان كان يموت من علته تلك رؤى ميتا وان كان يعيش رآه حيا وينظر فيها أيضا للمسافر فان رأوه مقبلا بوجهه علموا أنه راجع وان رأوه موليا علموا أنه يتمادي فى سفره وان كان مريضا أو ميتا رأوه كذلك فى المرآة * وعمل بالاسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة وعلى رأسه كالبرنس وفي يده كالعكاز فاذا مر به تاجر جعل بين يديه شيئا من المال على قدر بضاعته فان تجاوزه ولو عن بعد من غير أن يضع بين يديه المال لم يقدر على الجواز وثبت قائما مكانه فكان يجتمع من ذلك مال عظيم يفرق في الزمنى والضعفا والفقرا * وعمل في زمنه كل أعجوبة ظريفة وأمر أن يزبر اسمه عليها وعلى كل علم وكل طلسم وكل صنم * وعمل لنفسه ناووسا فى داخل الارض عند جبل يقال له سدام وعمل تحته ازجا يقال ان طوله مائة ذراع وارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وصفحه بالمرمر والزجاج الملون وسقفه بالحجارة وعمل فيها دائرة مساطب مبلطة بزجاج على كل مسطبة اعجوبة وفي وسط الازج دكة من زجاج على كل ركن من اركانها صورة تمنع الدنو اليها وبين كل صورتين منارة عليها حجر مضئ وفي وسط الدكة حوض من ذهب فيه جسده بعد ما ضمده بالادوية الماسكة ونقل اليه ذخائره من الذهب والجوهر وغيره وسد باب الازج بالصخور والرصاص وهيل عليها الرمال وكان ملكه ثلاثا وسبعين سنة وعمره مائتين وأربعين سنة وكان جميلا ذا وفرة حسنة فتنسكت نساؤه ولزمن الهيكل من بعده وملك بعده ابنه ايساد ثم صا بن ايساد وقيل صا بن مرقونس أخو ايساد فعمل مرآة في مدينة منف ترى الاوقات التي تخصب فيها مصر وتجدب وبني بداخل الواحات مدينة ونصب قرب البحر أعلاما كثيرة * وعمل خلف المقطم صنما يقال له صنم الحيلة فكان كل من تعذر عليه أمر يأتيه ويبخره فيتيسر ذلك الامر له وجعل بحافة البحر الملح منارا يعلم منه أمر البحر وما يحدث فيه من أقصى ما يصل اليه البصر على مسيرة أيام وهو أول من اتخذها ويقال انه بني اكثر مدينة منف وكل بنيان عظيم بالاسكندرية * ولما ملك بدارس بن صا الاحياز كلها بعد ابيه وصفا له ملك مصر بني فى غربى مدينة منف بيتا عظيما لكوكب الزهرة وأقام فيه صنما عظيما من لازورد مذهب وتوجه بذهب يلوح بزرقة وسوره بسوارين

من زبرجد اخضر وكان الصنم في صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب اسود مدبر وفي رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب وبيدها قضيب مرجان وهي تشير بسبابتها كأنها مسلمة على من في الهيكل وجعل بحذائها تمثال بقرة ذات قرنين وضرعين من نحاس أحمر مموه بذهب موشحة بحجر اللازورد ووجه البقرة تجاه وجه الزهرة وبينهما مطهرة من اخلاط الأجساد على عموم رخام مجزع وفي المطهرة ماء مدبر يستشفى به من كل داء وفرش الهيكل بحشيشة الزهرة يبدلونها فى كل سبعه أيام وجعل فى الهيكل كراسى للكهنة قد صفحت بالذهب والفضة وقرب لهذا الصنم ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير وكان يحضر يوم الزهرة ويطوف به وفرش الهيكل وستره وجعل فيه تحت قبة صورة رجل راكب على فرس له جناحان ومعه حربة في سنانها رأس انسان معلق ولم يزل هذا الهيكل الى أن هدمه بخت نصر في أيام ماليق بن تدارس وكان موحدا على دين قبطيم ومصرايم خرج فى جيش عظيم في البر والبحر فغزا البربر وأرض أفريقية وبلاد الاندلس وأرض الافرنج الى البحر وعمل فى البحر اعلاما زبر عليها اسمه ومسيره ورجع فهابه ملوك الارض وكان فى غربي مصر مدينة يقال لها قرميده بها قوم قد ملكوا عليهم امرأة ساحرة فغزاهم فلم ينل منهم قصدا ورجع فارادت ملكتهم افساد مصر فعملت من سحرها وأمرت فألقى في النيل ففاض الماء على المزارع حتى أفسدها وكثرت التماسيح والضفادع وفشت الامراض في الناس وانبثت فيهم الثعابين والعقارب فاحضر ماليق الكهنة والحكماء فى دار حكمتهم وألزمهم بالنظر لذلك فنظروا في نجومهم فرأوا أن هذه الآفة أتتهم من ناحية الغرب وان امرأة عملته وألقته فى النيل فعلموا حينئذ أنه من فعل تلك الساحرة واجتهدوا في دفع ذلك بما عندهم من العلم حتى انكشف عنهم الماء الفاسد وهلكت الدواب المضرة وجهزوا قائدا فى جيش الى المدينة فلم يجدوا بها غير رجل واحد فاخذوا من الاموال والجواهر والاصنام مالا يحصى * فمن ذلك صورة كاهن من زبرجد أخضر على قائمة من حجر الاسباديم وصورة روحاني من ذهب رأسه من جوهر أحمر وله جناحان من درو في يده مصحف فيه كثير من علومهم في دفتين مرصعتين بجوهر ومطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة زجاج أخضر فيها ماء لدفع الاسقام وفرس من فضة اذا عزم عليه بعزائمه ودخن بدخنته وركبه أحد طار به فأحضر ذلك وغيره من عجائب السحرة وأصنامهم والاموال والجواهر الى مصر ومعهم الرجل فسأله الملك عن أعجب أعمالهم قال قصدهم بعض ملوك البربر بجمع كثيف وتخاييل هائلة فاغلق أهل مدينتنا حصنهم ولجوا الى الاصنام فأتى الكاهن الى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها فجلس على حافتها وأحاط رؤساء الكهنة بها وأخذ يزمزم على الماء حتى فار وخرج من وسطه نار في وسطها وجه كدارة الشمس لها ضوء فخر الجماعة لها سجودا وتلك الصورة تعظم حتى صعدت

وخرقت القبة وسمع منها قد كفيتم شر عدوكم فقاموا واذا بعدوهم قد هلك وسائر من معه وذلك أن صورة الشمس التى ظهرت من الماء مرت فصاحت عليهم صيحة هلكوا بها * ولما ملك كلكن مصر بعد أبيه خربيا كان النمرود فى وقته فاتصل بنمرود خبر حكمته وسحره فاستزاره ووجه اليه أن يلقاه وكان النمرود يسكن سواد العراق وغلب على كثير من الامم فأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله لها أجنحة قد أحاطت به كالنار وحوله صور هائلة فدخل بها وهو متوشح بثعبان ومحزم ببعضه وذلك التنين فاغر فاه ومعه قضيب آس أخضر كلما حرك التنين رأسه ضربه بالقضيب فلما رأي النمرود ذلك هاله واعترف له بجليل الحكم * وتقول القبط أن كلكن كان يرتفع فيجلس على الهرم الغربى في قبة تلوح على رأسه وكان أهل البلد اذا دهمهم أمر اجتمعوا حول الهرم ويقولون انه ربما أقام على رأس الهرم أياما لا يأكل ولا يشرب ثم انه استتر مدة حتي توهموا أنه هلك فطمع الملوك في مصر وقصدها ملك من المغرب يقال له سادوم في جيش عظيم الى أن بلغ وادى هيبب فاقبل كلكن وجللهم من سحره بشئ كالغمام شديد الحرارة وهم تحته اياما لا يدرون أين يتوجهون ثم ارتفع وصار بمصر يعرفهم ما عمل وأمرهم فخرجوا فاذا بالقوم ودوابهم قد ماتوا فهابه جميع الكهنة وصوروه فى سائر الهياكل وبني هيكلا لزحل من صوان اسود في ناحية الغرب وجعل له عيدا * (وفي ايام دارم بن الريان) وهو الفرعون الرابع الذى يقال له عند القبط دريموش ظهر معدن فضة على ثلاثة ايام من النيل فاثاروا منه شيأ عظيما وعمل صنما على اسم القمر لان طالعه كان برج السرطان ونصبه على القصر الرخام الذى بناه أبوه فى شرقي النيل ونصب حوله اصناما كلها من الفضة وألبسها الحرير الاحمر وعمل للصنم عيدا كلما دخل برج السرطان ولما ولى اكسايس الملك بعد أبيه معدان بن معاديوس بن دارم بن دريموس وهو الفرعون السادس أقام أعلاما كثيرة حول منف وجعل عليها اساطين يمشي من بعضها الى بعض وعمل برقودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الارض أعلاما ومنائر للوقود وطلسمات كثيرة وعمل كودة من فضة ونقش عليها صورة الكواكب ودهنها بالدهن الصينى وأقامها على منار في وسط منف وعمل فى هيكل أبيه روحانى زحل من ذهب أسود مدبر وعمل فى وقته ميزانا يعتبر به الناس كفتاه من ذهب وعلاقته من فضة وسلاسله من ذهب فكان معلقا في هيكل الشمس وكتب على احدي كفتيه حق والاخرى باطل وتحته فصوص قد نقش عليها أسماء الكواكب فيدخل الظالم والمظلوم يأخذ كل منهما فصا من تلك الفصوص ويسمى عليه مايريده ويجعل أحد الفصين في كفة والآخر فى كفة فتثقل كفة الظالم وترتفع كفة المظلوم ومن أراد سفرا أخذ فصين وذكر على أحدهما اسم السفر وعلى الآخر الاقامة وجعل كل واحد في كفة فان ثقلا جميعا ولم يرتفع احدهما على الآخر لم يسافر وان ارتفعا سافر وان ارتفع

احدهما أخر السفر ثم سافر وكذا من عليه دين ومن له غائب أو ينظر فى صلاح أمره وفساده * ويقال أن بخت نصر لما دخل الى مصر حمل هذا الميزان معه فلما حمل الى بابل وجعله في بيت من بيوت النار وعمل في ايامه تنورا أيضا يشوى فيه من غير نار ويطبخ فيه بغير نار وسكينا تنصب فاذا رآها شيء من البهائم أقبل حتي يذبح نفسه بها وعمل ماء يستحيل نارا وزجاجا يستحيل هواء وشيأ من النيرنجيات والنواميس * (وأما البرابى) فذكر ابن وصيف شاه أن سوريد الذى بنى الاهرام هو الذى بني البرابى كلها وعمل فيها الكنوز وزبر عليها علوما ووكل بها روحانية تحفظها ممن يقصدها وقال فى كتاب الفهرست وبمصر أبنية يقال لها البرابى من الحجارة العظيمة الكبيرة وهى على اشكال مختلفة وفيها مواضع الصحن والسحق والحل والعقد والتقطير تدل على انها عملت لصناعة الكيمياء وفي هذه الابنية نقوش وكتابات لا يدرى ماهي وقد أصيبت تحت الارض فيها هذه العلوم مكتوبة في التوز وهى صفائح الذهب والنحاس وفي الحجارة * وذكر الحسن بن أحمد الهمدانى أن برابى مصر تنسب الى براب بن الدرمسيل بن نحويل بن خنوخ بن قار بن آدم عليه السلام * وذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البروني في كتاب الاشارات الباقية عن القرون الخالية أن كنيسة في بعض قرى مصر قد شاهدها الموثوق بقولهم المأخوذ برأيهم المأمون من جهتهم الرواية عنهم فيها سرداب ينزل اليه بنيف وعشرين مرقاة وفيه سرير تحته رجل وصبى مشدودين فى نطع وفوقه ثور رخام في جوفه باطية زجاج يدخلها قنينة من نحاس فى جوفها فتيلة كتان توقد فيصب فيها زيت فلا يلبث الا أن تمتلئ الباطية الزجاج زيتا وتفيض الى الثور الرخام فينفق على تلك الكنيسة وقناديلها * وذكر الجهانى انه صار اليه من وثق به ورفع الباطية عن الثور وأفرغ الزيت من الباطية والثور جميعا وأطفأ النار وأعادها جميعا الا الزيت فانه صب زيتا من عنده وأبدله فتيلة أخرى وأشعلها فما لبث الزيت أن فاض الى الباطية الزجاج ثم فاض الى الثور الرخام من غير مدد ولا عنصر * وذكر الجهانى أنه اذا خرج الميت من تحت السرير انطفأت النار ولم يفض الزيت * وذكر عن اهل القرية أن المرأة المتوهمة فى نفسها حملا تحمل ذلك الصبى وتضعه في حجرها فيتحرك ولدها فى البطن ان كان الحمل حقيقة أو تيأس ان لم تحس بحركة * قال المؤلف رحمه الله أخبرني داود ابن رزق الله بن عبد الله وكانت له سياحات كثيرة بأراضى مصر ومعرفة أحوالها أنه عبر فى مغارة كبيرة يقال لها مغارة شقلقيل بالوجه القبلى فاذا فيها كوم عظيم من سندروس وأنه غطاه ومضى فاذا شيء كثير الى الغاية من السمك وجميعها ملفوفة بثياب كأنها قد كفنت بعد الموت وأنه أخذ منها سمكة وفتشها فاذا فى فمها دينار عليه كتابة لا يحسن قراءتها وأنه صار يأخذها سمكة سمكة ويخرج من فم كل واحدة دينارا حتى اجتمع له من ذلك عدة دنانير

وأنه أخذ تلك الدنانير ورجع ليخرج حتى جاء الى الكوم السندروس واذا به ارتفع حتى سدّ عليه الموضع فعاد الى السمك وأعاد الدنانير الى مواضعها وخرج فاذا السندروس كما كان أولا بحيث يتجاوزه ويخرج فعاد وأخذ الدنانير ومشى يخرج بها فاذا السندروس قد ارتفع حتى سدّ عليه الموضع فعاد الى السمك وأعاد الدنانير الى موضعها وخرج فاذا السندروس على حاله كما كان أولا بحيث يتجاوزه ويخرج وأنه كرّر أخذ الدنانير واعادتها مرارا والحال على ما ذكر حتى خشى الهلاك فتركها وخرج فلما كان مدة سكن موضعها فرأى حجرا في جدار وقد قوّر ووضع حجر آخر فحاول الحجر الآخر حتى رفعه فاذا تحته ستة دنانير من تلك الدنانير التي وجدها فى أفواه السمك فأخذ منها واحدا وترك البقية في موضعها وأعاد الحجر على الحجر وقدّر الله بعد ذلك أنه ركب النيل ليعدى من البر الشرقى الى البر الغربى قال فلما توسط البحر واذا بالاسماك تثب من الماء وتلقى أنفسها في المركب حتي كدنا نغرق من كثرتها فصاح الركاب خوفا من الهلاك قال فتذكرت الدينار الذى معي وأن هذا ربما كان بسببه فأخرجته من جيبي وألقيته في الماء فتواثبت الاسماك من المركب وألقت نفسها في الماء حتى لم يبق منها شيء * قلت وأخبرنى قديما بعض من لا أتهمه أنه ظفر بطلسم من هذا المعنى وأنه عنده وأراد أن يرينى السمك بيبت من الماء فلم يقدر لى أن أرى ذلك قال ابن عبد الحكم لما أغرق الله آل فرعون بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق بها الا العبيد والاجراء والنساء فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت زبا وكان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت في شرف منهن وموضع وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة فملكوها فخافت أن يتناولها الملوك فجمعت نساء الاشراف وقالت لهن ان بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ولا يمد عينه اليها وقد هلك أكابرنا وأشرافنا وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم وقد رأيت أن أبني حصنا أحدق به جميع بلادنا فأضع عليه المحارس من كل ناحية فانا لا نأمن أن يطمع فينا الناس فبنت جدارا أحاطت به على جميع ارض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت فى كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالاجراس فاذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الاجراس فاتاهم الخبر من اى وجه كان في ساعة واحدة فنظروا فى ذلك فمنعت بذلك مصر ممن ارادها وفرغت من بنائه في ستة اشهر وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة قال المسعودى وقيل انما بنته خوفا على ولدها وكان كثير القنص فخافت عليه سباع البر والبحر

واغتيال من جاور ارضهم من الملوك والبوادى فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها وقد قيل غير ما وصفنا فملكتهم ثلاثين سنة فى قول قال المؤلف رحمه الله قد بقى من حائط العجوز هذا في بلاد الصعيد بقايا أخبرنى الشيخ المعمر محمد بن المسعودى أنه سار في بلاد الصعيد على حائط العجوز ومعه رفقة فاقتلع احدهم منها لبنة فاذا هى كبيرة جدا تخالف المعهود الآن من اللبن في المقدار فتناولها القوم واحدا بعد واحد يتأملونها وبيناهم فى رؤيتها اذ سقطت الى الارض فانفلقت عن حبة فول فى غاية الكبر الذى يتعجب منه لعدم مثله فى زماننا فقشروا ما عليها فوجدوها سالمة من السوس والعيب كأنها قريبة عهد بحصادها لم يتغير فيها شيء البتة فاكلها الجماعة قطعة قطعة وكأنها انما خبئت لهم من الزمن القديم والاعصر الخالية انه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها * قال ابن عبد الحكم وكان ثم عجوز ساحرة يقال لها بدور وكانت السحرة تعظمها وتقدمها في علمهم وسحرهم فبعثت اليها دلوكة ابنة زبا انا قد احتجنا الى سحرك وفزعنا اليك ولا نأمن أن يطمع فينا الملوك فاعملى لنا شيئا نغلب به من حولنا فقد كان فرعون يحتاج اليك فكيف وقد ذهب أكابرنا يعني في الغرق مع فرعون موسي وبقى أقلنا فعملت بربا من حجارة فى وسط مدينة منف وجعلت لها اربعة ابواب كل باب منها الى جهة القبلة والبحر والغرب والشرق وصورت فيه صور الخيل والبغال والحمير والسفن والرجال وقالت لهم قد عملت لكم عملا يهلك به كل من أرادكم من كل جهة تؤتون منها برا أو بحرا وهذا يغنيكم عن الحصن ويقطع عنكم مؤنة من أتاكم من كل جهة فانهم ان كانوا فى البر على خيل أو بغال أو ابل أو فى سفن أو رجالة تحركت هذه الصور من جهتهم التي يأتون منها فما فعلتم بالصور من شيء أصابهم ذلك فى انفسهم على ما تفعلون بهم فلما بلغ الملوك حولهم أن امرهم قد صار الى ولاية النساء طمعوا فيهم وتوجهوا اليهم فلما دنوا من عمل مصر تحركت تلك الصور التي في البربا فطفقوا لايهيجون تلك الصور بشيء ولا يفعلون بها شيئاً الا أصاب ذلك الجيش الذى كان اقبل اليهم مثله ان كان خيلا فما فعلوا بتلك الخيل المصورة فى البربا من قطع رؤسها أو سوقها أو فقء عيونها أو بقر بطونها أثر مثل ذلك بالخيل التي ارادتهم وان كانت سفنا أو رجالة فمثل ذلك وكانوا أعلم الناس بالسحر وأقواهم عليه وانتشر ذلك فتبادرهم الناس وكان نساء اهل مصر حين غرق فرعون وقومه ولم يبق الا العبيد والاجراء لم يصبرن عن الرجال فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه وتتزوج الاخرى أجيرها وشرطن على الرجال أن لايفعلوا شيئا الا باذنهن فاجابوهن في ذلك فكان أمر النساء على الرجال قال يزيد بن أبي حبيب ان نساء القبط على ذلك الى اليوم اتباعا لمن مضى منهم لايبيع احد منهم ولا يشترى الا قال استأمر امرأتي فملكتهم دلوكة بنت زبا عشرين سنة تدبر أمرهم بمصر حتى بلغ صبي من أبناء أكابرهم وأشرافهم يقال له دركون بن بلوطس فملكوه

عليهم فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز نحوا من أربعمائة سنة وكلما انهدم من ذلك البربا الذى صور فيه الصور لم يقدر أحد على اصلاحه الا تلك العجوز وولدها وولد ولدها وكانوا أهل بيت لا يعرف ذلك غيرهم فانقطع اهل ذلك البيت وانهدم من البربا موضع في زمان لقاس بن مرينوس فلم يقدر أحد على اصلاحه ومعرفة علمه وبقى على حاله وانقطع ما كان يقهرون به الناس وبقوا كغيرهم الا أن الجمع كثير والمال عندهم فلما قدم بخت نصر بيت المقدس وظهر على بني اسرائيل وسباهم وخرج بهم الى ارض بابل قصد مصر وخرب مدائنها وقراها وسبي جميع اهلها ولم يترك بها شيئاً حتى بقيت مصر اربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن يجرى نيلها ويذهب لا ينتفع به ثم رد أهل مصر اليها بعد أربعين سنة فعمروها ولم تزل مقهورة من يومئذ * وقال بعض الحكماء رأيت البرابي وأخذت أتأملها فوجدتها مستحكمة على جميع أشكال الفلك والذى ظهر لي أنه لم يعملها حكيم واحد بل تولى عملها قوم بعد قوم حتى تكاملت في دور كامل وهو ستة وثلاثون ألف سنة شمسية لان مثل هذه الاعمال لا تعمل الا بالارصاد ولا يتكامل رصد المجموع في اقل من هذه المدة المذكورة وكانوا يجعلون الكتاب حفرا ونقرا في الصخور ونقشا في الحجارة وحلقة مركبة فى البنيان وربما كان الكتاب هو الحفر اذا كان متضمنا لامر جسيم أو عهدا لامر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها أو أحياء شرف يريدون تخليد ذكره وقد كتب غير المصريين كذلك كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمر قند وعلى عمود مارب وعلى ركن المستقر وعلى الابلق المفرد وعلى باب الرها وكانوا يعمدون الى الاماكن الشريفة والمواضع المذكورة فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور وأمنعها من الدروس وأحذر أن يراها من مربها ولا ينسى على طول الدهر * وقال المسعودى واتخذت دلوكة بمصر البرابي والصور وأحكمت آلات السحر وجعلت فى البرابي صور من يرد من كل ناحية ودوابهم ابلا كانت أو خيلا وصورت فيها من يرد من البحر في المراكب من بحر الغرب والشام وجمعت في هذه البرابي العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الاحجار والنباتات والحيوانات وجعلت ذلك في اوقات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية وكانوا اذا ورد اليهم جيش من نحو الحجاز واليمن عورت تلك الصور التي في البربا من الابل وغيرها فيتعور مافى ذلك الجيش وينقطع عنهم ناسه وحيوانه واذا كان الجيش من نحو الشام فعل فى تلك الصور التي من تلك الجهة التي أقبل منها جيش الشام ما فعل بما وصفنا فيحدث في ذلك الجيش من الآفات في ناسه وحيوانه ما صنع فى تلك الصور التي من تلك الجهة وكذلك من ورد من جيوش الغرب ومن ورد في البحر من رومية والشام وغير ذلك من الممالك فهابهم الملوك والامم ومنعوا ناحيتهم من عدوهم واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز واتقانها لزم أقطار المملكة وأحكامها

السياسية *(وقد) تكلم من سلف وخلف فى هذه الخواص وأسرار الطبيعة التي كانت ببلاد مصر وهذا الخبر من فعل العجوز مستفيض لايشكون فيه والبرابى بمصر من صعيدها وغيره باقية الى هذا الوقت وفيها انواع الصور مما اذا صورت فى بعض الاشياء أحدثت أفعالا على حسب ما رسمت له وصنعت من اجله على حسب قولهم فى الطبائع والله أعلم بكيفية ذلك (قال) وأخبرنى غير واحد من بلاد اخميم من صعيد مصر عن أبى الفيض ذى النون بن ابراهيم المصري الاخميمى الزاهد وكان حكيما وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يعضدها وكان ممن يقر على اخبار هذه البرابى وامتحن كثيرا مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال رأيت فى بعض البرابي كتابا تدبرته فاذا هو أحذر العبيد المعتقين والاحداث والجند المتعبدين والنبط المستعربين ورأيت فى بعضها كتابا تدبرته فاذا فيه يقدر المقدر والقضاء يضحك وفى آخره كتابة تنبئها فى ذلك العلم فوجدتها

تدبر بالنجوم ولست تدري * ورب النجم يفعل ما يريد

قال وكانت هذه الامة التي اتخذت هذه البرابي لهجة بالنظر فى أحكام النجوم من المواظبين على معرفة أسرار الطبيعة وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفانا سيكون في الارض ولم يقطع على ذلك الطوفان ما هو أنار تأتى على الارض فتحرق ما عليها أو ماء يغرقها أو سيف يبيد أهلها فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء اهلها فاتخذت هذه البرابي ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة وجعلت بنيانها نوعين طينا وحجارة وفرزت مابنى بالطين مما بنى بالحجارة وقالت ان كان هذا الطوفان نارا استحجر ما بنى بالطين وان كان الطوفان الوارد ماء أذهب مابنينا بالطين ويبقى مابنى بالحجارة وان كان الطوفان سيفا بقى كل من النوعين مما هو من الطين وما هو من الحجر وهذا ما قيل والله أعلم انه كان قبل الطوفان وان الطوفان الذى كانوا يرقبونه ولم يعينوه أنار هو أم ماء أم سيف كان سيفا أتى على جميع اهل مصر من أمة غشيتها وملك نزل عليها فأباد أهلها ومنهم من رأى أن ذلك الطوفان كان وباء عم اهلها ومصداق ذلك ما يوجد ببلاد تنيس من التلال المتقذرة من الناس من صغير وكبير وذكر وأنثى كالجبال العظام وهى المعروفة ببلاد تنيس من ارض مصر بذات الكوم وما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض في الكهوف والغيران والنواويس ومواضع كثيرة من الارض لايدرى من اى الامم هم فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ولا اليهود تقول انهم من اوائلهم ولا المسلمون يدرون من هؤلاء ولا تاريخ ينبيء عن حالهم وعليهم أثوابهم وكثيرا ما يوجد فى تلك البرابي والجبال من حليتهم * والبرابى ببلاد مصر بنيان قائم عجيب كالبربا التي بأخميم والتي بسمنود وغير ذلك

ذكر الدفائن والكنوز التي تسميها أهل مصر المطالب

الاصل في جواز تتبع الدفائن مارواه أبو عمرو بن عبد البر والبيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف من الطائف مر بقبر أبي رغال فقال هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف كان اذا هلك قوم صاح في الحرم فمنعه الله فلما خرج من الحرم رماه بقارعة وآية ذلك أنه دفن معه عمود من ذهب فابتدر المسلمون قبره فنبشوه واستخرجوا العمود منه ومن حديث عبد الله بن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر فقال هذا قبر أبي رغال وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج أصابته النقمة التي اصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه عصا من ذهب ان نبشتم عليه اصبتموه معه فابتدره الناس فأخرجوا العصا الذى كان معه * وبمصر كنوز يوسف عليه السلام وكنوز الملوك من قبله والملوك من بعده لانه كان يكنز ما يفضل عن النفقات والمؤن لنوائب الدهر وهو قول الله عز وجل فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ويقال ان علم الكنوز فى كنيسة القسطنطينية نقلت اليها من طليطلة ويقال ان الروم لما خرجت من الشام ومصر اكتنزت كثيرا من أموالها في مواضع أعدتها لذلك وكتبت كتبا بأعلام مواضعها وطرق الوصول اليها وأودعت هذه الكتب قسطنطينية ومنها يستفاد معرفة ذلك وقيل ان الروم لم تكتب وانما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين والكلدانيين والقبط فلما خرجوا من مصر والشام حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها في الكنيسة وقيل انه لايعطى من ذلك احد حتى يخدم الكنيسة مدة فيدفع اليه ورقة تكون حظه قال المسعودى ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان وما يوجد فى الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الارض وغيرهم من الامم ممن سكن تلك الارض وتدعى بالمطالب الى هذه الغاية وقد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا * (فمن أخبارها) ما ذكره يحيى بن بكير قال كان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر لاخيه عبد الملك بن مروان فأتاه رجل متنصح فسأله عن نصحه فقال بالقبة الفلانية كنز عظيم قال عبد العزيز وما مصداق ذلك قال هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر والرخام عند يسير من الحفر ثم ينتهى بنا الحفر الى باب من الصفر تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرد ورأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود فأمر له عبد العزيز بنفقة لاجرة من يحفر من الرجال في ذلك ويعمل فيه وكان هناك تل عظيم فاحتفروا حفيرة عظيمة في الارض والدلائل المقدم ذكرها من الرخام والمرمر تظهر فازداد عبد العزيز حرصا على ذلك وأوسع فى النفقة واكثر من الرجالة ثم انتهوا فى حفرهم الى ظهور رأس الديك فبرق عند ظهوره

لمعان عظيم لما في عينيه من الياقوت ثم بان جناحاه ثم بانت قوائمه وظهر حول العمود عمود من البنيان بانواع الحجارة والرخام وقناطر مقنطرة وطاقات على أبواب معقودة ولاحت منها تماثيل وصور اشخاص من أنواع الصور الذهب وأجربة من الاحجار قد أطبق عليها أغطيتها وسبكت فركب عبد العزيز بن مروان حتي أشرف على الموضع فنظر الى ماظهر من ذلك فأسرع بعضهم ووضع قدمه على درجة من نحاس ينتهي الى ماهناك فلما استقرت قدماه على المرقاة ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعا وهوى جسمه سفلا فلما استقر جسمه على بعض الدرج اهتز العمود وصفر الديك صفيرا عجيبا أسمع من كان بالبعد من هناك وحرّك جناحيه وظهرت من تحته أصوات عجيبة قد عملت بالكواكب والحركات اذا مال وقع على بعض تلك الدرج شئ أوماسها شئ انقلبت فتهاوي من هناك من الرجال الى أسفل تلك الحفرة وكان فيها ممن يحفر ويعمل وينقل التراب وينظر ويحول ويأمر وينهى نحو ألف رجل فهلكوا جميعا فخرج عبد العزيز وقال هذا ردم عجيب الامر ممنوع النيل نعوذ بالله منه وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس فكان الموضع قبرا لهم * قال المسعودى وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قداعتنى وأغري بحفر الحفائر وطلب الكنوز ودخائر الملوك والامم السالفة المستودعة بطن الارض ببلاد مصر قد وقع اليهم كتاب ببعض الاقلام السالفة فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الاهرام بأن فيه مطلبا عجيبا فأخبروا الاخشيد محمد بن طفج بذلك فأمرهم بحفره وأباحهم استعمال الحيلة في اخراجه فحفروا حفرا عظيما الى أن انتهوا الى أزج وأقباء وحجارة مجوفة في صخرة منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من الخشب قد طلي بالاطلية المانعة من سرعة البلاء وتفرق الاجزاء والصور مختلفة فيها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والزبرجد والفيروزج ومنها ما وجوهها ذهب وفضة فكسر بعض تلك التماثيل فوجدوا في أجوافها رمما بالية وأجساما فانية والى جانب كل تمثال منها نوع من الابنية كالبرابي وغيرها من المرمر والرخام وفيه من الطلى الذي قد طلي منه ذلك الميت الموضوع في التماثيل الخشب والطلاء دواء مسحوق واخلاط معمولة لارائحة لها فجعل منه على النار شئ ففاح منه ريح طيبة مختلفة لاتعرف فى نوع من انواع الطيب وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة مافيه من الناس على اختلاف اسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم وبازاء كل تمثال تمثال من الحجر المرمر أو من الرخام الاخضر على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور عليها أنواع من الكتابات لم يقف أحد على استخراجها من أهل الملل وزعم قوم من أهل الدراية أن لذلك القلم منذ فقد من أرض مصر أربعة

آلاف سنة وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا نصاري ولم يؤدهم الحفر الا لما ذكرناه من هـذه التماثيل وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلمائة وقد كان من سلف وخلف من ولاة مصر من أحمد بن طولون وغيره الى هذا الوقت وهو سنة ثنتين وثلاثين وثلمائة لهم أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والاموال والجواهر وما أصيب في هذه المطالب من القبور وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا *(وركب) احمد بن طولون يوما الى الاهرام فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف ومعهم المساحي والمعاول فسألهم عن مايعملون فقالوا نحن قوم نطلب المطالب فقال لهم لاتخرجوا بعدها الا بمشورتي أو رجل من قبلي وأخبروه أن في سمت الاهرام مطلبا قد عجزوا عنه فضم اليهم الرافقى وتقدم الى عامل الجيزة في اعانتهم بالرجال والنفقات وانصرف فأقاموا مدة يعملون حتي ظهر لهم فركب احمد بن طولون اليهم وهم يحفرون فكشفوا عن حوض مملوء دنانير وعليه غطاء مكتوب عليه بالبربطية فأحضر من قرأه فاذا فيه انا فلان بن فلان الملك الذى ميز الذهب من غشه ودنسه فمن أراد أن يعلم فضل ملكى على ملكه فلينظر الى فضل عيار ديناري على عيار ديناره فان مخلص الذهب من الغش مخلص في حياته وبعد وفاته فقال احمد بن طولون الحمد لله ان مانبهتني عليه هـذه الكتابة أحب الى من المال ثم أمر لكل من القوم المطالبية بمائتي دينار منه ولكل من الصناع بخمسة دنانير بعد توفية أجرة عمله وللرافقى بثلثمائة دينار ولنسيم الخادم بألف دينار وحمل باقي الدنانير فوجدها أجود من كل عيار وشدد من حينئذ في العيار بمصر حتي صار عيار ديناره الذي عرف بالاحمدى اجود عيار وكان لايطلى الابه

ذكر هلاك أموال أهل مصر

قال الله عز وجل وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتي يروا العذاب الاليم قال قد أجيبت دعوتكما هذا دعاء من موسى عليه السلام على فرعون وقومه من أهل مصر لكفرهم أن يهلك الله أموالهم قال الزجاج طمس الشئ اذهابه عن صورته * عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وعن محمد بن كعب القرظى أنهما قالا صارت اموال أهل مصر ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا فلم يبق معدن الاطمس الله عليه فلم ينتفع به احد بعدهم وقال قتادة بلغنا أن اموالهم وزروعهم صارت حجارة وقال مجاهد وعطية أهلكها الله تعالى حتي لاتري يقال عين مطموسة أى ذاهبة وطمس الموضع اذا عفا ودرس وقال ابن زيد صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة وقال محمد بن كعب وكان الرجل منهم يكون مع اهله وفراشه وقد صارا

حجرين قال وقد سألني عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك فدعا بخريطة اصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وانها لحجارة وقال محمد بن شهاب الزهرى دخلت على عمر ابن عبد العزيز فقال يا غلام ائتني بالخريطة فجاء بخريطة نثر ما فيها فاذا فيها دراهم ودنانير وتمر وجوز وعدس وفول فقال كل يا ابن شهاب فاهويت فاذا هو حجارة فقلت ما هذا يا أمير المؤمنين قال هذا مما أصاب عبد العزيز بن مروان في مصر اذ كان عليها واليا وهو مما طمس الله عليه من اموالهم وقال المضارب بن عبد الله الشامى أخبرني من رأي النخلة بمصر مصروعة وانها لحجر ولقد رأيت ناسا كثيرا قياما وقعودا فى أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم أنهم أناس وانهم لحجارة ولقد رأيت الرجل من رقيقهم وانه لحارث على ثورين وانه وثوريه لحجارة ونقل وسمة بن موسى فى قصص الانبياء أن فرعون لما هلك وقومه وآمنت بنو اسرائيل بما تلته ندب موسي عليه السلام من نقبائه الاثني عشر نقيبين احدهما كالب بن موقيا والآخر يوشع بن نون مع كل واحد من سبطه اثنا عشر الفا وأرسلهما الي مصر وقد خلت من حاميها لغرق اهلها مع فرعون فأخذوا ذخائر فرعون وكنوزه وعادوا الى موسى فذلك توريثهم أرض مصر يعني قول الله عز وجل عن قوم فرعون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها قوما آخرين وقوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها يعني ارض مصر اورثناها بني اسرائيل لانهم هم المستضعفون الذين كانوا فيها بدليل قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض * قال جامعه ومؤلفه رحمه الله تعالى أخبرنى داود بن رزق ابن عبد الله وكانت له سياحات كثيرة بارض مصر أنه عبر الى واد بالقرب من القلمون بالوجه القبلى فرأى فيه مقاتات كثيرة ما بين بطيخ وقثاء وتفاح وكلها حجارة وكان قد أخبرني قديما بعض الاعيان أنه شاهد فى سفره الى البلاد من ارض مصر بطيخا كثيرا كله حجارة وكذلك البطيخ من الصيف الذى يقال له العبدلى

﴿ ذكر أخلاق اهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم ﴾

قال ابو الحسن على بن رضوان الطبيب مصر اسم فيما نقلت الرواة يدل على احد اولاد نوح النبى عليه السلام فانهم ذكروا أن مصر هذا نزل بهذه الارض فأنزل فيها وعمرها فسميت باسمه والذى يدل عليه هذا الاسم اليوم هو الارض التي يفيض عليها النيل ويحيط بها حدود اربعة وهي أن الشمس تشرق على اقصي العمارة بالشرق قبل أن تغيب عن آخر العمارة بالغرب بثلاث ساعات وثلثى ساعة فيجب من ذلك أن تكون هذه الارض فى النصف الغربى من الربع العامر والنصف الغربي من الربع العامر علي ما قال

ابقراط وبطليموس أقل حرارة وأكثر رطوبة من النصف الشرقى لانه قسم كوكب القمر والنصف الشرقي في قسم كوكب الشمس وذلك أن الشمس تشرق على النصف الشرقي قبل شروقها على النصف الغربي والقمر يهل على النصف الغربي قبل النصف الشرقي وقد زعم قوم من القدماء أن أرض مصر فى وسط الربع من المعمور من الارض بالطبع فأما بالقياس فعلى ما ذكرنا من أنها فى النصف الغربى والحد الثالث هو أن أول بعد هذه الارض عن خط الاستواء في جهة الجنوب اسوان وبعدها عن خط الاستواء اثنان وعشرون درجة ونصف فالشمس تسامت رؤس اهلها مرتين في السنة عند كونها في آخر الجوزاء أو فى أول السرطان وفي هذين الوقتين لا يكون للقائم باسوان نصف النهار ظل أصلا فالحرارة واليبس والاحراق غالب على مزاجها لان الشمس تنشف رطوباتها ولذلك صارت ألوانهم سودا وشعورهم جعدة لاحتراق ارضهم والحد الرابع هو أن آخر بعد أرض مصر عن خط الاستواء في جهة الشمال طرف بحر الروم وعليه من أرض مصر بلدان كثيرة كالاسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس والفرما وبعد دمياط عن خط الاستواء في الشمال أحد وثلاثون جزأ وثلث وهذا البعد هو آخر الاقليم الثالث وأول الاقليم الرابع فالشمس لا تبعد عنهم كل البعد ولا تقرب منهم كل القرب فالغالب عليهم الاعتدال مع ميل يسير الى الحرارة فان الموضع المعتدل على الصحة من البلدان العامرة وهو أول وسط الاقليم الرابع وأيضا فمجاورة دمياط للبحر واحاطته بها تجعلها معتدلة بين الحر والبرد خارجة عن الاعتدال الى الرطوبة فيكون الغالب عليها المزاج الرطب الذى ليس بحار ولا بارد ولذلك صارت ألوانهم سمرا وأخلاقهم سهلة وشعورهم سبطة واذا كان اول مصر من جهة الجنوب الغالب عليه الاحتراق وآخرها من جهة الشمال الغالب عليها الاعتدال مع ميل يسير نحو الحرارة فما بين هذين الموضعين من أرض مصر الغالب عليه الحرارة وتكون قوة حرارته بقدر بعده من أسوان وقربه من بحر الروم ومن أجل هذا قال أبقراط وجالينوس ان المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة قال وجبل لوقا فى مشرق هذه الارض يعوق عنها ريح الصبا فانه لم يوجد بفسطاط مصر صبا خالصة لكن متى هبت الصبا عندهم هبت نكبا بين المشرق والشمال أو المشرق والجنوب وهذه الرياح يابسة مانعة من العفن وقد عدمت أهل مصر هذه الفضيلة ومن أجل ذلك صارت المواضع التى تهب فيها ريح الصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها كالاسكندرية وتنيس ويعوق أيضا هذا الجبل اشراق الشمس على أرض مصر واذا كانت على الافق فيكون زمان لبث الشعاع على هذه الارض أقل من الطبيعي ومثل هذه الحال سبب لركود الهواء وغلظه وأرض مصر أرض كثيرة الحيوان والنبات جدا لا تكاد تجد فيها موضعا خلوا من الحيوان والنبات وهى أرض متخلخلة فانك تراها عند انصراف النيل بمنزلة الحمأة فاذا حلت

الحرارة مافيها من الرطوبة تشققت شقوقا عظاما والمواضع الكثيرة الحيوان والنبات أرض
كثيرة العفونة وقد اجتمع على أرض مصر حرارة مزاجها وكثرة ما فيها من الحيوان
والنبات فأوجب ذلك احتراقها وسواد طينها فصارت أرضا سوداء وما قرب منها من الجبل
سبخ اما بورقي" أو مالح ويظهر من أرض مصر بالعشيات بخار أسود أو أغبر وخاصة في أيام
الصيف وأرض مصر ذات أجزاء كثيرة ويختص كل جزء منها بشيء دون غيره وعلة ذلك
ضيق عرضها واشتمال طولها على عرض الاقليم الثاني والثالث فان الصعيد فيه من النخل
والسنط وآجام القصب والبردى ومواضع احراق الفحم وغير ذلك شيء كثير والفيوم فيه
من النقائع وآجام القصب ومواضع تعطين الكتان شيء كثير وأسفل أرض مصر فيه من
النبات أنواع كثيرة كالقلقاس والموز وغير ذلك وبالجملة فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء
تختص بها وتتفضل عن غيرها قال والنيل يرطب يبس الصيف والخريف فقد استبان أن
المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة الفضلية وانها ذات أجزاء كثيرة وأن
هواءها وماءها رديئان وقد بين الاوائل أن المواضع الكثيرة العفن يتحلل منها في الهواء
فضول كثيرة لاتدعه يستقر على حال لاختلاف تصعدها وقد كان استبان أن هواء أرض
مصر يسرع اليه التغير لان الشمس لايثبت على أرض مصر شعاعها المدة الطبيعية فمن أجل
هذين كثر اختلاف هواء أرض مصر فصار يوجد فى اليوم الواحد على حالات مختلفة مرة
حر ومرة برد ومرة يابس وأخرى رطب ومرة متحرك وأخرى ساكن ومرة الشمس
صاحية ومرة قد سترها الغيم وبالجملة هواء مصر كثير الاختلاف غير لازم لطريقة واحدة
فيصير من أجل ذلك في الاوعية والعروق من أخلاط البدن لايلزم حدا واحدا وأيضا
فان مايتحلل كل يوم من البخار الرطب بأرض مصر يعوقه اختلاف الهواء وقلة سمك
الجبال وكثرة حرارة الارض عن الاجتماع فى الجو فاذا برد الهواء ببرد الليل انحدر هذا
البخار على وجه الارض فيتولد عنه الضباب الذى يحدث عنه الطل والندا وربما تحلل هذا
البخار بالتحلل الخفى فاذا تحلل كل يوم ما كان اجتمع من البخار في اليوم الذى قبله فمن
أجل هذا لايجتمع الغيم الممطر بأرض مصر الا فى الندرة وظاهر أيضا أن أرض مصر يترطب
هواؤها فى كل يوم بما يترقي اليه من البخار الرطب وما يتحلل (وقد قال) بعض الناس ان
الضباب يتكون من استحالة الهواء الى طبيعة الماء فاذا انضاف هذا الى ما قلناه كان أزيد فى
بيان سرعة تغير الهواء بأرض مصر وكثرة العفونة فيها وقد استبان أن أرض مصر كثيرة
الاختلاف كثيرة الرطوبة الفضلية التي يسرع اليها العفن (والعلة القصوى) فى جميع ذلك هو
أن أخص الاوقات بالجفاف فى الارض كلها يكثر فيه بمصر الرطوبة لانها تترطب فى الصيف
والخريف بمد النيل وفيضه وهذا بخلاف ما عليه البلدان الأخر * وقد علمنا أبقراط أن

رطوبة الصيف والخريف فضلية أعنى خارجة عن المجرى الطبيعى كرطوبة المطر الحادث فى الصيف ومن أجل هذه قلنا ان رطوبة مصر فضلية وذلك أن الحرارة واليبس هو بالحقيقة مزاج مصر الطبيعى وانما عرض له ما أخرجه عن اليبس الى الرطوبة الفضلية بمد النيل فى الصيف والخريف ولذلك كثرت العفونات بهذه الارض فهذا هو السبب الاعظم فى أن صارت أرض مصر على ما هي عليه من سخافة الارض وكثرة العفن ورداءة الماء والهواء الا أن هذه الاشياء لا تحدث فى ابدان المصريين استحالة محسوسة اذا جرت على عادتها من أجل الف المصريين لهذه الحال ومشاكلة ابدانهم لها فان كل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان والنبات مشابه لما عليه مصر فى سخافة الابدان وضعف القوى وكثرة التغير وسرعة الوقوع فى الامراض وقصر المدة كالحنطة بمصر فانها وشيكة الزوال سريع اليها العفن فى المدة اليسيرة ولا مطعن أن أبدان الناس وغيرهم تخالف ما عليه الحنطة من سرعة الاستحالة وكيف لايكون الامر كذلك وأبدانهم مبنية من هذه الاشياء فحال ما يتولد بارض مصر من النبات والحيوان فى السخافة وكثرة الفضول والعفن وسرعة الوقوع في الامراض كحال سخافة أرضها وعفنها وفضولها وسرعة استحالتها لان النسبة واحدة ولذلك أمكن حياة الحيوان فيها ونبات النبات بها فان هذه الاشياء من حيث ناسبتها ولم تبعد من مشاكلتها أمكن حياتها (فاما) الاشياء الغريبة فانها اذا دخلت الى مصر تغيرت في أول لقائها لهذا الهواء حتى اذا استقرت وألفت الهواء واستمرت عليه صحت مشاكلة لارض مصر *قال وأما جنس مايؤكل ويشرب بارض مصر فان الغلات سريعة التغير سخيفة متخلخلة تفسد في الزمان اليسير كالحنطة والشعير والعدس والحمص والباقلاء والجلبان فان هذه تسوس في المدة القليلة ليس لشيء من الاغذية التي تعمل منها لذاذة ما لنظيره فى البلدان الأخر وذلك أن الخبز المعمول من الحنطة بمصر متى لبث يوما واحدا بليلته لايؤكل وان أكل لم يوجد له لذاذة ولا تماسك لبعضه ببعض ولا يوجد فيه علوكة ولكنه يتكرج فى الزمان اليسير وكذلك الدقيق وهذا خلاف أخبار البلدان الأخر وكذلك الحال فى جميع غلات مصر وفواكهها وما يعمل فيها فانها وشيكة الزوال سريعة الاستحالة والتغير فأما مايحمل من هذه الى مصر فظاهر أن مزاجها يتبدل باختلاف الهواء عليها ويستحيل عما كانت عليه الى مشاكلة أرض مصر الا أن ما كان حديثا قريب العهد بالسفر فقد بقيت فيه من جودته بقايا صالحة فهذا حال الغلات (وأما) الحيوان الذى يأكله الناس فالبلدى منه مزاجه مشاكل لمزاج الناس بهذه الاراضي فى السخافة وسرعة الاستحالة فهو على هذا ملايم لطبائعهم والمجلوب كالكباش البرقية فالسفر يحدث فى ابدانها تحلا ويبسا وأخلاطا لاتشاكل أخلاط المصريين ولهذا اذا دخلت مصر مرض اكثرها فاذا استقرت زمانا صالحا تبدل مزاجها ووافق مزاج المصريين (وأهل مصر) يشرب الجمهور منهم من ماء

النيل وقد قلنا فى ماء النيل ما فيه كفاية وبعضهم يشرب مياه الآبار وهى قريبة من مشا كلتهم والمياه المخزونة فقل من يشربها بأرض مصر وأجود الاشربة عندهم الشمشى لان العسل الذى فيه يحفظ قوّته ولا يدعه يتغير بسرعة والزمان الذى يعمل فيه خالص الحرّ فهو ينضجه والزبيب الذى يعمل منه مجلوب من بلاد أجود هواء (وأما الخمر) فقل من يعتصرها الا ويلقى معها عسلا وهي معتصرة من كرومهم فتكون مشاكلة لهم ولهذا صاروا يختارون الشمسىّ عليها وماعدا الشمسى والخمر من الشراب بأرض مصر فرديء لاخير فيه لسرعة استحالته من فساد مادّته النبيذ التمرى والمطبوخ والمزر المعمول من الحنطة * وأغذية أهل مصر مختلفة فان أهل الصعيد يغتذون كثيرا بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ويحملونها الى الفسطاط وغيرها فتباع هناك وتؤكل وأهل اسفل الارض يغتذون كثيرا بالقلقاس والجلبان ويحملون ذلك الى مدينة الفسطاط وغيرها فتباع هناك وتؤكل وكثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طريا ومالحا وكثيرا يكثرون أكل الالبان وما يعمل منها وعند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها وبالجملة فكل قوم منهم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها الا أن الغالب على أهل مصر الاغذية الرديئة وليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة وهذا أيضا مما يؤكد أمرهم في السخافة وسرعة الوقوع في الامراض وأهل الريف أكثر حركة ورياضة من أهل المدن ولذلك هم أصح أبدانا لان الرياضة تصلب أعضاءهم وتقويها وأهل الصعيد أخلاطهم أرق وأكثر دخانية وتخلخلا وسخافة لشدة حرارة أرضهم من أسفل الارض وأهل أسفل الارض بمصر أكثر استفراغ فضولهم بالبراز والبول لفتور حرارة أرضهم واستعمالهم للاشياء الباردة والغليظة كالقلقاس (وأما) أخلاط المصريين فبعضها شبيه ببعض لان قوى النفس تابعة لمزاج البدن وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء الى شيء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة فى العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي الى السلطان وذم الناس وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التى تكون من دناءة الانفس وليس هذه الشرور عامة فيهم ولكنها موجودة في أكثرهم ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة في النفس لم تسكنها الاسد واذا دخلت ذلت ولم تتناسل وكلابها أقل جراءة من كلاب غيرها من البلدان وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الاخر ما خلا ما كان منها في طبعه ملايمة لهذه الحال كالحمار والارنب * وقال ان جالينوس يرى أن فصل الربيع طبيعته الاعتدال ويناقض من ظن أنه حار رطب ومن شأن هذا الفصل أن تصح فيه الابدان

ويجود هضمها وتنتشر الحرارة الغريزية فيه ويصفو الروح الحيواني لاعتدال الهواء وصفائه ومساواة ليله لنهاره وغلبة الدم والهواء المعتدل هو الذى لا يحس فيه ببرد ظاهر ولا حر ولا رطوبة ولا يبس ويكون في نفسه صافيا نقيا فيقوى فيه الروح الحيوانى لهذا السبب وتصح الابدان ويكثر نشاط الحيوان وتمو الاشياء وتزيد وتتوالد واذا طلبنا بأرض مصر مثل هذا الهواء لم نجده في وقت من السنة الا في أمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس عند ما تكون الشمس في النصف الاخير من الدلو والحوت والحمل والثور فانا نجد بمصر في هذا الزمان أياما معتدلة نقية صافية لا يحس فيها بحر ظاهر ولا برد ولا رطوبة ولا يبوسة وتكون الشمس فيها نقية من الغيوم والهواء ساكنا لا يتحرك الا أن يكون ذلك في برموده وبشنس فانه يحتاج الى أن تهب ريح الشمال ليعتدل ببردها حر الشمس وفي هذا الزمان تكثر حركة الحيوان وسفاده وتحسن أصواته وتورق الاشجار ويعقد الزهر وتقوي القوة المولدة ويغلب كيموس الدم وهذا الفصل في أرض مصر يتقدم زمانه الطبيعي بمقدار ما ينقص عن آخره وعلة ذلك قوة حرارة هذه الارض وقد يعرض في أول هذا الفصل أيام شديدة البرد وذلك في أمشير اذا هبت ريح الشمال وكانت الشمس غير نقية من الغيوم وعلة ذلك دخول فصل الربيع في فصل الشتاء فاذا هبت ريح الشمال برد ببردها الهواء فاعادته بعد الاعتدال الى البرد ولكثرة ما يصعد من الارض في هذا الزمان من البخار الرطب يرطب الهواء ويعود الى حاله في فصل الشتاء وربما برد الهواء من هبوب رياح أخر فان ريح الجنوب التي هي أشد الرياح حرارة اذا هبت في هذا الزمان اكتسبت برودة من الارض والماء اللذين قد بردهما هواء الشتاء فاذا مرت بشئ برّدته ببرودتها العرضية حتى اذا دام هبوبها أياما كثيرة متوالية عادت الى حرارتها وأسخنت الهواء وأحدثت فيه يبسا والدليل على أن برد رياح الجنوب التي تعرفها المصريون بالمريسى يتولد من برد مياه مصر وأرضها لا بشئ طبيعى لها أنه لا يجتمع في الجو في أيام هبوبها الضباب الذى يجتمع من تحليل الحرارة للبخار الرطب بالنهار وجمع البرودة له بالليل لحرارة ريح الجنوب تفرق البرودة عن جمعه وتبدده فى الهواء واذا دام هبوب هذه الريح أسخنت الماء والارض وعادت الى طبيعتها في الحرارة واذا كان فصل الربيع يتقدم زمانه الطبيعي ويختلف هذا الاختلاف والهواء فى الاصل بمصر يختلف بكثرة استحالته وما يرقى اليه من البخار فما ظنك بغيره من الفصول ولذلك كثرت فيه الرياح وأخر الاطباء فيه سقي الادوية المسهلة الى أن يستقر أمره فى شمس الحمل مع الثور ثم يدخل فصل الصيف في آخر بشنس وبؤنة وأبيب وبعض مسرى عند ما تكون الشمس فى الجوزاء والسرطان والاسد وبعض السنبلة فيشتد الحر واليبس فى هذا الزمان وتجف الغلات وتنضج الثمار ويجتمع من أكلها في الابدان كيموسات

رديئة واذا نزلت الشمس فى السرطان أخذ النيل في الزيادة والفيض على أرض مصر فيتغير مزاج الصيف الطبيعي بكثرة ما يترقى الى الهواء من بخار الماء ويوجد فى أول هذا الفصل عند ما تكون الشمس في الجوزاء أيام يشاكل هواؤها هواء الربيع عند ما تكون الشمس مستورة بالغيوم أو تكون الريح الشمال هابة ولهذا يغلط كثير من الاطباء ويسقى الادوية المسهلة في هذا الزمان لظنه أن فصل الربيع لم يخرج الا من كان منهم أحذق فهو يختار ما كان من هذه الايام أسكن حرارة والاكثر لا يشعرون البتة بهذه الحال * وفى آخر الصيف يكون فيض النيل فظاهر أن هذا الفصل يتقدم دخوله الزمان الطبيعي بقدر مايتقدم آخره وانه كثير الاضطراب بكثرة ما يرقي اليه من بخار الارض فلولا استمرار أبدانهم على هذا الاختلاف ومشاكلتهم لهذه الحال لحدثت فيهم الامراض التى ذكر ابقراط أنها تحدث اذا كان الصيف رطبا * ثم يدخل فصل الخريف وطبيعته يابسة من النصف الاخير من مسرى ثم توت وبابة وبعض أيام هاتور وتكون الشمس فى آخر السنبلة والميزان والعقرب فتكمل زيادة النيل فى أول هذا الفصل ويطلق على الارضين فيطبق أرض مصر ويرتفع منه فى الجو بخار كثير فينتقل مزاج الخريف عن اليبس الى الرطوبة حتي انه ربما وقع فيه الامطار وكثرة الغيم في الجو ويوجد في هذا الفصل أيام شديدة الحر لانها على الحقيقة ضعيفة فاذا نقى الجو من البخار الرطب عادت الى طبيعتها من الحرارة وفيه أيضا أيام شديدة الشبه بأيام الربيع تكون عند ما يساوى الليل النهار ويرطب الماء يبس الهواء ويشتد في هذا الفصل اضطراب الهواء بكثرة ما يرتقى اليه من البخار الرطب فيكون مرة حارا وأخري باردا ومرة يابسا وأكثر أوقاته يغلب عليه الرطوبة فلا يزال كذلك يتمزج حتى يغلب عليه رطوبة الماء فى آخر الامر ويصاد فى أيام الخريف من النيل أسماك كثيرة جدا يولد أكلها فى الابدان أخلاطا لزجة وكثيرا ما يستحيل الى الصفراء اذا صادفت فى البدن خلطا صفراويا فمن أجل ذلك يضطرب ما في الابدان من الروح الحيوانى وتهيج الاخلاط ويفسد الهضم فى البطون والاوعية والعروق ويتولد من ذلك كيموسات رديئة كثيرة الاخلاط بعضها مرة صفراء وبعضها مرة سوداء وبعضها بلغم لزج وبعضها خلط خام وبعضها مرة محترقة وكثير منها يتركب من هذه الاشياء فتثير الامراض حتى اذا انصرف النيل فى آخر الخريف وانكشفت الارض وبرد الهواء وكثرت الاسماك واحتقن البخار وكثرما يرتفع به من الارض من العفونة واستحكم عند ذلك وجود العفن تزايدت الامراض ولولا ألف أهل مصر لهذه الاشياء لكان ما يحدث فيهم من الامراض أكثر من ذلك ثم يدخل فصل الشتاء وطبيعته باردة رطبة من النصف الآخر من هاتور ثم كيهك وطوبة وذلك عند ما تكون الشمس في القوس والجدى وبعض الدلو

وذلك أقل من ثلاثة أشهر والعلة في ذلك قوة حرارة أرض مصر وكون الابدان مضطربة وتنكشف الارض في أول هذا الفصل وتحرث وتعفن بالجملة لكثرة ما يلقى فيها من البزور ومافيها من أزبال الحيوان وفضولها ولانها سخيفة وهي كالحمأة فى هذا الزمان فيتولد فيها من أنواع الفار والدود والنبات والعشب وغير ذلك ما لا يحصى كثرة ويحل منها في الجو أبخرة كثيرة حتى يصير الضباب بالغدوات ساترا للابصار عن الالوان القريبة ويصاد أيضا من الاسماك المحبوسة في المياه المخزونة شيء كثير وقد داخلها العفن لقلة حركتها فيولدا كلها في الابدان فضولا كثيرة لزجة شديدة الاستعداد للعفن فتقوي الامراض في أول هذا الفصل حتى اذا اشتد البرد وقوى الهضم في الابدان واستقر الهواء على شيء واحد وعادت الحرارة الغريزية الى داخل وتطبقت الارض بالنبات وسكنت عفونتها صحت عند ذلك الابدان وهذا يكون في آخر كيهك أو في طوبة فقد استبان أن الفصول بارض مصر كثيرة الاختلاف وأن أردأ أقوات السنة عندهم وأكثرها أمراضا هو آخر الخريف وأول الشتاء وذلك في شهر هاتور وكيهك فاذا اختلاف الفصول مشاكل لما عليه أرضهم من الرداءة فمضرة الفصول اذا بالابدان في أرض مصر أقل منها في البلدان الأخر اذا اختلفت هذا الاختلاف واستبان أيضاً أن السبب الاول في ذلك هو مدّ النيل في أيام الصيف وتطبيقه الارض في أيام الخريف بخلاف ماعليه مياه الانهار في العمارة كلها فانها انما تمتد فى أخص الاوقات بالرطوبة وهو الشتاء والربيع * قال وقد استبان مما تقدم أن الرطوبة الفضلية بأرض مصر كثيرة وظاهر أن أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه الرطوبة فاني أنا قلما رأيت أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه كلها لا يشوبها فى أول أمرها البلغم والخلط الخام والامراض كلها تحدث عندهم في الاوقات كلها كما قال أبقراط وأكثر أمراضهم هي الفضلية أعنى العفنة من أخلاط صفراوية وبلغمية على مايشاكل مزاج أرضهم وما ذكرناه فيما تقدم يوجب حدوث الامراض كثيرا الا أن مشاكلة هذه بعضها بعضا واتفاقها في سنة واحدة تمنع من أن تكون في انفسها ممرضة متى لزمت العادة فأما اذا خرجت عن عادتها فهى تحدث مرضا وخروجها عن عادتها بمصر هو الذى أعده اختلافا ممرضا لا الاختلاف الموجود فيها على الدائم والنيل ليس يحدث فى الابدان كل سنة مرضا ولكنه اذا أفرطت زيادته ودام مدة تزيد على العادة كان ذلك سببا لحدوث المرض الوافد فان قيل اذا كانت أبدان الناس بأرض مصر من السخافة على ما ذكرت فلعلها في مرض دائم فالجواب لسنا نبالي بهذا كيف كان لان المرض هو ما يضر بالفعل ضررا محسوسا من غير توسط فمن أجل ذلك ليس أبدان المصريين فى مرض دائم ولكنها كثيرة الاستعداد نحو الامراض قال أما أمراض مصر البلدية فقد ذكرنا من أمرها ما فيه كفاية وظهر أن أكثرها الامراض الفضلية التي يشوبها صفراء وخام على أن باقى

الامراض تحدث عنـدهم بسرعة وقرب وخاصة في آخر الخريف وأول الشتاء * وأما الامراض الوافدة ومعنى المرض الوافد هو ما يعم خلقا كثيرا فى بلد واحد وزمان واحـد ومنه نوع يقـال له الموتان وهو الذى يكثر معه الموت وحدوث الامراض الوافدة تكون عن أسباب كثيرة يجتمع في أجناس أربعة وهى تغير كيفية الهواء وتغير كيفية الماء وتغير كيفية الاغذية وتغير كيفية الاحداث النفسانية فالهواء تغير كيفيته على ضربين أحدهما تغيره الذى جرت به العـادة وهذا لايحدث مرضا وافدا وليس تغيرا ممرضا والثاني التغير الخارج عن مجرى العادة وهـذا هو الذى يحـدث المرض الوافد وكذلك الحال فى الاجناس الباقية وخروج تغير الهواء عن عادته يكون اما بأن يسخن أكثر أو يبرد أو يرطب أو يجفف أو يخالطه حال عفنة والحالة العفنة اما أن تكون قريبة أو بعيـدة فان ابقراط وجالينوس يقولان انه ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلد اليونانيين مرض واحد عن عفونة اجتمعت فى بلاد الحبشة وتراقت الى الجو وانحدرت على اليونانيين فأحدثت فيهم المرض الوافد وقد يتغير أيضا مزاج الهواء عن العادة بأن يصل وفد كثير قد أنهك أبدانهم طول السفر وساءت أخلاطهم فيخالط الهواء منها شيء كثير ويقع الاعداء في الناس ويظهر المرض الوافد والماء أيضا قد يحـدث المرض الوافد اما بأن يفرط بمقداره في الزيادة أو النقصان أو يخالطه حال عفنة ويضطر الناس الى شربه ويعفن به أيضا الهواء المحيط بأبدانهم وهذه الحال تخالطه اما قريبا أو بعيدا بمنزلة مايمر فى جريانه بموضع جرب قد اجتمع فيه من جيف الموتى شيء كثير أو بمياه تقاطع عفنة فيحدرهـا معه ويخالط جسمه والاغذية تحدث المرض الوافد اما اذا لحقها اليرقان وارتفعت أسعارها واضطر الناس الى أكلها واما اذا أكثر الناس منها فى وقت واحد كالذى يكون فى الاعياد فيكثر فيهم التخم ويمرضون مرضا متشابها واما من قبيل فساد مرعى الحيوان الذى يؤكل أو فساد الماء الذى يشرب والاحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدث فى الناس خوف عام من بعض الملوك فيطول سيرهم وتفكرهم فى الخلاص منه وفي وقوع البلاء فيسوء هضمهم وتتغير حرارتهم الغريزية وربما اضطروا الى حركة عنيفة في هذه الحال أو يتوقعوا قحط بعض السنين فيكثرون الحركة والاجتهاد في ادخار الاشياء ويشتد غمهم بما سيحدث فجميع هذه الاشياء تحدث فى أبدان الناس المرض الوافد متي كان المتعرض لها خلق كثير فى بلد واحد ووقت واحد وظاهر أنه اذا كثر في وقت واحد المرضى بمدينة واحدة ارتفع من أبدانهم بخار كثير فيتغير مزاج الهواء فاذا صادف بدنا مستعدا أمرضه وان كان صاحبه لم يتعرض لما يتعرض اليه الناس فالامراض الوافدة بمصر تحدث اما عن فساد لم تجر به العادة يعرض الهواء سواء كان مادة فساده من أرض مصر أو من البلاد التي تجاورها كالسودان والحجاز والشام وبرقة أو يعرض للنيل بأن تفرط

زيادته فتكثر زيادة الرطوبة والعفن أو تقل زيادته جدا فيجف الهواء عن مقدار العادة ويضطر الناس الى شرب مياه رديئة أو يخالطه عفونة تحدث عن جرب يكون بأرض مصر أو ببلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير ويرتفع بخار جيفهم فى الهواء فيعفنه ويتصل عفنه اليهم أو يسيل الماء ويحمل معه العفن أو يغلو السعر أو يلحق الغلات آفة أو يدخل على الكباش ونحوها مضرة أو يلحق الناس خوف عام أو قنوط وكل واحد من هذه الاسباب يحدث فى أرض مصر مرضا وافدا يكون قوته بمقدار قوة السبب المحدث له وان كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشد وأقوى وأسرع فى القتل * قال فمزاج أرض مصر حار رطب بالرطوبة الفضلية وما قرب من الجنوب بارض مصر كان أسخن وأقل عفنا فى ماء النيل مما كان منها فى الشمال ولا سيما من كان فى شمال الفسطاط مثل أهل البشمور فان طباعهم أغلظ والبله عليهم أغلب وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جدا ويشربون من الماء الردىء * وأما اسكندرية وتنيس وأمثال هذه فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد عنهم وظهور الصبا فيهم مما يصلح أمرهم ويرق طباعهم ويرفع هممهم ولا يعرض لهم ما يعرض لاهل البشمور من غلظ الطبع والجمادية واحاطة البحر بمدينة تنيس توجب غلبة الرطوبة عليها وما يسر أخلاق أهلها قال انه لما كانت أرض مصر وجميع مافيها سخيفة الاجسام سريعا اليها التغير والعفن وجب على الطبيب أن يختار من الاغذية والادوية ما كان قريب العهد حديثا لان قوته تعد باقية عليه لم تتغير كل التغير وان يجعل علاجه ملايما لما عليه الابدان بأرض مصر ويجتهد فى أن يجعل ذلك الى الجهة المضادة أميل قليلا ويجتنب الادوية القوية الاسهال وكل ماله قوة مفرطة وان نكاية هذه الابدان سريعة سيما وأبدان المصريين سريعة الوقوع في النكايات ويختار ما يكون من الادوية المسهلة وغيرها ألين قوة حتي لايكون على طبيعة المصريين منها كلفة ولا يلحق أبدانهم مضرة ولايقدم على الادوية الموجودة فى كتب أطباء اليونانيين والفرس فان اكثرها عملت لابدان قوية البنية عظيمة الاخلاط وهذه الاشياء قلما توجد بمصر فلذلك يجب على الطبيب أن يتوقف في اعطاء هذه الادوية للمرضى ويختار ألينها وينقص عن مقدار شربانها ويبدل كثيرا منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه فيتخذ السكنجبين السكرى فى مقام العسلي والجلاب بدلا من ماء العسل واعلم ان هواء مصر يعمل فى المعجونات وسائر الادوية ضعفا فى قوتها فأعمار الادوية المفردة والمركبة المعجون منها وغير المعجون بمصر أقصر من أعمارها في غير مصر فيحتاج الطبيب بمصر الى تقدير ذلك وتمييزه حتى لايشتبه عليه شئ مما يحتاج اليه واذا لم يكتف في تنقية البدن بالدواء المسهل دفعة واحدة فلا بأس باعادته بعد أيام فان ذلك أحمد من ايراد الدواء الشديد القوة في دفعة واحدة قال ولكون أرض مصر تولد في الاجسام سخافة وسرعة قبول للمرض وجب أن تكون الابدان

على الهيئة الفاضلة بأرض مصر قليلة جداً فأما الابدان الباقية فكثيرة وأن تكون الصحة التامة عندهم على الامر الاكثر في القرينة من الهيئة الفاضلة والطريق الاولى التي تدبر بها الابدان ان في الهيئة الفاضلة يحتاج فيها بأرض مصر الى أن يدبر الهواء والغذاء والماء وسائر الاشياء تدبيرا يصير به في غاية الاعتدال ولان الهضم كثيرا ما يسوء بأرض مصر وكذلك الروح الحيواني فيجب صرف العناية الى مراعاة أمر القلب والدماغ والكبد والمعدة والعروق وسائر الاعضاء الباطنة في تجويد الهضم واصلاح أمر الروح الحيواني وتنظيف الاوساخ الاححة وقال في شرح كتاب الاربع لبطليموس وأما سائر أجزاء الربع الذى يميل الى وسط جميع الارض المسكونة أعنى بلاد برقة وسواحل البحر من مريوط الى الاسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس والفرما وأسفل الارض بمصر ونواحي مدينة منف ومدينة الفسطاط وما يلي شرقى النيل من صعيد مصر والفيوم الى أعلى الصعيد مما في غرب النيل وأرض الواحات وأرض النوبة والبجة والارض التي على البحر في شرقى بلاد النوبة والحبشة فان هذه البلاد موضوعة في الزاوية التي تؤثر في جميع الربع الموضوع فيما بين الدبور والجنوب وهى من جملة النصف الغربي من الربع المعمور والكواكب الخمسة المتحيرة تشترك في تدبيرها فصار أهلها محبين لله ويعظمون الجن ويحبون النوح ويدفنون موتاهم فى الارض ويخفونهم ويستعملون سننا مختلفة وعادات وآراء شتى لميلهم الى الاسرار التي تدعو كل طائفة منهم الى أمر من الامور الخفية فيعتقده ويوافقه جماعة ومن أجل هذه الاسرار كان المستخرج للعلوم الدقيقة كالهندسة والنجوم وغيرها في الزمان الاول أهل مصر ومنهم تفرقت فى العالم واذا ساسهم غيرهم كانوا اذلاء والغالب عليهم الجبن والاستحذاء في الكلام واذا ساسوا غيرهم كانت انفسهم طيبة وهممهم كثيرة ورجالهم يتخذون نساء كثيرة وكذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال وهم منهمكون في الجماع ورجالهم كثيرو النسل ونساؤهم سريعات الحمل وكثير من ذكر انهم تكون أنفسهم ضعيفة مؤنثة * وقال أبو الصلت وأما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفو الاصناف والاجناس من قبط وروم وعرب واكراد وديلم وحبشان وغير ذلك من الاصناف الا أن جمهورهم قبط قالوا والسبب فى اختلاطهم تداول المالكين لها والمتغلبين عليها من العمالقة واليونانيين والروم وغيرهم فلهذا اختلطت أنسابهم واقتصروا من التعريف بأنفسهم على الاشارة الى مواضعهم والانتماء الى مساقطهم فيها وحكي أنهم كانوا فى الزمن السالف عباد أصنام ومدبرى هياكل الى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر فتنصروا وبقوا على ذلك الى أن فتحها المسلمون فأسلم بعضهم وبقى بعضهم على دين النصرانية وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك في اللذات والاشتغال بالترهات والتصديق بالمحالات وضعف المرائر

والعزمات ولهم خبرة بالكيد والمكر وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية اليه لما في اخلاقهم من الملق والبشاشة التى أربوا فيها على من تقدم وتأخر وخصوا بالافراط فيها دون جميع الامم حتي صار أمرهم في ذلك مشهورا والمثل بهم مضروبا وفي خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى * ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية * أكول لحيات البلاد شروب
فان يك باق افك فرعون فيكم * فان عصا موسى بكف خصيب

قال مؤلفه رحمه الله تعالى وقد مر لى قديما أن منطقة الجوزاء تسامت رؤس أهل مصر فلذلك يتحدثون بالاشياء قبل كونها ويخبرون بما يكون وينذرون بالامور المستقبلة ولهم في هذا الباب أخبار مشهورة (قال) ابن الطوير وقد ذكر استيلاء الفرنج علي مدينة صور فعاد الحفظ والحراسة على مدينة عسقلان فما زالت محمية بالابدال المجردة اليها من العساكر والاساطيل والدولة تضعف أولا فأولا باختلاف الآراء فثقلت على الاجناد وكبر أمرها عندهم واشتغلوا عنها فضايقها الفرنج حتى أخذوها في سنة ثمان واربعين وخمسمائة ولقد سمعت رجلا قبل ذلك بسنين يحدث بهذه الامور ويقول فى سنة ثمان تؤخذ عسقلان بالامان* ومن هذا الباب واقعة الكنائس التي للنصارى وذلك أنه لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وسبعمائة والناس فى صلاة الجمعة كانما نودى فى أقليم مصر كله من قوص الى الاسكندرية بهدم الكنائس فهدم في تلك الساعة بهذه المسافة الكبيرة عدد كثير من الكنائس كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر كنائس النصارى ومن هذا الباب واقعة ألدمر وذلك أنه خرج الامير ألدمر أمير جندار يريد الحج من القاهرة في سنة ثلاثين وسبعمائة وكانت فتنة بمكة قتل فيها ألدمر يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة فاشيع في هذا اليوم بعينه فى القاهرة ومصر وقلعة الجبل بأن واقعة كانت بمكة قتل فيها ألدمر فطار هذا الخبر في ريف مصر واشتهر فلم يكترث الملك الناصر محمد بن قلاون بهذا الخبر فلما قدم المبشرون على العادة أخبروا بالواقعة وقتل الامير سيف الدين ألدمر في ذلك اليوم الذى كانت الاشاعة فيه بالقاهرة قال جامع السيرة الناصرية كنت مع الامير علم الدين الخازن في الغربية وقد خرج اليها كاشفا فلما صليت انا وهو صلاة الجمعة وعدنا الى البيت قدم بعض غلمانه من القاهرة فأخبرنا أنه أشيع بأن فتنة كانت بمكة قتل فيها جماعة من الاجناد وقتل فيها الامير ألدمر أمير جندار فقال له الامير علم الدين هل حضر أحد من الحجاز بهذا الخبر قال لا فقال ويحك الناس ما تحضر من منى بمكة الا ثالث يوم بعد عيد النحر فكيف سمعتم هذا الخبر الذى لا يسمعه عاقل فقال قد استفيض ذلك وكان الامر كما أشيع (ووقع) لى في شهر

رمضان من شهور سنة احدى وتسعين وسبعمائة أني مررت في الشارع بين القصرين بالقاهرة بعد العتمة فاذا العامة تحدث بأن الملك الظاهر برقوق خرج من سجنه بالكرك واجتمع عليه الناس فضبطت ذلك فكان اليوم الذى خرج فيه من السجن وفي هذا الباب من هذا كثير * (ومن) اخلاق أهل مصر قلة الغيرة وكفاك ماقصه الله سبحانه وتعالى من خبر يوسف عليه السلام ومراودة امرأة العزيز له عن نفسه وشهادة شاهد من أهلها عليها بما بين لزوجها منها السوء فلم يعاقبها على ذلك بسوى قوله استغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين * وقال ابن عبد الحكم وكان نساء أهل مصر حين غرق من غرق منهم مع فرعون ولم يبق الا العبيد والاجراء لم يصبرن عن الرجال فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه وتتزوج الاخرى أجيرها وشرطن على الرجال أن لايفعلوا شيئاً الا باذنهن فأجابوهن الى ذلك فكان امر النساء على الرجال فحدثني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن نساء القبط على ذلك الى اليوم اتباعا لمن مضى منهم لايبيع احدهم ولا يشترى الا قال أستأمر امرأتي وقال ان فرعون لما غرق ومعه أشراف مصر لم يبق من الرجال من يصلح للمملكة فعد الناس فى مراتبهم بنت الملك ملكة وبنت الوزير وزيرة وبنت الوالى وبنت الحاكم على هذا الحكم وكذلك بنات القوّاد والاجناد فاستولت النساء على المملكة مدة سنين وتزوجن بالعبيد واشترطن عليهم أن الحكم والتصرف لهن فاستمر ذلك مدة من الزمان ولهذا صارت ألوان أهل مصر سمرا من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق واستولدوهن وأخبرني الامير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد ابن الغرابيلي الكركى رحمه الله تعالى انه منذ سكن مصر يجد من نفسه رياضة في أخلاقه وترخصا لاهله ولينا ورقة طبع من قلة الغيرة ومما لم نزل نسمعه دائما بين الناس ان شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه * ومن أخلاق أهل مصر الاعراض عن النظر فى العواقب فلا تجدهم يدخرون عندهم زادا كما هي عادة غيرهم من سكان البلدان بل يتناولون أغذية كل يوم من الاسواق بكرة وعشيا ومن أخلاقهم الانهماك فى الشهوات والامعان من الملاذ وكثرة الاستهتار وعدم المبالاة قال لي شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب وقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سأل كعب الاحبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها فقال ان الله تعالى لما خلق الاشياء جعل كل شيء لشئ فقال العقل انا لاحق بالشام فقالت الفتنة وانا معك وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنامعك * ويقال لما خلق الله الخلق خلق معهم عشرة أخلاق الايمان والحياء والنجدة والفتنة والكبر والنفاق والغني والفقر والذل والشقاء فقال الايمان أنا لاحق باليمن فقال الحياء وأنا معك

وقالت النجدة أنا لاحقة بالشام فقالت الفتنة وأنا معك وقال الكبر أنا لاحق بالعراق فقال النفاق وأنا معك وقال الغني أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك وقال الفقر أنا لاحق بالبادية فقال الشقاء وأنا معك وعن ابن عباس رضى الله عنهما المكر عشرة أجزا تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس ويقال أربعة لا تعرف في أربعة السخاء في الروم والوفاء فى الترك والشجاعة فى القبط والعمر في الزنج * ووصف ابن العربية أهل مصر فقال عبيدلمن غلب أكيس الناس صغارا وأجهلهم كبارا (وقال المسعودى) لما فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك كتب الى حكيم من حكماء العصر انا لناس عرب قدفتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الارض ونسكن البلاد والامصار فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والاهوية فى سكانها فكتب اليه وأما أرض مصر فأرض قوراء غوراء ديار الفراعنة ومساكن الجبابرة ذمها اكثر من مدحها هواؤها كدر وحرها زائد وشرها مائد تكدر الالوان والفطن وتركب الاحن وهي معدن الذهب والجوهر ومغارس الغلات غير أنها تسمن الابدان وتسود الانسان وتنمو فيها الاعمار وفي أهلها مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة وهي بلدة مكسب ليست بلدة مسكن لترادف فتنها واتصال شرورها وقال عمر بن شبه ذكر ابن عبيدة في كتاب أخبار البصرة عن كعب الاحبار خير نساء على وجه الارض نساء أهل البصرة الا ماذكر النبي صلى الله عليه وسلم من نساء قريش وشر نساء على وجه الارض نساء أهل مصر وقال عبد الله بن عمر ولما أهبط إبليس وضع قدمه بالبصرة وفرخ بمصر وقال كعب الاحبار ومصر أرض نجسة كالمرأة العاذل يطهرها النيل كل عام * وقال معاوية بن أبى سفيان وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالموالى والثلث الذين لاناس المسالمة يعنى القبط

ذكر شئ من فضائل النيل

أخرج مسلم من حديث أنس رضى الله عنه في حديث المعراج أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثم رفعت الي سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة قلت ماذا ياجبريل قال هذه سدرة المنتهى واذا أربعة انهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ماهذا ياجبريل قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفي التوراة وخلق فردوسا في عدن وجعل الانسان فيه وأخرج منه نهران فقسمهما اربعة أجزاء جيحون المحيط بأرض حويلا وسيحون المحيط بأرض كوش وهو نيل مصر ودجلة الآخذ الى العراق والفرات * وروى ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال نيل مصر سيد الانهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب فاذا أراد الله أن يجرى

نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فتمده الانهار بمائها وفجر الله له الارض عيونا فأجرته الى ما أراد الله عز وجل فاذا انتهت جريته أوحى الى كل ماء أن يرجع الى عنصره وعن يزيد ابن أبي حبيب أن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه سأل كعب الاحبار هل تجد لهذا النيل في كتاب الله خبرا قال أى والذى فلق البحر لموسى اني لاجده في كتاب الله ان الله يوحى اليه في كل عام مرتين يوحى اليه عند جريته ان الله يأمرك أن تجري فيجرى ما كتب الله له ثم يوحى اليه بعد ذلك يانيل عد حميدا وعن كعب الاحبار أنه قال أربعة انهار من الجنة وضعها الله في الدنيا النيل نهر العسل في الجنة والفرات نهر الخمر في الجنة وسيحان نهر الماء فى الجنة وجيحان نهر اللبن في الجنة وقال المسعودى نهر النيل من سادات الأنهار وأشراف البحار لانه يخرج من الجنة على ماورد به خبر الشريعة وقد قال ان النيل اذا زاد غاضت له الانهار والاعين والآبار واذا غاض زادت فزيادته من غيضها وغيضه من زيادتها وليس في أنهار الدنيا نهر يسمي بحرا غير نيل مصر لكبره واستبحاره * وقال ابن قتيبة في كتاب غريب الحديث وفى حديثه عليه السلام نهران مؤمنان ونهران كافران أما المؤمنان فالنيل والفرات وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ انما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الارض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب في ذلك ولا مؤنة وجعل دجلة ونهر بلخ كافرين لانهما لايفيضان على الارض ولا يسقيان الا شيئاً قليلا وذلك القليل بتعب ومؤنة فهذان في الخير والنفع كالمؤمنين وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين

ذكر مخرج النيل وانبعاثه

اعلم ان البحر المحيط بالمعمور اذا خرج منه نهر الهند افترق قطعا كما تقدم وكان منه قطعة تسمى بحر الزنج وهي مما يلى بلاد اليمن وبحر بربر وفى هذه القطعة عدة جزائر منها جزيرة القمر بضم القاف واسكان الميم وراء مهملة ويقال لهذه الجزيرة أيضا جزيرة ملاى وطولها أربعة أشهر في عرض عشرين يوما الى أقل من ذلك وهذه الجزيرة تحاذى جزيرة سرنديب وفيها عدة بلاد كثيرة منها قمرية واليها ينسب الطائر القمرى ويقال ان بهذه الجزيرة خشب يحت من الخشبة ساق طوله ستون ذراعا يحذف على ظهره مائة وستون رجلا وان هذه الجزيرة ضاقت بأهلها فبنوا على الساحل محلات يسكنونها في سفح جبل يعرف بهم يقال له جبل القمر * واعلم ان الجبال كلها متشعبة من الجبل المستدير بغالب معمور الارض وهو المسمى بجبل قاف وهو أم الجبال كلها تتشعب منه فيتصل في موضع وينقطع في آخر وهو كالدائرة لايعرف له أول اذ كان كالحلقة المستديرة لايعرف طرفاها وان لم يكن استدارة كرية ولكنها استدارة احاطة وزعم قوم أن أمهات الجبال جبلان خرج أحدهما من البحر المحيط في المغرب آخذا جنوبا وخرج الآخر من البحر الرومي آخذا شمالا حتى تلاقيا عند

السد وسموا الجنوبى قاف وسموا الشمالي قاقونا والاظهر أنه جبل واحد ومحيط بغالب بسيط المعمور وانه هو الذى يسمى بجبل قاف فيعرف بذلك في الجنوب ويعرف في الشمال بجبل قاقونا ومبدأ هذا الجبل المحيط من كتف السد آخذا من وراء صنم الخط المشجوج الى شعبته الخارجة منه المعمول بها باب الصين أخذا على غربى صين الصين ثم ينعطف على جنوبه مستقيما في نهاية الشرق على جانب البحر المحيط مع الفرجة المنفرجة بينه وبين البحر الهندى الداخلة ثم ينقطع عند مخرج البحر الهندى المحيط مع خط الاستواء حيث الطول مائة وسبعون درجة ثم يتصل من شعبة البحر الهندي الملاقى لشعبة المحيط الخارجة الى بحر الظلمات من الشرق بجنوب كثير من وراء مخرج البحر الهندى في الجنوب وتبقى الظلمات من هاتين الشعبتين شعبة المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقا مغربا ومخرج البحر الهندى الجائية على الظلمات حتى تتلاقى الشعبتان عند مخرج هذا الجبل كتفصيل السراويل ثم ينفرج برأس البحرين شعبتان على مبدا هذا الجبل ويبقى الجبل بينهما كأنه خارج من نفس الماء ومبدأ هـذا الجبل هنا وراء قبة ارين عن شرقها وبعده منها خمس عشرة درجة ويقال لهذا الجبل فى أوله الجرد ثم تمتد حتي تنتهى في القسم الغربى الى طوله الى خمس وستين درجة من أول المغرب وهناك يتشعب من الجبل المذكور جبل القمر وينصب منه النيل وبه أحجار برّاقة كالفضة تتلألأ تسمى ضحكة الباهت كل من نظرها ضحك والتصق بها حتى يموت ويسمي مغناطيس الناس ويتشعب منه شعب تسمى اسيفى أهله كالوحوش ثم ينفرج منه فرجة ويمر منه شعب الى نهاية المغرب فى البحر المحيط يسمى جبل وحشية به سباع لها قرون طوال لاتطاق وينعطف دون تلك الفرجة من جبل قاف شعاب منها شعبتان الى خط الاستواء يكتنفان مجرى النيل من الشرق والغرب فالشرقى يعرف بجبل قاقول وينقطع عند خط الاستواء والغربي يعرف بادمرية يجرى عليه نيل السودان المسمى بحر الدمادم وينقطع تلقاء مجالات الحبشة مابين مدينة سفرة وحيمي وراء هذه الشعبة يمتد منه شعبة هى الام من الموضع المعروف فيه الجبل بأسيفى المذكور الى خط الاستواء حيث الطول هناك عشرون درجة ويعرف هناك بجبل كرسقا به وبه وحوش ضارية ثم ينتهى الى البحر المحيط وينقطع دونه بفرجة وذلك وراء التكرور عند مدينة قلمتبورا ووراء هذا الجبل سودان يقال لهم تمتم يأكلون الناس ثم تتصل الام من ساحل البحر الشامى في شماله شرقي رومية الكبرى مسامتا للشعبة المسماة أدمدمه المنقطعة بين سمعرة وحيمى لا يكاد يخطوها حيث الطول خمس وثلاثون درجة ويقع منشأ اتصال هذه الام على عرض خمسين درجة وكذلك تقع شعبها الآخذة في الجنوب على عرض خمسين درجة عند آخرها مابين سردانة وبلنسية وتتناهى وصلة هـذه الام الى البحر المحيط في نهاية الشمال قبالة جزيرة بركانية

وتبقي سوسية داخل الجبل ثم تمد هذه الام بعد انقطاع لطيف وينعطف انعطاف خرجة البحر المحيط في المغرب على الصقلب المسماة بجر الانفلشين ممتداً الى غاية المشرق ويسمى هناك بجبل قاقونا ويبقي وراءه البحر جامدا لشدة البرد ثم ينعطف من الشمال الى المشرق جنوبا بتغريب الى كتف السدّ الشمالى فيتلاقي هناك الطرفان وبينهما في الفرجة المنفرجة سوّى ذو القرنين بين الصدفين وفى جودة القمر ثلاثة أنهار أحدها في شرقيها من قنطورا ومعلا وثانيها في غربيها ينصب من جبل قدم آدم على مدينة سبا ويأخذ مارا على مدينة فردرا ويجر هناك بحيرة في جنوبها مدينة كما حيث محل السودان الذين يأ كلون الناس وثالثها في غربيها أيضا ويخرج من الجبل المشبه ماء محدودب الذيل يطوف بمدينة دهما فتبقى مدينة دهما في جزيرة بينهما يكون هو محيطا بها شرقا وجنوبا وغربا ويصير لذلك كالجزيرة ويتصل شمالها بالبحر الهندى وتقع مدينة قواره في غربيه حيث يصب في البحر الهندي * ومن جبل القمر يخرج نهر النيل وقد كان يتبدّد على وجه الارض فلما قدم نقراوش الجدار بن مصريم الاوّل بن مركابيل بن دوابيل بن عرباب بن آدم عليه السلام الى أرض مصر ومعه عدة من بني عرباب واستوطنوها وبنوا بها مدينة أمسوس وغيرها من المدائن حفروا النيل حتى أجروا ماءه اليهم ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى بل ينبطح ويتفرق في الارض حتي وجه الى النوبة الملك نقراوش فهندسوه وساقوا منه أنهارا الى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها وساقوا منه نهرا الى مدينة أمسوس ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان وكانت أيام البودشير بن قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام عدل جانبي النيل تعديلا ثانيا بعد ما أتلفه الطوفان * قال الأستاذ ابراهيم ابن وصيف شاه فملك البودشير وتجبر وهو أول من تكهن وعمل بالسحر واحتجب عن العيون وقد كانت أعمامه أشمن وأتريب وصا ملوكا على أحيازهم الا أنه قهرهم بجبروته وقوّته فكان الذكر له كما تجبر أبوه على من قبله لانه كان أكبرهم وكذلك أغضوا عنه فيقال انه أرسل هرمس الكاهن المصرى الى جبل القمر الذى يخرج النيل من تحته حتي عمل هناك التماثيل النحاس وعدل البطيحة التي ينصب فيها ماء النيل ويقال انه الذى عدل جانبي النيل وقد كان يفيض وربما انقطع فى مواضع وهذا القصر الذى فيه تماثيل النحاس يشتمل على خمس وثمانين صورة جعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد ومصاب مدورة وقنوات يجرى فيها الماء وينصب اليها اذاخرج من تحت جبل القمر حتي يدخل من تلك الصور ويخرج من حلوقها وجعل لها قياسا معلوما بمقاطع وأذرع مقدرة وجعل مايخرج من هذه الصور من الماء ينصب الى الانهار ثم يصير منها الى بطيحتين ويخرج منهما حتي ينتهى الى البطيحة الجامعة للماء الذي يخرج من تحت الجبل وعمل لتلك الصور مقادير

من الماء الذي يكون معه الصلاح بأرض مصر وينتفع به أهلها دون الفساد وذلك الانتهاء المصلح ثمانية عشر ذراعا بالذراع الذي مقداره اثنان وثلاثون أصبعا وما فضل عن ذلك عدل عن يمين تلك الصور وشمالها الى مسارب يخرج ويصب في رمال وغياض لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء ولولا ذلك لاغرق ماء النيل البلدان التي يمر عليها * قال وكان الوليد بن درمع العمليقى قد خرج في جيش كثيف ينتقل في البلدان ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها فلما صار الى الشام انتهى اليه خبر مصر وعظم قدرها وان أمرها قد صار الى النساء وباد ملوكها فوجه غلاما له يقال له عون الى مصر وسار اليها بعده واستباح أهلها وأخذ الاموال وقتل جماعة من كهنتها ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل فيعرف ما بحافتيه من الامم فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه وخرج في جيش عظيم فلم يمر بأمة الا أبادها ومر على أمم السودان وجاوزهم ومر على أرض الذهب فرأى فيها قضبانا نابتة من ذهب ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة التي ينصب ماء النيل فيها من الانهار التي تخرج من تحت جبل القمر وسار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر وهو جبل عال وانما سمي جبل القمر لان القمر لا يطلع عليه لانه خارج من تحت خط الاستواء ونظر الى النيل يخرج من تحته فيمر في طرايق وأنهار دقاق حتى ينتهي الى حظيرتين ثم يخرج منهما في نهرين حتى ينتهي الى حظيرة أخرى فاذا جاوز خط الاستواء مدته عين تخرج من ناحية نهر مكران بالهند وتلك العين أيضا تخرج من تحت جبل القمر الى ذلك الوجه ويقال ان نهر مكران مثل النيل يزيد وينقص وفيه التماسيح والاسماك التي مثل أسماك النيل ووجد الوليد بن دومع القصر الذي فيه التماثيل النحاس التي عملها هرمس الاول في وقت البودشير بن قنطريم بن قبطيم بن مصرايم وقد ذكر قوم من أهل الاثر أن الانهار الاربعة تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب التي من وراء البحر المظلم وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل وأن تلك الارض من أرض الجنة وأن تلك القبة من زبرجد وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور وممن جاء بهذا رجل من ولد العيص بن اسحاق بن ابراهيم عليهما السلام وصل الى تلك القبة وقطع البحر المظلم وكان يقال له حايد وقال آخرون تنقسم هذه الانهار على اثنين وسبعين قسما حذاء اثنين وسبعين لسانا للامم وقال آخرون هذه الانهار من ثلوج تتكاثف ويذيبها الحر فتسيل الى هذه الانهار وتسقى من عليها لما يريد الله عز وجل من تدبير خلقه قالوا ولما بلغ الوليد جبل القمر رأى جبلا عاليا فعمل حيلة الى أن صعد اليه ليرى ما خلفه فأشرف على البحر الاسود الزفتى المنتن ونظر الى النيل يجرى عليه كالانهار الدقاق فأتته من ذلك البحر روائح منتنة هلك كثير من أصحابه من أجلها فأسرع النزول بعد أن كاد

يهلك * وذكر قوم أنهم لم يروا هناك شمسا ولا قمراً الا نورا أحمر كنور الشمس عند غيابها وأما ما ذكر عن حايد وقطعه البحر المظلم ماشيا عليه لا يلصق بقدمه منه شيء وكان فيما يذكر نبيا وأوتي حكمة وأنه سأل الله تعالى أن يريه منتهى النيل فأعطاه قوة على ذلك فيقال انه أقام يمشى عليه ثلاثين سنة في عمران وعشرين سنة فى خراب قالوا وأقام الوليد في غيبته أربعين سنة وعاد ودخل منف وأقام بمصر فاستعبد أهلها واستباح حريمهم وأموالهم وملكهم مائة وعشرين سنة فأبغضوه وسئموه الى أن ركب في بعض أيامه متصيدا فألقاه فرسه في وهدة فقتله وأستراح الناس منه (وقال) قدامة بن جعفر في كتاب الخراج انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار كل خمسة منها تصب الى بطيحة ثم يخرج من كل بطيحة نهران وتجرى الانهار الاربعة الى بطيحة كبيرة فى الاقليم الاول ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل وقال في كتاب نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق ان هذه البحيرة تسمى بحيرة كورى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها متوحشين يأكلون من وقع اليهم من الناس ومن هذه البحيرة يخرج لهم نهر غانة وبحر الحبشة فاذا خرج النيل منها يشق بلاد كورى وبلاد نيه وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة فاذا بلغ دنقلة مدينة النوبة عطف من غربيها وانحدر الى الاقليم الثاني فيكون على شطيه عمارة النوبة وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى ثم يشرق الى الجنادل* وقال المسعودي رحمه الله تعالى رأيت في كتاب جعفر النيل مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عينا فتصب تلك المياه الى بحيرتين هنالك كالبطائح ثم يجتمع الماء منهما جاريا فيمر برمال هناك وجبال ويخرق أرض السودان فيما يلي بلاد الزنج فيتشعب منه خليج يصب في بحر الزنج ويجرى على وجه الارض تسعمائة فرسخ وقيل ألف فرسخ في عامر وغامر من عمران وخراب حتى يأتى أسوان من صعيد مصر * وقال في كتاب هردسوس نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم ثم يميل الى ناحية الغرب فيصير في وسطه جزيرة وآخر ذلك يميل الى ناحية الشمال فيسقى أرض مصر وقيل ان مخرجه من عين فيما يجاوز الجبل ثم يغيب فى الرمال ثم يخرج غير بعيد فيصير له محبس عظيم ثم يساير البحر المحيط على قفار الحبشة ثم يميل على اليسار الى أرض مصر فيحق ما يظن بهذا النهر أنه عظيم اذ كان مجراه على ماحكيناه قال ونهر النيل وهو الذي يسمي باون مخرجه خفى ولكن ظاهر اقباله من أرض الحبشة ويصير له هناك محبس عظيم مجراه اليه مائتا ميل وذكر مخرجه حتى ينتهى الى البحر قال وكثيرا ما يوجد في نهر النيل التماسيح واقبال النيل من أرض الحبشة ليس يختلف فيه أحد وعدة أمياله من مخرجه المعروف الى موقفه مائة ألف وتسعون ألفاً وتسعمائة وثلاثون ميلا وماء النيل عكر مرمل

عذب وفيّ انتهى والنيل اذا وصل الى الجنادل كان عند انتهاء مراكب النوبة انحدارا ومراكب الصعيد اقلاعا وهناك حجارة مضرسة لا مرور للمراكب عليها الا فى أيام زيادة النيل ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرقيه أسوان من الصعيد الاعلى ويمر بين جبلين يكتنفان أعمال مصر أحدهما شرقي والآخر غربي حتى يأتي مدينة فسطاط مصر فتكون في بره الشرقي فاذا تجاوز فسطاط مصر بمسافة يوم صار فرقتين فرقة تمر حتى تصب في بحر الروم عند دمياط وتسمى هذه الفرقة بحر الشرق والفرقة الاخرى هى عمود النيل ومعظمه يقال لها بحر الغرب تمر حتى تصب في بحر الروم أيضا عند رشيد وكانت مدينة كبيرة فى قديم الزمان * ويقال ان مسافة النيل من منبعه الى أن يصب في البحر عند رشيد سبعمائة وثمانية وأربعون فرسخا وأنه يجرى فى الخراب أربعة أشهر وفي بلاد السودان شهرين وفي بلاد الاسلام مسافة شهر * وذهب بعضهم الى أن زيادة ماء النيل انما تكون بسبب المد الذى يكون في البحر فاذا فاض ماؤه تراجع النيل وفاض على الاراضى ووضع فى ذلك كتابا حاصله ان حركة البحر التى يقال لها المد والجزر توجد في كل يوم وليلة مرتين وفى كل شهر قمرى مرتين وفى كل سنة مرتين فالمد والجزر اليومي تابع لقرص القمر ويخرج الشعاع عنه من جنبتي جرم الماء فاذا كان القمر وسط السماء كان البحر فى غاية المد وكذا اذا كان القمر في وتد الارض فاذا بزغ القمر طالعا من الشرق أو غرب كان الجزر والمد الشهرى يكون عند استقبال القمر للشمس فى نصف الشهر ويقال له الامتلاء أيضا عند الاجتماع ويقال له السرار والجزر يكون أيضا في وقتين عند تربيع القمر للشمس فى سابع الشهر وفى ثاني عشريه * والمد السنوى يكون أيضا فى وقتين أحدهما عند حلول الشمس آخر برج السنبلة والآخر عند حلول الشمس بآخر برج الحوت فان اتفق أن يكون ذلك فى وقت الامتلاء أو الاجتماع فانه حينئذ يجتمع الامتلاآن الشهري والسنوى ويكون عند ذلك البحر فى غاية الفيض لا سيما ان وقع الاجتماع أو الامتلاء فى وسط السماء ووقع مع النيرين أو مع أحدهما أحد الكواكب السيارة فانه يعظم الفيض فان وقع كوكب فصاعدا مع أحد النيرين تزايد عظم الفيض وكانت زيادة النيل تلك السنة عظيمة جدا وزاد أيضا نهر مهران فان كان الاجتماع أو الامتلاء زائلا عن وسط السماء وليس مع احد النيرين كوكب فان النيل ونهر مهران لا يبلغان غاية زيادتهما لعدم الانوار التي تثير المياه ويكون بمصر فى السنة الغلاء والجزر السنوي يكون عند حلول الشمس برأسي الجدى والسرطان فأما المدّ اليوميّ الدافع من البحر المحيط فانه لا ينتهى فى البحر الخارج من المحيط أكثر من درجة واحدة فلكية ومساحتها من الارض نحو من ستين ميلا ثم ينصرف وانصرافه هو الجزر وكذلك الاودية اذا كانت الارض وهدة والمد الشهري ينتهى الى أقاصي البحار

وهو يمسكها حتى لا تنصب فى البحر المحيط وحيث ينتهي المد الشهرى فهناك منتهى ذلك البحر وطرفه وأما المد السنوى فانه يزيد فى البحار الخارجة عن البحر المحيط زيادة بينة ومن هـذه الزيادة تكون زيادة النيل وامتلاؤه وامتلاء نهر مهران والديتلو الذي ببلاد السند (قال) ولما جاء ارسطو الى مصر مع الاسكندر ورأى مصب النيل وعلم ان من المحال ان يكون النيل فى اسوان واد من الاودية وكلما اسحل اتسع حتى ان عرضه فى أسفل ديار مصر لينتهى الى مائة ميل عند غاية الفيض وله أفواه كثيرة شارعة في البحر تسع كل ما يهبط من الميزان في ذلك الصنع فرأى محالا أن يكون الوادى بحيث يضيق أسفله عن حمل مايأتي به أعلاه مع ضيق أعلاه وسعة أسفله فلما رأى ذلك قال ان رياحا تستقبل جرية الماء وتردعه فيفيض لذلك وقال الاسكندر ان من المحال ان يكون الريح يردع الماء السائل في الوادى حتى يفيض اكثر من مائة ميل ولو كانت الريح تفعل ذلك لكان الماء ينفلت من أسفل الوادى ويسيل الى البحر لان البحر لا يمسك الا أعلاه ولكن الرياح تقذف الرمل في أفواه تلك الشوارع التي تفضي الى البحر فيعثر بها شبه الردم فيفيض قال وأغفل ان الرمل جسم متخاخل فالماء يخلله وينفذه سائلا الى البحر مع أن الرمل لم يعتل اعتلاء يظهر للحس والماء سائل في كل حين على حلق تنيس ودمياط وحلق رشيد وحلق الاسكندرية ففطنوا لاستحالة كونه سائلا عن سيل حامل ونسبوا توقفه الى الريح والرمل وهم استقصوا الهواء واستقصوا الارض وأغفلوا الاستقصاء الثالث الذي هو الماء لانهم لم يعرفوا حركة البحر السنوية لانها لا تبلغ الغاية الا فى ثلاثة أشهر فلا يظهر مقدار صعودها فى كل يوم للحس ولذلك وضع أمير مصر المقياس بديار مصر * قال والمد كله واحد وهو أن القمر يقابل الماء كما تقابل الشمس لارض فنور القمر اذا قابل كرة الارض سخنها كما تسخن الشمس الهواء المحيط فيعتري الهواء المحيط بالماء بعض تسخين يذيب الماء فيفيض وينمو بخاصته كالمرآة المحرقة الملهبة للجو حتى تحرق القطنة الموضوعة بين المرآة والشمس فهذا مثاله في المقابلة ومثاله فى المسرار كون الزجاجة المملوءة ماء يلقى الشعاع الى حلقها فتحترق القطنة أيضاً فالقمر جسم نوري باكتسابه ذلك من الشمس فاذا حال بين الشمس والارض خرج عن جانبي الماء شعاع نافذ يمر مع جنبى الماء فيسخن ما قابله فينمو الماء جسم شفاف عن جانبيه يخرج الشعاع كما يخرج عن جانبي الزجاجة فيحدث لها نور يسخن الهواء الذى يحيط بالزجاجة أو بالارض فيقترف الماء شبه تسخين ينمو به ويزيد وذلك قبالة القرص وقبالة مخرج الشعاع من قبالة وتد القمر فهذا هو المد دائما ويستدير باستدارة الفلك وتدويره لفلك القمر وتدوير فلك القمر للقمر والمد الشهري هو أن يقابل القمر الشمس أو يستتر تحتها لانه ليس الا كون القمر قباله الشمس لكونه فى تربيع الشمس أضعف وفى

المقابلة أقوى وكذلك اذا قابلها على وسط كرة الارض بحيث تكون الحركة أشد والاكتناف للماء والارض أعم فذلك هو المد السنوى

فصل فى الرد على من اعتقد ان النيل من سيل يفيض

أما العامة فليس عندهم مايجيء على وجه الارض انه سيل ومن تفطن الى عظمه واتساعه في أسفله وضيقه في أعلاه ولم ينظر الى ماء ولا أرض ولا هواء نسب ذلك الى الخيال المحض كما فعل صاحب كتاب المسالك والممالك الذى زعم أن الماء يسافر من كل أرض وموطن الى النيل تحت الارض فيمده لان النيل انما يفيض فى الخريف والعيون والآبار في ذلك الوقت يقل ماؤها والنيل يكثر فرأوا كثرة وقلة فأضافوا أحدها الى الآخر بالخيال ومما يدلك على أنه ليس عن سيل يفيض أن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر ولا يفيض النيل لكون البحر في الجزر فيصل السيل ويمر نحو البحر فلا يردعه رادع (ومنها) أن فيض النيل على تدريج مدة ثلاثة اشهر من حلول الشمس رأس السرطان الى حلولها بآخر برج السنبلة والناس يحسبون به قبل فيضه بمدة شهرين ولعامل مصر فى وسط النيل مقياس موضوع وهو سارية فيها خطوط يسمونها اذرعا يعلم بها مقدار صعوده في كل يوم (ومنها) أن فيضه أبدا في وقت واحد فلو كان بالسيل لاختلف بعض الاختلاف (ومنها) أنه قد يجيء السيل فى غير هذا الوقت فلا يفيض (ومنها) أن الحذاق بمصر اذا رأوا الحر يزيد علموا أن النيل سيزيد لان شدة الحر تذيب الهواء فيذوب الماء ولا يكون الا عن زيادة كوكب ودنو نور (ومنها) أن موضع مصبه من أسوان انما هو واد من الاودية وما أسحل اتسع حتى يكون عرض اتساعه نحوا من مائة ميل وأسوان هو منتهى بلوغ الردع فما ظنك بسيل مسيره نصف شهر لان نسبة بين مصب أعلاه واسفله كيف كان يكون أعلاه لو كان امتلاء اسفله عن السيل (ومنها) أن أهل اسوان انما يرقبون بلوغ الردع اليهم مراقبة ويحافظون عليه بالنهار محافظة فاذا جن الليل أخذوا حقة خزف فوضعوا فيها مصباحا ثم يضعونه على حجر معد عندهم لذلك وجعلوا يرقبونه فاذ اطفئ المصباح يطفو الماء عليه علموا أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم بأخذه فى الجزر فيكتبوا بذلك الى أمير مصر يعلموه أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم وأنهم قد أخذوا بقسطهم من الشرب فحينئذ يأمر بكسر الاسداد التى على أفواه قرص المشارب فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة (ومنها) أن جميع تلك المشارب تسد عند ابتداء النيل بالخشب والتراب ليجتمع ما يسيل من الماء العذب فى النيل ويكثر ويعم جميع أرضهم ويمنع بجملته دخول الماء الملح عليه فلو كان سيلا ما احتاج الى ذلك ولفتحت له أفواه قرص المشارب عند ابتداء ظهوره (ومنها) أن الخلجان اذا سدت ولم يكن لها رادع من البحر كان السيل من جنبه الى البحر اذ أسفل النيل اوسع

وأخفض من أعلاه (ومنها) أن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى حلق رشيد وتنيس ودمياط كما يفعل فى سائر الاودية التى تدخل المد والجزر فلو كان النيل خاليا من الماء العذب وصل البحر من أسوان الى منتهى بلوغ الردع لان الماء يطلب بطبعه ما انخفض من الارض وأن يكون فى صفحة كرة مستوية الخطوط الخارجة من النقطة الى المحيط متساوية (ومنها) أنها اذا فتحت تلك الاسداد وكسرت الخلج وفاض النيل على بطائح أرض مصر شعر بذلك أهل اسوان للحين وقالوا فى هذه الساعة كسرت الخلج وفاض ماء النيل على أرض مصر لان ذلك يتبين لهم بتحول الماء دفعة فلو كان سيلا وهم على أعلى المصب لقالوا قد ارتفع المطر عن الارض التي يسيل منها السيل (ومنها) أن قسيمه الذى يمر ببلاد الحبشة المنبعث واياه من جبل القمر لا يفيض كمدة فيض النيل ثلاثة أشهر ولا يقيم على وجه الارض مدة مقامه لكنه اذا كثر فيه السيل غمر جوانبه على قدر انبساطها واذا نضبت مادته أردع عليه فلو كان فيض النيل عن السيل وهما من شعب واحد لكان شأنهما واحدا ولا نقول ان فيض النيل بسبب فيض البحر فقط اذ لولا كونه سيل ماء لما دخل ردع البحر اليه ولكان شاطئ ديار مصر كسائر السواحل المجاورة له ولولا السيل السائل فيه لردمه البحر اذ عادة البحر ردم السواحل وانما دخل الشك على أهل مصر فى أيام النيل لانهم لم يشاهدوا منشأه ولا عاينوا مبداه من جبل القمر لانه في موضع لا ساكن عليه ولا تحققوا المد السنوى الرادع له فلم يحققوا شيئاً من أمره لانه بعيد من أذهان العامة أن يعلموا أن ماء البحر يعظم في أيام الصيف لان المعهود عندهم فى البحر أن يعظم فى أيام الشتاء وطمو البحر فى الشتاء انما يكون عن الرياح الهابة عليه من أحد جانبيه فيفيض ويخرج الى الجانب الآخر الا ما كان من البحر المحيط فانه يتحرك أبدا من داخل البحر الى البر وهو أن المحيط يطلب بطبعه أن يكون على وجه الارض والارض ليست بسيطة فهى تمانعه بما فيها من التركيب فهو يطلب أبدا أن يعلوها ويركبها بيردها قال والسبب فى عظم المد والجزر كثرة الاشعة فاذا زاحمت الشمس والقمر الكواكب السيارة عظم فيض البحر واذا عظم فيض البحر فاضت الانهار وكذلك اذا نهض القمر لمقابلة أحد السيارة ارتفع البخار وصعد الى كورة الزمهرير ونزل المطر فاذا فارق القمر الكواكب ارتفع المطر لكثرة التحليل كما يكون في نصف النهار عند توسط الشمس لرؤس الخلق وكما يكون عند حلول الكواكب الكبيرة على وسط خط أرين والله تعالى أعلم بالصواب (قال) مؤلفه رحمه الله تعالى الذى تحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر وان زيادته انما هي من فيض البحر عند المد فاما كون مخرجه من جبل القمر فمسلم اذ لا نزاع في ذلك وأما كون زيادته لا تكون الا من ردع البحر له بما حصل فيه من المد فليس كذلك نعم توالي هبوب الرياح الشمالية على وفور الزيادة وردع

البحر له اعانة على الزيادة ومن تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه ولا بد فانه لايزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ماؤه صافيا من الكدرة فاذا فرغت أيام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه ومال لونه الى الخضرة وصار بحيث اذا وضع في اناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب وسبب ذلك أن البطيحة التي فى أعالي الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها فاذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف وعظمت السيول الهابطة في هذه البطيحة فاض منها ما تغير من الماء وجرى الى أرض مصر فيقال عند ذلك توحم النيل ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ويزاد عكره بزيادة الماء فاذا وضع منه أيام الزيادة شيء في اناء رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة وهذا الطين هو الذى تحمله السيول التي تنصب في النيل حتى تكون زيادته منها وفيه يكون الزرع بعد هبوط النيل والا فارض مصر سبخة لاتنبت ولا ينبت منها الا مامر عليه ماء النيل وركد منه هذا الطين وقوله ان السيل يكون فى غير وقت فيض البحر ولا يفيض النيل لكون البحر في الجزر فيصل السيل ويمر نحو البحر فلا يردعه رادع غير مسلم وأن العادة أن السيول التي عليها زيادة ماء النيل لاتكون الا عن غزارة الامطار ببلاد الجنوب وأمطار الجنوب لاتكون الا في أيام الصيف ولم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء وأول دليل على أن كون زيادته عن سيل يسيل فيه انما يزيد بتدريج على قدر ما يهبط فيه من السيول وانما استدلاله بصب النيل في أسوان واتساعه أسفل الارض فانما ذلك لانه يصب من علو فى منخرق بين جبلين يقال لهما الجنادل وينبطح في الارض حتى يصب فى البحر فاتساعه حيث لايجد حاجزا يحجزه عن الانبساط وأما قوله ان الاسداد اذا كثرت فاض الماء على الارض دفعة فليس كذلك بل يصير الماء عند كسر كل سد من الاسداد في خليج ثم يفتح ترع من الخليج الى الخليج الى بناء على جانبيه من الاراضي حتى يروى فمن تلك الاراضى مايروى سريعا ومنها مايروى بعد أيام ومنها مالا يروى لعلوه وأما قوله ان جميع تلك المشارب تستد عند ابتداء صعود النيل ليجتمع مايسيل من الماء في النيل ويكثر فيعم جميع أرضهم ويمنع بجملته دخول الماء المالح عليه فغير مسلم أن تكون السداد كما ذكر بل أراضى مصر أقسام كثيرة منها عال لا يصل اليه الماء الا من زيادة كثيرة ومنها منخفض يروى من يسير الزيادة والاراضى متفاوتة في الارتفاع والانخفاض تفاوتا كثيرا ولذلك احتيج في بلاد الصعيد الى حفر الترع وفى أسفل الارض الى عمل الجسور حتى يحبس الماء ليروى أهل النواحي على قدر حاجتهم اليه عند الاحتياج والا فهو يزيد أولا في غير سقى الاراضى حتى اذا اجتمع من زيادته المقدار الذى هو كفاية الاراضى فى وقت خلو الاراضى من الغلال وذلك غالبا في اثناء شهر مسرى فتح سد الخليج حتي يجرى فيه الماء الي حد معلوم ووقف حتي يروى ماتحت ذلك الحد الذى وقف عنده الماء من الارض

ثم فتح ذلك الحد فى يوم النيروز حتي يجرى الى حد آخر ويقف عنده حتي يروى ماتحت
هذا الحد الثانى من الاراضى ثم يفتح هـذا الحد في يوم عيد الصليب بعد النوروز بسبعة
عشر يوما حتي يجرى الماء ويقف على حد ثالث حتى يروى ماتحت هذا الحد من الاراضي
ثم يفتح هذا الحد فيجرى الماء ويروى ماهنا لك من الاراضي ويصب فى البحر الملح هذا
هو الحال فى سدود أراضي مصر وقوله ان ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى
حلق رشيد وتنيس ودمياط فلو كان خاليا من الماء العذب لوصل البحر من اسوان الى
منتهى بلوغ الردع فنقول هذا قول من لم يعرف أرض مصر فان النيل عند مصبه بأعالى
اسوان يكون أعلى منه عند كونه أسفل الارض بقامات عديدة فاذا فاض ماء البحر حبسه
أن يتدافع هو وماء النيل وربما غلب ماء البحر ماء النيل فى أيام نقصان النيل حتى يملح ماء
النيل فيما بين دمياط وفارس كور وأما في أيام زيادة النيل فاني شاهدت مصب النيل فى البحر
من دمياط وكل منهما يدافع الآخر فلا يطيقه حتى صارا متمانعين عبرة لمن اعتبر وقوله ان
الاسداد اذا فتحت علم اهل اسوان بذلك فى الحال غير مسلم بل لم نزل نشاهد النيل فى
الاعوام الكثيرة اذا فتح منه خليج أوانقطع مقطع فأغرق ماؤه أراضى كثيرة لا يظهر النقص
فيه الا فيما قرب من ذلك الموضع وما برح المفرد يخرج من قوص ببشارة وفاء النيل وقد
أوفي عندهم ستة عشر ذراعا فلا يوفي ذلك المقياس بمصر الا بعد ثلاثة أيام ونحوها وأما قوله
انما كان من النيل يمر ببلاد الحبشة يخالفه فليس كذلك بل الزياة في النيل أيام زيادته تكون
ببلاد النوبة وما وراءها في الجنوب كما تكون فى أرض مصر ولا فرق بينهما الا فى شيئين
أحدهما أنه في أرض مصر يجرى فى حدود وهناك يتبدد على الاراضى والثاني أن زيادته
تعتبر بالقياس في أرض مصر وهناك لايمكن قياسه لتبدده ومن عرف أخبار مصر علم أن
زيادة ماء النيل تكون عن أمطار الجنوب * ويقال ان النيل ينصب من عشرة أنهار من
جبل القمر المتقدم ذكره كل خمسة أنهار من شعبة ثم تتبحر تلك الانهار العشرة فى بحرين
كل خمسة أنهار تتبحر بحيرة بذاتها ثم يخرج من البحيرة الشرقية بحر لطيف يأخذ شرقا على
جبل قاقولى ويمتد الى مدن هناك ثم يصب في البحر الهندى ويخرج من البحيرتين ستة
انهار من كل بحيرة ثلاثة أنهار وتجتمع الانهار الستة فى بحيرة متسعة تسمي البطيحة وفيها
جبل يفرق الماء نصفين يخرج أحدهما من غرب البطيحة وهو نيل السودان ويصير نهرا
يسمي بحر الدمادم ويأخذ مغربا ما بين سمغرة وغانة على جنوبى سمغرة وشمالى غانة ثم
ينعطف هناك منه فرقة ترجع جنوبا الى غانة ثم تمر على مدينة برنسه وتأخذ تحت جبل في
جنوبها خارج خط الاستواء الى زفيلة ثم تتبحر في بحيرة هناك وتستمر الفرقة الثانية مغربة
الى بلاد مالى والتكرور حتى تنصب في البحر المحيط شمالى مدينة قلبتو ويخرج النصف

الآخر متشاملا آخذا على الشمال الى شرقي مدينة حيا ثم يتشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقا الى مدينة سحرت ثم ترجع جنوبا ثم تعطف شرقا بجنوب الى مدينة سحرتة ثم الى مدينة مركه وينتهي الى خط الاستواء حيث الطول خمس وستون درجة ويتبحر هناك بحيرة ويسمي عمود النيل من قبالة تلك الشعبة شرقي مدينة شيمي متشاملا آخذا على أطراف بلاد الحبشة ثم يتشامل على بلاد السودان الى مدينة دنقلة حتي يرمي على الجنادل الى اسوان وينحدر وهو يشق بلاد الصعيد الى مدينة فسطاط مصر ويمر حتي يصب في البحر الشامي وقد استفيض ببلاد السودان أن النيل ينحدر من جبال سود يبين على بعد كأن عليها الغمام ثم يتفرق نهرين يصب أحدهما فى البحر المحيط الى جهة بحر الظلمة الجنوبي والآخر يتصل الى مصر حتي يصب في البحر الشامي ويقال انه في الجنوب يتفرق سبعة أنهار تدخل في صحراء منقطعة ثم تجتمع الأنهار السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا في بلاد السودان

ذكر مقاييس النيل وزيادته

قال ابن عبد الحكم أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام وضع مقياسا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة ابنة زبا وهى صاحبة حائط العجوز مقياسا بانصنا وهو صغير الذرع ومقياسا باخميم ووضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان وهو صغير ووضع أسامة بن زيد التنوخي في خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة وهو أكبرها قال يحي بن بكير أدركت القياس يقيس في مقياس منف ويدخل بزيادته الى الفسطاط * وقال القضاعى كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام وبنى مقياسا بمنف وهو أول مقياس وضعه عليه السلام وقيل ان النيل كان يقاس بمصر بأرض علوة الى أن بني مقياس منف وان القبط كانت تقيس عليه الى أن بطل ومن بعده دلوكة العجوز بنت مقياسا بانصنا وهو صغير الذرع وآخر باخميم وهى التي بنت الحائط المحيط بمصر وقيل انهم كانوا يقيسون الماء قبل أن يوضع المقياس بالرصاصة فلم يزل المقياس فيما مضى قبل الفتح بقيسارية الاكسية ومعالمه هناك الى أن ابتني المسلمون بين الحصن والبحر أبنيتهم الباقية الآن وكان للروم أيضا مقياس بالقصر خلف الباب يمنة من دخل منه فى داخل الزقاق أثره قائم الى اليوم وقد بنى عليه وحواليه * ثم بني عمرو بن العاص عند فتحه مصر مقياسا باسوان ثم بني بموضع يقال له دندرة ثم بني في أيام معاوية مقياس بانصنا فلم يزل يقاس عليه الى أن بني عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان وكانت منزله وكان هذا المقياس صغير الذرع فاما المقياس القديم الذى بني في الجزيرة فالذى وضعه أسامة بن زيد وقيل انه كسر فيه ألفي أوقية وهو الذي بني بيت المال بمصر ثم كتب أسامة بن زيد التنوخي عامل خراج مصر لسليمان بن عبد الملك ببطلانه فكتب اليه سليمان بأن يبنى مقياسا في الجزيرة فبناه فى سنة سبع وتسعين ثم بني المتوكل فيها مقياسا

في أول سنة سبع وأربعين ومائتين فى ولاية يزيد بن عبد الله التركي على مصر وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد وأمر بأن يعزل النصارى عن قياسه فجعل يزيد بن عبد الله التركي على المقياس أبا الرداد المعلم واسمه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى الرداد المؤذن كان يقول القمى أصله بالبصرة قدم مصر وحدث بها وجعل على قياس النيل وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير فى كل شهر فلم يزل المقياس من ذلك الوقت فى يد أبي الرداد وولده الى اليوم وتوفى أبو الرداد سنة ست وستين ومائتين * ثم ركب احمد بن طولون سنة تسع وخمسين ومائتين ومعه أبو أيوب صاحب خراجه وبكار بن قتيبة القاضي فنظر الى المقياس وأمر باصلاحه وقدر له ألف دينار فعمر وبنى الحارث فى الصناعة مقياسا واثره باق لايعتمد عليه * وقال ابن عبد الحكم ولما فتح عمرو ابن العاص مصر أتى أهلها الى عمرو حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة لايجرى الا بها فقال لهم وما ذاك قالوا انه اذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من أبويها فارضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل مايكون ثم ألقيناها في النيل فقال لهم عمرو ان هذا لايكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ماكان قبله فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لايجرى قليلا ولا كثيرا حتي هموا بالجلاء فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك فكتب اليه عمر أن قد أصبت ان الاسلام يهدم ماكان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها في داخل النيل اذا أتاك كتابي فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقة فاذا فيها من عبد الله أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لانه لايقوم بمصلحتهم فيها الا النيل وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا في ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر * وذكر بعضهم أن جاحلا الصدفي هو الذى جاء ببطاقة عمر رضى الله عنه الى النيل حين توقف فجرى باذن الله تعالى وقال يزيد بن أبى حبيب ان موسى عليه السلام دعا على آل فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء فطلبوا الى موسى أن يدعو الله فدعا الله رجاء أن يؤمنوا وذلك ليلة الصليب فاصبحوا وقد أجراه الله في تلك الساعة ستة عشر ذراعا فاستجاب الله بطوله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام قال القضاعى ووجدت في رسالة منسوبة الى الحسن بن محمد بن عبد المنعم قال لما فتحت العرب مصر عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه مايلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حدّه في مقياس لهم فضلا عن تقاصره وان فرط الاستشعار يدعوهم الى الاحتكار وأن الاحتكار

يدعو الى تصاعد الاسعار بغير قحط فكتب عمر الى عمرو يسأله عن شرح الحال فاجابه انى وجدت ماتروى به مصر حتي لايقحط أهلها أربعة عشر ذراعا والحد الذى يروى منه سائرها حتي يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا والنهايتان المخوفتان في الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار اثنا عشر ذراعافي النقصان وثمانية عشر ذراعا فى الزيادة هذا والبلد فى ذلك الوقت محفور الانهارمعقود الجسور عند ماتسلموه من القبط وخميرة العمارة فيه فاستشار أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عليا رضي الله عنه فى ذلك فأمره أن يكتب اليه أن يبنى مقياسا وأن ينقص ذراعين من اثنى عشر ذراعا وأن يقر ما بعدها على الاصل وأن ينقص من كل ذراع بعدالستة عشر ذراعا أصبعين ففعل ذلك وبناه بحلوان فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الارجاف وزوال مامنه كان يخاف بأن جعل الاثني عشر ذراعا اربع عشرة لان كل ذراع أربع وعشرون أصبعا فجعلها ثمانيا وعشرين من أولها الى الاثنى عشر ذراعا يكون مبلغ الزيادة على الاثني عشر ثمانيا واربعين أصبعا وهى الذراعان وجعل الاربع عشرة ست عشرة والست عشرة ثماني عشرة والثمانى عشرة عشرين* (قال) القضاعى وفى هذا الحساب نظر في وقتنا لزيادة فساد الانهار وانتقاض الاحوال وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أولها الى آخرها أربع وعشرون أصبعا كل ذراع والمقاييس الاسلامية على ما ذكر منها المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخي بالجزيرة وهو الذى هدمه الماء وبنى المأمون آخر باسفل الارض بالبروذات وبني المتوكل آخر بالجزيرة وهو الذى يقاس عليه الماء الآن وقد تقدّم ذكره* (قال) ابن عفير عن القبط المتقدمين اذا كان الماء فى اثني عشر يوما من مسرى اثنتى عشرة ذراعا فهي سنة ماء والا فالماء ناقص واذا تم ست عشرة ذراعا قبل النوروز فالماء يتم فاعلم ذلك وقال أبو الصلت وأما النيل وينبوعه فهو من وراء خط الاستواء من جبل هناك يعرف بجبل القمر فانه يبتدئ في التزايد فى شهر أبيب والمصريون يقولون اذا دخل أبيب كان للماء دبيب وعند ابتدائه فى التزايد يتغير جميع كيفياته ويفسد والسبب في ذلك مروره بنقائع مياه آجنة يخالطها فيجتلبها معه الى غير ذلك مما يحتمله فاذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعا وزاد من السادس عشر أصبعا واحدا كسر الخليج ولكسره يوم معدود ومقام مشهود ومجتمع خاص يحضره العام والخاص فاذا كسر فتحت الترع وهى فوهات الخلجان ففاض الماء وساح وغمر القيعان والبطاح وانضم الناس الى أعالى مساكنهم من الضياع والمنازل وهى على آكام وربا لاينتهى الماء اليها ولايتسلط السيل عليها فتعود أرض مصر بأسرها عند ذلك بحرا غامرا لما بين جبليها ريثما يبلغ الحد المحدود في مشيئة الله عز وجل له وأكثر ذلك يحوم حول ثماني عشرة ذراعا ثم يأخذ عائدا في صبه الي مجرى النيل ومسربه فينضب أولا عما كان من الارض عاليا ويصير فيما كان منها متطامنا فيترك كل قرارة كالدرهم ويغادر كل

ماقة كالبرد المسهم وقال القاضى أبو الحسن على بن محمد الماوردى في كتاب الاحكام السلطانية وأما الذراع السوداء فهى أطول من ذراع الدور بأصبع وثلثي اصبع وأوّل من وضعها أمير المؤمنين هارون الرشيد قدّرها بذراع خادم اسود كان على رأسه قائما وهى التى تتعامل الناس بها في ذرع البز والتجارة والابنية وقياس نيل مصر * وأكثر ما وجد في القياس من النقصان سنة سبع وتسعين ومائة وجد في المقياس تسعة أذرع وأحد وعشرون اصبعا وأقل ما وجد منه سنة خمس وستين ومائة فانه وجد فيه ذراع واحد وعشر أصابع وأكثر ما بلغ في الزيادة سنة تسع وتسعين ومائة فانه بلغ ثمانية عشر ذراعا وتسعة عشر أصبعا وأقل ما كان في سنة ست وخمسين وثلثمائة الهلالية فانه بلغ اثني عشر ذراعا وتسع عشرة أصبعا وهي أيام كافور الاخشيدي * والمقياس عمود رخام أبيض مثمن فى موضع يحصر فيه الماء عند انسيابه اليه وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالاصابع ماعدا الاثنى عشر ذراعا الاولى فانها مفصلة على ثمان وعشرين أصبعا كل ذراع * وقال المسعودى قالت الهند زيادة النيل ونقصانه بالسيول ونحن نعرف ذلك بتوالى الانواء وكثرة الامطار * وقالت الروم لم يزد قط ولم ينقص وانما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصلت * وقالت القبط زيادته ونقصانه من عيون في شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه وقيل لم يزد قط وانما زيادته بريح الشمال اذا كثرت واتصلت تحبسه فيفيض على وجه الارض وقال قوم سبب زيادته هبوب ريح تسمى ريح الملتن وذلك أنها تحمل السحاب الماطر من خلف خط الاستواء فيمطر ببلاد السودان والحبشة والنوبة فيأتي مدده الى أرض مصر بزيادة النيل ومع ذلك فان البحر الملح يقف ماؤه على وجه النيل فيتوقف حتى يروى البلاد وفي ذلك يقول

فاسمع فللسامع أعلى يدا * عندى وأسمى من يد المحسن
فالنيل ذو فضل ولكنه * الشكر في ذلك للملتن

ويبتدئ النيل بالتنفس والزيادة بقية بؤنة وهو حزيران وأبيب وهو تموز ومسرى وهو آب فاذا كان الماء زائدا زاد شهر توت كله وهو أيلول الى انقضائه فاذا انتهت الزيادة الى الذراع الثامن عشر ففيه تمام الخراج وخصب الارض وهو ضار بالبهائم لعدم الرعى والكلا * وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا وفي ذلك كفايتها وريّ جميع أرضها واذا زاد على ذلك وبلغ ثمانية عشر ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع وفي ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا من الاستبحار واذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء وأكثر الزيادات ثمان عشرة ذراعا * وقد بلغ فى خلافة عمر بن عبد العزيز اثنى عشر ذراعا ومساحة الذراع الى أن يبلغ

اثنى عشرة ذراعا ثمان وعشرون أصبعا ومن اثني عشرة ذراعا الى مافوق ذلك يكون الذراع أربعا وعشرين أصبعا وأقل مايبقى في قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع وفى تلك السنة يكون الماء قليلا والا ذرع التي يستسقى عليها بمصر هي ذراعان تسميان منكرا ونكيرا وهى الذراع الثالث عشر والذراع الرابع عشر فاذا انصرف الماء عن هذين الذراعين وزيادة نصف ذراع من الخمس عشرة استسقى الناس بمصر فكان الضرر الشامل لكل البلدان واذا تم خمس عشرة ودخل فى ست عشرة ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يستسقى فيه وكان ذلك نقصا من خراج السلطان والنبيذ يتخذ بمصر من ماء طوبة وهو كانون الثانى بعد الغطاس وهو لعشرة تمضى من طوبة وأصفى ما يكون ماء النيل في ذلك الوقت وأهل مصر يفتخرون بصفاء ماء النيل في هذا الوقت وفيه يخزن الماء أهل تنيس ودمياط وتونة وسائر قرى البحيرة * وقد كانت مصر كلها تروي من ست عشرة ذراعا غامرها وعامرها لما أحكموا من جسورها وبناء قناطرها وتنقية خلجانها وكان الماء اذا بلغ في زيادته تسع أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا * قال والمعمول عليه في وقتنا هذا وهو سنة خمس وأربعين وثلثمائة انه ان زاد على الستة عشر ذراعا أو نقص عنها نقص من خراج السلطان وقد تغير في زماننا هذا عامة ما تقدم ذكره لفساد حال الجسور والترع والخلجان وقانونه اليوم انه يزيد في القيظ اذا حلت الشمس برج السرطان والاسد والسنبلة حين تنقص عامة الانهار التي في المعمور ولذلك قيل ان الانهار تمده بمائها عند غيضها فتكون زيادته وتبتدئ الزيادة من خامس بؤنة وتظهر في ثاني عشره وأول دفعه فى الثانى من أبيب وتنتهى زيادته في ثامن بابه ويأخذ في النقصان من العشرين منه فتكون مدة زيادته من ابتدائها الى أن ينقص ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما وهي أبيب ومسرى وتوت وعشرون يوما من بابه ومدة مكثه بعد انتهاء زيادته اثنا عشر يوما ثم يأخذ فى النقصان* ومن العادة أن ينادي عليه دائما فى اليوم السابع والعشرين من بؤنة بعد مايؤخذ قاعه وهو مابقى من الماء القديم في ثالث عشر بؤنة ويفتح الخليج الكبير اذا أكمل الماء ستة عشر ذراعا وأدركت الناس يقولون نعوذ بالله من أصبع من عشرين وكنا نعهد الماء اذا بلغ أصابع من عشرين ذراعا فاض ماء النيل وغرق الضياع والبساتين وفارت البلاليع وهانحن في زمن منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة اذا بلغ الماء في سنة أصبعا من عشرين لايعم الارض كلها لما قد فسد من الجسور وكان الى مابعد الخمسمائة من الهجرة قانون النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة وهى في الحقيقة ثمانية عشر ذراعا وكانوا يقولون اذا زاد على ذلك ذراعا واحدة زاد خراج مصر مائة ألف دينار لما يروى من الاراضي العالية فان بلغ ثمانية عشر ذراعا كانت الغاية القصوى فان الثمانية عشر ذراعا في مقياس الجزيرة اثنان وعشرون ذراعا

في الصعيد الاعلى فان زاد على الثمانية عشر ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من الارض المنخفضة * قال ابن ميسر فى حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر ذراعا وأربعة أصابع وبلغ الماء الباب الجديد أوّل الشارع خارج القاهرة وكان الناس يتوجهون الى القاهرة من مصر من ناحية المقابر فلما بلغ الخليفة الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن محمد أن الماء وصل الى الباب الجديد أظهر الحزن والانقطاع فدخل اليه بعض خواصه وسأله عن السبب فاخرج له كتابا فاذا فيه اذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الامام عبد المجيد ثم قال هذا الكتاب الذى نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا وما يأتي بعدها فمرض الحافظ فى آخر هذه السنة ومات في أول سنة أربع وأربعين وخمسمائة * وقال القاضى الفاضل فى متجددات سنة ست وسبعين وخمسمائة وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر ربيع الاول وهو السادس عشر من مسرى وفى النيل على ستة عشر ذراعا وهو الوفاء ولا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقدم وهذا أيضا مما تغير فيه قانون النيل فى زماننا فانه صار يوفى فى أوائل مسرى ولقد كان الوفاء في سنة اثنتى عشرة وثمانمائة في اليوم التاسع والعشرين من أبيب قبل مسرى بيوم وهذا من أعجب ما يؤرخ في زيادات النيل واتفق أن في الحادى عشر من جمادى الاولى سنة تسع وسبعمائة وفي النيل وكان ذلك اليوم التاسع عشر من بابه بعد النوروز بتسعة وأربعين يوما قال وفي تاسع عشره يعنى شوّال سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة كسر بحر ابي المنجي وباشر الملك العزيز عثمان كسره وزاد النيل فيه أصبعا وهي الاصبع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذراعا وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى فانظر كيف يسمى القاضي الفاضل هذا القدر اللجة الكبرى وانه والعياذ بالله لو بلغ ماء النيل في سنة هذا القدر فقط لحل بالبلاد غلاء يخاف منه أن يهلك فيه الناس وما ذاك الا لما أهمل من عمل الجسور ويحصل لاهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعا فرح عظيم فان ذلك كان قانون الري في القديم واستمر ذلك الى يومنا هذا ويتخذ ذلك اليوم عيداً يركب فيه السلطان بعساكره وينزل في المراكب لتخليق المقياس * وقد ذكرنا ما كان في الدولة الفاطمية من الاهتمام بفتح الخليج عند ذكر مناظر اللؤلؤة وقال بعض المفسرين رحمهم الله تعالى ان يوم الوفا هو اليوم الذي وعد فرعون موسى عليه السلام بالاجتماع في قوله تعالى (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) وقد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق يكون في هذا الوقت * ومن أحسن السياسات في أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق في سيرة العزيز لدين الله قال وفي هذا الشهر يعنى شوال سنة اثنتين وستين وثلثمائة منع المعز لدين الله من النداء بزيادة النيل وأن لا يكتب بذلك الا اليه والى القائد جوهر فلما تم أباح النداء يعنى لما تم ست عشرة ذراعا

وكسر الخليج فتأمل ما أبدع هذه السياسة فان الناس دائما اذا توقف النيل في أيام زيادته أو زاد قليلا يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ويجتهد من عنده مال في خزن الغلة اما لطلب السعر أو لطلب ادخار قوت عياله فيحدث بهذا الغلاء فان زاد الماء انحل السعر والا كان الجدب والقحط ففى كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة وقال المسيحي في تاريخ مصر وخرج أمر صاحب القصر الى ابن حيران بتحرير ما يستفتح به القياسون كلامهم اذا نادوا على النيل فقال نعم لا تحصى من خزائن الله لا تفنى زاد الله في النيل المبارك كذا ومن عادة نيل مصر اذا كان عند ابتداء زيادته اخضر ماؤه فتقول عامة أهل مصر قد توحم النيل ويرون أن الشرب منه حينئذ مضر ويقال في سبب اخضراره أن الوحوش سيما الفيلة ترد البطيحات التي في أعالى النيل وتستنقع فيها مع كثرة عددها لشدة الحر هناك فيتغير ماء تلك البطيحات فاذا وقع المطر في الجهة الجنوبية في أوقاته عندهم تكاثرت السيول حينئذ في البطيحات فخرج ما كان فيها من الماء الذى قد تغير ومر الى مصر وجاء عقيبه الماء الجديد وهو الزيادة بمصر وحينئذ يكون الماء محمراً لما يخالطه من الطين الذى تأتي به السيول فاذا تناهت زيادته غشى أرض مصر فتصير القرى التي فى الاقاليم فوق التلال والروابي وقد أحاط بها الماء فلا يتوصل اليها الا في المراكب أو من فوق الجسور الممتدة التي يصرف عليها اذا عملت كما ينبغي ربع الخراج ليحفظ عند ذلك ماء النيل حتي ينتهى ري كل مكان الى الحد المحتاج اليه فاذا تكامل ري ناحية من النواحي قطع أهلها الجسور المحيطة بها من أمكنة معروفة عند خولة البلاد ومشايخها في أوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر عن أوقاتها المعتادة على حسب ما يشهد به قوانين كل ناحية من النواحي فتروى كل جهة مما يليها مع ما يجتمع فيها من الماء المختص ولولا اتقان ما هنالك من الجسور وحفر الترع والخلجان لقل الانتفاع بماء النيل كما قد جرى فى زماننا هذا وقد حكي أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر فى كل سنة ثلث الخراج لعنايتهم في القديم بها من أجل أنه يترتب على عملها رى البلاد الذي به مصالح العباد وستقف ان شاء الله تعالى عن قريب على ما كان من أعمال القدماء ومن بعدهم في ذلك وكان للمقياس في الدولة الفاطمية رسوم لكنس مجارى الماء خمسون ديناراً في كل سنة تطلق لابن أبي الرداد

ذكر الجسر الذى كان يعبر عليه فى النيل

اعلم أنه كان في النيل جسر من سفن فيما بين الفسطاط والجزيرة يعرف اليوم بالروضة وكان فيما بين الجزيرة والجزيرة أيضاً جسر فى كل جسر منها ثلاثون سفينة

ذكر ما قيل في ماء النيل من مدح وذم

قال الرئيس أبو علي بن سيناء عفا الله عنه وقوم يفرطون في مدح النيل افراطا شديدا ويجمعون محامده في أربعة بعد منبعه وطيب مسلكه وغمورته وأخذه الى الشمال عن الجنوب فاخذه الى الشمال عن الجنوب ملطف لما يجرى فيه من المياه وأما غمورته فيشاركه فيها غيره قال فأفضل المياه مياه العيون ولا كل العيون ولكن مياه العيون الحرة الارض التي لا يغلب على تربتها شيء من الاحوال والكيفيات الغريبة أو تكون حجرية فتكون أولى بأن لا تعفن عفونة الارضية لكن التي هي من طينة حرة خير من الحجرية ولا كل عين حرة بل التي هي مع ذلك جارية ولا كل جارية بل الجارية المكشوفة للشمس والرياح وان هذا مما يكسب الجارية فضيلة وأما الراكدة فربما اكتسبت بالكشف رداءة لا تكسبها بالغور والستر*
واعلم أن المياه التي تكون طينة المسيل خير من التي تجرى على الاحجار فان الطين ينقى الماء ويأخذ منه الممزوجات الغريبة ويروقه والحجارة لا تفعل ذلك لكنه يجب أن يكون طين مسيله حرا لاحمأة ولا سبخة ولا غير ذلك فان اتفق ان كان هذا الماء غمرا شديد الجرية يحيل لكثرة ما يخالطه الى طبيعته فان كان يأخذ الى الشمس في جريانه فيجرى الى المشرق وخصوصا الى الصيفى منه فهو أفضل لا سيما اذا بعد جدا من ميدانه ثم ما يتوجه الى الشمال والمتوجه الى المغرب والجنوب رديء خصوصا عند هبوب ريح الجنوب والذى يحدر من مواضع عالية مع سائر الفضل أفضل وما كان بهذه الصفة كان عذبا يخيل أنه حلو ولا يحتمل الخمر اذا مزج به منه الا قليلا وكان خفيف الوزن سريع البرد والتسخين لتخلخله باردا فى الشتاء حاراً فى الصيف لا يغلب عليه طعم ألبتة ولا رائحة ويكون سريع الانحدار من الشراسيف سريعا لهرى مايهرى فيه وطبخ ما يطبخ فيه قال الرئيس علاء الدين على ابن أبي الحرم بن نفيس في شرح القانون هذه المحامد التي ذكرها ليست علامات للحمد بل هى من الاشياء الموجبة لكونه محمودا وأحد هذه الاربعة بعد منبعه وقد بينا أن ذلك يوجب لطافة الماء بسبب كثرة حركته واعلم أن منبع النيل من جبل يقال له جبل القمر وهذا الجبل وراء خط الاستواء بأحدى عشرة درجة وثلاثين دقيقة فماؤه أعظم دائرة فى الارض بثلاثمائة درجة وستين وابتداء هذا الجبل من السادسة والاربعين درجة وثلاثين دقيقة من أول العمارة من جهة المغرب وآخره عند آخر احدى وستين درجة وخمسين دقيقة فيكون امتداد هذا الجبل مقدار خمس عشر درجة وعشرين دقيقة مما به أعظم دائرة في الارض ثلثمائة وستون درجة ويخرج من هذا الجبل عشرة انهار من أعين فيه ترمي كل خمسة منها الى بحيرة عظيمة مدورة واحدى هاتين البحيرتين مركزها حيث البعد من ابتداء العمارة بالمغرب خمسون درجة والبعد من خط الاستواء فى الجنوب سبع درج واحدي وثلاثون

دقيقة ومركز الثانية حيث البعد عن أول العمارة بالمغرب سبع وخمسون درجة وحيث البعد من خط الاستواء في الجنوب سبع درج واحدى وثلاثون دقيقة وهاتان البحيرتان متساويتان وقطر كل واحدة منهما مقدار خمس درج ويخرج من كل واحدة من البحيرتين أربعة أنهار ترمي الى بحيرة صغيرة مدورة في الاقليم الاول بعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب ثلاث وخمسون درجة وثلاثون دقيقة وعن خط الاستواء من الشمال درجتان من الاقليم الاول ومقدار قطرها درجتان ويصب كل واحد من الأنهار الثمانية في بحيرة وفي هذه البحيرة نهر واحد وهو نيل مصر ويمر ببلاد النوبة نهر آخر ابتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء كبيرة مستديرة مقدار قطرها ثلاث درج وبعد مركزها من أول العمارة بالمغرب ثلاث وأربعون درجة ويلقى نهر هذه العين لنهر النيل حيث البعد من أول العمارة بالمغرب ثلاث وأربعون دقيقة واذا تعدى النيل مدينة مصر الى بلد يقال له شطنوف يفرق هناك الى نهرين يرميان الى البحر الملح أحدهما يعرف بحر رشيد ومنه يكون خليج الاسكندرية وثانيهما يعرف بحر دمياط وهذا البحر اذا وصل الى المنصورة يفرغ منه نهر يعرف بحر اشمون يرمي الى بحيرة هناك وباقيه يرمى الى البحر المالح عند دمياط وزيادة النيل هى من امطار كثيرة ببلاد الحبشة والله أعلم (واعلم) أن الموزون من الدستورات المتنجحة من حال الماء فان الاخف فى أكثر الاحوال أفضل فهذا ما ذكره الرئيس ابن سيناء من صفات المياه الفاضلة واعتبر ما قاله تجد ذلك قد اجتمع في ماء النيل * فأوله أن ماء النيل عين تمر على أراضى حرة ولا يغلب على تربه مايمر به شئ من الاحوال والكيفيات الردية كمعادن النفط والشب والاملاح والكباريت ونحوها بل يمر على الاراضى التي تنبت الذهب بدليل ما يظهر فى الشطوط من قراضات الذهب وقد عانى جماعة تصويل الذهب من الرمل المأخوذ من شطوط النيل فربحوا منه مالا وفضيلة كون الذهب فى الماء لاتنكر * الثاني أن النيل في جريانه أبدا مكشوف للشمس والرياح * الثالث أن طينه من طين مسيل مياه مجتمعة من أمطار تمر على أراضى حرة ويظهر لك ذلك من عطرية روائح الطين اذا نديته بماء * الرابع غمورة ماء النيل وشدة جريته التي تكاد تقصف العمد اذا اعترضتها وتدفع الاثقال العظيمة اذا عارضتها * الخامس بعد مبدا خروجه من مصبه في البحر المالح وقد تقدم من طول مسافته مالا نجده في نهر غيره من أنهار المعمور * السادس انحداره من علو فان الجنوب مرتفع عن الشمال لاسيما اذا صار الى الجنادل انحط من أعلى جبل مرتفع الى وادى مصر * وذكر ابن قتيبة في كتاب غريب الحديث من حديث جرير بن عبد الله البجلي حين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منزله ببلنسة فذكره الى أن قال وماؤنا يمتنع أن يجري من علو فقال النبي صلى الله عليه وسلم خير الماء السنم أى ما كان

ظاهرا على وجه الارض والسنم الماء على وجه الارض وكل شئ علا شيئاً فقد تسنمه مأخوذ من سنام البعير لعلوه وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ومزاجه من تسنيم أى يمزج بما ينزل من علو * السابع أنه يمر من الجنوب الى الشمال فتستقبله ريح الشمال الطيبة دائما * الثامن خفته في الوزن وقد اعتبر ذلك غير مرة مع غيره من المياه نخف عنها فى الوزن * التاسع عذوبة طعمه وحسن أثره في هضم الغذاء واحداره عن المعدة بحيث انه يحدث بعد شربه جشاء وهذه صفات ان كنت ممن مارس العلم الطبيعي وعرف الطب فانه يعظم عندك قدر ماء النيل وتبين لك غزارة نفعه وكثرة محاسنه * ويقال ان ذا القرنين كتب كتابا فيه ماشاهده من عجائب الدنيا فضمنه كل أعجوبة ثم قال في آخره وليس ذلك بعجب بل العجب نيل مصر وقال بعض الحكماء لولا ما جعل الله في نيل مصر من حكمة الزيادة في زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل رى البلاد وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة لفسد أقليم مصر وتعذر سكناه لانه ليس فيه أمطار كافية ولا عيون جارية تعم أرضه الا بعض أقليم الفيوم ولله در القائل

واها لهذا النيل أى عجيبة * بكر بمثل حديثها لا يسمع
يلقى الثرى فى العام وهو مسلم * حتي اذا ما مل عاد يودع
مستقبل مثل الهلال فدهره * أبدا يزيد كما يريد ويرجع

وقال آخر

كأن النيل ذو فهم ولب * لما يبدو لعين الناس منه
فيأتي حين حاجتهم اليه * ويمضى حين يستغنون عنه

وقال تميم بن المعتمر

يوم لنا بالنيل مختصر * ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تجرى كالخيول بنا * صعدا وجيش الماء منحدر
وكأنما أمواجه عكن * وكأنما داراته سرر

وقال أيضاً

أما ترى الرعد بكي واشتكى * والبرق قد أومض واستضحكا
فاشرب على غيم بصنع الدجى * يضحك وجه الارض لما بكى
وانظر لماء النيل في مده * كأنما صندل أو مستكا

وقال آخر

والله مجرى النيل منه اذا الصبا * أرينا به من برها عسكرا بحرا
بشط بنهر السمهرية ذبلا * وموج بنهر البيض هندية بترا
اذا مر حاكى الورد غضا وان صفا * حكي ماءه لونا ولو بعده مرا

وقال أبو الحسن محمد بن الوزير فى تدريج زيادة النيل وعظم منفعته

أرى أبدا كثيرا من قليـل * وبدرا فى الحقيقة من هلال
فلا تعجب فـكل خليج ماء * بمصر مسيب بخليج مال
زيادة أصـبع في كل يوم * زيادة أذرع فى حسن حال

وقال الشهاب احمد بن فضل الله العمري

بمصر فضـل باهر * لعيشها الرغد النضر
فى سفح روض يلتقى * ماء الحياة والخضر

وقال ابن قلاقس

انظر الى الشمس فوق النيل غاربة * وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعـاعا منه يخلفهـا * كأنما احترقت بالمـاء فى الغرق
وللهلال فهـا وافي لينفدها * في أثرها زورق قد صيغ من ورق

وقال بشر الملك ابن المنجم

يا رب سامية فى الجو قمت بها * أمد طرفي فى أرض من الافق
حيث الغشيمة في التمثيل معـتزل * اذا رآها جبان مات للفرق
للشمس غاربة للغرب ذاهبـة * بالنيل مصفرة من هجمة الغسق
وللهلال انعطاف كالسنان بدا * من سورة الطعن لا من دمة الشفق

قال القاضي الفاضل رحمة الله تعالى عليه وأما النيل فقد ملأ البقاع وانتقل من الاصبع الى الذراع فكأنما غار على الارض فغطاها وأغار عليها فاستقعدها وما تخطاها فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ولا مرغوب مرهوب الا اياه * ونيل مصر مخالف فى جريه لغالب الانهار فانه يجرى من الجنوب الى الشمال وغيره ليس كذلك الا نهران فانهـما يجريان كما يجرى النيل وهما نهر مكران بالسند ونهر الاربط وهو الذى يعرف اليـوم بنهر العاصي فى حماه أحد مدائن الشام * وقد عاب ماء النيل قوم قال ابو بكر بن وحشية فى كتاب الفلاحة النبطية وأما ماء النيـل فمخرجه من جبال وراء بلاد السودان يقـال لهـا جبال القمر وحلاوته وزيادته يدلان على موقعه من الشمس أنها أحرقته لا كل الاحراق بل أسخنته اسخانا طويلا لينا لا تزعجه الحرارة ولا تقوى عليه بحيث تبدد أجزاءه الرطبة وتبقي أجزاءه الراسخة بل يعتدل عليه فصار ماؤه لذلك حلوا جدا وصار كثرة شربه يعفن البدن ويحدث البثور والدماميل والقروح وصار أهل مصر الشاربون منه دمويين محتاجين الى استفراغ الدم عن أبدانهم في كل مدة قصيرة فمن كان عالما منهم بالطبيعة فهو يحسن مداراة نفسه حتى يدفع عن جسمه ضرر ماء النيل والا فهو يقع فيما ذكرنا من العفونات وانتشار البثر والدماميل وذلك أن هذا الماء ناقص البرد عن سائر المياه قد صير له الطبخ قواما هو أثخن من قوام

الماء فصار اذا خالط الطعام في الابدان كثر فيها الفضول الردية العفنة فيحدث من ذلك
ماذ كرناه ودواء أهل مصر الذى يدفع عنهم ضرر ماء النيل ادمان شرب ربوب الفاكهة
الحامضة القابضة وأخذ الادوية المستفرغة للفضول ولو زادت حرارة الشمس على ماء النيل
وطال طبخها له لصار مالحا بمنزلة ماء البحار الراكدة التي لاحركة لها الاوقت جزر البحر
وهبوب الرياح وهو أوفق للزروع والمنابت من الحيوان وقال ابن رضوان والنيل يمر بأمم
كثيرة من السودان ثم يصير الى ارض مصر وقد غسل مافي بلاد السودان من العفونات
والاوساخ ويشق مارا بوسط أرض مصر من الجنوب الى الشمال الى أن يصب فى بحر الروم
ومبدأ زيادته في فصل الصيف وتنتهى زيادته فى فصل الخريف ويرتقى في الجو منه في أوقات
مده رطوبات كثيرة بالتحلل الخفى فيرطب ذلك يبس الصيف والخريف واذا مد النهر فاض
على أرض مصر فغسل مافيها من الاوساخ نحو جيف الحيوانات وأزبالها وفضول الآجام والنبات
ومياه النقاع وأحدر جميع ذلك معه وخالطه من تراب هذه الارض وطينها مقدار كثير من أجل
سخافتها وباض فيه من السمك الذى تربي فيه وفى مياه النقائع ومن قبل ذلك تراه في أول مدة
يخضر لونه بكثرة مايخالطه من مياه النقائع العفنة التي قد اجتمع فيها العرمض والطحلب واخضر
لونها من عفنها ثم يتعكر حتي يصير آخر أمره مثل الحمأة واذا صفا اجتمع منه في الاناء طين
كثير ورطوبة لزجة لها سهوكة ورائحة منكرة وهذا من أوكد الاشياء فى ظهور رداءة
هذا الماء وعفنه وقد بين بقراط وجالينوس أن أسرع المياه الى العفن مالطفته الشمس بمياه
الامطار ومن شأن هذا الماء أن يصل الى أرض مصر وهو فى الغاية من اللطافة من شدة
حرارة بلاد السودان فاذا اختلط به عفونات أرض مصر زاد ذلك فى استحالته ولذلك
يتولد منه من أنواع السمك شىء كثير جدا فان فضول الحيوانات والنبات وعفونة هذا
الماء وبيض السمك يصير جميعها موادا في تكوّن هذه الاسماك كما قال ارسطاليس فى كتاب
الحيوان وذلك شئ ظاهر للحس فان كل شىء يتعفن يتولد من عفونته الحيوان ولهذا صار
مايتولد من الدود والفأر والثعابين والعقارب والزنابير والذباب وغيرها بأرض مصر كثيرا
فقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة الفضلية وأنها ذات أجزاء
كثيرة وأن هواءها وماءها رديان وربما انقطع النيل في آخر الربيع وأول الصيف من جهة
الفسطاط فيعفن بكثرة مايلقى فيه الى أن يبلغ عفنه الى أن يصير له رائحة منكرة محسوسة
وظاهر أن هذا الماء اذا صار على هذه الحالة غير مزاج الناس تغيرا محسوسا وينبغي أن يستقى
ماء النيل من الموضع الذى فيه جريه أشد والعفونة فيه أقل ويصفى كل انسان هذا الماء
بحسب مايوافق مزاجه أما المحرورون فى أيام الصيف فبالطباشير والطين الارمنى والمغرة
والنبق المرضوض والزعرور المرضوض والخل وأما المبرودون في أيام الشتاء فباللوز المر وداخل

نوى المشمش والصعتر والشب وينبغى أن ينظف ماروق ويشرب وان شئت أن تصفيه بأن تجعله فى آنية الخزف والفخار والجلود وما يحصل من ذلك بالرشح وان شئت طبخته بالنار وجعلته في هواء الليل حتى يروق ثم نظفت منه ماروق واستعملته * واذا ظهرت فيه كيفيات رديآت فاطبخه بالنار ثم برده تحت السماء في برودة الليل وصفه بأخلاط الادوية التي ذكرتها وأجود ما اتخذ هذا الماء أن يصفى مرارا وذلك بأن يسخنه أو يطبخه ثم يبرده في هواء الليل ويقطف ماروق منه فتصفيه أيضا ببعض الادوية ثم تأخذ ماروق فتجعله في آنية تحصل في برد الليل وتأخذ بالرشح فتشربه واجعل آنية هذا الماء في الصيف الخزف والفخار المعمولين في طوبة والظروف الحجرية والقرب ونحوها مما يبرد وفى الشتاء الآنية الزجاج والمدهون وما يعمل في الصيف من الفخار والخزف ويكون موضعه في الصيف تحت الاسراب وفي مخاريق ريح الشمال وفي الشتاء بالمواضع الحارة ويبرد فى الصيف بأن يخلط معه ماء الورد ويؤخذ خرقة نظيفة ويشد فيها طباشير وبزر رجلة أوخشخاش أبيض أو طين أرمني أو مغرة ويلقى فيه كيما يأخذ من بردها ولا يخالطه جسمها وتغسل ظروفه في الصيف بالخزف المدقوق وبدقيق الشعير والباقلاء والصندل وفي الشتاء بالاشنان والسعد ويبخر بالمصطكى والعود وأردأ ما يكون ماء النيل بمصر عند فيضه وعند وقوف حركته فعند ذلك ينبغي أن يطبخ ويبالغ في تصفيته بقلوب نوى المشمش وسائر ما يقطع لزوجته وأجود مايكون في طوبة عند تكامل البرد ومن أجل هذا عرفت المصريون بالتجربة أن ماء طوبة أجود المياه حتى صار كثير منهم يخزنه في القوارير الزجاج والصيني ويشربه السنة كلها ويزعم أنه لا يتغير وصاروا أيضاً لا يصفونه فى هذا الزمان لظنهم أنه على غاية الخلاص * وأما أنت فلا تسكن الى ذلك وصفه على أي حالة كان فالماء المخزون لا بد أن يتغير فهذا ماعندي من ذم ماء النيل وحاصله أن الماء تتغير كيفيته بماء يمر عليه لا أن ذاته ردية فلا يهولنك ما تسمع فما الامر الا ماقلت لك واذا كان الضرر بحسب ماتغير من كيفيته لامن كميته فقد عرفت ماتعالجه به كي يزول مايخالطه من الكيفيات الردية والله الموفق بمنه وكرمه

ذكر عجائب النيل

ومن عجائب النيل فرس البحر قال عبد الله بن احمد بن سليم الاسوانى في كتاب أخبار النوبة ومسافة ما بين دنقلة الى أول بلد علوة أكثر مما بين دنقلة واسوان وفي ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشي والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف مافي الجانب الذي يلي أرض الاسلام * وفي هذه الاماكن جزائر عظام مسيرة أيام فيها الحيات والوحوش والسباع ومفاوز يخاف فيها العطش وماء النيل ينعطف من هذه النواحي الى مطلع الشمس والى مغربها مسافة أيام حتى يصير الصعيد كالمنحدر وهي الناحية التي تبلغ

العطوف من النيل الى المعدن المعروف بالشنكة وهي بلد معروف بشنقير ومنه يخرج القمرى وفرس البحر يكثر فى هـذا الموضع * وحدثني سيمون صاحب عهد علوة أنه أحصى فى جزيرة سبعين دابة منها وهى من دواب الشطوط في خلق الفرس في غلظ الجاموس قصيرة القوائم لها خف وهى فى ألوان الخيل بأعراف وآذان صغار كآذان الخيـل وأعناقها كذلك وأذنابها مثل أذناب الجواميس ولهـا خرطوم عريض يظن الناظر اليها أن عليها مخلاة لها صهيل وأنياب لا يقوم حذاءها تمساح وتعترض المراكب عند الغضب فتغرقها ورعيها فى البر العشب وجلدها فيه متانة عظيمة يتخذ منه دبابيس انتهى * وهو كفرس البر الا انه أكبر عرفا وذنبا وأحسن لونا وحافره مشقوق كحافر البقر وجثته أكبر من الحمار بقليل وهو يأكل التمساح أكلا ذريعا ويقوى عليه قوة ظاهرة وربما خرج من الماء ونزا على فرس البر فيتولد بينهما فرس في غاية الحسن * واتفق أن بعض الناس نزل على طرف النيل ومعه حجرة فخرج من الماء فرس أدهم عليه نقط بيض فنزا على الحجرة فحملت منه وولدت مهرا عجيب الصورة فطمع فى مهر آخر فجاء بالحجرة والمهر الى ذلك الموضع فخرج الفرس من الماء وشم المهر ساعة ثم وثب الى الماء ومعه المهر فصار الرجل يتعهد ذلك المكان كثيرا فلم يعد الفرس ولا المهر اليـه * (قال المسعودى) وفي نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من الحيوانات فمن ذلك السمك المعروف بالرعاد والواحدة نحو الذراع اذا وقعت في شبكة الصياد ارتعدت يده وعضده فيعلم بوقوعها فيبادر الى أخذها واخراجها من شبكته ولو أمسكها بخشب أو قصب فعل ذلك وقد ذكرها جالينوس وانها ان جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة وهى فى الحياة هدأ من ساعته قال ابن البيطار عن جالينوس هو الحيوان البحرى الذى يحدث الخدر وزعم قوم أنه اذا أدنى من رأس من يشتكي الصداع سكن صداعه وان أدنى من مقعدة من انقلبت مقعدته أصلحها ولـكن أنا جربت الامرين جميعا فلم أجده يفعل ولا واحدا منهما ففـكرت اني أدنيته من رأس المصدوع والحيوان ماهو حي لانني ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزلة الادوية فوجدته ينفع مادام حيا قال ديسقوريدوس هو سمكة بحرية مخدرة اذا وضعت على الرأس الذى عرض له الصداع المزمن سكن شدة وجعه واذا احتمله ذو المقعدة التي تبرز الى خارج أصلحها وقال يونس الزيت الذى يطبخ فيـه يسكن أوجاع المفاصل الحريفة اذا دهنت به قال ابن البيطار رأيت بساحل مدينة مالقة من بلاد الاندلس سمكة عريضة لون ظاهرها لون رعاد مصر سواء وباطنها أبيض وفعلها في تخدير ماسكها كفعل رعاد مصر أو أشد الا انها لا تؤكل البتة وقال بعضهم اذا علقت المرأة شيئاً من الرعاد عليها لم يطق زوجها البعد عنها وكذلك ان علق منها الرجل عليه لم تكد المرأة ان تفارقه * والسقنقور وهو صنف

يتوالد من السمك والتمساح فلا يشاكل السمك لان له يدين ورجلين ولا يشاكل التمساح لان ذنبه أجرد أملس عريض غير مضرس وذنب التمساح سخيف مضرس ويتعالج بشحم السقنقورا للجماع ولا يكون بمكان الا في النيل وفى نهر مهران من أرض الهند ولقد بلغني أن أقواما شووها وأكلوا منها فماتوا كلهم في ساعة واحدة * والسقنقور قال ابن سيناء هو ورن يصاد من نيل مصر يقولون انه من نسل التمساح وأجود ما يصطاد في الربيع وقال آخر انه فرخ التمساح فاذا خرج من البيض فما قصد الماء صار تمساحا وما قصد الرمل صار سقنقورا وقال ابن البيطار هو جنس من الجراد يجفف في الخريف اذا شرب منه وزن درهمين من الموضع الذى يلي كلاه بشراب انهض الجماع وهو شديد الشبه بالورن يوجد بالرمال التي تلي نيل مصر في نواحى صعيدها وهو مما يسعى في البر ويدخل في الماء يعني النيل ولهذا قيل له الورن المائى لشبهه به ولدخوله في الماء وهو يتولد من ذكر وأنثى ويوجد للذكر خصيتان كخصيتي الديك في خلقهما وموضعهما وانائه تبيض فوق العشرين بيضة وتدفنها في الرمل وللذكر من السقنقور احليلان وللانثى فرجان والسقنقور يعض الانسان ويطلب الماء فان وجده دخل فيه وان لم يجده بال وتمرغ في بوله واذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته وسلم السقنقور فان اتفق ان سبق المعضوض الى الماء فدخله قبل دخول السقنقور الماء وتمرغه في بوله مات السقنقور لوقتـه وسلم المعضوض والافضل الذكر منه والابلغ فى نفع البـاه بل هو المخصوص بذلك دون الانثى والمختار من أعضائه مايلي أصل ذنبه ومحاذى سرته والوقت الذي يصاد فيه الربيع فانه يكون فيه هائجا للسفاد فيكون في هذا الوقت أبلغ نفعا فاذا أخذ ذكي في يوم صيده فانه ان ترك حياً زال شحمه وهزل لحمه وضعف فعله ثم يقطع رأسه وطرف ذنبه من غير استئصال ويشق جوفه طولا ويلقى ما فيه الا كلاه وكيسه فاذا نظف حشي ملحاً وخيط الشق وعلق منكوسا في ظل معتدل الهواء حتى يجف ويؤمن فساده ثم يرفع في اناء متخرقة للهواء كالسلاسل المضفورة من قضبان شجر الصفصاف والخوص ونحوه الى وقت الحاجة ولحمه طريا حار رطب والمجفف أشد حرارة وأقل رطوبة ولا يوافق استعماله من مزاجه حار يابس وانما يوافق ذوي الامزجة الباردة الرطبة وخاصة لحمه وشحمه انهاض شهوة الجماع ويهيج الشبق ويقوى الانعاظ وينفع أمراض العصب الباردة وخاصة ما يلي سرته ويحاذى ذنبـه وينفع مفردا ومركباً واستعماله مفرداً أبلغ والمقـدار منه بعد تجفيفه من مثقال الى ثلاثة مثاقيل بحسب السن والمزاج والبلد والوقت الحاضر يسحق ويذاب بشراب أو ماء العسل أو نقيع الزبيب أو يذر على صفرة بيض الدجاج النيمرشت ويحسى وكذلك يفعل بلحمه اذا أخذ منه من درهم الى درهمين وذر على صفرة البيض بمفرده أو مع مثله بزر جرجير مسحوق ولا يوجد السقنقور

الا في بلاد الفيوم خاصة وأكثر صيده في الاربعينات اذا اشتد البرد وخرج من الماء الى البر فحينئذ يصاد * وقال المسعودى والفرس الذى يكون فى نيل مصر اذا خرج من الماء وانتهى وطؤه الى بعض المواضع من الارض علم أهل مصر أن النيل يزيد الى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه لا يتخلف ذلك عندهم لطول العادات والتجارب وفي ظهوره من الماء ضرر بأرباب الارض والغلات لرعيه الزرع وذلك أنه يظهر من الماء في الليل فينتهى الى موضع من الزرع ثم يولى عائدا الى الماء فيرعى في حال رجوعه من الموضع الذى انتهى اليه مسيره ولا يرعى من ذلك الذى قد رعاه شيئاً في ممره واذا رعى ورد الماء وشرب ثم قذف مافي جوفه فى مواضع شتى فينبت ذلك مرة ثانية واذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره بأرباب الضياع طرحوا له من الترمس في الموضع الذى يعرف خروجه منه مكاكى كثيرة مبدرا مبسوطا فيأكله ثم يعود الى الماء فاذا شرب منه ربا الترمس في جوفه وانتفخ فينشق جوفه منه ويموت ويطفو على الماء ويقذف به الى الساحل والموضع الذى يرى فيه لا يرى به تمساح وهو على صورة الفرس الا أن حوافره وذنبه بخلاف ذلك وجبهته واسعة * وقال المسيحي ان الصنف المعروف بالبلطي من أصناف السمك أوّل ما عرف بنيل مصر في أيام الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ولم يكن يعرف قبله في النيل وظهر في أيامه أيضاً سمك يعرف باللبيس وانما سمى باللبيس لانه يشبه البوري الذي بالبحر الملح فالتبس به وغالب الظن أنها من أسماك البحر الملح دخلت في الحلو * ومن حيوان البحر التمساح قال ابن البيطار التمساح حيوان معروف يكون في الانهار الكبار وفي النيل كثيرا ويوجد في نهر مهران وقد يوجد فى بلاد السودان وهو الورن النيلي وقال ابن زهران كل حيوان يحرك فكه الاسفل اذا أكل ماخلا التمساح فانه يحرك فكه الاعلى دون الاسفل وشحم التمساح اذا عجن بالسمن وجعل فيه فتيلة وأسرج في نهر أو أجمة لم ينعق ضفادعها مادامت تقدوان طيف بجلد تمساح حول قرية ثم علق على سطح دهليز لم يقع البرد في تلك القرية واذا عض التمساح انسانا فوضع على العضة شحم التمساح برأ من ساعته وان لطخ بشحمه جبهة كبش نطاح نفر كل كبش يناطحه وهرب منه ومرارته يكتحل بها للبياض في العين فيذهبه وكبده يبخر بها المجنون فيبرأ وزبل التمساح يزيل البياض من العين الحديث والقديم وان قلعت عيناه وهو حي وعلقت على من به جذام أوقفه ولم يزد عليه شئ وان علق شي من التي بالجانب الايمن على رجل زاد في جماعه وعينه اليمني لمن يشتكى عينه اليمني وعينه اليسرى لمن يشتكي عينه اليسرى وشحمه اذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب والكليتين وزاد في الباه واذا أخذ دم التمساح وخلط به هليلج وأملج وطلى به على الوضح أذهبه وغير لونه واذا طلى به على الجبهة والصدغين نفع من وجع الشقيقة واذا أكل لحمه أسفيدباجا سمن

البدن النحيف وشحمه اذا قطر بعد أن يذاب في الاذن الوجعة نفعها وان أد من تقطيره فى الاذن نفع من الصمم واذا دهن به صاحب حمى الربع سكنت عنه وحمه ردئ الكيموس وقال المسعودي وكذلك التمساح آفته من دويبة تكون فى سواحل النيل وجزائره وهو أن التمساح لادبر له وما يأكله يتكون في بطنه دودا فاذا أذاه ذلك خرج الى البر فاستلقى على قفاه فاغرا فاه فينقض اليه طير الماء وقد اعتاد ذلك منه فيأكل مايظهر من جوفه من ذلك الدود المعظم وتكون تلك الدويبة قد كمنت في الرمل فتثب الى حلقه وتصير الى جوفه وتخرج فيخبط بنفسه الى الارض ويطلب قعر النيل حتى تأتي الدويبة على حشو جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج وربما قتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته وهذه الدويبة تكون نحو الذراع على صورة ابن عرس ذات قوائم شتى ومخالب ويقال ان بجبال فسطاط مصر طلسم معمول بها وكان التمساح لايستطيع القرب حوله بل كان اذا بلغ حدوده انقلب واستلقى على ظهره فيعبث به الصبيان الى أن يجاوز نهاية المدينة ثم يعود مستويا ويعود الى طباعه ثم ان هذا الطلسم كسر فبطل فعله ويقال ان التمساح يبيض كبيض الاوز وربما تولد فيه جرادين صغار ثم تكبر حتى يبلغ طولها عشرة أذرع وتزداد طولا كلما عمرت والتمساح يرتعش ستين مرة في حركة واحدة ومحل واحد وسنه اليسرى نافعة للنافض

ذكر طرف من تقدمة المعرفة بحال النيل فى كل سنة

قال ابن رضوان فى شرح الاربع وقد يحتاج أمر النيل الى شروط منها أن تكون الامطار متوالية في نواحي الجنوب قبل مده وفى وقت مده ولذلك وجب أن يكون النيل متى كانت الزهرة وعطارد مقترنين فى مدخل الصيف كثير الزيادة لرطوبة الهواء ومتى كان المريخ أو بعض المنازل في ناحية الجنوب فى مدخل الربيع أو الصيف كان قليلا لقلة الامطار فى تلك الناحية ومنها أن تكون الرياح شمالية لتوقف جريه فأما الجنوبية فانها تسرع انحداره ولا تدعه يلبث فاذا علمت ما يكون فى ناحية الجنوب من كثرة الامطار أو قلتها وفي ناحية مصر من هبوب الرياح فى فصلى الربيع والصيف فقد علمت حال النيل كيف يكون وتعلم من حاله ما يعرض بمصر من الخصب والجدب وقال أبو سامر بن يونس المنجم عن بطليموس اذا أردت أن تعلم مقدار النيل فى الزيادة والنقصان فانظر حين تحل الشمس برج السرطان الى الزهرة وعطارد والقمر فان كانت أحوالها جيدة وهى برية من النحوس فالنيل يمتد وتبلغ الحاجة به وان كانت أحوالها بخلاف ذلك وهى ضعيفة فانعكس القول فان ضعف بعضها وصلح البعض توسط الحال في النيل والضابط أن قوة الثلاثة تدل على تمام النيل وضعفه على توسطه وانحاسها أو احتراقها أو وقوعها في بعدها الا بعد من الارض على النقص وانه قليل جدا الا أن احتراق الزهرة في برج الاسد يستنزل الماء من الجنوب وقال

أبو معشر ينظر عند انتقال الشمس الى برج السرطان للزهرة وعطارد والقمر فان كانت في سيرها الاكبر فان زيادة النيل عظيمة وان كانت في سيرها الاوسط فاعرف كم أكثر مسيرها وكم اقله وانسبه بحسب ماتراه وان كانت بطيئة السير فزيادة النيل قليلة وان اختلف مسير هذه الثلاثة فكان بعضها في مسيره الاكبر وبعضها بطيء السير فغلب أقواها وامزج الدلالة وقل بحسب ذلك * وقالت القبط ينظر أول يوم من شهر برمودة ما الذى يوافقه من أيام الشهر العربي فما كان من الايام فزد عليه خمسة وثمانين فما بلغ خذ سدسه فانه يكون عدد مبلغ النيل من الاذرع فى تلك السنة قالوا ومن المعتبر أيضاً في أمر النيل أن تنظر اليوم الذى تفطر فيه النصارى اليعاقبة بمصر وما بقى من الشهر العربي فزد عليها أربعا وثلاثين فما بلغ أسقطه اثنى عشر فان بقى بعد ذلك الاسقاط من العدد زيادة على اثني عشر فهو زيادة النيل من الاذرع في تلك السنة مع الاثنى عشر وان بقى اثنى عشر فهى سنة رديئة قالوا واذا كان العاشر من الشهر العربي موافقا لشهر أبيب والقمر في برج العقرب فان كان مقارنا لقلب العقرب كان النيل مقصرا والا فهو جيد قالوا وينظر أول يوم من بؤنة فان هبت الريح شمالا في بكرة النهار كان النيل عاليا وان هبت وسط النهار فانه متوسط وان هبت آخر النهار كان نيلا قاصرا وان لم تهب لم يطلع تلك السنة وقيل يعتبر هكذا أول خميس من بؤنة * ومن المعتبر الذى جربته أنا سنين وأخبرنى بعض شيوخنا أنه جربه وأخبره به من جربه فصح أن ينظر أول يوم من مسرى كم مبلغ النيل فزد عليه ثمانية اذرع فما بلغ فهو زيادة النيل في تلك السنة ومما اشتهر عند أهل مصر وجربته أيضاً فصح أن يؤخذ قبل عيد ميكائيل بيوم في وقت الظهر من الطين الذى مر عليه ماء النيل قطعة زنتها ستة عشر درهما سواء وترفع فى اناء مغطى الى بكرة يوم عيد ميكائيل وتوزن فما زاد على وزنها من الخراريب كان مبلغ النيل فى تلك السنة بقدر عدد ذلك الخراريب لكل خروبة ذراع ومن ذلك أخذ شيء من دقيق القمح وعجنه بماء النيل في اناءٍ فخارٍ وقد عمل من طين مر عليه النيل وتركه مغطي طول ليلة عيد ميكائيل فاذا وجد بكرة يوم العيد قد اختمر بنفسه كان النيل تاما وافيا وان وجده لم يختمر دل على قصور هذا النيل ثم ينظرون مع ذلك بكرة يوم عيد ميكائيل الى الهواء فان هبت طيابا فهو نيل كبير وان هبت غير طياب فهو نيل مقصر لاسيما ان هبت مريسيا فانه يكون نيلا كافيا والشأن عندهم انما هو في دلالة العلامات الثلاث على شيء واحد فأما اذا اختلف فالحكم لايكاد يصح * وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية وذكر أصحاب التجارب أنه اذا تقدم فعمد الى لوح وزرع عليه من كل زرع ونبات حتى اذا كانت الليلة الخامسة والعشرون من شهر تموز أحد شهور الروم وهى آخر أيام الباحور ثم وضع اللوح بارزا لطلوع الكواكب وغروبها

لايحول بينه وبين السماء شيء فان كل مالا يزكو في تلك السنة من الزروع يصبح أصفر وما يصلح ريعه منها يبقى أخضر وكذلك كانت القبط تفعل ذلك وقد جربت أنا على ما أفادنيه بعض الكتاب انه اذا حصل مطر ولو قل في شهر بابة ينظر ماذلك اليوم من الشهر القبطي فانه يبلغ سعر الويبة القمح تلك السنة من الدراهم بعدد ما مضى من أيام شهر بابة وأول ما جربت هذا انه وقع مطر في بابة يوم الخميس الخامس عشر منها فبيعت الويبة تلك السنة بخمسة عشر درهما

ذكر عيد الشهيد

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من أنزه فرج مصر وهو اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط ويزعمون أن النيل بمصر لايزيد فى كل سنة حتى يلقي النصاري فيه تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع اسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم عيدا ترحل اليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفى الجزائر ولا يبقي مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لايحصيهم الا خالقهم وتصرف أموال لاتحصر ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق وتثور فتن وتقتل أناس ويباع من الخمر خاصة فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة الف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهبا وباع نصراني فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائما بناحية شبري من ضواحى القاهرة وكان اعتماد فلاحي شبرى دائما في وفاء الخراج على مايبيعونه من الخمر في عيد الشهيد ولم يزل الحال على ماذكر من الاجتماع كذلك الى أن كانت سنة اثنتين وسبعمائة والسلطان يومئذ بديار مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون والقائم بتدبير الدولة الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وهو يومئذ استادار السلطان والامير سيف الدين سلار نائب السلطنة بديار مصر فقام الامير بيبرس في ابطال ذلك قياما عظيما وكان اليه أمور ديار مصر هو والامير سلار والناصر تحت حجرهما لايقدر على شبع بطنه الا من تحت أيديهما فتقدم أمر الامير بيبرس أن لايرمي أصبع في النيل ولا يعمل له عيد وندب الحجاب ووالي القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرى على عادتهم وخرج البريد الى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب الى الولاة باجهار النداء واعلانه فى الاقاليم بأن لايخرج أحد من النصاري ولا يحضر لعمل عيد الشهيد فشق ذلك على أقباط مصر كلهم من أظهر الاسلام منهم وزعم أنه مسلم ومن هو باق على نصرانيته ومشي بعضهم الى بعض وكان منهم رجل يعرف بالتاج بن سعيد الدولة يعاني الكتابة وهو يومئذ فى خدمة الامير بيبرس وقد احتوى

على عقله واستولى على جميع اموره كما هي عادة ملوك مصر وأمرائها من الاتراك في الانقياد لكتابهم من القبط سواء منهم من أسر الكفر ومن جهر به * وما زال الاقباط بالتاج الى أن تحدث مع مخدومه الامير بيبرس في ذلك وخيل له من تلف مال الخراج اذا بطل هذا العيد فان أكثر خراج شبرى انما يحصل من ذلك وقال له متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل أبدا ويخرب اقليم مصر لعدم طلوع النيل ونحو ذلك من هتف القول وتميق المكر فثبت الله الامير بيبرس وقواه حتى أعرض عن جميع مازخرفه من القول واستمر على منع عمل العيد وقال للتاج ان كان النيل لايطلع الا بهذا الاصبع فلا يطلع وان كان الله سبحانه هو المتصرف فيه فنكذب النصاري فبطل العيد من تلك السنة ولم يزل منقطعا الى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وعمر الملك الناصر محمد بن قلاون الجسر فى بحر النيل ليرمي قوة التيار عن بر القاهرة الى ناحية الجيزة كما ذكر في موضعه من هذا الكتاب فطلب الامير يلبغا اليحياوى والامير الطنبغا المارديني من السلطان أن يخرجا الى الصيد ويغيبا مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه فى محبتهما وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما الى الصيد وكان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد فرضيا منه بذلك وأشيع فى الاقاليم اعادة عمل عيد الشهيد فلما كان اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه ركب الامراء النيل في الشخاتير بغير حراريق واجتمع الناس من كل جهة وبرز ارباب الغناء وأصحاب اللهو والخلاعة فركبوا النيل وتجاهروا بما كانت عادتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات وتوسع الامراء في تنوع الاطعمة والحلاوات وغيرها توسعا خرجوا فيه عن الحد فى الكثرة البالغة وعم الناس منهم مالا يمكن وصفه لكثرته واستمروا على ذلك ثلاثة أيام وكانت مدة انقطاع عمل عيد الشهيد منذ أبطله الامير بيبرس الى أن أعاده الملك الناصر ستا وثلاثين سنة واستمر عمله فى كل سنة بعد ذلك الى أن كانت سنة خمس وخمسين وسبعمائة تحرك المسلمون على النصارى وعملت أوراق بما قد وقف من أراضى مصر على كنائس النصارى ودياراتهم وألزم كتاب الامراء بتحرير ذلك وحمل الاوراق الى ديوان الاحباس فلما تحررت الاوراق اشتملت على خمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الديارات والكنائس فعرضت على أمراء الدولة القائمين بتدبير الدولة فى أيام الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون وهم الامير شيخو العمرى والامير صرغتمش والامير طاز فتقرر الحال على أن ينعم بذلك على الامراء زيادة على اقطاعاتهم وألزم النصارى بما يلزمهم من الصغار وهدمت لهم عدة كنائس كما هو مذكور في موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الكنائس فلما كان العشر الاخير من شهر رجب من السنة المذكورة خرج الحاجب والامير علاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة الى ناحية شبرى الخيام من

ضواحي مصر فهدمت كنيسة النصارى وأخذ منها أصبع الشهيد في صندوق واحضر الى الملك الصالح وأحرق بين يديه في الميدان وذري رماده في البحر حتي لا يأخذه النصارى فبطل عيد الشهيد من يومئذ الى هذا العهد ولله الحمد والمنة

﴿ ذكر الخلجان التي شقت من النيل ﴾

اعلم أن النيل اذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان وترع يتخرق الماء فيها يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجري النيل واكثر الخلجان والترع والجسور والاخوار بالوجه البحرى وأما الوجه القبلي وهو بلاد الصعيد فان ذلك قليل فيه وقد ذهبت معالمه ودرست رسومه من هنالك والمشهور من الخلجان خليج منجا * وخليج منف وخليج المنهى وخليج اشموم طناح وخليج سردوس وخليج الاسكندرية وخليج دمياط وخليج القاهرة وبحر أبي المنجا والخليج الناصرى ظاهر القاهرة * قال ابن عبد الحكم عن أبى رهم السماعي قال كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير وتدبير حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا ويرسلونه كيف شاؤا فذلك قوله تعالى عما حكي عن قول فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون ولم يكن يومئذ في الارض ملك أعظم من ملك مصر وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله الى آخره في الجانبين معا جميعا ما بين أسوان الى رشيد وسبع خلج خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهى وخليج سردوس جنات متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء والزرع ما بين الجبلين من أول مصر الى آخرها مما يبلغه الماء (وكان) جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما قدروا ودبروا من قناطرها وخلجها وجسورها فذلك قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم قال والمقام الكريم المنابر كان بها ألف منبر (خليج سخا) وخليج سخا حفره ندارس بن صابن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح وهو أحد ملوك القبط القدماء الذين ملكوا مصر في الدهر الاول * قال ابن وصيف شاه ندارس الملك أول من ملك الاحياز كلها بعد أبيه صاوصفاله ملك مصر وكان ندارس محتنكا مجربا ذا أيد وقوة ومعرفة بالامور فأظهر العدل وأقام الهيا كل وأهلها قياما حسنا ودبر جميع الاحياز ويقال انه الذى حفر خليج سخا وارتفع مال البلد على يده مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار وقصده بعض عمالقة الشام فخرج اليه واستباحه ودخل فلسطين وقتل بها خلقا وسبي بعض حكمائها وأسكنهم مصر وهابته الملوك وعلى رأس ثلاثين من ملكه طمع السودان من الزنج والنوبة في أرضه وعاثوا وأفسدوا فجمع الجيوش من أعمال مصر وأعد المراكب ووجه قائدا يقال له فلوطس في ثلثمائة ألف وقائدا آخر في مثلها ووجه في النيل ثلثمائة سفينة في كل سفينة كاهن يعمل أعجوبة من

العجائب ثم خرج في جيوش كثيرة فلقى جمع السودان وكانوا في زهاء ألف ألف فهزمهم وقتل أكثرهم أبرح قتل وأسر منهم خلقا وتبعتهم جيوشه حتى وصلوا الى أرض الفيلة من بلاد الزنج فأخذوا منها عدة ومن النمور والوحوش وساقوها الى مصر فذللها وعمل على حدود بلده منارا وزبر عليه مسيره وظفره والوقت الذى سار فيه ومات بمصر فدفن فى ناووس نقل اليه شيئاً كثيرا من أصناف الكواكب ومن الذهب والجوهر والصيغة والتماثيل وزبر عليه اسمه وتاريخ هلاكه وجعل عليه طلسمات تمنع منه وعهد الى ابنه ماليق بن تدارس (خليج سردوس) حفره هامان قال ابن وصيف شاه طلما بن قومس الملك جلس على سرير الملك وحاز جميع ما كان فى خزائنهم وهو الذي تذكر القبط أنه فرعون موسى* فأما أهل الأثر فيزعمون أنه الوليد بن مصعب وانه من العمالقة وذكروا أن الفراعنة سبعة وكان طلما فيما حكي عنه قصيرا طويل اللحية أشهل العينين صغير العين اليسرى في جبينه شامة وكان أعرج وزعم قوم أنه من القبط ونسب أهل بيته مشهور عندهم وذكر آخرون أنه دخل منف على أتان عليها نطرون جاء ليبيعه وكانوا قد اضطربوا فى تولية الملك فرضوا أن يملكوا عليهم أول من يطرأ من الناس فلما رأوه ملكوه عليهم ولما جلس في الملك بذل الاموال وقرب من أطاعه وقتل من خالفه فاعتدل أمره واستخلف هامان وكان يقرب منه فى نسبه وأثار بعض الكنوز وصرفها فى بناء المدائن والعمارات وحفر خلجانا كثيرة ويقال انه الذى حفر خليج سردوس وكان كلما عرّجه الى قرية من قرى الحوف حمل اليه أهلها مالا حتى اجتمع من ذلك مال كثير فأمر برده على أهله * وقال ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ان فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم ويعطونه مالا قال وكان يذهب به الى هذه القرية من نحو الشرق ثم يرده الى قرية من نحو دبر القبلة ثم يرده الى قرية فى الغرب ثم يرده الى أهل قرية فى القبلة ويأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار فأتى بذلك يحمله الى فرعون فسأله عن ذلك فأخبره بما فعل في حفره فقال له فرعون ويحك انه ينبغي للسيد أن يعطف على عباده ويفيض عليهم ولا يرغب فيما بأيديهم رد على أهل كل قرية ما أخذت منهم فرده كله على أهله قال فلا يعلم بمصر خليج أكثر انعطافا منه لما فعل هامان في حفره وكان هامان نبطيا (خليج الاسكندرية) قال ابن عبد الحكم ويقال ان الذى بني منارة الاسكندرية فليطرة الملكة وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الاسكندرية ولم يكن يدخلها الماء كان يعدل من قرية يقال لها كسا قبالة الكريون فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية وهي التي بلطت قاعته وقال الكندي ان الحارث بن مسكين قاضى مصر حفر خليج الاسكندرية وقال الاسعد بن مماتي

في كتاب قوانين الدواوين خليج الاسكندرية عليه عدة ترع وطوله من فم الخليج ثلاثون ألف قصبة وستمائة قصبة وعرضه من قصبتين ونصف الى ثلاث قصبات ونصف ومقام الماء فيه بالنسبة الى النيل فان كان مقصرا قصرت مدة اقامته فيه وان كان عاليا أقام فيه مايزيده على شهرين * ورأيت جماعة من أهل الخبرة وذوى المعرفة يقولون انه اذا عملت من قبالة منية نتيج الى نتيج زلاقة استقر الماء فيه صيفا وشتاء ورأيت البحيرة جميعها وحوف ودمسيس والكفور الشاسعة وقد زرعت عليه القصب والقلقاس والنيلة وأنواع زراعة الصيفى وجرى مجرى بحر الشرق والمحلة وتضاعفت عليه البلاد وعظم ارتفاعها واقامة هذه الزلاقة ممكنة لوجود الحجارة في ربوة والطوب فى البحيرة وانهم قدروا مايحتاج اليه فوجدوه يناهز عشرة آلاف دينار ويقال انه كان الماء فيه جاريا طول السنة وكان السمك فيه غاية من الكثرة بحيث تصيده الاطفال بالخرق فضمنه بعض الولاة بمال ومنع الناس من صيده فعدم منه السمك ولم ير بعد ذلك فيه سمكة فصار يخرج بالشباك (خليج الفيوم والمنهى) مما حفره نبى الله يوسف الصديق عليه السلام عند ماعمر الفيوم كما هو مذكور في خبر الفيوم من هذا الكتاب وهو مشتق من النيل لاينقطع جريه أبدا واذا قابل النيل ناحية دورة سريام التي تعرف اليوم بدورة الشريف يعنى ابن يغلن النائب في الايام الظاهرية بيبرس تشعبت منه في غربيه شعبة تسمى المنهى تستقل نهرا يصل الى الفيوم وهو الآن عرف بحر يوسف وهو نهر لاينقطع جريانه فى جميع السنة فيسقى الفيوم عامة سقيا دائما ثم يجر فضل مائه في بحيرة هناك ومن العجب أنه ينقطع ماؤه من فوهته ثم يكون له بلل دون المكان المندى ثم يجرى جريا ضعيفا دون مكان البلل ثم يستقل نهرا جاريا لا يقطع الا بالسفن ويتشعب منه أنهار وينقسم قسما يعم الفيوم يسقى قراه ومزارعه وبساتينه وعامة أماكنه والله أعلم (خليج القاهرة) هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربي فيما بينها وبين المقس عرف في أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين وتسميه العامة اليوم الخليج الحاكمي وبخليج اللولوة وهو خليج قديم أول من حفره طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف وهو الذى قدم ابراهيم الخليل صلوات الله عليه فى ايامه الى مصر وأخذ منه امرأته سارة وأخدمها هاجر أم اسماعيل صلوات الله عليهما فلما أخرجها ابراهيم هى وابنها اسماعيل الى مكة بعثت الى طوطيس تعرفه انها بمكان جدب وتستغيثه فأمر بحفر هذا الخليج وبعث اليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها الى جدة فأحيا بلد الحجاز ثم ان اندرومانوس الذى يعرف بايليا أحد ملوك الروم بعد الاسكندر بن فلبس المحدوبي جدد حفر هذا الخليج وسارت فيه السفن وذلك قبل الهجرة النبوية بنيف وأربعمائة سنة ثم أن عمرو بن العاص رضى الله عنه جدد حفره لما فتح مصر وأقام في حفره ستة أشهر وجرت فيه السفن

بحمل الميره الى الحجاز فسمى خليج أمير المؤمنين يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانه هو الذى أشار بحفره ولم تزل تجرى فيه السفن من فسطاط مصر الى مدينة القلزم التي كانت على حافة البحر الشرقي حيث الموضع الذى يعرف اليوم على البحر بالسويس وكان يصب ماء النيل في البحر من عند مدينة القلزم الى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمه فى سنة خمس ومائة فطم وبقى منه ماهو موجود الآن وسيأتي الكلام عليه مبسوطا ان شاء الله تعالى عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب (بحر أبي المنجا) هذا الخليج تسميه العامة بحر أبي المنجا الذى حفره الافضل بن أمير الجيوش في سنة ست وخمسمائة وكان على حفره أبو المنجا بن شعيا اليهودى فعرف به وقد ذكر خبر هذا الخليج عند ذكر مناظر الخلفاء ومواضع نزههم من هذا الكتاب (الخليج الناصرى) هذا الخليج فى ظاهر المقس حفره الناصر محمد بن قلاون في سنة خمس وعشرين وسبعمائة وقد ذكر في موضعه من هذا الكتاب

ذكر ماكانت عليه أرض مصر فى الزمن الاول

قال المسعودي وقد كانت أرض مصر على مازعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن العالم يركب أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد الى أسفل الارض وموضع الفسطاط في وقتنا هذا وكان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل بين أسوان والنوبة الى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه ومايتصل من النوبة بتياره من موضع الى موضع فنضب الماء عن بعض المواضع من بلاد مصر وسكن الناس بلاد مصر ولم يزل الماء ينضب عن أرضها قليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر وطرّقوا للماء وحفروا له الخلجان وعقدوا فى وجهه المسببات الى أن خفى ذلك على ساكنيها لان طول الزمان ذهب بمعرفة أول سكناهم كيف كان انتهى قلت ومما ذكر أرسطاطليس فى كتاب الآثار العلوية ان أرض مصر كان النيل ينبسط عليها فيطبقها كأنها بحر ولم يزل الماء ينضب عنها وييبس ماعلا منها أولا فأولا ويسكن الى أن امتلأت بالمدن والقرى والناس ويقال ان الناس كانوا قبل سكنى مدينة منف يسكنون بسفح الجبل المقطم في منازل كثيرة نقروها وهى المغاير التي في الجبل المقابل لمنف من قبلي المقطم فى الجبل المتصل بدير القصير الذى يعرف بدير البغل المطل على ناحية طرى ومن وقف عند اهرام نهيا رأى المغائر في الشرقى وبينهما النيل ومن صعد من طرى الى الجبل وسار فيه دخلها وهى مغاير متسعة وفيها مغائر تنفذ الى القلزم تسع المغارة منها أهل مدينة واذا دخلها أحد ولم يهتد على مايدله على المخرج هلك فى تحيره ويقال كانت مصر جرداء لانبات بها فاقطعها متوشلح بن أخنوخ بن برد بن مهلاييل بن قينان بن أنوس بن تسبب بن آدم لطائفة من أولاده فلما نزلوها وجدوا نيلها

قد سد مابين الجبلين فنضب الماء عن أرض زروعها فأخرجت الارض بركاتها ثم بعد زمان أخذها عنقام الاول بن عرياب بن آدم بالغلبة ونسل بها خلقا عظيما وجهز لقتال أولاد برد سبعين ألف مقاتل وحفر من البحر الى الجبل نهرا عرضه أربعون قصبة ليمنع من يأتيه فأتاه بنو برد فلم يجدوا اليه سبيلا ففزعوا الى الله تعالى فبعث على أرض مصر نارا

ذكر أعمال الديار المصرية وكورها

أعلم ان أرض مصر كانت في الزمن الاول الغابر مائة وثلاثا وخمسين كورة فى كل كورة مدينة وثلثمائة وخمس وستون كورة فلما عمرت أرض مصر بعد بخت نصر صارت على خمس وثمانين كورة ثم تناقصت حتى جاء الاسلام وفيها أربعون عامرة بجميع قراها لاتنقص شيئاً ثم استقرت أرض مصر كلها فى الجملة على قسمين الوجه القبلى وهو ما كان فى جهة الجنوب من مدينة مصر والوجه البحري وهو ما كان في شمال مدينة مصر * وقد قسمت الارض جميعها قبليها وبحريها على ستة وعشرين عملا وهى الشرقية والمرتاحية والدقهلية والايوانية وثغر دمياط الوجه البحري جزيرة قويسنا والغربية والسمنودية والدنجاوية والمنوفية والستراوية وفوه والمزاحميتين وجزيرة بني نصر والبحيرة واسكندرية وضواحيها وحوف دمسيس والوجه القبلى الجيزة والاطفيحية والبوصيرية والفيومية والبهنساوية والاشمونين والمنفلوطية والاسيوطية والاخميمية والقوصية وهى أيضا ثلاثون كورة وهى كورة الفيوم وفيها مائة وست وخمسون قرية ويقال انها كانت ثلثمائة وستين قرية وكورة منف ووسيم خمس وخمسون قرية وكورة الشرقية وتعرف بالاطفيحية سبع عشرة وقريةوقرى أهناس ومنها قمن ثماني قرى وكورتادلاص وبوصيرست قرى وكورة أهناس خمس وتسعون قرية سوى الكفور وكورة البهنسامائة وعشرون قرية وكورة الفشن سبع وثلاثون قرية وكورة طحا سبع وثلاثون قرية وحوز سنودة ثمان قرى وكورة الاشمونين مائة وثلاثون قرية وكورة أسفل انصنا إحدى عشرة قريةوكورة سيوط سبع وثلاثون قرية وكورة شطب ثمان قرى وكورة أعلى انصنا ثنتا عشرة قرية وكورة قهقوه سبع وثلاثون قرية وكورة أخميم والدوير ثلاث وستون قرية وكورة السبابة والواحات ثلاث وستون قرية سوى الكفور وكورة هو عشرون قرية وكورة فاو ثمان قرى وكورة قنا سبع قرى وكورة دندرة عشر قرى وكورة قفط ثنتان وعشرون قرية وكورة الاقصر خمس قرى وكورة أسنا خمس قرى وكورة أرمنت سبع قرى وكورة أسوان سبع قرى فجميع قرى الصعيد ألف وثلاث وأربعون قرية سوى المنى والكفور فى ثلاثين كورة * كورة أسفل الارض الحوف الشرقي خمس وستون قرية كورة أتريب مائة وثمان قرى سوى المنى والكفور كورة بنو سبع وثمانون قرية سوى المنى والكفور كورة نما مائة وخمسون قرية

سوى المنى والكفور كورة بسطة تسع وثلاثون قرية كورة طرابيـة ثمان وعشرون قرية منها السدير والهامة وفاقوس كورة هربيط ثمان عشرة قرية سوى المنى والـكفور كورة صا وابليل ست وأربعون قرية منها سنهور والفرما والعريش فجميع قرى الحوف الشرقي خمسمائة وتسع وعشرون قرية سوى المنى فى سبع كور بطن الريف كورتادمسيس ومنوف مائة وأربع قرى سوى المنى والـكفور كورة تاطورة منوف أثنتان وسبعون قرية سوى المنى والـكفور كورة سخا مائة وخمس عشرة قرية كورة بيده والافراحون ثلاث وعشرون قرية سوى المنى والـكفور كورة البشرود أربع وعشرون قرية كورة نفر اثنتا عشرة قرية سوى المنى كورة ببا وبوصير ثمان وثمانون قرية سوى المنى والـكفور كورة سمنود مائة وثمان وعشرون قرية سوى المنى والـكفور كورة نوسا احدى وعشرون قرية سوى المني كورة الاوسية أربعون قرية سوى المنى كورة النجوم أربعون قرية سوى المنى تنيس ودمياط ثلاث عشرة قرية سوى المنى وهي شيء كثير * الاسكندرية الحوف الغربي كورة صا ثلاث وسبعون قرية سوى المنى والـكفور كورة شباس اثنان وعشرون قرية سوى المنى والـكفور كورة اليدقون ثلاث وأربعون قرية سوى المني والـكفور حيز اليـدقون تسع وعشرون قرية سوي المنى والـكفور الشراك والقرى كورة ترنوط ثمان قرى كورة خربتا اثنان وستون قرية سوى المني والـكفور كورة قرطسا اثنان وعشرون قرية سوى المنى والـكفور كورتا مصيل والمليدس تسع وأربعون قرية سوى المني كورتا احنور ورشـيد سبع عشرة قرية البحيرا والحصص بالاسكندرية والـكرومات والبعل ومربوط ومدينة الاسكندرية ولوبية ومراقيه مائة وأربع وعشرون قرية سوى المنى فالحوف الغربي أربعمائة وتسع وأربعون قرية سوى المني في ثلاث عشرة كورة قال المسيحي في تاريخه تصير قرى مصر أسفل الارض الفاً وأربعمائة وتسعاً وثلاثين قرية ويكون جميع ذلك بالصعيد وأسفل الارض ألفين وثلثمائة وخمساً وتسعين قرية * وقال القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى أرض مصر قسمين فمن ذلك صعيدها وهو مايلي مهب الجنوب منها وأسفل أرضها وهو مايلي مهب الشمال منها فقسم الصعيد على ثمان وعشرين كورة فمن ذلك كورة الفيوم كلها وكورتا منف ووسيم وكورة الشرقية وكورتا دلاص وأبو صير وكورة اهناس وكورتا الفشن والبهنسا وكورة طحا وحيز سنوده وكورة بويط وكورتا الاشمونين وأسفل انصنا وأعلاها وشطب قوص قام وكورة سيوط وكورة قهقوه وكورتا اخميم والدير وابشاية وكورة هو وأقنا وفاو ودندرة وكورة قفط والاقصر وكورة اسنا وأرمنت وكورة اسوان فهذه كور الصعيد ومن ذلك كور أسفل الارض وهي خمس وعشرون كورة وفى نسخة ثلاث وثلاثون كورة وفي نسخة ثمان وثلاثون كورة فمن ذلك كور الحوف الشرقي كورتا اتريب وعين شمس وكورتا بني

ونمى وكورتا بسطه وطرابية وكورة هربيط وكورة صا وابليل وكورة الفرما والعريش والجفار ومن ذلك كور بطن الريف من أسفل الارض كورة بنا وبوصير وكورتا سمنود وبوسا وكورتا الاوسية والنجوم وكورة دقهلة وكورتا تنيس ودمياط ومنها كورة الجزيرة من أسفل الارض وكورة دمسيس ومنوف وكورة طوه ومنوف وكورة سخا وبيدة والافراحون وكورة مقين وديصا وكورة البشرود * ومن ذلك كور الحوف الغربي كورة صا وكورة شباس وكورة اليدقون وحيزها وكورة الخيس والشراك وكورة خربتا وكورة قرطسا ومصيل والمليدس وكورتا اخنا والبحيرة ورشيد وكورة الاسكندرية وكورة مريوط وكورة لوبيه ومراقية * ومن كور القبلة كرى الحجاز وهى كورة الطور وفاران وكورة راية والقلزم وكورة ايله وحيزها ومدين وحيزها والعونيد والحوراء وحيزها ثم كورة بدا وشغب * وذكر من له معرفة بالخراج وأمر الديوان انه وقف على جريدة عتيقة بخط ابن عيسى بقطر بن شغا الكاتب القبطى المعروف بالبولس متولي خراج مصر للدولة الاخشيدية يشتمل على ذكر كور مصر وقراها الى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ان قرى مصر بالصعيدين وأسفل الارض ألفان وثلثمائة وخمس وتسعون قرية منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية وبأسفل الارض ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية وهذا عددها في الوقت الذي جردت فيه الجرايد المذكورة وقد تغيرت بعد ذلك بخراب ماخرب منها * وقال ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد رضى الله عنه لما ولي الوليد بن رفاعة مصر خرج ليحصى عدة أهلها وينظر في تعديل الخراج عليهم فأقام في ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ اسوان ومعه جماعة من الكتاب والاعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير وثلاثة أشهر بأسفل الارض وأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحصر فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل والذى استقر عليه الحال في دولة الناصر محمد بن قلاون أن الوجه القبلي ستة أعمال وهي من قوص وهو أجلها ومنه اسوان وغرب قموله وعمل اخميم وعمل سيوط وعمل منفلوط وعمل الاشمونين وبها الطحاوية وعمل البهنساوية الغربى وهو عبارة عن قرى على غربي المنهى المار الى الفيوم وعمل الفيوم وعمل اطفيح وعمل الجيزة * والوجه البحرى ستة أعمال عمل البحيرا وهو متصل البر بالاسكندرية وبرقة وعمل الغربية جزيرة واحدة يشتمل عليها مابين البحرين وهما البحر المار مسكبه عند دمياط ويسمى الشرقي والبحر الثاني مسكبه عند رشيد ويسمى الغربى والمنوفية ومنها ابيار وجزيرة بني نصر وعمل قليوب وعمل الشرقية وعمل اسوم طناح ومنها الدقهلية والمرتاحية وهناك موقع ثغر البرلس وثغر رشيد والمنصورة وفى هذا الوجه الاسكندرية ودمياط ولا عمل

لها * وأما الواحات فمنقطعة وراء الوجه القبلي مغاربة لم تعد فى الولايات ولا في الاعمال ولا يحكم عليها والي السلطان وانما يحكم عليها من قبل مقطعها والله تعالى أعلم

(ذكر ما كان يعمل في أراضى مصر من حفر الترع وعمارة الجسور ونحو ذلك من أجل ضبط ماء النيل وتصريفه فى أوقاته)

قال ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب وكانت فريضة مصر بحفر خليجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفاً معهم المساحى والطوريات والاداة يعتقبون ذلك لايدعونه شتاء ولا صيفا * وعن أبى قبيل قال زعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذى كان يعمل به بمصر على عهد ملوكها أنهم كانوا يقرون القرى فى أيدي أهلها كل قرية بكراء معلوم لا ينقص عنهم الا في كل أربع سنين من أجل الظمأ وتنقل اليسار فاذا مضت أربع سنين نقض ذلك وعدل تعديلا جديدا فيرفق بمن استحق الرفق ويزاد على من احتمل الزيادة ولا يحمل عليهم من ذلك مايشق عليهم فاذا جبى الخراج وجمع كان للملك من ذلك الربع خالصاً لنفسه يصنع به مايريد والربع الثاني لجنده ومن يتوى به على حربه وجباية خراجه ودفع عدوه والربع الثالث فى مصلحة الارض وما تحتاج اليه من جسورها وحفر خلجها وبناء قناطرها والقوة للزارعين على زرعهم وعمارة أرضهم والربع الرابع يخرج منه ربع مايصيب كل قرية من خراجها فيدفن ذلك لنائبة تنزل أو جائحة بأهل القرية فكانوا على ذلك والذى يدفن في كل قرية من خراجها هى كنوز فرعون التي يتحدث الناس بها أنها ستظهر فيطلبها الذين يتتبعون الكنوز * وذكر أن بعض فراعنة مصر جبى خراج مصر اثنين وسبعين الف الف دينار وأن من عمارته أنه أرسل ويبة قمح الى أسفل الارض والى الصعيد فى وقت تنظيف الارض والترع من العمارة فلم يوجد لها أرض فارغة تزرع فيها وذكر أنه كان عند تناهى العمارة يرسل بأربع ويبات برسيم الى الصعيد والى أسفل الارض والى أي كورة فان وجد لها موضعاً خالياً فزرعت فيه ضرب عنق صاحب الكورة وكانت مصر يومئذ عمارتها متصلة أربعين فرسخاً في مثلها والفرسخ ثلاثة أميال والبريد أربعة فراسخ فتكون عشرة برد فى مثلها ولم تزل الفراعنة تسلك هذا المسلك الى أيام فرعون موسى فانه عمرها عدلا وسماحة وتتابع الظمأ ثلاث سنين في أيامه فترك لاهل مصر خراج ثلاث سنين وأنفق على نفسه وعساكره من خزائنه ولما كان في السنة الرابعة أضعف الخراج واستمر فاعتاض ما أنفق * وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن العاص رضى الله عنه ان اسئل المقوقس عن مصر من أين تأتي عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس عمارتها وخرابها من وجوه خمسة أن يستخرج خراجها في ابان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ويرفع خراجها في ابان

واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم ويحفر في كل سنة خلجانها و تسد ترعها وجسورها ولا يقبل مطل أهلها يريد البغى فاذا فعل هـذا فيها عمرت وان عمل فيها بخلافه خربت * وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال لما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنـه عمرو بن العاص رضى الله عنه في الخراج كتب اليه أن ابعث الي رجلا من أهل مصر فبعث اليه رجلا قديما من القبطة فاستخبره عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن مصر وخراجها قبل الاسلام فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شئ الا بعد عمارتها وعاملك لاينظر الى العمارة وانما يأخذ ماظهر له كأنه لايريدها الا لعام واحد فعرف عمر رضى الله عنـه ما قال وقبل من عمرو ماكان يعتذر به * وقال عمرو بن العاص رضى الله عنـه للمقوقس أنت وليت مصر فبم تكون عمـارتها فقال بخصال أن تحفروا خلجانها وتسد جسورها وترعها ولا يؤخذ خراجها الا من غلتها ولا يقبل مطل أهله ويوفي لهم بالشروط ويدر الارزاق على العمال لئلا يرتشوا ويرتفع عن أهله المعاون والهدايا ليكون قوة لهم فبذلك تعمر ويرجى خراجها* ويقال ان ملوك مصر من القبط كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام قسم لخاصة الملك وقسم لارزاق الجند وقسم لمصالح الارض وقسم يدخر لحادثة تحدث فينفق فيها* ولما ولي عبيدالله بن الحبحاب خراج مصر لهشام بن عبدالملك خرج بنفسه فمسح أرض مصر كلها عامرها وغامرها ممايركبه النيل فوجد فيها مائة ألف ألف فدان والباقي استبحر و تلف واعتبر مدة الحرث فوجدها ستين يوما والحراث يحرث خمسين فدانا وكانت محتاجة الى أربعمائة الف وثمانين الف حرات

ذكر مقدار خراج مصر فى الزمن الاول

قال ابن وصيف شاه وكان منقاوس قسم خراج البلاد أرباعا فربع للملك خاصة يعمل فيـه ما يريد وربع ينفق فى مصالح الارض وما تحتاج اليه من عمل الجسور وحفر الخلج وتقوية أهلها على العمارة وربع يدفن لحادثة تحدث أو نازلة تنزل وربع للجند وكان خراج البـلد ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف ألف دينار وقسمها على مائة وثلاث كور بعدة الآلاف ويقال ان كل دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الاسلامية وهي اليـوم خمس وثمانون كورة أسفل الارض خمس وأربعون كورة والصعيد أربعون كورة وفي كل كورة كاهن يدبرها وصاحب حرب وارتفع مال البلد على يد تدارس بن صا مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار وفي أيام كـكن بن خربتا بن ماليق بن تدارس مائة ألف ألف دينار وبضعة عشر ألف ألف دينار ولما زالت دولة القبط الاولى من مصر وملكها العمالقة اختل أمرها وكان فرعون الاول يجبيها تسعين ألف ألف دينـار يخرج من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لمصالح البلد وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح الناس من أولادالملوك وأهل التعفف وعشرة آلاف ألف دينار لاولياء الامر والجند والـكتاب وعشرة آلاف الف دينار

لمصالح فرعون ويكنزون لفرعون خمسين ألف ألف دينار * وبلغ خراج مصر في أيام الريان بن الوليد وهو فرعون يوسف عليه السلام سبعة وتسعين ألف ألف دينار فاحب أن يتمه مائة ألف ألف دينار فامر بوجوه العمارات واصلاح جسور البلد والزيادة في استنباط الارض حتى بلغ ذلك وزاد عليه * وقال ابن دحية وجبيت مصر فى أيام الفراعنة فبلغت تسعين ألف ألف دينار بالدينار الفرعوني وهو ثلاثة مثاقيل من مثقالنا المعروف الآن بمصر الذي هو أربعة وعشرون قيراطا كل قيراط ثلاث حبات من قمح فيكون بحساب ذلك مائتي ألف ألف وسبعين ألف ألف دينار مصرية وذكر الشريف الحراني أنه وجد في بعض البرابي بالصعيد مكتوبا باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف عليه السلام وهو الريان بن الوليد من أموال مصر بحق الخراج مما يوجبه الخراج وسائر وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير تاول ولا اصطهاد ولا مشاحة على عظيم فضل كان فى يد المؤدى لرسمه وبعد وضع مايجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للعاملين وتقوية لحالهم من العين أربعة وعشرون ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار وذكر مافيه كما فى خبر الحسن بن على الاسدي * وقال الحسن ابن علي الاسدي أخبرنى أبي قال وجدت فى كتاب قبطى باللغة الصعيدية مما نقل الى اللغة العربيـة أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون مصر بحق الخراج الذي يوجد وسائر وجوه الجبايات لسنة كاملة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير اصطهاد ولا مناقشة على عظيم فضل كان فى يد المؤدي لرسمه وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان رفقا بالمعاملين وتقوية لهم من العين أربعة وعشرين ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار من جهات مصر وذلك ما يصرف في عمارة البلاد لحفر الخلج واتقان الجسور وسد التُرَعِ واصلاح السُبُل والساسة ثم فى تقوية من يحتاج التقوية من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة في البدار وغير ذلك وثمن الآلات وأجرة من يستعان به من الاجراء لحمل الاصناف وسائر نفقات تطريق أراضيهم من العين ثمانمائة ألف دينار ولما يصرف فى أرزاق الاولياء الموسومين بالسلاح وحملته والغلمان وأشياعهـم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين سوى أتباعهـم من الخزان ومن يجري مجراهم وعدتهم مائة ألف وأحد عشر ألف رجل من العين ثمانية آلاف ألف دينار ولما يصرف فى الارامل والايتام فرضا لهم من بيت المال وان كانوا غير محتاجين اليه حتى لاتخلو آمالهم من بر يصل اليهم من العين أربعمائة ألف دينار ولما يصرف فى كهنة برابيهم وأئمتهم وسائر بيوت صلواتهم من العين مائة ألف دينار ولما يصرف في الصدقات وينادي فى النـاس برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة فليحضر فلا يرد عنـد ذلك أحد والامناء جلوس فاذا رؤى رجل لم تجر عادته بذلك أفرد

بعد قبض ما يقبضه حتى اذا فرق المال واجتمع من هذه الطائفة عدة دخل أمناء فرعون
اليه وهنوه بتفرقة المال ودعوا له بالبقاء والسلامة وأنهوا حال الطائفة المذكورة فيأمر بتغيير
شعثها بالحمام واللباس ويمد الاسمطة ويأكلون ويشربون ثم يستعلم من كل واحد سبب
فاقته فان كان من آفة الزمان رد عليه مثل ما كان وأكثر وان كان عن سوء رأى وضعف
تدبير ضمه الى من يشرف عليه ويقوم بالامر الذي يصلح له من العين مائتا ألف دينار
فذلك جملة مائتين وفصل فى هذه الجهات المذكورة من العين تسعة آلاف ألف وثمانمائة
ألف دينار ويحصل بعد ذلك ما يتسلمه فرعون فى بيوت أمواله عدة لنوائب الدهر
وحادثات الزمان من العين أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار وقيل لبعضهم
متى عقدت مصر تسعين ألف ألف دينار قال فى الوقت الذى أرسل فرعون بويبة قمح
الى أسفل الارض والى الصعيد فلم يجد لها موضعا تبذر فيه لشغل جميع البلاد بالعمارة

(ذكر ما عمله المسلمون عند فتح مصر في الخراج وما كان من أمر مصر في ذلك مع القبط)

قال زهير بن معاوية حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم منعت العراق درهمها وقفيزها ومنعت الشام مدها ودينارها ومنعت مصر
أردبها وعدتم من حيث بدأتم قال أبو عبيد قد أخبر صلى الله عليه وسلم بما لم يكن وهو
فى علم الله كائن فخرج لفظه على لفظ الماضى لانه ماض في علم الله وفى اعلامه بهذا قبل وقوعه
مادل على اثبات نبوته ودل على رضاه من عمر رضى الله عنه ما وظفه على الكفرة من
الخراج في الامصار * وفي تفسير المنع وجهان * أحدهما انه علم أنهم سيسلمون ويسقط
عنهم ماوظف عليهم فصاروا مانعين باسلامهم ماوظف عليهم يدل عليه قوله وعدتم من حيث
بدأتم * وقيل معناه أنهم يرجعون عن الطاعة والاول أحسن * وقال ابن عبد الحكم عن
عبد الله بن لهيعة لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال من
القبط ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ على دينارين
دينارين فأحصوا ذلك فبلغت عدتهم ثمانية آلاف الف وعن هشام بن أبي رقية اللخمي أن
عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر ان من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته
وان قبطيا من أرض الصعيد يقال له بطرس ذكر لعمرو أن عنده كنزا فارسل اليه فسأله
فأنكر وجحد فحبسه في السجن وعمرو يسأل عنه هل تسمعونه يسأل عن أحد فقالوا
لا انما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور فأرسل عمرو الى بطرس فنزع خاتمه ثم كتب الى
ذلك الراهب ان ابعث الى بما عندك وختمه بخاتمه فجاء الرسول بقلة شامية مختومة بالرصاص
ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها مالكم تحت الفسقية الكبيرة فأرسل عمرو الى
الفسقية فحبس عنها الماء ثم قلع البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين أردبا ذهبا مصريا

مضروبة فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد فأخرج القبط كنوزهم شفقا أن يبغى على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس * وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطي من قبط مصر لانه استقر عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين ويكتب اليهم بذلك فاستخرج منه بضعا وخمسين أردبا دنانير قال ابن عبد الحكم وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يبعث الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه وكانت فريضة مصر لحفر خلجها وأقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفاً معهم الطور والمساحي والاداة يعتقبون ذلك لايدعون ذلك صيفا ولا شتاء ثم كتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان تحتم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف عرضا ولا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه الموسى ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولاتدعهم يتشبهون بالمسلمين في ملبوسهم* وعن يزيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى أمراء الاجناد أن لايضربوا الجزية الا على من جرت عليه الموسى وجزيتهم أربعون درهما على أهل الورق وأربعة دنانير على أهل الذهب وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان من حنطة وثلاثة أقساط من زيت في كل شهر لكل انسان من أهل الشام والجزيرة وودك وعسل لا أدرى كم هو ومن كان من أهل مصر فاردب في كل شهر لكل انسان ولا أدرى كم الودك والعسل وعليهم من البز الكسوة التي يكسوها أمير المؤمنين الناس ويضيفون من نزل بهم من أهل الاسلام ثلاثة أيام وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل انسان ولا أدري كم لهم من الودك وكان لايضرب الجزية على النساء والصبيان وكان يختم في أعناق رجال أهل الجزية وكانت ويبة عمر في ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد قال وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الامراء أقر قبطها على جباية الروم فكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وأن قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرافو كل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها فيتناظرون في العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم يجتمع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة فيبتدئون ويخرجون من الارض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الارض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فاذا فرغوا نظروا لما في كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت تكون الا للرجل الشاب أو المتزوج ثم ينظرون مابقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم

فان عجز أحد منهم وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا يسمون الارض على ذلك ولذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا وجعل لكل فدان عليهم نصف أردب قمح وويبتين من شعير الا القرط فلم يكن عليه ضريبة والويبة ستة أمداد وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ماسمى على نفسه لايضع من ذلك شيئاً ولا يزيد عليه ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئاً يؤديه نظر عمر في أمره فاذا احتاجوا خفف عنهم وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم * وقال هشام بن أبي رقية اللخمي قدم صاحب أخنا على عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال له أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصبر لها فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة لو أعطيتني من الارض الى السقف ما أخبرتك ما عليك انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم ومن ذهب الى هذا الحديث ذهب الى أن مصر فتحت عنوة * وعن يزيد بن أبي حبيب قال قال عمر بن عبد العزيز أيما ذمي أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله وما كان من أرض فانها من فئ الله على المسلمين وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم * وقال الليث كتب الى يحيي بن سعيد أن ما باع القبط في جزيتهم وما يؤخذون به من الحق الذى عليهم من عبد أو وليدة أو بعير أو بقرة أو دابة فان ذلك جائز عليهم فمن ابتاعه منهم فهو غير مردود عليهم ان أيسروا وما أكروا من أرضهم فجائز كراؤه الا أن يكون يضر بالجزية التي عليهم فلعل الارض أن ترد عليهم ان أضرت بجزيتهم وان كان فضلا بعد الجزية فانا نرى كراءها جائزا لمن يكراها منهم قال يحيي فنحن نقول الجزية جزيتان جزية على رؤس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية فمن هلك من أهل القرية التي عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رؤس الرجال فانا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لاولد له ولا وارث ان أرضه ترجع الى قريته في جملة ما عليهم من الجزية ومن هلك ممن جزيته على رؤس الرجال ولم يدع وارثا فان أرضه للمسلمين وقال الليث عن عمر بن عبد العزيز الجزية على الرؤس وليست على الارضين يريد أهل الذمة * وكتب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم وهذا يدل على أن عمر كان يرى أن أرض مصر فتحت عنوة وان الجزية انما هى على القرى فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم وان موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئاً قال ويحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح فذلك الصلح ثابت على من بقى

منهم وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئاً * قال الليث وضع عمر بن عبد العزيز الجزية على من أسلم من أهل الذمة من أهل مصر وألحق في الديوان صلح من أسلم منهم في عشائر من أسلموا على يديه وكانت تؤخذ قبل ذلك ممن أسلم وأول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف ثم كتب عبد الملك بن مروان الى عبد العزيز بن مروان أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلمه ابن حجيرة في ذلك فقال أعيذك الله أيها الامير أن تكون أول من سن ذلك بمصر فوالله ان أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف نضعها على من أسلم منهم فتركهم عند ذلك * وكتب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فان الله تبارك وتعالى قال فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون * وكتب حيان بن شريح الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان فان رأى أمير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل * فكتب اليه عمر أما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا فضع الجزية عن من أسلم قبح الله رأيك فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه قال ولما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب اليه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فاني فكرت في أمرك والذى انت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلدا وقوة فى بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب ولقد أكثرت في مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت أن تفيق فترفع الى ذلك فاذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى في نفسى لست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابي و قبضك فلئن كنت مجربا كافيا صحيحا أن البراءة لنافعة وان كنت مضيعا نطعا ان الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك وقد تركت أن أبتلى ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع الى ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك

الا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفا وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام * فكتب اليه عمرو بن العاص بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني أحمد الله الذى لا اله الا هو أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذى استبطأني فيه من الخراج والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى واعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها وأكثرت في كتابك وأنبت وعرضت وتربت وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر فجئت لعمرى بالمقطعات المقدعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لاماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نري غير ذلك قبيحا والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فأمض عملك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه أخا والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك منى أشد غضبا لنفسي ولها انزاها واكراما وما عملت من عمل أري عليه فيه متعلقا ولكني حفظت مالم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب مازدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقك مالا يجهل * فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك الى بثنيات الطرق وقد علمت أني لست أرضي منك الا بالحق البين ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام * فكتب اليه عمرو بن العاص بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج ويزعم أني أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق واني والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الارض استنظروني الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام *

وقال الليث بن سعد رضي الله عنه جباها عمرو بن العاص رضى الله عنه اثني عشر ألف ألف دينار وجباها المقوقس قبله لسنة عشرين ألف ألف دينار فعند ذلك كتب اليه عمر بن الخطاب بما كتب وجباها عبد الله بن سعد بن سرح حين استعمله عثمان رضي الله عنه على مصر أربعة عشر ألف ألف دينار فقال عثمان لعمرو بن العاص بعد ما عزله عن مصر يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الاول قال أضررتم بولدها فقال ذلك ان لم يمت الفصيل * وكتب معاوية بن أبي سفيان الى وردان وكان قد ولى خراج مصر أن زد على كل رجل من القبط قيراطا فكتب اليه وردان كيف نزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم شيء فعزله معاوية وقيل فى عزل وردان غير ذلك وقال ابن لهيعة كان الديوان في زمان معاوية أربعين ألفا وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان عطياتهم وعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح الى الحجاز ثم بعث الى معاوية بستمائة ألف دينار فضل * وقال ابن عفير فلما نهضت الابل لقيهم برح بن كسحل المهرى فقال ما هذا ما بال مالنا يخرج من بلادنا ردوه فردوه حتي وقف على باب المسجد فقال أخذتم عطياتكم وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونوائبكم قالوا نعم قال لا بارك الله لهم فيه خذوه فساروا به * وقال بعضهم جبي عمرو بن العاص عشرة آلاف دينار فكتب اليه عمر بن الخطاب يعجزه ويقول له جباية الروم عشرون ألف ألف دينار فلما كان العام المقبل جباه عمرو اثني عشر ألف ألف دينار* وقال ابن لهيعة جبى عمرو بن العاص الاسكندرية الجزية ستمائة ألف دينار لانه وجدفيها ثلاثمائة ألف من أهل الذمة فرض عليهم دينارين دينارين والله تعالى أعلم

ذكر انتقاض القبط وما كان من الاحداث في ذلك

خرج الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال كيف أنتم اذا لم تجبوا دينارا ولا درهما قالوا وكيف نرى ذلك كائناً يا أبا هريرة قال أي والذي نفس أبي هريرة بيده عن قول الصادق المصدوق قالوا عم ذلك قال تنتهك ذمته وذمة رسوله فيشد الله عز وجل قلوب أهل الذمة فيمنعون مافى أيديهم قال أبو عمرو محمد ابن يوسف الكندي فى كتاب أمراء مصر وفى امرة الحر بن يوسف أمير مصر كتب عبدالله بن الحبحاب صاحب خراجها الى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينار قيراطا فانتقضت كورة تنوديمي وقربيط وطرابيه وعامة الحوف الشرقي فبعث اليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير وذلك أول انتقاض القبط بمصر وكان انتقاضهم في سنة سبع ومائة ورابط الحر بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر ثم انتقض أهل الصعيد وحارب القبط عمالهم في سنة احدى وعشرين ومائة فبعث اليهم حنظلة بن

صفوان أمير مصر أهل الديوان فقتلوا من القبط ناساً كثيراً وظفر بهم وخرج بحيش رجل من القبط فى سمنود فبعث اليـه بعبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير أمير مصر فقتل بحيش في كثير من أصحابه وذلك فى سـنة اثنين وثلاثين ومائة وخالفت القبط برشيد فبعث اليهم مروان بن محمد الجعدي لما دخل مصر فارا من بني العباس بعثمان بن أبي قسعة فهزمهم وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة أمير مصر بناحية سخا ونابذوا العمال وأخرجوهم وذلك في سنة خمسين ومائة وصاروا الى شبرى سنباط وانضم اليهم أهل البشرود والاريسية والنجوم فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان ووجوه مصر فخرجوا اليهم فبيتهم القبط وقتلوا من المسلمين فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط وانصرف المسلمون الى مصر منهزمين وفي ولاية موسى بن على بن رباح على مصر خرج القبط ببلهيب في سنة ست وخمسين ومائة فخرج اليهم عسكر فهزموهم ثم انتقضوا مع من انتقض في سنة ست عشرة ومائتين فأوقع بهم الافشين في ناحية البشرود حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال فبيعوا وسبى أكثرهم ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر وخذل شوكتهم فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان وغلب المسلمون على القرى فعاد القبط من بعد ذلك الى كيد الاسلام وأهله باعمال الحيلة واستعمال المكر وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم فى كتاب الخراج وكان للمسلمين فيهم وقائع يأتي خبرها في موضعه من هذا الـكتاب ان شاء الله تعالى

*(ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشا
وما كان في نزولهم من الاحداث)*

قال الـكندي وفي ولاية الوليـد بن رفاعة الفهمى على مصر نقلت قيس الى مصر في سنة تسع ومائة ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك الا ما كان من فهم وعدوان فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل الى مصر منهم أبياتا فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على أن لا ينزلهم بالفسطاط ففرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم فانزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه ويقال ان عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام ابن عبد الملك مصر قال ما أرى لقيس فيها حظاً الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان فكتب الى هشام ان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هـذا الحي من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم واني قدمت مصر ولم أر لهم حظاً الا أبياتاً من فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجا وهي بلبيس فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس فليفعل فكتب اليه هشام انت وذاك فبعث الى البادية

فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نضر ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم ببلبيس وأمرهم بالزرع ونظر الى الصدقة من العشور فصرفها اليهم فاشتروا ابلا فكانوا يحملون الطعام الى القلزم وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشتري المهر فلا يمكث الا شهرا حتى يركب وليس عليهم مؤونة فى علف ابلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا اليهم فوصل اليهم خمسمائة أهل بيت من البادية فكانوا على مثل ذلك فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت فصار ببلبيس الف وخمسمائة أهل بيت من قيس حتى اذا كان زمن مروان بن محمد وولي الحوثرة بن سهيل الباهلي مصر مالت اليه قيس فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم * وفى سنة ثمان وسبعين ومائة كشف اسحاق بن سليمان ابن علي بن عبد الله بن عباس أمير مصر أمر الخراج وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم فخرج عليه أهل الحوف وعسكروا فبعث اليهم الجيوش وحاربهم فقتل من الجيش جماعة فكتب الى أمير المؤمنين هارون الرشيد يخبره بذلك فعقد لهرثمة بن أعين في جيش عظيم وبعث به الى مصر فنزل الحوف وتلقاه أهله بالطاعة وأذعنوا بأداء الخراج فقبل هرثمة منهم واستخرج خراجه كله ثم ان أهل الحوف خرجوا على الليث بن الفضل البيودى أمير مصر وذلك انه بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم فانتقصوا من القصبة أصابع فتظلم الناس الى الليث فلم يسمع منهم فعسكروا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث فى أربعة آلاف من جند مصر في شعبان سنة ست وثمانين ومائة فالتقى معهم في رمضان فانهزم عنه الجند في ثانى عشره وبقى في نحو المائتين فحمل بمن معه على أهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وكان التقاؤهم على أرض جب عميرة وبعث الليث الى الفسطاط بثمانين رأساً من رؤس القيسية ورجع الى الفسطاط وعاد أهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج فخرج ليث الى أمير المؤمنين هارون الرشيد في محرم سنة سبع وثمانين ومائة وسأله أن يبعث معه بالجيوش فانه لايقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف الا بجيش يبعث معه وكان محفوظ بن سليم بباب الرشيد فرفع محفوظ الى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخراج وصرف ليث بن الفضل عن صلات مصر وخراجها وفى ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج فبعث أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن معاذ فى أمرهم فنزل بلبيس فى شوال سنة احدى وتسعين ومائة وصرف الحسين بن جميل عن امارة مصر في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة وولي مالك بن دلهم وفرغ يحيى بن معاذ من أمر الحوف وقدم الفسطاط في جمادى الآخرة فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج اليه فكتب الى أهل الحوف أن اقدموا حتى أوصي

بكم مالك بن دلهم وأدخل بينكم وبينه في أمر خراجكم فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد أعد لهم القيود فأمر بالابواب فأخذت ثم دعا بالحديد فقيدهم وتوجه بهم للنصف من رجب منها * وفي امارة عيسى بن يزيد الجلودى على مصر ظلم صالح بن شير زاد عامل الخراج الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أهل أسفل الارض وعسكروا فبعث عيسى بابنه محمد فى جيش لقتالهم فنزل بلبيس وحاربهم فنجا من المعركة بنفسه ولم ينج أحد من أصحابه وذلك في صفر سنة أربع عشرة ومائتين فعزل عيسى عن مصر وولى عمير بن الوليد التميمي فاستعد لحرب أهل الحوف وسار في جيوشه في ربيع الآخر فزحفوا عليه واقتتلوا فقتل من أهل الحوف جمع وانهزموا فتبعهم عمير فى طائفة من أصحابه فعطف عليه كمين لاهل الحوف فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر فولى عيسى الجلودى ثانياً وسار اليهم فلقيهم بمنية مطر فكانت بينهم وقعة آلت الى أن انهزم منهم الى الفسطاط وأحرق ماثقل عليه من رحله وخندق على الفسطاط وذلك في رجب وقدم أبو اسحاق ابن الرشيد من العراق فنزل الحوف وأرسل الى أهله فامتنعوا من طاعته فقاتلهم فى شعبان ودخل وقد ظفر بعدة من وجوههم الى الفسطاط في شوال ثم عاد الى العراق في المحرم سنة خمس عشرة ومائتين بجمع من الاسارى فلما كان في جمادى الاولى سنة ست عشرة ومائتين انتقض أسفل الارض باسره عرب البلاد وقبطها وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدت الى أن قدم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون الى مصر لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين فسخط على عيسى بن منصور الرافقى وكان على امارة مصر وأمر بحل لوائه وأخذه بلباس البياض عقوبة له وقال لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتني الخبر حتى تفاقم الامر واضطرب البلد * ثم عقد المأمون على جيش بعث به الى الصعيد وارتحل هو الى سخا وبعث بالافشين الى القبط وقد خلعوا الطاعة فأوقع بهم في ناحية البشر ودو حصرهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والاطفال فسبي أكثرهم وتتبع المأمون كل من يومي اليه بخلاف فقتل ناسا كثيرا ورجع الى الفسطاط في صفر ومضي الى حلوان وعاد فارتحل لثمان عشرة خلت من صفر وكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوما وكان خراج مصر قد بلغ في أيام المأمون على حكم الانصاف في الجباية أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف دينار وسبعة وخمسين ألف دينار * ويقال ان المأمون لما سار في قرى مصر كان يبني له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله وكان يقيم فى القرية يوما وليلة فمر بقرية يقال لها طاء النمل فلم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت اليه

عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها وكان لايمشي أبدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له ان القبطيـة قالت ياأمير المؤمنين نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف ولعقبي ولا تشمت الاعداء بي وبكت بكاء كثيرا فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه اليها ونزل فجاء ولدها الى صاحب المطبخ وسأله كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته فأحضر جميع ذلك اليـه بزيادة وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيي بن أكثم والقاضى أحمد بن داود فأحضرت لكل واحد منهم مايخصه على انفراده ولم تكل أحدا منهم ولا من القوّاد الى غيره ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيرا حتى انه استعظم ذلك فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت اليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناه والصبر فلما وضعت ذلك بين يديه اذا في كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها باعادته فقالت لا والله لاأفعل فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله أعجب ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت ياأمير المؤمنين لاتكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا فقال ان في بعض ماصنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك فردى مالك بارك الله فيك فأخذت قطعة من الارض وقالت ياأمير المؤمنين هذا واشارت الى الذهب من هذا وأشارت الى الطينة التي تناولتها من الارض ثم من عدلك ياأمير المؤمنين وعندى من هذا شيء كثير فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدان بغير خراج وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها

(ذكر قبالات أراضى مصر بعد مافشا الاسلام في القبط ونزول العرب في القرى وماكان من ذلك الى الروك الاخير الناصرى)

وكان من خبر أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط الى اظهار الاسلام واختلاط أنسابهـم بأنساب المسلمين لتكاحهم المسلمات أن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذى تتهيأ فيـه قبـالة الاراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البـلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدى متـولى الخراج يكتبون ماينتهى اليـه مبالغ الـكور والصفقات على من يتقبلها من الناس وكانت البـلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين لاجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى هـذا الامر

خرج كل من كان تقبل أرضا وضمها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج في ابانه على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الاراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرابة مقدرة في ديوان الخراج ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين يقال لما تأخر من مال الخراج البواقى وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكوا البلاد كلها وعدلوها تعديلا جديدا فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ونقص فيما يحتاج الى التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمرو بن العاص الى أن عمر أحمد بن طولون جامعه وصار العسكر منزلا لامراء مصر فنقل الديوان الى جامع أحمد بن طولون ثم نقل أيام العزيز بالله نزار الى دار الوزير يعقوب بن كلس فلما مات الوزير نقل الديوان الى القصر بالقاهرة واستمر به مدة الدولة الفاطمية ثم نقل منه بعدها وسأتلو عليك من نبأ ذلك مايتضح به ما ذكرت قال ابن ذولاق في كتاب أخبار الماردانيين كتاب مصر وحضر أبو الحسن وهب بن اسماعيل مجلس أبي بكر بن علي الماردانى في المسجد الجامع وهو يعقد الضياع فقال له أبو بكر الساعة آمر بالنداء على صفقة نأخذها شركة بيني وبينك فنودى على صفقة فقال أبو بكر اعقدوها على أبى الحسن فعقدت عليه وتحملها فأفضلت له أربعين ألف دينار فاستنض عشرين ألف دينار ولم يدر ما يعمل فيها الى أن اجتمع مع أبي يعقوب كاتب أبي بكر ليتحدثا فقال أبو يعقوب رأيت الشيخ يعنى أبا بكر المارداني في اليوم مشغول القلب أراد جمع مال وقد عجز عنه فقال له أبو الحسن عندى نحو عشرين ألف دينار فقال جئني بها فأنفذها اليه وجاءه خطه بالمبلغ فاتفق ان مضى أبو الحسن الى أبي بكر المارداني فقال له تلك الصفقة قد غلقت ماعليها وفضل أربعون ألف دينار وقد حصل عندى عشرون ألف دينار حملتها الى أبي يعقوب وأرسلت في استخراج الباقي فاحمله فقال الماردانى ماهذا العجز انما قلت لك تكون بينى وبينك خوفا من تفريطك وانما أردت حفظ المال عليك ثم أمر أبا يعقوب أن يرد عليه مادفعه اليه وقال لابي الحسن رد عليه خطه فقبض مادفعه الى أبي يعقوب وبلغ خراج مصر في السنة التي دخل فيها جوهر القائد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ونيفا وقال في كتاب سيرة المعز لدين الله معد ولست عشرة بقيت من المحرم سنة ثلاث وستين وثلثمائة قلد المعز لدين الله الخراج ووجوه الاموال وغير ذلك يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن وجلسا في هذا اليوم في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات وطلبوا البقايا من الاموال مما على المالكين والمتقبلين والعمال وقال جامع سيرة الوزير الناصر للدين الحسن

ابن على البازوري وأراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات ليقايس بينهما فتقدم الى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع مايجري في ديوانه وما عليه من النفقات فعمل ذلك وسلمه الى متولى ديوان المجلس وهو زمام الدواوين فنظم عليه عملا جامعا وأحضره اياه فرأى ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار منها الشام ألف ألف دينار ونفقاته بازاء ارتفاعه ومنها الريف وباقي الدولة ألف ألف دينار يقف منها عن معلول ومنكسر على موتى وهراب ومفقود مائتا ألف دينار ويبقى ثمانمائة ألف دينار يصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلثمائة ألف دينار وعن ثمن غلة للقصور مائة الف دينار وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار وعن عمائر وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار ويبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصلة يحملها كل سنة الى بيت المال المصون فحظى بذلك عند سلطانه وخف على قلبه قال وانتهى ارتفاع الارض السفلي الى مالا نسبة له من ارتفاعها الاول يعني بعد موت البازوري وحدوث الفتن وهو قبل سنى هذه الفتن يعنى في أيام البازورى ستمائة ألف دينار كانت تحمل في دفعتين فى السنة في مستهل رجب ثلاثمائة ألف دينار وفي مستهل المحرم ثلثمائة ألف دينار فاتضع الارتفاع وعظمت الواجبات وقال ابن ميسرة وأمر الافضل بن أمير الجيوش بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر فجاء خمسة آلاف ألف دينار وكان متحصل الامراء ألف ألف اردب وقال الامير جمال الدين والملك موسى ابن المأمون البطائحي في تاريخه من حوادث سنة احدى وخمسمائة ثم رأى القائل أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي من اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين وتضررهم من كون اقطاعاتهم قد خس ارتفاعها وساءت أحوالهم لقلة المتحصل منها وان اقطاعات الامراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عن غيرها وان في كل ناحية من الفواضل للديوان جملة تجبئ بالعسف وبتردد الرسل من الديوان الشريف بسببها فخاطب الافضل بن أمير الجيوش في أن يحل الاقطاعات جميعها ويروكها وعرفه ان المصلحة فى ذلك تعود على المقطعين والديوان لان الديوان يحصل له من هذه الفواضل جملة يحصل بها بلاد مقوورة فأجاب الى ذلك وحل جميع الاقطاعات وراكها وأخذ كل من الاقوياء والمميزين يتضررون ويذكرون أن لهم بساتين وأملاكا ومعاصر في نواحيهم فقال له من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الاقطاع وهو محكم ان شاء باعه وان شاء آجره فلما حلت الاقطاعات أمر الضعفاء من الاجناد أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة فى اقطاعات الاقوياء الى أن انتهت الى مبلغ معلوم وكتبت السجلات بانها باقية فى أيديهم الى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد وأحضر الاقوياء وقال لهم ما تكرهون من الاقطاعات التى كانت بيد الاجناد قالوا كثرة غيرها وقلة متحصلها وخرابها وقلة الساكن بها فقال لهم

ابذلوا في كل ناحية ما تحمله وتقوى رغبتكم فيه ولا تنظروا فى العبرة الاولى فعند ذلك
طابت نفوسهم وتزايدوا فيها الى أن بلغت الى الحد الذي رغب كل منهم فيه فأقطعوا به
وكتب لهم السجلات على الحكم المتقدم فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم وحصل
للديوان بلاد مقورة بما كان مفرقا في الاقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار * وقال في
حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة وكان قد تقدم أمر الاجل المأمون بعمل حساب الدولة
من الهلالى والخراجي وجعل نظمه على جملتين احداهما الى سنة عشر وخمسمائة الهلالية
الخراجية والجملة الثانية الى آخر سنة خمس عشرة وخمسمائة هلالية وما يوافقها من الخراجية
فعقدت على جملة كثيرة من العين والاصناف وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها فلما
أحضرت أمر بكتب سجل يتضمن المسامحة بالبواقي الى آخر سنة عشر وخمسمائة ونسخته
بعد التصدير ولما انتهى الينا حال المعاملين والضمناء والمتصرفين وما في جهاتهم من بقايا
معاملاتهم أنعمنا بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصداً فى استخلاص ضامن طالت
غفلته وخربت ذمته وانقاذ عامل أجحف به من الديوان طلبته وتوفير الرغبة على عمارتها
وجريها فيها على قديم عادتها ولما كان ذلك من جميل الاحدوثة التي لم نسبق اليها ولا
شاركنا ملك فيها اقتضت الحال ايرادها في هذا الكتاب وايداعها هذا الباب لما اطلعنا
عليه مما انتهت اليه أحوال الضمناء والمعاملين بالمملكة من الاختلال وتجمد البقايا فى جهاتهم
والاموال عطفنا عليهم برأفة ورحمة وطالعنا المقام الاشرف النبوى بالتفصيل من أمورهم
والجملة واستخرجنا الامر العالى بوضع ذلك فى الحال وأنشأ السجلات الكريمة مقصورة
على ذكر هذا الاحسان وتنفيذها الى جميع البلدان ليقرأ على رؤس الاشهاد بسائر البلاد
ومبلغ ما انتهت اليه هذه المسامحة الى حين ختم هذا السجل من العين ألفا ألف وسبعمائة
ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وسبعة وستون ديناراً ونصف وثلث وثلثان وربع قيراط
ومن الفضة النقرة أربعة دراهم ومن الورق سبعة وستون ألفاً وخمسة دراهم ونصف
وسدس درهم ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمان مائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة
وثلاثون أردبا وثمن ونصف سدس وثلثى قيراط ومن العناب ربع أردب ومن ورق
الصباغ ألفان وأربعمائة وثلاثة أرادب ونصف ومن زريعة الوسمة عشرة أرادب وربع ومن
الصباغ ألف وأربعمائة وثمانون قنطاراً ورطل ونصف ومن الفوة أربعمائة وسبعون رطلا
ومن الشب تسعمائة وثلاثة عشر قنطاراً ونصف ومن الحديد خمسمائة رطل واحد وثلاثون
رطلا ومن الزفت ألف وثلثمائة وثلاثة أرطال وربع وسدس ومن القطران تسعة عشر
رطلا وثلث ومن الثياب الحلبي ثلاثة أثواب ومن المئازر مائة مئزر صوف ومن الغرابيل
مائة وسبعون غربالا ومن الاغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وثلثمائة وخمسة أروس

ومن البسر ثلثمائة وثلاثة عشر قنطاراً وثمانية وثلاثون رطلا ومن السحيل ثلاثمائة ألف وخمسة وسبعون ألفاً وخمسمائة وخمسون باعا ومن الجريد أربعمائة ألف وثمانيـة وثلاثون الفاً وسبعمائة وثلاثة وخمسون جريدة ومن السلب ألف واربعمائة وثلاثة وعشرون سلبة ومن الاطراف سـتة آلاف وسبعمائة وثلاثة أطراف ومن الملح ألفان وسـبعمائة وثلاثة وتسعون أردبا وثلث ومن الاشنان أحد عشر أردبا ومن الرمان ألفا حبة ومن العسل النحل خمسمائة وأحد وأربعون قنطاراً وسدس ومن الشهد اثنان وثلاثون زيرا وقادوسا واحداً ومن الشمع أربعمائة واربعون رطلا ومن الخـلايا ثلاثة آلاف وأربعمائة وخليتـان ومن عسل القصب مائة وثمانية وثلاثون قنطاراً ومن الابقار اثنان وعشرون الفاً ومائة واربعة وستون رأسا ومن الدواب اربعة وسبعون رأساً ومن السمن الفان وتسعمائة وستة وتسعون مطراً وسدس وثمن ومن الجبن ثلثمائة وعشرون رطلا ومن الصوف اربعـة آلاف ومائة وثلاثة وعشرون جزة ومن الشعر ستة آلاف وخمسـون رطلا وربع ومن بيوت الشعر بيتان وفصـل ذلك بجهاته ومعاملاته قال ولما انتهى الى المأمون ما يعتمد فى الدواوين من قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن كابد فيها المشقة والتعب وتسليمها الى باذل الزيادة من غير كلفة ولا نصب انكر ذلك ومنع من ارتكابه ونهى عن الولوج في بابه وخرج امره باعفاء الـكافة اجمعين والضمناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه و يستولون عليه ما داموا مغلقين وبأقساطهم قائمين وتضمن ذلك منشور قرئ في الجامعين الازهر بالقاهرة و العتيق بمصر وديوانى المجلس والخاص الامر بين السعيدين و نسخته بعد التصدير * ولما انتهى الى حضرتنا ما يعتمد في الدواوين ويقصده جماعـة من المتصرفين والمستخدمين من تضمين الابواب والرباع والبساتين و الحمامات والقياسر والمسا كن وغير ذلك من الضمانات للراغبين فيها ممن تستمر معاملته ولا تنكر طريقته فما هو الا أن يحضر من يزيد عليه في ضمانه حتي قد نقض عليه حكم الضمان وقبل ما يبذل من الزيادة كائناً من كان وقبضت يد الضامن الاول عن التصرف ومكن الضامن الثانى من التصرف من غير رعاية للعقد على الضامن الاول ولا تحرز في فسخه الذى لا يبيحه الشرع ولا يتأول أنكرنا ذلك على معتمديه وذممنا من قصـدنا عليه ومرتكبيه اذ كان للحق مجانبا وعن مذهب الصواب ذاهباً وعرضنا ذلك بالمواقف المقدسـة المطهرة ضاعف الله أنوارها وأعلى أبداً منارها واستخرجنا الاوامر المطاعة في كتب هذا المنشور الى سائر الاعمال بأنه أى أحد من الناس ضمن ضمانا من باب أو ربع أو بستان أو ناحيـة أو كفر وكان لاقساط ضمانه مؤديا ولما يلزمه من ذلك مبديا وللحق متبعاً فان ضمانه باق فى يده لا تقبل زيادة عليه مدة ضمانه على العقد المعقود عملا بالواجب والنظام المحمود واتباعا لما أمر الله تعالى به في كتابه

المجيد اذ يقول جـل من قائل (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) الى أن تنقضي مـدة
الضمان ويزول حكمها ويذهب وضعها ورسمها حملا على قضية الواجب وسنها واعتماداً على
حكم الشريعة التي ما ضل من اهتـدى بفرائضها وسننها فأما من ضمن ضماناً ولم يقم بما
يجب عليه فيه وأصر على المدافعة والمغالطة التي لا يعتمدها الا كل ذميم الطباع سفيه فذلك
الذى فسخ حكم ضمانه بنقضه الشرط المشروطة عليه وحكمه حكم من اذا زيد عليه فى ضمانه
نقل عنه وأخرج من يديه لانه الذى بدأ بالفسخ وأوجد السبيل اليه فليعتمد كافـة أرباب
الدواوين وجميع المتصرفين والمستخدمين العمل بما تضمنه هـذا المنشور وامتثال المأمور
وحمل هؤلاء الضمناء والمعاملين على ما نص فيه والحذر من تجاوزه وتعديه بعـد ثبوته فى
ديوانى المجلس والخاص الامر بين السعيدين وبحيث يثبت مثله ان شاء الله تعالى قال ووصلته
المكاتبة من الوالى والمشارف ومن كان ندب صحبته لكشف الاراضى والسواقي ومساحتها
متضمنة ما أظهره الـكشف وأوضحته المساحة على من بيده السواقي وهم عـدة كثيرة
ومن جملتها ساقية مساحتها ثلثمائة وستون فداناً تشتمل على النخل والـكرم وقصب السكر
بمدينة اسنا خراجها فى السـنة عشرة دنانير وما يجرى في الاعمال هـذا المجرى وانهم
وضعوا يد الديوان على جميعها وطلبوا من أرباب السواقى ما يدل على ما بأيديهم فذكروا
أنها انتقلت اليهم ولم يظهروا ما يدل عليها وقد سيروا ملاكها الى الباب تحت الحوطة ليخرج
الامر بما يعتمد عليه في أمرهم وعند وصولهم أوقع الترسيم عليهم الى أن يقوموا بما يجب
من الخراج عن هذه السواقي فان الاملاك بجملتها لا تقوم بما يجب عليها فوقف المذكورون
للمأمون في يوم جلوسه للمظالم فأمر بحضورهم بين يديه وتقدم الى القاضى جلال الملك
أبو الحجاج يوسف بن أبي أيوب المغربى وهو يومئذ قاضي القضاة لحاكمتهم فجرى له معهم
مفاوضة أوجبت الحق عليهم وألزمهم بالقيام بما يستغرق أموالهم وأملاكهم فحصل من
تضررهم ما أوجب العاطفة عليهم وأخذهم بالخراج من بعـد وأن يضرب عما تقدم صفحاً
وكتب منشور نسخته قد علم الـكافة ما نراه من افاضة سحب العـدل عليهم والاحسان
والنظر في مصالح كل قاص منهم ودان وانا لا ندع ضرراً يتوجه الى أحد من الرعيـة الا
حسمناه ولا نعلم صلاحا يعود نفعه عليه الا قوينا سببه ووصلناه حسب مايتعين على رعاة الامم
وعملا بالواجب في البعيد والامم وسلوكا لمحجة الدولة الفاطمية خلد الله ملـكها القويمـة
واستمراراً على قضاياها وسجاياها الـكريمة ولما كنا نرى النظر في مصالح الرعايا أمراً واجباً
ونصرف الى سياستهم عزماً ماضياً ورأياً ثاقباً كذلك نرى النظر في أمور الدواوين واستيفاء
حقوقها المصروفة الى حماية البيضة والمحاماة عن الدين وجهاد الـكفرة والملحدين ليكون
ماتراعيه وننظر فيه جارياً على سنن الواجب محروساً من الخلل باذن الله من جميع الجوانب

ومن الله تستمد مواد التوفيق فى الحل والعقد * ونسأله الارشاد الى سواء السبيل والقصد وما توفيقنا الا بالله عليه نتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل * وكان القاضي الرشيد بن الزبير أيام مشارفته الصعيد الاعلى قد طالع المجلس الافضلى بحال أرباب الاملاك هناك وانهم قد استضافوا الى أما كنهم من أملاك الدواوين أراضي اغتصبوها ومواضع مجاورة لاملاكهم تعدوا عليها وخلطوها بها وحازوها ورسم له كشفها ونظم المشاريح بها وارتجاعها للديوان وان يعتمد في ذلك ما يوجبه حكم العدل المثبت في كل قطر ومكان وبآخر ذلك سيرنا من الباب من يكشف ذلك على حقيقته وانهائه على طيته فاعتمدوا ما أمروا به من الكشف في هذه الاملاك ووردت المطالعة منهم بأنهم التمسوا ممن بيده ملك أوساقية مايشهد بصحة ملكه ومبلغ فدنه وذكر حدوده فلم يحضر أحدمنهم كتابا ولا أوضح جوابا وأصدروا الى الديوان المشاريح بما كشفوه وأوضحوه فوجدوا التعدي فيه ظاهرا وباب الحيف والظلم غير متقاصر والشرع يوجب وضع اليد على ما هذه حاله ومطالبة صاحبه بريعه واستغلاله لاسيما وليس بيده كتاب يشهد بصحة الملك رأساً ولا يستند في ذلك الى حجة ادّخرها احترازا عن مجاهدة سبيله واحتراسا ولكن نحكم بما نراه من المصلحة للرعية والعدل الذي أقمنا مناره وأحيينا معالمه وآثاره مع الرغبة في عمارة البلاد ومصالح أحوالها واستنباط الارضين الدائرة وانشاء الغروس واقامة السواقي بها أمرنا بكتب هذا المنشور وتلاوته بأعمال الصعيد الاعلى باقرار جميع الاملاك والارضين والسواقى بأيدي أربابها الآن من غير انتزاع شيء منها ولا ارتجاعه وأن يقرر عليها من الخراج مايجب تقريره ويشهد الديوان على أمثالهم بمثله احساناً اليهم لم نزل نتابع مثله ونواليه وانعاماً مابرحنا نعيده عليهم ونبديه وقد أنعمنا وتجاوزنا عما سلف ونهينا من يستأنف وسامحنا من خرج عن التعدي الى المألوف وجرينا على سنننا في العفو والمعروف وجعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين ومن عاد من الكافة أجمعين فلينتقم الله منه وطولب بمستأنفه وأمسه وبرئت الذمة من ماله ونفسه وتضاعفت عليه الغرامة والعقوبة وسدت فى وجهه أبواب الشفاعة والسلامة وقد فسحنا مع ذلك لكل من يرغب في عمارة أرض حلفاء دائرة وادارة بئر مهجورة معطلة في أن يسلم اليه ذلك ويقاس عليه ولا يؤخذ منه خراج الا في السنة الرابعة من تسليمه اياه وأن يكون المقرر على كل فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجا مؤبدا وأمراً مؤكدا فليعتمد ذلك النواب وحكام البلاد ومن جرت العادة بحضوره عقد مجلس واحضار جميع أرباب الاملاك والسواقي واشعارهم ماشملهم من هذا الاحسان الذي تجاوز آمالهم في اجابتهم الى ما كانوا يسألون فيه وتقرير مايجب على الاملاك المذكورة من الخراج على الوضع الذى مثلناه ويجيز الديوان تقريره ويرضاه مع تضمين الاراضي الدائرة والآبار المعطلة لمن يرغب في ضمانها ونظم

المشارع بذلك واصدارها الى الديوان ليخلد فيه على حكم أمثالها بعد ثبوت هـذا المنشور بحيث يثبت مثله قال ولما سرت هذه المصالح الى جميع أهل هـذه الأعمال حصل الاجتهاد فى تحصيل مال الديوان وعمارة البلاد * واعلم انه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيما مضي قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد اقطاعات بمعنى ما عليـه الحال اليوم فى اجناد الدولة التركية وانما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الامراء والاجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم لايعرف هذه الابذة التي يقال لها اليوم الفلاحة ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحيـة الا انه لايرجو قط ان يباع ولا ان يعتق بل هو قن ما بقي ومن ولد له كذلك بل كان من اختار زراعة أرض يقبلها كما تقدم وحمل ماعليه لبيت المـال فاذا صار مال الخراج بالديوان أنفق في طوائف العسكر من الخزائن وكان مع ذلك اذا انحط ماء النيل عن الاراضى وتعلقت نواحي مصر باصناف الزراعات ندب من الحضرة من فيه نباهة وخرج معه عدول يوثق بهم وكانت لهم معرفة بعلم الخراج وكثيراً ما كان هـذا الـكاتب من النصارى الاقباط ويخرج الى كل ناحية من ذكرنا فيحررون مساحة ما شمله الرى من الاراضي مما لعله بار أو شرق ويكتب بذلك مكلفات واضحة بالفدن والقطائع على جميع الاصناف المزروعة ويحضر الى دواوين الباب فاذا مضى من السنة القبطية أربعة أشهر ندب من الاجناد من عرف بالحماسة وقوة البطش وعين معه من الـكتاب العدول من قد اشتهر بالامانة وكاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة وساروا الى كل ناحية كذلك فاستخرج مباشروا كل بلد ثلث ماوجب من مال الخراج على ماشهدت به المـكلفات فاذا أحضر هذا الثلث صرف في واجبات العساكر وهكذا العمل في استخراج كل قسط طول الزمان من كل سنة وكانت تبقى في جهات الضمان والمتقبلين جملة بواق وكانت بلاد مصر اذ ذاك تقبل بعين وغلة واصناف وقد عرف ذلك من نسخة المسموح الذى تضمن ترك البواقى فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحى ورأيت بخط الاسعد بن مهذب بن زكريا بن مماتى الـكاتب المصرى سألت القاضي الفاضل عبد الرحيم كم كانت عدة العساكر في عرض ديوان الجيش لما كان سيدنا يتولى ذلك في أيام رزيك بن الصالح فقال أربعين ألف فارس ونيفا وثلاثين ألف راجل من السودان وقال أبو عمرو عثمان النابلسى في كتاب حسن السريرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة أن ضرغاما لما ثار على شاور وفر شاور الى السلطان نور الدين محمود بن زنكى بدمشق يستنجده على ضرغام ويعده بأنه يكون نائبا عنه بمصر ويحمل اليه الخراج انشأ لنور الدين عزما لم يكن فجهز ألف فارس وقدم عليهم أسد الدين شيركوه وأمره بالتوجه فأبي وقال لا أمضى أبدا فإن هلاكي ومن معي وسوء ما سمعه السلطان معلوم من هنا وكيف أمضى

بألف فارس الى أقليم فيه عشرة آلاف فارس ومائة سبهبد فيها عشرة آلاف مقاتل وأربعون ألف عبد وقوم مستوطنون في أوطانهم فرأيت حرابتهم ونحن نأتيهم من تعب السفر بهذه العدة القليلة قال ثم أجابه بعد ذلك هذا أعزك الله بعد ما كانت عساكر أحمد بن طولون ما ستراه في ذكر القطائع إن شاء الله تعالى ثم ما كان من عساكر الامير أبي بكر محمد بن طنج الاخشيد وهي على ما حكاه غير واحد منهم ابن خلكان أنها كانت أربعمائة ألف ولما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغزمن بلاد الشام واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر تغير الحال بعض التغير لا كله * قال القاضى الفاضل في متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة في ثامن المحرم خرجت الاوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها وجديدها بعد أن أنذر حاضرها وغائبها وتوفي وصولها وتكامل سلاحها وخيولها فحضر في هذا اليوم جموع شهد كل من علا سنه وقرطس ظنه أن ملكا من ملوك الاسلام لم يحز مثلها وشاهدت رسل الروم والفرنج ما أرغم أنوف الكفرة ولم يتكامل اجتياز العساكر موكبا بعد موكب وطلبا بعد طلب والطلب بلغة الغزهو الامير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب وعدة من مائتى فارس الى مائة فارس الى سبعين فارسا الى أن انقضى النهار ودخل الليل وعاد ولم يكمل عرضهم وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلبا والغائب منها عشرون طلبا وتقدير العدة يناهز أربعة عشر ألف فارس أكثرها طواشية والطواشي من رزقه من سبعمائة الى ألف الى مائة وعشرين وما بين ذلك وله برك من عشرة رؤس الى ما دونها ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل وله غلام يحمل سلاحه وقراغلامية تمة الجملة قال وفى هذه السفرة عرض العربان الخدامين فكانت عدتهم سبعة آلاف فارس واستقرت عدتهم على ألف وثلثمائة فارس لا غير وأخذ بهذا الحكم عشر الواجب وكان أصله ألف ألف دينار على حكم الاعتداد الذى يتأصل ولا يتحصل وكلف الثعالبة ذلك فامتعضوا ولوحوا بالتحيز الى الفرنج * وقال فى متجددات شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة استمر انتصاب السلطان صلاح الدين فى هذه السنة للنظر في أمور الاقطاعات ومعرفة عبرها والنقص منها والزيادة فيها واثبات المحروم وزيادة المشكور الى أن استقرت العدة على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين فارساً امراء مائة وأحد عشر أميرا طواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعون قراغلامية الف وخمسمائة وثلاثة وخمسون والمستقر لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستمائة الف وسبعون الفاو خمسمائة دينار وذلك خارج عن المحلولين من الاجناد الموسومين بالحوالة على العشر وعن عدة العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة وعن الكتانيين والمصريين والفقهاء والقضاة والصوفية وعما يجرى بالديوان ولا يقصر عن ألف ألف دينار * وقال في متجددات سنة خمس وثمانين وخمسمائة أوراق بما استقر عليه عبر البلاد من اسكندرية الى عيذاب الى

آخر الرابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة خارجا عن الثغور وأبواب الاموال الديوانية والاحكار والحبس ومنفلوط ومنقباط وعدة نواح أوردت أسماءها ولم يعين لها في الديوان عبرة من جملة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسين ألفا وتسعة عشر دينارا يعد ما يجرى في الديوان العادلي السعيد وغيره عن الشرقية والمرتاحية والدقهلية وبوش وغير ذلك وهو ألف ألف ومائة ألف وتسعون ألفا وتسعمائة وثلاثة وعشرون دينارا (تفصيل ذلك) الديوان العادلي سبعمائة ألف وثمانية وعشرون ألفا ومائتان وثمانية وأربعون دينارا الامراء والاجناد المرسوم بابقاء اقطاعاتهم بالاعمال المذكورة مائة ألف وثمانية وخمسون ألفا ومائتان وثلاثة دنانير ديوان السور المبارك والاشراف ثلاثة عشر ألفا وثمانمائة وأربعة دنانير العربان مائتا ألف وأربعة وثلاثون ألفا ومائتان وستة وتسعون دينارا الكنانية خمسة وعشرون ألفا وأربعمائة واثنا عشر دينارا القضاة والشيوخ سبعة آلاف وأربعمائة وثلاثة دنانير القيمارية والصالحية والاجناد المصريون اثنا عشر ألفا وخمسمائة وأربعة دنانير الغزاة والعساقلة المركزة بدمياط وتنيس وغيرهم عشرة آلاف وسبعمائة وخمسة وعشرون دينارا البارز ثلاثة آلاف ألف وأربعمائة ألف واثنان وستون ألفا وخمسة وتسعون دينارا (الوجه البحرى) ألف ألف ومائة ألف وأحد وخمسون ألفا وستمائة وثلاثة وخمسون دينارا (تفصيله) ضواحي ثغر الاسكندرية ثمانمائة ألف ومائة وثمانية وثلاثون دينارا ثغر رشيد ألفا دينار البحيرة مائة ألف وخمسة عشر ألفا وخمسمائة وستة وسبعون دينارا حوف رمسيس اثنان وتسعون ألفا وأربعمائة وثلاثة دنانير قوّه والمزاحميتين عشرة آلاف ومائة وخمسة وعشرون دينارا النبراوية خمسة عشر ألفا وثلثمائة وخمسة دنانير جزيرة بنى نصر مائة ألف واثنا عشر ألفا وستمائة وستة وأربعون دينارا جزيرة قوسنيا مائة ألف وثلاثون ألفا وخمسمائة واثنان وتسعون دينارا الغربية ستمائة ألف وأربعة وسبعون ألفا وستمائة وخمسة دنانير السمنودية مائتا ألف وخمسة وأربعون ألفا وأربعمائة وتسعة وسبعون دينارا الدجاوية ستة و أربعون ألفا ومائتان وأربعة وسبعون دينارا المنوفية مائة ألف وثمانية وأربعون ألفا وثلثمائة وسبعة وأربعون دينارا (الوجه القبلى) ألف ألف وستمائه ألف وعشرة آلاف وأربعمائة وأحد وأربعون دينارا (تفصيل ذلك) الجيزة مائة ألف وثلاثة وخمسون ألفا ومائتان وأربعة دنانير الاطفيحية تسعة وخمسون ألفا وسبعمائة وثمانية وعشرون دينارا البوصيرية ستون ألفا واربعمائة وستة وستون دينارا الفيومية مائة الف واثنان وخمسون الفا وستمائة واربعة وثلاثون دينارا البهنسية ثلثمائة الف واثنان وخمسون الفا وستمائة واربعة وثلاثون دينارا الواحات الداخلة والخارجتين وواح البهنسا خمسة وعشرون الف دينار الاشمونين مائة الف وسبعة واربعون الفا وسبعمائة واثنان

وثلاثون دينارا السيوطية خارجا عن منفلوط ومنقباط اثنان وسبعون الفا وخمسمائة واربعة دنانير الاخميمية مائة الف وثمانية آلاف وثمانمائة واثنا عشر دينارا الاعمال القوصية ثلثمائة الف واثنان وستون الفا وخمسمائة دينار ثغر اسوان خمسة وعشرون الف دينار ثغر عيذاب يجرى في غير هذا الديوان * وقال في متجددات سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والذى انعقد عليه ارتفاع الديوان السلطانى ثلثمائة الف واربعة وخمسون الفا واربعة واربعون دينارا والذى يميز زائد الارتفاع لسنة سبع وثمانين وخمسمائة على ارتفاع سنة ست وثمانين اثنان وعشرون الفا واربعمائة وخمسة واربعون دينارا والذى انساق من البواقي للسنة المذكورة احد وثلاثون الفا وستمائة واثنان وعشرون ديناراً والذى اشتمل عليه متحصل ديوان الخاص الملكي الناصرى بالديار المصرية لسنة سبع وثمانين وخمسمائة ثلثمائة الف واربعة وخمسون الفا واربعمائة واربعة وخمسون دينارا ونصف وثلث وثمن

ذكر الروك الاخير الناصري

وكان الجندي اقطاعه بمفرده وله تبع واحد من عشرين الف درهم الى ثلاثين وفيهم من اقطاعه خمسة عشر الفا واقلهم عشرة آلاف وذلك سوى الضيافة وبلغ خمسة آلاف درهم في الاقطاع الثقيل وكان الجندى يخرج الى آلسكان بطوالة خيل ويخرج مقدم الحلقة كامير عشرة وتكون مضافته اذا نزل حوله واكثرهم يأكل على سماطه ولا يمكن الامير أن يأكل الا وجميع اجناده معه ويأخذ غلمان اجناده كل يوم الطعام من مطبخه واذا رأى نارا توقد سأل عنها فيقال ان فلانا اشتهى كذا فيغضب ممن لا يأكل عنده ومع ذلك كانت اشكالهم بشعة وملابسهم غير خائلة فلما أفضت السلطنة الى المنصور لاجين راك البلاد وذلك أن ارض مصر كانت اربعة وعشرين قيراطا فيختص السلطان منها بأربعة قراريط ويختص الاجناد بعشرة قراريط ويختص الامراء بعشرة قراريط وكان الامراء يأخذون كثيرا من اقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شيء ويصير ذلك الاقطاع في دواوين الامراء ويحتمي بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن ويقوم بها الهوشات ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية وتصير مأكلة لاعوان الامراء ومستخدميهم ومضرة على اهل البلاد التي تجاورها فأبطل السلطان ذلك ورد تلك الاقطاعات على اربابها واخرجها بأسرها من دواوين الامراء واول مابدأ به ديوان الامير سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة فأخرج منه ماكان فيه من هذه الاقطاعات وكان يحصل له منها مائة الف اردب غلة في كل سنة واقتدى به جميع الامراء وأخرجوا مافي اقطاعاتهم من ذلك فبطلت الحمايات وجعل السلطان في هذا الروك للامراء والاجناد أحد عشر قيراطا وأفرد تسعة قراريط ليخدم بها عسكرا ويقطعهم اياها ثم رتب أوراقا بتكفية الامراء والاجناد بعشرة قراريط ووفر قيراطا لزيادة من عساه يطلب زيادة

لقلة متحصل أقطاعه وأفرد لخاص السلطان عدة أعمال جليلة وأفرد للنائب منكوتمر لتفرقة المثالات في تابعيه. فتنكرت قلوب الامراء حتى كان من المنصور لاجين ونائبه منكوتمر ما كان فلما كانت الايام الناصرية راك الناصر محمد البلاد قال جامع السيرة الناصرية وفى سنة خمس عشرة وسبعمائة اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ان يروك الديار المصرية وان يبطل منها مكوسا كثيرة ويفضل لخاص مملكته شيئاً كثيرا من اراضى مصر وكان سبب ذلك انه اعتبر كثيرا من أخباز المماليك والحاشية الذين كانوا للملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير والامير سلار وسائر المماليك البرجية فاذا هى مابين ألف دينار الى ثمانمائة دينار وخشى من قطع أخباز المذكورين فولد له الرأى مع القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أن يروك ديار مصر ويقرر اقطاعات مما يختار ويكتب بها مثالات سلطانية فتقدم الفخر ناظر الجيش فعمل أوراقا بما عليه عبر النواحي ومساحتها وعين السلطان لكل اقليم من أقاليم ديار مصر اناسا وكتب مرسوما للامير بدر الدين جيكل بن البابا أن يخرج لناحية الغربية ومعه أعزل الحاجب ومن الكتاب المكين بن فرويته وان يخرج الامير عز الدين ايدمر الخطيرى الى ناحية الشرقية ومعه الامير ايتمش المجدى ومن الكتاب أمين الدولة ابن قرموط وأن يخرج الامير بلبان الصرخدى والقليجي وابن طرنطاى وبيبرس الجمدار الى ناحية المنوفية والبحيرة وان يخرج البليلي والمرتينى الى الوجه القبلي وندب معهم كتابا ومستوفين وقياسين فساروا الى حيث ذكر فكان كل منهم اذا نزل بأول عمله طلب مشايخ كل بلد ود للاءها وعدولها وقضاتها وسجلاتها التي بأيدى مقطعيها وفحص عن متحصلها من عين وغلة وأصناف ومقدار ماتحتوي عليه من الفدن ومزروعها وبورها وما فيها من ترايب وبواق وغرس ومستبحر وعبرة الناحية وما عليها لمقطعيها من غلة ودجاج وخراف وبرسيم وكشك وكعك وغير ذلك من الضيافة فاذا حرر ذلك كله ابتدأ بقياس تلك الناحية وضبط بالعدول والقياسين وقاضى العمل مايظهر بالقياس الصحيح وطلب مكلفات تلك القرية وغنداقها وفضل مافيها من الخاص السلطاني وبلاد الامراء واقطاعات الاجناد والرزق حتى ينتهى الى آخر عمله ثم حضروا بعد خمسة وسبعين يوما وقد تحرر في الاوراق المحضرة حال جميع ضياع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف فطلب السلطان الفخر ناظر الجيش والتقى الاسعد بن أمين الملك المعروف بكاتب سرلغى وسائر مستوفى الدولة وألزمهم بعمل أوراق تشتمل على بلاد الخاص السلطاني التي عينها لهم وعلى اقطاعات الامراء وأضاف على عبرة كل بلد ما كان على فلاحيها من ضيافة لمقطعها وأضاف الى العبرة مافي الاقطاع من الجوالي وكتب مثالات للاجناد باقطاعات على هذا الحكم فاعتد منها بما كان يصرف في كلف حمل الغلال من النواحي الى ساحل

القاهرة وما كان عليها من المكس وابطل السلطان عدة مكوس منها مكس ساحل الغلة وكان جل متحصل الديوان وعليه اقطاعات الامراء والاجناد ويحصل منه في السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم وعليه اربعمائة مقطع لكل منهم من عشرة آلاف الى ثلاثة آلاف ولكل من الامراء من أربعين ألفا الى عشرة آلاف وكانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جدا وينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم فان مظالمها كانت تتعدد ما بين نواتية تسرق وكيالين تبخس وشادّين وكتاب يريد كل منهم شيئاً وكان مقرر الاردب درهمين للسلطان ويلحقه نصف درهم غير ما ينهب ويسرق وكان لهذه الجهة مكان يعرف بخص الكيالة في ساحل بولاق يجلس فيه شاد وستون متعمماً ما بين كتاب ومستوفين وناظر وثلاثون جندياً مباشرون ولا يمكن أحداً من الناس أن يبيع قدحاً من غلة فى سائر النواحي بل تحمل الغلات حتى تباع في خص الكيالة ببولاق ومما أبطل أيضاً نصف السمسرة وهو عبارة عن أن من باع شيئاً من الاشياء فانه يعطى أجرة الدلال على ما تقرر من قديم عن كل مائة درهم درهمين فلما ولي ناصر الدين الشيخي الوزارة قرر على كل دلال من دلالته درهما من كل درهمين فصار الدلال يعمل معدله ويجتهد حتى ينال عادته وتصير الغرامة على البائع فتضرر الناس من ذلك وأوذوا فلم يغاثوا حتى أبطل ذلك السلطان ومما أبطل رسوم الولاية وكانت جهة تتعلق بالولاة والمقدمين فيجبيها المذكورون من عرفاء الاسواق وبيوت الفواحش ولهذه الجهة ضامن وتحت يده عدة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم وكانت تشتمل على ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجم بيوت أكثر الناس ومما أبطل مقرر الحوائص والبغال من المدينة وسائر أعمال مصر كلها من الوجه القبلي والبحري فكان على كل من الولاة والمقدمين مقرر يحمل في كل قسط من أقساط السنة الى بيت المال عن ثمن حياصة ثلثمائة درهم وعن ثمن بغل خمسمائة درهم وعلى هذه الجهة عدة مقطعين ويفضل منها ما يحمل وكان يصيب الناس من هذه الجهة مالا يوصف ويحل بهم من عسف الرقاصين ما يهون معه الموت ومن ذلك مقرر السجون وهو عبارة عما يؤخذ من كل من يسجن فللسجان على حكم المقرر ستة دراهم سوى كلف أخرى وعلى هذه الجهة عدة مقطعين ويرغب فيها الضمان ويتزايدون فى مبلغ ضمانها لكثرة ما يتحصل منها فانه كان لو تخاصم رجل مع امرأته أو ابنه رفعه الوالي الى السجن فبمجرد ما يدخل السجن ولو لم يقم به الا لحظة واحدة أخذ منه المقرر وكذلك كان على سجن القضاة أيضا *(ومن ذلك مقرر طرح الفراريج)* ولها ضمان عدة في سائر نواحى أرض مصر يطرحون على الناس الفراريج فيمر بضعفاء الناس من ذلك بلاء عظيم وتقاسي الارامل من العسف والظلم شيئاً كثيرا وكان على هذه الجهة

عدة مقطعين ولا يمكن أحدا من الناس في جميع الاقاليم أن يشتري فروجا فما فوقه الا من الضامن ومن عثر عليه أنه اشترى أو باع فروجا من سوى الضامن جاءه الموت من كل مكان وما هو بميت * (ومن ذلك مقرر الفرسان) * وهو عبارة عما يجبيه ولاة النواحي من سائر البلاد فلا يؤخذ درهم مقرر حتى يغرم عليه صاحبه درهمين ويقاسي الناس فيه أهوالا صعبة * ومن ذلك مقرر الاقصاب والمعاصر) وهو ما يجبى من مزارعى قصب السكر ومن المعاصر ورجال المعاصر * (ومن ذلك مقرر رسوم الافراح) ويجبي من سائر النواحي ولهذه الجهة عدة ضمان ولا يعرف لهذه الجهة أصل البتة وانما يجبي بضرائب ينال الناس فيها مع المقرر غرامات وروعات * (ومن ذلك حماية المراكب) وهي عبارة عما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرر الحماية وكانت هذه الجهة أشد ماظلم به الناس فيؤخذ من كل من ركب البحر للسفر حتى من السؤال والمكدين * (ومن ذلك حقوق القينات) وهو عبارة عما يجمع من الفواحش والمنكرات فيجبيه مهتار الطشتخاناه السلطانية من أوباش الناس * (ومن ذلك شد الزعماء) وهي جهة مفردة وحقوق السودان وكشف المراكب ومقرر ماعلى كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقرر معين ومتوفر الجراريف وهو مايجبى من سائر النواحي فيحمل ذلك مهندسو البلاد الى بيت المال باعانة الولاة لهم فى تحصيل ذلك وعلى هذه الجهة عدة مقطعين من الجند ومقرر المشاعلية وهو عبارة عما يؤخذ عن كسح الافنية وحمل ما يخرج منها من الوسخ الى الكيمان فكان اذا امتلأ سراب جامع أو مدرسة أو مسمط أو تربة أو منزل من منازل سائر الناس لا يمكنه ولو بلغ من العظمة ماعسى أن يبلغ التعرض لذلك حتى يأتيه ضامن الجهة ويقاوله على كسح ذلك بما يريد وكان من عادة الضامن الاشطاط في السوم وطلب أضعاف القيمة فان لم يرض رب المنزل بما طلب الضامن والا تركه وانصرف فلا يقدر على مقاساة ترك الوسخ ويضطر الى سؤاله ثانياً فيعظم تحكمه ويشتد بأسه الى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح فنائه ورفع ما هنالك من الاقذار * (ومن ذلك ابطال المباشرين من النواحي) وكانت بلاد مصر كلها من الوجهين القبلي والبحرى ما من بلد صغير وكبير الا وفيه عدة من كتاب وشاد ونحو ذلك فأبطل السلطان المباشرين وتقدم منعهم من مباشرة النواحى الا من بلد فيها مال السلطان فقط فأراح الله سبحانه الخلق بابطال هذه الجهات من بلاء لا يقدر قدره ولا يمكن وصفه * ولما أبطل السلطان هذه الجهات وفرغ من تميين الاقطاعات للامراء والاجناد أفرز لخاص السلطان من بلاد أرض مصر عدة نواح مما كان فى اقطاعات البرجية وهى الجيزة وأعمالها وهو والكوم الاحمر ومنفلوط والمرج والخصوص وغير ذلك مما بلغ عشرة قراريط من الاقليم وصار لاقطاعات

الامراء والاجناد وغيرهم أربعة عشر قيراطا ومكر الاقباط فيما أمكنهم المكر فيه فبدؤا بأن أضعفوا عسكر مصر ففرقوا الاقطاع الواحد فى عدة جهات فصار بعض الجبي فى الصعيد وبعضه في الشرقية وبعضه فى الغربية اتعاباً للجندى وتكثيراً للكلفة وأفردوا جوالي الذمة من الخاص وفرقوها فى البلاد التي أقطعت للامراء والاجناد فان النصارى كانوا مجتمعين في ديوان واحد كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى فصار نصارى كل بلد يدفعون جاليتهم الى مقطع تلك الضيعة فاتسع مجال النصارى وصاروا يتنقلون في القرى ولا يدفعون من جزيتهم الا ما يريدون فقل متحصل هذه الجهة بعد كثرته وأفردوا ما بقى من جهات المكوس برسم الحوائج خاناه التى تصرف للسماط ليتناولوا ذلك ويوردوا منه ما شاؤا ثم يتولوا صرف ما يحصل منه فى جهات تستهلك بالاكل وصارت جهات المكوس مما يتحدث فيه الوزير وشاد الدواوين * ثم نظر السلطان فيما كان بيد الاميرين بيبرس الجاشنكير وسلار نائب السلطنة من البلاد فأخذ ما كان باسم كل منهما وباسم حواشيه ولم يدع من ذلك شيأ مما كانوا قد وقفوه حتي حله وجعل الجميع اقطاعات واعتد فى سائر الاقطاعات بما كان يستهديه المقطع من فلاحه بحسب ذلك وأقامه من جملة عبر الاقطاع وأبطل الهدية فلم يتهيأ له الفراغ من ذلك الى آخر السنة فلما أهل المحرم من سنة ست عشرة وسبعمائة وقد نظمت الحسبانات على ثلث مغل سنة خمس عشرة جلس السلطان في الايوان الذى استجده بقلعة الجبل وقد تقدم لسائر نقباء الاجناد على لسان نقيب الجيش بالحضور باجنادهم وجعل للعرض فى كل يوم أميرين من الامراء المقدمين بمضافيهما فكان الامير مقدم الالف يقف ومعه مضافوه وناظر الجيش يستدعيهم من تقدمة ذلك الامير باسمائهم على قدر منازلهم فيقدم نقيب الجيش الواحد بعد الواحد من يد نقيبه الى ما بين يدى السلطان فاذا مثل بحضرته سأله السلطان بنفسه من غير واسطة عن اسمه وأصله وجنسه ووقت حضوره الى ديار مصر ومع من قدم والى من صار من الامراء وغيرهم وعن مشاهده التى حضرها في الغزو وعما يعرفه من صناعة الحرب وغير ذلك من الاستقصاء فاذا انتهى استفهامه اياه ناوله بيده مثالا من غير تأمل بحسب ما قسم الله له فلم يمر به في مدة العرض احد إلا وقد عرفه وأشار الى الامراء بذكر شيء من خبره هذا وقد تقدم الى سائر الامراء بأسرهم بأن يحضروا الى الايوان عند العرض ولا يعارض أحد منهم السلطان في شيء يفعله فكانوا يحضرون وهم سكوت لايتكلم أحد منهم خوفا من مخالفة السلطان لما يقوله وأخذ السلطان فى مواربة الامراء فما أثنوا على أحد فى مجالس العرض الا وأعطاه السلطان مثالا باقطاع ردىء فلما علموا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة وانفرد بالاستبداد باموره دونهم فما عرف منه أنه قدم اليه أحد الاوسأله ان كان مملوكا عمن أقدمه من التجار وسائر ما تقدم وان كان شيخا فعن أصله وسنه وكم

مصاف حضرها حتى أتى على الجميع وأفرد المشائخ العاجزين فلم يعطهم اقطاعات وجعل لكل منهم مرتبا يقوم به فانتهى العرض في طول المحرم وتوفر كثير من مثالات الاجناد فبلغ عدة مائتي مثال ثم أخذ في عرض أطباق المماليك السلطانية ووفر من جوامكهم كثيرا وقطع عدة رواتب من رواتبهم وعوضهم عن ذلك اقطاعات وجعل جهة مكس قطيا لضعفاء الاجناد ممن قطع خبزه فجعل لكل منهم في السنة ثلاثة آلاف درهم .وكان لبيبرس وسلار الجوكندار تعلقات كثيرة في بيت المال وفى الاعمال كالجيزة والاسكندرية من متجر وحمايات فارتجع ذلك وأبطله وما شابهه وأضاف ما لم يقطعه الى ديوان الخاص ومما أمر به في مدة العرض أن لا يرد أحد مثالا أخذه من السلطان ولو استقله ولا يشفع أمير فى جندى وان من خالف ذلك ضرب وحبس ونفي وقطع خبزه فعظمت مهابة السلطان وقويت حرمته ولم يجسر أحد أن يرد عليه مثالا أخذ من السلطان ولا استطاع امير أن يتكلم لاحد وصار كثير ممن كان اقطاعه مثلا ألف دينار الى اقطاع مائتي دينار ونحوها وكثير ممن كان اقطاعه قليلا الى اقطاع معتبر فانه كان يعطي المثال من غير تأمل كيفما وقعت يده عليه وقدر الله سبحانه وتعالى أن السلطان كان من جملة صبيان مطبخه رجل مضحك يهزل بحضرته فيضحك منه ويعجب به ولا يعترض فيما يقول من السخف فجلس السلطان في بعض أيام العرض في البستان بقلعة الجبل وعنده الخاصة من الامراء فدخل هذا المضحك وأخذ فى السخرية على عادته ليضحك السلطان الى أن قال وجدت بعض أجناد الروك الناصرى وهو راكب الاكديش وخرجه خلفه ورمحه فوق كتفه يقصد بهذا السخرية والطعن فغضب السلطان غضبا شديدا وصاح خذوه وعروه ثيابه فتبادره الاعوان وجروه برجله ونزعوا ثيابه وربطوه فى الساقية مع القواديس واكثروا من ضرب الابقار حتي أسرعت بدوران الساقية فصار المسكين ينقلب مع القواديس ويغطس في الماء تارة ويرقي اخرى ثم ينتكس والماء يمر عليه مقدار ساعة الى أن انقطع حسه وأشرف على الهلاك واشتد رعب الامراء لما رأوا من قوة غضب السلطان ثم تقدم الامير طغاى الدوادار في طائفة من الامراء الخاصكية واعتذروا عن هذا المسكين بأنه لم يرد الا أن يضحك السلطان من كلامه ولم يقصد عيب الاجناد ولا انتقاصهم ونحو هذا من القول الى أن أمر بحله فاذا ليس فيه حركة فسحب ورسم السلطان بأنه ان كان حيالا يبيت بديار مصر فأخرج من وقته منفيا وحمد الله كل من الامراء على ما وفقه من السكوت عن الكلام في حال العرض وما زال الامر بمصر على ما رسمه الملك الناصر في هذا الروك الى أن زالت دولة بنى قلاون بالملك الظاهر برقوق في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة فأبقى الأمر على ذلك الا أن أشياء منه اخذت تتلاشى قليلا قليلا الى ان كانت الحوادث والمحن في سنة ست وثمانمائة حيث حدث

من أنواع التغيرات وتنوع الظلم ما لم يخطر ببال أحد وسيمر بك جمل من ذلك عند ذكر أسباب خراب اقليم مصر ان شاء الله تعالى وكانت لاراضى مصر تقاو مخلدة في نواحيها وهى على قسمين تقاو سلطانية وتقاو بلدية فالتقاوي السلطانية وضعها الملوك في النواحي وكان الامير أوالجندى عند ما يستقر على الاقطاع يقبض ماله من التقاوى السلطانية فاذا خرج عنه طولب بها فلما كان الروك الناصرى خلدت تقاوي كل ناحية بها وضبطت في الديوان السلطاني فبلغت جملتها مائة ألف وستين ألف أردب سوى التقاوى البلدية

ذكر الديوان

قال أقضى القضاة أبو الحسن الماوردى الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال وفي تسميته ديوانا وجهان أحدهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال ديوانه أى مجانين فسمي موضعهم بهذا الاسم ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا للاسم فقيل ديوان والثاني أن الديوان اسم بالفارسية للشياطين فسمي الكتاب باسمهم لحذقهم بالامور ووقوفهم على الجلى والخفى وجمعهم لماشذ وتفرق واطلاعهم على ما قرب وبعد ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان انتهى واعلم أن كتابة الديوان على ثلاثة أقسام كتابة الجيوش وكتابة الخراج وكتابة الانشاء والمكاتبات ولابد لكل دولة من استعمال هذه الاقسام الثلاثة وقد أفرد العلماء في كتابة الخراج وفي كتابة الانشاآت عدة مصنفات ولم أر أحدا جمع شيأ في كتابة الجيوش والعساكر وكانت كتابة الدواوين في صدر الاسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفا مدرجة فلما انقضت أيام بني أمية وقام عبد الله بن محمد أبو العباس السفاح استوزر خالد بن برمك بعد أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال فجعل الدفاتر فى الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج الى أن تصرف جعفر بن يحي بن خالد بن برمك في الامور أيام الرشيد فاتخذ الكاغذ وتداوله الناس من بعده الى اليوم * وذكر أبو النمر الوراق قال حدثني أبو حازم القاضى قال قال لى أبو الحسن بن المدبر لو عمرت مصر كلها لوفت بأعمال الدنيا وقال ان أرض مصر مساحتها للزراعة ثمانية وعشرون ألف ألف فدان وانما المعمر منها ألف ألف فدان قال وقال لى ابن المدبر أنه كان يتقلد ديوان المشرق وديوان المغرب قال ولم أبت قط ليلة من الليالي حتى أنهيه ولا بقيته وتقلدت مصر فكنت ربما نمت وقد بقي علي شيء من العمل فاستتمه اذا أصبحت

ذكر ديوان العساكر والجيوش

يقال ان أول من وضع ديوان الجند بخيلهم كيهراسف أحد ملوك الطبقة الثانية من

الفرس وان كيقباذ قبله كان قد أخذ العشر من الغلات وصرفه في ارزاق جنده وأما في الاسلام فماخرجه البخارى ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم اكتبوا لى من تلفظ بالاسلام من الناس فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل الحديث ذكره البخارى في باب كتابة الامام الناس وللبخارى من حديث عبد لله بن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني اكتتبت في غزوة كذا وكذا وامرأتى حاجة قال ارجع فاحجج مع امرأتك وقال عمرو بن منبه عن معمر عن قتادة قال آخر ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ثمانمائة ألف درهم من البحرين فماقام من مجلسه حتى أمضاه ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم بيت مال ولا لأبى بكر وأول من اتخذ بيت مال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال ابن شهاب عمر أول من دون الدواوين وروى ابن سعد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قسم أبى الفيء عام أول فأعطى الحر عشرة والمملوك عشرة والمرأة عشرة وأمتها عشرة ثم قسم العام الثاني فأعطاهم عشرين عشرين فقيل ان سببه أن أباهريرة رضى الله عنه قدم على عمر رضى الله عنه بمال من البحرين فقال له عمر ماذا جئت به فقال خمسمائة ألف درهم فاستكثره عمر وقال أتدرى ماتقول قال نعم مائة ألف خمس مرات فقال عمر أطيب هو قال لا أدرى فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثني عليه ثم قال أيها الناس قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلنا لكم كيلا وان شئتم عددنا لكم عدا فقام اليه رجل فقال ياأمير المؤمنين قد رأيت الاعاجم يدونون ديوانا لهم فدون أنت ديوانا فدون عمر * وقيل بل سببه أن عمر بعث بعثا وعنده الهرمزان فقال لعمر هذا بعث قد أعطيت أهله الاموال فان تخلف منهم رجل من أين يعلم صاحبك به فأثبت لهم ديوانا فسأله عن الديوان حتي فسره له فاستشار المسلمين في تدوين الدواوين فقال له على بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع عندك من المال ولا تمسك منه شيأ وقال عثمان رضى الله تعالى عنه أري مالا كثيرا يسع الناس فان لم يحصوا حتي يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الامر وقال خالد ابن الوليد رضى الله عنه قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جنودا فدون ديوانا وجند جنودا فأخذ بقوله ودعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش فقال اكتبوا الناس على منازلهم فبدؤا ببني هاشم وكتبوهم ثم أتبعوهم أولاد أبي بكر وقومه ثم عمر وقومه وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ثم رفعوا ذلك الى عمر رضى الله عنه فلما نظر فيه قال لا ولكن أبدؤا بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الاقرب فالاقرب حتي تضعوا عمر حيث وضعه الله فشكره العباس رضى الله عنه على ذلك وقال وصلت رحمك وقد اختلف في السنة التى فرض فيها عمر رضى الله عنه الاعطية ودون الدواوين فقال الكلبي في سنة خمس عشرة وحكى ابن سعد عن عمر

الواقدى أنه جعل ذلك فى سنة عشرين قال الزهرى وكان ذلك في المحرم سنة عشرين من الهجرة وقيل لما فتح الله على المسلمين القادسية وقدمت على عمر رضى الله عنه الفتوح من الشام جمع المسلمين وقال مايحل للوالى من هذا المال فقالوا جميعا أما الخاصة فقوته وقوت عياله لا وكس ولا شطط وكسوته وكسوتهم للشتاء والصيف ودابتان الى جهاده وحوائجه وحملانه الى حجته وعمرته والقسم بالسوية وأن يعطي أهل البلاد على قدر بلادهم ويرم امور الناس بعد ويتعاهدهم في الشدائد والنوازل حتى تنكشف ويبدأ بأهل الفئ ثم يجوزهم الى كل مغلوب ما بلغ الفئ وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما لما افتتحت القادسية وصالح من صالح من أهل السواد وافتتحت دمشق وصالح أهل الشام قال عمر رضى الله عنه للناس اجتمعوا فأحضرونى علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأى على وعمر رضى الله عنهما أن يأخذوه من قبل القرآن فقالوا ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى يعنى من الخمس فلله وللرسول يعني من الله الامر وعلى الرسول القسم ولذي القربى واليتامى والمساكين ثم فسروا ذلك بالآية الاخرى التي تليها للفقراء المهاجرين الآية فأخذوا أربعة الاخماس على ما قسم عليه الخمس فيمن بدئ به وثني وثلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك بقوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ فان لله خمسه الآية من تلك الطبقات الثلاث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه فقسم الاخماس على ذلك فاجتمع على ذلك عمر وعلى وعمل به المسلمون بعد ذلك فبدأ بالمهاجرين ثم الانصار ثم التابعين الذين شهدوا معهم وأعانوهم ثم فرض الاعطية من الجزا على من صالح أودعا الى الصلح من حرابة فرده عليهم بالمعروف وليس فى الجزا أخماس الجزا لمن منع الذمة ووفى لهم ممن ولى ذلك منهم ولمن لحق بهم فأعانهم باسوة الا أن يواسوا بفضله عن طيب أنفس منهم من لم ينل مثل الذى نالوا وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال عمر رضي الله عنه اني مجند المسلمين على الاعطية ومدونهم ومتحرى الحق فقال عبد الرحمن بن عوف وعثمان وعلى رضي الله عنهم ابدأ بنفسك قال لا أبدأ الا بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الاقرب فالاقرب منهم من رسول الله ففرض للعباس وبدأ به ثم فرض لاهل بدر خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية أربعة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية الى أن أقلع أبو بكر رضي الله عنه عن أهل الردة ثلاثة آلاف ودخل في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية كل هؤلاء على ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية وأهل الشام أصحاب اليرموك ألفين ألفين وفرض لاهل البلاد النازح منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة فقيل له لو ألحقت أهل القادسية بأهل الايام فقال لم أكن لالحقهم بدرجة من لم يدركوا لاها الله أذن وقيل له قد سويتهم على بعد دارهم بمن قد قربت

داره وقاتل عن فنائه فقال هم كانوا أحق بالزيادة لانهم كانوا رده الحقوق وشجي للعدو وايم الله ماسويتهم حتى استطبتهم فهلا قال المهاجرون مثل قولهم حين سوينا بين السابقين من المهاجرين وبين الانصار وقد كانت نصرة الانصار بفنائهم وهاجر اليهم المهاجرون من بعد وفرض للروادف الذين ردفوا بعد افتتاح القادسية واليرموك بعد الفتح ثلثمائة ثلثمائة سوى كل طبقة في العطاء ليس بينهم تفاضل قويهم وضعيفهم عربيهم واعجميهم في طبقاتهم سواء حتى اذا حوى أهل الامصار من حووا من سباياهم وردفت المربع من الروادف فرض لهم على خمسين ومائتين وفرض لمن ردف من الروادف الخمس على مائتين فكان آخر من فرض له عمر رضى الله عنه أهل هجر على مائتين ومات عمر على ذلك وأدخل في أهل بدر أربعة من غير أهل بدر الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان وقال أبو سلمة فرض عمر للعباس على خمسة وعشرين ألفا وقال الزهرى على اثنى عشر ألفا وجعل نساء أهل بدر الى الحديبية على أربعمائة أربعمائة ونساء من بعد ذلك الى الايام قبل القادسية على ثلثمائة ثلثمائة ثم نساء أهل القادسية على مائتين مائتين ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل للصبيان من أهل بدر وغيرهم مائة مائة ثم دعا ستين مسكينا فأطعمهم خبزا بملح فأحصوا ما أكلوه فوجدوه يخرج من جزيتين ففرض لكل انسان يقوم بالامر له ولعياله جزيتين جزيتين فى كل شهر مسلمهم وكافرهم وفرض لازواج النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف عشرة آلاف الا من جرى عليه البيع فقالت أمهات المؤمنين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضلنا عليهن في القسمة ولكن كان يسوى بيننا فسو بيننا فجعلهن على عشرة آلاف عشرة آلاف وفضل عائشة رضى الله عنها بألفين فأبت فقال لفضل منزلتك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أخذتها فشأنك وكان الناس أعشارا فكانت العرفاء ثلاثة آلاف عريف كل عريف على عشرة ورزق الخيل على اعرافها فما زالوا كذلك حتى اختطت الكوفة والبصرة فغيرت العرفاء والاعشار وجعلت أسباعا وجعل مائة عريف على كل مائة ألف درهم عريف وكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة وأربعين رجلا وثلاثا وأربعين امرأة وخمسين من العيال لهم مائة ألف درهم وكل عرافة من أهل الايام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة ولكل عيل مائة على مائة ألف درهم وكل عرافة من الرادفة الاولى ستين رجلا وستين امرأة وأربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم وكان العطاء يدفع الى أمراء الاسباع وأصحاب الرايات والرايات على ايادى العرب فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والامناء فيدفعونه الى أهله في دورهم فمات عمر رضى الله عنه والامر على ذلك وقد عزم قبل موته أن يجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف وقال لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف ألف يخلفها الرجل

في أهله وألف يتزودها معه فى سفره وألف يتجهز بها وألف يترفق بها فمات وهو في ارتياد ذلك قبل أن يفعل وكان يقرى البعوث على قدر المسافة ان كان بعيدا فسنة وان كان دون ذلك فستة أشهر فاذا أخل الرجل بثغره نزعت عمامته وأقيم في مسجد حيه فقيل هذا فلان قد أخل وقال سيف بن عمر أول عطاء أخذ سنة خمس عشرة وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه يبعث من مصر الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه فلما استخلف عثمان رضى الله عنه لثلاث مضين من المحرم سنة أربع وعشرين زاد الناس مائة وكان أول من زاد ورفد أهل الامصار وهو أول من رفدهم وصنع فيهم الصنائع فاستن به الخلفاء في الزيادة وكان عمر قد فرض لكل نفس منفوسة من أهل الفيء في رمضان درهما فى كل يوم وفرض لامهات المؤمنين درهمين فقيل له لو صنعت لهم به طعاما فجمعتهم عليه فقال أشبعوا الناس فى بيوتهم فاقر عثمان رضى الله عنه ذلك وزاد فوضع لهم طعام رمضان وقال هو للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد ولابن السبيل وللمعترين بالناس في رمضان فاقتدى به الخلفاء من بعده * وكان بمصر في خلافة معاوية بن أبي سفيان أربعون ألفا وكان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين وكان انما يحمل الى معاوية ستمائة ألف دينار عن فضل أعطيات الجند وما يصرف الى الناس وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه وعياله فاذا فرغ من القبيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك وأعطى مسلمة ابن مخلد الانصاري أمير مصر أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح الى الحجاز وبعث الى معاوية ستمائة ألف دينار فضلا وأول تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه ثم دون عبد العزيز بن مروان تدوينا ثانيا ودون قرة بن شريك التدوين الثالث ثم دون بشر بن صفوان تدوينا رابعا ثم لم يكن بعد تدوين بشر شيء له ذكر الا ما كان من الحاق قيس بالديوان في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان فلما انقرضت دولة بني أمية وغلبت المسودة بنو العباس أحدثوا أشياء حتى اذا مات عبد الله المأمون بن هرون الرشيد لسبع خلون من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين وبويع أخوه المعتصم أبو اسحاق محمد بن هرون كتب الى كندر بن نصر الصفدي أمير مصر يأمره باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم ففعل ذلك وكان مروان بن محمد الجعدي آخر خلائف بنى أمية قطع عن أهل مصر العطاء سنة ثم كتب اليهم كتابا يعتذر فيه اني انما حبست عنكم العطاء في السنة الماضية لعدو حضرني فاحتجت الى المال وقد وجهت اليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه

السنة فكلوه هنيئاً مريئاً وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه
ولما قطع كندر عطاء أهل مصر خرج يحيي بن الوزير الجروي في جمع من لخم وجذام
وقال له هذا أمر لايقوم فينا أفضل منه لانا منعنا حقنا وفيئنا فاجتمع اليه نحو خمسمائة رجل
ومات كندر في ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومائتين وولي ابنه المظفر مصر من بعده
فسار الى يحيي وقاتله في بحيرة تنيس وأخذه أسيرا فانقرضت دولة العرب من مصر وصار
جندها العجم والموالي من عهد المعتصم الى أن ولي الامير أبو العباس أحمد بن طولون مصر
فاستكثر من العبيد وبلغت عدتهم زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركي وأربعين ألف
أسود وسبعة آلاف حر مرتزق ثم استجد ابنه الامير أبو الجيش خمارويه بعده عدة من
شناترة حوف مصر فلما كانت امارة الامير أبي بكر محمد بن طغج الاخشيد على مصر بلغت عدة
عساكره بمصر والشام اربعمائة ألف تشتمل على عدة طوائف ثم ان الاستاذ أبا المسك
كافورا الاخشيدي استجد عدة من السودان في أيام تحكمه بمصر فلما تغلب الامام المعز
لدين الله أبو تميم معد الفاطمي على مصر صارت عساكرها مابين كتامة وزويلة ونحوهما من
طوائف البربر وفيهم الروم والصقالبة وهم في العدد كما قيل * ومنهم معد * ولم تسكن
جيوشه تعد * ولا لما أوتيه كان حد * من كل ما يسعد فيه جد * وحتى قيل انه لم يطأ
الارض بعد جيش الاسكندر بن فليبش المقدوني أكثر عددا من جيوش المعز فلما قام في
الخلافة بمصر من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار استخدم الديلم والاتراك واختص
بهم * وذكر الامير المختار عبدالملك المسبحي في تاريخه أن خزانة الخاص حملها لما خرج العزيز
الى الشام عشرون ألف جمل خارجا عن خزائن القواد وأكابر الدولة * وذكر ابن ميسر
في تاريخه أن عبيد السيدة أم المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبي الحسن
على بن الحاكم بامر الله أبي علي منصور بن العزيز بالله خاصة كانت عدتهم خمسين ألف عبد
سوى طوائف العسكر ورأيت بخط الاسعد بن مماتي أن عدة الجيوش بمصر في أيام رزيك
ابن الصالح طلائع بن رزيك كانت أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف راجل وزاد غيره
وعشرة شواني بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية فلما زالت
دولتهم على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أزال جند مصر من العبيد
السود والامراء المصريين والعربان والارمن وغيرهم واستجد عسكرا من الاكراد والاتراك
خاصة وبلغت عدة عساكره بمصر اثنى عشر ألف فارس لاغير فلما مات افترقت من بعده ولم يبق
بمصر مع ابنه الملك العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس وخمسمائة فارس الا أن فيهم من له عشرة اتباع
وفيهم من له عشرون وفيهم من له أكثر من ذلك الى مائة تبع لرجل واحد من الجند فكانوا
اذا ركبوا ظاهر القاهرة يزيدون على مائتي ألف ثم لم يزالوا فى افتراق واختلاف حتى زالت

دولتهم بقيام عبيدهم المماليك الاتراك فحذوا حذو مواليهم بني أيوب واقتصروا على الاتراك وشيء من الاكراد واستجدوا من المماليك التي تجلب من بلاد الترك شيأ كثيرا حتي يقال ان عدة مماليك الملك المنصور قلاون كانت سبعة آلاف مملوك ويقال اثني عشر ألفا وكانت عدة مماليك ولده الاشرف خليل بن قلاون اثني عشر الف مملوك ثم لم تبلغ بعد ذلك قريبا من هذا الى أن زالت دولة بني قلاون فى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة بالملك الظاهر برقوق فاخذ في محو المماليك الاشرفيـة وأنشأ لنفسه دولة من المماليك الجركسية بلغت عدتهم مابين مشترى ومستخدم أربعة آلاف أو تزيد قليلا فلما قام من بعده ابنه الناصر فرج افترقوا واختلفوا فلم يقتل حتى هلك كثير منهم بالقتل وغيره وعساكر مصرفى الدولة التركية على قسمين أجناد الحلقة والمماليك السلطانية واكثر ماكانت أجناد الحلقة في ايام الناصر محمد بن قلاون فانها بلغت على مارأيتـه في جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصرى أربعة وعشرين ألف فارس ثم مازالت تنقص حتى صارت اليوم مع قلة عدتها سواء منها الالف والواحد فانها لاتنفع ولا تدفع وأما المماليك فانها اليوم قليل عددها بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية لاتكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس يصلح منها لان يباشر القتال ألف أو دونها وهي اليوم قسمان أجناد الحلقة والمماليك السلطانية والمماليك السلطانية ثلاثة أقسام ظاهرية وناصرية ومؤيدية والمؤيدية مابين حكمية ونوروزية ومن استجده المؤيد وان خوفى ليكثر أن يكون الحال بعد الملك المؤيد أبى النصر شيخ خلد الله ملكه يتلاشى الى أن يؤيد الله الملك بابنه الامير صارم الدين ابراهيم شد الله به أزره فانه فتح من البلاد الرومية مالا ملكه أحد من ملوك مصر فى الدولة الاسلامية قبله * والشبل فى المخبر مثل الاسد * وابن السري اذا سرى اسراهما * ولا غرو أن يحذو الفتي حذو والده * بأبه اقتدى عدى في الكرم * ومن يشابه أبه فما ظلم * ان الاصول عليها ينبت الشجر * ثم لما ملك الاشرف برسباى صارت المماليك سبع طوائف ظاهرية وناصرية ومؤيدية ونوروزية وحكمية وططرية واشرفية كل طائفة منها مباينة لجميعها فلذلك اضمحلت شوكتهم وانكسرت حدتهم وأمنت على السلطان غائلتهم ولم يخف ثورتهم لتفرقهم وان كانوا مجتمعين وتباينهم وان كانوا في الظاهر متفقين واعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن أمير المومنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تجبى أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء أو العمال والاجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال الامر على ذلك الى أن كانت دولة العجم فغير هذا الرسم وفرقت الاراضى اقطاعات على الجند وأول من عرف أنه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك ابو على الحسن بن على بن اسحاق بن العباس الطوسى وزير البرشلان بن داود

ابن ميكال بن سلجوق ثم وزر ابنه ملكشاه بن البرشلان وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم الى كل مقطع قرية أو اكثر أو أقل على قدر اقطاعه لانه رأى أن في تسليم الاراضى الى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعها بأمرها بخلاف ما اذا شمل جميع اعمال المملكة ديوان واحد فان الخرق يتسع ويدخل الخلل فى البلاد ففعل نظام الملك ذلك وعمرت به البلاد وكثرت الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين واربعمائة الى يومنا هذا وكانت الخلفاء ترزق من بيت المال فذكر عطاء بن السائب فى حديث أن أبا بكر رضى الله عنه لما استخلف فرض له كل يوم شطر شاة وما يكسى به الرأس والبطن وذكر عن حميد بن هلال أنه فرض له بردان اذا أخلقهما وضعهما واخذ مثلهما وظهره اذا سافر ونفقته علي أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف وذكر ابن الاثير في تاريخه أن الذى فرضوا له ستة آلاف درهم في السنة وفرض لعمر بن الخطاب رضى الله عنه لما استخلف مايصلحه ويصلح عياله بالمعروف وقال له على رضى الله عنه ليس لك غيره فقال القوم القول ماقال على يأخذ قوته وفرض عمر لمعاوية بن ابي سفيان على عمله في الشام عشرة آلاف دينار في السنة وقيل بل رزقه ألف دينار وهو أشبه

ذكر القطائع والاقطاعات

يقال اقتطع طائفة من الشئ أخذها والقطيعة ما اقتطعه منه وأقطعني اياها اذن لى في اقتطاعها واستقطعه اياها سأله أن يقطعه اياها واقطعه نهرا وأرضا أباح له ذلك وقد أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتألف على الاسلام قوما وأقطع الخلفاء من بعده من رأوا في اقطاعه صلاحا * روى ابن أبي نجيح عن عمرو بن شعيب عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضا فلم يعمروها فجاء قوم فعمروها فخاصمهم الجهنيون أو المزينيون الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر لو كانت منى أو من أبي بكر لرددتها ولكنها قطيعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لايعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها * وقال هشام بن عروة عن أبيه أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير أرضا فيها نخل من أموال بني النضير وذكر أنها أرض يقال لها الجرف * وذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقطع العقيق أجمع الناس حتى جازت قطيعة عروة فقال ابن الزبير المستقطعون فند اليوم فان يك فيه خير فتحت قدمى قال خوات بن جبير أقطعنيه فأقطعه أياه وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أقطع أبا بكر وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وقال أشعث بن سوار عن حبيب بن أبي ثابت عن صلت المكي عن أبي رافع قال أعطى النبي صلى الله عليه وسلم قوما أرضا فعجزوا عن عمارتها فباعوها في زمن عمر بن

الخطاب رضى الله عنه بثمانية آلاف دينار أو بثمانمائة ألف درهم فوضعوا أموالهم عند على
ابن ابى طالب رضى الله عنـه فلما اخذوها وجدوها ناقصة فقالوا هذا ناقص قال احسبوا
زكاته قال فحسبوا زكاته فوجدوه وافيا فقال أحسبتم أن أمسك مالا ولا ازكيه وقد سأل
تميم الدارى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطعه عيون البلد الذى كان منه بالشام قبل
فتحه ففعل وسأله ابو ثعلبة الخشني أن يقطعه ارضا كانت بيـد الروم فأعجبه ذلك وقال ألا
تسمعون ما يقول فقال والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك فكتب له بذلك كتابا وقال ثابت
ابن سعد عن ابيه عن جده ان الابيض بن جمال استقطع رسول الله صلى الله عليـه وسلم
ملح مارب فأقطعه فقـال الاقرع بن حابس التميمي يارسول الله انى وردت هـذا الملح في
الجاهلية وهو بأرض ليس فيها ملح من ورده اخذه وهو مثل الماء العذب بالارض فاستقال
الابيض فقال قد أقلتك على أن تجعله مني صدقة فقال النبى صلى الله عليـه وسلم هو منك
صدقة وهو مثل الماء العذب من ورده أخذه وقال كثير بن عبـد الله بن عوف المزنى عن
ابيه عن جده أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلال بن الحارث المعادن القبلية جليهـا
وغورتها وقال مالك عن ربيعة عن قوم من علمائهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطع
بلال بن الحرث المزنى معادن بناحية الفرع * وعن ربيعة عن الحرث بن بلال عن ابيه بلال بن
الحرث أن النبى صلى الله عليـه وسلم أقطعه العقيق أجمع وعن حماد بن سلمة عن ابى مكين
عن ابى عكرمة مولى بلال بن الحرث قال أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا ارضا
فيها جبل معدن فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضا منها فظهر فيها معدن أوقال معدنان
فقالوا انما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن وجاؤا بكتاب النبي صلى الله عليـه وسلم لهم
في جريدة فقبلها عمر وفتح ومسح بها عينيه وقال لقيمه أنظر ماخرج منها وما أنفقت فقاصهم
بالنفقة ورد عليهم الفضل واصطفى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أرض السواد أموال
كسري وأهل بيته وما هرب عنه أربابه أو هلكوا فكان مبلغ غلته تسعة آلاف ألف درهم
كان يصرفها في مصالح المسلمين ولم يقطع شيئاً منها ثم ان عثمان رضي الله عنـه أقطعها لانه
رأى اقطاعهـا أوفر لغلتها من تعطيلها وشرط على من أقطعها أن يأخذ منه حق الفيء فكان
مبلغ غلته خمسين ألف ألف درهم كان منها صلاته وعطاياه ثم تناقلها الخلفاء بعـده فلما
كان عام الجماجم سنة اثنتين وثمانين فى فتنة عبدالرحمن بن الاشعث أحرق الديوان وأخذ كل
قوم مايليهم وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابن سندر منية الاصبغ فحاز منها لنفسه
ألف فدان وقال وكيع عن سفيان عن جابر الجعفى عن عامر لم يقطع أبو بكر ولا عمر ولا
على رضى الله عنهم وأول من أقطع القطائع عثمان رضى الله عنه وبيعت الارضون في خلافة
عثمان قال الليث بن سعد ولم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحدا من الناس شيئاً من أرض

مصر الا ابن سندر فانه أقطعه أرض منية الاصبغ فلم تزل له حتى مات فاشتراها الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل وقال الاعمش عن ابراهيم بن المهاجر عن موسى بن طلحة قال أقطع عثمان رضى الله عنه عبد الله بن مسعود النهرين وعمار بن ياسر اسنسا واقطع خبابا وصهيبا واقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز وكان عبد الله بن مسعود وسعد يعطيان أرضهما بالثلث والربع * وقال سيف بن عمر عن عمرو بن محمد عن عامر قال اقطع الزبير وخباب وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وابن هبار أزمان عثمان فان يكن عثمان اخطأ فالذين قبلوا منه الخطأ أخطأوا وهم الذين أخذنا عنهم ديننا وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلحة وجرير بن عبد الله والربيل بن عمرو وأقطع أبا مفرز دار النيل في عدة ممن أخذنا عنه وانما القطائع على وجه النفل من خمس ما أفاء الله وكتب عمر رضى الله عنه الى عثمان بن حنيف مع جرير بن عبد الله البجلي أما بعد فأقطع جرير بن عبد الله قدر ما يقوته لا وكس ولا شطط فكتب عثمان الى عمر ان جريرا قدم علىّ بكتاب منك نقطعه ما يقوته فكرهت أن أمضى ذلك حتى أراجعك فيه فكتب اليه صدق جرير فأنفذ ذلك وقد أحسنت في مؤامرتي وأقطع أبو موسى الاشعرى وأقطع على بن أبى طالب رحبة كردوس بن هاني واقطع سويد بن غفلة الجعفى قال سيف عن ثابت بن هريمة عن سويد بن غفلة قال استقطعت عليا فقال ا كتب هذا ما أقطع على سويدا أرضا لدوابه ما بين كذا الى كذا ماشاء الله وذكر أبو القسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكم ما أقطعه معاوية بن أبى سفيان ومن بعده من الخلفاء من دور مصر فأورد شيئاً كثيرا * وقد كان خلفاء بني أمية وخلفاء بنى العباس يقطعون الاراضى من أرض مصر النفر من خواصهم لا كما هو الحال اليوم بل يكون مال خراج أرض مصر يصرف منه اعطية الجند وسائر الكلف ويحمل مايفضل الى بيت المال وما أقطع من الاراضى فانه بيد من أقطعه وأما منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الى يومنا هذا فان اراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده * وارض مصر اليوم على سبعة أقسام قسم يجرى في ديوان السلطان وهذا القسم ثلاثة أقسام منه ما يجرى في ديوان الخاص ومنه مايجرى في الديوان المفرد وقسم من أراضى مصر قد اقطع للامراء والاجناد وقد ذكر تفصيل ذلك عند ذكر الروك الناصري وقسم ثالث جعل وقفا محبسا على الجوامع والمدارس والخوانك وعلى جهات البر وعلى ذرارى واقفى تلك الاراضى وعتقائهم وقسم رابع يقال له الاحباس يجري فيه أراض بأيدي قوم يأكلونها اما عن قيامهم بمصالح مسجد أو جامع واما يكون لهم لافي مقابلة عمل * وقسم خامس قد صار ملكا يباع ويشترى ويورث ويوهب لكونه اشترى من بيت المال * وقسم سادس لايزرع

للعجز عن زراعته فترعاه المواشي أو ينبت الحطب ونحوه * وقسم سابع لايشمله ماء النيل فهو قفر وهذا القسم منه مالم يزل كذلك منذ عرفت احوال الخليقة ومنه ماكان عامرا في الدهر الاول ثم خرب وسائر هذه الاقسام مذكورة أخبارها في هذا الكتاب تجدها ان انت تأملته ان شاء الله تعالى وقال ابو عبد الله القاسم بن سلام في كتاب الاموال في الكلام على حديث معمر عن عبد الله بن طاوس عن ابيه طاوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عادي الارض لله ولرسوله ثم هى لكم قلت مامعنى ذلك قال تكون اقطاعا هذا الخبر اصل في الاقطاع والعادى كل ارض كان لها سكان فانقرضوا أى فصارت خرابا فان حكمها الى الامام قال وأما الارض التي جعلها النبى صلي الله عليه وسلم لبعض الناس وهى عامرة لها اهل فاعطاء الامام يكون على وجه النفل ومن ذلك ماأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم تميما الدارى فانه أعطاه ارضا بالشام من قبل أن يفتح الشام وقبل أن يملكها المسلمون فجعلها له نفلا من اموال اهل الحرب اذا ظهر عليهم كما فعل نائبه نفيلة لماوهبها الشيبانى قبل افتتاح الحيرة فامضاها له خالد بن الوليد رضى الله عنه وكذلك أمضى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتميم الدارى لما فتحت فلسطين ماكان النبي صلى الله عليه وسلم نفله انتهى فقد خرج ابو عبد الله هذه العطية المعلقة مخرج النفل الذى ينفله الامام بعض المقاتلة * وقال أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى في الاحكام السلطانية والاقطاع ضربان اقطاع استغلال واقطاع تمليك والثاني ينقسم الى موات وعامر والثانى ضربان احدهما مايتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه الا بتلك الارض فى حق لبيت المال اذا كانت في دار الاسلام فان كانت في دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الامام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها فانه يجوز فقد سأل تميم الدارى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيه عيون البلد الذي كان منه قبل أن يفتح الشام ففعل وسأله أبو ثعلبة الخشني أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم فأعجبه ذلك وقال ألا تسمعون مايقول هذا فقال والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك فكتب له بذلك كتابا قال الماوردى وهكذا لو استوهب أحد من الامام مالا في دار الحرب وهو على ملك أهلها أو استوهبه شيئاً من سبيها أو ذراريها ليكون أحق به اذا فتحت جاز وصحت العطية منه مع الجهالة بها لتعلقها بالامور العامة * وقد روى الشعبي أن خزيمة بن أوس الطائي قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان فتح الله عليك الحيرة فأعطني بنت نفيله فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة قال له خزيمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطانى بنت نفيله فلا تدخلها في صلحك فشهد له بشر بن سعد ومحمد بن مسلمة فاستثناها من الصلح ودفعها الى خزيمة فاشتريت بألف درهم وكانت عجزت وحالت عما عهد منها فقيل له قد أرخصتها وكان أهلها يدفعون لك أضعاف ماسألت فقال ما كنت أظن ان عددا يكون أكثر

من ألف قال الماوردى واذا صح الاقطاع والتمليك على هذا الوجه نظر حال الفتح فان كان صلحا خلصت الارض لمقطعها وكانت خارجة عن حكم الصلح بالاقطاع السابق وان كان الفتح عنوة كان المقطع والمستوهب أحق بما استقطعه واستوهبه من الغانمين ونظر في الغانمين فان كانوا علموا بالاقطاع أو الهبة قبل الفتح فليس لهم المطالبة بعوض وان لم يعلموا حتى فتحوا عاوضهم الامام بما يستطيب نفوسهم من غير ذلك من الغنائم وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لايلزم الامام استطابة نفوسهم منه ولا من غيره من الغنائم اذا رأى المصلحة في ذلك

ذكر ديوان الخراج والاموال

يقال لكتابة الخراج قلم التصريف وأول مادون هذا الديوان في الاسلام بدمشق والعراق على ما كان عليه قبل الاسلام وكان ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية وديوان مصر بالقبطية فنقلت دواوين هذه الامصار الى العربية والذى نقل ديوان مصر من القبطية الى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية وصرف انتناش عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص وأول من نقل الدواوين من الفارسية الى العربية الوليد بن هشام بن مخزوم ابن سليمان بن ذكوان وتوفى سنة اثنتين وعشرين ومائتين والاكثرون على أن الذى نقل ديوان العراق الى العربية صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج وكان مولى لبني سعد وهو يومئذ صاحب دواوين العراق وذلك بعد سنة ثمانين وسبب ذلك أن صالح بن عبد الرحمن هذا كان أبوه من سبي سجستان ومهر صالح في الكتابة وكتب لزادان فروح كاتب الحجاج ابن يوسف الثقفي وخط بين يديه بالفارسية والعربية نخف على قلب الحجاج نخاف من زادان وقال له أنت الذى رقيتني حتى وصلت الى الامير وأراه قد استخفنى ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلتك فقال زادان لاتظن ذلك هو أحوج الى مني اليه لانه لايجد من يكفيه حسابه غيرى فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته قال نحول منه أسطرا حتى أرى ففعل فقال له تمارض فتمارض فبعث اليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زادان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن زادان قتل في فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله فاستكتب الحجاج بعده صالحا فأعلم الحجاج بما جرى له مع زادان في نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في امضائه فنقله من الفارسية الى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مائة ألف درهم على أن لايظهر النقل فأبي عليهم فقال له مروان شاه بن زادان فروح قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية وكان عبد الحميد بن يحيي يقول لله در صالح ما أعظم منته على

الـكتاب وأما ديوان الشام فان الذى نقله من الروميـة الى العربيـة أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل واختلف في وقت نقله فقيـل نقل في خلافة عبـد الملك بن مروان وقيل في خلافة هشام بن عبـد الملك وكان الذى يكتب على ديوان الشام سرجون ابن منصور النصرانى في أيام معاوية بن أبي سفيان ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون

ذكر خراج مصر في الاسلام

أول من جبى خراج مصر في الاسلام عمرو بن العاص رضى الله عنه فكانت جبايته اثنى عشر ألف ألف دينار بفريضة دينارين دينارين من كل رجل ثم جبى عبدالله بن سعد ابن أبى سرح مصر أربعة عشر ألف ألف دينار فقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لعمرو بن العاص يا أباعبدالله درت اللقحة باكثر من درها الاول فقال أضررتم بولدها وهذا الذي جباه عمرو ثم عبد الله انما هو من الجماجم خاصة دون الخراج وانحط خراج مصر بعدهما النمو الفساد مع الزمان وسريان الخراب في أكثر الارض ووقوع الحروب فلم يجبها بنو أمية وخلفاء بنى العباس الادون الثلاثة آلاف ألف ماخلا أيام هشام بن عبدالملك فانه وصى عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر بالعمارة فيقال انه لم يظهر من خراج مصر بعـد تناقصه كثرة الا فى وقتين * أحدهما في خـلافة هشام بن عبد الملك عند ماولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب فخرج بنفسه ومسح العامر من أراضى مصر والغامر مما يركبه ماء النيل فوجد قانون ذلك ثلاثين ألف ألف فدان سوى ارتفاع الجرف ووسخ الارض فراكها كلها وعدلها غاية التعديل فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار هذا والسعر راخ والبلد بغير مكس ولا ضريبة وفي سنة سبع ومائة لاول أيام هشام بن عبد الملك وظف ابن الحبحاب بمصر طبقات معلومة منسوبة في الدواوين ولم تزل الى ما بعد ذهاب بنى امية ومبلغها ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وثمانمائة وسبعة وثلاثون دينارا منها على كور الصعيد ألف ألف واربعمائة دينار وعشرون دينارا ونصف والباقي على كور اسفل الارض ويقال ان اسامة بن زيد جباها فى خلافة سليمان بن عبد الملك مبلغ اثنى عشر ألف ألف دينار * والوقت الثاني فى امارة أحمد بن طولون لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر وقد خربت أرض مصر حتى بقى خراجها ثمانمائة ألف ألف دينار فاستقصى أحمد بن طولون فى العمارة وبالغ فيها فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار وجباها ابنه الامير أبو الجيش خمارويه بن أحمد أربعة آلاف ألف دينار مع رخاء الاسعار أيامئذ فانه ربما بيع في الايام الطولونية القمح كل عشرة أرادب بدينار * وذكرا بن خرداديه ان خراج مصر فى أيام فرعون كان ستة وتسعين ألف ألف دينار وان ابن الحبحاب جباها الفى ألف وسبعمائة ألف وثلاثة وعشرين ألفاً وثمانمائة وتسعة وثلاثين دينارا وهذا وهم منه فان هذا القدر هو ما حمله الى بيت المال بدمشق بعد

أعطية أهل مصر وكلفها قال وحمل منها موسى بن عيسى الهاشمي ألفي ألف ومائة ألف وثمانين ألف دينار يعني بعد العطاء والمؤن وسائر الكلف قال وكان خراج مصر اذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا بعشر أصابع أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار والمقبوض عن الفدان دينارين في خلافة المأمون وغيره وبلغ خراج مصر في ايام الامير أبي بكر محمد بن طفج الاخشيد ألفي ألف دينار سوى ضياعه التي كانت ملكا له والاخشيد أول من عمل الرواتب بمصر وكان كاتبه ابن كلا قد عمل تقديرا عجز فيه المرتب عن الارتفاع مائتي ألف دينار فقال له الاخشيد كيف نعمل قال حط من الجرايات والارزاق فليس هؤلاء اولى من الواجب فقال غدا تجيئني وندبر هذا فلما أتاه من الغد قال له الاخشيد قد فكرت فيما قلت فاذا أصحاب الرواتب الضعفاء وفيهم المستورون وأبناء النعم ولست آخذ هذا النقص الا منك فقال ابن كلا سبحان الله فقال تسبيحا وما زال به الاخشيد حتى أخذ خطه بالقيام بذلك فعوتب على ما صنعه فقال يا قوم اسمعوا ايش كان يعمل جاءه أحمد بن محمد بن المارداني فقال له ما بيني وبين السلطان معاملة ولا للاخشيد على طريق وهذه هدية عشرة آلاف دينار للاخشيد وألف دينار لك فجاءني وقال لك قبل ابن المارداني مطالبة فقلت لا فقال هذه ألف دينار قد جاءتك على وجه الماء فاعطاني ألفا وأخذ عشرة آلاف دينار وأهدى الى محمد بن على المارداني في وقت عشرين ألف دينار على يده فاستقللتها فلما اجتمعنا عاتبته فقال لي أرسلت اليك مائة ألف دينار ولابن كلا كاتبك عشرين ألف دينار فأخذ المائة واعطاني العشرين الفاً فذكرت قول محمد بن على له فقال ما أرد هذا حفظت لك المائة ألف لوقت حاجتك تريدها خذها وانا أعلم أنك تتلفها * (وبلغت الرواتب) في أيام كافور الاخشيدي خمسمائة ألف دينار في السنة لارباب النعم والمستورين واجناس الناس ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين في الاعمال فحسن له على بن صالح الروذبادى الكاتب أن يوفر من مال الرواتب شيأ ينتقصه من أرزاق الناس فساعة جلس يعمل حكه جبينه فحكه بقلمه والحكاك يزيد به الى أن قطع العمل وقام لما به فعولج حينئذ بالحديد حتى مات في رمضان سنة سبع وأربعين وثلثمائة وهذه موعظة من الله لمن توسط للناس بالسوء قال تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله * ولما مات كافور نزلت محن شديدة كثيرة بمصر من الغلاء والفناء والفتن فاتضع خراجها الى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر مولاه المعز لدين الله أبي تميم معد فجبى الخراج لسنة ثمان وخمسين وثلثمائة ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ونيفا وأمر الوزير الناصر للدين أبو الحسين عبد الرحمن اليازورى وزير مصر في خلافة المستنصر بالله بن الظاهر أن يعمل قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات فعمل ارباب كل ديوان

ارتفاعه وما عليه وسلم الجميع لمتولى ديوان المجلس وهو زمام الدواوين فنظم عليه عملا جامعا وأتاه به فوجد ارتفاع الدولة الفى الف دينار منها الشام الف الف دينار ونفقاته بازاء ارتفاعه والريف وباقى الدولة ألف ألف دينار * قال القاضى أبو الحسن فى كتاب المنهاج في علم الخراج وقفت على مقايسة عملت لامير الجيوش بدر الجمالى حين قدم مصر في أيام الخليفة المستنصر وغلب على أمرها وقهر من كان بها من المفسدين شرح فيها أن الذى اشتمل عليه الارتفاع فى الهلالى لسنة ثلاث وثمانين واربعمائة وفي الخراجي على ما يقتضيه الديوان فيه مما كان جاريا في الاعمال المصرية من الخراج وما يجرى معه والمضمون والمقطع والمورد بغيره والمحلول بالقاهرة ومصر وضواحيهما وناحيتى الشرقية والغربية من أسفل الارض وأعمالها وتنيس ودمياط واعمالهما والاسكندرية والبحيرة والاعمال الصعيدية العالية والدانية وواحات وعيذاب لسنة ثمانين واربعمائة الخراجية على الرسوم المصرية وما كان من الاعمال الشامية التي أولها من حد الشجرتين وهو أول الاعمال الفلسطينية والاعمال الطرابلسية ولسنة ثمان وسبعين وأربعمائة الخراجية على ما استقرت عليه الجملة عينا ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار وأن الذى استقر عليه جملة ماكان يتأدى في سنة ست وستين وأربعمائة الهلالية قبل نظر أمير الجيوش الموافقة لسنة ثلاث وستين واربعمائة الخراجية فكان مبلغها الفى ألف وثمانمائة ألف دينار وكان الزائد للسنة الجيوشية عما قبلها ثلثمائة ألف دينار مما أعرب عنه حسن العمارة وشمول العدل وكان نظم هذه المقايسة سنة ثلاث وثمانين واربعمائة * وذكر ابن ميسر أن الافضل بن أمير الجيوش أمر بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر فجاء خمسة آلاف ألف دينار * وذكر القاضي الفاضل في ميا وماته أنه عبر البلاد من اسكندرية الى عيذاب لسنة خمس وثمانين وخمسمائة خارجا عن الثغور وارباب الاموال الديوانية وعدة نواح أربعة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسين الفاً وتسعة وعشرين دينارا ثم تقاصرت الى أن جباها القاضى الموفق أبو الكرم بن معصوم العاصمى التنيسى عينا خالصا الى بيت المال بعد المؤن والكلف ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار الى آخر سنة اربعين وخمسمائة ثم بعده لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية * وسبب اتضاع خراج مصر بعد مابلغ مع الروم في آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر عشرين الف الف دينار أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق في كلف عمارة الارض فانها تحتاج أن ينفق عليها مابين ربع متحصلها الى ثلثه وآخر ما اعتبر حال أرض مصر فوجد مدة حرثها ستين يوما ومساحة أرضها مائة الف الف وثمانين الف الف فدان يزرع منها في مباشرة ابن مدبر اربعة وعشرون الف الف فدان وانه لا يتم خراجها حتى يكون فيها اربعمائة الف وثمانون الف حراث يلزمون العمل فيها دائما فاذا أقيم بها هذا

القدر من العمال في الارض تمت عمارتها وكمل خراجها وآخر ما كان بها مائة الف وعشرون ألف مزارع في الصعيد سبعون الفاً وفى اسفل الارض خمسون الفاً وقد تغير الآن جميع ما كان بها من الاوضاع القديمة واختلت اختلالا فاضحا

ذكر اصناف اراضي مصر واقسام زراعتها

اعلم ان اراضى مصر عدة اصناف اعلاها قيمة واوفاها سعرا واعلاها قطيعة الباق وهو اثر القرط والمقاثي فانه يصلح لزراعة القمح وبعد الباق رى الشراقي وهو الارض التي ظمئت فى الخالية فلما رويت في الآتية وصارت مستريحة من الزرع وزرعت أنجب زرعها والبرايب وهو اثر القمح والشعير وسعرها دون الباق لضعف الارض بزراعة هذين الصنفين فمتى زرعت على اثر احدهما لم يجب كنجابة الباق والبرايب صالح لزراعة القرط والقطانى والمقاثى فان الارض تستريح بزراعة هذه الاصناف وتصير في القابل ارض باق والسقماهية اثر الكتان فان زرعت قمحا خسر والشتونية اثر ما روي وبار في السنة الماضية وهو دون الشراقى والسلايح ماروى وبار فحرث وتعطل وهو مثل رى الشراقى فان زرعه يكون ناجيا والنقا كل ارض خلت من اثر مازرع فيها ولم يبق بها شاغل عن قبول مايزرع فيها من اصناف الزراعات والوسخ كل ارض استحكم وسخها ولم يقدر الزراعون على ازاحته كله منها بل حرثوا وزرعوا فيها فجاء زرعها مختلطا بالحلفاء ونحوها والغالب كل ارض حصل فيها نبات شغلها عن قبول الزراعة ومنع كثرته من زراعتها وصارت مراعى والخرس كل ارض فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع وكانت بها مراع وهو اشد من الوسخ الغالب واذا أدمن على ازالة مافيها من الموانع تهيأ صلاحها والشراقى كل ارض لم يصل اليها الماء اما لقصور ماء النيل او علو الارض أو سد طريق الماء عنها أو غير ذلك والمستبحر كل أرض وطيئة حصل بها الماء ولم يجد مصرفا حتى فات أوان الزرع وهو باق في الارض والسباخ كل أرض غلب عليها الملح حتى ملحت ولم ينتفع بها في زراعة الحبوب وربما زرعت مالم يستحكم السباخ فيها غير الحبوب كالهليون والباذنجان ويزرع فيها القصب الفارسي * ومما لاغنى لاراضى مصر عنه الجسور وهى على قسمين سلطانية وبلدية فالجسور السلطانية هي العامة النفع في حفظ النيل على البلاد كافه الى حين يستغنى عنه ولها رسوم موظفة على الاعمال الشرقية والاعمال الغربية وكانت في القديم تعمل من أموال النواحي ويتولى عملها مستقبلو الاراضى ويعتد لهم بما صرف عليها مما عليهم من قبالات الاراضى ثم صار بعد ذلك يستخرج برسم عملها من هذين العملين مال بايدى المستخدمين من الديوان ويصرف عليها ويفضل من المال بقية تحمل الى بيت المال ثم صار يتولى ذلك أعيان امراء الدولة الى أن حدثت الحوادث في أيام الناصر فرج فصار يجبى من البلاد مال عظيم ولا

يصرف منه شئ البتة بل يرفع الى السلطان ويتفرق كثير منه بايدى الاعوان ويسخر أهل البلاد في عمل الجسور فيجئ الخلل كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى عند ذكر أسباب الخراب * وأما الجسور البلدية فانها عبارة عما يخص نفعها ناحية دون ناحية ويتولى اقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية ومحل الجسور السلطانية من القرى محل سور المدينة الذى يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته وكفاية الرعية أمره ومحل الجسور البلدية محل الدور التي من داخل السور فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها ومن العادة أن المقطع اذا انفصل وكان قد أنفق شيئاً من مال اقطاعه في اقامة جسر لاجل عمارة السنة التي انتقل الاقطاع عنه فيها فان له أن يستعيد من المقطع الثانى نظير ما أنفقه من مال سنته في عمارة سنة غيره * وأصلح مازرع القمح في أثر الباق والشراقي وكان يزرع بالصعيد القمح على اثر القمح لكثرة الطرح وربما زرع هناك على اثر الكتان والشعير ويزرع القمح من نصف شهر بابه الى آخر هتور وهذا في العوالي من الارض التي تخرج بدريا وأما البحائر المتأخرة فيمتد وقت الزرع فيها الى آخر كيهك ومقدار ما يحتاج اليه الفدان الواحد من بذر القمح يختلف بحسب قوة الارض وضعفها ورقتها وتوسطها وما يزرع في اللوق وما يزرع في الحرث وأكثر البذر من أردب الى خمس ويبات وأربع ويبات أيضا ويوجد في الصعيد أراض تحتمل دون هذا وفى حوف رمسيس أراض يكفى الفدان منها نحو الويبتين ويدرك الزرع بمصر في بشنس وهو نيسان ويختلف مايخرج من فدان القمح بحسب الاراضي فيرمي من أردبين الى عشرين أردبا وقال أبو بكر بن وحشية في كتاب الفلاحة وذكر أن في مصر اذا زرعوا يخرج من المد ثلثمائة مد والعلة في ذلك حرارة هواء بلادهم مع سمن أرضهم وكثرة كدورة ماء النيل * ولما كان في سنة ست وثمانمائة انحسر الماء عن قطعة أرض من بركة الفيوم التي يقال لها اليوم بحر يوسف فزرعت وجاء زرعها عجيبا رمى الفدان منها أحدا وسبعين أردبا من شعير بكيل الفيوم وأردبها تسع ويبات وكانت قطيعة فدان القمح ببلاد الصعيد في أيام الفاطمية ثلاثة أرادب فلما مسحت البلاد فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة تقرر على كل فدان أردبان ونصف ثم صار يؤخذ أردبان عن الفدان وأما أراضى اسفل الارض فيؤخذ عنها عين لاغلة * ويزرع الشعير في أثر القمح وغيره في الأرض التي غرقت وهي رطبة ويتقدم زراعه على زراعة القمح بأيام وكذلك حصاده فانه يحصد قبل القمح ويحتاج الفدان منه أن يبذر فيه بحسب الارض ويخرج اكثر من القمح ويكون ادرا كه في برموده وهو أدار * ويزرع الفول في الحرث أثر البرايب من اول شهر بابه ويؤكل وهو أخضر في شهر كيهك ويحتاج الفدان من البذر منه الى ثلاث ويبات ونحوها ويدرك في برموده ويحصل من فدانه ما بين عشرين اردبا الى ما دون ذلك * ويزرع العدس والحمص من هتور الى

كيهك والجلبان لايزرع الا فى ارق الاراضى حرثا من الارض العاليـة ويزرع تلويقا في الاراضى الخرس ويبذر فى كل فدان من الحمص من اردب الى ثمان ويبات ومن الجلبان من اردب الى اربع ويبات ومن العدس من ويبتين الى مادونهما وتدرك هذه الاصناف فى برموده ويتحصل من فدان الحمص من اربعة ارادب الى عشرة ومن الجلبان من عشرة ارادب الى ما دونها والعـدس من عشرين اردبا فما دونها * وأنجب مايكون الـكتان اذا زرع فى البرش ويحتاج أن يسبخ بتراب سباخ وهو اذا طال رقد ويقلع قضبانا ويسمى حينئذ اسلافا وينشر فى موضعه حتى يجف فاذا جف حمل وهدر وعزل جوزه فيخرج منه بزر الـكتان ويستخرج منه الزيت الحار ويزرع الكتان فى شهر هتور ويحتاج الفدان أن يبذر فيـه من البزر مابين اردب وثلث الى مادون ذلك ويدرك فى شهر برموده ويخرج من الفدان مابين ثلاثين شدة الى مادون ذلك ومن البزر من ستة ارادب الى مادونها وكانت قطيعة الفـدان منه فى القديم بأرض الصعيد من خمسة دنانير الى ثلاثة وفى دلاص ثلاثة عشر دينـارا * وفيما عدا ذلك ثلاثة دنانير * ويزرع القرط عند أخذ ماء النيل فى النقصان ولا ينبغى تأخير زرعه الى أوان هبوب الريح الجنوبية التي يقال لها المريسية واول مايبذر فى شهر بابه وربما زرع بعد النوروز والحراثى منه يزرع فى كيهك وطوبه ويزرع احيانا فى هتور ويبذر فى كل فدان من ويبتين ونصف الى ماحولها ويدرك الاخضر منه فى آخر شهر كيهك ويدرك الحراثى فى طوبه وامشير ويتحصل من الفـدان الحراثى مابين اردبين الى اربع ويبات * ويزرع البصل والثـوم من شهر هتور الى نصف كيهك ويبذر فى فدان البصل من نصف وربع ويبة الى ويبة والثوم من مائة حزمة الى مائة وخمسين حزمة ويدرك ذلك فى برموده والبصل الذى يخرج ليزرع زريعة فانه يزرع من اول كيهك الى العاشر من طوبه ويخرج من زريعته عشرة أرادب من الفدان ويدرك في بشنس * ويزرع الترمس في طوبه وزريعته لـكل فدان أردب ويدرك في برموده ويتحصل من الفدان مابين عشرين أردبا الى مادونها وهذه هي الاصناف الشتوية *(وأما الاصناف الصيفية)* فان البطيخ واللوبيا يزرعان من نصف برمهات الى نصف برموده * ويزرع في الفدان قدحان ويدرك في بشنس * ويزرع السمسم فى برموده وزريعته ربع ويبة للفدان ويدرك فى أبيب ومسرى ويتحصل من الفدان مابين أردب الى ستة أرادب * ويزرع القطن فى برموده وزريعته أربع ويبات حب للفدان ويدرك فى توت فيخرج من الفدان من ثمانية قناطير بالجروى الى مادونها * ويزرع قصب السكر من نصف برمهات فى أثر الباق والبرش وتبرش أرضه سبع سكك وأنجبه ما تكامل له ثلاث غرقات قبل انقضاء شهر بشنس ومقدار زريعته ثمن فدان وما حوله لـكل فدان ويحتاج القصب الى أرض جيـدة دمثة قد شملها الرى وعلاها ماء النيل وقلع مابهـا من

الحلفاء ونظفت ثم برشت بالمقلقلات وهى محاريث كبار ستة وجوه وتجرف حتى تمهد ثم تبرش ستة وجوه أخرى وتجرف ومعنى البرش الحرث فاذا صلحت الارض وطابت ونعمت وصارت ترابا ناعما وتساوت بالتجريف شقت حينئذ بالمقلقلات ويرمى فيها القصب قطعتين قطعة مثناة وقطعة مفردة بعد أن تجعل الارض أحواضا وتفرز لها جداول يصل الماء منها الى الاحواض ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاثة أنابيب كوامل وبعض انبوبة من أعلى القطعة وبعض أخرى من أسفلها ويختار ما قصرت أنابيبه وكثرت كعوبه من القصب ويقال لهذا الفعل النصب فاذا كمل نصب القصب أعيد التراب عليه ولا بد فى النصب أن تكون القطعة ملقاة لاقائمة ثم يسقى من حين نصبه فى أول فصل الربيع لكل سبعة أيام مرة فاذا نبت القصب وصار أوراقا ظاهرة نبتت معه الحلفاء والبقلة الحمقاء التي يسميها أهل مصر الرجلة فعند ذلك تعزق أرضه ومعنى العزاق أن تنكش أرض القصب وينظف مانبت مع القصب ولا يزال يتعاهد ذلك حتى يغزر القصب ويقوى ويتكاثف فيقال عند ذلك طرد القصب عزاقه فانه لايمكن عزاق الارض ولا يكون هذا حتى يبرز الانبوب منه ومجموع مايسقى بالقادوس ثمانية وعشرون ماء والعادة أن الذى ينصب من الاقصاب على كل مجال بحر انى أى مجاور للبحر اذا كانت مزاحة الغلة بالابقار الجياد مع قرب رشا الآبار ثمانية أفدنة ويحتاج الى ثمانية أرؤس بقر فان كانت الآبار بعيدة عن مجرى النيل لايمكن حينئذ أن يقوم المجال بأكثر من ستة أفدنة الى أربعة فاذا طلع النيل وارتفع سقى القصب عند ذلك ماء الراحة وصفة ذلك أن يقطع عليه من جانب جسر يكون قد أدير عليه ليقيه من الغرق عند ارتفاع النيل بالزيادة فيدخل الماء من ثلمة فى ذلك الجسر حتى يعلو على أرض القصب نحو شبر ثم يسد عنه الماء حتى لايصل اليه ويترك الماء فوق الارض قدر ساعتين أو ثلاث الى أن يسجن ثم يصرف من جانب آخر حتى ينضب كله ويجدد عليه ماء آخر كذلك فيتعاهد ما ذكرنا مرارا فى أيام متفرقة بقدر معلوم ثم يفطم بعد ذلك فاذا عمل ماقلناه وفى القصب حقه فان نقص عن ذلك حصل فيه الخلل ولا بد للقصب من القطران قبل أن يحلو حتى لايسوس ويكسر القصب في كيهك ولا بد من حرق آثار القصب بالنار ثم سقيه وعزقه كماتقدم فينبت قصبا يقال له الخلفة ويسمى الاول الرأس وقنود الخلفة أجود غالبا من قنود الرأس ووقت ادراك الرأس في طوبه والخلفة فى نصف هتور وغاية ادارة معاصر القصب الى النوروز ويحصل من الفدان ما بين أربعين ابلوجة فقد الى ثمانين أبلوجة والابلوجة تسع قنطارا فما حوله * ويزرع القلقاس مع القصب ولكل فدان عشرة قناطير قلقاس جروية ويدرك في هتور *ويزرع الباذنجان في برمهات وبرموده وبشنس وبؤونه ويدرك من بؤونة الى مسرى *وتزرع النيلة من بشنس والزريعة للفدان ويبة ويدرك من أبيب *ويزرع

الفجل طول السنة وزريعه الفدان من قدح واحد الى قدحين *ويزرع اللفت في أبيب وزريعة الفدان قدح واحد ويدرك بعد أربعين يوما *ويزرع الخس في طوبه شتلا ويؤكل بعد شهرين * ويزرع الكرنب في توت شتلا ويدرك في هتور* ويغرس الكرم في أمشير نقلا وتحويلا *ويغرس التين والتفاح في أمشير * ويقلم التوت في برمهات * ويغرس ويبل اللوز والخوخ والمشمش في ماء طوبة ثلاثة أيام وهي قضبان ثم يغرس ويحول شجرها في طوبة * ويزرع نوي التمر ثم يحول وديافينقل * ويدفن بصل النرجس في مسرى* ويزرع الياسمين في أيام النسيء وفي أمشير* ويزرع المرسين فى طوبه وأمشير غرسا * ويزرع الريحان فى برموده * ويزرع حب المنثور في أيام النيل * ويزرع الموز الشتوي فى طوبة والصيفي في أمشير * ويحول الخيار شنبر فى برمهات * وتقلم الكروم على ريح الشمال الى ليال من برمهات حتى تخرج العين منها * وتقلم الاشجار في طوبة وأمشير الا السدر وهو شجر النبق فانه يقلم في برموده* وتسقى الاشجار في طوبة ماء واحدا ويسمونه ماء الحياة وتسقى فى أمشير ثانيا عند خروج الزهر وتسقى في برمهات ماءين آخرين الى أن ينعقد التمر وتسقى في بشنس ثلاث مياه وتسقى في بؤونة وأبيب ومسرى ماء في كل سبعة أيام وتسقى في توت وبابة مرة واحدة تغريقا من ماء النيل وتسقى فى هتور من ماء النيل بتغريق المساطب ويسقى البعل من الكروم في هتور من ماء النيل مرة واحدة تغريقا* وجميع أراضي مصر تقاس بالفدان وهو عبارة عن أربعمائة قصبة حاكمية طولا فى عرض قصبة واحدة والقصبة ستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش وخمسة اذرع بذراع النجار تقريباً وقال القاضي أبو الحسن فى كتاب المنهاج خراج مصر قد ضرب على قصبة فى المساحة اصطلح عليها زرع المزارع على حكمها وتكسير الفدان اربعمائة قصبة لانه عشرون قصبة طولا فى عشرين قصبة عرضا وقصبة المساحة تعرف بالحاكمية وهى تقارب خمسة أذرع بالنجارى

ذكر أقسام مال مصر

اعلم أن مال مصر في زمننا ينقسم قسمين أحدهما يقال له خراجي والآخر يقال له هلالى فالمال الخراجي ما يؤخذ مسانهة من الاراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف* والمال الهلالى عدة أبواب كلها أحدثوها ولاة السوء شيأ بعد شئ وأصل ذلك فى الاسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الجند فيأخذون منهم العشر فكتب الى أبي موسى الاشعرى وهو على البصرة أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتي درهم خمسة دراهم وخذ من كل تاجر من تجار العهد يعني أهل الذمة من كل عشرين درهما درهما ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم

درهما وقيل لابن عمر كان عمر يأخذ من المسلمين العشر قال لا ونهي عمر بن عبد العزيز عن ذلك وكتب ضعوا عن الناس هذه المكوس فليس بالمكس ولكنه النجس * وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتاه ناس من أهل الشام فقالوا أصبنا دواب وأموالا نخذ منها صدقة تطهرنا بها فقال كيف أفعل مالم يفعل من كان قبلى وشاور فقال على بن أبي طالب رضى الله عنه لا بأس به ان لم يأخذه من بعدك فأخذ عن العبد عشرة دراهم وكذلك عن الفرس وعن الهجين ثمانية وعن البرذون والبغل خمسة * وأول من وضع على الحوانيت الخراج في الاسلام أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور فى سنة سبع وستين ومائة وولى ذلك سعيد الجرسى * وأول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد ابن محمد بن مدبر لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين فانه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب فابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة من بعده لا تنقض فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس وقرر على الكلا الذى ترعاه البهائم مالا وسماه المراعى وقرر على مايطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد الى غير ذلك فانقسم حينئذ مال مصر الى خراجى وهلالى وكان الهلالى يعرف في زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون فلما ولى الامير أبو العباس احمد بن طولون امارة مصر وأضاف اليه امير المؤمنين المعتمد على الله الخراج والثغور الشامية رغب وتنزه عن ادناس المعاون والمرافق وكتب باسقاطها فى جميع اعماله وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار في كل سنة وله في ذلك خبر فيه اكبر معتبر قد ذكرته عند ذكر أخبار الجامع الطولوني من هذا الكتاب ثم اعيدت الاموال الهلالية في اثناء الدولة الفاطمية عند ماضعفت وصارت تعرف بالمكوس فلما استبد السلطان الناصر صلاح الدين ابو المظفر يوسف بن ايوب بملك مصر أمر باسقاط مكوس مصر والقاهرة فكتب عنه القاضي الفاضل مرسوما بذلك وكان جملة ذلك فى سنة مائة ألف دينار تفصيلها مكس البهار وعمالته ثلاثة وثلاثون الفا وثلثمائة واربعة وستون دينارا مكس البضائع والقوافل وعمالتها تسعة آلاف وثلثمائة وخمسون دينارا منفلت الصناعة عن مكس البز الوارد اليها والنحاس والقزدير والمرجان والفاضلات خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون دينارا الصادر عن الصناعة بمصر ستة آلاف وستمائة وستة وستون دينارا سمسرة التمر ثلثمائة دينار الفندق بالمنية عن مكس البضائع ثمانمائة دينار وستة وخمسون دينارا رسوم دار القند ثلاثة آلاف ومائة وثمانية دنانير رسوم الخشب الطويل والملح ستمائة وستة وسبعون دينارا رسوم العلب المنسوبة الى بلبيس والبورى مائة دينار رسوم التفتيش بالصناعة عن البهار وغيره مائتان وسبعة عشر دينارا خيمة أرمنت عن الوارد اليها سبعة وستون دينارا فندق القطن ألفا دينار سوق الغنم بالقاهرة ومصر والسمسرة وعبور الاغنام بالجيزة ثلاثة آلاف وثلثمائة

وأحد عشر ديناراً عبور الاغنام والكتان والابقار بباب القنطرة ألف ومائتا دينار واجب ماورد من الكتان الحطب الى الصناعة مائتا دينار رسوم واجب الغلات كالحبوب الواردة الى الصناعة والمقس والمنية والجسر والتبانين ومقالت جزيرة الذهب وطموه ومنبر الدرج ستة آلاف دينار مكس ما يرد الى الصناعة من الاغنام ستة وثلاثون ديناراً الاغنام اليتوتية اثنا عشر ديناراً العرصة والسرسناوي بالجيزة ومكس الاغنام مائة وتسعون ديناراً منفلت الفيوم عما يرد من الكتان من القبلة ومن البضائع الواردة من الفيوم وغيره أربعة آلاف ومائة وستون ديناراً مكس الورق المجلوب الى الصناعة ورسم التفتيش مائتا دينار الحصة بساحل الغلة والاقوات والرسائل سبعمائة وثمانية وستون ديناراً دار التفاح والرطب بمصر .والعرصة بالقاهرة ألف وسبعمائة دينار رسم ابن المليجي مائتا دينار دار الجبن ألف دينار مشارفة الخزائن مائتان وأربعون ديناراً واجب الحلي الوارد من الوجه البحري والقطن ألف وعشرون ديناراً رسم سمسرة الصفا ألف ومائتا دينار منفلت الصعيد مائة وأحد وستون ديناراً خاتم الشرب والديبقي ألف وخمسمائة دينار مكس الصوف مائتا دينار نصف الموردة بساحل المقس أربعة عشر ديناراً دكة السمسار ثلثمائة وخمسون ديناراً منفلت العريف بالصناعة وحملة البهار والبضائع مائتان وستة عشر ديناراً الحلفاء الواردة من القبلة مائة وخمسة وثلاثون ديناراً الوقد والسرقين والطعم بدار التفاح ومنفلت القبلة بالتبانين والجسر خمسة وثلاثون ديناراً رسوم الصفا والحمراء ورسوم دار الكتان ستون ديناراً حماية الغلات بالمقس ودار الجبن مائة وأربعون ديناراً الحلفاء الواردة على الجسر ومعدية المقياس مائة دينار خمس البرنية بالجيزة عشرون ديناراً تل التعريف بالصناعة ثمانية وعشرون ديناراً منفلت الغلات بمعدية جزيرة الذهب عشرة دنانير رسوم الحمام بساحل الغلة خمسمائة وأربعة وثلاثون ديناراً واجب الحناء الواردة في البر ثمانمائة دينار واجب الحلفاء والقصاب ثلاثة وستون ديناراً مكس ما يرد من البضائع الى المنية مائة وأربعة وثمانون ديناراً مسلخة شطنوف والبرانية مائتا دينار سوق السكريين خمسون ديناراً رسوم خيمة الحلي بالشارع وسوق وردان تسعة عشر ديناراً واجب الفحم الوارد الى القاهرة عشرة دنانير معدية الجسر بالجيزة مائة وعشرون ديناراً خيمة البقري أربعون ديناراً الخيمة بدار الدباغة تسعة عشر ديناراً سمسرة الجبس الجيوشي ثلثمائة واثنا عشر ديناراً دكان الدهن ومعصرة الشيرج والخل بالقاهرة خمسمائة دينار الخل الحامض وما معه أربعمائة دينار بيوت الغزل والمصطبة ثلثمائة وخمسون ديناراً ذبائح الابقار ألف دينار سوق السمك بالقاهرة ومصر ألف ومائتا دينار رسوم الدلالة ثلثمائة دينار سمسرة الكتان ثلثمائة دينار رسوم حماية الصناعتين أربعمائة دينار مربعة العسل مائتان واثنان وثلاثون ديناراً معادي جزيرة الذهب وغيرها ثلثمائة دينار خاتم

الشمع بالقاهرة ثلاثة وستون ديناراً زريبة الذبحة سبعمائة دينار معدية المقياس وانبابة مائتا دينار حمولة السلجم ثلثمائة وثلاثون ديناراً دكة الدباغ ثمانمائة دينار سوق الرقيق خمسمائة دينار معمل الطبري مائتان وأربعون ديناراً سوق منبوبة مائة واربعة وستون ديناراً ذبائح الضأن بالجيزة ورسوم ساحل السنط عشرة دنانير نخ السمك خمسة دنانير تنور الشوى مائة دينار نصف الرطل من مطابخ السكر مائة وخمسة وثلاثون ديناراً سوق الدواب بالقاهرة ومصر أربعمائة دينار سوق الجمال مائتان وخمسون ديناراً قبان الحناء ثلاثون ديناراً واجب طاقات الادم ستة وثلاثون ديناراً منفلت الحام بالشاشيين ثلاثة وثلاثون ديناراً أنولة القصار أربعون ديناراً بيوت الفروج ثلاثون ديناراً الشعر والطارات أربعة دنانير رسوم الصبغ والحرير ثلثمائة وأربعة وثلاثون ديناراً وزن الطفل مائة وأربعون ديناراً معمل المزر أربعة وثمانون ديناراً الفاخور بمصر والقاهرة مائتان وستة وثلاثون ديناراً * وذكر ابن أبي طي أن الذى اسقطه السلطان صلاح الدين والذي سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف ألف ألف دينار وألفي ألف أردب سامح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أعاد المكوس وزاد في شناعتها قال القاضي الفاضل فى متجددات سنة تسعين وخمسمائة وكان قد تتابع في شعبان أهل مصر والقاهرة في أظهار المنكرات وترك الانكار واباحة أهل الامر والنهي لها وتفاحش الامر فيها الى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره وأقيمت طاحون بحارة المحمودية لطحن حشيش المزر وأفردت برسمه وحميت بيوت المزر وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة فمنها ما انتهي أمره فى كل يوم الى ستة عشر ديناراً ومنع المزر البيوتي ليتوفر الشراء من البيوت المحمية وحملت أواني الخمر على رؤس الاشهاد وفي الاسواق من غير منكر وظهر من عاجل عقوبة الله عز وجل وقوف زيادة النيل عن معتادها وزيادة سعر الغلة فى وقت ميسورها * وقال فى متجددات سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وآل الامر الى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز ولحم الى أن يحمل في بعض الاوقات لاكلها لبعض مايتبلغ به من خبز وكثر ضجيجهم وشكواهم فلم يسمع ووقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان وفيما يصرف الى عياله وفيما يقتات به أولاده وما يغصب من أربابه وأفضى هذا الى غلاء الاسعار فان المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون في أسعار المأكولات العامة بمقدار مايؤخذ منهم للدار السلطانية فأفضى ذلك الى النظر في المكاسب الخبيثة وضمن المزر والخمر باثني عشر ألف دينار وفسح في أظهار منكره والاعلان به والبيع له في القاعات والحوانيت مع قرب استهلال رجب وما استطاع أحد من العامة الانكار لا باليد ولا باللسان وصار هذا السحت مما ينفرد السلطان به لنفقته وطعامه وانتقل مال الثغور ومال الجوالى الحل الطيب الى أن

يصير حوالات لمن لايبالى من أين أخذ المال ولا يفرق بين الحرام والحلال وفي شهر رمضان غلا سعر الاعناب لكثرة العصير منها وتظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطاني واستيفاء رسمه بأيدى مستخدميه وبلغ سمانه سبعة عشر ألف دينار وحصل منه شئ حمل اليه فبلغني أنه صنع به آلات للشراب ذهبيات وفضيات وكثر اجتماع النساء والرجال فى شهر رمضان لاسيما على الخليج لما فتح وعلى مصر لما زاد الماء وتلقى فيه النيل بمعاص نسأل الله أن لايؤاخذنا بها وان لايعاقبنا عليها بجراءة أهلها * وقال جامع السيرة التركية ولما استقل الملك المعز عز الدين أيبك التركماني الصالحى بمملكة مصر في سنة خمسين وستمائة بعد انقراض دولة بني أيوب استوزر شخصا من نظار الدواوين يعرف بشرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي أحد كتاب الاقباط وكان قد أظهر الاسلام من أيام الملك الكامل وترقي في خدمة الكتابة فقرر في وزارته أموالا على التجار وذوى اليسار وأرباب العقار ورتب مكوسا وضمانات سموها حقوقا ومعاملات ولما ولى الملك المظفر سيف الدين قطز مملكة مصر بعد خلعه الملك المنصور على بن المعز أيبك أحدث عند سفره الذى قتل فيه مظالم كثيرة لاجل جمع المال وصرفه في الحركة لقتال جموع التتر منها تصقيع الاملاك وتقويمها وزكاتها وأحدث على كل انسان دينارا يؤخذ منه وأخذ ثلث التركات الاهلية فبلغ ذلك ستمائة ألف دينار فى كل سنة فلما قتل قطز وجلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بعده على سرير الملك بقلعة الجبل أبطل ذلك جميعه وكتب به مساميح قرئت على المنابر ثم أبطل ضمان المزر وجهاته في سنة اثنتين وستين وستمائة وكتب وهو بالشام الى الامير عز الدين الحلى نائب السلطنة بمصر أن يبطل بيوت المزر ويعفى آثاره ويخرب بيوته ويكسر مواعينه ويسقط ارتفاعه من الديوان فان بعض الصالحين تحدث معي في ذلك وقال القمح الذى جعله الله تعالي قوتا للعالم يداس بالارجل وقد تقربت الى الله تعالى بابطاله ومن ترك شيأ لله عوضه خيرا منه ومن كان له على هذه شيء يعوضه الله من المال الحلال فابطل الحلى ذلك وعوض المقطعين عليه بدله وفى سنة ثلاث وستين أبطل حراسة النهار بالقاهرة ومصر وكانت جملة مستكثرة وكتب بذلك توقيعا وأبطل من أعمال الدقهلية والمرتاحية عن رسوم الولاية أربعة وعشرين ألف دينار وفي خامس عشرى شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة قرئ بجامع مصر مكتوب بابطال ماقرر على رسوم ولاية مصر من الرسوم وهي مائة ألف درهم مصرية فبطل ذلك وأبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها فى سنة خمس وستين وستمائة وأمر باراقة الخمور وابطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات ومنع الخانات والخواطي بجميع أقطار مملكة مصر والشام فطهرت من ذلك البقاع ولما وردت المراسيم بذلك على القاضى ناصر الدين أحمد بن المنير قال

ليس لابليس عندنا أرب * غير بلاد الامير مأواه
حرفته الخمر والحشيش معا * حرمتا ماؤه ومرعاه

وقال الاديب الفاضل أبو الحسين الجزار

قد عطل الكوكب من حبابه * واخلى الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكي * على الذى فات من شبابه

وفى تاسع جمادي الآخرة سنة ست وستين وستمائة أمر الملك الظاهر بيبرس باراقة الخمور وابطال الفساد ومنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء من جميع القاهرة ومصر وسائر الاعمال المصرية فتطهرت أرض مصر من هذا المنكر ونهبت الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب أهلها جميع ما كان لهم ونفى بعضهم وحبست النساء حتى يتزوجن وكتب الي جميع البلاد بمثل ذلك وحط المال المقرر على البغايا من الديوان وعوض الحاشية من جهات حل بنظيره وفي سابع عشر ذى الحجة سنة تسع وستين وستمائة أريقت الخمور وابطل ضمانه وكان كل يوم الف دينار وكتب توقيع بذلك قرئ على المنابر وافتتح سنة سبعين باراقة الخمور والتشدد في ازالة المنكرات وكان يوما مشهودا بالقاهرة وبلغه في سنة أربع وسبعين عن الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز وكان قد تمكن منه تمكنا كثيرا أنه يشرب الخمر فشنقه تحت قلعة الجبل * ولما ولى الملك المنصور سيف الدين قلاون الالفى مملكة مصر أبطل زكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عند زكاة ماله أبدا ولو عدم منه واذا مات يؤخذ من ورثته وأبطل ما كان يجبي من أهل أقليم مصر كله اذا حضر مبشر بفتح حصن أو نحوه فيؤخذ من الناس بالقاهرة ومصر على قدر طبقاتهم ويجتمع من ذلك مال كثير وأبطل ما كان يجبي من أهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد فى كل سنة وأبطل مقرر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر والغزاة وكان يؤخذ من جميع تجار القاهرة ومصر من كل تاجر دينار وأبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل مما يعمل به شوى وحلوى وفاكهة فى المقياس وجعل مصرف ذلك من بيت المال وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط * وأبطل الملك الناصر محمد بن قلاون عدة جهات قد ذكرت فى الروك الناصرى وآخر ما أدركنا ابطاله ضمان الاغاني وضمان القراريط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على يد الملك الاشرف شعبان بن حسين محمد بن قلاون * فأما ضمان الاغانى فكان بلاء عظيما وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا فلو خرجت أجل امرأة فى مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة وكان على النساء اذا تنفسن أو عرسن امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحا لابد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحا بأغان أو نفس امرأته من غير اذن

الضامنة حل به بلاء لايوصف * وأما ضمان القراريط فانه كان يؤخذ من كل من باع ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما وكان متحصل هاتين الجهتين مالا كثيرا جدا * وأبطل الملك الظاهر برقوق ماكان يؤخذ من اهل البرلس وشورى وبلطيم شبه الجالية في كل سنة ستين ألف درهم وأبطل ماكان على القمح من مكس يؤخذ من الفقراء بثغر دمياط ممن يبتاع من اردبين فما دونهما وأبطل ما كان يؤخذ مكسا من معمل الفروج بالنحريرية والاعمال الغربية وأبطل ماكان يؤخذ تقدمة لمن يسرح الى العباسة من الخيل والجمال والغنم وغير ذلك وأبطل ماكان يؤخذ على الدريس والحلفاء بباب النصر خارج القاهرة وأبطل ضمان الاغاني بمنية ابن خصيب بأعمال الاشمونين وبزفتا بالاعمال الغربية وأبطل الابقار التى كانت ترمى بالوجه البحرى عند فراغ الجسور وأبطل الامير يلبغا السالمي لما ولى استادار السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق في سنة احدى وثمانمائة تعريف الغلال بمنية ابن خصيب وضمان العرصة بها وأخصاص الغسالين وكانت من المظالم القبيحة وأبطل من القاهرة ضمان بحيرة البقر ثم أعاده القبط من بعده * وقد بقيت الى الآن من المكوس بقايا أخبرني الامير الوزير المشير الاستادار يلبغا السالمي في ايام وزارته أن جهات المكوس بديار مصر تبلغ فى كل يوم بضعا وسبعين الف درهم وانه اعتبرها فلم يجدها تصرف في شيء من مصالح الدولة بل انما هي منافع للقبط وحواشيهم وكان قد عزم على ابطال المكوس فلم يمهل * (والمال الهلالي) عبارة عما يستأدي مشاهرة كاجر الاملاك المسقفة من الآدر والحوانيت والحمامات والافران والطواحين وعداد الغنم والجهة الهوائية المضمونة والمحلولة وعد بعض الكتاب أحكار البيوت وريع البساتين التي تستخرج أجرها مشاهرة ومصايد السمك ومعاصر الشيرج والزيت في المال الهلالي * ومن اصطلاح كتاب مصر القدماء أن تورد جزية أهل الذمة من اليهود والنصارى قلما واحدا مستقلا بذاته بعد الهلالي وقبل الخراجي وذلك انها تستأدى مسانهة وكانوا يرون وجوبها مشاهرة وفائدته فيمن أسلم أو مات أثناء الحول فانهم كانوا يلزمونه بقدر ما مضى من السنة قبل اسلامه أو وفاته فلذلك أوردت فيما بين الهلالي والخراجي * وكانوا في الاقطاعات الجيشية يجرونها مجرى المال الهلالي عند خروج اقطاع من يقطع ودخول آخر على ذلك الاقطاع فانها كانت تستخرج على حكم الشهور الهلالية لا الشمسية بحيث لو تعجلها مقطع في غرة السنة على العادة في ذلك وخرج الاقطاع عنه في أثناء السنة بوفاة أو نقلة الى غيره استحق منها نظير مامضى من شهور السنة الى حين انتقال الاقطاع عنه لاعلى حكم ما استحق من المغل ويستحق المتصل من استقبال تاريخ منشوره كعادة النقود والمتخلل بينهما من المدة مستحق ذلك الديوان فيرد من جملة المحلولات من الاقطاعات وكان من أبواب الهلالي جهات تسمى المعاملات وهي الزكاة

والمواريث والثغور والمتجر والشب والنطرون والجبس الحيوشى ودار الضرب ودار العيار والجاموس وأبقار الجبس والاغنام والغروس والبساتين والاحكار والرباع والمراكب وما يستأدى من الذمة غير الجوالي وساحل السنط والخراج والقرظ ومقرر الجسور وموظف الاتبان ومقرر القصب ومقرر البريد ومقرر البسط وعشر العرق وغير ذلك من جهات المكوس فأما الجزية وتعرف في زمننا بالجوالي فانها تستخرج سلفا وتعجيلا في غرة السنة وكان يحصل منها مال كثير فيما مضى * قال القاضي الفاضل فى متجددات الحوادث الذى انعقد عليه ارتفاع الجوالي لسنة سبع وثمانين وخمسمائة مائة ألف وثلاثون ألف دينار وأما في وقتنا هذا فان الجوالي قلت جداً لكثرة اظهار النصارى للاسلام في الحوادث التي مرت بهم ولما استبد السلطان الملك المؤيد شيخ بملك مصر بعد الخليفة العباس بن محمد أمير المؤمنين المستعين بالله ولي رجلا جباية الجوالي فكثر الاستقصاء عن الذمة والكد في الاستخراج منهم فبلغت الجوالي في سنة ست عشرة وثمانمائة أحد عشر ألف دينار وأربعمائة دينار سوى ماغرم للاعوان وهو قدر كثير * وأما المراعى وهو الكلأ المطلق المباح الذي أنبته الله تعالى لرعى دواب بني آدم فأول من أدخلها الديوان بمصر أحمد بن مدبر ولما ولي الخراج وصير لذلك ديوانا وعاملا جلدا يحظر على الناس أن يتبايعوا المراعى أو يشتروها الامن جهته وأدركنا المراعى ببلاد الصعيد مما يضاف الى الاقطاعات فيأخذ الامير ممن يرعى دوابه في أرض بلده الكتيبح فى كل سنة مالا عن كل رأس فيجبى من صاحب الماشية بعدد أنعامه فلما اختل أمر الصعيد فى الحوادث الكائنة منذ سنة ست وثمانمائة تلاشي الامر فى ذلك وكانت العادة القديمة أن يندب للمراعي مشد وشهود وكاتب فيعدون المواشي ويستخرجون من أربابها عن كل رأس شيئاً ولا يكون ذلك الا بعد هبوط النيل ونبات الكلأ واستهلاكه للمرعي * وأما المصايد فهى ما أطعم الله سبحانه وتعالى من صيد البحر وأول من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر وصير لها ديوانا واحتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها فأمر أن يكتب فى الديوان خراج مضارب الاوتار ومغارس الشباك فاستمر ذلك وكان يندب لمباشرتها مشد وشهود وكاتب الى عدة جهات مثل خليج الاسكندرية وبحيرة الاسكندرية وبحيرة نسترو وثغر دمياط وجنادل ثغر أسوان وغير ذلك من البرك والبحيرات فيخرجون عند هبوط النيل ورجوع الماء من المزارع الى بحر النيل بعد ما تكون أفواه الترع قد سكرت وأبواب القناطر قد سدت عند انتهاء زيادة النيل كما يتراجع الماء ويتكاثف مما يلى المزارع ثم تنصب شباك وتصرف المياه فيأتي السمك وقد اندفع مع الماء الجارى فتصده الشباك عن الانحدار مع الماء ويجتمع فيها فيخرج الى البر ويوضع على انخاخ ويملح ويوضع فى الامطار فاذا استوى بيع وقيل له الملوحة والصير ولا يكون ذلك الا فيما كان من السمك

فى قدر الاصبع فما دونه ويسمون هذا الصنف اذا كان طريا بسارية فتؤكل مشوية ومقلية ويصاد من بحيرة نسترو وبحيرة تنيس وبحيرة الاسكندرية أسماك تعرف بالبوري وقيل لها ذلك لانها كانت تصاد عند قرية من قرى تنيس يقال لها بورة وقد خربت والنسبة اليها البورى ونسب اليها جماعة من الناس منهم بنو البورى وقيل لهذا السمك البوري إضافة الى القرية المذكورة وقد بطل في زمننا اليوم أمر هذه المصايد الامن بحيرة نسترو بالبراس وبحيرة تنيس بدمياط فقط وهاتان البحيرتان تجريان فى ديوان الخاص وهما مضمنتان وما يخرج منهما من البورى وغيره من أنواع السمك فللسلطان لايقدر أحد أن يتعرض لصيد شيء منه الا أن يكون من صياديهما القائمين بالضمان وما عدا هاتين البحيرتين من البرك والاملاق والخلجان فليست للسلطان وأما بحيرة اسكندرية فقد جفت وثغر أسوان فقد خرج عن يد السلطنة وتغلب عليه أولاد الكفرة وثم برك بأيدي أقوام كبركة الفيل بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس وبركة الرطلي بيد أولاد الامير بكتمر الحاجب وغير ذلك فان أسماكها مضمنة لهم يبيعونها ومع ذلك لايمنع أحد الصيد منها * وأما بحر النيل فما صيد منه يحمل الى دار السمك بالقاهرة فيباع ويؤخذ منه مكس السلطان الا أن الامير جمال الدين يوسف الاستادار زاد فيماكان يؤخذ من الصيادين مكسا ومن حينئذ قلّ السمك بالقاهرة وغلا سعره وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس في تاريخ مصر ان صنما كان بالاسكندرية يقال له شراحيل على حشفة من حشاف البحر مستقبلا باصبع من كفه قسطنطينية لايدرى أكان مما عمله سليمان النبي أم عمله الاسكندر فكانت الحيتان تدور بالاسكندرية وتصاد عنده فيما زعموا قال زيد بن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أخبرني أبي عن أبيه انه انبطح على بطنه ومديديه ورجليه فكان طوله طول قدم الصنم فكتب رجل يقال له أسامة بن زيد كان عاملا على مصر للوليدبن عبد الملك أمير المؤمنين أن عندنا بالاسكندرية صنما يقال له شراحيل من نحاس وقد غلت علينا الفلوس فان رأى أمير المؤمنين أن ينزله ويضربه فلوسا فعل وان رأى غير ذلك فليكتب اليّ من أمره فكتب اليه لاتنزله حتى أبعث اليك ضمناء يحضرونه فبعث اليه رجالا أمناء حتى أنزل من الحشفة فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة فضربه فلوسا فانطلقت الحيتان فلم ترجع الى ماهنالك * وأما الزكاة فان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أول من جباها بمصر قال القاضى الفاضل في متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة ثالث عشر ربيع الآخر فرقت الزكوات بعدماجمعت على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين بعد أن رفع الى بيت المال السهام الاربعة وهي سهام العاملين والمؤلفة وفي سبيل الله وفي الرقاب وقررت لهم فريضة واستودى على الاموال والبضائع وعلى ما يتقرر عليه من المواشى والنخل والخضراوات قال والذى انعقد

عليه ارتفاع الجوالي لسنة سبع وثمانين وخمسمائة ثلاثون ألف دينار والزائد في معاملة الزكاة ودار الضرب لسنتي ست وسبع وثمانين وخمسمائة أحد وعشرون ألف دينار وثمانمائة وأحد وستون دينارا وقال في سنة ثمان وثمانين واستخدم ابن حمد ان في ديوان الزكاة وكتب خطه بما مبلغه اثنان وخمسون ألف دينار لسنة واحدة من مال الزكاة وجعل الطواشى قراغش الشاد في هذا المال وأن لا يتصرف فيه بل يكون في صندوق مودعا للمهمات التي يؤمر بها ولما قدم ابن عنين الشاعر من عند الملك العزيز سيف الاسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب ابن شادى ملك اليمن الى مصر وقد أجزل صلته عندما وفد عليه وفارقه وقد أثرى ثراء كثيرا قبض أرباب ديوان الزكاة بمصر على ما قدم به من المتجر وطالبوه بزكاة ما معه وكان ذلك في أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي فقال

ما كل من يتسمى بالعزيز لها * أهل ولا كل برق سحبه غدقه

بين العزيزين فرق في فعالهما * هذاك يعطى وهذا يأخذ الصدقه

ثم ان العزيز كشف عما يستأدى من الزكاة فانه انتهى اليـه فيها أقوال شنيعة منها انه أخذ من رجل فقير يبيع الملح في قفة على رأسه زكاة عما في القفة وأنه بيع جمل بخمسة دنانير ذهب فأخذ زكاتها خمسة دراهم فأمر بتفويض أمرها الى أرباب الاموال ومن وجب عليه حق ثم لما كانت سلطنة الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب أخرج من زكاة الاموال التى كانت تجبى من الناس سهمي الفقراء والمساكين وأمر بصرفهما في مصارفهما الشرعية ورتب من جملة هذين السهمين معاليم للفقهاء والصلحاء وأهل الخير تجرى عليهم فاستحسن ذلك من فعله وحمله الى ديوان الزكاة قبل منه ومن لم يحمل لا يتعرض اليه فبخل الاغنياء بزكاة أموالهم حتى تضرر الفقراء والمساكين وأخذ السعاة يبذلون في ضمانها الاموال لتعود الى ما كانت عليه فولى النظر في ديوان الزكاة القاضى الاسعد شرف الدين أبو المكارم أسعد بن مهذب بن مماتي فاستخرج الزكاة من أربابها ثم ضمنت بمال كثير وعاد الامر فيها الى ما كان عليه من العسف والجور وكانت أعوان متولى الزكاة يخرج الى منية ابن خصيب واخميم وقرص لكشف أحوال المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم فيبحثون عن جميع ما معهم ويدخلون أيديهم أوساط الرجال خشية أن يكون معهم مال ويحلفون الجميع بالأيمان الحرجة على ما بأيديهم وما عندهم غير ما وجدوه وتقوم طائفة من مردة هذه الاعوان وبأيديهم المسال الطوال ذوات الانصبة فيصعدون الى المراكب ويجسون بمسالهم جميع ما فيها من الاحمال والغرائر مخافة أن يكون فيها شئ من بضاعة أو مال فيبالغون في البحث والاستقصاء بحيث يقبح ويستشنع فعلهم ويقف الحجاج بين يدى هؤلاء الاعوان مواقف خزى ومهانة لما يصدر منهم عند تفتيش اوساطهم وغرائز أزوادهم ويحل بهم من العسف وسوء المعاملة مالا يوصف

وكذلك يفعل في جميع أرض مصر منذ عهد السلطان صلاح الدين بن أيوب * وأما الثغور فهى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب واسوان والاسكندرية وهى أعظمها قدرا فانه كان فيها عدة جهات منها الخمس والمتجر فالخمس مايستأدى من تجار الروم الواردين في البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضي ما صولحوا عليه وربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ومائتان وخمسة وثلاثون دينارا وربما انحط عن عشرين دينارا ويسمى كلاهما خمسا ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر ولذلك ضرائب مقررة وقال القاضى الفاضل والحاصل من خمس الاسكندرية في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ثمانية وعشرون ألف دينار وستمائة وثلاثة عشر دينارا والمتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو اليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة * قال جامع سيرة الوزير اليازورى وقصر النيل بمصر في سنة أربع وأربعين وأربعمائة ولم يكن في مخازن الغلات شئ فاشتدت المسغبة بمصر وكان لخلو المخازن سبب أوجب ذلك وهو أن الوزير الناصر للدين لما اضيف اليه القضاء في أيام أبي البركات الوزير كان يبتاع للسلطان في كل سنة غلة بمائة ألف درهم وتجعل متجرا فمثل القاضى بحضرة الخليفة المستعين بالله وعرفه أن المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتعفن في المخازن وتتلف وأنه يقيم متجرا لا كلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة ولا يخشى عليه من تغيره فى المخازن ولا انحطاط سعره وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك فأمضى السلطان له ماراه واستمر ذلك ودام الرخاء على الناس فوسعوا فيه مدة سنين ثم عمل الملوك بعد ذلك ديوانا للمتجر وآخر من عمله الظاهر برقوق * وأما الشب فان معادنه بالصعيد وكانت عادة الديوان الانفاق في تحصيل القنطار منه بالليثى يبلغ ثلاثين درهما وكانت العربان تحضره من معادنه الى ساحل اخميم وسيوط البهنسا ليحمل الى الاسكندرية أيام النيل في الخليج ويشترى بالقنطار الليثي ويباع بالقنطار الجروى فيباع منه على تجار الروم قدر اثني عشر ألف قنطار بالجروى بسعر أربعة دنانير كل قنطار الى ستة دنانير ويباع منه بمصر على اللبوديين والصباغين نحو الثمانين قنطارا بالجروى سعر ستة دنانير ونصف القنطار ولا يقدر احد على ابتياعه من العربان ولا غيرهم فان عثر على أحد أنه اشترى منه شيأ أو باعه سوى الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه منه وقد بطل هذا * (وأما النطرون) فيوجد في البر الغربي من أرض مصر بناحية الطرانة وهو أحمر وأخضر ويوجد منه بالفاقوسية شئ دون ما يوجد في الطرانة وهو أيضاً مما حظر عليه ابن مدبر من الاشياء التي كانت مباحة وجعله في ديوان السلطان وكان من بعده على ذلك الى اليوم وقد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه في كل سنة عشرة آلاف قنطار ويعطى الضمان منها في كل سنة قدر ثلاثين قنطارا يتسلمونها

من الطرانة فتباع في مصر بالقنطار المصرى وفي بحر الشرق والصعيد بالجروى وفي دمياط بالليثي قال القاضى الفاضل وباب النطرون كان مضمونا الى آخر سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمبلغ خمسة عشر ألفا وخمسمائة دينار وحصل منه في سنة ست وثمانين مبلغ سبعة آلاف وثمانمائة دينار وأدركنا النطرون اقطاعا لعدة أجناد* فلما تولى الامير محمود بن على الاستادارية وصار مدبر الدولة فى أيام الظاهر برقوق حاز النطرون وجعل له مكانا لايباع في غيره وهو الى الآن على ذلك (وأما الحبس الجيوشي) فكان في البرين الشرقى والغربي فنى الشرقي بهتين والاميرية والمنية وكانت تسجل هذه النواحى بعين وفي الغربي سفطونهيا ووسيم وهذه النواحي حبسها أمير الجيوش بدر الجمالي على عقبه هي والبساتين ظاهر باب الفتوح فلما مات وطال العهد استأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلبا للفائدة ثم ادخلت في الديوان قال ابن المأمون في تاريخه وجميع البساتين المختصة بالورثة الجيوشية مع البلاد التى لهم لم تزل في مدة أيام الوزير المأمون البطائحي بأيديهم لم تخرج عنهم بضمان ولا بغيره فلما توفي الخليفة الآمر بأحكام الله وجلس أبو على بن الافضل بن أمير الجيوش في الوزراة أعاد الجميع الى الملاك ليكون نصيبه فى ذلك الاوفر فلما قتل واستبد الخليفة الحافظ لدين الله أمر بالقبض على جميع الاملاك وحل الاحباس المختصة بأمير الجيوش فلم يزل يانس به لانه غلام الافضل والوزير في ذلك الوقت وعز الملك غلام الاوحد بن أمير الجيوش يتلطفان ويراجعان الخليفة مع الكتب التى أظهرها الورثة وعليها خطوط الخلفاء الى أن أبقاها عليهم ولم يخرجها عنهم ثم ارتفعت الحوطة عنها في سنة سبع وعشرين وخمسمائة للديوان الحافظي ولما خدم الخطير والمرتضى في سنة احدى وثلاثين وخمسمائة في وزارة رضوان بن ولخشى أعاد البساتين خاصة دون البلاد على الورثة بحكم ما آل أمرها اليه من الاختلال ونقص الارتفاع ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق منه سوى امرأة كبيرة أفتي فقهاء ذلك العصر ببطلان الحبس فقبضت النواحي وصارت من جملة الاموال السلطانية فمنها ما هو اليوم في الديوان السلطاني ومنها ما صار وقفا ورزقا أحباسية وغير ذلك *(وأما دار الضرب) فكان بالقاهرة دار الضرب وبالاسكندرية دار الضرب وبقوص دار الضرب ولايتولى عيار دار الضرب الا قاضي القضاة أو من يستخلفه ثم رذلت فى زمننا حتى صار يليها مسالمة فسقة اليهود المصرين على الفسق مع ادعائهم الاسلام وكان يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره الى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية فجاءت غير خالصة وكانت بمصر المعاملة بالورق فأبطلها الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب فى سنة بضع وعشرين وضرب الدرهم المدور الذى يقال له الكاملي وجعل فيه من النحاس قدر الثلث ومن الفضة الثلثين ولم يزل يضرب بالقاهرة الى أن أكثر الامير محمود الاستادار من ضرب الفلوس

بالقاهرة والاسكندرية فبطلت الدراهم من مصر وصارت معاملة أهلها الى اليوم بالفلوس وبها يقوم الذهب وسائر المبيعات وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكر اسباب خراب مصر وكانت دار الضرب يحصل منها للسلطان مال كثير فقل فى زماننا لقلة الاموال ودار الضرب اليوم جارية فى ديوان الخاص* (وأما دار العيار) فكانت مكانا يحتاط فيه للرعية وتصليح موازينهم ومكاييلهم به ويحصل منها للسلطان مال وجعلها السلطان صلاح الدين من جملة أوقاف سور القاهرة وقد ذكرت في خطط القاهرة من هذا الكتاب* (وأما الاحكار) فانها اجر مقررة على ساحات بمصر والقاهرة فمنها ماصار دورا للسكني ومنها ما أنشئ بساتين وكانت تلك الاجر من جملة الاموال السلطانية وقد بطل ذلك من ديوان السلطان وصارت أحكار مصر والقاهرة وما بينهما أوقافا على جهات متعددة * (وأما الغروس) فكانت في الغربية فقط عدة أراض يؤخذ منها شبه الحكر عن كل فدان مقرر معلوم وقد بطل ذلك من الديوان *(وأما مقرر الجسور) فكان على كل ناحية تقرير بعدة قطع معلومة يجبى منها عن كل قطعة عشرة دنانير لتصرف فى عمل الجسور فيفضل منها مال كثير يحمل الى بيت المال وقد بطل هذا أيضا وجدد الناصر فرج على الجسور حوادث قد ذكرت في أسباب الخراب* (وأما موظف الاتبان) فكان جميع تبن أرض مصر على ثلاثة أقسام قسم للديوان وقسم للمقطع وقسم للفلاح فيجبى التبن على هذا الحكم من سائر الاقاليم ويؤخذ في التبن عن كل مائة حمل أربعة دنانير وسدس دينار فيحصل من ذلك مال كثير وقد بطل هذا أيضاً من الديوان * وأما الخراج) فانه كان في البهنساوية وسفط ريشين والاشمونين والاسيوطية والاخميمية والقوصية أشجار لاتحصى من سنط لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الاسطول فلا يقع منها الا ماتدعو الحاجة اليه وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار * وكان يستخرج من هذه النواحى مال يقال له رسم الخراج ويحتج في جبايته بانه نظير ماتقطعه أهل النواحي وتنتفع به من أخشاب السنط في عمائرها ومقرر آخر كان يجبي منهم يعرف بمقرر السنط فيصرف من هذا المقرر أجرة قطع الخشب وحزه بضريبة عن كل مائة حمل دينار وعلى المستخدمين في ذلك أن لايقطعوا من السنط مايصلح لعمل مراكب الاسطول لكنهم انما يقطعون الاطراف التي ينتفع بها في الوقود فقط ويقال لهذا الذى يقطع حطب النار فيباع على التجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير ويكتب على أيديهم زنة ما بيع عليهم فاذا وردت المراكب بالحطب الى ساحل مصر اعتبرت عليهم وقوبل ما فيها بما عين في الرسالة الواردة واستخرج الثمن على مافي الرسالة وكانت العادة أنه لايباع مما في البهنسا الا مافضل عن احتياج المصالح السلطانية وقد بطل هذا جميعه واستولت الايدى على تلك الاشجار فلم يبق منها شئ البتة ونسى هذا من

الديوان *(وأما القرظ) فانه ثمر شجر السنط وكان لايتصرف فيه الا الديوان ومتى وجد منه مع أحد شيء اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك ماوجد معه منه فاذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع ويؤخذ من ثمنها الربع عند ما تصل الى ساحل مصر بعد ماتقوم أو ينادى عليها وكان فيها حيف كبير وقد بطل ذلك * (وأما مايستأدى من أهل الذمة) فانه كان يؤخذ منهم عما يرد ويصدر معهم من البضائع في مصر والاسكندرية وأخميم خاصة دون بقية البلاد ضرائب بتقرير في الديوان وقد بطل ذلك أيضا *(وأما مقرر الجاموس ومقرر بقر الخيس ومقرر الاغنام)* فانه كان للسلطان من هذه الاصناف شيء كثير جدا فيؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب في نظير مايحصل منه في كل سنة من خمسة دنانير الى ثلاثة دنانير ومن اللاحق بحق النصف من الراتب وأقل ماتنتج كل مائة خمسون الى غير ذلك من ضرائب مقررة على الجاموس وعلى أبقار الخيس وعلى الغنم البيض والغنم الشعارى وعلى النحل وقد بطل ذلك جميعه لقلة مال السلطان واعراضه عن العمارة وأسبابها وتعاطي أسباب الخراب *(وأما المواريث)* فانها في الدولة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم من أجل أن مذهبهم توريث ذوى الارحام وأن البنت اذا انفردت استحقت المال بأجمعه فلما انقضت أيامهم واستولت الايوبية ثم الدولة التركية صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية وهي التي يستحقها بيت المال عند عدم الوارث فتعدل فيها الوزارة مرة وتظلم أخرى (وأما المكوس) فقد تقدم حدوثها وما كان من الملوك فيها والذى بقى منها الى الآن بديار مصر يلى أمره الوزير وفي الحقيقة انما هو نفع للاقباط يخولون فيه بغير حق وقد تضاعفت المكوس فى زمننا عما كنا نعهده منذ عهد تحدث الامير جمال الدين يوسف الاستادار فى الاموال السلطانية كما ذكر فى أسباب الخراب *(وأما البراطيل)* وهي الاموال التي تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها فأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزيك فى ولاة النواحي فقط ثم بطل وعمل في أيام العزيز بن صلاح الدين أحيانا وعمله الامير شيخون في الولاة فقط ثم أفحش فيه الظاهر برقوق كما يأتى فى أسباب الخراب (وأما الحمايات والمستأجرات) فشيء حدث في أيام الناصر فرج وصار لذلك ديوان ومباشرون وعمل مثل ذلك الامراء وهو من أعظم أسباب الخراب كما يذكر فى موضعه ان شاء الله تعالى

ذكر الاهرام

اعلم ان الاهرام كانت بأرض مصر كثيرة جدا منها بناحية بوصير شيء كثير بعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر عدة كثيرة كلها صغار هدمت فى أيام السلطان

صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش وبني بها قلعة الجبل والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التي بالجيزة وأعظم الاهرام الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر وقد اختلف الناس فى وقت بنائها واسم بانيها والسبب فى بنائها وقالوا في ذلك أقوالا متباينة أكثرها غير صحيح وسأقص عليك من نبا ذلك مايشفى ويكفى ان شاء الله تعالى * قال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب فى أخبار مصر وعجائبها فى أخبار سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هو صال أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون فى مدينة أمسوس الآتي ذكرها عند ذكر مدائن مصر من هذا الكتاب وهو الذى بنى الهرمين المعظيمين بمصر المنسوبين الى شداد بن عاد والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم وسبب بناء الهرمين أنه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة قد رأى سوريد في منامه كأن الارض انقلبت بأهلها وكأن الناس قد هربوا على وجوههم وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضا باصوات هائلة فغمه ذلك ولم يذكره لاحد وعلم أنه سيحدث في العالم أمر عظيم ثم رأى بعد ذلك بايام كأن الكواكب الثابتة نزلت الى الارض فى صور طيور بيض وكانها تختطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين وكان الجبلين قد انطبقا عليهم وكأن الكواكب المنيرة مظلمة مكسوفة فانتبه مرعوبا مذعورا ودخل الى هيكل الشمس وتضرَّع ومرغ خديه على التراب وبكى فلما أصبح جمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر وكانوا مائة وثلاثين كاهنا فخلا بهم وحدثهم ما رآه أولا وآخر فأولوه بأمر عظيم يحدث في العالم فقال عظيم الكهان ويقال له أقليمون ان أحلام الملوك لاتجري على محال لعظم أقدارهم وأنا أخبر الملك برؤيا رأيتها منذ سنة ولم أذكرها لاحد من الناس رأيت كأنى قاعد مع الملك على وسط المنار الذي بامسوس وكأن الفلك قد انحط من موضعه حتى قارب رؤسنا وكان علينا كالقبة المحيطة بنا وكأن الملك قد رفع يديه نحو السماء وكواكبها قد خالطتها في صور شتى مختلفة الاشكال وكأن الناس قد جفلوا الى قصر الملك وهم يستغيثون به وكأن الملك قد رفع يديه حتى بلغتا رأسه وأمرني أن أفعل كما فعل ونحن على وجل شديد اذ رأينا منها موضعا قد انفتح وخرج منه نور مضيء وطلعت علينا منه الشمس وكأنا استغثنا بالشمس فخاطبتنا أن الفلك سيعود الى موضعه فانتبهت مرعوبا ثم نمت فرأيت كأن مدينة أمسوس قد انقلبت بأهلها والاصنام تهوى على رؤسها وكأن أناسا نزلوا من السماء بأيديهم مقامع من حديد يضربون الناس بها فقلت لهم ولم تفعلون بالناس كذا قالوا لانهم كفروا بالههم قلت فما بقى لهم من خلاص قالوا نعم من أراد الخلاص فليلحق بصاحب السفينة فانتبهت مرعوبا فقال الملك خذوا الارتفاع للكواكب وانظروا هل من حادث فبلغوا غايتهم في استقصاء ذلك وأخبروا بأمر الطوفان وبعده بالنار التي تخرج من برج الاسد

تحرق العالم فقال الملك انظروا هل تلحق هذه الآفة بلادنا فقالوا نعم تأتى في الطوفان على أكثره ويلحقه خراب يقيم عدة سنين قال فانظروا هل يعود عامرا كما كان أو يبقى مغمورا بالماء دائما قالوا بل تعود البلاد كما كانت وتعمر قال ثم ماذا قالوا يقصدها ملك يقتل أهلها ويغنم مالها قال ثم ماذا قالوا يقصدها قوم مشوهون من ناحية جبل النيل ويملكون أكثرها قال ثم ماذا قالوا ينقطع نيلها وتخلو من أهلها فأمر عند ذلك بعمل الاهرام وأن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل الى مكان بعينه ثم يفيض الى مواضع من أرض الغرب وأرض الصعيد وملأها طلسمات وعجائب وأموالا وأصناما وأجساد ملوكهم وأمر الكهان فزبروا عليها جميع ماقالته الحكماء وزبر فيها وفي سقوفها وحيطانها وأسطواناتها جميع العلوم الغامضة التي يدعيها أهل مصر وصور فيها صور الكواكب كلها وزبر عليها أسماء العقاقير ومنافعها ومضارها وعلم الطلسمات وعلم الحساب والهندسة وجميع علومهم مفسرا لمن يعرف كتابتهم ولغتهم * ولما شرع في بنائها أمر بقطع الاسطوانات العظيمة ونشر البلاط الهائل واستخراج الرصاص من أرض المغرب واحضار الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الاهرام الثلاثة الشرقي والغربي والملون وكانت لهم صحائف وعليها كتابة اذا قطع الحجر وتم احكامه وضعوا عليه تلك الصحائف وضربوه فيبعد بتلك الضربة قدر مائة سهم ثم يعاودون ذلك حتى يصل الحجر الى الاهرام وكانوا يمدون البلاطة ويجعلون في ثقب بوسطها قطبا من حديد قائما ثم يركبون عليها بلاطة أخرى مثقوبة الوسط ويدخلون القطب فيها ثم يذاب الرصاص ويصب في القطب حول البلاطة بهندام واتقان الى أن كملت وجعل لها أبوابا تحت الارض بأربعين ذراعا فأما باب الهرم الشرقى فانه من الناحية الشرقية على مقدار مائة ذراع من وسط حائط الهرم وأما باب الهرم الغربي فانه من الناحية الغربية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط وأما باب الهرم الملون فانه من الناحية الجنوبية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط فاذا حفر بعد هذا القياس وصل الى باب الازج المبني ويدخل الى باب الهرم وجعل ارتفاع كل واحد من الاهرام في الهواء مائة ذراع بالذراع الملكي وهو بذراعهم خمسمائه ذراع بذراعنا الآن وجعل طول كل واحد من جميع جهاته مائة ذراع بذراعهم ثم هندسها من كل جانب حتى تحددت أعاليها من آخر طولها على ثمانية أذرع بذراعنا وكان ابتداء بنائها في طالع سعيد اجتمعوا عليه وتخيروه فلما فرغت كساها ديباجا ملونا من فوقها الى أسفلها وعمل لها عيدا حضره أهل مملكته بأجمعهم ثم عمل في الهرم الغربى ثلاثين مخزنا من حجارة صوان ملون وملئت بالاموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر من السلاح الذى لا يصدأ والزجاج الذي ينطوى ولا ينكسر والطلسمات الغريبة وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة والسموم القاتلة وعمل في

الهرم الشرقي أصناف القباب الفلكية والكواكب وما عمله أجداده من التماثيل والدخن التي يتقرب بها الى الكواكب ومصاحفها وكون الكواكب الثابتة وما يحدث في ادوارها وقتاوقتا وماعمل لها من التواريخ والحوادث التى مضت والاوقات التي ينتظر فيهامايحدث وكل من يلي مصر الى آخر الزمان وجعل فيها المطاهر التى فيها المياه المدبرة وما أشبه ذلك وجعل فى الهرم الملون أجساد الكهنة في توابيت من صوان اسود ومع كل كاهن مصحف فيه عجائب صناعاته وأعماله وسيرته وما عمل في وقته وماكان وما يكون من أول الزمان الى آخره وجعل في الحيطان من كل جانب أصناما تعمل بأيديها جميع الصنائع على مراتبها وأقدارها وصفة كل صنعة وعلاجها ومايصلح لها ولم يترك علما من العلوم حتي زبره ورسمه وجعل فيها اموال الكواكب التي أهديت الى الكواكب وأموال الكهنة وهو شئ عظيم لا يحصى وجعل لكل هرم منها خادما فخادم الهرم الغربي صنم من حجارة صوان مجزع وهو واقف ومعه شبه حربة وعلى رأسه حية قد تطوق بها من قرب منه وثبت اليه وطوقت على عنقه وقتلته ثم تعود الى مكانها وجعل خادم الهرم الشرقي صنما من جزع أسود مجزع بأسود وأبيض له عينان مفتوحتان براقتان وهو جالس على كرسى ومعه حربة اذا نظر أحد اليه سمع من جهته صوتا يفزع منه فيخر على وجهه ولا يبرح حتي يموت وجعل خادم الهرم الملون صنما من حجر البهت على قاعدة منه من نظر اليه جذبه حتي يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت فلما فرغ من ذلك حصن الاهرام بالارواح الروحانية وذبح لها الذبائح لتمنع عن انفسها من ارادها الا من عمل لها اعمال الوصول اليها * وذكر القبط في كتبهم أن عليها منقوشا تفسيره بالعربية اناسوريد الملك بنيت هذه الاهرام في وقت كذا وكذا وأتممت بناءها في ست سنين فمن أتى بعدى وزعم انه ملك مثلي فليهدمها في ستمائة سنة وقد علم أن الهدم أيسر من البنيان واني كسوتها عند فراغها بالديباج فليكسها بالحصر فنظروا فوجدوا انه لا يقوم بهدمها شئ من الازمان الطوال * وحكى القبط في كتبهم أن روحانية الهرم الشمالى غلام امرد أصفر اللون عريان في فمه أنياب كبار وروحانية الهرم الجنوبى امرأة عريانة بادية الفرج حسناء في فمها أنياب كبار تستهوى الانسان اذا رأته وتضحك له حتي يدنو منها فتسلبه عقله وروحانية الهرم الملون شيخ في يده مجمرة من مجامر الكنائس يبخر بها وقد رأى غير واحد من الناس هذه الروحانيات مرارا وهي تطوف حول الاهرام وقت القائلة وعند غروب الشمس قال ولما مات سوريد دفن في الهرم ومعه أمواله وكنوزه وقالت القبط ان سوريد هو الذى بني البرابى وأودع فيها كنوزا وزبر عليها علوما ووكل بها روحانيات تحفظها ممن يقصدها قال وأما الاهرام الدهشورية فيقال ان شدات بن عديم هو الذى بناها من الحجارة التي كانت قد قطعت فى زمن ابيه وشدات هذا يزعم بعض الناس

أنه شداد بن عاد وقال من أنكر أن يكون العادية دخلت مصر انما غلطوا باسم شدات بن عديم فقالوا شداد بن عاد لكثرة مايجرى على ألسنتهم شداد بن عاد وقلة ما يجرى على ألسنتهم شدات بن عديم والا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر ولا قوى على أهلها غير بخت نصر والله أعلم * وذكر أبو الحسن المسعودي فى كتابه أخبار الزمان ومن أباده الحدثان أن الخليفة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد لما قدم مصر وأتي على الاهرام أحب أن يهدم احدها ليعلم مافيها فقيل له انك لا تقدر على ذلك فقال لا بد من فتح شئ منه ففتحت له الثلمة المفتوحة الآن بنار توقد وخل يرش ومعاول وحدادين يعملون فيها حتى أنفق عليها اموالا عظيمة فوجدوا عرض الحائط قريبا من عشرين ذراعا فلما انتهوا الى آخر الحائط وجدوا خلف الثقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب وزن كل دينار أوقية وكان عددها ألف دينار فجعل المامون يتعجب من ذلك الذهب ومن جودته ثم أمر بجملة ما أنفق على الثلمة فوجدوا الذهب الذي أصابوه لا يزيد على ما أنفقوه ولا ينقص فعجب من معرفتهم بمقدار ما ينفق عليه ومن تركهم مايوازيه فى الموضع عجبا عظيما وقيل ان المطهرة التى وجد فيها الذهب كانت من زبرجد فأمر المأمون بحملها الى خزانته وكان آخر ماعمل من عجائب مصر وأقام الناس سنين يقصدونه وينزلون فيه الزلاقة التى فيه فمنهم من يسلم ومنهم من يهلك فاتفق عشرون من الاحداث على دخوله وأعدوا لذلك ما يحتاجون من طعام وشراب وحبال وشمع ونحوه ونزلوا في الزلاقة فرأوا فيها من الخفاش ما يكون كالعقبان يضرب وجوههم ثم انهم أدلوا أحدهم بالحبال فانطبق عليه المكان وحاولوا جذبه حتى اعياهم فسمعوا صوتا أرعبهم فغشى عليهم ثم قاموا وخرجوا من الهرم فبينماهم جلوس يتعجبون مما وقع لهم اذ أخرجت الارض صاحبهم حيا من بين أيديهم يتكلم بكلام لم يعرفوه ثم سقط ميتا فحملوه ومضوا به فاخذهم الخفراء واتوا بهم الى الوالى فحدثوه خبرهم ثم سألوا عن الكلام الذى قال صاحبهم قبل موته فقيل لهم معناه هذا جزاء من طلب ما ليس له وكان الذى فسر لهم معناه بعض أهل الصعيد * وقال على بن رضوان الطبيب فكرت فى بناء الاهرام فأوجب علم الهندسة العملية ورفع الثقيل الى فوق أن يكون القوم هندسوا سطحا مربعا ونحتوا الحجارة ذكرا وانثى ورصوها بالجبس البحرى الى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازى للمربع الاسفل مربعا أصغر من المربع السفلاني ثم عملوا فى السطح المربع الفوقاني مربعا أصغر بمقدار ما بقى في الحاشية ما يمكن رفع الثقيل اليه وكلما رفعوا حجرا مهندما رصوه اليه ذكرا وانثى الى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الاول ولم يزالوا يفعلون ذلك الى أن بلغوا غاية لا يمكنهم بعدها أن يفعلوا ذلك فقطعوا الارتفاع ونحتوا الجوانب البارزة التي فرضوها لرفع الثقيل ونزلوا

في النحت من فوق الى أسفل وصار الجميع هرما واحدا * وقياس الهرم الاول بالذراع التي تقاس بها اليوم الابنية بمصر كل حاشية منه أربعمائة ذراع يكون بالذراع السوداء التى طول كل ذراع منها أربعة وعشرون أصبعا خمسمائة ذراع وذلك أن قاعدته مربع متساوى الاضلاع والزوايا ضلعان منهما على خط نصف النهار وضلعان على خط المشرق والمغرب وكل ضلع بالذراع السوداء خمسمائة ذراع والخط المنحدر على استقامة من رأس الهرم الى نصف ضلع المربع اربعمائة وسبعون ذراعا يكون اذا تمم أيضا خمسمائة ذراع وأحيط بالهرم اربع مثلثات ومربع كل مثلث منها متساوى الساقين كل ساق منه اذا تمم خمسمائة وستون ذراعا والمثلثات الاربعة تجتمع رؤسها عند نقطة واحدة وهي رأس الهرم اذا تمم فيلزم أن يكون عموده اربعمائة وثلاثين ذراعا وعلى هذا العمود مراكز أثقاله ويكون تكسير كل مثلث من مثلثاته مائة وخمسة وعشرين ألف ذراع اذا اجتمع تكاسيرها كان مبلغ تكسير سطح هذا الهرم خمسمائة ألف ذراع بالسوداء وما أحسب على وجه الارض بناء اعظم منه ولا أحسن هندسة ولا اطول والله أعلم* وقد فتح المامون نقبا من هذا الهرم فوجد فيه زلاقة تصعد الى بيت مربع مكعب ووجد في سطحه قبر رخام وهو باق فيه الى اليوم ولم يقدر أحد يحطه وبذلك أخبر جالينوس أنها قبور فقال في آخر الخامسة من تدبير الصحة بهذا اللفظ وهم يسمون من كان في هذا السن الهرم وهو اسم مشتق من الاهرام التى هم اليها صائرون عن قريب وقال الحوقلي في صفة مصر وبها الهرمان اللذان ليس على وجه الارض لهما نظير في ملك مسلم ولا كافر ولا عمل ولا يعمل لهما وقرأ بعض بنى العباس على أحدهما اني قد بنيتهما فمن كان يدعى قوة في ملكه فليهدمهما فالهدم ايسر من البنيان فهم بذلك وأظنه المامون أو المعتصم فاذا خراج مصر لا يقوم به يومئذ وكان خراجها على عهده بالانصاف في الجباية وتوخي الرفق بالرعية والمعدلة اذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا وعشر اصابع أربعة آلاف ألف ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار والمقبوض على الفدان دينارين فأعرض عن ذلك ولم يعد فيه شيأ* وفى حد الفسطاط فى غربى النيل ابنية عظام يكثر عددها مفترشة في سائر الصعيد تدعي الاهرام وليست كالهرمين اللذين تجاه الفسطاط وعلى فرسخين منها ارتفاع كل واحد منهما أربعمائة ذراع وعرضه كارتفاعه مبنى بحجارة الكدان التى سمك الحجر وطوله وعرضه من العشر اذرع الى الثمان بحسب مادعت الحاجة الى وضعه فى زيادته ونقصه وأوجبته الهندسة عندهم لانهما كلما ارتفعا فى البناء ضاقا حتي يصير اعلاهما من كل واحد منهما مثل مبرك جمل وقد ملئت حيطانهما بالكتابة اليونانية وقد ذكر قوم أنهما قبران وليس كذلك وانما حمل صاحبهما على عملهما أنه قضى بالطوفان أنه يهلك جميع ما على وجه الارض الا ماحصن في مثلهما لخزن ذخائره وأمواله

فيهما وأتي الطوفان ثم نضب فصار ما كان فيهما الى بيصر بن مصرايم بن حام بن نوح وقد
خزن فيهما بعض الملوك المتاخرين وجعلهما هراءه والله أعلم * وقال أبو يعقوب محمد بن
اسحاق النديم الوراق في كتاب الفهرست وقد ذكر هرمس البابلى قد اختلف في أمره
فقيل انه كان أحد السدنة السبعة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة وأنه كان لترتيب
عطارد وباسمه سمى فان عطارد باللغة الكلدانية هرمس وقيل انه انتقل الى أرض
مصر بأسباب وانه ملكها وكان له أولاد منهم طاوصا وأشمن وأتريب وقفط وانه كان
حكيم زمانه وانه لما توفي دفن في البناء الذى يعرف بمدينة مصر بأبى هرميس ويعرفه
العامة بالهرمين فان أحدهما قبره والآخر قبر زوجته وقيل قبر ابنه الذى خلفه بعد موته
وهذه البنية يعنى الاهرام طولها بالذراع الهاشمى أربعمائة ذراع وثمانون ذراعا على مساحة
أربعمائة وثمانين ذراعا ثم ينخرط البناء فاذا حصل الانسان في رأسه كان مقدار سطحه
أربعين ذراعا هذا بالهندسة وفي وسط هذا السطح قبة لطيفة في وسطها شبيهة بالمقبرة وعند
رأس ذلك القبر صخرتان في نهاية النظافة والحسن وكثرة التلون وعلى كل واحدة منهما
شخصان من حجارة صورة ذكر وانثى وقد تلاقيا بوجهيهما وبيد الذكر لوح من حجارة
فيه كتابة وبيد الانثى مرآة والرف ذهب نقشه نقاش وبين الصخرتين برنية من حجارة
على رأسها غطاء ذهب فلما قلع فاذا فيها شبيه بالقار بغير رائحة قد يبس وفيها حقة ذهب
فنزع رأسها فاذا فيها دم عبيط ساعة قرعه الهواء جمد كما يجمد الدم وجف وعلى القبور
اغطية حجارة فلما قلعت اذا رجل نائم على قفاه على نهاية الصحة والجفاف بين الحلقة ظاهر
الشعور والى جنبه امرأة على هيئته قال وذلك السطح منقر نحو قامة كما يدور مثل المسمار ذات
آزاج من حجارة فيها صور وتماثيل مطروحة وقائمة وغير ذلك من الآلة التي لا تعرف
أشكالها * وقال العلامة موفق الدين عبد اللطيف بن أبى العز يوسف بن أبى البركات محمد
ابن على بن سعد البغدادى المعروف بابن المطحن في سيرته وجاء رجل جاهل عجمى نخيل الى
الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أن الهرم الصغير تحته مطلب فاخرج اليه الحجارين
واكثر العسكر وأخذوا في هدمه وأقاموا على ذلك شهورا ثم تركوه عن عجز وخسران مبين
في المال والعقل ومن يرى حجارة الهرم يقول انه قد استوصل الهرم ومن يرى الهرم
لا يجد به الا تشعيثا يسيرا وقد أشرفت على الحجارين فقلت لمقدمهم هل تقدرون على اعادته
فقال لو بذل لنا السلطان عن كل حجر ألف دينار لم يمكنا ذلك * وقال أبو الحسن المسعودى
فى مروج الذهب وأما الأهرام فطولها عظيم وبنيانها عجيب عليها أنواع من الكتابات باقلام
الامم السالفة والممالك الداثرة لا يدرى ما تلك الكتابة ولا المراد بها وقد قال من عني
بتقدير ذرعها ان مقدار ارتفاع الهرم الكبير ذهابا فى الجو نحو أربعمائة ذراع أو أكثر

وكلما صعد دق ذلك والعرض نحو ما وصفنا وعليها من الرسوم علوم وخواص وسحر وأسرار الطبيعة وأن من تلك الكتابة مكتوبا انا بنيناها فمن يدعي موازاتنا في الملك وبلوغ القدرة وانتهاء أمر السلطان فليهدمها وليزل رسمها فان الهدم أيسر من البناء والتفريق اسهل من التأليف * وقد ذكر أن بعض ملوك الاسلام شرع يهدم بعضها فاذا خراج مصر لايفى بقلعها وهي من الحجر والرخام وأنها قبور لملوك وكان الملك منهم اذا مات وضع في حوض من حجارة ويسمى بمصر والشام الجرون واطبق عليه ثم بني من الهرم على مقدار مايريدون من ارتفاع الاساس ثم يحمل الحوض ويوضع وسط الهرم ثم يقنطر عليه البنيان ثم يرفعون البناء على المقدار الذى يرونه ويجعل باب الهرم تحت الهرم ثم يحفر له طريق في الارض ويعقد أزج طوله تحت الارض مائة ذراع أو أكثر ولكل هرم من هذه الاهرام باب مدخله على ما وصفت قال وكان القوم يبنون الهرم من هذه الاهرام مدرجا ذامراق كالدرج فاذا فرغوا نحتوه من فوق الى أسفل فهذه كانت جبلتهم وكانوا مع ذلك لهم قوة وصبر وطاعة * وقال في كتاب البنية والاشراف والهرمان اللذن في الجانب الغربى من فسطاط مصرهما من عجائب بنيان العالم كل واحد منهما أربعمائة ذراع في سمك مثل ذلك مبنيان بالحجر العظيم على الرياح الاربع كل ركن من أركانهما يقابل ريحا منها فأعظمهافيهما تأثيرا ريح الجنوب وهى المريسى وأحد هذين الهرمين قبر أغاديمون والآخر قبر هرمس وبينهما نحو ألف سنة وأغاديمون المتقدم وكان سكان مصر وهم الاقباط يعتقدون نبوتهما قبل ظهور النصرانية فيهم على مايوجبه رأى الصابئين فى النبوات لاعلى طريق الوحي بل هم عندهم نفوس طاهرة صفت وتهذبت من أدناس هذا العالم فاتحدت بهم مواد علوية فاخبروا عن الكائنات قبل كونها وعن سرائر العالم وغير ذلك وفي العرب من اليمانية من يرى انهما قبر شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر في قديم الدهر وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم وهى عند من ذكرنا من الصابئين قبور أجساد طاهرة * وذكر أبو زيد البلخي أنه وجد مكتوبا على الاهرام بكتابتهم خط فعرب فاذا هو بنى هذان الهرمان والنسر الواقع في السرطان فحسبوا من ذلك الوقت الى الهجرة النبوية فاذا هو ست وثلاثون ألف سنة شمسية مرتين يكون اثنتين وسبعين ألف سنة شمسية* وقال الهمدانى في كتاب الاكليل لم يوجد مما كان تحت الماء وقت الغرق من القرى قرية فيها بقية سوى نهاوند وجدت كما هى اليوم لم تتغير واهرام الصعيد من أرض مصر* وذكر أبو محمد عبد الله بن عبد الرحيم القيسي في كتاب تحفة الالباب أن الاهرام مربعة الجملة مثلثة الوجوه وعددها ثمانية عشر هرما في مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة اهرام اكبرها دوره الفا ذراع في كل وجه خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع وكل حجر من حجارتهما

ثلاثون ذراعا في غلظ عشرة أذرع قد أحكم الصاقه ونحته ومنها عند مدينة فرعون يوسف هرم أعظم واكبر دوره ثلاثة آلاف ذراع وعلوه سبعمائة من حجارة كل حجر خمسون ذراعا وعندمدينةفرعون موسى أهرام اكبر واعظم وهرم آخر يعرف بهرم مدون كأنه جبل وهو خمس طبقات وفتح المامون الهرم الكبير الذى تجاه الفسطاط قال وقددخلت فى داخله فرأيت قبة مربعة الاسفل مدورة الاعلى كبيرة في وسطها بئر عمقها عشرة أذرع وهي مربعة ينزل الانسان فيها فيجد في كل وجه من تربيع البئر بابا يفضى الى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم اكفان كثيرة اكثر من مائة ثوب على كل واحد قد بليت بطول الزمان واسودت وأجسامهم مثلنا ليسوا طوالا ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شيء وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض وأجسادهم قوية لايقدر الانسان أن يزيل عضوا من أعضائهم البتة ولكنهم خفوا حتى صاروا كالغثا لطول الزمان وفى تلك البئر أربعة من الدور مملوءة باجساد الموتي وفيها خفاش كثير وكانوا يدفنون أيضا جميع الحيوان فى الرمال ولقد وجدت ثيابا ملفوفة كثيرا مقدار جرمها اكثر من ذراع وقد احترقت تلك الثياب من القدم فازلت الثياب الى أن ظهرت خرق صحاح قوية بيض من كتان أمثال العصائب فيهاأعلام من الحرير الاحمر وفي داخلها هدهد ميت لم يتناثر من ريشه ولا من جسده شيء كأنه قدمات الآن * وفي القبة التي في الهرم باب يفضي الى علو الهرم وليس فيه درج عرضه نحو خمسة أشبار يقال انه صعد فيها في زمان المأمون فأفضوا الى قبة صغيرة فيهاصورة آدمي من حجر أخضر كالدهنج فاخرجت الى المامون فاذا هي مطبقة فلما فتحت وجد فيها جسد آدمي عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر وعلى صدره نصل سيف لاقيمة له وعند رأسه حجرياقوت أحمر كبيضة الدجاجة يضيء كلهب النار فأخذه المامون * وقد رأيت الصنم الذي أخرج منه ذلك الميت ملقى عند باب دار الملك بمصر في سنة احدى عشرة وخمسمائة * وقال القاضى الجليل أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى روى على بن الحسن بن خلف بن قديد عن يحيي بن عثمان بن صالح عن محمد بن على بن صخر التميمي قال حدثني رجل من عجم مصر من قرية من قراها تدعي قفط وكان عالما بأمور مصر وأحوالها وطالبا لكتبها القديمة ومعادنها قال وجدنا في كتبنا القديمة قال وأما الاهرام فان قوما احتفروا قبرا فى دير أبي هرميس فوجدوا فيه ميتا فى اكفانه وعلى صدره قرطاس ملفوف فى خرق فاستخرجوه من الخرق فرأوا كتابا لا يعرفونه وكان الكتاب بالقبطية الاولى فطلبوا من يقرأه لهم فلم يقدروا عليه فقيل لهم ان بدير القلمون من أرض الفيوم راهبا يقرأه فخرجوا اليه وقد ظنوا انه فى الضيعة فقرأه لهم وكان فيه كتب هذا الكتاب في أول سنة من ملك ديقلطيانس الملك وانا استنسخناه من كتاب نسخ في اول سنة من ملك فيلبش الملك وان فيلبش استنسخه

من صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا وكان من الكتاب الاول ترجمه له اخوان من القبط يقال لاحدهما ايلو والآخر يرثا وان الملك فيلبش سألهما عن سبب معرفتهما بما جهله الناس من قراءته فذكرا أنهما من ولد رجل من اهل مصر الاوائل لم ينج من الطوفان من أهل مصر أحد غيره وكان سبب نجاته انه أتى نوحا عليه السلام فآمن به ولم يأته من أهل مصر غيره فحمله معه فى السفينة فلما نضب ماء الطوفان أتى مصر ومعه نفر من ولد حام بن نوح وكان بها حتي هلك فورث ولده علم كتاب أهل مصر الاول فورثناه عنه كابرا عن كابر وكان تاريخه الذى مضى الى أن استنسخه فيلبش ألفا وثلثمائة واثنتين وسبعين سنة وان الذى استنسخه في صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا على ما وجده فيلبش وان تاريخه الى أن استنسخه ألف وسبعمائة سنة وخمس وثمانون سنة * وكان الكتاب المنسوخ انا نظرنا فيما تدل عليه النجوم فرأينا أن آفة نازلة من السماء وخارجة من الارض فلما بان لنا الكون نظرنا ماهو فوجدناه ماء مفسدا للارض وحيوانها ونباتها فلما تم اليقين من ذلك عندنا قلنا لملكنا سوريد بن سهلوق مر ببناء افروشات وقبر لك وقبر لاهل بيتك فبني لهم الهرم الشرقى وبنى لاخيه هوجيت الهرم الغربى وبني لابن هوجيت الهرم الملون وبنيت افروشات في أسفل مصر واعلاها فكتبنا في حيطانها علم غامض أمر النجوم وعللها والصنعة والهندسة والطب وغير ذلك مما ينفع ويضر ملخصا مفسرا لمن عرف كلامنا وكتابتنا وان هذه الآفة نازلة باقطار العالم وذلك عند نزول قلب الاسد فى أول دقيقة من رأس السرطان ويكون الكوكب عند نزوله اياها في هذه المواضع من الفلك الشمس والقمر فى اول دقيقة من رأس الحمل وقوريس في درجة وثمان وعشرين دقيقة من الحمل وراويس في الحوت فى تسع وعشرين درجة وثمان وعشرين دقيقة وآويس في الحوت فى تسع وعشرين درجة وثلاث دقائق وافرد وبطن فى الحوت في ثمان وعشرين درجة ودقائق وهرمس في الحوت فى سبع وعشروين ودقائق والجوزهر فى الميزان واوج القمر في الاسد فى خمس درجات ودقائق * ثم نظرنا هل يكون بعد هذه الآفة كون مضر بالعالم فأصبنا الكواكب تدل على أن آفة نازلة من السماء الى الأرض وانها ضد الآفة الاولى وهى نار محرقة اقطار العالم ثم نظرنا متى يكون هذا الكون المضر فرأيناه يكون عند حلول قلب الاسد في آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشر من الاسد ويكون ايليس معه فى دقيقة واحدة متصله بقوريس من تثليث الرامى ويكون راويس مشترى في أول الاسد في آخر احتراقه ومعه آويس فى دقيقة ويكون سليس فى الدلو مقابلا لايليس الشمس ومعه الذنب فى اثنتين وعشرين ويكون كسوف شديد له مكث يوازى القمر ويكون هرمس عطارد في بعده الا بعد أمامها مقبلين أما أفرد وبطن فللاستقامة وأما هرمس فللرجعة * قال الملك فهل عندكم من خبر توقفونا عليه غير هاتين الآفتين قالوا

اذا قطع قلب الاسد ثلثي سدس ادواره لم يبق من حيوان الارض متحرك الاتلف فاذا استتم ادواره تحللت عقد الفلك وسقط على الارض قال لهم وأى يوم فيه انحلال الفلك قالوا اليوم الثاني من بدو حركة الفلك فهذا ماكان في القرطاس * فلما مات الملك سوريد ابن سهلوق دفن فى الهرم الشرقي ودفن هوجيت في الهرم الغربى ودفن كرورس في الهرم لذى أسفله من حجارة اسوان واعلاه كدان * ولهذه الاهرام أبواب فى ازج تحت الارض طول كل ازج مائة وخمسون ذراعا * فأما باب الهرم الشرقي فمن الناحية البحرية وأما باب ازج الهرم الموزر فمن الناحية القبلية * وفي الاهرام من الذهب وحجارة الزمرذ مالا يحتمله الوصف * وان مترجم هذا الكتاب من القبطى الى العربى أجمل التاريخين الى أول يوم من توت وهو يوم الاحد طلوع شمسه سنة خمس وعشرين ومائتين من سنى العرب فبلغت أربعة آلاف وثلثمائة واحدى وعشرين سنة لسنى الشمس ثم نظركم مضى للطوفان الى يومه هذا فوجده ألفا وسبعمائة واحدى وأربعين سنة وتسعة وخمسين يوما وثلاث عشرة ساعة وأربعة أخماس ساعة وتسعة وخمسين جزأ من أربعمائة جزء من ساعة فألقاها من الجملة فبقى معه ثلثمائة وتسع وتسعون سنة ومائتان وخمسة أيام وعشر ساعات وأحد وعشرون جزأ من أربعمائة جزء من ساعة فعلم أن هذا الكتاب المؤرخ كتب قبل الطوفان بهذه السنين والايام والساعات والكسر من الساعة * وأما الهرم الذى بدير أبي هرميس فانه قبر قرياس وكان فارس أهل مصر وكان يعد بألف فارس فاذا لقيهم لم يقوموا به وانهزموا وانه مات فجزع الملك عليه جزعا بلغ منه واكتأبت لموته الرعية فدفنوه بدير هرميس وبنوا عليه الهرم مدرجا وكان طينه الذى بنى به مع الحجارة من الفيوم وهذا معروف اذا نظر الى طينه لم يعرف له معدن الا بالفيوم وليس بمنف ووسيم له شبه من الطين * وأما قبر الملك صاحب قرياس هذا فانه الهرم الكبير من الاهرام التي فى بحرى دير أبي هرميس وعلى بابه لوح كدان مكتوب فيه باللازورد طول اللوح ذراعان فى ذراع وكله مملوء كتبا مثل كتب البرابي يصعد الى باب الهرم بدرج بعضها صحيح لم يخرم وفي هذا الهرم ذخائر صاحبه من الذهب وحجارة الزمرذ وانما سد بابه حجارة سقطت من اعاليه ومن وقف عليه رآه بيتا * وقال ابن عفير عن اشياخه ان جياد بن مياد بن شمر بن شداد بن عاد بن عوص بن ارم ابن سام بن نوح عليه السلام ملك الاسكندرية وكانت تسمى ارم ذات العماد فطال ملكه وبلغ ثلثمائة سنة وهو الذى سار وبنى الاهرام وزبر فيها أنا جياد بن مياد بن شمر بن شداد الشاد بزراعة الواد المؤيد الاوتاد الجامع الصخر فى البلاد المجند الاجناد النساء ب العماد الكند الكناد تخرجه أمة اسم نبيها حماد آية ذلك اذا غشى بلد البلاد سبعة ملوك أجناس السواد تاريخ هذا الزبر ألف سنة وأربعمائة سنة عداد * وقال ابن عفير وابن عبد

الحكم وفى زمان شداد بن عاد بنيت الاهرام فيما ذكر بعض المحدثين ولم نجد عند أحد من أهل العلم من أهل مصر معرفة في الاهرام ولاخبر ثبت * وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ما أحسب الاهرام بنيت الا قبل الطوفان لانها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس * وقال عبد الله بن شبرمة الجرهمي لما نزلت العماليق أرض مصر حين اخرجها جرهم من مكة بنت الاهرام واتخذت لها المصانع وبنت فيها العجائب ولم تزل بمصر حتى أخرجها مالك بن دعر الخزاعى * وقال محمد بن عبدالحكم كان من وراء الاهرام الى المغرب أربعمائة مدينة سوي القرى من مصر الى المغرب في غربى الاهرام * وقال ابن عفير ولم يزل مشايخنا من أهل مصر يقولون الاهرام بناها شداد بن عاد وهو الذى بنى المغار وجند الاجناد فالمغار والاجناد هى الدفائن وكانوا يقولون بالرجعة واذا مات احدهم دفن معه ماله كائنا ما كان وان كان صانعا دفن معه آلة صنعته وكانت الصابئة تحج الى الاهرام* وقال أبو الريحان البيروني في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية والفرس والمجوس تنكر الطوفان وأقربه بعض الفرس لكنهم قالوا كان بالشام والمغرب منه شيء في زمان طمهورث ولكنه لم يعم العمران كله ولم يتجاوز عقبة حلوان ولم يبلغ ممالك الشرق وأن أهل المغرب لما انذربه حكماؤهم بنوا ابنيـة كالهرمين بمصر ليدخلوها عند الآفة وأن آثار ماء الطوفان وتأثيرات الامواج كانت بينة على انصاف الهرمين لم تجاوزهما انتهى ويقال ان الطوفان لما نضب ماؤه لم يوجد تحت الماء قرية سوي نها وند وجدت كما هى واهرام مصروبرابيها وهى التي بناها هرميس الاول الذى تسميه العرب ادريس وكان قد الهمه الله علم النجوم فدلته على أنه سينزل بالارض آفة وانه سيبقى بقية من العالم يحتاجون فيها الى علم فبنى هو وأهل عصره الاهرام والبرابى وكتب علمه فيها * وقال أبو الصلت الاندلسى فى رسالته وقد ذكر أخلاق أهل مصر الا انه يظهر من أمرهم انه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم وخصوصا علم الهندسة والنجوم ويدل على ذلك ما خلفوه من الصنائع البديعة المعجزة كالاهرام والبرابي فانها من الآثار التى حيرت الاذهان الثاقبة واستعجزت الافكار الراجحة وتركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكر فيها وفى مثلها يقول أبو العلاء احمد بن سليمان المعرى من قصيدته التي يرثي بها اباه

تضل العقول الهبرزيات رشدها * ولا يسلم الرأي القويم من الافن
وقد كان أرباب الفصاحة كلما * رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وأى شيء أعجب وأغرب بعد مقدورات الله عز وجل ومصنوعاته من القدرة على بناء جسم جسيم من أعظم الحجارة مربع القاعـدة مخروط الشـكل ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع وتسعة عشر ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الاضلاع طول كل ضلع

منها أربعمائة ذراع وستون وهو مع العظم من احكام الصنعة واتقان الهندام وحسن التقدير بحيث لم يتأثر الى هلم جرا بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربي على ماشاهدناه منهما وقد ذكرت عجائب مصر وان ما على وجه الارض بنية الا وأنا أرثي لها من الليل والنهار الا الهرمان فأنا أرثي لليل والنهار منهما وهذان الهرمان لهما اشراف على أرض مصر واطلال على بطائحها واصعاد في جوفها وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبي بقوله شعر

اين الذى الهرمان من بنيانه * ماقومه ما يومه ما المصرع

تخلف الآثار عن سكانها * حينا ويدركها الفناء فتتبع

واتفق يوما أنا خرجنا اليهما فلما طفنا بهما واستدرنا حولهما كثر التعجب منهما فقال بعضنا

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا * على طول ما أبصرت من هرمي مصر

انافا عنانا للسماء وأشرفا * على الجو اشراف السماك أو النسر

وقد وافيا نشزا من الارض عاليا * كأنهما نهدان قاما على صدر

وزعم قوم ان الاهرام قبور ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم كما تميزوا عنهم فى حياتهم وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور * ولما وصل الخليفة المأمون الى مصر أمر بنقبها فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد وعناء طويل فوجدوا داخله مهاوي ومراقي يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجدوا في أعلاها بيتاً مكعبا طول كل ضلع من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع وفي وسطه حوض رخام مطبق فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمة بالية قد أتت عليها العصور الخالية فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ماسواه ويقال ان النفقة على نقبه كانت عظيمة والمؤنة شديدة * ومن الناس من زعم أن هرمس الاول المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة وهو الذى تسميه العبرانيون خنوخ بن برد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام وهو ادريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الارض فأكثر من بنيان الاهرام وايداعها الاموال وصحائف العلوم وما يشفق عليه من الذهاب والدروس حفظا لها واحتياطا عليها ويقال ان الذى بناها ملك اسمه سوريد بن سهلوق بن سرياق وقال آخرون أن الذى بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط شداد بن عاد لرؤيا رآها والقبط تنكر دخول العمالقة بلد مصر وتحقق أن بانيها سوريد لرؤيا رآها وهي أن آفة تنزل من السماء وهي الطوفان وقالوا انه بناهما في مدة ستة أشهر وغشاهما بالديباج الملون وكتب عليهما قد بنيناهما فى ستة أشهر قل لمن يأتي من بعدنا يهدمهما فى ستمائة سنة فالهدم ايسر من البنيان وكسوناهما الديباج الملون فليكسهما حصرا فالحصر أهون من

الديباج ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من اعلاها الى اسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها لا تعرف اليوم احرفها ولا تفهم معانيها وبالجملة الامر فيها عجيب حتى ان غاية الوصف لها والاغراق فى العبارة عنها وعن حقيقة الموصوف منها بخلاف ماقاله على بن العباس الرومى وان تباعد الموصوفان وتباين المقصودان اذ يقول

اذا ما وصفت امرأ لامرئ * فلا تغل في وصفه واقصد

فانك ان تغل تبد الظنون * فيه الى الغرض الابعد

فيصغر من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد

ويقال ان المأمون أمر من صعد الهرم الكبير أن يدلي حبلا فكان طوله ألف ذراع بالذراع الملكى وهو ذراع وخمسان وتربيعه أربعمائة ذراع في مثلها وكان صعوده في ثلاث ساعات من النهار وانه وجد مقدار رأس الهرم قدر مبرك ثمانية جمال *ويقال انه وجد على المقبور في الهرم حلة قد بليت ولم يبق منها سوى سلوكها من الذهب وأن ثخانة الطلاء الذي عليه قدر شبر من مر وصبر * ويقال انه وجد في موضع من هذا الهرم ايوان في صدره ثلاثة أبواب على ثلاثة بيوت طول كل باب منها عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع من رخام منحوت محكم الهندام وعلى صفحاته خط أزرق لم يحسنوا قراءته وانهم أقاموا ثلاثة أيام يعملون الحيلة فى فتح هذه الابواب الى أن رأوا أمامها على عشرة أذرع منها ثلاثة أعمدة من مرمر وفي كل عمود خرق في طوله وفي وسط الخرق صورة طائر ففي الاول من هذه العمد صورة حمام من حجر أخضر وفي الاوسط صورة بازى من حجر أصفر وفي العمود الثالث صورة ديك من حجر أحمر فحركوا البازى فتحرك الباب الاول الذى في مقابلته فرفعوا البازى قليلا فارتفع الباب وكان بحيث لا يرفعه مائة رجل من عظمه فرفعوا التمثالين الآخرين فارتفع البابان الآخران فدخلوا الى البيت الاوسط فوجدوا فيه ثلاثة سرر من حجارة شفافة مضيئة وعليها ثلاثة من الاموات على كل ميت ثلاث حلل وعند رأسه مصحف بخط مجهول ووجدوا في البيت الآخر عدة رفوف من حجارة عليها أسفاط من حجارة فيها أوان من الذهب عجيبة الصنعة مرصعة بأنواع الجواهر ووجدوا في البيت الثالث عدة رفوف من حجارة عليها أسفاط من حجارة فيها آلات الحرب وعدد السلاح فقيس منها سيف فكان طوله سبعة أشبار وكل درع من تلك الدروع اثنا عشر شبرا فأمر المأمون بحمل ماوجد في البيوت وأمر فخطت العمد فانطبقت الابواب كما كانت * ويقال كانت عدة الاهرام ثمانية عشر هرما منها تجاه مدينة الفسطاط ثلاثة أكبرها دوره ألفا ذراع وهو مربع في كل وجه من وجوهه الاربعة خمسمائة ذراع ويقال ان المأمون لما فتحه وجد فيه حوضا من حجر مغطى بلوح من رخام وهو مملوء بالذهب وعلى اللوح مكتوب

بقلم عرب فكان انا عمرنا هذا الهرم في ألف يوم وأبحنا لمن يهدمه في ألف سنة والهدم أسهل من العمارة وكسونا جميعه بالديباج وأبحنا لمن يكسوه الحصر والحصر أيسر من الديباج وجعلنا في كل جهة من جهاته مالا بقدر ما يصرف على الوصول اليه فأمر المأمون أن يحسب ماصرف على النقب فبلغ قدر ماوجد في الحوض من غير زيادة ولا نقص * ويقال انه وجد فيه صورة آدمي من حجر أخضر كالدهنج فيها طبق كالدواة ففتح فاذا فيه جسد آدمى عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر وعلى صدره نصل سيف لاقيمة له وعند رأسه حجر من ياقوت أحمر في قدر بيضة الدجاجة فأخذه المأمون وقال هذا خير من خراج الذهب * وذكر بعض مؤرخي مصر أن هذا الصنم الاخضر الذى وجدت الرمة فيه لم يزل معلقا عند دار الملك بمدينة مصر الى سنة احدى عشرة وستمائة من سنى الهجرة * وكان عند مدينة فرعون هرمان وعند ميدوم هرم وهذا آخرها * وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة من سنى الهجرة ظهر بتربة بوصير من ناحية الجيزة بيت هرميس ففتحه القاضي ابن الشهرزوري وأخذ منه أشياء من جملتها كباش وقرود وضفادع من حجر بازهر وقوارير من دهنج وأصنام من نحاس * وقال ابن جرداويه من عجيب البنيان أن الهرمين بمصر سمك كل واحد منهما أربعمائة ذراع وكلما ارتفع دق وهما من رخام ومرمر والطول أربعمائة ذراع في عرض أربعمائة ذراع مكتوب عليهما باليد كل سحر وكل عجيب من الطب ومكتوب عليهما اني بنيتهما فمن يدعى قوة في ملكه فليهدمهما فان الهدم أيسر من البناء فاعتبر ذلك فاذا خرج الدنيا لا يفى بهدمهما * وقال في كتاب عجائب البنيان عن الاهرام قد انفردت مصر بهذه الاشكال فليس لها بغيرها تمثال يظنهما الناظر للديار المصريه نهدين ويحسبهما القابل أن مكارم أهلها قد أعدتهما للتكرم أبلوجين تراهما العين على بعد المسافة واذا حدثت عن عجائبهما يظن انه حديث خرافه وقد أكثر الناس في ذكر الاهرام ووصفها ومساحتها وهي كثيرة العدد جدا وكلها ببر الجيزة على سمت مصر القديمة تمتد نحوا من مسافة ثلاثة أيام وفي بوصير منها شيء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين وبعضها لبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس * وقد كان منها بالجيزة عدد كثير كلها صغار هدمت في زمن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب على يد الطواشي بهاء الدين قراقوش أخذ حجارتها وبني بها القناطر في الجيزة وقد بقى من هذه الاهرام المهدومة تلها وأما الاهرام المتحدث عنها فهى ثلاثة اهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط وبينها مسافات كثيرة وزوايا متقابلة نحو الشرق واثنان عظيمان جدا في قدر واحد وهما متقاربان ومبنيان بالحجارة البيض وأما الثالث فصغير عنهما نحو الربع لكنه مبني بحجارة الصوان الاحمر المنقط الشديد القوة

والصلابة ولا يكاد يؤثر فيه الحديد الا في الزمان الطويل وتجده صغيرا بالقياس الى ذينك فاذا أتيت اليه وأفردته بالنظر هالك مرآه وحير النظر في تأمله * وقد سلك في بناء الاهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على ممر الايام لابل على ممرها صبر الزمان فانك اذا تأملتها وجدت الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ماعندها والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثالا فى غاية امكانها حتى انها تكاد تحدث عن قوة قومها وتخبر عن سيرتهم وتنطق عن علومهم واذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم وذلك أن وضعها على شكل مخروط ويبتدئ من قاعدة مربعة وينتهي الى نقطة * ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله فى وسطه يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض وليس له جهة اخرى يتساقط عليها * ومن عجيب وضعه أنه أشكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الاربع فان الريح تنكسر سورتها عند مسامتتها الزاوية وليست كذلك عند ما تلقى السطح * وذكر المساح أن قاعدة كل من الهرمين العظيمين أربعمائة ذراع بالذراع السوداء وينقطع المخروط فى أعلاه عند سطح مساحته عشرة أذرع فى مثلها وذكر أن بعض الرماة رمى سهما فى قطر أحدهما وفى سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة وذكر أن ذرع سطحها احد عشر ذراعا بذراع اليد وفى أحد هذين الهرمين مدخل يلجه الناس يفضى بهم الى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك وغير ذلك على ما يحكيه من يلجه وأن أناسا كثيرين لهم غرام به وتحيل فيه فيتوغلون فى أعماقه ولا بد أن ينتهوا الى ما يعجزون عن سلوكه * وأما المسلوك المطروق كثيرا فزلاقة تفضى الى اعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناوس من حجر وهذا المدخل ليس هو الباب فى أصل البناء وانما هو منقوب نقبا صادف اتفاقا وذكر أن المأمون فتحه * وحكي من دخله وصعد الى البيت الذى في أعلاه فلما نزلوا حدثوا بعظيم ما شاهدوه وانه مملوء بالخفافيش وأبوالها وتعظم فيه حتى تكون قدر الحمام وفيه طاقات وروازن نحو أعلاه كأنها عملت مسالك للريح ومنافذ للضوء بحجارة جافية طول الحجر منها من عشرة أذرع الى عشرين ذراعا وسمكه من ذراعين الى ثلاثة أذرع وعرضه نحو ذلك * والعجب كل العجب من وضع الحجر على الحجر بهندام ليس في الامكان أصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة وبينهما طين لونه الزرقة لايدرى ماهو ولا صفته وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذي لم يوجد بديار مصر من يزعم أنه سمع من يعرفه وهذه الكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما عليها الى صحف لكانت قدر عشرة آلاف صحيفة وقرأت في بعض كتب الصابئة القديمة ان أحد هذين الهرمين قبر أغاديمون والآخر قبر هرمس ويزعمون أنهما بيتان

عظيمان وأن أغاديمون أقدم وأعظم وانه كان يحج اليهما ويهدى اليهما من اقطار البلاد * وكان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الاهرام فبدأ بالصغير الاحمر فأخرج اليه النقابين والحجارين وجماعة من أمراء دولته وعظماء مملكته وأمرهم بهدمه فخيموا عنده وحشروا الرجال والصناع ووفروا عليهم النفقات وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد الجهد واستفراغ بذل الوسع الحجر والحجرين فقوم من فوق يدفعونه بالاسافين وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والاشطان فاذا سقط سمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف الجبال وتزلزل الارض ويغوص في الرمل فيتعبون تعبا آخر حتى يخرجوه ويضربون فيه بالاسافين بعد ماينقبون لها موضعا ويثبتونها فيه فيتقطع قطعا وتسحب كل قطعة على العجل حتى يلقى في ذيل الجبل وهى مسافة قريبة فلما طال ثواؤهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم ووهت عزائمهم كفوا محسورين لم ينالوا بغية بل شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ومع ذلك فان الرائي لحجارة الهرم يظن أنه قد استؤصل فاذا عاين الهرم ظن أنه لم يهدم منه شيء وانما سقط بعض جانب منه وحين ماشوهدت المشقة التي يجدونها فى هدم كل حجر سئل مقدم الحجارين فقيل له لو بذل لكم السلطان ألف دينار على أن تردوا حجرا واحدا الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم فأقسم بالله انهم ليعجزون عنه ولو بذل لهم أضعاف ذلك * وبازاء الاهرام مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الاغوار لعل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يوما أجمع ولا ينهيها لكبرها وسعتها وبعدها ويظهر من حالها انها مقاطع حجارة الاهرام * وأما مقاطع حجارة الهرم الاحمر فيقال انها بالقلزم وباسوان وعند هذه الاهرام آثار أبنية جبابرة ومغاير كثيرة منقبة وقلما ترى من ذلك شيئاً الا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول ولله در الفقيه عمارة اليمني حيث يقول

خليلي ما تحت السماء بنية * تماثل في اتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما * على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفي في بديع بنائها * ولم يتنزه في المراد بها فكرى

أخذ هذا من قول بعض الحكماء كل شيء يخشى عليه من الدهر الا الاهرام فانه يخشى على الدهر منها وقال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر بن الحاجب ومات في سنة سبع وثمانين وثلثمائة

أنظر الى الهرمين اذ برزا * للعين في علو وفى صعد
وكأنما الارض العريضة قد * ظمئت لطول حرارة الكبد
حسرت عن الثديين بارزة * تدعو الاله لفرقة الولد

فأجابها بالنيل يشبعها * ريا وينقذها من الكمد
لكرامة المولى المقيم بها * خير الانام مقوم الاود

وقال سيف الدين بن جبارة

لله أى عجيبة وغريبة * في صنعة الاهرام للالباب
أخفت عن الاسماع قصة أهلها * ونضت عن الابداع كل نقاب
فكأنما هى كالخيام مقامة * من غير ما عمد ولا أطناب

وقال آخر أنظر الى الهرمين واسمع منهما * ما يرويان عن الزمان الغابر
وانظر الى سر الليالى فيهما * نظرا بعين القلب لا بالناظر
لو ينطقان لخبرانا بالذى * فعل الزمان بأول وبآخر
واذا هما بديا لعيني ناظر * وصفا له أذني جواد عاثر

وقال الامام أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشى

ألست ترى الاهرام دام بناؤها * ويفني لدينا العالم الانس والجن
كأن رحي الافلاك أكوارها على * قواعدها الاهرام والعالم الطحن

وقال قد كان للماضين من * سكان مصرهم * فالفضل عنهم فضلة * والعلم فيهم علم
ثم انقضت أعلامهم * وعلمهم واحتطموا * وانظر تراها ظاهرا * بادعليها الهرم

وقال خليلي لا باق على الحدثان * سى الاول الباقى فيحدث ثاني
الى هرمي مصر تناهت قوى الورى * وقد هرمت في دهرها الهرمان
فلا تعجبا أن قد هرمت فانما * رماني بفقد ان الشباب زماني
وعوجا بقرطا جنة فانظرا بها * جنايتى العادين تنتحبان
وايوان كسرى فانظراه فانه * يخبر كما بالصدق كل أوان
فلا تحسبا أن الفناء يخصني * ألا كل ما فوق البسيطة فاني

ووجدت بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمسانى أنشدنى القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرى لنفسه فى الاهرام سنة خمس وخمسين وسبعمائة وأجاد

أمبانى الاهرام كم من واعظ * صدع القلوب ولم يفه بلسانه
اذ كرنني قولا تقادم عهده * أين الذى الهرمان من بنيانه
هن الجبال الشامخات تكاد أن * تمتد فوق الارض عن كيوانه
لو أن كسرى جالس في سفحها * لأجل مجلسه على ايوانه
ثبتت على حر الزمان وبرده * مددا ولم تأسف على حدثانه
والشمس في احراقها والريح عنـ * ـد هبوبها والسيل في جريانه

هل عابد قد خصها بعبادة * فمباني الاهرام من أوثانه
أو قائل يقضى برجعي نفسه * من بعد فرقته الى جثمانه
فاختارها لكنوزه ولجسمه * قبرا ليأمن من أذى طوفانه
أو أنها للسائرات مراصد * يختار راصدها أعز مكانه
أو أنها وصفت شؤون كواكب * احكام فرس الدهر أو يونانه
او أنهم نقشوا على حيطانها * علما بحار الفكر فى تبيانه
فى قلب رائيها ليعلم نقشها * فكر يعض عليه طرف بنانه

ذكر الصنم الذى يقال له أبو الهول

هذا الصنم بين الهرمين عرف أوّلا ببلهيب وتقول اهل مصر اليوم أبو الهول * قال القضاعي صنم الهرمين وهو بلهوبه صنم كبير من حجارة فيما بين الهرمين لا يظهر منه سوى رأسه فقط تسميه العامة بابى الهول ويقال بلهيب ويقال انه طلسم للرمل لئلا يغلب على ابليز الجيزة * وقال فى كتاب عجائب البنيان وعند الاهرام رأس وعنق بارزة من الارض في غاية العظم تسميه الناس أبا الهول ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الارض ويقتضى القياس بالنسبة الى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعا فصاعدا وفى وجهه حمرة ودهان يلمع عليه رونق الطراوة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كانه يضحك تبسما * وسئل بعض الفضلاء عن عجيب ما رأى فقال تناسب وجه أبي الهول فان أعضاء وجهه كالانف والعين والاذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة فان انف الطفل مثلا مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الانف لرجل كان مشوها وكذلك انف الرجل لو كان لصبي لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الاعضاء فكل عضو ينبغى أن يكون على مقدار ما هيته بالقياس الى الصورة وعلى نسبتها والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ التناسب للاعضاء مع عظمها وانه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه * ويقابله في بر مصر قريبا من دار الملك صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الاعضاء كما وصف وفي حجره مولود وعلى رأسه ماجور الجميع صوان ماتع يزعم الناس أنه امرأة وانها سرية أبي الهول المذكور وهي بدرب منسوب اليها ويقال لو وضع على رأس أبى الهول خيط ومد الي سريته لكان على رأسها مستقيما ويقال ان أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل وان السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر * وقال ابن المتوج زقاق الصنم هو الزقاق الشارع أوله باول السوق الكبير بجوار درب عمار ويعرف الصنم بسرية فرعون وذكر أنه طلسم النيل لئلا يغلب على البلد وقيل ان بلهيب الذى عند الاهرام يقابله وان ظهر بلهيب الى الرمل وظهر هذا الى النيل وكل منهما مستقبل الشرق وقد نزل في سنة احدى عشرة وسبعمائة امير

يعرف بـلاط في نفر من الحجارين والقطاعين وكسروا الصنم المعروف بالسرية وقطعوه أعتابا وقواعد ظنا أن يكون تحته مال فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة فحفر تحتها الى المـاء فلم يوجد شيء وجعل من حجره قواعد تحتانية للعمد الصوان التي بالجامع المستجد بظاهر مصر المعروف بالجامع الجديد الناصرى وأزيل عين هذا الصنم من مكانه والله أعـلم * وفي زمننا كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء قام في نحو من سنة ثمانين وسبعمائة لتغيير اشياء من المنكرات وسار الى الاهرام وشوه وجه ابى الهول وشعثه فهو على ذلك الى اليوم ومن حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة واهل تلك النواحي يرون ان سبب غلبة الرمل على الاراضي فساد وجه أبى الهول ولله عاقبة الامور وما أحسن قول ظافر الحداد

تأمل هيئة الهرمين واعجب * وبينهما ابو الهول العجيب

كعمار يبتن على رحيـل * بمحبوبين بينهمـا رقيب

وماء النيـل تحتهمـا دموع * وصوت الريح عندهما نحيب

وظاهر سجن يوسف مثل صب * تخلف فهو محزون كئيب

ويقال ان اتريب بن قبط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح أوصى أخاه صا عند موته أن يحمله في سفينة ويدفنه بجزيرة في وسط البحر فلما مات فعل ذلك من غير أن يعلم به أهل مصر فاتهمه الناس بقتل اتريب وحاربوه تسع سنين فلما مضى من حربهم خمس سنين مضى بهم حتى أوقفهم على قبر أتريب فحفروه فلم يجدوا به شيأ وقد نقلته الشياطين الى موضع أبى الهول ودفنته هناك بجانب قبر أبيه وجده بيصر فازدادوا له تهمة وعادوا الى مدينة منف وتحاربوا فأتاهم ابليس فدلهم على قبر اتريب حيث نقله فأخرجوه من قبره ووضعوه على سرير فتكلم لهم الشيطان على لسانه حتى افتتنوا به وسجدوا له وعبدوه فيما عبدوا من الاصنام وقتلوا صا ودفنوه على شاطئ النيل فكان النيل اذا زاد لا يعلو قبره فافتتن به طائفة وقالوا قد قتل صا ظلما وصاروا يسجدون لقبره كما يسجد أولئك لاتريب فعمد آخرون الى حجر فنحتوه على صورة اشموم وكان يقال له أبو الهول ونصبوه بين الهرمين وجعلوا يسجدون له فصار أهل مصر ثلاث فرق ولم تزل الصابئة تعظم أبا الهول وتقرب له الديكة البيض وتبخره بالصندروس

ذكر الجبال

اعلم ان أرض مصر بأسرها محصورة بين جبلين آخذين من الجنوب الى الشمال قليلي الارتفاع وأحدهما أعظم من الآخر والاعظم منهما هو الجبل الشرقي المعروف بجبـل لوقا والغربي جبل صغير وبعضه غير متصل ببعض والمسافة بينهما تضيق في بعض المواضع وتتسع في بعضها

وأوسع مايكون بأسفل أرض مصر وهذان الجبلان أقرعان لاينبت فيهما نبات كما يكون في جبال البلدان الاخر وعلة ذلك أنهما بورقيان مالحان لان قوة طين مصر تجذب منهما الرطوبات الموافقة في التكوين ولان قوة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب وكذلك مياه الآبار منهما مالحة وهذان الجبلان يجففان مايدفن فيهما فان أرض مصر بالطبع قليلة الامطار * وجبل لوقا في مشرق أرض مصر يعوق عنها ريح الصبا فعدمت مصر هذا الريح ويعوق أيضا اشراق الشمس على أرض مصر اذا كانت على الافق وتتعدد أسماء هذين الجبلين بحسب مواضعهما من الاقاليم فيطل على الفسطاط وعلى القاهرة الجبل المقطم

ذكر الجبل المقطم

اعلم أن الجبل المقطم أوله من الشرق من الصين حيث البحر المحيط ويمر على بلاد الططر حتى يأتي فرغانة الى جبال اليتم الممتد بها نهر السغد الى أن يصل الجبل الى جيحون فيقطعه ويمضي في وسطه بين شعبتين منه وكانه قطع ثم في وسطه ويستمر الجبل الى الجورجان ويأخذ على الطالقان الى أعمال مروالروذ الى طوس فيكون جميع مدن طوس فيه ويتصل به جبال أصبهان وشيراز الى أن يصل الى البحر الهندي وينعطف هذا الجبل ويمتد الى شهرزور فيمر على الدجلة ويتصل بجبل الجودي موقف سفينة نوح عليه السلام فى الطوفان ولا يزال هذا الجبل مستمراً من أعمال آمدوميا فارقين حتى يمر بثغور حلب فيسمى هناك جبل اللكام الى أن يعدي الثغور فيسمى نهرا حتى يجاوز حمص فيسمى لبنان ثم يمتد على الشام حتى ينتهى الى بحر القلزم من جهة ويتصل من الجهة الاخرى ويسمى المقطم ثم يتشعب ويتصل أواخر شعبه بنهاية الغرب ويقال انه عرف بمقطم بن مصر بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام * وجبل المقطم يمر على جانبي النيل الى النوبة ويعبر من فوق الفيوم فيتصل بالغرب الى أرض مقراوة ويمضي مغربا الى سجلماسة ومنها الى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر * وقال ابراهيم بن وصيف شاه وذكر مجيء مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح الى أرض مصر وكشف أصحاب اقليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم التي هى بخط البرابي وآثارهم والمعادن من الذهب والزبرجد والفيروزج وغير ذلك ووصفوا لهم عمل الصنعة يعني الكيمياء فجعل مصرايم أمرها الى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام الحكيم فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى فسمي به المقطم من أجل أن مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء واختصر من اسمه وبقي مايدل عليه فقيل له جبل المقطم يعني جبل مقيطام الحكيم وقال البكري رحمة الله تعالى عليه المقطم بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفتحها جبل متصل بمصر يوارون فيه موتاهم وقال القضاعى المقطم ذكر أبو عبد الله اليمني ان هذا الجبل نسب الى المقطم بن مصر بن بيصر بن خام بن نوح وكان عبداً

صالحاً فانفرد بعبادة الله عز وجل فيه فسمي الجبل باسمه وليس هذا بصحيح لانه لا يعرف لمصر ولد اسمه المقطم * والذى ذكره العلماء أن المقطم مأخوذ من القطم وهو القطع فكأنه لما كان منقطع الشجر والنبات سمي مقطما ذكر ذلك علي بن الحسن الهنائي الدوسي المنبوذ بكراع وغيره * وروى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم عن الليث بن سعد رضى الله عنه قال سأل المقوقس عمرو بن العاص رضى الله عنه أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين ألف دينار وفى نسخة بعشرين ألف دينار فعجب عمرو من ذلك وقال أكتب بذلك الى أمير المؤمنين فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب اليه عمر سله لم أعطاك به ما أعطاك وهى لا تزرع ولا يستنبط بها ماء فسأله فقال انا لنجد صفتها في الكتب أن فيها غراس الجنة فكتب بذلك الى عمر فكتب اليه انا لا نعلم غراس الجنة الا المؤمنين فاقبر فيها من مات قبلك من المؤمنين ولا تبعه بشئ فكان أول من قبر فيها رجلا من المعافر يقال له عامر فقيل عمرت فقال المقوقس لعمرو وما ذلك وما على هذا عاهدتنا فقطع لهم الحد الذي بين المقبرة وبينهم * وذكر عمر بن أبي عمر الكندي في فضائل مصر أن عمرو بن العاص رضى الله عنه سار فى سفح الجبل المقطم ومعه المقوقس فقال له ما لجبلكم هذا أقرع ليس به نبات كجبال الشام فلو شققنا في أسفله نهراً من النيل وغرسناه نخلا فقال المقوقس وجدنا فى الكتب انه كان أكثر الجبال أشجاراً ونباتاً وفاكهة وكان منزل المقطم ابن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام فلما كانت الليلة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام أوحى الله الى الجبال اني مكلم نبياً من أنبيائى على جبل منكم فسمت الجبال كلها وتشامخت الا جبل بيت المقدس فانه هبط وتصاغر فأوحي الله اليه لم فعلت ذلك وهو به أخبر فقال اعظاماً واجلالا لك يارب قال فأمر الله سبحانه الجبال أن يحبوه كل جبل بما عليه من النبت فجاد له المقطم بكل ما عليه من النبت حتى بقى كما ترى فأوحي الله اليه انى معوضك على فعلك بشجر الجنة أو غراس الجنة فكتب بذلك عمرو بن العاص رضى الله عنه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه اني لا أعلم شجر الجنة غير المؤمنين فاجعله لهم مقبرة ففعل فغضب المقوقس من ذلك وقال لعمرو ما على هذا صالحتني فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى قال وروى أن موسى عليه السلام سجد فسجد معه كل شجرة من المقطم الى طرا * وروى أنه مكتوب واذا فتح مقدسى يريد وادى مسجد موسى عليه السلام بالمقطم عند مقطع الحجارة فان موسى عليه السلام كان يناجي ربه بذلك الوادى * وروى أسد بن موسى قال شهدت جنازة مع موسى ابن لهيعة فجلسنا حوله فرفع رأسه فنظر الى الجبل فقال ان عيسى بن مريم عليه السلام مرّ بسفح هذا الجبل وعليه جبة صوف وقد شد وسطه بشريط وأمه الى جانبه فالتفت

اليها وقال يا أمه هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وروى عبد الله بن لهيعة عن عياش ابن عباس أن كعب الاحبار رضى الله عنه سأل رجلا يريد مصر فقال له أهدنى تربة من سفح مقطمها فأتاه منه بجراب فلما حضرت كعباً الوفاة أمر به فجعل فى لحده تحت جنبه * وروى عن كعب انه سئل عن جبل مصر فقال انه لمقدس مابين القصير الى اليحموم قال ابن لهيعة والمقطم مابين القصير الى مقطع الحجارة وما بعد ذلك فمن اليحموم وفي هذا الجبل حجر الجوهر وشيء من الفولاذ وهو يمتد الى أقاصى بلاد السودان

الجبل الاحمر

هذا الجبل مطل على القاهرة من شرقيها الشمالي ويعرف باليحموم قال القضاعي اليحاميم هي الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقي وجبابها وتنتهى هذه الجبال الى بعض طرق الجب وقيل لها اليحاميم لاختلاف ألوانها واليحموم في كلام العرب الاسود المظلم * وقال ابن عبد الحكم عن سعي بن عبيد انه لما قدم مصر وأهل مصر قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبي عون التي في العسكر فقال مالهم وضعوا مصلاهم في الجبل الملعون وتركوا الجبل المقدس يعني المقطم * وقال ابن عبد الظاهر الجبل الاحمر ذكر القضاعى أن اليحموم هو الجبل المطل على القاهرة ولا أرى جبلا يطل على القاهرة غيره * وقال البكري اليحموم بفتح اوله واسكان ثانيه قال الحربي اليحموم جبل بمصر * وروى من طريق أبي قبيل عن عبد الله بن عمر وأنه سأل كعبا عن المقطم أملعون قال ليس بملعون ولكنه مقدس من القصير الى اليحموم * وذكر البكرى أيضا أن عابدا بالباء الموحدة والدال المهملة على وزن فاعل جبل بمصر قبل المقطم

جبل يشكر

هذا الجبل فيما بين القاهرة ومصر عليه الجامع الطولوني قال القضاعي جبل يشكر هو يشكر بن جديلة من لخم وهو الذى عليه جامع ابن طولون ويشكر بن جديلة قبيلة من قبائل العرب احتطت عند الفتح بهذا الجبل فعرف بجبل يشكر لذلك * قال ابن عبد الظاهر وجامع ابن طولون على جبل يشكر وهو مكان مشهور باجابة الدعاء ومكان مبارك وقيل ان موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات وكان هذا الجبل يشرف على النيل وليس بينه وبين النيل شيء وكان يشرف على البركتين أعني بركة الفيل والبركة التي تعرف اليوم ببركة قارون وعلى هذا الجبل كانت تنصب المجانيق التي تجرب قبل ارسالها الى الثغور * (الكبش) هو جبل بجوار يشكر كان قديما يشرف على النيل من غربيه ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوى وسمى الكبش * (الشرف) اسم لثلاثة مواضع فاثنان منها فيما بين القاهرة ومصر وواحد

فيما بين بركة الحبش وفسطاط مصر فاما الذي بظاهر القاهرة فأحدهما عليه الآن قلعة الجبل وهو من جملة الجبل المقطم والآخر فيما بين الجامع الطولوني ومصر فيشرف غربيه على جهة الخليج الكبير ويصير فيما بين كوم الجارح وخط الجامع الطولوني وكان من خطة تجيب ثم صار من جملة العسكر وأما الشرف الثالث فيعرف اليوم بالرصد وهو يشرف على راشدة وكان يقال للشرف سند والسند ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح ويقال فلان سند أي معتمد

ذكر الرصد

هذا المكان شرف يطل من غربيه على راشدة ومن قبليه على بركة الحبش فيحسبه من رآه من جهة راشدة جبلا وهو من شرقيه سهل يتوصل اليه من القرافة بغير ارتقاء ولا صعود وهو محاذ للشرف الذى كان من جملة العسكر والشرف الذى يعرف اليوم بالكبش وكان يقال له قديما الجرف ثم عرف بالرصد من أجل أن الافضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي أقام فوقه كرة لرصد الكواكب فعرف من حينئذ بالرصد قال في كتاب عمل الرصد وحمل الى الافضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر من الشام تقاويم لما يستأنف من السنين لاستقبال سنة خمسمائة من سنى الهجرة قبل مائة تقويم أونحوها وكان منجمو الحضرة يومئذ ابن الحلبي وابن الهيثمى وسهلون وغيرهم يطلق لهم الجارى في كل شهر والرسوم والكسوة على عمل التقويم في كل سنة وكان كل منهم يجتهد في حسابه وما تصل قدرته اليه فاذا كان فى غرة السنة حمل كل منهم تقويمه فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام فيوجد بينها اختلاف كثير فانكر ذلك فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة عند احضار التقاويم على العادة جمع المنجمين والحساب وأهل العلم وسألهم عن السبب في الخلف بين التقاويم فقالوا الشامي يحسب ويعمل على رأى الزيج المهجور المأمونى ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمي لقرب عهده وبين المتقدم والمتاخر تفاوت وخلف وقد أجمع القدماء أن القريب العهد أصح من المتقدم لتنقل الكواكب وتغير الحساب وتحدثوا في معنى ذلك بما هو مذكور في موضعه وأشاروا عليه بعمل رصد مستجد يصحح به الحساب ويخرج به المعور والتفاوت وتحصل به المنفعة العظيمة والفائدة الجليلة والسمعة الشريفة والذكر الباقي فقال من يتولى ذلك فقال صاحب دسته ومشيره الشيخ الاجل أبو الحسن ابن أبي أسامة هذا القاضى ابن أبي العيش الطرابلسى المهندس العالم الفاضل وكان ابن أبى العيش صهره زوج ابنته وهو شيخ كبير السن والقدر كثير المال وساعده على ذلك القائد أبو عبد الله الذي تقلد الوزارة بعد الافضل ودعي بالمأمون بن البطائحي فاستصوب الافضل ذلك وقال مروه يهتم بذلك ويستدعى مايحتاج اليه فكان أول مابدأ به لما حصل ذلك أن

مدح نفسه وكان الافضل غيورا على كل شيء أشد ماعليه من يفتخر أو يلبس ثيابا مذكورة
ثم قال هذه الآلات عظيمة وخطرها جسيم ولا كل أحد يقوم عليها ولا يحسنها وأكثر
الكلام والتوسعة وقال يحتاج أن الذى يتولى ذلك يعتمد معه الانعام والاكرام لتطيب نفسه
للمباشرة وينشرح صدره ويقدح خاطره لما يعمل في حقه فضجر الافضل من ذلك وقال لقد
أكثر في مدح نفسه ولدده وما يعاملنا بعد لاحاجة الى معاملته فأشار القائد بن البطائحي
وقال هنا من يبلغ الغرض بأسهل مأخذ وأقرب وقت وأسرعه وألطف معنى أبو سعيد بن قرقة
الطبيب متولى خزائن السلاح والسروج والصناعات وغير ذلك فأحضره للوقت فاتفق له من
الحديث الحسن السهل وما سبب عمل الآلات ومن ابتدأها من الاول وذكر القدماء في
العلم ومن رصد منهم واحدا واحدا الى آخرهم شرحا مستوفيا كانه يحفظه ظاهرا أو يقرأه
من كتاب فأعجب الا فضل والحاضرين وقال أى شيء تحتاج فقال ما أحتاج كبير أمر والامور
سهلة وكل ما أحتاجه في خزائن السلطان خلد الله ملكه النحاس والرصاص والآلات وكل
ما أحتاج أستدعيه أولا أولا الانفقات وأجرة الصناع فيتولاها غيرى فأعجب به وقال يطلق
له جار لنفسه فقال أنا مستخدم في عدة خدم فجوارى تكفيني فأنا مملوك الدولة ما أحتاج
الى جار واذا بلغت الغرض وأنهيت الاشغال فهو المقصود وكان قيل للافضل هـذا الرصد
يحتاج الى أموال عظيمة فقال كم تقول يحتاج اليه فقال ماينفق عليه الا مثل ماينفق على مسجد
أو مستنظر فرجع يكرر عليه القول فقال هاتوا ورقة فكتب فيها المملوك يقبل الارض وينهى
دعت الحاجة الى خروج الامر العالي الى دار الوكالة باطلاق مائتي قنطار من النحاس الشجر
وثمانين قنطارا من النحاس القضيب الاندلسى وأربعين قنطارا من النحاس الاحمر ومن
الرصاص ألف قنطار ومن الحطب ومن الحديد والفولاذ من الصناعة ما لعله يحتاج اليه
ومن الاخشاب ومن النفقة مائة دينار على يد شاهد ينفق عليه فاذا فرغت أستدعى غيرها
وأختار موضعا يصلح الرصد فيه ويكون العمل والصناعة فيه ومباشرة السلطان فيما يتوقف
عليه وما يستأمر فيه فاستصوب الافضل جميع ذلك وأراد أن يخلع عليه فقال القائد هـذا فيما
بعـد اذا شوهدت أعماله نخدم من اول الحال الى آخرها ولم يحصل له الدرهم الفرد لانه
كان يستحي أن يطلب وهو مستخدم عندهم وكانوا بأجمعهـم يؤملون طول المدة والبقاء
فقتل الافضل ثاني سنة وتغيرت الاحوال ثم انهم اختاروا للرصد مسجد التنور فوق المقطم
فوجدوه بعيدا عن الحوائج فأجمعوا على سطح الجرف بالمسجد المعروف بالفيلة الكبير وكان
قد صرف على المسجد خاصة ستة آلاف دينار فحفروا في مسجد الفيلة نقرا في الجبل مكان
الصهريج الآن فعمل فيه قالب الحلقة الكبيرة وقطرها عشرة اذرع ودورها ثلاثون ذراعا
وهندموه وحرروه أياما وعمل حوله عشر هرج على كل هرجة منفاخان وفي كل هرجة

أحد عشر قنطارا نحاسا وأقل وأ كثروا الجميع مائة قنطار وكسر قسموها على الهرج وطرح فيها النار من العصر ونفخوا الى الثانية من النهار وحضر الافضل بكرة وجلس على كرسى فلما تهيأت الهرج ودارت أمر الافضل بفتحها وقد وقف على كل هرجة رجل وأمروا بفتحها في لحظة ففتحت وسال النحاس كالماء الى القالب وكان قد بقى فيه بعض النداوة فلما استقر به النحاس بحرارته تقعقع المكان الندى فلم تتم الحلقة ولما بردت وكشف عنها أذهى تامة ما خلا المكان الندى فضجر الافضل وضاق صدره ورمى الصناع بكيس فيه ألف درهم وغضب وركب فلاطفه ابن قرقة وقال مثل هذه الآلة العظيمة التي ماسمع قط بمثلها لوأعيد سبكها عشر مرات حتى تصح ما كان كثيرا فقال له الافضل اهتم فى اعادتها فسبكت وصحت ولم يحضر الافضل فى المرة الثانية ففرح بصحتها وعملت ورفعت الى سطح مسجد الفيلة وأحضر لها جميع صناع النحاس وعمل لها بركار خشب من السنديان وهو بركار عجيب وبني في وسط الحلقة مسطبة حجارة منقبة لرجل البركار وهو قائم مثل عروس الطاحون وفيه ساعد مثل ناف الطاحون وقد لبس بالحديد والجميع سنديان جيد وطرف الساعد مهيأ لعدة فنون تارة لتصحيح وجه الحلقة وتارة لتعديل الاجناب وتارة للخطوط والحزوز وأقام في التصحيح فيها وأخذ زوائدها بالمبارد مدة طويلة وجماعة الصناع والمهندسين وأرباب هذا العلم حاضرون واستدعي لهم خيمة عظيمة ضربت على الجميع وعقد تحت الحلقة أقباء وثيقة وأرادوا قيامها على سطح مسجد الفيلة فلم يتهيأ لهم فانهم وجدوا المشرق لاول بروز الشمس مسدودا فاتفقوا على نقلها الى المسجد الجيوشى مجاور الانطاكى المعروف أيضا بالرصد وكان الافضل بناه ألطف من جامع الفيلة ولم يكمل فلما صار برسم الرصد كمل فحضر الافضل في نقل الحلقة من جامع الفيلة الى المسجد الجيوشي وقد احضرت الصوارى الطوال العظام والسرياقات والمنجانات من الاسكندرية وغيرها وجمعت الاسطولية ورجال السودان وبعض أصحاب الركاب والجند حتى أدلوه وحملوه على العجل الى مسجد الرصد الجيوشي وثاني يوم حضروا بأجمهم حتى رفعوه الى السطح وكملوه وأقاموا الحلقة وجعلوا تحت أكتافها عمودين من رخام سبكوهما بالرصاص من أسفلهما وأعلاهما حتى لايرتخي ثقل النحاس وجعل فى الوسط عمود رخام وبأعلاه قطب العضادة مسبوك بالنحاس الكثير لتدور عليه العضادة وعملت من نحاس فما تمارست ولا دارت فعملوها من خشب ساج وقطبها وأطرافها من نحاس صفائح ليخف الدوران ثم رصدوا بها الشمس بعد كلفة وكانت الحلقة ترخى الدرجة والدقائق كل وقت للثقل فعمل عمود من نحاس فوق عمود الرخام ليمسك رخوها وغلبوا بعد ذلك فكانت تختلف لشدة ما كانوا يحررونها بالشواقيل وعضادة الخشب وتردد اليها الافضل مع كبر سنه وهو يرتعش والقائد يحمله الى فوق ويقعد زمانا من التعب لايتكلم ويده ترتعش

فرصدوا قدامه وفى خلال ذلك قتل الافضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة وخمسمائة وقيل للافضل عن ابن قرقة انه أسرف في كبر الحلقة وعظم مقدارها فقال له الافضل لو اختصرت منها كان أهون فقال وحق نعمتك لو أمكنني أن أعمل حلقة تكون رجلها الواحدة على الاهرام والاخرى على التنور فعلت فكلما كبرت الآلة صح التحرير وأين هذا في العالم العلوى ثم أكثروا عليه فعمل حلقة دونها في الموضع المهندم بالطوب الاحمر تحت المسجد الجيوشى كان قطرها أقل من سبعة أذرع ودورها نحو أحد وعشرين ذراعا فلما كملت قتل الافضل ولم ينفق من مال السلطان في الاجرة والمؤن وما لابد منه سوى نحو مائة وستين دينارا فلما تمت الوزارة للمأمون البطائحي أحب أن يكملها ويقال له الرصد المأموني المصحح كما قيل للاول الرصد المأموني الممتحن فأخرج الامر بنقل الرصد الى باب النصر بالقاهرة فنقل على الطريقة الاولى بالعتالين والاسطولية وطوائف الرجال وكان يدفع لهم كل يوم برسم الغداء جملة دراهم فلما صار فوق العجل مضوابه على الخندق من وراء الفتح على المشاهد الى مسجد الذخيرة من ظاهر القاهرة وتعبوا في دخوله من باب النصر تعبا عظيما لخوفهم أن يصدم فيتغير فنصبوا الصوارى على عقد باب النصر من داخل الباب وتكاثر الرجال في جذب المياحين من أسفل ومن فوق حتى وصل الى السطح الكبير ثم نقلوه من السطح الكبير الى السطح الفوقانى وأوقفوا له العمد كما تقدم ذكره ورصدوا بالحلقة الكبرى كما رصدوا بها على سطح الجرف فصح لهم ما أرادوا من حال الشمس فقط ثم اهتموا بعمل ذات حلق يكون قطرها خمسة أذرع وسبكت في فندق بالعطوفية من القاهرة وكان الامر فيها سهلا عندما لحقهم من العناء العظيم في الحلقة الكبيرة والحلقة الوسطى وتجرد المأمون لعملها والحث فيها وكان ابن قرقة يحضر كل يوم دفعتين ويحضر أبو جعفر ابن حسنداى وأبو البركات بن أبي الليث صاحب الديوان وبيده الحل والعقد فقال له المأمون اطلع اليهم كل يوم وأى شئ طلبوه وقع لهم به من غير مؤامرة وكان قصده ما أطمعوه فيه من أن يقال الرصد المأمونى المصحح فلو أراد الله أن يبقى المأمون قليلا كان كمل جميع رصد الكواكب لكنه قبض عليه ليلة السبت ثالث شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة وكان من جملة ماعدد من ذنوبه عمل الرصد المذكور والاجتهاد فيه وقيل أطمعته نفسه في الخلافة بكونه سماه الرصد المأموني ونسبه الى نفسه ولم ينسبه الى الخليفة الآمر بأحكام الله وأما العامة والغوغاء فكانوا يقولون أرادوا أن يخاطبوا زحل وأرادوا أن يعلموا الغيب وقال آخرون منهم عمل هذا للسحر ونحو ذلك من الشناعات فلما قبض على المأمون بطل وأنكر الخليفة على عمله فلم يجسر أحد أن يذكره وأمر فكسر وحمل الى المناخات وهرب المستخدمون ومن كان فيه من الخاص وكان فيه من المهندسين

برسم خدمته وملازمته في كل يوم بحيث لا يتأخر منهم أحد الشيخ أبو جعفر بن حسنداى والقاضي بن أبي العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتي الاسكندرانى المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس وغيرهم من الحساب والمنجمين كابن الحلبى وابن الهيثمى وابي نصر تلميذ سهلون وابن دياب والقامى وجماعة يحضرون كل يوم الى ضحوة النهار فيحضر صاحب الديوان ابن أبى الليث وكان ابن حسنداى ربما تأخر فى بعض الايام فانه كان امرأ عظيما صاحب كبرياء وهيبة وفى كل يوم يبعث المأمون من يتفقد الجماعة ويطالعه بمن غاب منهم لانه كان كثير التفقد للامور كلها وله غمازون واصحاب أخبار لا تنام ولا يكاد يفوته شئ من أحوال الخاصة والعامة بمصر والقاهرة ومن يحدث وجعل في كل بلد من الاعمال من يأتيه بسائر أخبارها وأنا أدركت هذا الموضع الذى يعرف اليوم بالرصد حيث جامع الفيلة عامرا فيه عدة مساكن ومساجد وبه اناس مقيمون دائما وقد خرب ما هناك وصار لا انيس به وكان الملك الناصر محمد بن قلاون قد أنشأ فيه سواقى لنقل الماء من اماكن قد حفر لها خليج من البحر بجوار رباط الآثار النبوية فاذا صار الماء في سفح هذا الجرف المسمي بالرصد نقل بسواق هناك قد أنشئت الى أن يصير الى القلعة فمات ولم يكمل ما أراده من ذلك كما ذكر في اخبار قلعة الجبل من هذا الكتاب وما زال موضع هذا الرصد منتزها لاهل مصر ويقال أن المعز لدين الله معدا لما قدم من بلاد المغرب الى القاهرة لم يعجبه مكانها وقال للقائد جوهر فاتك بناء القاهرة على النيل فهلا كنت بنيتها على الجرف يعني هذا المكان ويقال ان اللحم علق بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة وعلق بقلعة الجبل فتغير بعد يومين وليلتين وعلق في موضع الرصد فلم يتغير ثلاثة أيام ولياليها لطيب هوائه ولله در القائل

يا ليلة عاش سروري بها * ومات من يحسدنا بالكمد
وبت بالمشوق في المشتهى * وبات من يرقبنا بالرصد

ذكر مدائن أرض مصر

قال ابن سيده مدن بالمكان أقام والمدينة الحصن يبني فى أسطحة الارض مشتق من ذلك والجمع مدائن ومدن ومن هنا حكم أبو الحسن فيما حكى الفارسى عنه أن مدينة فعيلة وقال العلامة اثير الدين أبو حيان المدينة معروفة مشتقة من مدن فهى فعيلة ومن ذهب الى أنها مفعلة من دان فقوله ضعيف لاجماع العرب على الهمز فى جمعها فانهم قالوا مدائن بالهمز ولا يحفظ مداين بالياء ولا ضرورة تدعو الى انها مفعلة من دان ويقطع بأنها فعيلة جمعهم لها على فعل فانهم قالوا مدن كما قالوا صحف فى صحيفة واعلم أن مدائن مصر كثيرة منها ما دثر وجهل اسمه ورسمه ومنها ما عرف اسمه وبقى رسمه ومنها ما هو عامر . وأول مدينة عرف اسمها

في أرض مصر مدينة امسوس وقد محا الطوفان رسمها ولها أخبار معروفة وبها كان ملك مصر قبل الطوفان ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان مدينة منف وكان بها ملك القبط والفراعنة الى أن خربها بخت نصر فلما قدم الاسكندر بن فيليبش المقدوني من مملكة الروم عمر مدينة الاسكندرية عمارة جديدة وصارت دار المملكة بمصر الى أن قدم عمرو بن العاص بجيوس المسلمين وفتح أرض مصر فاختط فسطاط مصر وصارت مدينة مصر الى أن قدم جوهر القائد من الغرب بعساكر المعز لدين الله أبي تميم معد وملك مصر واختط القاهرة فصارت دار المملكة بمصر الى أن زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فبنى قلعة الجبل وصارت القاهرة مدينة مصر الى يومنا هذا. وفي أرض مصر عدة مدائن ليست دار ملك وهى مدينة الفيوم ومدينة دلاص ومدينة اهناس ومدينة البهنسا ومدينة القيس ومدينة طلحا ومدينة الاشمونين ومدينة انصنا ومدينة قوص ومدينة سيوط ومدينة فاو ومدينة أخميم ومدينة البلينا ومدينة هو ومدينة قنا ومدينة دندره ومدينة قفط ومدينة الاقصر ومدينة اسنا ومدينة أرمنت ومدينة ادفو وثغر اسوان وادركناه مدينة هذه مدائن الوجه القبلي وكان أهل مصر يسمون من سكن من القبط بالصعيد المريس ومن سكن منهم أسفل الارض يسمونه البما وفى الوجه البحرى مدينة نوب من الحوف الشرقي بأسفل الارض ومدينة عين شمس ومدينة اتريب ومدينة تنوا ومن قراها ناحية زنكلون ومدينة نمي ومدينة بسطه ويعرف اليوم موضعها بتل بسطه ومدينة قربيط ومدينة البتنون ومدينة منوف ومدينة طره ومدينة منوف أيضا ومدينة سخا ومدينة الاوسه وهي دميره ومدينة تيدة ومدينة الافراخون ومن جملة قراها نشا ومدينة بقيره ومدينة بنا ومدينة شبراساط ومدينة سمنود ومدينة نوسا ومدينة سبتى ومدينة النجوم وقد غلب على مدينة النجوم الرمال والسباخ ويعرف اليوم منها قرية أدكو على ساحل البحر بين اسكندرية ورشيد ومدينة تنيس ومدينة دمياط ومدينة الفرما ومدينة العريش ومدينة صا ومدينة برنوط ومدينة قرطسا ومدينة أختو ومدينة رشيد ومدينة مريوط ومدينة لوبية ومراقية وليس بعد لوبية ومراقية الا أرض انطابلس وهي برية وفي كور القبلة مدينة فاران ومدينة القلزم ومدينة راية ومدينة ايلة ومدينة مدين واكثر هذه المدائن قد خرب ومنها ماله أخبار معروفة وقد استحدث فى الاسلام بعض مدائن وسيأتي من أخبار ذلك ان شاء الله ما يكفى • وديار مصر اليوم وجهان قبلي وبحرى جملتهما خمس عشرة ولاية • فالوجه القبلى اكبرهما وهو تسعة أعمال عمل قوص وهو أجلها ومنه اسوان وغرب قولة واسوان حد المملكة من الجنوب وعمل أخميم وعمل سيوط وعمل منفلوط وعمل الاشمونين وبها الطحاوية وعمل البهنسا وعمل الفيوم وعمل

أطفيح وعمل الجيزة ٠ والوجه البحرى ستة أعمال عمل البحيرة وهو متصل البر بالاسكندرية وبرقة وعمل الغربية وهي جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين بحر دمياط وبحر رشيد والمنوفية ومنها ابيار التي تسمى جزيرة بنى نصر وعمل قليوب وعمل الشرقية وعمل أشموم طناح ومنها الدقهلية والمرتاحية وهنا موضع ثغر البرلس وثغر رشيد والمنصورة وفي هذا الوجه الاسكندرية ودمياط وهما مدينتان لا عمل لهما ٠ وذكر أبو الحسن المسعودى في كتاب أخبار الزمان أن الكوكه وهي امة من أهل ايلة ملكوا الارض وقسموا الصعيد على ثمانين كورة وجعلوه اربعة اقسام وكان عدد مدن مصر الداخلة في كورها ثلاثين مدينة فيها جميع العجائب والكور مثل أخميم وقفط وقوص والفيوم ويقال ان مصر بن بيصر قسم الارض بين اولاده فأعطى ولده أشمون من حد بلده الى رأس البحر الى دمياط وأعطى ولده انصنا من حد انصنا الى الجنادل وأعطي لولده صا من صا أسفل الارض الى الاسكندرية وأعطي لولده منوف وسط الارض السفلي منف وماحولها وأعطى لولده قفط غربي الصعيد الى الجنادل وأعطي لولده أتريب شرقى الارض الى البرية برية فاران وأعطي لبناته الثلاثة وهن الفرما وسريام وبدورة بقاعا من أرض مصر محددة فيما بين اخوتهن

ذكر مدينة أمسوس وعجائبها وملوكها

قال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب في كتاب أخبار مصر وعجائبها وكانت مصر القديمة اسمها أمسوس وأول من ملك أرض مصر نقراوش الجبار بن مصرايم ومعنى نقراوش ملك قومه الاول ابن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام ركب في نيف وسبعين راكبا من بني عرياب جبابرة كلهم يطلبون موضعا يقطنون فيه فرارا من بني أبيهم عند ما بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا وبغي عليهم بنو قابيل بن آدم فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا الى النيل فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه أعجبهم فأقاموا فيه وبنوا الأبنية المحكمة وبني نقراوش مصر وسماها باسم أبيه مصرايم ثم تركها وأمر ببناء مدينة سماها أمسوس وقال ابن وصيف شاه وكان قد وقع اليه علم ذلك من العلوم التي تعلمها دوابيل من آدم عليه السلام فبني الاعلام وأقام الاساطين وعمل المصانع واستخرج المعادن ووضع الطلسمات وشق الأنهار وبنى المدائن فكل علم جليل كان في ايدى المصريين انما هو من فضل علم نقراوش واصحابه كان ذلك مرموزا على الحجارة ففسره قليمون الكاهن الذي ركب مع نوح عليه السلام في السفينة ونقراوش هو الذى بنى مدينة أمسوس وعمل بها عجائب كثيرة منها طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين وعند غروبها مرتين فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيأون لها ومنها صنم من حجر أسود في وسط المدينة تجاهه صنم مثله اذا دخل الى المدينة سارق لا يقدر أن يزول

حتى يسلك بينهما فاذا دخل بينهما اطبقا عليه فيؤخذ وعمل صورة من نحاس على منار عال لا يزال عليها سحاب يطلع فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء وعمل على حد البلاد أصناما من نحاس مجوفة وملأها كبريتا ووكل بها روحانية النار فكانت اذا قصدهم قاصد ارسلت تلك الاصنام من أفواهها نارا أحرقته وعمل فوق جبل بطرس منارا يفور بالماء ويسقى ما حوله من المزارع ولم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان ويقال انه هو الذى أصلح مجرى النيل وكان قبله يتفرق بين الجبلين وانه وجه الى بلاد النوبة جماعة هندسوه وشقوا نهرا عظيما منه بنوا عليه المدن وغرسوا الغروس وأحب أن يعرف مخرج النيل فسار حتى بلغ خلف خط الاستواء ووقف على البحر الاسود الزفتى ورأى النيل يجري على البحر مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القمر ويخرج منه الى بطائح ويقال انه هو الذي عمل التماثيل التي هناك وعاد الى أمسوس وقسم البلاد بين أولاده فجعل لابنه الاكبر واسمه نقاوش الجانب الغربي ولابنه شورب الجانب الشرقى وبنى لابنه الاصغر واسمه مصرايم مدينة برسان وأسكنه فيها وأقام ملكا على مصر مائة وثمانين سنة ولما مات لطخ جسده بأدوية ماسكة وجعل في تابوت من ذهب وعمل له ناوس مصفح بالذهب ووضع فيه ومعه كنوز واكسير وأوان من ذهب لايحصى ذلك لكثرته وزبروا على الناوس تاريخ موته وأقاموا عليه طلسما يمنعه من الحشرات المفسدة • وملك بعده ابنه نقاوش بن نقراوش وكان كأبيه في علم الكهانة والطلسمات وهو أول من عمل بمصر هيكلا وجعل فيه صور الكواكب السبعة وكتب على هيكل كل كوكب منافعه ومضاره وألبسها كلها الثياب الفاخرة وأقام لها خدمة وسدنة وخرج من أمسوس مغربا حتى بلغ البحر المحيط وأقام عليه أساطين على رؤسها أصنام تسرج عيونها في الليل ومضى على بلاد السودان الى النيل وأمر ببناء حائط على جنب النيل وعمل له أبوابا يخرج منها الماء وبنى في صحراء الغرب خلف الواحات ثلاث مدن على اساطين مشرفات من حجارة ملونة شفافة وفي كل مدينة عدة خزائن من الحكمة وفى أحداها صنم للشمس على صورة انسان وجسد طائر من ذهب وعيناه من جوهر أصفر وهو جالس على سرير من مغناطيس وفي يده مصحف العلوم وفي احداها صنم رأسه رأس انسان بجسد طائر ومعه صورة امرأة جالسة قد عملت من زئبق معقود لها ذؤابتان في يدها مرآة وعلى رأسها صورة كوكب وقد رفعت المرآة بيديها الى وجهها وفى احداها مطهرة فيها سبعة ألوان من سائل يرد اليها ولا يغير بعضها لون بعض وفي بعضها صورة شيخ جالس قد عمل من الفيروزج وبين يديه صبية جلوس كلهم من عقيق وفي بعضها صورة هرمس يعنى عطارد وهو ينظر الى مائدة بين يديه من نوشادر على قوائم من كبريت أحمر وفي وسطها صحفة من جوهر وجعل فيها صورة عقاب من زبرجد أخضر وعيناه من ياقوت

أصفر وبين يديه حية زرقاء من فضة قدلوت ذنبها على رجليه ورفعت رأسها كأنها تنفخ عليه وجعل فيها صفة المريخ وهو راكب على فرس وفى يده سيف مسلول من حديد أخضر وجعل فيها عمودا من جوهر أحمر وعليه قبة من ذهب فيها صورة المشترى وجعل فيها قبة من آنك على أربعة اعمدة من جزع أزرق وفى سقفها صورة الشمس والقمر متحاذيين فى صورة رجل وامرأة يتحادثان وجعل فيها قبة من كبريت أحمر فيها صورة الزهرة على هيئة امرأة ممسكة بضفائرها وتحتها رجل من زبرجد أخضر فى يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها وجعل فى بقية الخزائن من كنوز الاموال والجواهر والحلى واكسير الصنعة وصنوف الادوية والسموم القاتلة مالا يحصى كثرة وجعل على باب كل مدينة طلسما يمنع من دخولها وأنفذ لها مسارب تحت الارض ينفذ بعضها الى بعض طول كل سرب ثلاثه اميال وبنى ايضا مدينة بأرض مصر اسمها حاجمة وعمل فيها جنة صفح حيطانها بالجواهر الملونة بالذهب وغرس فيها اصناف الاشجار وأجرى تحتها الانهار وغرس فيها شجرة مولدة تطعم سائر الفواكه وعمل فيها قبة من رخام أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس ووكل بها شياطين اذا خرج أحد من بيته في الليل هلك وأقام بها أساطين زبر عليها جميع العلوم وصور العقاقير ومنافعها ومضارها وجعل لهذه المدينة مسارب تتصل بمسارب تلك المدن الثلاث بين كل سرب منها وبين هذه المدينة عشرون ميلا فلم تزل هذه المدائن حتى أفسدها الطوفان ولما مات بعد مائة وتسع سنين من ملكه على مصر جعل في ناوس مطلسم ودفن فيه * وملك بعده أخوه مصرام بن نقراوش الجبار بن مصرايم ويقال به سميت مصر وكان حكيما فعمل هيكلا للشمس من مرمر مموه بذهب أحمر وفي وسطه فرس من جوهر أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر وعلى رأسه قنديل من الزجاج فيه حجر مدبر يضئ أكثر من السراج ثم انه ذلل الاسد وركبها وسار الى البحر المحيط وجعل في وسطه قلعة بيضاء عليها صنم للشمس وزبر عليه اسمه وصفته وعمل صنما من نحاس زبر عليه أنا مصرام الجبار كاشف الاسرار الغالب القهار وضعت الطلسمات الصادقة واقمت الصور الناطقة ونصبت الاعلام الهائلة على البحار السائلة ليعلم من بعدى أنه لا يملك أحد أشد من ايدى وعاد الى أمسوس واحتجب عن الناس ثلاثين سنة واستخلف رجلا يقال له عيقام من ولد عرياب بن آدم وكان كاهنا ساحرا فلما مضت المدة أحب أهل مصر أن يروه فجمعهم عيقام بعد ما أعلم مصرام فظهر لهم في أعلى مجلس مزين بأصناف الزينة في صورة هائلة ملأت قلوبهم رعبا فخروا له ساجدين ودعوا له ثم أحضر اليهم الطعام فأكلوا وشربوا وأمرهم بالرجوع الى مواضعهم ولم يروه بعدها * فملك بعده خليفته عيقام وقد حكى عنه أهل مصر حكايات لا تصدقها العقول ويقال ان ادريس عليه السلام رفع في أيامه وانه رأى في علمه كون الطوفان فبنى

خلف خط الاستواء في سفح جبل القمر قصرا من نحاس وجعل فيه خمسة وثمانين تمثالا من نحاس يخرج ماء النيل من حلوقها ويصب في بطحاء تنتهي الى مصر وسار اليه من أمسوس فشاهد حكمة بنيانه وزخرفة حيطانه وما فيها من النقوش من صور الافلاك وغيرها وكان قصرا تسرج فيه المصابيح وتنصب فيه الموائد وعليها من كل الاطعمة الفاخرة في الاواني النفيسة مالو أكل منها عسكر لما نقصت ذرة ولا يعرف من عملها ولا من وضعها وفي وسط القصر بركة من ماء جامد الظاهر وترى حركته من وراء ماجمد منه فأعجب بما رأى وعاد الى أمسوس واستخلف ابنه عرياق وقلده الملك وأوصاه وعاد الى ذلك القصر وأقام به حتى هلك والى عيقام هذا يعزي مصحف القبط الذى فيه تواريخهم وجميع مايجرى فى آخر الزمان * فقام من بعد ابنه عرياق ويقال أرياق بن عيقام ويقال له الاثيم فعمل أعمالا عجيبة منها شجرة صفراء لها أغصان من حديد بخطاطيف اذا قرب الظالم منها أخذته تلك الخطاطيف ولا تفارقه حتى يقر بظلمه ويخرج منه لخصمه ومنها صنم من كدان اسود سماه عبد زحل كانوا يتحاكمون اليه فمن زاغ عن الحق ثبت في مكانه ولم يقدر على الخروج منه حتى ينصف خصمه من نفسه ولو أقام سنة ومن كانت له حاجة قام ليلا ونظر الى الكوكب وتضرع وذكر اسم عرياق فاذا اصبح وجد حاجته على بابه وعمل شجرة من حديد ذات أغصان ولطخها بدواء مدبر فكانت تجلب كل صنف من الدواب والسباع والوحوش اليها حتى يتمكن من صيدها وكان اذا غضب على أهل أقليم سلط عليهم الوحوش والسباع وتارة يجعل ماءهم من الايداق ويقال ان هاروت وماروت كانا في زمانه وانه بني جنة عظيمة واغتصب النساء الحسان واسكنهن فيها فعملت عليه امرأة منهن وسمته فهلك. وملك بعده لوجيم بن نقاوش ويقال بل هو من بني نقراوش الجبار ويعرف بلوجيم الفتى وهو الذى أخذ الملك من عرياق بن عيقام الكاهن ورده لبنى نقراوش بعدما خرج منهم بلا حرب ولاقتل وكان عالما بالكهانة والطلسمات فعمل أعمالا عجيبة منها أن الغداف والغراب كثر فى ايامه وأتلف الزرع فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس الاربعة وعلى كل منارة صورة غراب في فمه حية قد التوت عليه فنفرت عنهم الطيور المضرة من حينئذ ولم تقربهم حتي زالت المنارات بالطوفان وكان حسن السيرة منصفا للرعية عادلا مقربا للكهنة ولما مات دفن في ناوس ومعه كنوزه وعمل عليه طلسم يمنعه * وملك بعده ابنه خصليم وكان فاضلا عالما كاهنا فعمل أعمالا عجيبة وهو أول من عمل مقياسا لزيادة ماء النيل بأن جمع أرباب العلوم والهندسة فقدروا بيتا من رخام على حافة النيل وفي وسطه بركة صغيرة من نحاس فيها ماء موزون وعليها من جانبيها عقابان من نحاس أحدهما ذكر والآخر انثى فاذا كان أول الشهر الذي يزيد فيه النيل فتح هذا البيت وجمع الكهان فيه بين يديه وزمزم الكهان

بكلامهم حتي يصفر أحد العقابين فان صفر الذكر كان الماء تاما وان صفرت الانثى كان الماء ناقصا فيستعدون عند ذلك لغلاء الاسعار بما يصلحون به شأنهم وهو الذي بني القنطرة ببلاد النوبة على النيل ولما مات جعل في ناوس ومعه كنوزه وعمل عليه طلسم * وملك بعده ابنه هوصال ويقال يوصال ومعناه خادم الزهرة ويقال سو مال بن لوجيم الملك النقراوشي من بني نقراوش الجبار و يقال ان نوحا عليه السلام ولد فى أيامه وكان فاضلا كاهنا عالما بالسحر والطلسمات فعمل عجائب منها أنه بني مدينة عمل فى وسطها صنما للشمس يدور بدورانها ويبيت مغربا ويصبح مشرقا وعمل سربا تحت النيل فشق الارض وخرج منه متنكرا حتى بلغ مدينة بابل وكشف أعمال الملوك وكان نوح عليه السلام في زمانه ولد له عشرون ولدا فجعل مع كل ولدمنهم قطراوهو رأس الكهنةوأقام في الملك مائة وسبع وعشر سنة ثم لزم الهياكل وأقام أولاده على حالهم كل منهم في قسمه الذى أعطاه أياه أبوه مدة سبع سنين * ثم اجتمعوا على واحد منهم وملكوه عليهم وكان اسمه تدرشان وقيل تدرسان فلما ملك نفي جميع اخوته الى المدائن الداخلة فى الغرب واقتصر على امرأةمن بنات عمه وكانت ساحرة وعمل له قصرا من خشب منقوشا فيه صورة الكواكب وبسطه بأحسن الفرش وحمله على الماء وصار يجلس فيه فبينما هو فيه ذات يوم اذهبت ريح شديدة اضطرب منها الماء فانقلب القصر وتكسر فغرق هو ومن كان معه في القصر * وملك بعده أخوه نمرود الجبار ويقال شمرود بن هوصال فاحسن السيرة وأنصف الرعية وبسط العدل وجمع اخوته وفرق عليهم كنوز أخيهم فسر الناس به وطلب امرأة أخيه الساحرة ففرّت منه بابنها الى مدينة ببلاد الصعيد وامتنعت عليه بسحرها وأقامت مدة واجتمع السحرة الى ابنها وكان اسمه توميدون وحملوه على طلب الملك فسار وخرج اليه شمرود واخوته فاقتتلوا قتالا عظيما كان فيه الظفر لتوميدون فقتله * وملك من بعده فقام توميدون بن تدرسان بالملك في مدينة أمسوس وكان عالما فاضلا فتقوى بسحر أمه وعملت له أعمالا عجيبة منها قبة من زجاج على هيئة الكرة تدور بدوران الفلك وصورت فيها صور الكواكب فكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع وعلوم العالم فلما ماتت امه الساحرة بعد ستين سنة من ملكه طلي جسدها بما يدفع عنه النتن والحشرات ودفنت تحت صنم القمر ويقال انها كانت بعد موتها يسمع من عندها صوت بعض الارواح وتخبرهم بعجائب وتجيب عما تسأل عنه ولما مات توميدون بعد مائة سنة من ملكه عمل له صورة من زجاج مقسومة نصفين وأدخل فيها بعد ماطلى بالادوية المانعة من النتن وأطبقت الصورة عليه حتى التحمت واقيم في هيكل الاصنام ودفنت كنوزه عنده وصار يعمل له في كل سنة عيد * وملك بعده ابنه شرياق ويقال له سرياق بن توميدون بن تدرسان بن هو صال وكان كأبيه في علم الكهانة والسحر

والطلسمات فعمل أعمالا عجيبة منها على باب مدينة أمسوس هيئة بطة من نحاس قائمة على اسطوانة اذا دخل غريب من ناحية من النواحي صفقت بجناحيها وصرخت فيؤخذ ذلك الغريب ويكشف أمره حتى يعرف فيما قدم وشق من النيل نهرا يمر الى مدائن الغرب وبنى عليه أعلاما ومدنا ومتنزهات وسار ملك من بني فراشي بن آدم ويقال من بني صوانيقي بن آدم خرج من ناحية العراق في أيامه وغلب على بلاد الشام وقصد مصر ليأخذ ملكها فقيل له انك لا تقدر عليها لسحر أهلها فتنكر ودخل في جماعة من خواصه ليكشف حال أهل مصر فلما وصل الى أول حد مصر حبسه الموكلون بذلك الحد هو ومن معه حتى يأمر الملك فيهم بأمره وبعثوا اليه بصفتهم وكان قد رأى في منامه كأنه على منار عال وكأن طائرا عظيما انقض عليه ليخطفه فحاد عنه حتى كاد يسقط من المنار فجاوزه الطائر وسلم منه فانتبه مذعورا وقص رؤياه على كبير الكهنة فقال يطلبك ملك ولايقدر عليك ونظر في نجومه فرأى الملك الذى يطلب ملكه قد دخل الي مصر وكان ذلك هو الوقت الذى قدم عليه فيه الرسل بصفات الذين وصلوا الى حد مصر فأمر باحضارهم اليه بعد ما يطاف بهم على عجائب مصر كلها ليروها فأوثقوهم وساروا بهم واوقفوهم على عجائب أرض مصر وما فيها من الطلسمات حتى بلغوا الى الاسكندرية ثم الى أمسوس ثم الى الجنة التى عملها مصرام وكان الملك شرياق مقيما بها فعند ما وصلوا اليها أظهرت السحرة التماثيل العجيبة فدخلوا عليه وحوله الكهنة وبين يديه نار لا يصل اليه أحد حتى يخوضها فمن كان بريأ لم تضره ومن كان يريد بالملك سوأ أوأضمرله مكروها أخذته النار فشق القوم في وسط النار واحدا بعد واحد من غير أن تضرهم حتى انتهي الامر الى ملك العراق فعند ما دنا من النار أخذته بحرها فولى هاربا فاتبعوه حتى أخذوه وأوقفوه بين يدى شرياق فلم يزل به حتي اعترف فأمر بصلبه فصلب على الحصن الذى أخذ منه ونودى عليه هذا جزاء من طلب مالا يصل اليه وعفا عن الباقين فساروا من مصر وتحدثوا بما رأوه من العجائب فانقطع طمع ملوك الارض عن طلب ملك مصر ومات شرياق بعد ما ملك مصر مائة وثلاثين سنة فجعل في ناوس ومعه أمواله وطلسم يحفظه ممن يقصده * وملك بعده ابنه شهلوق وكان عالما بالكهانة والطلسمات فقسم ماء النيل موزونا يصرف الى كل ناحية قسطها ورتب الدولة وعمل بيت نار وهو أول من عبد النار وعمل بأمسوس عجائب منها شجرة على أعلى الجبال تقسم بها الرياح التي تمنع من أراد مصر بأذى أو فساد من جنى أو انسى أو سبع أو طائر وعمل بالمدينة قبة مركبة على سبعة أركان ولها سبعة أبواب على كل ركن باب وفي وسط القبة قبة من صفر وفي أعلاها صور الكواكب السبعة وتحت القبة قبة اخرى معلقة على سبع أساطين وعلى الباب الاول من القبة أسد ولبوة من صفر وهما رابضان كان يذبح لهما جروا أسود ويبخرهما

بشعره وعلى البـاب الثاني ثور وبقرة يذبح لهما عجلا ويبخرهما بشعره وعلى البـاب الثالث خنزير وخنزيرة يذبح لهمـا خنوصا ويبخرهما بشعره وعلى البـاب الرابع كبش وشاة يذبح لهما سخلة ويبخرهما بشعرها وعلى البـاب الخامس ثعلب وثعلبة يذبح لهما فرخ ثعلب ويبخرهما بشعره وعلى الباب السادس عقاب وانثاه يذبح لهما فرخ عقاب ويبخرهما بريشه وعلى الباب السابع نسر وأنثاه يذبح لهما فرخ نسر ويبخرهما بريشه ويلطخ كلا منهما بدم ماذبح له وتحرق سائر القرابين ويوضع رمادها تحت عتبات أبواب القبـة وجعل لهذه القبة سدنة يشعلون المصابيـح ليلا ونهارا وقسم الناس بمصر سبع مراتب لكل مرتبة منهم باب من أبواب تلك القبة فكان الخصم اذا تقـدم الى شيء من تلك الصور وكان ظالما فانه يلتصق بها ولا يتخلص منها حتى يخرج من الحق الذى عليه الذكر للذكر والانثى للانثى فيعرفون بذلك الظالم من المظلوم ولم تزل هـذه القبة بأمسوس حتى أزالها الطوفان ويقال انه رأى أباه في النوم وهو يأمره أن ينطلق الى جبل وصفه له من جبـال مصر فان فيه كوة صفتها كذا على بابها أفعي لها رأسان اذا أقبل اليها كشرت فى وجهه فخذ معك طائرين صغيرين ذكـرا وأنثي فاذبحهما لها وألقمها اياهما فانها تأخذ برأسيهما وتتنحى بهما الى سرب فاذاغابت ادخل الـكوة تجد فيها امرأة عظيمة من نور حار يابس فانها تسطع لك وتحس بحرارتها فلاتدون منها تحترق ولـكن اقعد حذاءها وسلم عليها فانها تخاطبك فافهم ماتقول لك واعمل به فانك تشرف بذلك وتدلك على كنوز جدك مصرام فانها حافظة لها فلما انتبه عمل ما أمره أبوه فلما قعد بجانب المرأة وسلم قالت له اتعرفنى قال لاقالت أناصورة النار المعبودة فى الامم الخالية وقدأردت أن تحيي ذكرى وتجددلي بيتا تقدلي فيه نارا دائمة بقدر واحدوتتخذلهاعيدا في كل سنة تحضره أنت وقومك فانك تتخذ بذلك عندي يدا أنيلك بها شرفا الى شرفك وملكا الى ملكك وأمنع عنك من يطالبك بسوء وأدلك على كنوز جدك مصر ام فضمن لها أن يفعل كل ما أمرته به فدلته على الـكنوز التي تحت المدائن المعلقة وعلمته كيف يصيراليها وكيف يحترس من الارواح الموكلة بها ومايخيـه منها ثم قال لها كيف لي بأن أراك في وقت آخر قالت لاتعد فان الافعي لاتمكنك ولكن بخر في بيتك بـكذا فاني آتيك فسر بذلك وغابت عنه وخرج ففعل ما أمرته به من عمل بيت النار وأخذ كنوز مصرام ولما مات جعل في ناوس ومعه سائر أمواله وكنوزه وجعل عليه طلسم يحفظه ممن يقصده * وملك بعد ابنه سوريد وكان حكيما فاضلا وهو أول من جبى الخراج بمصر وأول من أمر بالانفاق على المرضى والزمني من خزائنه وأول من سن رقعة الصباح وعمل أعمالا عجيبة منها مرآة من أخلاط كان ينظر فيها الى الاقاليم فيعرف فيها ماحدث من الحوادث وما يخصب منهـا وما يجدب وأقام هذه المرآة في وسط مدينة أمسوس وكانت من نحاس وعمل فى أمسوس صورة امرأة

جالسة فى حجرها صبى ترضعه وكانت المرأة من نساء مصر اذا أصابتها علة فى موضع من جسمها أتت هذه الصورة ومسحت ذلك الموضع من جسدها بمثل ذلك الموضع من الصورة فتزول عنها العلة وان قل لبنها مسحت ثديها بثدي الصورة فيغزر لبنها وان قل حيضها مسحت فرجها بفرج الصورة فيكثر حيضها وان كثر دمها مسحت أسفل ركبها بمثل ذلك من الصورة وان عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبي الذى في حجر الصورة فتضع حملها وان أرادت التحبب الى زوجها مسحت وجهها وتقول افعلي كذا وكذا فاذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتي تتوب ولم تزل هذه الصورة الى أن أزالها الطوفان وفي كتب القبط انها وجدت بعد الطوفان وأن أكثر الناس عبدوها وعمل سوريد صنما من أخلاط كثيرة فكان من أصابته علة في موضع من جسده غسل ذلك الموضع من الصنم بماء وشرب الماء فانه يبرأ وسوريد هذا هو الذي بني الهرمين العظيمين بمصر المنسوبين الى شداد بن عاد والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم ولما مات سوريد دفن في الهرم ومعه كنوزه ويقال انه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة وانه ملك مائة سنة وتسعين سنة * فملك بعده ابنه هرجيب وكان كأبيه حكيما فاضلا في علم السحر والطلسمات فعمل أعمالا عجيبة واستخرج معادن كثيرة وأظهر علم الكيمياء وبني اهرام دهشور وحمل اليها اموالا عظيمة وجواهر نفيسة وعقاقير وسمومات وجعل عليها روحانيات تحفظها وشج رجل رجلا فامر بقطع أصابعه وسرق رجل مالا فملك المسروق له رق السارق ولما مات دفن فى الهرم ومعه جميع أمواله وذخائره * وملك بعده ابنه مناوس ويقال منقاوس وكان كأبيه في الحكمة الا انه كان جبارا فاسقا سفاكا للدماء ينتزع النساء من أزواجهن ويبيح ذلك لخواصه وعمل أعمالا عجيبة واستخرج كنوزا وبني قصورا من ذهب وفضة وأجري فيها الانهار وجعل حصباءها من اصناف الجواهر النفيسة وسلط رجلا جبارا اسمه قرناس على الناس ووجهه لمحاربة الامم الغريبة فقتل منهم خلائق ولما مات دفن فى بعض قصوره ومعه أمواله وعمل عليه طلسم يحفظه ويمنعه من كل طالب * وملك بعده ابنه أفروس وكان كأبيه في العلم والحكمة ولما ملك أظهر العدل وأحسن السيرة ورد النساء اللاتي غصبن في أيام أبيه على أزواجهن وعمل قبة طولها خمسون ذراعا في عرض مائة ذراع وركب في جوانبها طيورا من صفر تصفر بأصوات مختلفة مطربة لاتفتر ساعة وعمل في وسط مدينة أمسوس منارا عليه رأس انسان من صفر كلما مضى من النهار أو الليل ساعة صاح صيحة يعلم من سمعها بمضى ساعة وعمل منارا عليه قبة من صفر مذهب ولطخها بلطوخات فاذا غربت الشمس في كل ليلة اشتعلت القبة نورا تضيء له مدينة أمسوس طول الليل حتى يصير مثل النهار لاتطفئها الرياح ولا الامطار فاذا طلع النهار خمد ضوءها وأهدى لبعض ملوك بابل مدهنا من زبرجد

قطره خمسة اشبار ويقال انه وجد بعد الطوفان وعمل فى الجبل الشرقي صنما عظيما قائما على قاعدة وهو مصبوغ مصفر بالذهب ووجهه الى الشمس يدور معها حتي تغرب ثم يدور ليلا حتى يحاذى المشرق مع الفجر فاذا أشرقت الشمس استقبلها بوجهه وبنى بصحراء الغرب مدنا كثيرة وأودعها كنوزا عظيمة ونكح ثلثمائة امرأة ولم يولد له ولد فان الله تعالى كان قد أعقم الارحام لما يريد من اهلاك العالم بالطوفان ووقع الموت فى الناس والبهائم ولما مات وضع في ناوس بالجبل الشرقي ومعه أمواله وطلسم عليه * وملك بعده ارمالينوس فعمل أعمالا عجيبة وبنى مدنا ومصانع وجدد الطلسمات وكان له ابن عم يسمى فرعان وكان جبارا فأبعده وجعله على جيش سار به عنه فقهر ملوكا وقتل اممًا عظيمة وغنم اموالا كثيرة وعاد فشغفت به امرأة من نساء الملك وما زالت به حتى اجتمع بها وتآلفا وأقاما على ذلك مدة نخافا الملك أن يفطن بهما فعملت المرأة لارمالينوس سما في شرابه هلك منه *وملك بعده ابن عمه فرعان بن مشور فلم ينازعه أحد لشجاعته وسياسته ولم تطل أعوامه حتى رأى قليمون الكاهن كان طيورا بيضا قد نزلت من السماء وهى تقول من أراد النجاة فليلحق بصاحب السفينة وكان عندهم علم بحدوث الطوفان من أيام سوريد وبنائه الاهرام لاجل ذلك واتخذ الناس سراديب تحت الارض مصفحة بالزجاج قد حبست الرياح فيها بتدبير وعمل منها فرعان لنفسه ولاهله عدة فما كذب أن جمع أهله وولده وتلاميذه ولحق بنوح عليه السلام وآمن به وأقام معه حتي ركب في السفينة وجاء الطوفان في أيام فرعان فأغرق أرض مصر كلها وخرب عمائرها وأزال تلك المعالم كلها وأقام الماء عليها ستة أشهر ووصل الى أنصاف الهرمين العظيمين وسيأتى خبر ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكر محن مصر من هذا الكتاب ويقال ان فرعان كان عاتيا متجبرا يغصب الاموال والنساء وانه كتب الى الدرشيل بن لحويل ببابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام وانه أستخف بالكهنة والهيا كل ففسدت فى أيامه أرض مصر ونقص الزرع وأجدبت النواحي لانهماكه في ضلاله وظلمه واقباله على لهوه ولعبه وان الناس اقتدوا به ففشا ظلم بعضهم لبعض وانه لما أقبل لما الطوفان وسحت الامطار قام سكران يريد الهرب الى الهرم فتخلخلت الارض به وطلب الابواب نخانته رجلاه وسقط يخور حتي هلك وهلك من دخل الاسراب بالغم والله تعالى أعلم

ذكر مدينة منف وملوكها

هذه المدينة كانت في غربي النيل على مسافة اثني عشر ميلا من مدينة فسطاط مصر وهي أول مدينة عمرت بأرض مصر بعد الطوفان وصارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التى تقدم ذكرها الى أن أخربها بخت نصر وقد ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله تعالى ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها قال الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى

فى كتاب جامع البيان في تفسير القرآن عن السدي أنه قال كان موسى عليه السلام حين كبر يركب كمراكب فرعون ويلبس مثل ما يلبس وكان انما يدعي ابن فرعون ثم ان فرعون ركب مركبا وليس عنده موسى فلما جاء موسى عليه السلام قيل له ان فرعون قد ركب فركب في اثره فأدركه المقيل فى أرض يقال لها منف فدخلها نصف النهار وقد تغلقت اسواقها وليس في طرقها أحد وهي التي يقول الله جل ذكره ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها وقال ابن عبد الحكم عن عبد الله بن لهيعة أول من سكن بمصر بعد أن أغرق الله قوم نوح عليه السلام بيصر بن حام بن نوح فسكن منف وهي أول مدينة عمرت بعد الطوفان هو وولده وهم ثلاثون نفسا منهم أربعة اولاد قد بلغوا وتزوجوا وهم مصر وفارق وماج وياج بنو بيصر وكان مصر أكبرهم فبذلك سميت مافه ومافه بلسان القبط ثلاثون وكانت اقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم ونقروا هناك منازل كثيرة وقال ابن جرداويه في كتاب المسالك والممالك ومدينة منف هي مدينة فرعون التى كان ينزلها واتخذ لها سبعين بابا من حديد وجعل حيطان المدينة من الحديد والصفر وفيها كانت الانهار تجرى من تحت سريره وهي أربعة ويروى أن مدينة منف كانت قناطر وجسورا بتدبير وتقدير حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا ويرسلونه كيف شاؤا فذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون وكان بها كثير من الاصنام لم تزل قائمة الى أن سقطت فيما سقط من الاصنام في الساعة التي أشار فيها النبي صلى الله عليه وسلم الى الاصنام يوم فتح مكة بقضيب فى يده وهو يطوف حولها ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا فما أشار الى صنم منها في وجهه الا وقع لقفاه ولا أشار لقفاه الا وقع لوجهه حتى مابقى منها صنم الا وقع وفي تلك الساعة سقطت أصنام الارض من الشرق الى الغرب وبقى أصحابها متعجبين لا يعلمون لها سببا أوجب سقوطها وبقيت أصنام مدينة منف ساقطة من ساعته وفيها الصنمان الكبيران المجاوران للبيت الاخضر الذى كان به صنم العزيز وكان من ذهب وعيناه ياقوتتان لا يقدر على مثلهما ثم قطعت الاصنام والبيت الاخضر من بعد سنة ستمائة * ويقال كانت منف ثلاثين ميلا طولا فى عشرين ميلا عرضا وان بعض بني يافث بن نوح عمل في أيام مصرايم آلة تحمل الماء حتى تلقيه على أعلى سور مدينة منف وذلك انه جعلها درجا مجوفة كلما وصل الماء الى درجة امتلأت الاخرى حتى يصعد الماء الى أعلى السور ثم يحط فيدخل جميع بيوت المدينة ثم يخرج من موضع الى خارج المدينة * وكان بمنف بيت من الصوان الاخضر المانع الذى لا يعمل فيه الحديد قطعة واحدة وفيه صور منقوشة وكتابة وعلى وجه بابه صور حيات ناشرة صدورها لو اجتمع ألوف من الناس على تحريكه ماقدروا لعظمه وثقله والصابئة تقول

انه بيت القمر وكان هذا البيت من جملة سبعة بيوت كانت بمنف للكواكب السبعة وهذا البيت الاخضر هدمه الامير سيف الدين شيخون العمرى بعد سنة خمسين وسبعمائة ومنه شئ في خانقاهه وجامعه الذى بخط الصليبة خارج القاهرة وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القيسي فى كتابه تحفة الالباب ورأيت فى قصر فرعون موسى بيتا كبيرا من صخرة واحدة أخضر كالآس فيه صورة الافلاك والنجوم لم نر عجبا أحسن منه * وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسى وكانت دار الملك بمصر فى قديم الدهر مدينة منف وهى فى غربي النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط فلما بنى الاسكندر مدينة الاسكندرية رغب الناس في عمارتها فكانت دار العلم ومقر الحكمة الى ان فتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة بالفسطاط فانتشر أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم الى سكناها فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها الى وقتنا هذا* وقال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب وقد ذكر أخبار مدينة أمسوس وخراب عمائر أرض مصر بطوفان نوح عليه السلام ولما نزل الماء كان أول من ملك مصر بعد الطوفان بيصر بن حام بن نوح وكان معه ثلاثون من الجبابرة من أهله وولده فاجتمعوا وبنوا مدينة منف ونزلوا بها وكان قليمون الكاهن الذى تقدم ذكره في خبر مدينة أمسوس من جملتهم وكان قد زوج ابنته ببيصر المذكور وجاءت معه الى مصر وولدت منه ولدا سماه مصرايم فلما مات بيصر دفن في موضع دير أبي هرميس ويقال دير أبي هرميس غربى الاهرام ويقال انها أول مقبرة دفن بها بأرض مصر وكان موته بعد ألف وثمانمائة وست سنين مضت من وقت الطوفان وقال غيره ثم بنى مصرايم مدينة سماها باسمه فجاءه رجل من بنى يافث فعمل له سورا قائما وصنع له درجا وأجرى الماء الى أن بقى يصعد الى أعلى السور بحكمة أتقنها ثم ينزل ذلك الماء من أعلى السور الى المدينة فينتفع به فيها بغير مشقة ولا كلفة ثم يخرج من ناحية أخرى وكتب على السور هذه صنعة من يموت لاصنعة من يدوم* وملك بعد بيصر ابنه مصرايم (ويقال له مصر) بن بيصر فأظهره قليمون الكاهن على كنوز مصر وعلمه قراءة خطهم وأطلعه على حكمهم وبنى مصرايم المدن وشق الانهار وغرس الاشجار وبنى مدينة عظيمة سماها درسان وهي العريش ونكح امرأة من أولاد الكهنة فولدت له ابنا سماه قفطيم وبنى مدينة رقودة مكان الاسكندرية ولما مات مصرايم جعل له سرب طوله مائة وخمسون ذراعا وبسط بالمرمر الابيض وعمل في وسطه مجلس مصفح بصفائح الذهب وله أربعة ابواب على كل باب تمثال من ذهب على رأسه تاج من ذهب وهو جالس على كرسى من ذهب قوائمه من زبرجد ونقش فى صدر كل تمثال آيات مانعة وجبسوا جسده فى جسد من زبرجد أخضر شبه تابوت طوله اربعون ذراعا دفن فيه ومعه جميع ما كان فى خزائنه

من ذهب وفضة وجوهر منها ألف قطعة من زبرجد مخروط وألف تمثال من جوهر نفيس وألف برنية من ذهب مملوءة درا نفيسا وألف آنية من ذهب وعدة سبائك من فضة وعمل عليه طلسم مانع من الوصول اليه وزبروا عليه مات مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد ألفين وستمائة عام وقيل بعد سبعمائة سنة مضت من الطوفان ولم يعبد الاصنام فصار الى جنة لاهرم فيها ولا سقم ولا هم ولا حزن وكتب اسم الله الاعظم عليه حتى لا يصل اليه أحد الا ملك يأتي فى آخر الزمان يدين بدين الملك الديان ويؤمن بالبعث والفرقان والنبى الداعي الى الايمان في آخر الزمان وسقفوا فوق السرب بالصخور العظام وهالوا عليه الرمال حتى سدوا بين جبلين متقابلين * ويقال كان مصر بن بيصر مع جد أبيه نوح عليه السلام في السفينة فدعا له أن يسكنه الله الارض الطيبة المباركة التي هى أم البلاد وغوث العباد ونهرها أفضل الانهار ويجعل له فيها افضل البركات ويسخر له الارض ولولده ويذللها ويقويهم عليها فسأله عنها فوصفها له وأخبره بها وكان بيصر بن حام قد كبر وضعف فساقه ولده مصرايم وجميع اخوته الى مصر فنزلوها وبذلك سميت مصر * وملك بعده ابنه قبطيم (ويقال له قفط) بن مصرايم وهو أول من عمل العجائب بعد الطوفان فاستخرج المعادن وشق الانهار ونصب الاعلام والمنارات وعمل الطلسمات * ويقال ان مصرايم لما مات اختلف أولاده من بعده وكان قفط أصغرهم فاجتمعوا عند الاهرام ورضوا بأن من غلب منهم أخاه أخذ الملك فتحارب أشموم وأتريب فغلب أتريب ثم تحارب صا هو وأشموم فغلب ثم تحارب قفط وصا فغلب قفط فأخذ قفط الملك بعد أبيه وأطاعه اخوته وسكن مدينة منف دار مملكة أبيه وتزوج امرأة ولدت له أربعة أولادهم قفطريم وأشمون وأتريب وصا فتناسلوا وكثروا وعمروا البلاد ثم انه قسم الارض بين أولاده الاربعة عند وفاته فجعل لولده قفطريم من أسوان الى قفط وجعل لولده أشمون من مدينة قفط الى مدينة منف وجعل لولده أتريب الجرف كله وجعل لولده صا من ناحية البحيرة الى الغرب وجعل أمرهم الى قفطريم وأمر كل واحد منهم أن يبني لنفسه مدينة في حيزه وجعل لنفسه سربا تحت الجبل الكبير وصفحه بالمرمر وعمل فيه منافذ للريح فصارت تخرق فيه بدوى عظيم وأقام في السرب رؤسا من نحاس مطلية تضيء كالسرج ليلا ونهارا ولما مات وضع جسده بهذا السرب في جرن من ذهب بعدما ألبس ثيابا منسوجة بالدر والمرجان وأقيم عند رأسه عمود من مرمر عليه جوهرة تضيء وعمل حول الجرن توابيت من حجارة ملونة حولها مصاحف الحكمة ووضعت عنده أمواله وكنوزه وذخائره وزبروا عليه كما زبروا على أبيه وانتقل كل من أولاده الى حيزه فانتقل صا بأهله وأولاده وسكن مدينة صا الآتي ذكرها* ويقال كانت البلبلة في أيام قفط وانه ألهمه الله تعالى اللغة القبطية وأنه أقام ملكا أربعمائة

وثمانين سنة ومات فدفن بأرض الواحات وملك بعده أخوه اشمن بن مصر وقيل بل اسكن في حياته ابنه قفطريم في حيزه فشرع فى العمارة وكان جبارا عظيم الخلقة فأثار من المعادن مالم يثره أحد قبله وبني مدينة دندرة وعمل في جبل قفط منارا عاليا يرى منه البحر الشرقي ووجد هناك معادن من الزئبق وعمل البركة التي سماها صيادة الطير وهلك عاد بالريح في آخر أيامه وفى ايامه أثارت الشياطين الاصنام التي أغرقها الطوفان فعبدت وأقام ملكا أربعمائة وثمانين سنة ومات * وذكر ابن عبد الحكم بعد مصر بن بيصر قفط بن مصر وأن الذى ملك بعد قفط أخوه اشمن ثم أريب بن مصر ثم صا بن مصر ثم ابنه تدراس بن صا ثم ابنه ماليق بن تدراس ثم ابنه حزابا بن ماليق ثم ابنه كلكلي بن حزابا ويقال ان أشمن لما ملك بعد أخيه سار اليه شداد بن هداد بن شداد بن عاد وملك أرض مصر وهدم مبانيها وبنى اهراما ومضى الى موضع الاسكندرية فبناها وأقام دهرا ثم خرجت العادية من أرض مصر فعاد اشمن الى ملكه وأنه ملك بعده أخوه صا ثم ملك بعد صا ابنه تدراس وفي ايامه بعث الله صالحا الى ثمود ومات * فملك ابنه ماليق البودسير وكان من الجبابرة العظام عمل أعمالا عظيمة منها منار فوقه قبة لها أربعة اركان في كل ركن كوة يخرج منها في يوم معلوم عندهم من كل سنة دخان ملتف في ألوان شتى يستدلون بكل لون على شيء فان خرج الدخان أخضر دل على العمارة والخصب فى تلك السنة وان خرج أبيض دل على الجدب وقلة الخير وان خرج أحمر دل على الحروب وقصد الاعداء وان خرج أصفر دل على النيران وآفات تحدث من الملك وأن خرج اسود دل على الامطار والسيول وفساد بعض الارض وان خرج مختلطا دل على كثرة الظلم وبغى الناس بعضهم على بعض وعمل شجرة من نحاس تجذب سائر الوحوش حتى تصل اليها فلا تستطيع الحركة الى أن تؤخذ فشبع أهل مصر من لحوم الوحوش واتفق أن غرابا نقر عين صبي من أولاد الكهنة فقلعها فعمل شجرة من نحاس عليها غراب منشور الجناحين وفي منقاره حية وعلى ظهره أسطر فكانت الغربان تقع على هذه الشجرة ولا تبرح حتى تموت وكانت الرمال قد كثرت فى ايامه على أرض مصر من ناحية الغرب فعمل صنما من صوان اسود على قاعدة منه وفوق كتفه قفة فيها مسحاة ونقش على وجهه وصدره وذراعيه كتابة وجعل وجهه الى الغرب فانكشفت الرمال ورجعت بها الرياح الى ورائها وصارت تلالا عالية وبعث بهرمس الحكيم الى جبل القمر الذى يخرج منه النيل فعمل تماثيل النحاس وعدل جانبى النيل وكان قبله يفيض في مواضع وينقطع في مواضع وسار مغربا لينظر ماوراء ذلك فوقع على أرض واسعة يخرق فيها الماء والاشجار فبني فيها منتزهات وأقام بها وحول اليها عدة من أهله فعمروا تلك النواحي حتى صارت أرض الغرب كلها معمورة ثم خالطهم البربر وجرت بينهم حروب كثيرة أفنتهم فخربت تلك البلاد ولم يبق منها الا الواحات ثم ان البودسير احتجب

عن الناس وصار يبرز وجهه من مقعده في النادر وربما خاطبهم من حيث لايرونه * وذكر أبو الحسن المسعودى في كتاب أخبار الزمان أن أول من تحقق بالكهانة وغير الدين وعبد الكواكب البودسير وتزعم القبط أن الكواكب كانت تخاطبه وأن له عجائب كثيرة منها انه استترعن الناس عدة سنين من ملكه وكان يظهر لهم وقتا بعد وقت مرة في كل سنة وهو حلول الشمس في برج الحمل ويدخل الناس اليه فيخاطبهم وهم يرونه فيأمرهم وينهاهم ويحذرهم مخالفة أمره ثم بنيت له قبة من فضة مطلية بذهب فصار يجلس في أعلاها وله وجه عظيم فيخاطبهم * (فلما مات ملك بعده ابنه ارقليمون) وكان كاهنا ساحرا فعمل أعمالا عظيمة منها أنه كان يجلس في السحاب فيرونه فى صورة انسان عظيم وأقام مدة على ذلك ثم انه غاب عن أهل مصر وصاروا بغير ملك ثم رأوا صورة بحذاء جرم الشمس عند حلولها أول برج الحمل فأمرهم أن يقلدوا الملك عديم بن قفطيم وأعلمهم أنه ما بقى يعود اليهم * (فولوا عليهم عديم بن قفطيم) وكان جبارا عظيما وهو أول من صلب بمصر وذلك أن امرأة ورجلا زنيا فصلبهما وجعل ظهر كل منهما لظهر الآخر وبني أربع مدائن أودعها كنوزا عظيمة وجعل عليها طلسمات وعدة عجائب وعمل منارا على البحر الشرقي وعليه صنم الى الشرق حتى لا يغلب البحر على أرض مصر وعمل قنطرة على النيل في أرض النوبة وأقام ملكا مائة واربعين سنة ومات وعمره سبعمائةوثلاثون سنة * (وملك بعده ابنه شدات بن عديم) وهو الذى تسميه العامة شداد بن عاد وكان عالما كاهنا ساحرا ويقال انه هو الذى بني الاهرام الدهشورية وعمل أعمالا عظيمة وطلسمات عجيبة وبنى في الجانب الشرقي مدائن وفي أيامه بنيت قوص وغزا الحبشة وسباهم وأقام ملكا تسعين سنة وهو أول من اتخذ الجوارح وصاد بها وولد الكلاب السلوقية وعمل في بركة سيوط تماسيح منصوبة تنصب اليها التماسيح من النيل انصبابا فيقتلها ويعلق جلودها فى السفن واتفق أنه طرد صيدا فكبابه فرسه في وهدة فهلك وكان قد غضب على بعض خدمه فرماه من جبل عال فتقطع فرأى أنه يصيبه مثل ذلك ولما هلك وضع فى ناوس ودفنت معه امواله وعمل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده وكتب عليه لا ينبغي لذى القدرة أن يخرج عن الواجب ولا يفعل مالا يجوز له فعله فيجازي بعمله هذا ناوس بن شدات بن عديم فعل مالا يحل له فعله فكوفيء عليه بمثله * (وملك بعده منقاوش) وكان حكيما فاضلا كاهنا عمل أعمالا عجيبة وبني اشياء معجبة منها أنه عمل هيكلا لصور الكواكب على ثمانية فراسخ من منف وكنز من الاموال مالا يحصي وفتح عليه من المعادن مالم يفتح به على غيره وسار في الجنوب يوماثم سار مغربا يوما وبعض آخر فانتهى فى اليوم الثالث الى جبل اسود فعمل تحته أسرابا ومغاير ودفن فيها امواله وزبر عليهاحتى أنه من كثرتها يقال انه دفن حمل اثنى عشر ألف عجلة ذهبا وجواهر وأقام أربع سنين يرسل

فى كل سنة عجلا كثيرة يدفنها وبقيت آثار العجل تري في ما بين منف والمغرب زمانا طويلا وبني هيكلا للقمر ويقال انه هو الذى بنى مدينة منف لبناته وكن ثلاثين بنتا وأنه ألزم الناس بعمل الكيمياء فكانوا لا يفترون عن عملها ليلا ولا نهارا حتى اجتمع عنده مال عظيم وجوهر كثير وهو الذي بنى مدينة عين شمس وقسم خراج مصر أرباعا جعل الربع للملك والربع للجند والربع ينفق في مصالح الارض والربع الرابع يدفن لحادثة تحدث وهو الذى قسم أرض مصر على مائة وثلاثين كورة وأقام ملكا أحدى وتسعين سنة ومات *(فملك بعده ابنه عديم بن منقاوش) وكان جبارا لا يطاق وفي أيامه كان نزول الملكين اللذين يعلمان الناس السحر والقبط تزعم أنهما نزلا بأرض مصر ثم نقلا الى بابل * ثم ملك بعده أخوه مناوش ابن منقاوش وكان عالما كاهنا فاضلا بنى مواضع كثيرة فى الجبال والصحارى وكنز فيها كنوزا عظيمة وأقام عليها أعلاما وبنى في صحراء الغرب مدينة وأقام لها منارا وكنز حولها كنوزا عظيمة وجعل فيها شجرة تطلع كل لون من الفاكهة وهو أول من عبد البقر بمصر وكان يطلب الحكمة ويستخرج كتبها وكذا كان كل من ملك منهم يجتهد في أن يعمل له غريبة من الاعمال لم تعمل لمن كان قبله وتثبت في كتبهم وتزبر على الحجارة *(ولما مات ملك بعده ابنه هرميس) وكان قليل الحكمة فلم يعمل شيأ مما عمله آباؤه ومات وقد أقام احدى عشرة سنة * (فملك بعده اشمون) بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح وكان حيزه من أشمون الى منف في الغرب وحيزه في الشرق الى حد البحر الملح مما يحاذى برقة وهو آخر حد مصر ومن بلاد الصعيد الى حدود أخميم وكانت منزله بمدينة الاشمونين وكان طولها اثنى عشر ميلا فى مثلها وبنى في شرقى النيل مدينة انصنا وبنى بها قصرا عظيما واتخذ بها أبنية وملاعب وعجائب كثيرة وبنى مدينة طهراطيس وهو أول من لعب بالكرة والصولجان ويقال انه بنى مدنا كثيرة عمل فيها عجائب منها مدينة في سفح الجبل لها أربعة أبواب من كل ناحية باب فعلى الباب الشرقي صورة عقاب وعلى الباب الغربي صورة ثور وعلى الباب الشمالى صورة أسد وعلى الباب الجنوبي صورة كلب وفي هذه الصور روحانيات تنطق فاذا قدم غريب لا يقدر على الدخول اليها الا باذن الموكلين بها ودفن تحت كل شكل من هذه الاشكال الاربعة صنفا من الكنوز وغرس في هذه المدينة شجرة مولدة تثمر كل لون من الفاكهة ونصب منارا طوله ثمانون ذراعا فوقه قبة تتلون كل يوم لونا حتي تمضى سبعة أيام ثم تعود الى اللون الاول فكانت تلك المدينة تكسي من تلك الالوان شعاعا مثل لونها وأجرى حول المنار ماء شقه من النيل وجعل فيه سمكا من كل لون وأقام حول المدينة طلسمات في هيئة أناس رؤسها كالقردة وأسكن هذه المدينة السحرة فعرفت بمدينة السحرة وكانوا يعملون فيها أصناف السحر وبنى بالقرب منها مدينة عرفت

بذات العجائب وبنى مجالس مصفحة بزجاج ملوّن في وسط النيل وبنى سربا تحت الارض
من الاشمونين الى أنصنا وقيل انه هو الذى بنى مدينة عين شمس وانه ملك ثمانمائة سنة
وان قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة سنة وأقاموا بمصر تسعين سنة فأصابهم وباء
خرجوا منه الى المدينة بطريق الحجاز الى وادي القرى فعاد أشمون بعد خروج العادية
الى ملك مصر وهو أول من عمل النوروز بمصر وفى زمانه بنيت مدينة البهنسا ولما مات
جعل له ناوس فى آخر حدّ الاشمونين ودفن فيه ومعه كنوزه العظيمة وعجائبه الكثيرة
منها ألف برنية من العقاقير المدبرة لفنون الاعمال وزبروا على ناوسه اسمه ونسبه وجعل
عليه طلسم يمنعه ممن يقصده * (وملك بعده ابنه صا) ثم بعد صا ابنه تدراس * (وقيل
ملك مناقيوش) وكان شجاعا فاضلا فاستأنف العمارة وبنى القري ونصب الاعلام وعمل
العجائب الهائلة وبنى مدائن منها مدينة اخميم وحوّل الكهنة اليها وأقام ملكا نيفاوأربعين
سنة ومات فدفن في الهرم الشرقىّ ومعه كنوزه (وملك بعده ابنه)وقد اختلف في اسمه
وكان فاضلا حازما معظما عند أهل مصر وهو أول من عمل المارستان وأول من عمل
الميدان للرياضة وفي أيامه بنيت مدينة سنترية في صحراء الواحات ثم ان نساءه تغايرن عليه
فقتلته احداهن بسكين فدفن في ناوس ومعه أمواله وعمل عليه طلسم يحفظه * (وملك
بعده ابنه مرقوره) وكان حكيما كاهنا وهو أول من ذلل السباع وركبها وبني المدن وعمر
الهيا كل وأقام الاصنام ولما مات جعل له ناوس في صحراء الغرب ودفن معه ماله * (وملك
بعده ابنه بلاطس) وكان صبيا فدبرت أمه أمر الملك وكانت حازمة فأجرت الامور على
أحسن ما يكون وأظهرت العدل ووضعت عن الناس الخراج فأحبوها ولما كبر ابنها
أحب الصيد فعملت له أمه أعمالا عجيبة وأقام ملكا ثلاث عشرة سنة وجدر فمات وانتقل
الملك الى أعمامه * فملك بعده أتريب بن قبطيم بن مصرايم وهو الثالث عشر من ملوك
مصر بعد الطوفان وهو الذى بنى مدينة أتريب وعاش خمسمائة سنة منها مدة ملكه ثلثمائة
وستون سنة ويقال ان النيل وقف في أيام أتريب مائة وأربعين سنة حتى أكلت البهائم
بأرض مصر ولم يبق بها بهيمة ورؤى أتريب ماشيا وهو يبسط يديه ويقبضهما من الجوع
ومات عامة أهل مصر جوعا ثم أغيثوا بعد ذلك وكثر الرخاء ودام مدة مائتي سنة وبيع
كل أردب بدانق وأقل ولما مات اتهم أخوه صابقته وحاربه أهل مصر تسع سنين وقتلوه*
(فملكت بعده ابنته تدرورة) وكانت كاهنة ساحرة فساست الملك أحسن سياسة ودبرت
الملك أجود تدبير وعملت طلسمات عجيبة منها طلسم منع الوحش والطير أن يشرب من
النيل حتى مات أكثرها عطشا ووقعت في زمانها صيحة ارتجت لها الارض فهلكت *
(وملك بعدها أخوها قليمون بن أتريب) وكان حكيما فاضلا فبنى البنيان وعمل الطلسمات

وفي أيامه بنيت مدينة تنيس الاولى وبنيت مدينـة دمياط وأقام ملـكا تسعين سـنة ومات فدفن في ناوس * (وملك بعده ابنه فرسون) وكان فاضلا كاهنا بنى المدائن وجـدّد الهيا كل وكان حدثا فقصده بعض ملوك حمير في جموع عظيمة فخرج اليهم ولقيه بمدينـة ايليا وقاتله قتالا شـديدا حتي تفاني من الفريقين معظمهما وأظهر المصريون أشياء من من سحرهم فانهزم الحميرى فى طائفة يسيرة وقتل فرسون عامة أصحابه وأخذ ما كان معهم وعاد مظفرا الى مدينة منف وعمل منارا على بحر القلزم فى رأسه مرآة تجذب المرا كب الى الساحل حتى يؤخـذ منها ما هو مقرر عليها من المال وأقام ملـكا مائتى سـنة وستين سنة ومات فدفن في ناوس خلف الجبل الاسود الشرقيّ وعمل فيه قبـة تحتوي على اثنى عشر بيتا فى كل بيت أعجوبة ودفن معه ماله وعمل عليه طلسم يحفظه * (وملك بعده نحو أربعة وصار الملك الى صا بن قبطيم) وكان أصغر ولد أبيه وأحبهم اليه * (ولما مات ملك بعده نونية الـكاهنة) وكانت ساحرة فكانت تجلس على سرير من نار فاذا تحا كم اليهـا أحـد وكان صادقا شق تلك النار من غير أن تضره وان كان كاذبا أخـذته تلك النار وكانت تتصور كل يوم فى صور كثيرة الاشكال ثم بنت قصرا واحتجبت فيه وجعلت في سوره أنابيب من نحاس مجوفـة وكتبت على كل أنبوب فنا من الفنون التى يتحا كم النـاس بها اليها فكان من أتاها في محاكمة وقف عند الانبوب الذي فيه محا كمته وتكلم بما يريده وسأل عنه بصوت خفى فاذا فرغ جعل أذنه في الانبوب فيأتيه منه جواب ما سأل ولم يزل هذا القصر والانابيب حتي أتلفه بخت نصر * (وملك بعدها مرقونس) وكان فاضـلا حكيما وكانت أمـه بنت ملك النوبة فعملت عجائب وصنع فى أيامه كل غريبـة وملك ثلاثا وسبعين سنة ومات وعمره مائتان وأربعون سنة* (فملك بعده ابنه ايساد وهو ابن خمس وأربعين سنة) وكان جباراً طماح العين فانتزي امرأة أبيـه وانـكشف أمره معها وكان أكبر همـه اللهو واللعب فجمع كل ملة فى مملـكته ورفض العـلوم وأهمل أمر الهيا كل والـكهنة وترك النظر فى أحوال الناس وبنى قصورا على النيـل ليتنزه فيها وأتلف أ كثر الاموال فى اللعب فكرهه الناس وكرههم الى أن سموه فمات عن مائة وعشرين سنة *(وملك بعده ابنه صا) ويقال ان صا هو ابن مرقونس وهو اخو ايساد ولما ملك سكن منف ووعد الناس بخير وملك الاحياز كلها وعمل بها عجائب وطلسمات ورد الـكهنة الى مراتبهم ونفى الملهين وأهل الشر ونصب العقاب الذى عمله أبوه وشرف هيكله ودعا اليه وبني بداخل الواحات مدينة ونصب قرب البحر أعلاما كثيرة وجعل على الاطراف اصحاب اخبار يرفعون اليه ما يجرى في حدودهم وعمل على حافتى النيل منايريوقد عليهم اذا حزبهم أمر أوقصدهم أحد وجعل بحافتى بحر الملح منارا يعلم به أمر البحر ويقال انه بني أ كثر مدينة منف وكل

بنيان عظيم بالاسكندرية وكان لما ملك البلد بأسره جمع الحكماء ونظر في النجوم وكان بها حاذقا فرأى أن مصر لا بد أن تغرق من نيلها وانها تخرب على يد رجل يأتي من ناحية الشام فجمع كل فاعل بمصر وبني مدينة في الواح الاقصى وقصده ملك الافرنجة وملك منه مدينة منف وقدم معه ألف مركب وهدم اكثر الاسكندرية ودخل الى النيل من رشيد حتى أخذ منف وفر منه صا الى المدائن الداخلة وتحصن بها من عدوه فامتنعت بالطاسمات أياما كثيرة ثم كانت العاقبة له وعاد عدوه منهزما ورجع الى منف فتتبع الكهنة وقتل منهم كثيرا وأقام ملكا سبعا وستين سنة وعاش مائة وسبعين سنة *(وملك ابنه تدراس) واستولى على الاحياز كلها وصفا له الوقت وملك مصر وكان محتكما مجربا ذا أيد وقوة ومعرفة بالامور فأظهر العدل وأقام الهيا كل وأهلها قياما حسنا وبنى بيتا للزهرة وحفر خليج سخا وحارب بعض عمالقة الشام ودخل الى فلسطين وقتل بها خلقا وسبى بعض أهلها الى مصر وغزا السودان من الزنج والحبشة ووجه في النيل بثلثمائة سفينة فلقى السودان وكانوا زهاء ألف ألف فهزمهم وقتل أكثرهم وأسر منهم خلقا كثيرا وساق الفيلة والنمور الى مصر وعمل على حدود بلده منارات زبر عليها اسمه ومسيره وظفره وفي أيامه بعث الله نبيه صالحا الى ثمود ويقال انه هو الذى انزل النوبة حيث هى وذلك أنه لما أوغل في أرض الحبشة وقتل امم السودان وجد فيهم امة تقرأ صحف آدم وشيث وادريس فمن عليها وأنزلها على نحو من شهر من أرض مصر فسموا النوبة ومات بمنف *(فملك بعده ابنه ماليق) وكان عاقلا كريما حسن الصورة مجربا مخالفا لابيه وأهل مصر في عبادة الكواكب والبقر ويقال انه كان موحدا على دين أجداده قبطيم ومصرايم وكانت القبط تذمه لذلك وأمر الناس باتخاذ كل فاره من الخيل واقتنى السلاح وأكثر الاسفار وانشأ فى بحر المغرب مائتى سفينة وخرج فى جيش عظيم فى البر والبحر وأتي البربر فهزمهم واستاصل أكثرهم وبلغ أفريقية وسار الى الاندلس يريد الافرنجة فلم يمر بامة الا أبادها فحشد له ملك الافرنجة وحاربه شهرا ثم طلب صلحه وأهدى اليه فسار عنه ودوخ الامم المتصلة بالبحر الاخضر والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة وعمل أعلاما على البحر وزبر عليها اسمه ومسيره وخرب مدن البربر ورجع فتلقاه أهل مصر بأصناف الرياحين وأنواع اللهو وفرشت له الطرقات فهابه الملوك وحملوا اليه الهدايا وما زال موحدا حتي مات *(فملك بعده ابنه حزابا) وكان لينا سهل الخلق قد عرفه أبوه التوحيد ونهاه عن عبادة الاصنام فرجع عن ذلك بعده الى دين قومه وغزا الهند والسودان بعد ما عمل مائة سفينة على شكل سفن الهند وتجهز وحمل معه امرأته ووجوه أصحابه واستخلف ابنه كلكلي على مصر وكان صبيا وجعل معه وزيرا كاهنا فمر على ساحل اليمن وعاش في مدائنه وبلغ سرنديب وأوقع بأهلها

وبلغ جزيرة بين الهند والصين فأذعن له أهلها وتنقل فى تلك الجزائر سنين فيقال انه أقام في سفره سبع عشرة سنة ورجع غانمـا فهابه الملوك وبنى عدة هياكل وأقام بها الاصنـام للكواكب ثم غزا نواحي الشام فأطاعه أهله ورجع فغزا النوبة والسودان وضرب عليهم خراجا يحملونه اليه ورفع أقـدار الـكهنة ومصاحفهم وكان يرى أن هـذا الظفر بمعونة الـكواكب له ومات وقد ملك خمسا وسبعين سنة *(فقام ابنه كـلـكلى)وعقدله بالاسكندرية فأقام بها شهرا ثم قدم الى منف وكان أصناميـا فسربه أهل مصر وكان يحب الحـكمة واظهار العجائب ويقرب أهلها ويجيزهم وعمل الـكيمياء وخزن اموالا عظيمـة بصحارى الغرب وهو أول من أظهر علم الـكيمياء بمصر وكان علمها مكتوما وكان من تقدمه من الملوك أمروا بترك صنعتها فعملها كلـكلى وملأ دور الحـكمة منها حتى لم يكن الذهب فى زمن بمصر اكثر منه في وقتـه ولا الخراج لانه كان مائة ألف ألف وبضعة عشر ألف ألف مثقال فاستغنوا عن اثارة المعادن وعمل أيضا من الحجارة الملونة التى تشف شيأ كثيرا وعمل من الفيروزج وغيره أشياء واخترع امورا تخرج عن حد العقل حتى سمى حكيم الملوك وغلب جميع الـكهنة في علومهم وكان يخبرهم بمـا يغيب عنهم وكان نمرود ابراهيم عليه السلام في وقته فاتصل بنمرود خبر حكمته وسحره فاستزاره وكان النمرود جبارا مشوه الخلق يسكن السواد من العراق وآتاه الله قوة وقدرة وبطشا فغلب على كثير من الامم فتقول القبط ان النمرود لما استزار كلـكلي وجه اليه أن يلقاه بموضع كذا فسـار الى الموضع على أربعـة أفراس تحمله ذوات أجنحة وقد أحاط به نور كالنار وحوله صورهائلة وقد خيل بها وهو متوشح بثعبان متحزم ببعضه وقد فغرفاه وهو يضربه بقضيب آس فلما رآه النمرود هاله وأقرله بجليـل الحـكمة وسأله أن يـكون ظهيراله ويقال انه كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربي في قبة تلوح على رأسه فاذا دهم أهل البلد امراجتمعوا حول الهرم فيقيم أياما لا يأكل ولا يشرب ثم استتر مدة حتي توهموا أنه هلك فطمع فيه الملوك وقصده ملك من الغرب فى جيش عظيم حتي قـدم وادى هيب فاقبل حتى جللهم من سحره بشئ كالغمام شديد الحر فأقاموا تحته أياما متحيرين ثم طار الى مصروأمرهم بالخروج الى الجيش فوجدوهم قدما تواهم ودوابهم فهابه الـكهنة مهابة لم يهابوها أحدا قبله وعمر طويلا وغاب فلم يعلم خبره* وقال ابن عبـد الحـكم ان كلـكلى بن حزابا ملـكهم نحو مائة سنة ثم مات ولا ولد له * (فملك أخوه ماليا بن حزابا قال ابن وصيف شاه وقام أخوه ماليا)وكان شرها كثيرا لاكل والشرب منفردا بالرفاهية غيرناظر في شئ من الحـكمة وجعل أمر البلد الى وزيره واشتغل بالنساء وكان له من النسـاء ثمانون امرأة فهجم عليه ابنه طوطيس وهو سكر ان فقتله وقتل امرأة كانت عنده *(وملك بعده ابنه طوطيس)ويقال انه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون

ابن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ويقال الوليدبن الريان وأنه أحد فراعنة مصر من ولددان بن فهلوج بن أمراز بن أشود بن سام بن نوح وقيل فراعنة مصر من ولد عملاق الاول ابن لاود بن سام بن نوح وكان جبارا جريأ شديد الباس مهابا والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر وهو فرعون ابراهيم عليه السلام ويقال ان الفراعنة سبعة هو أولهم وحفر نهرا في شرقي مصر بسفح الجبل حتي ينتهى الى مرفا السفن فى البحر الملح وكان يحمل الى هاجر أم اسماعيل التى أعطاها ابراهيم عليه السلام الحنطة واصناف الغلات فتصل الى جدة فأحيي بلد الحجاز مدة ويقال ان كل ما حليت به الكعبة في ذلك العصر مما أهداه ملك مصر ولكثرة ما حمل الى الحجاز سمته العرب من جرهم الصادوق * وفي كتاب هروشيش أن ساطان المصريين في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام كان بايدى قوم يدعون ببني فاليق بن دارش ودام ملكهم بمصر مائة وعشرين سنة وقال ابن اسحق عن بعضهم ان فراعنة مصر من ولد دان بن فهلوج بن امراز بن اشود بن سام بن نوح قال والمشهور أنهم من العماليق منهم الريان بن الوليد ويقال الوليد بن الريان فرعون يوسف والوليد بن مصعب فرعون موسى ومنهم سنان بن علوان قال ابن وصيف شاه وانما قيل له فرعون لانه أكثر القتل ولم يرزق غير ابنة وكانت عاقلة فخافت لكثرة قتله الناس فقتلته بسم وله في الملك مائة وسبعون سنة *(وملكت بعده جورياق)* فوعدت الناس بالاحسان وجمعت الاموال وقدمت الكهنة وأهل الحكمة ورؤساء السحرة ورفعت أقدارهم وجددت الهياكل وصار من لم يرضها الى مدينة أتريب وملكوا رجلا من ولد أتريب وقد تقدم خبره في الاسكندرية وجورياق أول امرأة ملكت مصر من ولد نوح عليه السلام وماتت *(فملكت بعدها ابنة عمها زلفى بنت مأمون)* وكانت عذراء عاقلة فوعدت الناس بالجميل وقام عليها أيمن الأتريبى واستنصر بملك العمالقة فسير معه قائدا فأخرجت اليه جيشا فالتقوا بالعريش واقتتلوا حتى فنى منهم كثير من الناس ثم انهزم أصحاب زلفى الى منف وهم فى أقفيتهم فخرجت زلفى الى الصعيد ونزلت الاشمونين فكان بينها وبين عساكر العمالقة حروب انهزموا فيها وخرجوا عن منف بعد ماعاثوا فيها وعدوا الى الجرف فامتنعوا به وصارت مصر بينهم نصفين ثم ان زلفى عاودت الحرب فاستمرت ثلاثة أشهر حتى انهزمت الى قوص وأيمن خلفها فلما أيقنت انها تؤخذ سمت نفسها فهلكت وقال ابن عبد الحكم ثم توفى طوطيس بن ماليا فاستخلفت ابنته جورياق ابنة طوطيس ولم يكن له ولد غيرها ثم توفيت جورياق فاستخلفت ابنة عمها زلفى ابنة مأمون بن ماليا فعمرت دهرا طويلا وكثروا ونموا وملأوا أرض مصر كلها فطمعت فيهم العمالقة فغزاهم الوليد بن دوسع فقاتلهم قتالا عظيما ثم رضوا أن يملكوه عليهم فملكهم نحوا من مائة سنة فطغي وتكبر وأظهر الفاحشة فساط الله عليه سبعا فافترسه

وأكل لحمه * والذى ملك مصر من الفراعنة خمسة * وملك أيمن وتجبر وقتل خلقا ممن حاربه وكان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج في جيش كثيف فبعث غلاما يقال له فرعون الى مصر ففتحها ثم قدم بعده واستباح أهل مصر وأخذ أموالهم ثم خرج ليقف على مصب النيل فرأى جبل القمر وأقام في غيبته أربعين سنة ورجع الى مصر وقد خالفه فرعون وفر منه فاستعبد أهل مصر وملكهم مائة وعشرين سنة حتى هلك *(وملك ابنه الريان بن الوليد بن دومع)* أحد العمالقة وكان أقوى أهل الارض في زمانه وأعظمهم ملكا * والعمالقة ولد عمليق بن لاود بن سام بن نوح وهو فرعون يوسف عليه السلام والقبط تسميه نهراوش وقيل فرعون يوسف اسمه الريان بن الوليد بن ليث بن قاران بن عمرو ابن عمليق بن بلقع بن عابر بن اشليخا بن لود بن سام بن نوح وقيل فرعون يوسف هو جد فرعون موسى أبو أبيه واسمه برخو وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا فوعد الناس الجميل وأسقط عنهم الخراج لثلاث سنين وفرق المال فيهم * وملك رجلا من أهل بيته يقال له اطفين وهو الذي يقال له العزيز وكان عاقلا أديبا مستعملا للعدل والعمارة فأمر أن ينصب له سرير من فضة في قصر الملك يجلس عليه ويخرج وجميع الكتاب والوزراء بين يديه فكفى نهراوش ماخلف ستره وقام بجميع اموره وخلاه للذاته فأقام على قصفه مدة والبلد عامر فقصده رجل من العمالقة وسار الى مصر في جيوشه فخرج اليه وقاتله وهزمه وسار خلفه ودخل الشام وعاث هنالك فهابته الملوك ولا طفته وقيل انه بلغ الموصل وضرب على أهل الشام خراجا وخرج لغزو بلاد المغرب في تسعمائة ألف ومر بأرض البربر وجلا كثيرا منهم ومر الى البحر الاخضر وسار الى الجنوب فقدم النوبة وعاد الى مدينة منف وكان من خبر يوسف معه ماذكر عند ذكر الفيوم *(وملك بعده ابنه دريموش)* ويقال له دارم بن الريان وهو الفرعون الرابع فخالف سنة أبيه وكان يوسف خليفته فيقبل منه تارة ويخالفه تارة وظهر فى أيامه معدن فضة فأثار منه شيئاً عظيما وفي أيامه مات يوسف عليه السلام فاستوزر بعده رجلا حمله على أذى الناس وأخذ أموالهم فبلغ ذلك منهم مبلغا عظيما ثم زاد في التجرى حتى اقتلع كل امرأة جميلة بمدينة منف من أهلها فكان لايسمع بامرأة حسناء في موضع الا وجه اليها فحملت اليه فاضطرب الناس وشنعوا عليه وعطلوا الصنائع والاعمال والاسواق فعدا عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وزاد الامر حتى اجتمعوا على خلعه فبرزلهم وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين وأنفق فيهم مالا فسكتوا وفي أيامه ثار القبط على بني اسرائيل وطلبوا من الوزير أن يخرجهم من مصر فما زال بهم حتى أمسكوا وبلغ الملك ذلك وكان قد خرج الى الصعيد فتوعد أهل مصر فشغبوا عليه وحشدوا له فحاربوه فقتل منهم خلقا كثيرا وظفر بمن بقى فقتلهم وصلبهم على حافتي النيل وعاد الى أعظم

ما كان عليه من أخذ الاموال والنساء واستخدام أشراف القبط وبني اسرائيل فأجمع الكل
على ذمه فركب النيل للنزهة وثاربه ريح عاصف فغرق فلم يوجد الا بناحية شطنوف وقيل
فيما بين طرا وحلوان *(فقدم الوزير ابنه معاديوس)* وكان صبيا ويقال له معدان فأسقط
عن الناس ما أسقطه أبوه من الخراج ووعد بالاحسان فاستقام له الامر ورد نساء الناس وهو
خامس الفراعنة وحدث في زمانه طوفان مصر وكثر بنو اسرائيل وعابوا الاصنام فأفردوا
ناحية عن البلد بحيث لايختلط بهم غيرهم وأقطعوا موضعا في قبلي منف فاجتمعوا فيه وبنوا
فيه معبدا وغلب بعض الكنعانيين على الشام ومنع من الضريبة التي كانت على أهل الشام
لملك مصر فاجتمع الناس الى معدان وحثوه على المسير لحربه فامتنع من المسير ولزم الهيكل
فزعموا أنه قام في هيكل زحل للعبادة فتجلى له زحل وخاطبه وقال له قد جعلتك ربا على
أهل بلدك وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم وسأرفعك الى فلا تخل من ذكرى فعظم
عند نفسه وتجبر وأمر الناس أن يسموه ربا وترفع عن أن ينظر في شيء من أمر الملك
وجعل عليه ابنه اكسامس *(فقام ابنه اكسامس في الملك) ويقال كاسم بن معدان فرتب
الناس مراتب وقسم الكور والاعمال وأمر باستنباط العمارات واظهار الصناعات ووسع على
الناس في أرزاقهم وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها وزاد في القرابين وهو
الذي يقال له كاشم بن معدان بن دارم بن الريان بن الوليد بن دومع العمليقي وهو
سادس الفراعنة وسموا فراعنة بفرعان الاول فصارا سما لكل من تجبر وعلا أمره فطال
ملكه وأقام أعلاما كثيرة حول منف وعمل مدنا كثيرة ومناير للوقودات وطلسمات وأقام
سبع سنين بأجمل أمر فلما مات وزير أبيه استخلف رجلا من أهل بيت المملكة يقال
له ظلما بن قومس وكان شجاعا ساحرا كاهنا كاتبا حكيما متصرفا في كل فن وكانت نفسه
تنازعه الملك فأصلح أمر الملك وبني مدنا من الجانبين ورأى في نجومه أنه سيكون حدث
فبنى بناحية رقودة والصعيد ملاعب ومصانع وشكا اليه القبط من الاسرائيليين فقال هم
عبيدكم فأذلوهم من حينئذ وخرج الى ناحية البربر فعاث وقتل وسبي وفي أيامه بنيت
منارة الاسكندرية وهاج البحر الملح فغرق كثيرا من القرى والجنان والمصانع ومات
اكسامس وكان ملكه احدى وثلاثين سنة منها احدى عشرة سنة يدبر أمره ظلما فلما
مات اضطرب الناس واتهموا ظلما أنه سمه فقام *(وولي لاطيس بن اكسامس) وكان جريا
معجبا صلفا فأمر ونهى وألزم الناس أعمالهم وقال أنا مستقيم ما استقمتم وان ملتم عن
الواجب ملت عنكم وحط جماعة عن مراتبهم وصرف ظلما عن خلافته واستخلف غيره
وأنفذ ظلما الى الصعيد في جماعة من الاسرائيليين وجدد بناء الهياكل وبنى القرى وأثار
معادن كثيرة وكنز في صحراء الشرق عدة كنوز وكان يحب الحكمة ثم تجبر وعلا أمره

وأمر أن لايجلس أحد في مجلسه ولا في قصر الملك لا كاهن ولا غيره بل يقـومون على أرجلهم حتى يمضوا وزاد في أذى الناس والعنف بهم ومنع فضول ما بأيديهم وقصرهم على القوت وجمع أموالهـم وطلب النساء وانتزع كثيرا منهن وفعل أكثر مما فعله من تقدم قبله واستعبد بني اسرائيل وقتـل جماعة من الـكهنة فأبغضه الخاص والعام وثار ظلما بالصعيد وكاتب وجوه الناس فكتب لاطيس بصرفه عن العمل فامتنع وحارب عساكره وزحف حتى دخل منف * ظلما بن قومس فرعون موسى يقـال ان اسمه الوليد بن مصعب بن أراهون بن الهلوت بن قاران بن عمرو بن عمليق بن بلقع بن عابر بن اشليخا بن لود بن سام بن نوح وانه من العمالقة وكان قصيرا طويل اللحية أشهل العين اليمنى صغير العين اليسرى أعرج وزعم قوم انه من القبط وان نسبه ونسب أهل بيته مشهور عندهم وقيل غير ذلك وكان من خبره ماذكرنا في كنيسة دموه وقال ابن عبد الحكم ولما أغرق الله فرعون بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق الا العبيد والاجراء والنساء فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهن أن يولين امرأة يقال لها دلوكة *(فملكت دلوكة ابنة زبا)* ويقال دلوكة بنت قاران وكان لها عقل وتجارب ومعرفة وكانت في شرف منهن وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة فبنت جدارا حصنت به مصر من الاعداء وكان من حد زنج الى أفريقية الى الواحات الى بلد النوبة على كل موضع منه حرس قيام ليلهم ونهارهم يقدون النار وقودا لا يطفأ أبدا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها في سـتة أشهر وهو حائط العجوز وفي أيامها بنت تدورة الساحرة البرابي في وسط منف فملـكتهم دلوكة عشرين سنة حتى بلغ صبي من أبناء أكابرهم يقال له * دركون بن بلاطس ثم مات واستخلف ابنـه تودست ثم توفي تودست بن دركون فاستخلف أدقاش فلم يملك الا ثلاث سنين حتى مات فاستخلف أخوه مرينا بن مرينوس ثم توفي فاستخلف استادس ابن مرينا فطغى وتكبر وسـفك الدم وأظهر الفاحشة فخلعوه وقتلوه وبايعوا رجـلا من أشرافهم يقال له بلطوس بن مينا كيل فملـكهم أربعين سنة ثم توفي فقام ابنـه مالوس ثم توفي مالوس فاستخلف أخوه مينا كيل بن بلطوس بن مينا كيل فملـكهـم زمانا ثم توفي واستخلف ابنه نوله بن مينا كيل فملـكهم مائة وعشرين سـنة وهو الاعرج الذي سبي ملك بيت المقدس وقدم به الى مصر وكان قد تمـكن وطغى وبلغ مبلغاً لم يبلغه أحـد ممن قبله بعد فرعون فصرعته دابته فمات وقيل له الاعرج لانه لما غزا أهل بيت المقدس ونهبهم وسبي ملـكهم يوشيا بن أمون بن منشا بن حزقيا هم أن يصعد على كرسي نبي الله سليمان ابن داود وكان بلولب لايمكن أحدا أن يصعد عليه الا برجليه جميعا فصعد برجل واحـدة وهي اليمني فـدار اللولب على ساقه الاخرى فاندقت فلم يزل يخمع بها الى أن مات فلذلك

سمي الاعرج * فاستخلف مرنيوس بن نولة فملكهم زمانا ثم توفي واستخلف ابنه قرقورة فملكهم ستين سنة ثم توفي واستخلف أخوه نقاس بن مرنيوس وانهدم البربا في زمنه فلم يقدر أحد على اصلاحه ثم توفي نقاس واستخلف ابنه قوميس بن نقاس فملكهم دهرا وحاربه بخت نصر وقتله وخرب مدينة منف وغيرها من المدائن وسبى أهل مصر ولم يترك بها أحدا حتى بقيت أرض مصر أربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن * وذكر في ترجمة كتاب هروشيش الاندلسي في وصف الدول والحروب أن فيما بين غرق فرعون موسى الى مائة وسبع سنين كان بمصر ملك يسمى نوشردس كان يقتل الغرباء والاضياف ويذبحهم لاوثانه ويجعل دماءهم قربانا لها وأن بعد غرق فرعون الى ثلثمائة وثمان وعشرين سنة كان بمصر ملك يسمي بروبه وكان عظيم المملكة قوي السلطان أخذ بالحرب أكثر نواحي الجنوب براً وبحرا وهو أول من حارب الروم الذين قيل لهم بعد ذلك الغوط وكان قد أرسل اليهم يدعوهم الى طاعته ويخوفهم حربه فأجابوه ليس من الرأى المحمود للملك الغنى محاربة قوم فقراء لكثرة نوازل الحروب واختلاف حوادثها بالظفر والهلاك وانا لا ننتظر مجيئك بل نسرع لغارتك وأتبعوا قولهم عملا وخرج فرعون اليهم فخرجوا مسرعين اليه وهزموا جيوشه ونهبوا عساكره وأمواله وعدده وجميع ذخائره ومضوا فنهبوا أرض مصر حتى كادوا يغلبون عليها لولا وحول عرضت لهم منعتهم مما خلفها ثم انصرفوا الى بلاد الشام بحروب متصلة حتي أذلوا أهلها وجعلوهم يؤدون اليهم المغارم وأقاموا محاربين لمن خالفهم في غزوتهم خمس عشرة سنة ولم ينصرفوا الى بلادهم حتي أتتهم من نسائهم من يقلن لهم اما أن تنصرفوا واما أن نتخذ الازواج ونطلب النسل من عند المجاورين لنا فعند ذلك انصرفوا الى بلادهم وقد امتلأت أيديهم أموالا وأوقاراً جمة وقد خلفوا وراءهم ذكرا مفزعا ويقال ان ملوك مدين ملكوا مصر خمسمائة عام بعد غرق فرعون وهلاك دلوكة حتي أخرجهم منها نبي الله سليمان بن داود فعاد الملك بعدهم الى القبط وان جالوت ابن بالوت لما قتله داود سار ابنه جالوت بن جالوت الى مصر وبها ملوك مدين فأنزله ملك مصر بالجانب الغربي فأقام بها مدة ثم سار الى بلاد الغرب ويقال ان القبط ملكوا مصر بعد دلوكة وابنها مدة ستمائة سنة وعشرين سنة وعدتهم سبعة وعشرون ملكا هم ديوسقوليطا ومدته ثمان وسبعون سنة وقيل ثمان وثمانون سنة ثم ملك بعده سمانادوس ستا وعشرين سنة وقام بعده سوماناس مدة مائة سنة ثم ملك مفخراس أربع سنين ثم ملك أماناقوناس تسع سنين ثم أسحوريس ست سنين ثم فسيناخس تسع سنين ثم فسوسانس خمسا وثلاثين سنة ثم ملك سسوناخوسيس احدى وعشرين سنة ثم ملك أساليون خمس عشرة سنة ثم طافالونيس ثلاث عشرة سنة ثم نطافاناسطلس خمسا وعشرين سنة ثم اساراثون تسع سنين

ثم ملك فسامرس عشر سنين ثم اوفاينواس أربعاً وأربعين سنة ثم سايا قورنتي عشرة سنة ثم سخس الحبشى نتي عشرة سنة ثم طراحوش الحبشى عشرين سنة ثم امراس الحبشى نتي عشرة سنة ثم استطافيناس سبع سنين ثم باخفاسوس ست سنين ثم ياخو ثمان سنين ثم فساماملطيقوش أربعاً وأربعين سنة ثم بخنوقا ست سنين ثم فسامرتاس سبع عشرة سنة ثم وافرس خمسا وعشرين سنة ثم أماسلس اثنتين وأربعين سنة * وملك بعد هؤلاء مصر خمسة ملوك من ملوك بابل وهم أمرطيوش ست سنين ثم مافرطاس سبع سنين ثم اوخرس اثنتي عشرة سنة ثم فساموت مدة سنتين ثم ملك موتاطوس سبع سنين * ثم ملك ثلاثة ملوك من أثور وهم الجرامقة الذين ملكوا الموصل والجزيرة وهم نافاطانبوش ثلاث عشرة سنة ثم طوس سبع سنين ثم نافاطانيناس ثمان عشرة سنة * ثم انتقل ملك مصر منهم الى الاسكندر بن فيلبش اليونانى وهذه أسماء رومية ولعلها أو بعضها متداخل فيما تقدم ذكره ممن ملك بعد دلوكة وبين بخت نصر وبين الطوفان ألفا سنة وثلثمائة وست وخمسون سنة وأشهر ويجتمع من حساب ما وقع في التوراة أن بين الطوفان وبين خراب بيت المقدس على يد بخت نصر من السنين ألفاً وستمائة وأربعاً وثمانين سنة وهذا خلاف ما نقله المسعودى والله تعالى أعلم بالصواب

ذكر مدينة الاسكندرية

هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا وقد بنيت غير مرة فأول ما بنيت بعد كون الطوفان في زمان مصرايم بن بيصر بن نوح وكان يقال لها اذ ذاك مدينة رقودة ثم بنيت بعد ذلك مرتين فلما كان في أيام اليونانيين جددها الاسكندر بن فيليش المقدونى الذى قهر دارا وملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف بمائة وعشرين سنة شمسية فعرفت به ومنذ جددها الاسكندر المذكور انتقل تخت المملكة من مدينة منف الى الاسكندرية فصارت دار المملكة بديار مصر ولم تزل على ذلك حتى ظهر دين الاسلام وقدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين وفتح الحصن والاسكندرية وصارت ديار مصر أرض اسلام فانتقل تخت الملك حينئذ من الاسكندرية الى فسطاط مصر وصار الفسطاط من بعد الاسكندرية دار مملكة ديار مصر * وسأقص عليك من أخبار الاسكندرية ما وصل اليه علمى ان شاء الله تعالى * (ذكر) أبو الحسن المسعودى في كتاب أخبار الزمان أن الكوكه وهى أمة في غابر الدهر من أهل ايلة ملكوا الارض وقسموها على ثلاثين كورة وأربعة أقسام كل قسم عمل وبنوا في كل عمل مدينة بها ملك يجلس على منبر من ذهب وله بربا وهى بيت الحكمة وله هيكل على اسم كوكب فيه أصنام من ذهب وجعلوا الاسكندرية واسمها رقودة خمس عشرة كورة وجعلوا فيها كبار الكهنة ونصبوا في هيا كلها من أصنام

الذهب أكثر مما نصبوا في غيرها فكان ما بها مائتا صنم من ذهب وقسموا الصعيد ثمانين كورة على أربعة أقسام وثلاثين مدينة فيها جميع العجائب * وذكر بطليموس في كتاب الاقاليم ووصف الجزائر والبحار والمدن أن مدينة الاسكندرية لبرج الاسد ودليلها المريخ وساعاتها أربع عشرة ساعة وطولها ستون درجة ونصف درجة يكون ذلك أربع ساعات مستوية وثلث عشر ساعة * وقال ابن وصيف شاه في ذكر أخبار مصرايم بن بيصر ابن نوح وعلمهم ايضاً عمل الطلسمات وكانت تخرج من البحر دواب تفسد زرعهم وجنانهم وبنيانهم فعملوا لها الطلسمات فغابت ولم تعد وبنوا على غير البحر مدنا منها مدينة رقودة مكان الاسكندرية وجعلوا في وسطها قبة على اساطين من نحاس مذهب والقبة مذهبة ونصبوا فوقها مرآة من اخلاط شتى قطرها خمسة اشبار وارتفاع القبة مائة ذراع فكانوا اذا قصدهم قاصد من الامم التي حولهم فان كان مما يهمهم وكان من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها على ذلك الشئ فأحرقته فلم تزل الى ان غلب البحر عليها ويقال ان الاسكندر انما عمل المنارة تشبيها بها وكان عليها ايضاً مرآة يري فيها من يقصدهم من بلاد الروم فاحتال عليهم بعض ملوكهم ووجه اليها من ازالها وكانت من زجاج مدبر قال وذكر بعض القبط ان رجلا من بني الكهنة الذين قتلهم ايساد ملك مصر صار الى ملك كان في بلاد الافرنجة فذكر له كثرة كنوز مصر وعجائبها وضمن له ان يوصله الى ملكها واموالها ويرفع عنه اذى طلسماتها حتى يبلغ جميع ما يريد فلما اتصل بصا بن مرقونس اخي ايساد وهو ملك مصر يومئذ ان صاحب بلاد الافرنجة تجهز اليه عمد الى جبل بين البحر الملح وشرقي النيل فأصعد اليه اكثر كنوزه وبنى عليها قبابا مصفحة بالرصاص وظهر صاحب بلاد الافرنجة في الف مركب فكان لا يمر بشئ من اعلام مصر ومنازلها الا هدمه وكسر الاصنام بمعونة ذلك الكاهن حتى اتى الاسكندرية الاولى فعاث فيها وفيما حولها وهدم اكثر معالمها الي ان دخل النيل من ناحية رشيد وصعد الى منف واهل النواحي يحاربونه وهو ينهب ما مر به ويقتل ما قدر عليه الى ان طلب المدائن الداخلة لاخذ كنوزها فوجدها ممتنعة بالطلسمات الشداد والمياه العميقة والخنادق والشداخات فأقام عليها أياما كثيرة فلم يمكنه الوصول اليها وغضب على الكاهن فقتله من أجل أن جماعة من أصحابه هلكوا فاجتمع أهل النواحي وقتلوا من أصحابه الذين بالمراكب خلقا وأحرقوا بعض المراكب وقام أهل مصر بسحرهم وتهاويلهم فأتت رياح أغرقت أكثر مراكبه حتي نجا بنفسه وقد خرج فعاد الناس الى منازلهم وقراهم ورجع الملك صا الى مدينة منف وأقام بها وتجهز لغزو بلدان الروم وبعث اليها وخرب الجزائر فهابته الملوك وتتبع الكهنة فقتل منهم خلقا كثيرا وأقام ملكا سبعا وستين سنة ومات وعمره مائة وسبعون سنة ودفن بمنف

في وسطها تحت الارض ومعه الاموال والجواهر والتماثيل والطلسمات كما فعل آباؤه منها أربعة آلاف مثقال ذهبا على صور حيوانات برية وبحرية وتمثال عقاب من حجر أخضر وتمثال تنين من ذهب وزبروا عليها اسمه وغلبته الملوك وسيرته وعهد الى ابنه تدراس قال ولما جلست جورياق ابنة طوطيس أول فراعنة مصر وهو فرعون ابراهيم الخليل عليه السلام على سرير الملك بعد قتلها لأبيها وعدت الناس بالاحسان وأخذت في جمع الاموال فاجتمع لها مالم يجتمع لملك وقدمت الكهنة وأهل الحكمة ورؤساء السحرة ورفعت أقدارهم وأمرت بتجديد الهيا كل وصار من لم يرضها الى مدينة أتريب وملكوا عليهم رجلا من ولد أتريب يقال له أيداخس فعقد على رأسه تاجا واجتمع اليه جماعة فأنفذت اليه جيشا فهزموه وقتلوا أكثر أصحابه فهرب الى الشام وبها الكنعانيون فاستغاث بملكهم فجهزه بجيش عظيم ففتحت جورياق الخزائن وفرقت الاموال وقوت السحرة فعملوا أعمالهم وتقدم أيداخس بجيوش الكنعانيين وعليها قائد منهم يقال له جيرون فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرالها من عقلاء النساء الى القائد سرا عن ايداخس تعرفه رغبتها في تزوجه وانها لاتختار أحدا من أهل بيتها وأنه ان قتل ايداخس تزوجت به وسلمته ملك مصر ففرح بذلك وسم ايداخس بسم أنفذته اليه فقتله وبعث اليه بعد قتل ايداخس أنه لايجوز أن أتزوجك حتى يظهر قومك في بلدى وتبني لي مدينة عجيبة وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان واقامة الاعلام وعمل العجائب وقالت انتقل من موضعك الى غربي بلدى فثم آثار لنا كثيرة فاقتف تلك الاعمال وابن عليها ففعل وبنى مدينة في صحراء الغرب يقال لها قيدومة وأجرى اليها من النيل نهرا وغرس حولها غروسا كثيرة وأقام بها منارا عاليا فوقه منظر مصفح بالذهب والفضة والزجاج والرخام وهي تمده بالاموال وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لايعلم فلما فرغ منها قالت له ان لنا مدينة أخرى حصينة كانت لاوائلنا وقد خربت منها أمكنة وتشعث حصنها فامض اليها واعمل في اصلاحها حتي أنتقل انا الي هذه المدينة التي بنيتها فاذا فرغت من اصلاح تلك المدينة فأنفذ الى جيشك حتى اصير اليك وابعد عن مدينتي واهل بيتي فاني أكره أن تدخل على بالقرب منهم فمضى وجد في عمل الاسكندرية الثانية * واهل التاريخ يذكرون ان الذى قصدها الوليد بن دومع العمليقى ثاني الفراعنة وكان سبب قصدها انه كان به علة فوجه الى الاقطار ليحمل اليه من مائها حتي يرى مايلائمه فوجه الى مملكة مصر غلاما فوقف على كثرة خيراتها وحمل اليه من مائها والطافها وعاد اليه فعرفه حال مصر فسار اليها في جيش كثيف وكاتب الملكة يخطبها لنفسه فأجابته وشرطت عليه ان يبنى لها مدينة يظهر فيها ايده وقوته ويجعلها لها مهرا فأجابها وشق مصر الى ناحية الغرب فبعثت اليه اصناف الرياحين والفواكه وخلقت وجوه الدواب فمضى الى الاسكندرية وقد خربت بعد خروج

العادية منها فنقل ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها ووضع اساس مدينة عظيمة وبعث اليها مائة الف فاعل وأقام في بنائها مدة وأنفق جميع ما كان معه من المال وكلما بني شيئاً خرج من البحر دواب فتقلعه فاذا أصبح لم يجد من البناء شيئاً فاهتم لذلك وكانت جورياق قد أنفذت اليه الف رأس من المعز اللبون يستعمل البانها في مطبخه وكانت مع راع تثق به يرعاها هنالك فكان اذا اراد ان ينصرف عند المساء خرجت اليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسه اليها فاذا كلما شرطت عليه ان تصارعه فان صرعها كانت له وان صرعته اخذت من المعز رأسين فكانت طول الايام تصرعه وتأخذ الغنم حتي اخذت اكثر من نصفها وتغير باقيها لشغله بحب الجارية عن رعيها ونحل جسمه فمر به صاحبه وسأله عن حاله فأخبره الخبر خوفا من سطوته فلبس ثياب الراعي وتولى رعى الغنم يومه الى المساء فخرجت اليه الجارية وشرطت عليه الشرط فأجابها وصارعها فصرعها وشدها فقالت ان كان ولا بد من اخذى فسلمنى لصاحبي الاول فانه الطف بي وقد عذبته مدة فردها اليه وقال له سلها عن هذا البنيان الذي نبنيه ويزال من ليلته من يفعل ذلك وهل في ثباته من حيلة فسألها الراعى عن ذلك فقالت ان دواب البحر التي تنزع بنيانكم فقال فهل من حيلة قالت نعم تعملون توابيت من زجاج كثيف بأغطية وتجعلون فيها اقواما يحسنون التصوير ويكون معهم صحف وانقاش وزاد يكفيهم اياما وتحمل التوابيت في المراكب بعد ما تشد بالحبال فاذا توسطوا الماء امروا المصورين أن يصوروا جميع ما يمر بهم ثم ترفع تلك التوابيت فاذا وقفتم على تلك الصور فاعملوا لها اشباها من صفر أو حجارة أو رصاص وانصبوها قدام البنيان الذى تبنونه من جانب البحر فان تلك الدواب اذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد فعرف الراعى صاحبه ذلك ففعله وتم البنيان وبنى المدينة * وقال قوم ان صاحب البناء والغنم هو جيرون كان قصدهم قبل الوليد وانما اتاهم الوليد بعد جورياق وقهرهم وملك مصر * وذكروا ان الاموال التي كانت مع جيرون نفدت كلها فى تلك المدينة ولم تتم فأمر الراعي ان يخبر الجارية فقالت ان فى المدينة التي خربت ملعبا مستديرا حوله سبعة عمد على رؤسها تماثيل من صفر قيام فقرب لكل تمثال منها ثورا سمينا ولطخ العمود الذى تحته من دم الثور وبخره بشعر من ذنبه وشئ من نحاتة قرونه وأظلافه وقل له هذا قربانك فأطلق لي ماعندك ثم قس من كل عمود الى الجهة التي يتوجه اليها وجه التمثال مائة ذراع واحفر عند امتلاء القمر واستقامة زحل فانك تنتهى بعد خمسين ذراعا الى بلاطة عظيمة فلطخها بمرارة الثور وأقلها فانك تنزل الى سرب طوله خمسون ذراعا في آخره خزانة مقفلة ومفتاح القفل تحت عتبة الباب فخذه ولطخ الباب ببقية المرارة ودم الثور وبخره بنحاتة قرونه وأظلافه وشعر ذنبه وادخل فانه يستقبلك صنم فى عنقه لوح من صفر مكتوب فيه جميع مافي الخزانة فخذ ماشئت ولا تعترض

ميتا تجده ولا ماعليه وكذلك كل عمود وتمثاله فانك تجد مثل تلك الخزانة وهذه نواويس سبعة من الملوك وكنوزهم فلما سمع ذلك سر به وامتثله فوجد مالا يدرك وصفه ووجد من العجائب شيئاً كثيرا فتم بناء المدينة وبلغ ذلك جورياق فساءها وكانت قد أرادت اتعابه وهلاكه بالحيلة ويقال انه وجد فيما وجد درجا من ذهب مختوما فيه مكحلة زبرجد فيها ذرور أخضر ومعها عرق أحمر من اكتحل من ذلك الذرور بالعرق وكان أشيب عاد شابا واسود شعره وأضاء بصره حتى يدرك الروحانيين ووجد تمثالا من ذهب اذا ظهر غيمت السماء وأمطرت ومثال غراب من حجر اذا سئل عن شيء صوت وأجاب عنه ووجد في كل خزانة عشر أعجوبات * فلما فرغ من بناء المدينة وجه الى جورياق يحثها على القدوم اليه فحملت اليه فرشا فاخراً ليبسطه في المجلس الذى يجلس فيه وقالت له اقسم جيشك أثلاثا فأنفذ الى ثلثه حتى اذا بلغت ثلث الطريق فأنفذ الثلث الآخر فاذا جزت نصف الطريق فأنفذ الثلث الباقي ليكونوا من ورائي لئلا يراني أحد اذا دخلت عليك ولا يكون عندك الاصبية تثق بهم يخدمونك فاني أوافيك في جوار تكفيك الخدمة ولا احتشمهن ففعل وأقامت تحمل الجهاز اليه والاموال حتي علم بمسيرها فوجه اليها ثلث جيشه فعملت لهم الاطعمة والاشربة المسمومة وأنزلهم جواريها وحشمها وقدموا اليهم الاطعمة والاشربة والطيب وأنواع اللهو فلم يصبح منهم أحد حيا وسارت فلقيها الثلث الآخر ففعلت به مثل ذلك وهى توجه اليه انها أنفذت جيشه الى قصرها ومملكتها يحفظونهما وسارت حتي دخلت عليه هي وظئرها وجواريها فنفخت ظئرها في وجهه نفخة بهت اليها ورشت عليه ما كان معها فارتعدت أعضاؤه وقال من ظن أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه وغلبته النساء ثم انها قصدت عروقه وقالت دماء الملوك شفاء وأخذت رأسه ووجهت به الى قصرها ونصبته عليه وحولت تلك الاموال الى مدينة منف وبنت منارا بالاسكندرية وزبرت عليه اسمها واسمه ومافعلت به وتاريخ الوقت فلما بلغ خبرها الملوك هابوها وأطاعوها وهادوها وعملت بمصر عجائب كثيرة وبنت على حد مصر من ناحية النوبة حصنا وقنطرة يجرى ماء النيل من تحتها واعتلت فقلدت ابنة عمها زلفى بنت مأمون وماتت * وقال ابن جرداويه روى أن الاسكندرية بنيت فى ثلثمائة سنة وأن اهلها مكثوا سبعين سنة لايمشون فيها بالنهار الا بخرق سود مخافة على أبصارهم من شدة بياض حيطانها ومنارتها العجيبة على سرطان زجاج في البحر وانه كان فيها سوى أهلها ستمائة ألف من اليهود خول لاهلها * وقال ابن وصيف شاه وكانت العمارة ممتدة في رمال رشيد والاسكندرية الى برقة فكان الرجل يسير في أرض مصر فلا يحتاج الى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ولا يسير الا فى ظلال تستره من حر الشمس وعمل الملك صا بن قبطيم فى تلك الصحارى قصوراً وغرس فيها غروسا وساق اليها من النيل أنهارا فكان يسلك من

الجانب الغربي الى حد الغرب فى عمارة متصلة فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد أهلها ولا يزال من دخل تلك الصحارى يحكي ما رآه فيها من الآثار والعجائب * وقال ابن عبد الحكم وكان الذى بنى الاسكندرية وأسس بناءها ذو القرنين الرومى واسمه الاسكندر وبه سميت الاسكندرية وهو أول من عمل الوشى وكان أبوه أول القياصرة وقيل انه رجل من اهل مصر اسمه مرزبان مرزبه اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح صلى الله عليه وسلم وقيل كان من أهل لوبية كورة من كور مصر الغربية وقال ابن لهيعة وأهلها روم ويقال هو رجل من حمير قال تبع

قد كان ذوالقرنين جدي مسلما * ملكا تدين له الملوك بحشد
بلغ المغارب والمشارق يبتغى * أسباب علم من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها * فى عين ذى خلب وثأط حرمد

ويروى قد كان ذوالقرنين قبلى مسلما وحدثنى عثمان بن صالح حدثنى عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن سعد بن مسعود التجيبي عن شيخين من قومه قالا كنا بالاسكندرية فاستطلنا يومنا فقلنا لو انطلقنا الى عقبة بن عامر نتحدث عنده فانطلقنا اليه فوجدناه جالسا فى داره فأخبرناه انا استطلنا يومنا فقال وأنا مثل ذلك انما خرجت حين استطلته ثم أقبل علينا فقال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أخدمه فاذا أنا برجال من أهل الكتاب معهم مصاحف أو كتب فقالوا استأذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرفت اليه فأخبرته بمكانهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالى ولهم يسألوني عما لا أدري انما أنا عبد لا أعلم الا ما علمني ربي ثم قال ابلغني وضوأ فتوضأ ثم قام الى مسجد بيته فركع ركعتين فلم ينصرف حتي عرفت السرور فى وجهه والبشر ثم انصرف فقال أدخلهم ومن وجدت بالباب من أصحابى فأدخله قال فأدخلتهم فلما وقفوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم ان شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تتكلموا وان أحببتم تكلمتم وأخبرتكم قالوا بلى أخبرنا قبل أن نتكلم قال أحببتم أن تسألوني عن ذى القرنين وسأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندكم أن أول امره أنه غلام من الروم أعطى ملكا فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر فابتني عنده مدينة يقال لها الاسكندرية فلما فرغ من بنائها أتاه ملك فعرج به حتى استقله فرفعه فقال انظر ما تحتك فقال أرى مدينتى وأرى مدائن معها ثم عرج به فقال انظر فقال قد اختلطت مدينتي مع المدائن فلا أعرفها ثم زاد فقال انظر فقال أرى مدينتى وحدها ولا أري غيرها قال له الملك انما تلك الارض كلها والذى تري يحيط بها هو البحر وانما أراد ربك أن يريك الارض وقد جعل لك سلطانا فيها سوف يعلم الجاهل ويثبت العالم فسار حتى بلغ مغرب الشمس ثم سار حتى بلغ مطلع

الشمس ثم أتى السدين وهما جبلان لينان يزلق عنهما كل شئ فبنى السد ثم جاز يأجوج ومأجوج فوجد قوما وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج ثم قطعهم فوجد امة قصارا يقاتلون القوم الذين وجوههم وجوه الكلاب ووجد أمة من الغرانيق يقاتلون القوم القصار ثم مضى فوجد أمة من الحيات تلتقم الحية منها الصخرة العظيمة ثم افضي الى البحر المدير بالارض فقالوا نشهد أن امره هكذا كما ذكرت وانا نجده هكذا في كتابنا * وعن خالد بن معدان الكلاعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فقال ملك مسح الارض من تحتها بالاسباب قال خالد وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أمارضيتم أن تسموا بالانبياء حتى تسميتم بالملائكة وقال قتادة عن الحسن كان ذو القرنين ملكا وكان رجلا صالحا قال وانما سمى ذا القرنين لان عليا رضى الله عنه سئل عن ذي القرنين فقال لم يكن ملكا ولا نبيا ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله ونصح لله فنصحه الله بعثه الله عز وجل الى قومه فضربوه على قرنيه فمات فسمى ذا القرنين ويقال انما سمى ذا القرنين لأنه جاوز قرني الشمس من المغرب والمشرق ويقال انما سمى ذا القرنين لانه كان له غديرتان من شعر رأسه يطافيهما وقيل بل كان له قرنان صغيران تواريهما العمامة * وعن ابن شهاب انما سمى ذا القرنين لانه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مشرقها * وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال كان أول شان الاسكندرية أن فرعون اتخذ بها مصانع ومجالس وكان أول من عمرها وبني فيها فلم تزل على بنائه ومصانعه ثم تداولها ملوك مصر بعده فبنت دلوكة بنت زبا منارة الاسكندرية ومنارة بوقير بعد فرعون فلما ظهر سليمان بن داود عليهما السلام على الارض اتخذ بها مجلسا وبنى فيها مسجدا ثم ان ذا القرنين ملكها فهدم ما كان من بناء الملوك والفراعنة وغيرهم الابناء سليمان لم يهدمه ولم يغيره وأصلح ما كان رث منه وأقر المنارة على حالها ثم بنى الاسكندرية من أولها بناء يشبه بعضه بعضا ثم تداولها الملوك بعده من الروم وغيرهم ليس من ملك الا يكون له بها بناء يضعه بالاسكندرية يعرف به وينسب اليه * قال ابن لهيعة وبلغني أنه وجد بالاسكندرية حجر مكتوب فيه أنا شداد بن عاد وأنا الذى نصب العماد وحيد الاحياد وشد بذراعه الواد بنيتهن اذلا شيب ولاموت واذ الحجارة في اللين مثل الطين وفي رواية وكنزت في البحر كنزا على اثنى عشر ذراعا لن يخرجه أحد حتى تخرجه أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن لهيعة والاحياد كالمغار وقال أبو على القالى في كتاب الامالى وأنشد ابن الاعرابي وغيره

تسألنى عن السنين كم لى * فقلت لو عمرت عمر الحسل * أو عمر نوح زمن الفطحل
لوأنني أوتيت علم الحكل * وعشت دهرا زمن الفطحل * لكنت رهن هرم أو قتل

وفي رواية علم سليمان كلام النمـل * أيام كان الصخر مثل الوحل

وقال آخر زمن الفطحل اذ السلام رطاب * وعند هم ان زمن الفطحل زمان كان بعد الطوفان عظم فيه الخصب وحسنت أحوال اهله وقال بعضهم زمن الفطحل زمن لم يخلف بعد وقوله علم الحكل الحـكل مالا يسمع صوته من الحيوان وهذا الرجز لروبة بن العجاج بن روبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن حي بن بكر بن ربيعة بن سعد بن مالك بن زيد مناه بن تميم وذلك أنه وردماء لعكل فرأى فتـاة فأعجبته فخطبها فقـالت أرى سنافهل من مال قال نعم قطعة من ابل قالت فهل من ورق قال لا قالت يا آل عكل اكبرا وامعارا فقال روبة لما ازدرت قدرى وقات ابلى * تالفت واتصلت بعكل * حظي وهزت رأسها تستبلى تسألنى عن السنين كم لى * فقلت لو عمرت عمر الحسل * أو عمر نوح زمن الفطحل والصخر مبتل كطين الوحل

وفي رواية لو انني أوتيت علم الحـكل * علم سليمان كلام النمـل

وسألت أبا بكر بن دريد عن زمن الفطحل فقـال تزعم العرب أنه زمان كانت فيه الحجارة رطبة * قال ابن عبد الحـكم ويقال ان الذي بني الاسكندرية شداد بن عاد والله أعلم *وكانت الاسكندرية ثلاث مدن بعضها الى جنب بعض منيعة وهى موضع المنارة وما والاها والاسكندرية وهى موضع قصبـة الاسكندرية اليوم ونفيطة وكان على كل واحدة منهن سور وسور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهن جميعا وقيل كان على الاسكندرية سبعة حصون منيعة وسبعة خنادق قال وان ذا القرنين لما بنى الاسكندرية رخمهـا بالرخام الابيض جدرها وأرضها فكان لباسهم فيها السواد والحمرة فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام ولم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام واذا كان القمر أدخل الرجل الذى يخيط بالليل في ضوء القمر مع بياض الرخام الخيط في ثقب الابرة ويقال بنيت الاسكندرية في ثلثمائة سنة وسكنت ثلثمائة سنة وخربت ثلثمائة سنة ولقد مكثت سبعين سنة مايدخلها أحد الا وعلى بصره خرقة سوداء من بياض جصها وبلاطها ولقد مكثت سبعين سنة ما يستسرج فيها قال وكانت الاسكندرية بيضاء تضئ بالليل والنهار وكانوا اذا غربت الشمس لم يخرج أحد من بيته ومن خرج اختطف وكان منهم راع يرعى على شاطئ البحر فكان يخرج من البحر شئ فيـأخذ من غنمه فكمن له الراعى في موضع حتي خرج فاذا جارية قد نفشت شعرها وما نعته عن نفسها فقوي عليها فذهب بها الى منزله فأنست به فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم فقالوا من خرج منا اختطف فهيأت لهم الطلسمات فكانت أول من وضع الطلسمات بمصر في الاسكندرية وقيل كان الرخام قد سخر لهم حتى يكون من بكرة النهار كالعجين فاذا انتصف النهار اشتـد * وقال المسعودى ذكر جماعـة

من أهل العلم أن الاسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده وسار حتى يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء حتى انتهى الى موضع الاسكندرية فأصاب فيها اثر بنيان وعمدا كثيرة من الرخام وفي وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند وهو القلم الاول من أقلام حمير وملوك عاد أنا شداد بن عاد شددت بساعدى الواد وقطعت عظيم العماد وشوامخ الجبال والاطواد وبنيت ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها في البلاد وأردت أن أبني هنا مدينة كارم وأنقل اليها كل ذى قدم وكرم من جميع العشائر والامم وذلك اذ لا خوف ولا هرم ولا اهتمام ولا سقم فاصابني ما أعجلني وعما أردت قطعني ومع وقوعه طال همي وشجنى وقل نومي وسكنى فارتحلت بالامس عن دارى لا لقهر ملك جبار ولا لخوف جيش جرار ولا عن رغبة ولا عن صغار ولكن لتمام المقدار وانقطاع الآثار وسلطان العزيز الجبار فمن رأى أثرى وعرف خبرى وطول عمرى ونفاذ بصرى وشدة حذرى فلا يغتر بالدنيا بعدى فانها غرارة غدارة تأخذ منه ما تعطي وتسترجع منه ما تؤتى وكلام كثير يرى فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون اليها * فنزل الاسكندر مفكرا يتدبر هذا الكلام ويعتبره ثم بعث يحشر الصناع من البلاد وخط الاساس وجعل طولها وعرضها أميالا وجمع اليها العمد والرخام وأتته المراكب فيها أنواع الرخام وأنواع المرمر والاحجار من جزيرة صقلية وبلاد أفريقية وأقريطش وأقاصي بحر الروم مما يلي مصبه بحر اقيانوس وحمل اليه أيضاً من جزيرة رودس وأمر الفعلة والصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة وجعل على كل قطعة من الارض خشبة قائمة وجعل من الخشبة الى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض وأوصل جميع ذلك بعمود من الرخام وكان أمام مضربه وعلق على العمود جرسا عظيما مصوتاً وأمر الناس والقوام على البنائين والفعلة والصناع انهم اذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال وقد علق على كل قطعة منها جرساً صغيراً حرصوا على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها وأحب الاسكندر أن يجعل ذلك في وقت يختاره وطالع سعد فحرك الاسكندر رأسه وأخذته نعسة في حال ارتقابه الوقت المحمود فجاء غراب فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحركه وخرج صوت الجرس وتحركت الحبال وخفق ما عليها من الاجراس الصغار وكان ذلك معمولا بحركات هندسية وحيل حكمية فلما رأى الصناع تلك الحبال قد تحركت وسمعوا الاصوات وضعوا الاساس دفعة واحدة وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس فاستيقظ الاسكندر من رقدته وسأل عن الخبر فأخبر بذلك فاعجب وقال أردت أمراً وأراد الله غيره ويأبي الله الا ما يريد أردت طول بقائها وأراد الله سرعة فنائها وخرابها وتداول الملوك اياها وان الاسكندر لما أحكم بناءها وثبت أساسها وجن الليل عليهم خرجت دواب

البحر فأتت على جميع البنيان فقال الاسكندر حين أصبح هذا بدو الخراب في عمارتها وتحقق مراد البارى سبحانه من زوالها فتطير من فعل الدواب فلم تزل البناة فى كل يوم تبني وتحكم ويوكل من يمنع الدواب اذا خرجت من البحر فيصبحون وقد خرجت وخربت البنيان فقلق الاسكندر لذلك وراعه ما رأى من البحر فأقبل يفكر ما الذى يصنع وأي حيلة تنفع فى ذلك حتي تدفع الاذية عن المدينة فسنحت له الحيلة عند خلوه بنفسه وايراده الامور واصدارها فلما أصبح دعا الصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الاطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء الى التابوت وقد جعل فيها مواضع للحبال ودخل الاسكندر في التابوت ورجلان من كتابه ممن له علم باتقان التصوير وأمر أن تسد عليه الابواب وأن تطلى بما ذكرنا من الاطلية وأمر بمركبين عظيمين فأخرجا الى لجة البحر وعلق في التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوى بالتابوت سفلا وجعل التابوت بين المركبين وألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا وشد حبال التابوت الى المركبين وطول حباله فغاص التابوت حتى انتهى الى قرار البحر فنظروا الى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر فاذا بصور الشياطين على مثال الناس وفيهم من له مثل رؤس السباع وفي أيديهم الفوس مع بعضهم وفي أيدى بعضهم المناشير والمقامع يحكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما في أيديهم من آلات البناء فأثبت الاسكندر ومن معه تلك الصور وحكوها بالتصوير في القراطيس على اختلاف أنواعها وتشوه خلقها وقدودها ثم حرك الحبال فلما أحس بذلك من في المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت فخرج الاسكندر وأمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما صور فلما فرغوا منها وضعت على العمد بشاطئ البحر ثم أمرهم فبنوا فلما جن الليل ظهرت الدواب والآفات من البحر فنظرت الى صورها على العمد مقابلة الى البحر فرجعت ولم تعد بعد ذلك فبنيت الاسكندرية وشيدت وأمر الاسكندر أن يكتب على أبوابها هذه الاسكندرية أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور ولم يرد البارى عز وجل ملك السموات والارض ومفنى الامم أن يثبتها كذلك فبنيتها وأحكمت بنيانها وشيدت سورها وآتاني الله عز وجل من كل شئ علما وحكمة وسهل لى وجوه الاسباب فلم يتعذر علىّ في العالم شئ مما أردته ولا امتنع عني شئ مما طلبته لطفاً من الله عز وجل وصنعاً لى وصلاحا لعباده من أهل عصرى والحمد لله رب العالمين لا اله الا هو رب كل شئ ورسم بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الاحداث بعده في مستقبل الزمان من الآفات والعمران والخراب وما

يؤول امرها اليه الى وقت دثور العالم * (وكان بناء الاسكندرية طبقات) وتحتها قناطر مقنطرة عليها دور المدينة يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا تضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التى تحت المدينة وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق ومتنفسات للضياء ومنافذ للهواء وقد كانت الاسكندرية تضئ بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر وكانت أسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة كلها لايصيب أهلها شئ من المطر وكان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة الالوان بينها خنادق وبين كل خندق وسور فصول وربما تعلق في المدينة شقاق الحرير الاخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه فلما أحكم بناءها وسكنها أهلها كانت آفات البحر وسكانه على ما زعم الاخباريون من المصريين والاسكندريين تختطف بالليل أهل المدينة فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير فلما علم بذلك الاسكندر اتخذ الطلسمات على أعمدة هنالك تدعي المسال وهي باقية الى هذه الغاية كل واحد من هذه الاعمدة على هيئة السروة وطول كل واحد منها ثمانون ذراعا على عمد من نحاس وجعل تحتها صورا وأشكالا وكتابة * قال مؤلفه رحمه الله فيما تقدم من حكاية ابن وصيف شاه مايتبين به وهم ما نقله المسعودى من أن الاسكندر هو الذي عمل التابوت حتى صوّر أشكال حيوانات البحر فان ابن وصيف شاه أعرف بأخبار أهل مصر وكذلك ما ذكره المسعودي من أن المسال من عمل الاسكندر وهم أيضا بل هذه المسال هى المناير التى كان ينور عليها والاعلام التى كانت ملوك مصر القدماء تنصبها وهى من أعمال ملوك القبط الاول ومن أعمال الفراعنة الذين ملكوا مصر من قديم الزمان

ذكر الاسكندر

هو الاسكندر بن فليبش بن آمنته (ويقال آمنتاس) بن هركلش (ويقال هرقول) الجبار الذي هو ابن الاسكندر الاعظم ولى أبوه فليبش الملك فى بلد مجدونية (ويقال مقدونية) خمساً وعشرين سنة استنبط فيها ضروبا من المكر وابتدع أنواعا من الشر تقدم فيها كل من ولى الملك بها قبله * وكان في اول امره قد جعله اخوه الاسكندر رهينة عند امير من الروم فأقام عنده ثلاث سنين وكان فيلسوفا فتعلم عنده ضروب الفلسفة فلما قتل اخوه الاسكندر اجتمع الناس على تولية فليبش فولوه اميرا فقام فى السلطان مقاماً عظيما فحارب الروم وغلب عليهم ومضى الى البرية فقتل بها من الناس آلافا وغلب على مدائن فاجتمع له جمع لا يقاد وجيش لا يرام فأذل جميع الروم وذهبت عينه في بعض الحروب وعمر البلدان والمدائن عمارة وهدما وسبيا وانتهابا ثم حشد جميع أهل بلد الروم وعبى عسكرا فيه مائتا ألف راجل وخمسون ألف فارس سوى من كان فيه من أصحابه المقدونيين ومن غيرهم من أجناس اليونانيين يريد غزو الفرس * فبينا هو يجمع هذا الجمع نظر في تزويج ابنة

له يقال لها قلوبطره من ختنـه أخي امرأته وخال ولده الاسكندر وجلس قبل العرس بيومين يحدث قواده اذ سئل عن أي الموتات أحق أن يتمناها الانسان فقال الواجب على الرجل القوى الظافر المجرب يريد نفسه أن لايتمنى الموت الا بالسيف فجأة لئلا يعذبه المرض وتحل قوته الاوجاع فعجل له ما تمنى فى ذلك العرس وذلك أنه حضر لعبا كان على الخيل بين ولده الاسكندر وختنه الاسكندر فبينما هو في ذلك غافله أحد أحداث الروم بطعنة فقتله بها ثأرا بأبيه عند ما تمكن منه منفردا فولى الاسكندر الملك بعد أبيه فليبش وكان أول شئ أظهر فيه قوته وعزمه في بلد الروم وكانوا قد خرجوا عن طاعة المقدونيين الى طاعة الفرس فدرسهم واستأصلهم وخرب مدنهم وجعلهم سبيا مبيعا وجعل سائر بلادهم وكورهم تؤدى اليه الخراج ثم قتل جميع أختانه واكثر أقاربه في وقت تعبيته لمحاربة الفرس وكان جميع عسكره اثنين وعشرين ألف فارس وستين ألف راجل وكانت مراكبـه خمسمائة مركب وثمانين مركبا فحرك بهذه العدة كبار ملوك الدنيا وسار الى الاسكندرية ودخل بيت المقدس وقرب فيه لله تعالى قربانا وخرج يريد محاربة دارا وكان في عسكر دارا ملك الفرس في أول ملاقاته اياه ستمائة ألف مقاتل فغلبه الاسكندر وكانت اذ ذاك على الفرس وقعة شنعاء ونكبة دهياء قتل فيها منهم عدد لايحصي ولم يقتل من عسكر الاسكندر الا مائة وعشرون فارسا وتسعون راجلا * ومضى الاسكندر ففتح مدائن وانتهب ما فيها فبلغه أن دارا قدعبي وأقبل نحوه بجمع عظيم فخاف أن يلحقه في ضيق الجبال التى كان فيها فقطع نحوا من مائة ميل في سرعة عجيبة حتى بلغ مدينة طرسوس وكاد يهلك لفرط البرد حتى انقبض عصبه فلاقاه دارا فى ثلثمائة ألف راجل ومائة الف فارس فلما التقى الجمعان كاد الاسكندر يفر لكثرة ما كان فيه دارا وقلة ما كان فيه ووقع القتال بينهما وباشر القواد الحرب بأنفسهم وتنازل الابطال واختلف الطعن والضرب وضاق الفضاء بأهله فباشر كلا الملكين الحرب بأنفسهما دارا والاسكندر وكان الاسكندر أكمل أهل زمانه فروسية وأشجعهم وأقواهم جسما فباشرا حتى جرحا جميعا وتمادى الحرب بينهما حتى انهزم دارا ونزلت لوقيعة بالفرس فقتل من راجلهم نحو من ثمانين ألفا ومن فرسانهم نحو من عشرة آلاف وأسر منهم نحو من أربعين ألفا ولم يسقط من عسكر الاسكندر الا مائتان وثلاثون راجلا ومائة وخمسون فارسا فانتهب الاسكندر جميع عسكر الفرس وأصاب فيه من الذهب والفضة والامتعة الشريفة مالا يحصى كثرة وأصيب من جملة الاساري أم دارا وزوجته واخته وابنتاه فطلب دارا من الاسكندر فديتهن بنصف ملكه فلم يجبه الى ذلك فعبى دارا مرة ثالثة وحشد الفرس عن آخرهم واستجاش بكل من قدر عليه من الامم فبعث الاسكندر قائدا في أسطول للغارة على بلد الفرس ومضي الاسكندر الى الشام فتلقاه هنالك

ملوك الدينا خاضعين له فمفاعن بعض ونفى بعضا وقتل بعضا ومضى الى احراز طرسوس وكانت مدينة زاهرة قديمة عظيمة الشان وأهلها قد وثقوا بعون أهل أفريقيـة لهم لصهر كان بينهم فحاصرهم فيها حتى افتتحها ومضى منها الى رودس والى مصر فانتهب الجميع وبني مدينة الاسكندرية بأرض مصر وقال هروشيوش وله في بنيانها أخبار طويلة وسياسات كرهنا تطويل كتابنا بها * ثم ان دار المـايشس من مصالحته أقبل في أربعمائة ألف راجل ومائة ألف فارس فتلقى الاسكندر مقبلا من ناحيـة مصر في أعمال مدينـة طرسوس فكانت بينهما معركة عجيبة شنيعة اجتهادا من الروم على ما كانوا خبروه واعتادوا من الغلبة والظفر واجتهادا من الفرس بالتوطين على الهلاك وتفضيل الموت على الرق والعبودية فقلما يحكى عن معركة كان القتل فيها أكثر منه في تلك المعركة فلما نظر دارا الى أصحابه يتغلب عليهم ويهزمون عزم على استعجال الموت فى تلك الحرب بالمباشرة لها بنفسه والصبر حتى يقتل معترضا للقتل فلطف به بعض قواده حتى سلوه فانهزم وذهبت قوة الفرس وعزهم وذل بعـدها سلطانهم وصار بلد المشرق كله في طاعة الروم وانقطع ملك الفرس مدة أربعمائة عام وخمسين عاما واشـتغل الاسكندر بتحصيل ما أصاب فى عسكر الفرس والنظر فيـه وقسمته على عسكره ثلاثين يوما ثم مضى الى مدينة الفرس التي كانت رأس مملكتهم والتي اجتمعت فيها اموال الدنيا ونعمها فهدمها ونهب ما فيها فبلغه عن دارا أنه صار عند قوم مكبلا في كبول من فضة فتهيأ وخرج في ستة آلاف فوجده بالطريق مجروحا جراحات كثيرة فلم يلبث ان هلك منها فأظهر الاسكندر الحزن عليه والمرثية له وأمر بدفنه فى مقابر الملوك من أهل مملكته وكان في أمر هذه الثلاث معارك عبرة لمن اعتبر ووعظ لمن اتعظ اذ قتل فيها من أهل مملكة واحدة نحو من خمسة عشر ألف ألف بين راكب وراجل من أهل بلد آسيا وهى العراق وقد كان قتل من أهل تلك المملـكة قبل ذلك بنحو من ستين سنة نحو تسعة عشر ألف ألف الى ألف ألف ما بين راكب وراجل من أهل بلد العراق والشام وطرسوس ومصر وجزيزة رودس وجميع البلدان الذين درسهم الاسكندر أجمعين وكان سلطان الدنيـا مقسوما بين قواده بعد ما زلزل بدواهيه العظيمة العالم كله وعم أهله بعضا بالمنـايا الفظيعة وبعضا بالتوطين عليها والمباشرة لاهوالها وأوصى عند وفاته أن يلقب كل قائم في اليونانيين بعده بيطليموس تهويلا للاعداء لان معناه الحربي فهذا هو الصحيح من خبر الاسكندر فلا يلتفت الى ما خالفه * ويقال انه كان أشقر أزرق وهو أول من سمر بالليـل وكان له قوم يضحكونه ويحكون له الخرافات يريد بذلك حفظ ملـكه وحراسة نفسه لا اللذة وبه اقتدى الملوك في السمر واتخاذ المضحكين والمخرفين

ذكر تاريخ الاسكندر

قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيروتى تاريخ الاسكندر اليونانى الذى يلقبه بعضهم بذى القرنين على سنى الروم وعليه عمل اكثر الامم لما خرج من بلاد يونان وهو ابن ست وعشرين سنة لقتال دارا ملك الفرس * ولما ورد بيت المقدس أمر اليهود بترك تاريخ داود وموسى عليهما السلام والتحول الى تاريخه فأجابوه وانتقلوا الى تاريخه واستعملوه فيما يحتاجون اليه بعد أن عملوه من السنة السادسة والعشرين لميلاده وهو أول وقت تحركه ليتموا ألف سنة من لدن موسى عليه السلام وبقوا معتصمين بهذا التاريخ ومستعملين له وعليه عمل اليونانيين وكانوا قبله يؤرخون بخروج يونان بن نورس عن بابل الى المغرب * وأول تاريخ الاسكندر يوم الاثنين اول تشرين الاول وموافقه اليوم الرابع من بابه ومبادى الايام عندهم من وقت طلوع الشمس الى وقت غروبها والى أن يصبح الصباح وتطلع الشمس فقد كمل يوم بليلته ومبادي الشهور ترجع الى عدد واحد له نظم يجرى عليه دائما وعدد شهور سنتهم اثنا عشر شهرا يخالف بعضها بعضا في العدد وهذه أسماؤها وعدد أيام كل شهر منها (تشرين الاول) أحد وثلاثون يوما (تشرين الثانى) ثلاثون يوما (كانون الاول) أحد وثلاثون يوما (كانون الثانى) أحد وثلاثون يوما (شباط) ثمانية وعشرون يوما وربع (آذار) أحد وثلاثون يوما (نيسان) ثلاثون يوما (ايار) أحد وثلاثون يوما (حزيران) ثلاثون يوما (تموز) أحد وثلاثون يوما (آب) أحد وثلاثون يوما (أيلول) ثلاثون يوما فسبعة أشهر كل شهر منها أحد وثلاثون يوما وأربعة أشهر كل شهر منها ثلاثون يوما وشهر واحد ثمانية وعشرون يوما وربع يوم وذلك لانهم جعلوا شباط كل ثلاث سنين متواليات ثمانية وعشرين يوما وجعلوه في السنة الرابعة تسعة وعشرين يوما فيكون عدد أيام سنتهم ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم ويجعلون السنة الرابعة ثلثمائة وستة وستين يوما ويسمونها السنة الكبيسة وانما زادوا الربع في كل سنة ليقرب عدد أيام سنتهم من عدد أيام السنة الشمسية حتى تبقى امورهم على نظام واحد فتكون شهور البرد وشهور الحر وأوان الزرع ولقاح الشجر وجنى الثمر في وقت معلوم من السنة لا يتغير وقت شئ من ذلك البتة وكان ابتداء الكبيس فى السنة الثالثة من ملك الاسكندر وبين يوم الاثنين اول يوم من تاريخ الاسكندر هذا وبين يوم الخميس أول شهر المحرم من السنة التى هاجر نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة تسعمائة سنة وثلاث وثلاثون سنة ومائة وخمسة وخمسون يوما وبينه وبين يوم الجمعة أول يوم من الطوفان ألفا سنة وسبعمائة سنة واثنتان وتسعون سنة ومائة وثلاثة وتسعون يوما وبين ابتداء ملك بخت نصر وبين أول تاريخ الاسكندر أربعمائة وخمس وثلاثون سنة شمسية ومائتا يوم وثمانية

وثلاثون يوما * وقال أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية الشهر المسمى تموز فيما ذكر القبط بحسب ما وجدت فى كتبهم اسم رجل كانت له قصة عجيبة طويلة وهو أنه دعا ملكا الى عبادة الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر وان الملك قتله وعاش بعد القتلة ثم قتله قتلات بعد ذلك قبيحة وفى كلها يعيش ثم مات في آخرها وان شهورهم هذه كل واحد منها اسم رجل فاضل عالم كان في القديم من النبط الذين كانوا مكان اقليم بابل قبل الكسدانيين وذلك أن تموز هذا ليس من الكسدانيين ولا الكنعانيين ولا العبرانيين ولا الجرامقة وانما هو من الخرناسيين الاولين ولذلك يقولون في كل شهورهم انها اسماء رجال مضوا وان تشرين الاول وتشرين الثانى اسما أخوين كانا فاضلين في العلوم وكذلك كان كانون الاول وكانون الثاني وان شباط اسم رجل نكح ألف امرأة أبكارا كلهن ولم ينسل نسلا ولا ولد ولدا فجعلوه فى آخر الشهور لنقصانه عن النسل فصار النقصان من العدد فيه والصابئون من البابليين والحرناسيين جميعا الى وقتنا هذا ينوحون ويبكون على تموز فى الشهر المسمى تموز فى عيد لهم فيه منسوب الى تموز ويعددون تعديدا عظيما وخاصة النساء فانهن يقمن ههنا جميعا وينحن ويبكين على تموز ويهذين فى أمره هذيانا طويلا وليس عندهم علم من أمره اكثر من أن يقولوا هكذا وجدنا أسلافنا ينوحون ويبكون على تموز في هذا العيد المنسوب الى تموز والنصارى تذكر أنهم يعملونه لرجل يسمى جورجيس أحد حوارى عيسى عليه السلام دعا ملكا من الملوك الى دين النصرانية فعذبه الملك بتلك القتلات فلا أدري وقع الى النصارى قصة تموز فأبدلوا مكانها اسم جورجيس وخالفوا الصابئين فى الوقت لان الصابئين يعملون ذكران تموز أول يوم من شهر تموز والنصارى يعملون لجورجيس في آخر نيسان ويقال ان بعض ملوك رومية زاد فى شهور الروم كانون الثاني وشباط فان شهورهم كانت الى زمانه عشرة أشهر كل شهر ستة وثلاثون يوما * ويقال ان فيوفيوس أول من ملك مدينة رومية وانه أقام ملكا ثلاثا وأربعين سنة وزاد كانون الثاني وشباط في شهور الروم بحكم انها كانت الى ذلك الزمان عشرة أشهر كل شهر ستة وثلاثون يوما وكان سبب نقص شباط يومين وقوع غارة في أيام فيطن رئيس جيش الروم مع خلف وحروب بينه وبين فريوريوس آلت الى نصرة فيطن وأخذه مملكة الروم وأمر بفريوريوس فنودى عليه أعيا مرديا وتفسيره أخرج ياشباط ثم غرق في البحر وسموا شهر شباط فريوريوس ليكون تذكار سوء له فان هذا الفعل كان في يومي التاسع والعشرين والثلاثين من شباط فنقصوهما من شباط وزادوهما في تموز وكانون الثاني فجعلوا كل شهر منهما أحدا وثلاثين يوما ثم بعد زمان جاء ملك آخر فقال لايحسن أن يكون شباط في وسط السنة فنقله الى آخرها ولم يزل الروم من ذلك الوقت يتطيرون من شباط

ذكر الفرق بين الاسكندر وذى القرنين وانهما رجلان

اعلم أن التحقيق عند علماء الاخبار أن ذا القرنين الذى ذكره الله فى كتابه العزيز فقال ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا انا مكنا له في الارض وآتيناه من كل شيء سببا الآيات عربي قد كثر ذكره في أشعار العرب وأن اسمه الصعب بن ذى مرائد بن الحارث الرائش بن الهمال ذى سدد بن عادذى منح بن عامر الملطاط ابن سكسك بن وائل ابن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالح بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وانه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة ويقال لهم أيضا العرب العرباء وكان ذو القرنين تبعا متوجا ولما ولي الملك تجبر ثم تواضع لله واجتمع بالخضر وقد غلط من ظن أن الاسكندر بن فليبش هو ذو القرنين الذى بني السد فان لفظة ذو عربية وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن وذاك رومي يوناني قال أبو جعفر الطبري وكان الخضر في أيام أفريدون الملك بن الضحاك في قول عامة علماء أهل الكتاب الاول وقبل موسى بن عمران عليه السلام وقيل انه كان على مقدمة ذي القرنين الاكبر الذى كان على أيام ابراهيم الخليل عليه السلام وان الخضر بلغ مع ذى القرنين أيام مسيره في البلاد نهر الحياة فشرب من مائه وهو لا يعلم به ذو القرنين ولا من معه فخلد وهو حي عندهم الى الآن وقال آخرون ان ذا القرنين الذى كان على عهد ابراهيم الخليل عليه السلام هو أفريدون بن الضحاك وعلى مقدمته كان الخضر * وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب التيجان في معرفة ملوك الزمان بعد ماذكر نسب ذى القرنين الذي ذكرناه وكان تبعا متوجا لما ولي الملك تجبر ثم تواضع واجتمع بالخضر ببيت المقدس وسار معه مشارق الارض ومغاربها وأوتى من كل شيء سببا كما أخبر الله تعالى وبنى السد على ياجوج ومأجوج ومات بالعراق * وأما الاسكندر فانه يونانى ويعرف بالاسكندر المجدوني (ويقال المقدوني) سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذى القرنين ممن كان فقال من حمير وهو الصعب بن ذى مرائد الذى مكنه الله تعالى فى الارض وآتاه من كل شيء سببا فبلغ قرني الشمس ورأس الارض وبنى السد على ياجوج ومأجوج قيل له فالاسكندر قال كان رجلا صالحا روميا حكيما بنى على البحر فى أفريقية منارا وأخذ أرض رومة وأتى بحر الغرب وأكثر عمل الآثار في الغرب من المصانع والمدن * وسئل كعب الاحبار عن ذى القرنين فقال الصحيح عندنا من أحبارنا وأسلافنا انه من حمير وانه الصعب بن ذي مرائد والاسكندر كان رجلا من يونان من ولد عيصو بن اسحق بن ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهما ورجال الاسكندر أدركوا المسيح بن مريم منهم جالينوس وأرسططاليس * وقال الهمداني في كتاب الانساب وولد كهلان بن سبأ زيدا فولد زيد عريبا ومالكا وغالبا وعميكرب وقال الهيثم عميكرب بن سبأ

أخو حمير وكهلان فولد عميكرب أبا مالك فدرحا ومهيليل ابنى عميكرب وولد غالب جنادة بن غالب وقد ملك بعد مهيليل بن عميكرب بن سبأ وولد عريب عمرا فولد عمرو زيدا والهميسع ويكنى أبا الصعب وهو ذو القرنين الاول وهو المساح والبناء وفيه يقول النعمان بن بشير

فمن ذا يعاددنا من الناس معشرا * كراما فذو القرنين منا وحاتم

وفيه يقول الحارثي

سموا لنا واحدا منكم فنعرفه * في الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتبعين وذى القرنين يقبله * أهل الحجي فأحق القول ماقبلا

وفيه يقول ابن أبي ذئب الخزاعي

ومنا الذى بالخافقين تغربا * وأصعد في كل البلاد وصوبا

فقد نال قرن الشمس شرقا ومغربا * وفي ردم يأجوج بنى ثم نصبا

وذلك ذو القرنين تفخر حمير * بعسكر قيل ليس يحصى فيحسبا

قال الهمدانى وعلماء همدان تقول ذو القرنين الصعب بن مالك بن الحارث الاعلى بن ربيعة بن الخيار بن مالك وفي ذى القرنين أقاويل كثيرة وقال الامام فخر الدين الرازى فى كتاب تفسير القرآن الكريم ومما يعترض به على من قال ان الاسكندر هو ذو القرنين أن معلم الاسكندر كان ارسطاطا ليس بأمره يأتمر وبنهيه ينتهى واعتقاد ارسطاطاليس مشهور وذو القرنين نبي فكيف يقتدى نبي بأمر كافر فى هذا اشكال * وقال الجاحظ في كتاب الحيوان إن ذا القرنين كانت أمه آدمية وأبوه من الملائكة ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا ينادى رجلا ياذا القرنين قال أفرغتم من أسماء الانبياء فارتفعتم الى أسماء الملائكة وروى المختار بن أبي عبيد ان عليا رضى الله عنه كان اذا ذكر ذا القرنين قال ذلك الملك الامرط والله أعلم

ذكر من ولي الملك بالاسكندرية بعد الاسكندر

قال في كتاب هروشيوش ان الاسكندر ملك الدنيا اثنتى عشرة سنة فكانت الدنيا ماسورة بين يديه طول ولايته فلما مات تركها بين يدى قواده المستخلفين تحته فكان مثله معهم كمثل الاسد الذى ألقى صيده بين يدى أشباله فتقاتلت عليه تلك الاشبال بعده وذلك انهم اقتسموا البلاد فصارت مصر وأفريقية كلها وبلاد الغرب الى قائده وصاحب خيله الذى ولي مكانه وهو بطليموس بن لاوى ويقال بطليموس بن أرنبا المنطقى وذكر بقية ممالك القواد من أقصى بلاد الهند الى آخر بلاد المغرب ثم قال فثارت بينهم حروب وسببها رسالة كانت خرجت من عند الاسكندر بأن يرجع جميع الغرباء المنفيين الى بلادهم ويسقط عنهم الرق

والعبودية فاستثقل ذلك ملك بلاد الروم اذخاف أن يكون الغرباء والمنفيون اذا رجعوا الى بلدانهم ومواطنهم يطلبون النقمة لانفسهم فكان هذا الامر سبب خروجهم عن طاعة سلطان المجدونيين * وقال غيره وبطليموس هذا سبي بني معد بعد ماغزا فلسطين ثم أطلقهم وحباهم بآنيـة جوهر وضعت في بيت المقدس وملك عشرين سـنة وقال غيره ولي أربعين سـنة وقيل ثمانيا وثلاثين سنة وقيل ان اسمه فيلدلفوس وهو محب الاب وكان مجدونيا وهو الذى غنم اليهـود ونقل كثيرا منهم الى مصر وفي زمانه كان زينون الفيلسوف وكان هـذا الملك فيلسوفا وأقبل برديقا أحد قواد الاسكندر الى مصر بعسكر عظيم وجيش عرمرم فتفرق سلطان مجدونية على قسمين ثم ان بطليموس جمع عساكر مصر وأفريقية ولاقى برديقافهزمه وأصاب عسكره ثم قتله وأصاب ماكان معه وحارب عدة من قواد الاسكندر * وقال غيره وكان بطليموس هـذا حكيما عالما شابا مدبرا وهو أول من اقتنى البزاة ولعب بها وضراها وكان من قبله من الملوك لايلعب بها ولما مات ملك الاسكندرية بعده بطليموس الثانى واسمه فيلوذوفوس ويقال له محب الاخ وكانت مدة ملكه ثمانيا وثلاثين سنة وهو الذي أطلق اليهود الذين كانوا مأسورين بأرض مصر ورد الاوانى المقدسة على عزير النبي وهو الذي تخير السبعين مترجما من علماء اليهود الذين ترجموا كتب التوراة والانبياء من اللسان العبرانى الى اللسان الرومى اليـونانى واللاطينى وكان فيلسوفا منجما ومات فولي بعـده ابنه بطليموس أوراخيطس المعروف بمحب الاب ستا وعشرين سنة ثم ولي بعده أخوه بطليموس فيلوبطور سبع عشرة سنة وهو الذى قتل من اليهود نحوا من ستين ألفا وتغلب عليهم ويقال انه صاحب علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطى * ثم ملك بعده ابنه بطليموس أسفاميش محب الام أربعا وعشرين سنة * ثم ولي بعده ابنه بطليموس فلو ناطره وهو الصانع خمسا وثلاثين سنة وهو الذي غلب ملك الشام وحمل اليهود أنواع البلاء والعذاب * ثم ملك الاسكندرية بعده ابنه بطليموس ابرياطيش وهو الاسكندرانى تسعا وعشرين سنة وفى زمانه غلب الرومانيون على الاندلس واحترقت مدينة قرطاجنة بالنار وأقامت النار فيها سبعة عشر يوما فهدمت وحولت أساساتها حتي صار رخام أسوارها غبارا وذلك الى تسعمائة سنة من وقت بنيانها وبيع جميع أهلها رقيقا الا قليـلا من خيارهم وأشرافهم وكان المتولى لتخريبها قواد رومة * ثم ولي بعده ابنه بطليموس شوطار الذي يقـال له الحديد سبع عشرة سـنة وكان قبيح السيرة تزوج بأخته ثم فارقها على أقبح حال مما تزوجها عليه في خبر له ثم تزوج ربيبته التي كانت بنت أخته ثم زوجها من ابنه المولود له من أخته وكثرت فواحشه حتي نفاه أهل الاسكندرية فمات منفيا * وولى أخوه بطليموس الاسكندر وهو الجوال عشر سنين * ثم ولى بعده ابنه بطليموس ديوشيش ثمانيا وثلاثين سنة وفى زمانه غلب قائد الرومانيين على بيت المقدس

وجعل اليهود يؤدّون اليه الجزية * وظهرت فى ذلك الزمان علامات في السماء مهولة منها أنه ظهر في السماء بناحية مطلع الشمس من مدينة رومة ممايلى ناحية الجنوب نار ملتهبة عظيمة وكسر قوم خبزا في صنع لهم فانفجر من الخبز دم سائل ونزل بمدينة رومة مدة سبعة أيام متوالية برد كان يوجد في داخله حجارة وشقاف وانفتحت الارض فصار فيها غور عظيم وخرج منه لهب اشتعل حتى ظنوه بلغ السماء ونظر أهل رومة يومئذ الى عمود من الارض الى السماء لونه لون الذهب وكان من عظمه تكاد الشمس أن تغيب منه * ثم ولى الاسكندرية بعده كلو باطرة سنتين فدامت مملكة الاسكندرية وهى الدولة الجدونية الى أول ملوك قيصر الذي هو أول ملوك الرومانيين مائتين واحدى وثمانين سنة فبعث قيصر قائدين بعساكر كثيرة لفتح مصر فتزوج أحدهما كلو باطرة ابنة ديوشيش الملقب بطليموس وقتل القائد الآخر وخالف قيصر فسار اليه قيصر بنفسه وجرت أمور آلت الى فتح الاسكندرية بعد حروب واستولى قيصر على مملكة مصر وقتل كلو باطرة وولديها وقتل القائد الذى تزوجها ويقال بل سمت نفسها عند ماتيقنت غلبة قيصرلها ويقال انها كانت ذات حزم ومعرفة وتدبير وانها حفرت خليج الاسكندرية وأجرت فيه الماء من مصر وبنت بالاسكندرية أبنية عجيبة منها هيكل زحل وعملت فيه صنما من نحاس اسود وكان أهل مصر والاسكندرية يعملون له عيدا فى اليوم الثاني والعشرين من هتور ويحج اليه اليونانيون من سائر الاقطار ويذبحون له ذبائح لاتحصى كثرة فلما ظهرت ملة النصارى فى الاسكندرية جعلوا هيكل زحل كنيسة ولم تزل الى أن هدمها جيوش المعز لدين الله عند قدومهم من المغرب الى أرض مصر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة من سنى الهجرة النبوية *ويقال ان كلو باطرة هي التى بنت حائط العجوز بمصر ويشبه أن يكون هذا غير صحيح ويقال انها بنت مقياسا بمدينة أخميم ومقياسا آخر بأنصنا ويقال كانت مدة ملكها ثلاثين سنة وليس بصحيح وبموت كلو باطرة انقطعت مملكة مصر وصارت تحت يد ملوك الروم من أهل مدينة رومة ثم تحت يد ملوك الروم من أهل قسطنطينية فلم تزل تحت أيديهم يولون فيها من قبلهم من شاؤا فيصير الى الاسكندرية ويقيم بها الى أن قدم عمرو بن العاص بالمسلمين وفتح الله على يده الحصن والاسكندرية وجميع أرض مصر ويقال معنى كلو باطرة الباكية فكان جميع المدة التى مابين ذهاب دولة البطالسة من الاسكندرية وقدوم عمرو بن العاص الى مصر وفتحها ستمائة سنة وبضعا وسبعين سنة وفي خلال هذه المدة قوى جانب ملوك الفرس على القياصرة وملكوا منهم بلاد الشام واستولوا على أرض مصر والاسكندرية فى أيام كسرى أبرويز بن هرمز فبعث قائدا الى مصر وملك الاسكندرية وقتل الروم وأقاموا بالاسكندرية مدة عشر سنين فلما استبد هرقل بمملكة الروم وخرج من القسطنطينية لجمع الاموال من سائر مملكته أخذ ماه

ودمشق وصار الى بيت المقدس وقد خربها الفرس فأمر ببنائها وسار منها الي أرض مصر
ودخل الاسكندرية وقتل من بها من الفرس وأقام بها بطريقا ثم عاد الى قسطنطينية فاستمرت
مصر بعده تحت ايالة الروم حتي ملكها المسلمون ويقـال ان كل بناء بمصر من آجر فهو
للفرس وما فيها من بناء حجر فهو للروم والله أعلم

ذكر منارة الاسكندرية

قال المسعودى فأما منارة الاسكندرية فذهب الاكثرون من المصريين والاسكندرانيين
ممن عنى باخبار بلدهم أن الاسكندر بن فيليبش المقـدونى هو الذى بناها ومنهم من رأى
أن دلوكة الملكة بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم ومن الناس من رأى أن
العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها ومنهم من رأى أن الذى بنى مدينة رومة هو الذى
بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها والاهرام بمصر وانما أضيفت الاسكندرية الى الاسكندر
لشهرته باستيلائه على الاكثر من ممالك العالم فشهرت به وذكروا في ذلك أخبارا كثيرة
يستدلون بها على ماقالوا والاسكندر لم يطرقه فى هذا البحر عدو ولا هاب ملكا يرد اليه
في بلده ويغزوه في داره فيكون هو الذى جعلها مرقبا وان الذى بناها جعلها على كرسى
من الزجاج على هيئة السرطان فى جوف البحر وعلي طرف اللسان الذى هو داخل في
في البحر من البر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره منها تمثال قد أشار بسبابته
من يده اليمنى نحو الشمس اينما كانت من الفلك واذا علت في الفلك فأصبعه يشير بها نحوها
فاذا انخفضت صارت يده سفلا تدور معها حيث دارت ومنها تمثال يشير بيده الى البحر اذا
صار العـدو منه على نحو من ليلة فاذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك
التمثال صوت هائل يسمع من مسيرة ميلين أو ثلاثة فيعلم أهـل المدينة أن العـدو قد دنا
منهم فيرمقونه بأبصارهم ومنها تمثال كلما مضى من الليل أوالنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف
ماصوت في الساعة التى قبلها وصوته مطرب * وقد كان ملك الروم فى ملك الوليد بن عبد الملك
ابن مروان أنفـذ خادما من خواص خدمه ذا رأى ودهاء فجاء مستأمنا الى بعض الثغور
فورد بآلة حسنة ومعه جماعة فجاء الى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك وأنه أراد قتله
لموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل وأنه استوحش ورغب في الاسلام فأسلم على يد
الوليـد وتقرب من قلبه وتنصح اليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من
الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن فلما صارت الى الوليد تلك الاموال والجواهر
شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم يا أمير المؤمنين ان ههنا أموالا وجواهر ودفائن
للملوك فسأله الوليد عن الخبر فقال تحت منارة الاسكندرية أموال ملوك الارض وذلك أن
الاسكندر احتوى على الاموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك مصر فبنى لها

ازجا تحت الارض وقنطر لها الاقباء والقناطر والسراديب وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجوهر وبني فوق ذلك هذه المنارة وكان طولها في الهواء ألف ذراع والمرآة في علوه والدبادبة جلوس حوله فاذا نظروا الى العدو في البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا لمن قرب منهم ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فتحذر الناس وتنذر البلد فلا يكون للعدو عليهم سبيل فبعث الوليد مع الخادم بجيش واناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة فضج الناس من هذا وعلموا أنها مكيدة وحيلة في أمرها فلما علم الخادم استفاضة ذلك وانه سينم الى الوليد وانه قد بلغ ما يحتاج اليه هرب في الليل في مركب كان قد أعده وواطأ على ذلك فتمت حيلته وبقيت المنارة على ماذكرنا الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وكانت حوالى منارة الاسكندرية في البحر مغاص يخرج منه قطع من الجوهر يتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر يقال ان ذلك من آلات اتخذها الاسكندر للشراب فلمامات كسرتها أمه ورمت بها في تلك المواضع من البحر ومنهم من رأى أن الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر وغرقه حول المنارة لكيلا تخلو من الناس حولها لأن من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا في كل عصر ويقال ان هذه المنارة انما جعلت المرآة فى أعلاها لان ملوك الروم بعد الاسكندر كانت تحارب ملوك مصر والاسكندرية فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد في البحر من عدوهم وكان من يدخلها يتيه فيها الا أن يكون عارفا بالدخول والخروج فيها لكثرة بيوتها وطبقاتها وممراتها وقد ذكر أن المغاربة حين وافوا في خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم الى المنارة فتاهوا فيها وفى طرق تؤول الى مها وتهوى الى السرطان الزجاج وفيه مخارق الى البحر فتهورت دوابهم وفقد منهم عدد كثير وعلم بهم بعد ذلك وقيل ان تهورهم كان على كرسى لها قدامها وفي المنارة مسجد في هذا الوقت يرابط فيه مطوعة المصريين وغيرهم وفي سنة سبع وسبعين وسبعمائة سقط رأس المنارة من زلزلة ويقال ان منارة الاسكندرية كانت مبنية بحجارة مهندمة مضببة برصاص على قناطر من الزجاج وتلك القناطر على ظهر سرطان وكان فى المنارة ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض وكانت الدابة تصعد بحملها الى سائر البيوت من داخل المنارة ولهذه البيوت طاقات تشرف على البحر وكان على الجانب الشرقى من المنارة كتابة عربت فاذا هى بنت هذه المنظرة قريبا بنت مرينوس اليونانية لرصد الكواكب * وقال ابن وصيف شاه وقد ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح وبنوا على البحر مدنا منها رقودة مكان الاسكندرية وجعلو في وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب والقبة مذهبة ونصبوا فوقها منارة عليها مرآة من اخلاط شتى قطرها خمسة أشبار وكان ارتفاع القبة مائة ذراع فكانوا اذا قصدهم قاصد من الامم التي حولهم فان كان

مما يهمهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها على ذلك الشيء فاحرقته فلم تزل
على حالها الى أن غلب عليها البحر فنسفها ويقال ان الاسكندر انما عمل المنار الذى كان شبيها
بها وقد كان أيضا عليه مرآة يري فيها من يقصدهم من بلاد الروم فاحتال بعض ملوك الروم
فوجه من أزالها وكانت من زجاج مدبر * وقال المسعودى فى كتاب التنبه والاشراف وقد
كان وزير المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان لما أمر المستعين بنفيه الى برقة في سنة ثمان وأربعين
ومائتين صار الى الاسكندرية من بلاد مصر فرأى حمرة الشمس على علو المنارة التي بها وقت
المغيب فقدر أنه يلزمه أن لا يفطر اذا كان صائما أو تغرب الشمس من جميع أقطار الارض
فأمر انسانا أن يصعد الى أعلى منارة الاسكندرية ومعه حجر وأن يتأمل موضع سقوط الشمس
فاذا سقطت رمي بالحجر ففعل الرجل ذلك فوصل الحجر الى قرار الارض بعد صلاة العشاء
الآخرة فجعل افطاره بعد صلاة العشاء الآخرة فيما بعد اذا صام في مثل ذلك الوقت وكان
عند رجوعه الى سر من رأى لا يفطر الا بعد العشاء الآخرة وعنده أن هـذا فرضه وان
الوقتين متساويان وهذا غاية مايكون من قلة العلم بالفرض ومجارى الشرق والغرب وقد ذكر
ارسطاطاليس في كتاب الآثار العلوية أن بناحية المشرق الصيفى جبلا شامخا جدا وان من
علامة ارتفاعه أن الشمس لا تغيب عنه الى ثلاث ساعات من الليل وتشرق عليه قبل الصبح
بثلاث ساعات * ومنارة الاسكندرية أحد بنيان العالم العجيب بناها بعض البطالسة ملوك
اليونانيين بعد وفاة الاسكندر بن فيليبش الملك لما كان بينهم وبين ملوك رومة من الحروب فى
البر والبحر فجعلوا هذه المنارة مرقبا في أعالها مرآة عظيمة من نوع الاحجار المشفة ليشاهد
منها مراكب البحر اذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الابصار عن ادراكها فكانوا يراعون
ذلك فى تلك المرآة فيستعدون قبل ورودهم وطول المنارة في هذا الوقت على التقريب مائتان
وثلاثون ذراعا وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع فهدمت على طول الازمان وترادف
الزلازل والامطار لان بلد الاسكندرية تمطر وليس سبيلها سبيل فسطاط مصر اذ كان الاغلب
عليها أن لا تمطر الا اليسير وبناؤها ثلاثة أشكال فقريب من النصف وأكثر من الثلث مربع
الشكل بناؤه بأحجار بيض يكون نحوا من مائة ذراع وعشرة أذرع على التقريب ثم من بعد
ذلك مثمن الشكل مبني بالحجر والجص نحو من نيف وستين ذراعا وحواليه فضاء يدور
فيه الانسان وأعلاها مدور * وكان أحمد بن طولون رم شيئاً منها وجعل في أعلاه قبة من
الخشب ليصعد اليها من داخلها وهي مبسوطة موربة بغير درج وفي الجهة الشمالية من المنارة
كتابة برصاص مدفون بقلم يونانى طول كل حرف ذراع في عرض شبر ومقدارها على جهة
الارض نحو من مائة ذراع وماء البحر قد بلغ أصلها وقد كان تهدم احد أركانها الغربية مما يلى
البحر فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وبينها وبين مدينة الاسكندرية في هذا

الوقت نحو من ميل وهى على طرف لسان من الارض قد ركب البحر جنبتيه وهي مبنية على فم مينا الاسكندرية وليس بالمينا القديم لان القديم في المدينة العتيقة لاترسي فيه المراكب لبعده عن العمران والمينا هو الموضع الذى ترسى فيه مراكب البحر * وأهل الاسكندرية يخبرون عن أسلافهم انهم شاهدوا بين المنارة وبين البحر نحوا مما بين المدينة والمنارة في هـذا الوقت فغلب عليه ماء البحر في المدة اليسيرة وأن ذلك فى زيادة قال وتهدم في شهر رمضان سـنة أربع وأربعين وثلثمائة نحو من ثلاثين ذراعا من أعاليها بالزلزلة التي كانت ببـلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب في ساعة واحدة على ماوردت به علينا الاخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر وكانت عظيمة جدا مهولة فظيعة أقامت نحو نصف ساعة زمانية وذلك لنصف يوم السبت لثمان عشرة ليلة خلت من هذا الشهر وهو الخامس من كانون الآخر والتاسع من طوبة وكان لهذه المنارة مجمع في يوم خميس العـدس يخرج سائر أهل الاسكندرية الى المنارة من مساكنهم بمآ كلهم ولا بد أن يكون فيها عدس فيفتح باب المنـار ويدخله الناس فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلي ومنهم من يلهو ولا يزالون الى نصف النهار ثم ينصرفون ومن ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدو * وكان فى المنارة قوم مرتبون لوقود النـار طول الليل فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد فاذا رأى أهل المنار مايريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة فاذا رآها الحرس ضربوا الابواق والاجراس فيتحرك عند ذلك النـاس لمحاربة العدو * ويقال ان المنار كان بعيدا عن البحر فلما كان في أيام قسطنطين بن قسطنطين هاج البحر وغرق مواضع كثيرة وكنائس عديدة بمدينة الاسكندرية ولم يزل يغلب عليها بعد ذلك ويأخذ منها شيئاً بعد شيء * وذكر بعضهم أنه قاسه فكان مائتي ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعا وهي ثلاث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهي مائة واحدى وعشرون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثانية ممنة وهي احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وهي احدى وثلاثون ذراعا ونصف ذراع * وذكر ابن جبير في رحلته أن منار الاسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا وانه ذرع أحد جوانبه الاربعة في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فأناف على خمسين ذراعا وان طول المنار أزيد من مائة وخمسين قامة وفي أعلاه مسجد يتبرك الناس بالصلاة فيه * وقال ابن عبد الحكم ويقال ان الذى بني منار الاسكندرية كلوباطرة الملكة وهي التي ساقت خليجها حتى أدخلته الاسكندرية ولم يكن يبلغها انما كان يعدل من قرية يقال لهـا كسا قبالة الكريون فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية وهي التي بلطت قاعه * ولما استولى أحمد بن طولون على الاسكندرية بني في أعلى المنار قبة من خشب فأخذتها الرياح وفي أيام الظاهر بيبرس تداعي بعض اركان المنار وسقط فأمر ببناء ماانهدم منه في سنة ثلاث وسبعين وستمائة وبنى مكان هذا القبة مسجدا وهدم في ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة

عند حدوث الزلزلة ثم بنى في شهور سنة ثلاث وسبعمائة على يد الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وهو باق الى يومنا هذا ولله در الوجيه الدروي حيث يقول في منار الاسكندرية

وسامية الارجاء تهدي أخا السرى * ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الانس صافيا * فكان بتذكار الاحبة معلما
وقد ظللتنى من ذراها بقبة * ألاحظ فيها من صحابى أنجما
تخيل أن البحر تحتي غمامة * وأنى قد خيمت في كبد السما

وقال ابن قلاقس من أبيات

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقيا * كأنما فيه للنسرين أوكار
راسى القرارة سامي الفرع في يده * للنون والنور أخبار وأخبار
أطلقت فيه عنان النظم فاطردت * خيل لها في بديع الشعر مضمار

وقال الوزير أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبد ربه

لله در منار اسكندرية كم * يسمو اليه على بعد من الحدق
من شامخ الانف في عرنينه شمم * كأنه باهت فى دارة الافق
للمنشآت الجوارى عند رؤيته * كموقع النوم في أجفان ذى أرق

وقال عمر بن أبي عمر الكندي فى فضائل مصر ذكر أهل العلم أن المنارة كانت فى وسط الاسكندرية حتى غلب عليها البحر فصارت في جوفه ألا ترى الابنية والاساسات فى البحر الى الآن عيانا * وقال عبد الله بن عمرو عجائب الدنيا أربعة مرآة كانت معلقة بمنارة الاسكندرية فكان يجلس الجالس تحتها فيرى من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر وذكر الثلاثة

﴿ ذكر الملعب الذي كان بالاسكندرية وغيره من العجائب ﴾

قال القضاعى ومن عجائب مصر الاسكندرية وما بها من العجائب فمن عجائبها المنارة والسوارى والملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة ثم يرمون بأكرة فلا تقع فى حجر أحد الا ملك مصر وحضر عيدا من أعيادهم عمرو بن العاص فوقعت الاكرة في حجره فملك البلد بعد ذلك فى الاسلام ثم حضر هذا الملعب ألف ألف من الناس فلا يكون فيهم أحد الا وهو ينظر فى وجه صاحبه ثم ان قرئ كتاب سمعوه جميعا أو لعب لون من اللعب رأوه عن آخرهم لايتظالمون فيه بأكثر من مراتب العلية والسفلية * وقال ابن عبد الحكم فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة وقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية خلا به عمرو بن العاص واستأذنه فى المسير الى مصر وكان عمرو قد دخل في الجاهلية مصر

وعرف طرقها ورأى كثرة ما فيها وكان سبب دخوله اياها أنه قدم الى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش فاذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسيح وكان عمرو يرعي ابله وابل أصحابه وكانت رعية الابل نوبا بينهم فبينا عمرو يرعى ابله اذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد أنجاه الله منها فقال لعمرو ماهذه فأخبره عمرو انه رماها فقتلها فأقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال قد أحيانى الله بك مرتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد قال قدمت مع أصحاب لي نطلب الفضل فى تجارتنا فقال له الشماس وكم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك قال رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيرا فاني لا أملك الا بعيرين فآمل أن أصيب بعيرا آخر فتكون ثلاثة أبعرة فقال له الشماس أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي قال مائة من الابل فقال له الشماس لسنا أصحاب ابل انما نحن أصحاب دنانير قال تكون ألف دينار فقال له الشماس اني رجل غريب فى هذه البلاد وانما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهرا جعلت ذلك نذرا على نفسي وقد قضيت ذلك وأنا اريد الرجوع الى بلادي فهل لك أن تتبعنى الى بلادى ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لان الله عز وجل احياني بك مرتين فقال له عمرو وأين بلادك قال مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية فقال له عمرو لا أعرفها ولم ادخلها قط فقال له الشماس لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو وتفى لى بما تقول ولى عليك بذلك العهد والميثاق فقال له الشماس نعم لك والله على العهد والميثاق أن أفي لك وان أردك الى أصحابك فقال له عمرو وكم يكون مكثي في ذلك قال شهرا تنطلق معي ذاهبا عشرا وتقيم عندنا عشرا وترجع في عشر ولك على أن أحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو أنظرني حتي أشاور أصحابي في ذلك فانطلق عمرو الى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس وقال لهم تقيمون على حتي أرجع اليكم ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني رجل منكم آنس به فقالوا نعم وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا الى مصر فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه فقال عمرو للشماس مارأيت مثل ذلك ومضى الى الاسكندرية فنظر عمرو الى كثرة ما فيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة أهلها فازداد عجبا ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم وفيما اختبروا من تلك الكرة على ما

وصفها من مضى منهم انها من وقعت السكرة في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم * فلما قدم عمرو الاسكندرية اكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه اياه وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة وهم يتلقونها بأكمامهم فرمي بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا ماكذبتنا هذه السكرة قط الا هذه المرة أترى هذا الاعرابى يملكنا هذامالا يكون أبدا وان ذلك الشماس مشى في أهل الاسكندرية وأعلمهم أن عمرا أحياه مرتين وانه قد ضمن له ألفى دينار وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم ففعلوا ودفعوها الى عمرو فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو وصاحبه الى اصحابهما فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها اموالا فلما رجع عمرو الى أصحابه دفع اليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفا قال عمرو وكان أول مال اعتقدته وتأثلته

(ذكر عمود السوارى)

هذا العمود حجر أحمر منقط وهو من الصوان الماتع كان حوله نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا والى الاسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو سلوكه اذا قدموا ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق ارسطاطاليس الذى كان يدرس به الحكمة وانه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويقال ان ارتفاع هذا العمود سبعون ذراعا وقطره خمسة أذرع وذكر بعضهم أن طوله بقاعدتيه اثنان وستون ذراعا وسدس ذراع وهو على نشز طوله ثلاثة وعشرون ذراعا ونصف ذراع فجملة ذلك خمسة وثمانون ذراعا وثلثا ذراع وطول قاعدته السفلى اثنا عشر ذراعا وطول القاعدة العليا سبعة أذرع ونصف * قال المسعودى وفي الجانب الغربي من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الاوائل تقطع منه العمد وغيرها وكانوا يحملون ما عملوا بعد النقر فاما العمد والقواعد والرؤس التي يسميها أهل مصر الاسوانية ومنها حجارة الطواحين فتلك نقرها الاولون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين ومنها العمد التى بالاسكندرية والعمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله وقد رأيت في جبل اسوان أخا هذا العمود وقد هندس ونقر ولم يفصل من الجبل ولم يحمل ما ظهر منه وانما كانوا ينتظرون به أن يفصل من الجبل ثم يحمل الى حيث يريد القوم انتهى * وكان بالاسكندرية من العمد العظام وانواع الحجارة والرخام الذى لا تقل القطعة منه الا بألوف من الناس وقد علقت بين السماء والارض على فوق المائة ذراع وفوق رؤس أساطين دائر الاسطوانة ما بين الخمسة عشر ذراعا الى العشرين ذراعا

والحجر فوقه عشرة أذرع في عشرة أذرع في سمك عشرة أذرع بغرائب الالوان * وكان بالاسكندرية قصر عظيم لا نظير له في معمور الارض على ربوة عظيمة بازاء باب البلد طوله خمسمائة ذراع وعرضه على النصف من ذلك وبابه من أعظم بناء وأتقنه كل عضادة منه حجر واحد وعتبته حجر واحد وكان فيه نحو مائة اسطوانة وبازائه اسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها غلظها ستة وثلاثون شبرا وعلوها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك بناء وتحتها قاعدة حجر أحمر محكم الصناعة عرض كل ضلع منه عشرون شبرا في ارتفاع ثمانية اشبار والاسطوانة منزلة في عمود من حديد قد خرقت به الارض فاذا اشتدت الرياح رأيتها تحرك وربما وضع تحتها الحجارة فطحنتها لشدة حركتها وكانت هذه الاسطوانة احدى عجائب الدنيا وقد زعم قوم أنها مما عمله الجن لسليمان ابن داود عليهما السلام كما هي عادتهم في نسبة كل ما يستعظمون عمله الى أنه من صنيع الجن وليس كذلك بل كانت مما عمله القدماء من أهل مصر * وكان في وسطه قبة ومن حولها أساطين وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض كأحسن ما أنت راء من الصنائع * ويقال ان بعض ملوك مصر دخل الاسكندرية فأعجبه هذا القصر وأراد أن يبنى مثله فجمع الصناع والمهندسين ليقيموا له قصرا عظيما على هيئته فما منهم الا من اعترف بعجزه عن مثله الا شيخا منهم فانه التزم أن يصنع مثله فسر الملك ذلك وأذن له في طلب ما يحتاج اليه من المؤن والآلات والرجال فقال أئتوني بثورين مطيقين وعجلة كبيرة فللحال أتي بذلك فمضى الى المقابر القديمة وحفر منها قبرا أخرج منه جمجمة عظيمة رفعها عدة من الرجال على العجلة فما جرها الثوران مع قوتهما الا بعد جهد وعناء فلما وقف بها بين يدى الملك قال أصلح الله سيدنا أن أتيتني بقوم رؤسهم مثل هذا الرأس عملت لك مثل هذا القصر فتيقن الملك عند ذلك عجز أهل زمانه عن اقامة مثل ذلك القصر * وقد ذكر أنه كان بالاسكندرية ضرس انسان عند قصاب يزن به اللحم زنته ثمانية أرطال * ويقال ان عمود السوارى الموجود الآن خارج مدينة الاسكندرية أحد سبعة أعمدة أتي بأحدها البتون بن مرة العادى وهو يحمله تحت ابطه من جبل بريم الاحمر قبلى اسوان الى الاسكندرية فانكسر ضلعه لانه كان ضعيف القوى في قومه فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد وقال ليتني فديته بنصف ملكى وجاء بعمود آخر جحدر بن سنان الثمودى وكان قويا فحمله من اسوان تحت ابطه وجاء بقية رجالهم كل رجل بعمود فأقام العمد السبعة الجارود بن قطن المؤتفكى وكان بناؤها بعد أن اختاروا لها طالعا سعيدا كما هي عادتهم فى عامة أعمالهم وقد ذكر غير واحد أن الصخور في القديم من الدهر كانت تلين فعمل منها اعمدة ناعط ومارب وبينون ومآثر اليمن وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر وأن كل شيء كان يتكلم قال أمية بن أبي الصلت

واذهم لابوس لهم عراة * واذصخر السلام لهم رطاب

وقال قوم عمود السوارى من جملة أعمدة كانت تحمل رواقا يقال له بيت الحكمة وذلك حيث انتهت علوم أهل الغرب الى خمس فرق وهم أصحاب الرواق هذا وأصحاب الاسطوانة وكانوا ببعلبك وأصحاب المظال وهم بانطاكية وأصحاب البرابي وكانوا بصعيد مصر والمشاؤون وكانوا بمقدونية وكأني بمن قل علمه ينكر على ايراد هذا الفصل ويراه من قبيل المحال ومما وضعه القصاص ويجزم بكذبه فلا يوحشنك حكايتي له واسمع قول الله تعالى عن عاد قوم هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة أى طولا وعظم جسم قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم وقيل على خلق قوم نوح وقال وهب بن منبه كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع وكذلك مناخرهم وروى شهر بن حوشب عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال ان كان الرجل من قوم عاد ليحمل المصراعين لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الامة لم يطيقوه وان كان أحدهم ليغمز بقدمه الارض فيدخل فيها وروى عبد الله بن لهيعة عن يزيد بن عمرو المعافرى عن ابن بجرة قال استظل سبعون رجلا من قوم موسى عليه السلام في قحف رجل من العماليق وعن زيد بن أسلم بلغني أن الضبعة وأولادها ربين في حجاج عين رجل من العماليق وقال تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها في البلاد قال المبرد وقولها يعنى الخنساء رفيع العماد انما تريد الطول يقال رجل معمد يريد طويلا ومنه قوله تعالى ارم ذات العماد أى الطوال وقال البغوي سموا ذات العماد لانهم كانوا أهل عمد سيارة وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي ورواية عطاء عن ابن عباس وقال بعضهم سموا ذات العماد لطول قاماتهم قال ابن عباس يعنى طولهم مثل العماد قال مقاتل كان طول أحدهم اثنى عشر ذراعا وفى كشاف الزمخشرى لم يخلق مثلها مثل عاد في البلاد عظم أجرام وقوة كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحي فيهلكهم وقد ذكر غير واحد أنه وجد فى خلافة المقتدر بالله أبى الفضل جعفر ابن المعتضد كنز بمصر فيه ضلع انسان طوله أربعة عشر شبرا في عرض ثلاثة أشبار * واعلم أن أعين بني آدم ضيقة وقد نشأت نفوسهم فى محل صغير فاذا حدث القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو مبلغ أجسامهم مما ليس له عندهم أصل يقيسونه عليه الا مايشاهدونه أو يألفونه عجلوا الى الارتياب فيه وسارعوا الى الشك في الخبر عنه الا من كان معه علم وفهم فانه يفحص عما يبلغه من ذلك حتى يجد دليلا على قبوله أورده وكيف يرد مثل هذه الاخبار وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خلق الله آدم طوله ستون ذراعا في السماء

ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن وذكر محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي في كتاب تحفة الالباب قال نقل الشعبي في كتاب سير الملوك أن الضحاك بن علوان لما هرب منه لام بن عامر الى ناحية الشمال أرسل في طلبه أميرين مع كل أمير طائفة من الجبارين خرج أحدهما قاصدا الى بلغار والآخر الى باشقرد فأقام أولئك الجبارون في أرض بلغار وفي باشقرد قال الاقليشي وقد رأيت صورهم في باشقرد ورأيت قبورهم بها فكان مما رأيته ثنية أحدهم طولها أربعة أشبار وعرضها شبران وقد كان عندي في باشقرد نصف أصل الثنية أخرجت لي من فكه الاسفل فكان عرضها شبرا ووزنها ألف مثقال ومائتا مثقال أنا وزنتها بيدي وهي الآن في داري في باشقرد وكان دورفك ذلك العادي سبعة عشر ذراعا وفي بيت بعض أصحابي في باشقرد عضد أحدهم طوله ثمانية وعشرون ذراعا وأضلاعه كل ضلع عرضه ثلاثة أشبار وأكثر كاللوح الرخام وأخرج الى نصف رسغ يد أحدهم فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدي جميعا قال ولقد رأيت في بلد بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل العاديين رجلا طوالا كان طوله أكثر من سبعة أذرع وكان يسمي دنقي وكان يأخذ الفرس تحت أبطه كما يأخذ الانسان الطفل الصغير وكان اذا وقع القتال بتلك الناحية يقاتل بشجرة من شجر البلوط يمسكها كالعصا في يده لو ضرب بها الفيل قتله وكان خيرا متواضعا كلما التقاني سلم علي ورحب بي وأكرمني وكان رأسي لا يصل الى حقوه وكان له أخت على طوله رأيتها في بلغار مرارا عدة قال لي القاضي يعقوب بن النعمان يعني قاضي بلغار ان هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان من أقوى أهل بلغار ضمته الى صدرها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته قال ولم يكن في بلغار حمام تسعهم الا حمام واحدة واسعة الابواب انتهى * وقد حدثني الحافظ أبو عبدالله محمد بن احمد بن محمد الفريابي عن أبيه أنه شاهد قبرا احتفر بمدينة قرطاجنة من أفريقية فاذا جثة رجل قدر عظم رأسه كثورين عظيمين ووجد معه لوح مكتوب بالقلم المسند وهو قلم عاد وحروفه مقطعة مانصه أنا كوش بن كنعان ابن الملوك من آل عاد ملكت بهذه الارض ألف مدينة وبنيت بها على ألف بكر وركبت من الخيل العتاق سبعة آلاف حمر وصفر وشهب وبيض ودهم ثم لم يغن عني ذلك شيأ وجاءني صائح فصاح بي صيحة أخرجتني من الدنيا فمن كان عاقلا ممن جاء بعدي فليعتبر بي وأنشد

يا واقفا يرعى السهى * برسم وربع قد وهى
قف واستمع ثم اعتبر * ان كنت من أهل النهى
بالامس كنا فوقها * واليوم صرنا تحتها
لكل حد غاية * لكل أمر منتهى

قال فأمر السلطان أبو بكر بن يحيي الحفصي صاحب تونس بطمه فطم القبر قال مؤلفه رحمه الله تعالى وأنا أدركت شيأ من ذلك وهو أنه ترافع في بعض الايام طائفة من الحجارين الى السلطان الملك الظاهر برقوق أعوام بضع وتسعين وسبعمائة وقد اختلفوا على مال وجدوه بجبل المقطم وهو أنهم كانوا يقطعون الحجارة من مغار فيما يلى قلعة الجبل من بحريها فانكشف لهم حجر أسود عليه كتابة فاجتمعوا على قطع ماين يدى هذا الحجر طمعا في وجود مال فانتهي بهم القطع الى عمود عظيم قائم في قلب الجبل فلعجلتهم أقبلوا بمعاولهم عليه حتى تكسر قطعا فاذا هو مجوف وانسان قائم على قدميه بطوله وتناثر لهم من جهة رأسه دنانير كثيرة فاقتسموها وتنافسوا في قسمتها واختلفوا حتي اشتهر أمرهم وترافعوا الى السلطان فبعث من كشف المغار فوجد الحجر والعمود وقد تكسر فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير ولم يجد من يعرف ماقد كتب على الحجر وتسامع الناس بالخبر فاقبلوا الى المغار وعبثوا برمة الميت فأخبرنى من شاهد سنا من أسنان هذا الميت أنها سوداء بقدر الباذنجانة وان عظم ساقه فيما بين قدمه الى ركبته خمسة أذرع فيجيء هذا من حساب طوله عشرين ذراعا وأزيد ودماغ سن واحدة من أسنانه فى قدر الباز نجانه ماهو الا كالقبة الكبيرة وأخبرني السيد الشريف قاضي القضاة بدمشق شهاب الدين أحمد بن على بن ابراهيم الحسيني المعروف بابن عدنان وبابن أبي الجن أنه وقف في سنة أربع عشرة وثمانمائة بمقبرة باب الصغير من دمشق على قبر ليدفن فيه ميت لهم فلما تهيأ القبر ولم يبق الا أن يدلى فيه الميت انخسف وخرج من الخسف ذباب كثير كبار زرق الالوان حتي كادت تظلهم فنزل الحفار فى الخسف فاذا قبر طوله اثنان وعشرون ذراعا وفيه بطوله ميت قدصار كالرماد وأخبرني أيضا انه شاهد بهذه المقبرة ضرس انسان وله ثلاث شعب وقد سقطت منه قطعة وهو فى قدر البطيخة وانه وزن بحضرته فبلغ رطلين وتسع أواقى بالرطل الشامي وان القطعة التى انكسرت منه نحو اوقيتين بالشامي فيكون على هذا زنة هذا الضرس نحو اثنى عشر رطلا بالمصرى والله تعالى أعلم

ذكر طرف مما قيل في الاسكندرية

قال أبو عمرو الكندى أجمع الناس أنه ليس في الدنيا مدينة على ثلاث طبقات غير الاسكندرية ولما دخل عبد العزيز بن مروان الاسكندرية سأل رجلا من علماء الروم عنها وعن عدد أهلها فقال والله أيها الامير ما أدرك علم هذا أحد من الملوك والذى أخبرك كم كان فيها من اليهود فان ملك الروم أمر باحصائهم فكانوا ستمائة الف قال فما هذا الخراب الذى فى أطرافها قال بلغني عن بعض ملوك فارس حين ملكوا مصر أنه أمر بفرض دينار على كل محتلم لعمران الاسكندرية فأتاه كبراء أهلها وعلماؤهم وقالوا أيها الملك لاتتعب فان

الاسكندرية أقام الاسكندر على بنائها ثلثمائة سنة وعمرت ثلثمائة سنة وانها لخراب منذ ثلثمائة سنة ولقد أقام أهلها سبعين سنة لا يمشون فيها نهارا الا بخرق سود فى أيديهم خوفا على أبصارهم من شدة بياضها * ومن فضائلها ما قاله بعض المفسرين من أهل العلم انها المدينة التى وصفها الله عز وجل في كتابه العزيز فقال ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وقال احمد بن صالح قال لى سفيان بن عيينة يامصرى أين تسكن قلت أسكن الفسطاط فقال أتأتي الاسكندرية قلت نعم قال تلك كنانة الله يجعل فيها خيار سهامه * وقال عبد الله بن مرزوق الصدفي لما نعي لى ابن عمي خالد بن يزيد وكان قد توفي بالاسكندرية لقيني موسي بن على بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد متفرقين كلهم يقول أليس مات بالاسكندرية فأقول نعم فيقولون هو حي عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ماقامت الدنيا وله أجر شهيد حتي يحشر على ذلك وقال الذين ينظرون فى الاهوية والبلدان وترتب الاقاليم والامصار أنه لم تطل أعمار الناس في بلد من البلدان طولها بمربوط من كورة الاسكندرية ووادي فرغانة وقال الحسن بن صفوان وأما الاسكندرية وتنيس وأمثالهما فقربهما من البحر وسكون الحرارة والبرد عندهم وظهور ريح الصبا فيهم مما يصلح أمرهم ويرق طباعهم ويرفع هممهم وليس يعرض لهم مايعرض لاهل اليشمون من غلظ الطبع والحمارية وقد وصف أهل الاسكندرية بالبخل قال جلال الدين بن مكرم بن أبي الحسن بن أحمد الخزرجي ملك الحفاظ

نزيل سكندرية ليس يقرى * بغير الماء أونعت السوارى
ويتحف حين يكرم بالهواء الـ * ـملاتن والاشارة للمنار
وذكر البحر والامواج فيه * ووصف مراكب الروم الكبار
فلا يطمع نزيلهم بخبز * فما فيها لذاك الحرف قاري

وقال احمد بن جرداديه من الفسطاط الى ذوات الساحل أربعة وعشرون ميلا ثم الى مربوط ثلاثون ميلا ثم الى كوم شريك ثلاثون ميلا ثم الى كريون أربعة وعشرون ميلا ثم الى الاسكندرية أربعة وعشرون ميلا وقال آخر وطريق الاسكندرية اذا انصب ماء النيل يأخذ بين المدائن والضياع وذلك اذا أخذت من شطنوف الى سبك العبيد فهو منزل فيه منية لطيفة وبينهما اثنا عشر سقسا ومن سبك الى مدينة منوف وهى كبيرة فيها حمامات وأسواق وبها قوم فيهم يسار ووجوه من الناس وبينهما ستة عشر سقسا ومن منوف الى محلة صرد وفيها منبر وحمام وفنادق وسوق صالح ستة عشر سقسا ومن محلة صرد الى سخا وهي مدينة كبيرة ذات حمامات وأسواق وعمل واسع وأقليم جليل له عامل بعسكر اوجند وبه الكتان الكثير وزيت الفجل وقموح عظيمة ستة عشر سقسا ومن سخا لى شبركميه وهي مدينة كبيرة بها جامع وأسواق ستة عشر سقسا ومن شبركميه الى مسير

وهي مدينة بها جامع وأسواق ستة عشر سقسا ومن مسير الى سنهور وهي مدينة ذات أقليم كبير وبها حمامات وأسواق وعمل كبير ستة عشر سقسا ومن سنهور الى النخوم وهي أقليم وبها حمامات وفنادق وأسواق ستة عشر سقسا ومن النخوم الى نسترو وكانت مدينة عظيمة حسنة على بحيرة اليشمون عشرون سقسا ومن نسترو الى البرلس وهي مدينة كثيرة الصيد في البحيرة وبها حمامات عشر سقسات ومن البرلس الى أخنا وهي حصن على شط بحر الملح عشر سقسات ومن أخنا الى رشيد وهي مدينة على النيل ومنها يصب النيل في البحر من فوهة تعرف بالاشتوم وهي المدخل ثلاثون سقسا وكان بها أسواق صالحة وحمام وبها نخيل وضريبة على مايحمل من الاسكندرية * وهذا الطريق الآخذ من شطنوف الى رشيد ربما امتنع سلوكه عند زيادة النيل والثياب المنسوجة بالاسكندرية لانظير لها وتحمل الى أقطار الارض وفي ثياب الاسكندرية مايباع السكتان منه اذا عمل ثيابا يقال لها الشرب كل زنة درهم بدرهم فضة وما يدخل في الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة

ذكر فتح الاسكندرية

قال أبو عمرو السكندي لما حاز المسلمون الحصن بما فيه أجمع عمرو على المسير الى الاسكندرية فسار اليها في ربيع الاول سنة عشرين وقال غيره بل سار في جمادى الآخرة منها * وذكر سيف بن عمر أن عمرو بن العاص بعث الى الاسكندرية وهو على عين شمس عوف بن مالك فنزل عليها وبعث يقول لاهلها ان شئتم أن تنزلوا فلكم الامان فقالوا نعم فراسلهم وتربصوا أهل عين شمس وسار المسلمون من بين ذلك * وقال ابن عبد الحكم ويقال ان المقوقس انما صالح عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية حاصر أهلها ثلاثة أشهر وألح عليهم فخافوه وسأله المقوقس الصلح عنهم كما صالحه على القبط على أن يستنظر رأى الملك فحدثنا يزيد بن أبي حبيب أن المقوقس الرومى الذي كان ملكا على مصر صالح عمرو بن العاص على أن يسير من أراد من الروم المسير ويقر من أراد من الروم على أمر قد سماه فبلغ ذلك هرقل ملك الروم فسخط أشد السخط وأنكر أشد الانكار وبعث الجيوش فأغلقوا أبواب الاسكندرية وآذنوا عمرا بالحرب فخرج اليه المقوقس فقال أسألك ثلاثا قال ما هن قال لاتبذل للروم ما بذلت لي فاني قد نصحت لهم فاستغشوني ولا تنقض القبط فان النقض لم يأت من قبلهم وأن تأمر بي اذا مت فادفني في بحنس فقال عمرو هذه أهونهن علينا قال فخرج عمرو بالمسلمين حين أمكنهم الخروج وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والاسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت وقدمت عليهم مراكب من أرض الروم فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح فخرج اليهم عمرو من الفسطاط متوجها الى الاسكندرية فلم

ير منهم أحدا حتى بلغ مربوط فلقى فيها طائفة من الروم فقاتلهم قتالا خفيفا فهزمهم الله ومضى عمرو بمن معه حتى لقى جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا ثلاثة أيام ثم فتح الله على المسلمين وولي الروم أكتافهم * ويقال بل أرسل عمرو بن العاص شريك بن سمى في آثارهم فأدركهم عند الكوم الذي يقال له كوم شريك فهزمهم وكان على مقدمة عمرو وعمرو بمربوط فالجأوه الى الكوم فاعتصم به وأحاطت به الروم فلما رأى ذلك شريك بن سمى أمر بانا عمة مالك بن ناعمة الصدفي وهو صاحب الفرس الاشقر الذى يقال له أشقر صدف وكان لا يجارى سرعة فانحط عليهم من الكوم وطلبته الروم فلم تدركه حتى أتى عمرا فأخبره فأقبل عمرو متوجها وسمعت به الروم فانصرفت ثم التقوا بسلطيس فاقتتلوا قتالا شديدا ثم هزمهم الله تعالى ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو فأصابت عبد الله بن عمرو جراحات كثيرة فقال ياوردان لو تقهقرت قليلا نصيب الروح فقال وردان الروح تريد الروح امامك وليس خلفك فتقدم عبد الله فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال

أقول لها اذا جشأت وجاشت * رويدك تحمدى أو تستريحي

وهذا البيت لعمرو بن الاطنابة وهو أن رجلا من بني النجار كان مجاور المعاذ بن النعمان فقتل فقال معاذ لأقتلن به الا عمرو بن الاطنابة وهو يومئذ أشرف الخزرج فقال عمرو

ألا من مبلغ الاكفاء عني * وقد تهدى النصيحة للنصيح
بأنكم وما تزجون شطرى * من القول المرغى والصريح
سيقدم بعضكم عجلا عليه * وما أثر اللسان الى الجروح
أبت لي عفتي وأبى بلائى * وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وأعطائى على المكروه مالي * واقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت * مكانك تحمدى أو تستريحي
لادفع عن مآثر صالحات * وأحمي بعد عن عرض صحيح
بذى شطب كلون الملح صاف * ونفس لم تقر على القبيح

الشطب سعف النخل الاخضر الواحدة شطبة وجشأت ارتفعت من حزن أو فزع وجاشت دارت للغثيان وقيل هما بمعنى ارتفع والمشيح البارد المنكمش * فرجع الرسول الى عمرو فأخبره بما قال فقال عمرو هو ابني حقا وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف ثم فتح الله للمسلمين وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة فأقاموا شهرين ثم تحول فخرجت عليه خيل

من ناحية البحيرة مستترة بالحصن فواقعوه فقتل يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلا ورسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية في المراكب بمادة الروم وكان ملك الروم يقول لئن ظهرت العرب على الاسكندرية ففى ذلك انقطاع الروم وهلاكهم لانه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية وانما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالاسكندرية فقال الملك لئن غلبونا على الاسكندرية هلكت الروم وانقطع ملكها فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه الى الاسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه فلما فرغ من جهازه صرعه الله عز وجل فأماته وكفى المسلمين مؤنته وكان موته في سنة تسع عشرة فكسر الله بموته شوكة الروم فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه* وقال الليث مات هرقل في سنة عشرين وفيها فتحت قيسارية الشام قال واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية فقاتلوهم قتالا شديدا وخرج طرف من الروم من باب حصن الاسكندرية فحملوا على الناس فقتلوا رجلا من مهرة واحتزوا رأسه ومضوا به فجعل المهريون يتغضبون ويقولون لا ندفنه الا برأسه فقال عمرو تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالي بغضبكم احملوا على القوم اذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلا ثم ارموا برأسه يرمونكم برأس صاحبكم فخرجت الروم اليهم فاقتتلوا فقتل من الروم رجل من بطارقهم فاحتزوا رأسه ورموا به الروم فرمت الروم برأس المهرى اليهم فقال دونكم الآن فادفنوا صاحبكم* وكان عمرو يقول ثلاث قبائل من مصر أما مهرة فقوم يقتلون ولا يقتلون وأما غافق فقوم يقتلون ولا يقتلون وأما بلى فأكثرها رجلا صحب النبي صلى الله عليه وسلم وأفضلها فارسا وقال رجل لعمرو لو جعلت المنجنيق ورميتهم به لهدم حائطهم فقال عمرو تستطيع أن يفني مقامك من الصف وقيل له ان العدو قد غشوك ونحن نخاف على رابطة يريدون امرأته فقال اذا يتخذوا أرياطا كثيرة* ولما استحر القتال بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد فصرعه الرومي وألقاه عن فرسه وهوى اليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه وكان مسلمة لا يقاوم ولكنها مقادير ففرحت بذلك الروم وشق على المسلمين وغضب عمرو بن العاص لذلك وكان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن فقال عمرو عند ذلك مابال الرجل الستة الذى يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال ويتشبه بهم فغضب من ذلك مسلمة ولم يراجعه ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الاسكندرية فقاتلهم العرب فى الحصن ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعا من الحصن الا أربعة نفر تفرقوا في الحصن وأغلقوا عليهم باب الحصن أحدهم عمرو بن العاص والآخر مسلمة ولم نحفظ الآخرين وحالوا بينهم وبين أصحابهم ولا يدرى الروم من هم فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه التجأوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فاحترزوا به فأمروا روميا أن يكلمهم بالعربية فقال لهم انكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم فامتنعوا عليه ثم قال لهم ان فى ايدي أصحابكم منا رجالا أسروهم

ونحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم فأبوا عليه فلما رأى ذلك الرومى منهم قال لهم هل لكم الى خصلة وهي نصف فان غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم وان غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم الى أصحابكم فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه وعمرو ومسلمة وصاحباها في الحصن فى الديماس فتداعوا الى البراز فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدته وقالوا يبرز رجل منكم اصاحبنا فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال ماهذا تخطئ مرتين تشذ من أصحابك وأنت أمير وانما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لايدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك مكانك وأنا أكفيك ان شاء الله تعالى فقال عمرو دونك فربما فرجها الله بك فبرز مسلمة للرومي فتجاولا ساعة ثم أعانه الله عليه فقتله فكبر مسلمة وأصحابه ووفي لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا يدرى الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك وأكلوا أيديهم تغيظا على ما فاتهم فلما خرجوا استحيا عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب فقال عمرو عند ذلك استغفر لي ما كنت قلت لك فاستغفر له وقال عمرو ما أفحشت قط الاثلاث مرار مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة وما منهن مرة الا وقد ندمت وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت لك ووالله اني لارجو أن لا أعود الى الرابعة مابقيت قال وأقام عمرو محاصر الاسكندرية أشهرا فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ما أبطؤا بالفتح الالما أحدثوا وكتب الى عمرو بن العاص أما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر انكم تقاتلونهم منذ سنين وماذاك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم فان الله تبارك وتعالى لاينصر قوما الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقاوم ألف رجل على ما كنت أعرف الا أن يكونوا غيرهم ماغير غيرهم فاذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الاربعة فى صدور الناس ومر الناس جميعاً أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم فلما أتى عمرو ابن العاص رضى الله عنه الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر رضي الله عنه ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا الى الله تعالى ويسألوه النصر ففعلوا ففتح الله عليهم * ويقال ان عمرو بن العاص استشار مسلمة فقال أشر علىّ في قتال هؤلاء فقال له مسلمة أرى أن تنظر الى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعقد له على الناس فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيكه فقال عمرو من ذلك قال عبادة بن الصامت فدعاه عمرو فأتاه وهو راكب على

فرسه فلما دنا منه أراد النزول فقال له عمرو عزمت عليك ان نزلت ناولنى سنان رمحك فناوله اياه فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له وولاه قتال الروم فتقدم عبادة مكانه فصادف الروم وقاتلهم ففتح الله على يديه الاسكندرية من يومهم ذلك وكان حصار الاسكندرية بعد موت هرقل تسعة أشهر وخمسة أشهر قبل ذلك وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين وقال أبو عمرو الكندى وحاصر عمرو الاسكندرية ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة وهو الفتح الاول ويقال بل فتحها عمرو لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين * قال القضاعي عن الليث أقام عمرو بالاسكندرية في حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها داراً في ذى القعدة * وقال ابن عبد الحكم فلما هزم الله تعالى الروم وفتح الاسكندرية هرب الروم فى البر والبحر تخلف عمرو بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر فرجع من كان هرب من الروم في البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرا فكر راجعا ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان الله قد فتح علينا الاسكندرية بغير عقد ولا عهد فكتب اليه عمر رضى الله عنه يقبح رأيه ويأمره أن لا يجاوزها قال ابن لهيعة وهو فتح الاسكندرية الثانى وكان سبب فتحها هذا أن رجلا يقال له ابن بسامة كان بوابا فسأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو وقتل من المسلمين من حين كان من أمر الاسكندرية ما كان الى أن فتحت اثنان وعشرون رجلا وبعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافدا الى عمر بن الخطاب بشيرا له بالفتح فقال له معاوية ألا تكتب معى فقال له عمرو وما أصنع بالكتاب ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت * فلما قدم على عمر أخبره بفتح الاسكندرية فخر عمر ساجدا وقال الحمد لله وقال معاوية بن خديج بعثنى عمرو بن العاص الى عمر رضى الله عنه بفتح الاسكندرية فقدمت المدينة في الظهيرة فأنخت راحلتي بباب المسجد ثم دخلت المسجد فبينا أنا قاعد فيه اذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرأتني شاحبا على ثياب السفر فأتتني وقالت من أنت فقلت أنا معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص فانصرفت عنى ثم أقبلت تشد أسمع حفيف أزارها على ساقها حتى دنت مني ثم قالت قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك فتبعتها فلما دخلت فاذا بعمر يتناول رداءه باحدى يديه ويشد ازاره بالاخرى فقال ما عندك فقلت خير يا أمير المؤمنين فتح الله الاسكندرية فخرج معى الى المسجد فقال للمؤذن أذن في الناس الصلاة جامعة فاجتمع الناس ثم قال لي قم فأخبر أصحابك فقمت فأخبرتهم ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس فقال يا جارية هل من طعام فأتت بخبز وزيت فقال كل فأكلت حياء ثم

قال كل فان المسافر يحب الطعام فلو كنت آكلا لا كلت معك فأبيت على حياء ثم قال ياجارية هل من تمر فأتت بتمر في طبق فقال كل فأكلت على حياء ثم قال ماذا قلت يامعاوية حين أتيت المسجد قال قلت أمير المؤمنين قائل قال بئس ما قلت أو بئس ما ظننت لئن نمت النهار لاضيعن الرعية ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية * ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك الى عمر بن الخطاب أما بعد فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك وعن أبي قبيل أن عمرا لما فتح الاسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الاخضر وترحل من الاسكندرية فى الليلة التي دخلها عمرو وفى الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو سبعون ألف يهودى * وكان بالاسكندرية فيما أحصى من الحمامات اثنا عشر ألف ديماس أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس كل مجلس يسع جماعة نفر وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتي ألف رجل فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ماقدروا عليه من المال والمتاع والاهل وبقى من بقى من الأسارى من بلغ الخراج فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو في قسمها فكان أكثر الناس يريدون قسمها فقال عمر ولا أقدر على قسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها فكتب اليه عمر لاتقسمها وذرها يكون خراجها فيأ للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين على كل رجل لايزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الارض والزرع الا الاسكندرية فانهم كانوا يؤدّون الخراج والجزية على قدر مايرى من وليهم لانّ الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة * وقد كانت قرى من قرى مصر قاتلت فسبوا منها قرية يقال لها بلهيب وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس فوقع سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب الى قراهم وصيرهم وجماعة القبط اهل ذمة * وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرا سبى أهل بلهيب وسلطيس وقرطيا وسخا فتفرقوا وبلغ أولهم المدينة حين نقضوا ثم كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بردهم فرد من وجد منهم وفى رواية ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب فى اهل سلطيس خاصة من كان منهم فى أيديكم فخيروه بين الاسلام فان أسلم فهو من المسلمين له مالهم وعليه ماعليهم وان اختار دينه فخلوا بينه وبين قريته فكان البلهيى خير يومئذ فاختار الاسلام * وفي رواية أن أهل سلطيس وصا وبلهيب ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم

المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو الى عمر بن الخطاب بذلك فكتب اليه عمر أن تجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين وتضرب عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئا ولا عبيدا ففعل ذلك * ويقال انما ردهم عمر رضي الله عنه لعهد كان تقدم لهم وقال ابن لهيعة جبي عمرو جزية الاسكندرية ستمائة ألف دينار لانه وجد ثلثمائة ألف من أهل الذمة فقدر عليهم دينارين دينارين فبلغت ذلك وقيل كانت جزية الاسكندرية ثمانية عشر ألف دينار فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك بلغت ستة وثلاثين ألف دينار ويقال ان عمرو بن العاص استبقى أهل الاسكندرية فلم يقتل ولم يسب بل جعلهم ذمة كاهل النوبة

ذكر ما كان من فعل المسلمين بالاسكندرية وانتقاض الروم

قال ابن عبدالحكم فأما الاسكندرية فلم يكن بها خطط وانما كانت أخائذ من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنو ابيه وان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص فقال معاوية بن خديج ننزل فنزل عمرو القصر ونزل أبوذر منزلا كان غربي المصلى الذى عند مسجد عمرو مما يلي البحر وقد انهدم ونزل معاوية بن خديج فوق التل وضرب عبادة بن الصامت خباء فلم يزل فيه حتى خرج من الاسكندرية ويقال ان أبا الدرداء كان معه والله أعلم قال فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو ابن العاص من أصحابه لرباط الاسكندرية ربع الناس وربعا في السواحل والنصف مقيمون معه وكان يصير بالاسكندرية خاصة الربع في الصيف بقدر ستة أشهر ويعقب بعدهم شاتية ستة أشهر وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه واتخذوا فيه أخائذ * وعن يزيد بن أبي حبيب أن المسلمين لما سكنوا الاسكندرية فى رباطهم ثم قفلوا ثم غزوا ابتدروا فكان الرجل منهم يأتي المنزل الذى كان فيه صاحبه قبل ذلك فيبتدره فيسكنه فلما غزوا قال عمرو اني اخاف أن تخربوا المنازل اذا كنتم تتعاورونها فلما كان عند الكريون قال لهم سيروا على بركة الله فمن ركز منكم رمحه في دار فهى له ولبني بنيه فكان الرجل يدخل الدر فيركز رمحه في منزل منها ثم يأتي الآخر فيركز رمحه في بعض بيوت الدار فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث وكانوا يسكنونها حتي اذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها وكان يزيد بن أبي حبيب يقول لايحل من كرائها شيء ولا بيعها ولا يورث منها شيء انما كانت لهم يسكنوها في رباطهم * وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جري النيل فكتب عمر الى عمرو اني

لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفا فتحول عمرو بن العاص الى الفسطاط قال وكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية أن لاتجعلوا بيني وبينكم ماء متى ما أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت فتحول سعد بن أبي وقاص من مدائن كسري الى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط وكان عمر بن الخطاب يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية وكان على الولاء لا يغفلها ويكنف مرابطها ولا يأمن الروم عليها * وكتب عثمان رضى الله عنه الى عبد الله ابن سعد بن أبى سرح قدعلمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية وقد نقضت الروم مرتين فالزم الاسكندرية مرابطيها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر قال وكانت الاسكندرية انتقضت وجاءت الروم عليهم منويل الخصى فى المراكب حتي أرسوا بالاسكندرية فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث وقد كان عثمان رضي الله عنه عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فلما نزلت الروم سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتي يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل وكان على الاسكندرية سورها فحلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتي يكون مثل بيت الزانية يؤتي من كل مكان فخرج اليهم عمرو في البر والبحر فضموا الى المقوقس من أطاعه من القبط وأما الروم فلم يطعه منهم أحد فقال خارجة بن حذافة لعمرو ناهضهم قبل أن يكثر مددهم فلا آمن أن تنقض مصر كلها فقال عمرو لا ولكن أدعهم حتى يسيروا الي فانهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينتهبون ما مروا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نفيوس فلقوهم في البر والبحر فبدأت الروم القبط فرموا بالنشاب فى الماء رميا شديدا حتى أصابت النشاب يومئذ فرس عمرو في لبته وهو في البر فعقر فنزل عنه عمرو ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر فنفحوا المسلمين بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيأ وحملوا على المسلمين حملة ولي المسلمون منها وانهزم شريك بن سمى في خيله وكانت الروم قد جعلت صفوفا خلف صفوف وبرز يومئذ بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب فدعا الى البراز فبرز اليه رجل من زبيد يقال له حومل يكنى أبا مذحج فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف فألقى حومل رمحه وأخذ سيفه وكان يعرف بالنجدة فجعل عمرو يصيح أبا مذحج فيجيبه لبيك

والناس على شاطئ النيل فى البر على تعبيتهم وصفوفهم فتجاولا ساعة بالسيف ثم حمل عليه
البطريق فاحتمله وكان نحيفا فاخترط حومل خنجرا كان في منطقته أو في ذراعه فضرب
به نحر العلج أو ترقوته فأثبته ووقع عليه فاخـذ سلبه ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمه
الله فرؤى عمرو يحمل سريره بين عمودى نعشه حتي دفنه بالمقطم ثم شد المسلمون عليهم
فكانت هزيمتهم فطلبهم المسلمون حتي ألحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل
الخصى وقتلهم عمرو حتى أمعن في مدينتهم فكلم فى ذلك فأمر برفع السيف عنهم وبنى في
ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا وهو المسجد الذى بالاسكندرية الذى يقال
له مسجد الرحمة سمى بذلك لرفع عمرو السيف هناك وهدم سورها كله وجمع ما أصاب
منهم فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض فقالوا قدكنا على صلحنا وقدمر علينا هؤلاء
اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع
عرفوه وأقاموا عليه البينة وقال بعضهم لعمرو ماحل لك ماصنعت بنا كان لنا أن تقاتل عنـا
لانا في ذمتك ولم ننقض فأما من نقض فأبـعـده الله فنـدم عمرو وقال ياليتني كنت لقيتهم
حين خرجوا من الاسكندرية وكان سبب نقض الاسكندرية هذا أن ظلما صاحب اخنا
قدم على عمرو فقال أخبرنا ماعلي أحدنا من الجزية فيصبر لها فقال عمرو وهو يشير الى ركن
كنيسة لو اعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا
عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم فغضب صاحب اخنا وخرج الى الروم فقدم بهم فهزمهم
الله تعالى وأسر فأتي به الى عمرو فقال له الناس اقتله فقال لا بل انطلق فجئنا بجيش آخر
وسوره وتوجه وكساه برنس أرجوان فرضى باداء الجزية فقيل له لو أتيت ملك الروم فقال
لو أتيته لقتلنى وقال قتلت أصحابى وعن أبى قبيل أن عتبة بن أبى سفيان عقد لعلقمة القطيفى
على الاسكندرية وبعث معه اثنى عشر ألفا فكتب علقمة الى معاوية بن أبي سفيان يشكو
عتبة حين غرر به وبمن معـه فكتب اليه معاوية انى قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل
الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة فكان في الاسكندرية سبعة وعشرون الفا وفى رواية
أن علقمة بن يزيد كان على الاسكندرية ومعه اثنى عشر الفا فكتب الى معاوية انك خلفتنى
بالاسكندرية وليس معي الا اثنا عشر الفا مايكاد بعضنا يرى بعضا من القلة فكتب اليه معاوية
اني قد أمددتك بعبدالله بن مطيع في أربعة آلاف من أهل المدينة وأمرت معن بن يزيد السلمي
أن يكون بالرملة في اربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم متي بلغهم عنك فزع يعبروا اليك قال
ابن لهيعة وقد كان عمرو بن العاص يقول ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة *وكان عمرو حين
توجه الى الاسكندرية خرب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان * واختلف علينـا
السبب الذى خربت له فحدثنـا سعيد بن عفير أن عمرا لما توجه الى نفيوس لقتال الروم

عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه اهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره فوجدوه في بعض دورهم فأمر باخرابها واخراجهم منها وقيل كان اهل الخربة رهبانا كلهم فغدروا بقوم من ساقة عمرو فقتلوهم بعد ان بلغ عمرو الكريون فأقام عمرو ووجه اليهم وردان فقتلهم وخربها فهي خراب الى اليوم وقيل كان أهل الخربة أهل تويت وخبت فارسل عمرو الى أرضهم فأخذ له منها جراب فيه تراب من ترابها فكلمهم فلم يجيبوه الى شيء فامر باخراجهم ثم أمر بالتراب ففرش تحت مصلاه ثم قعد عليه ثم دعاهم فكلمهم فأجابوه الى ما أحب ثم أمر بالتراب فرفع ثم دعاهم فلم يجيبوه الى شيء فعل ذلك مرارا فلما رأى عمرو ذلك قال هذه بلدة لايصلح أن توطأ فأمر باخرابها فلما هزم الله الروم أراد عثمان رضى الله عنه أن يكون عمرو بن العاص على الحرب وعبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو انا اذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها فأبي عمرو وكان فتح عمرو هذا عنوة قسرا في خلافة عثمان سنة خمس وعشرين وبينه وبين الفتح الاول أربع سنين وقال الليث كان فتح الاسكندرية الاول سنة اثنتين وعشرين وكان فتحها الآخر سنة خمس وعشرين وأقامت الجيش (٣) من السماء يقاتلون الناس سبع سنين بعد أن فتحت مصر مما يفتحون عليهم من تلك المياه والغياض قال ثم غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح ذا الصوارى فى سنة أربع وثلاثين وكان من حديث هذه الغزوة ان عبد الله بن سعد لما نزل ذو الصواري أنزل نصف الناس مع بسر بن ارطاة فى البر فلما مضوا أتي آت الى عبد الله بن سعد فقال ما كنت فاعلا حين ينزل بك ابن هرقل فى ألف مركب فافعله الساعة وكانت مراكب المسلمين مائتي مركب ونيفا فقام عبد الله ابن سعد بين ظهراني الناس فقال بلغني ان ابن هرقل قد أقبل اليكم في ألف مركب فأشيروا علىّ فما كلمه رجل من المسلمين فجلس قليلا لترجع اليهم أفئدتهم ثم قام الثانية فكلمهم فما كلمه أحد فجلس ثم قام الثالثة فقال انه لم يبق شيء فأشيروا علىّ فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال أيها الامير ان الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين فقال عبد الله اركبوا فركبوا وانما في كل مركب نصف شحنته لانه قد خرج النصف الآخر الى البر مع بسر فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف اليه بالاخبار فقال مافعلوا قالوا قد اقتتلوا بالنبل والنشاب فقال غلبت الروم ثم أتوه فقال مافعلوا قالوا قد نفد النبل

(٣) قوله وأقامت الخ هكذا فى الاصول التي بيدي وانظر مامعني هذه العبارة فانها لاتخلو عن سقط أو تحريف فاحش وكذا قوله قبلها باسطر أهل تويت وخبت فانه بعد المراجعة لم يفهم له معني ولعله محرف عن برنة وجبت ومعناها الحذاقة بالامر والسحر وحرر اه

والنشاب فهم يرمون بالحجارة فقال غلبت الروم ثم أتوه فقال ما فعلوا قالوا قد نفدت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف قال غلبت الروم وكانت السفن اذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال قال فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الامير بمركب من مراكب العدو فكان مركب العدو يجتر مركب عبد الله اليهم فقام علقمة بن يزيد القطيفي وكان مع عبد الله بن سعد في المركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها فسأل عبد الله امرأته بعد ذلك بسيسة ابنة حمزة بن يشرح وكانت مع عبد الله يومئذ وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب من رأيت أشد قتالا قالت علقمة صاحب السلسلة وكان عبد الله قد خطب بسيسة الى أبيها فقال له ان علقمة قد خطبها وله على فيها رأى فان تركها أفعل فكلم عبد الله علقمة فتركها فتزوجها عبد الله بن سعد ثم هلك عنها عبدالله فتزوجها بعده علقمة بن يزيد ثم هلك عنها علقمة فتزوجها بعده كريب بن أبرهة وماتت تحته وقيل مشت الروم الى قسطنطين بن هرقل في سنة خمس وثلاثين فقالوا أنترك الاسكندرية فى أيدى العرب وهي مدينتنا الكبرى فقال ما أصنع بكم ما تقدرون أن تماسكوا ساعة اذا لقيتم العرب قالوا اخرج على أنا نموت فتبايعوا على ذلك فخرج في ألف مركب يريد الاسكندرية فسار فى أيام غالبة الرياح فبعث الله عليهم ريحا فغرقتهم الا قسطنطين فانه نجا بمركبه فألقته الريح بصقلية فسألوه عن أمره فأخبرهم فقالوا شتت النصرانية وأفنيت رجالها لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم فقال خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا فصنعوا له الحمام ودخلوا عليه فقال ويلكم يذهب رجالكم وتقتلون ملككم قالوا كأنه غرق معهم ثم قتلوه وخلوا من كان معه في المركب قال أبو عمرو الكندى وانما سميت غزوة ذى الصوارى لكثرة صواري المراكب واجتماعها

ذكر بحيرة الاسكندرية

قال ابن عبد الحكم كانت بحيرة الاسكندرية كروما كلها لامرأة المقوقس فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم فكثر الخمر عليها حتى ضاقت به ذرعا فقالت لاحاجة لى في الخمر أعطوني دنانير فقالوا ليس عندنا فأرسلت اليهم الماء فغرقتها فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان حتى استخرجها الخلفاء من بنى العباس فسدوا جسورها وزرعوها ثم صارت بحيرة طولها اقلاع يوم فى عرض يوم ويصير اليها الماء من اشتوم في البحر الرومي ويخرج منها الى بحيرة دونها في خليج عليه مدينتان احداها الحدبة والاخري اتكو وهى كثيرة المقاثي والنخل وكلها في الرمل ويصب فى هذه البحيرة خليج من النيل يسمى الحافر طوله نصف يوم اقلاعا وهو كثير الطير والسمك والعشب وكان السمك بوجود هذه البحيرة فى الاسكندرية غاية فى الكثرة يباع بأقل القيم وأبخس الاثمان ثم انقطع الماء عن هذه البحيرة منذ

ذكر خليج الاسكندرية

يقال ان كلوباطرة الملكة هى التي ساقت خليج الاسكندرية حتى أدخلته اليها ولم يكن يبلغها الماء فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية وباطت قاعه بالرخام من أوله الى آخره ولم يزل يوجد ذلك فيه وقال أبو الحسن المخزومي فى كتاب المنهاج أما خليج الاسكندرية فانه من فوهة الخليج الى ترعة بودرة ليس على شئ منها سد بومنحرج محلة بتوك أسينة اورين محلة فرنو محلة حسن منية طراد وتعرف بالقاعة محلتا نصر ومسروق فأما ترعة لقانة فانها تفتح بعد سبعة أيام من توت والترعة الجديدة تفتح فى السادس عشر من توت وترعة بودره تفتح بعد سبعة أيام من توت وترعة بو يحيي وترعة بو السحما وترعة القهوقية ليس على شئ من ذلك سد وترعة الشراك تفتح بعد سبعة ايام من توت وترعة بوخراشة وترعة البربيط يشرب منها ديسو وسمخراط وشيرنوبه ومنية حمادوسنادة وبعض محلة ماريةوترعة فيشة بلخا تفتح فى ثاني عشر توت وجرت العادة أن تفتح فى النوروز ترعة بويط ومقطع سمديسة يفتح فى الثاني والعشرين من توت ومقطع ياطس يفتح فى تاسع عشر توت ولما سد المقطع المذكور عملت بعد ذلك ترعة تروى الصفقة القبلية منها فتفتح فى يوم النوروز ولما استحدثت ترعة افلاقة وخرجت فى أرض ياطس جرت العادة اذا رويت الصفقة القبلية من افلاقة تطلق الترعة المذكورة على القسم البحري من ياطس الى أن يروى وترعة القارورة محدثة وترعة بفوها تفتح في ثانى عشر توت وترعة افلاقة تفتح في عاشر توت وترعة اسكنيدة تفتح في سادس توت * تراع بحر دمنهور تفتح في العشرين من مسرى الى سادس توت ويروي منها بعض طاموس وبعض كنيسة الغيط وبعض قرطسا ودمنهور * ترعة القواديس منها تشرب شبرا النخلة وكوم التلول وتراع شبرا النخلة تفتح على أعاليها من أول توت وترعة بسطرى تفتح فى خامس عشر مسري وترعة مسيد تفتح فى ثامن توت وترعة سنتوية تفتح فى ثامن عشر توت وبحر دمشوية يفتح في العشرين من مسرى ومنه تشرب منية رزقون وسفط كرداسة ودمشوية ومحلة الشيخ ومصيل وترعة دمشوية تفتح في تاسع توت ويقيم الماء عليها سبعة عشر يوما وتفتح الى محلة الشيخ ومصيل يقيم الماء عليها ثلاثين يوما ويسد بعد ذلك على دمشوية سبعة أيام وعلى سفط ومنية رزقون ترعة برسيق كانت تفتح في أول توت * محلة برسيق ليس عليها سد * محلة الكروم تفتح في ثامن توت ومنها تشرب عدة أماكن وهى محلة الكروم وكفورها وهى دنيسة وكوم الولائد وكوم الصخرة وديرامس والصفاصف وما يخرج عن كفورها وهي تلمساوالجلمون من حقوق محلة كيل ومنها تشرب الجهة الغربية * شبرا باريس عليها سد وترعة قافلة كانت تفتح في ثامن توت وليس عليها الآن سد وترعة بلقطر وكفورها كانت تفتح في

تاسع توت وليس عليها الآن سد * ترعة الراهب ليس عليها سد وترعة دسونس المقاريضي تسقى الحلفاية وتفتح في ثامن توت وكذلك ترعة مرحنا والملعقية وترعة نيلامة وبيشاى وآخر تراع الحجيجة وترعة الكريون تفتح في ثامن توت وترعة السلقون كانت تفتح في سادس توت وليس عليها الآن سد وترعة أرمياخ تفتح في ثانى عشر توت وترعة أبلوق تفتح في سادس توت وأما جون رمسيس فان بحر رمسيس كان يضرب السد فيه على تراع رمسيس من أول النيل الى سابع عشر توت والذى يشرب من السد المذكور من النواحي والكفور رمسيس ومحلة جعفر وفليشان وبعض أبنية البعيدى وبعض خربتا وبعض البلكوس وبعض بولين وبعض محلة وافد والبيضاء وبعض طيلاس ثم يفتح سد دكدولة وهو محدث يقيم الماء عليه عشرة أيام وتشرب منه دكدولة ومحلة معن ومنية أسامي وبعض صيفية ثم يقطع سد الفطامى وهو محدث ومنه يشرب بعض جنبوية وبليانة البحرية والسرة وأبو حمار والبهوط ثم يقطع سد رسونس وأبو دينار وترعة طبرينة فيشرب منه دنسال وطاموس يقيم الماء عليها ستة أيام ومنه تشرب منية عطية وسلطيس * وأما بحر دمنهور فانه يسد على سلطيس الى سابع عشر توت ومنه تشرب سلطيس وزهرا وبعض طابوس وبعض قرطسا وبعض كنيسة الغيط ودمنهور ثم يقطع سد ندبة وهو محدث فيقيم ثمانية أيام ومنه تشرب ندبة ودقرس والعميرية والنسرين ثم يفتح ويسد على محلة خفض ومحلة كيل ومحلة نمير ثم يقطع سد سلطيس وهو محدث فيقيم عشرة أيام بعد اختلاط الماء ببحر دمنهور ورمسيس ثم يقطع جسر ملولة ومنه تشرب تروجة وأرسيس والمراسى وغابة الاعساس وبعض سمرو ومحلة نمير ويبقى هناك الى انقضاء النيل * وأما ترعة طبرينة فهي محدثة واذا رويت طبرينة تطلق على دسونس أم دينار ثم تقطع على طاموس بمقدار ريها ثم تطلق فى النيل العالى على أرض قراقس ويطلق الماء على قرطسا وكنيسة الغيط وخليج الطبرينة اذا خرج الماء منه يسقى منه في أول النيل الى أن يضرب جسر شبرا وسيم فيسقى منه شبرا وسيم وبعض البلكوس وحفيرة الزعفرانى وبعض بولين ومسجد غانم والصواف وكوم شريك ومنية مغيين وتل الفطامى ومحلة وافد ثم يقطع جسر دليجة ومنه يشرب بعض خربتا وبعض فليشان وبعض بولين والبيضاء ودنست وتلبانة الابراج وتل بقاوالحدين واليهودية والذموم وأبو صمادة والحصن وقلاوة بني عبيد وطوخ دخاية ودرشا وسقرا ودليجة ولحة وطية ثم يقطع على منية وزراقة الحجر والمحزون وبعض حيارس وافريم وأبو سمار وأم الضروع * خليج ابن زلوم ويعرف بخليج ابن ظلوم وسد مخرج التعيدي لا يفتح الى عشرة أيام من توت ومنه يشرب شابور وكنيسة مبارك وبعض سرسيقة وبعض دموشة ومنية يزيد وحوض الماصلي وحصة سلمون وبعض سنيت وبعض التعيدي وبعض فليشان ثم يفتح فيشرب منه أمليط وبعض انباى وبعض

كنيسة عبد الملك وبعض أرمنية وميسنا وبعض محلة عبيد وسفط خالد وبرنامة وشبرا نوبة وكيمان شراس وبعض دمشوه وتقام الحراس على جسر سفط ويشرب من خليج الاسكندرية وما يفيض منه أهل الباطن وأهل البحيرة في نحاج وأودية فيكون ذلك الماء صلة وهم قبيل من دنانة والرحانة وبنى يزان وقبائل البربر ويزرعون عليه فيستوفى منهم الخراج وبين مشارق الفرما من ناحية جوجير وفاقوس وبين آخر مايشرب من خليج الاسكندرية مسيرة شهر كان عامراً كله في محلول ومعقود الى مابعد الخمسين وثلثمائة من سني الهجرة وقد خرب معظم ذلك * وقال أبو بكر الطرطوسي عمن حدثه من مشايخ البحر انه قال شاهدت الاسكندرية والصيد في الخليج مطلق للرعية والسمك فيه يطفو الماء به كثرة حتى تصيده الاطفال بالخرق ثم حجره الوالي ومنع الناس من صيده فذهب حتى كاد لايرى فيه الا الواحدة بعد الواحدة الى يومنا هذا * وقال أبو عمرو الكندى في كتاب الموالي عن الحارث بن مسكين انه تقلد قضاء مصر من قبل أمير المؤمنين الواثق بالله في سنة تسع وثلاثين ومائتين فذكر سيرته وقال وحفر خليج الاسكندرية وورد الكتاب بصرفه في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين * وقال جامع السيرة الطولونية وفي ربيع الاول سنة تسع وخمسين ومائتين أمر أحمد بن طولون بحفر خليج الاسكندرية * وقال المسعودى وقد كان النيل انقطع عن بلاد الاسكندرية قبل سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وقد كان الاسكندر بني الاسكندرية على هذا الخليج من النيل وكان عليها معظم ماء النيل فكان يسقى الاسكندرية وبلاد مريوط وكانت بلاد مريوط في نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة وكانت السفن تجرى في النيل وتتصل باسواق الاسكندرية وقد بلط أرض خليجها في المدينة بالاحجار والمرمر وانقطع الماء عنها العوارض سدت خليجها ومنعت الناس دخوله فصار شربهم من الآبار وصار النيل على يوم منهم * وذكر المسيحي أن الحاكم بأمر الله أبا منصور بن العزيز أطلق لحفر خليج الاسكندرية في سنة أربع وأربعمائة خمسة عشر ألف دينار لحفر كله وفي سنة اثنتين وستين وستمائة بعث الملك الظاهر بيبرس الامير عليا أمير جاندار لحفر خليج الاسكندرية وقد امتلأت فوهته بالطين وقل الماء في الاسكندرية فابتدأ بالحفر من التعيدي وأنشأ هناك مسجداً وتولى مباشرة هذا الحفر المعلم تعاسيف ناظر الدواوين ثم بعث السلطان في سنة أربع وستين وستمائة لحفر هذا الخليج الامير علم الدين سنجر المسروري ثم سار بعامة الامراء والاجناد وباشر الحفر بنفسه وعمل فيه الامراء وجميع الناس الى أن زالت الرمال التي كانت على الساحل بين التعيدى وفم الخليج ثم عدى الى بارنبار وغرق مراكب هناك وبني عليها بالحجارة فلما تم الغرض عاد الى قلعة الجبل ثم تعطل استمرار جريان الماء فيه بطول السنة وصار يحفر سريعا بعد شهرين أو نحوهما من دخول الماء اليه واحتاج أهل

الاسكندرية فى طول السنة الى الشرب من الصهاريج التي يخزن فيها الماء الى أن كانت سنة عشر وسبعمائة فقدم الامير بدر الدين بكتوت الخزنداری المعروف بأمير شكار متولي الاسكندرية الى قلعة الجبل وحسن للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون حفره وذكر له مافي ذلك من المنافع أولها حمل الغلال وأصناف المتجر الى الاسكندرية في المراكب وفي ذلك توفير للكلف وزيادة فى مال الديوان وثانيها عمارة ماعلى حافتي الخليج من الاراضى بانشاء الضياع والسواقي فينمو الخراج بهذا نموا كثيرا وثالثها انتفاع الناس به في عمارة بساتينهم وشرب مائه دائما فأعجب السلطان ذلك وندب الامير بدر الدين محمد بن كندعدى ابن الوزيرى مع بكتوت لعمله وتقدم الى جميع أمراء الدولة باخراج مباشريهم لاحضار رجال النواحي الجاريه في اقطاعاتهم للعمل للحفير وكتب لولاة الاعمال بالوقوف في العمل فاجتمع من النواحى نحو الاربعين ألف رجل جمعت في نحو العشرين يوما ووقع العمل في شهر رجب من السنة المذكورة وأفرد لكل أهل ناحية قطعة يحفرونها حتى كمل فجاء قياس الحفر من فم بحر النيل الى ناحية شنبار ثمانية آلاف قصبة حاكمية ومن شنبار الى الاسكندرية مثلها وكان الخليج الاصلي يدخل الماء اليه من حد شنبار فجعل فم هذا البحر يرمى عليه وعمل عمقه ست قصبات في عرض ثماني قصبات فلما انتهوا الى حد الخليج الاول حفر أيضا على نظير الخليج المستجد فصارا بحرا واحدا وركبت عليه السدود والقناطر ووجد في الخليج الاول عند حفره من الرصاص المبني تحت الصهاريج شيء كثير جدا فلم يتعرض السلطان لشيء منه وأنعم به على الامير بكتوت وعظمت المشقة في حفر هذا الخليج فان الذى تجاوز البحر منه غلب عليه الماء فصارت الرجال تغطس فيه وترفع الطين من أسفله ثم كثر الماء فركبت السواقي حتى نزحته الاآن عظيم النفع به سهل جميع ذلك فان السفن جرت فيه طول السنة واستغنى أهل الاسكندرية عن شرب ماء الصهاريج وبادر الناس للعمارة على جانبي الخليج فلم يمض غير قليل حتى استجد عليه مايزيد على مائة ألف فدان زرعت بعد ما كانت سباخا وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسمسم وفوق الاربعين ضيعة وأزيد من ألف غيط بالاسكندرية وعمرت منه عدة بلاد كثيرة وتحول عالم عظيم الى سكنى ما استجد عليه * وفيه ولما فرغ العمل في الخليج شرع الامير بكتوت في عمل جسر من ماله فان الناس كانوا فى وقت هيجان البحر يجدون مشقة عظيمة لغلبة الماء على أراضى السباخ فأقام ثلاثة أشهر حتى بني رصيفا دك أساسه بالحجر والرصاص وأعلاه بالحجر والكلس وعمل فيه ثلاثين قنطرة وأنشأ خانا ينزله الناس ورتب فيه الخفراء ووقف على مصالحه وزقة فبلغ مصروفه نحو الستين ألف دينار مصرية سوى ما أخذ من الحجارة التي بعضها من قصر قديم كان خارج الاسكندريه وسوى ماوجده من الرصاص في سرب بأسفل هذا

القصر ينتهى بمن يمشى فيه الى قريب البحر وسوى ما أنعم به عليه من الرصاص الموجود بالخليج ولم يزل الخليج فيه الماء طول السنة الى مابعد سنة سبعين وسبعمائة فانقطع الماء منه وصار الماء لايدخل اليه الا فى أيام زيادة ماء النيل فقط ثم يجف عند نقصه فتلف من أجل هذا أكثر بساتين الاسكندرية وخربت وتلاشى كثير من القرى التي كانت على هذا الخليج * وسبب انقطاع الماء عنه غلبة الروم على الاشتوم الذي كان يعبر منه ماء بحر الملح الى بحيرة الاسكندرية حتى جفت وصار الرمل تلقيه الرياح في الخليج فانطم فمه وعلا قاعه وقصد من أدركناه من ملوك مصر حفر هذا الخليج غير مرة فلم يتهيأ ذلك الى أن كانت سلطنة الملك الأشرف برسباى فندب لحفره الامير جرباش الكريمي المعروف بعاشق فتوجه اليه وجمع له من قدر عليه من رجال النواحي فبلغت عدتهم ثمانمائة وخمسة وسبعين رجلا ابتدؤا في حفره من حادى عشر جمادى الاولى سنة ست وعشرين وثمانمائة الى حادى عشر شعبان لتمام تسعين يوما فانتهى عملهم ومشي الماء في الخليج حتى انتهى الى حده من مدينة الاسكندرية وجرت فيه السفن فسرّ الناس به سرورا كبيرا وجبى ما أنفق على العمال في الحفر من أرباب النواحي التي على الخليج ومن أرباب البساتين بالاسكندرية ولم يكن في حفره كبير شناعة مما جرت به عادة الولاة في مثل ذلك ولله الحمد وعندما انتهى قدم الامير جرباش الى قلعة الجبل فخلع السلطان عليه وشكره ثم عمله حاجب الحجاب فلم يستمر ذلك الا قليلا حتى انطم بالرمل وتعذر سلوك الخليج بالمراكب الا في أيام النيل فقط

ذكر جمل حوادث الاسكندرية

وفى سنة تسع وتسعين ومائة عظمت الحروب بديار مصر بين المطلب بن عبد الله الخزاعي أمير مصر وبين عبد العزيز ابن الوزير الجروي الثائر بتنيس فعقد المطلب على الاسكندرية لمحمد بن هبيرة بن هاشم بن خديج فاستخلف محمد خاله عمر بن عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج الذى يقال له عمر بن ملاك ثم عزله المطلب بعد ثلاثة أشهر بأخيه الفضل بن عبد الله بن مالك وكانت بالاسكندرية مراكب الاندلسيين قد قفلوا من غزوهم وكان سبب قدوم هذه المراكب ماجرى لاهل قرطبة بوقعة الربض مع الحكم بن هشام في سنة اثنتين وثمانين ومائة فأخرج جماعة منهم فوصلوا الى ثغر الاسكندرية زيادة على عشرة آلاف وكان سبب ثورتهم أن قصابا من الاسكندرية رمى وجه رجل منهم بكرش فأنفوا من ذلك وصاروا الى ماصاروا اليه وذلك لما نزلوا رمل الاسكندرية ليبتاعوا مايصلحهم وكذلك كانوا على الزمان وكانت الامراء لاتبيحهم دخول الاسكندرية انما كان الناس يخرجون اليهم فيبايعونهم فلما عزل عمر بن ملاك كتب اليه عبد العزيز الجروى يأمره بالوثوب على الاسكندرية والدعاء له بها فبعث عمر بن ملاك الى الاندلسيين فدعاهم الى القيام معه في اخراج

الفضل عنها فساروا معه وأخرج الفضل ودعا للجروى فوثب أهل الاسكندرية على الاندلسيين وأخرجوهم وردوا الفضل وقتل من الاندلسيين نفر وانهزم الباقون الى مراكبهم فعزل المطلب أخاه وولي عليها اسحاق بن أبرهة بن الصباح في شهر رمضان سنة تسع وتسعين ثم عزله بأبي ذكر بن جنادة المعافرى فلما اقتتل السرى بن الحكم هو والمطلب بن عبد الله وغلب السرى على مصر وثب عمر بن ملاك على أبي ذكر وأخرجه من الاسكندرية ودعا للجروي وأقبل الاندلسيون اليه فأفسدوا فأمرهم بالخروج الى مراكبهم فشق ذلك عليهم وظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان فى أموره فترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي فصاروا مع الاندلسيين يدا واحدة واعتضدوا بلخم وكانت لخم أعز من في ناحية الاسكندرية فخوصم أبو عبد الرحمن الصوفي الى عمر بن ملاك فى امرأة فقضى على أبي عبد الرحمن فوجد في نفسه من ذلك وخرج الى الاندلسيين فألف بينهم وبين لخم ورجا أهل الاندلس أن يدركوا ثارا من عمر ابن ملاك فساروا الى عمر بن ملاك وهم زهاء عشرة آلاف فحصروه في قصره وخشى أن القصر لايمنعه منهم وخاف أن يدخلوا عليه عنوة فيفضح في حرمه فاغتسل وتحنط وتكفن وأمر أهله أن يدلوه اليهم فدلى فأخذته السيوف فقتل ثم ولي أخوه محمد بن عبد الله الذى يلقب جيوس فقتل ثم ولي عليهم عبد الله البطال ابن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج فقتل ثم ولي عليهم أخوه أبو هبيرة الحارث فقتل ثم ولي عليهم خديج ابن عبدالواحد فقتل وانصرف القوم وذلك في ذى القعدة ثم فسد مابين لخم والاندلسيين عند مقتل ابن ملاك واقتتلوا فانهزمت لخم فظفر الاندلسيون بالاسكندرية فى ذى الحجة فولوها أبا عبدالرحمن الصوفي فبلغ من الفساد والنهب والقتل مالم يسمع بمثله فعزله الاندلسيون وولوا رجلا منهم يعرف بالكناني ثم حاربت بنو مدلج الاندلسيين فظفر بهم الاندلسيون ونفروهم عن البلاد فلم يقدر بنو مدلج على الرجوع الى أرض الاسكندرية حتى طلب السرى من الاندلسيين أن يردوهم فأذنوا لهم حينئذ ورجعوا وكان أبو قبيل يقول أنا على الاسكندرية من أربعين مركبا مسلمين وليسوا بمسلمين تأتى فى آخر الصيف أخوف مني عليها من الروم فيقال له ماهذه الاربعون مركبا فى هذا الخلق لو كانت نيرانا تضطرم فيقول اسكت ويلك منها وممن فيها يكون خراب الاسكندرية وما حولها وبلغ عبد العزيز الجروي قتل ابن ملاك فسار في خمسين ألفا حتى نزل على حصن الاسكندرية وحصرها حتى أجهد من فيها فبلغه أن السرى بن الحكم بعث الى تنيس بعثا فكر راجعا في المحرم سنة احدى ومائتين فدعا الاندلسيون للسرى ثم لما خلع أهل مصر المأمون ودعوا لابراهيم بن المهدي وقام الجروي بذلك سار الى الاسكندرية وحصر الاندلسيين حتى دخلها صلحا ودعى له

له بها ثم سار عنها الى الفسطاط فحارب السرى وقتل ابنه ثم انصرف فسار الاندلسيون يعامل الجروى وأخرجوه من الاسكندرية وخلعوا الجروى ودعوا للسرى فسار اليهم الجروى فى شهر رمضان سنة ثلاث ومائتين فعارضته القبط بسخا وأمدتهم بنو مدلج وهم في نحو من مائتي ألف فهزمهم وبعث بجيوشه الى الاسكندرية فحاصروها وكانت بين السرى وبين أهل الصعيد حروب ثم ان الجروى سار الى الاسكندرية سيره الرابع وحاصرها ونصب عليها المجانيق سبعة أشهر من أول شعبان سنة أربع ومائتين الى سلخ صفر سنة خمس فأصاب الجروى فلقة من حجر منجنيقه فمات سلخ صفر سنة خمس ومائتين وقام من بعده ابنه على فلم تزل الفتن بالاندلسيين في الاسكندرية متصلة الى أن قدم عبد الله بن طاهر الى مصر من قبل أمير المؤمنين المأمون وأخرج عبيد الله بن السرى من مصر وسار الى الاسكندرية فى قواد العجم من أهل خراسان مستهل صفر سنة اثنى عشرة ومائتين فحاصرها بضع عشرة ليلة حتى خرج اليه أهلها بأمان وصالحه الاندلسيون على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا على أن لا يخرجوا في مراكبهم أحدا من أهل مصر ولا عبدا ولا آبقا فان فعلوا فقد حلت له دماؤهم ونكث عهدهم وتوجهوا فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم فوجدوا فيها جمعا من الذين اشترط عليهم أن لا يخرجوهم فأمر باحراق مراكبهم فسألوه أن يردهم الى شرطهم ففعل وساروا الى جزيرة اقريطش وملكوها وكان الامير معهم أبو حفص عمر بن عيسى ثم ملكها ولده من بعده وعمرها الاندلسيون الى أن غزاها الروم سنة خمس وأربعين وثلثمائة وملكها بعد حصار طويل وولي على الاسكندرية الياس بن أسد ابن سامان ورجع الى الفسطاط فى جمادى الآخرة ثم سار الى العراق ولما انتقض أسفل الارض في جمادي الاولى سنة ست عشرة ومائتين وحاربهم الافشين ومعه عيسى بن منصور الرافقى أمير مصر وبعث عبد الله بن يزيد بن مزيد الشيباني الى الغربية فانهزم الى الاسكندرية واستجاشت عليه بنو مدلج وحصروه في شوال فسار الأفشين وأوقع بمن في طريقه حتى قدم الاسكندرية فى جنوده فلقيته طائفة من بنى مدلج فهزمهم مرتين وأسر منهم وقتل ودخل الاسكندرية لعشر بقين من ذى الحجة ففر منه رؤساؤها وكان عليها معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج فأصلح أمرها ثم خرج الى أهل البشرود فامتنعوا عليه حتى قدم المأمون الى مصر فسار الى البشرود والافشين قد أوقع بالقبط بها كما تقدم ذكره * ولما ولي ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الاغلب أفريقية في سنة احدى وستين ومائتين حسنت سيرته فكانت القوافل والتجار تسير في الطرق وهى آمنة وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبتة الى الاسكندرية فيصل الخبر منها الى الاسكندرية في ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر * وفي

سـنة اثنتين وثلثمائة دخـل حباسة فى جيوش أفريقية الى الاسكندرية في المحرم ومعه مائة ألف أو زيادة عليها وقدمت الجيـوش من المشرق مدد التكين أمير مصر وسار حباسة من الاسكندرية ونودى بالنفير فى الفسطاط لعشر بقين من جمادى الآخرة فلم يتخلف عن الخروج الى الجيزة أحد من الخاصة والعامة الامن عجز عن الحركة لمرض أو عذر وأتاهم حباسة فلقوه وهزموه ثم دار عليهم فقتل من أهل مصر نحوا من عشرة آلاف ونهض حباسة الى أفريقية وأقاموا بمصر مضطربين فاقبل مونس الخادم من العراق فى رمضان بجيوش كثيرة نصرف تكين فى ذي القعدة وولي ذكاء الاعور فى صفر سنة ثلاث وثلثمائة فخرج فى جيوشه الى الاسكندرية وتتبع كل من يوما اليـه بمكاتبة صاحب أفريقية فسجن منهم وقتل كثيرا وجلا أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية في شوال سنة أربع وثلثمائة خوفا من صاحب برقة * وفي سـنة سبع وثلثمائة سارت مقدمة المهـدى عبيد الله من أفريقيـة مع ابنه أبي القاسم الى لوبية فهرب أهل الاسكندرية وجلوا عنها وخرج منها مظفر بن ذكاء الاعور فى جيشه ودخلت اليها العسا كر يوم الجمعة لثمان خلون من صفر وفر أهل القوة من الفسطاط الى الشام فخرج ذكاء أمير مصر الى الجيزة وعسكر بها ثم مرض ومات على مصافه بالجيزة فى ربيع الاول فولى تكين بعد ولايته الثانية من قبل المقتدر ونزل الجيزة وأقبلت مراكب صاحب أفريقية الى الاسكندرية عليها سليمان الخادم فقـدم ثمل الخادم صاحب مراكب طرسوس فالتقيا برشيد فى شوال فاقتتلا فبعث الله ريحا على مراكب سليمان ألقتها الى البر فتكسر أكثرها وأخذ من فيها أخذا باليد وقتل أكثرهم وأسر من بقى وسيقوا الى الفسطاط فقتل منهم نحو سبعمائة رجل وسار أبو القاسم بن المهدي من الاسكندرية الى الفيوم وملك جزيرة الاشمونين والفيـوم وأزال عنها جنـد مصر فمضى ثمل الخادم فى مراكبه الى الاسكندرية فقاتل من بها من أهل أفريقية فظفر بهم ونقل أهل الاسكندرية الى رشـيد وعاد الى الفسطاط ومضى فى مراكبه الى اللاهون ولحقته العسا كر فدخلوا الى الفيوم فى صفر سـنة سبع وثلثمائة فخرج أبو القاسم بن المهدى الى برقة ولم يكن بينهما قتال ورجعت العسا كر الى الفسطاط وما زالت الاسكندرية وأعمالها فى اضطراب الى أن قدمت جيوش المعز لدين الله مع القائد جوهر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فملكتها وما برحت الى أن قام بها نزار بن المستنصر وكان من أمره ماقد ذكر عند ذكر خزائن القصر * وفى سـنة ثنتى عشرة وستمائة اجتمع بالاسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج وقدمت بطسة الى الميناء فيها من ملوك الفرنج ملكان فهموا أن يثوروا ويقتلوا أهل البلد ويملكوها فتوجه الملك العادل أبو بكر بن أيوب اليها وقبض على التجار المذكورين وعلى من بالبطسة واستصفى أموالهم وسجنهم وسجن الملكين وجرت خطوب حتى أطلق السلطان نساءهم وعاد الي القاهرة *

وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة بنى الملك الصالح طلائع بن رزيك على بلبيس حصنا من لبن * وفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة كانت وقعة البابين بين الوزير شاور وأسد الدين شيركوه فانهزم عسكر شيركوه ومضى منهم طائفة الي الاسكندرية ثم كانت لشيركوه على شاور فانهزم منه الي القاهرة ومضى شيركوه الي الاسكندرية فخرج اليه أهل الثغر وفيهم نجم الدين محمد بن مصال والى الثغر وقاضيه الاشرف بن الحباب وناظره القاضي الرشيد بن الزبير وسروا بقدومه وسلموه المدينة ثم سار منها يريد بلاد الصعيد واستخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الثغر في ألف فارس فنزل عليه شاور ومعه مرى ملك الفرنج فقام معه أهل الثغر واستعدوا لقتال شاور فكان ما أخرجوه أربعة وعشرين ألف فرس فوعدهم شاور أن يضع عنهم المكوس والواجبات ويعطيهم الخمس اذا سلموه صلاح الدين فأبوا ذلك وألحوا في قتاله فحصرهم حتى قل الطعام عندهم فتوجه اليهم شيركوه وقد حشد من العربان جموعا كثيرة فبعث اليه شاور وبذل له خمسة آلاف دينار على أن يرجع الى الشام فأجابه الى ذلك وفتحت المدينة وخرج صلاح الدين الى مري ملك الفرنج وجلس معه فما زال به شاور أن يسلمه صلاح الدين فلم يوافقه بل سيره الى عمه شيركوه من البحر على عكا بمن معه الى دمشق ودخل شاور الى الاسكندرية فى سابع عشر شوال فاستتر ابن مصال وفر الى الشام وقبض على ابن الحباب وعوقب حتي فداه أهله بمال جزيل ولم يقدر على ابن الزبير وخرج الى رشيد هذا وقد امتنع الفقيه أبو الطاهر بن عوف وجماعة كثيرة بالمنار فوقف عليهم شاور فقال له ابن عوف اعذرنا يا أمير الجيوش وسامحنا بما فعلناه فعفا عنهم وولى القاضى الاشرف أبا القاسم عبد الرحمن بن منصور بن نجا ناظراً على الاموال وخرج معه مرى ملك الفرنج الى القاهرة ثم توجه مرى الى بلاده * وفي سنة احدى وسبعين وستمائة ورد الخبر بحركة الفرنج الى ثغور مصر فاهتم الملك الظاهر بيبرس بامر الشواني ونصب على أسوار الاسكندرية نحو مائة منجنيق * وفي يوم الخميس خامس شهر رجب سنة سبع وعشرين خرج بعض تجار الفرنج الي ظاهر باب البحر حيث تجتمع العامة للفرجة وتعرض الي صبي أمرد يراوده عن نفسه فأنكر ذلك بعض من هناك من المسلمين وقال هذا ما يحل فأخذ الفرنجي خفا كان بيده وضرب به على وجهه فصاح بالناس فأتوه فقام الفرنج مع صاحبهم واتسع الخرق الى أن ركب متولى الثغر وأغلق أبواب المدينة وطلب من أثار الفتنة ففروا وعاد الى داره وترك الابواب مغلقة وكان بظاهر المدينة خلق كثير قد توجهوا على عادتهم في حوائجهم فحيل بينهم وبين بيوتهم وجاء الليل وهم قيام على الابواب يضجون ويصيحون فمضى أعيان البلد الى المتولى وما زالوا به حتي فتح لهم فدخلوا مبادرين وهم يزدحمون فمات منهم زيادة على عشرة أنفس وتلفت أعضاء جماعة وذهب من عمائم الناس ومناديلهم وغير ذلك شئ

كثير وعظم البكاء والصراخ طول الليل فلما كان من الغد ركب الوالى لكشف أحوال الناس فتكاثروا عليه ورجموه فانهزم منهم الى داره فتبعوه وقاتلوه فقاتلهم من أعلى الدار حتى سفكت بينهما دماء كثيرة وأحرقوا بابه ونهبوا دورا بجانبه فكتب يستنجد والى دمنهور ومن حوله من العربان فأتوه واحتاطوا بالمدينة وسرح الطائر الى السلطان بخروج أهل الاسكندرية عن الطاعة فاشتد غضبه وخشى من اطلاقهم الامراء المسجونين وبعث الى القضاة فجمعهم واستفتاهم في قتالهم فكتبوا بما يجب وخرج اليهم الوزير مغلطاي الجمالى وطوغان شاد الدواوين وأيدمر أمير جندار وعدة من المماليك السلطانية وناظر الخاص ومع الوزير تذكرة باراقة دماء أهل الفساد ومصادرة جماعة وأخذ أموال أهل البلد والقبض على الاسلحة المعدة بها للغزاة وامساك القاضي والشهود وحمل الامراء المسجونين الى القاهرة فساروا في عاشره وقدموا الثغر بعد ثلاثة أيام ونزل الوزير بالخيس وفرض على الناس خمسمائة ألف دينار مصرية وأحضر قاضى القضاة عماد الدين ونائبه في الحديد وأنكر عليهما كونهما شهرا النداء في البلد بالغزاة في سبيل الله فأنكرا وقوع هذا منهما وأنهما لم يكن في قدرتهما رد السواد الاعظم فضرب نائبه ابن الشيبى ضربا مبرحا والزمه بحمل ستمائة ألف درهم وألزم القاضى بخمسمائة ألف درهم وكان قد رسم بشنقه فتلطف في مكاتبة السلطان واعتذر عنه وبرأه حتى عفا عنه وتتبع العامة فوسط منهم ثلاثين رجلا في يوم الجمعة ثالث عشره فتسارع الناس الى دورهم من الخوف فذهبت عدة عمائم واشتد الخوف مدة عشرين يوما وكتب السلطان تتوالى بالايقاع بأهل الثغر وأخذ أموالهم والوزير يحسن في الجواب الى أن جهز الامراء المسجونين وسار من الثغر وقد استعرض ما به من السلاح فوجد ستة آلاف عدة كاملة جعلها جميعها في قاعة وختم عليها وبلغت الجباية من الناس ما ينيف على مائتين وستين ألف دينار فكانت هذه من المحن العظيمة والحوادث الشنيعة ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر مدينة أتريب

هذه المدينة بناها أتريب بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام قال ابن وصيف شاه وكان أتريب قد انتقل الى حيزه بعد موت أبيه قبطيم وهى المدينة التى كان أبوه بناها له وكان طولها اثني عشر ميلا ولها اثنا عشر باباً وجعل في شارعها الاعظم ثلاث قباب عالية على أعمدة بعضها فوق بعض منها قبة في وسط المدينة وقبتان في طرفيها وجعل على كل قبة مرقبا كبيرا وفي كل ناحية منها ملعبا ومجالس ومنتزهات تشرق وشق في غربيها نهرا وعقد عليه قناطر وجعل من فوقها مجالس متصلة وحولها المنازل تدور بالخليج متصلة بالقناطر على رياض مزروعة من خلفها الجنان والبساتين وعلى كل باب من

الابواب أعجوبة من تماثيل وأصنام متحركة وأصنام تمنع من يؤذى وجعل فى داخل كل باب صورة شيطانين من صفر فاذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذى عن يمنة الباب وان كان من أهل الشر بكى الشيطان الذي عن يسرة الباب وجعل في كل منتزه منها من الوحش الآلف والطيور المغردة كل مستحسن وفوق قباب المدينة صورا تصفر اذا هبت الرياح ونصب مرآة تري البلاد البعيدة وبنى حذاءها في الشرق مدينة وجعل فيها ملاعب وأصناما بارزة في صور مختلفة وفى وسطها بركة اذا مر بها الطير سقط عليها فلا يبرح حتى يؤخذ وجعل لها حصناً باثني عشر باباً على كل باب تمثال يعمل أعجوبة وعمل حواليها جنانا وجعل بالقرب منها في ناحية الشرق مجلساً منقوشا على ثمانى أساطين وفوقه قبة عليها طائر منشور الجناحين يصفر في كل يوم ثلاث تصفيرات بكرة ونصف النهار وعند غروب الشمس وأقام فيها أصناما وعجائب كثيرة وبني مدنا كثيرة وأقام فيها رجلا يقال له برسان يعمل الكيمياء وضرب منها دنانير في كل دينار سبعة مثاقيل عليها صورته وعاش أتريب ملكا ثلثمائة وستين سنة وبلغ من العمر خمسمائة سنة وعمل له ناوس فى جبل بالشرق حفر له تحته سرب بطن بالزجاج والمرمر وجعل على سرير من ذهب مرصع وحملت اليه ذخائره وجعلوا على بابه صورة تنين لا يدنو منه أحد الا أهلكه وسووا عليه الرمال وزبروا عليه اسمه وتاريخ وقته * وقال ابن الكندى أربع كور بمصر ليس على وجه الارض أفضل منها ولا تحت السماء لهن نظير * كورة الفيوم * وكورة أتريب * وكورة سمنود * وكورة انصنا * وكورة أتريب من جملة كور أسفل الارض وهى مائة وثماني قرى وكان يقال مدائن السحرة من ديار مصر سبع وهى أرمنت * وببا * وبوصير * وانصنا * وصان * واتريب * وصا

﴿ ذكر مدينة تنيس ﴾

تنيس بكسر التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وكسر النون المشددة وياء آخر الحروف وسين مهملة بلدة من بلاد مصر في وسط الماء وهي من كورة الخليج سميت بتنيس بن حام ابن نوح ويقال بناها قليمون من ولد اتريب بن قبطم أحد ملوك القبط فى القديم * قال ابن وصيف شاه وملكت بعد اتريب ابنته فدبرت الملك وساسته بأيد وقوة خمساً وثلاثين سنة وماتت فقام بالملك من بعدها ابن أختها قليمون الملك فرد الوزراء الى مراتبهم وأقام الكهان على مواضعهم ولم يخرج الامر عن رأيهم وجد في العمارات وطلب الحكم *. وفي أيامه بنيت تنيس الاولى التى غرقها البحر وكان بينه وبينها شئ كثير وحولها الزرع والشجر والكروم وقرى ومعاصر للخمر وعمارة لم يكن أحسن منها فأمر الملك أن يبني له في وسطها مجالس وينصب له عليها قباب وتزين بأحسن الزينة والنقوش وأمر بفرشها

واصلاحها وكان اذا بدا النيل يجرى انتقل الملك اليها فأقام بها الى النوروز ورجع وكان للملك بها أمناء يقسمون المياه ويعطون كل قرية قسطها وكان على تلك القرى حصن يدور بقناطر وكان كل ملك يأتي يأمر بعمارتها والزيادة فيها ويجعلهاله متنزها * ويقال ان الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز اذ يقول واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل الا آيات كانتا لاخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع فأحسنا عمارته وهندسته وبنيانه وكان الملك يتنزه فيهما ويؤتى منهما بغرائب الفواكه والبقول ويعمل له من الاطعمة والاشربة ما يستطيبه فعجب بذلك المكان أحد الاخوين وكان كثير الضيافة والصدقة ففرق ماله فى وجوه البر وكان الآخر ممسكا يسخر من أخيه اذا فرق ماله وكلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه حتى بقى لا يملك شيئا وصارت تلك الجنة لاخيه واحتاج الى سؤاله فانتهره وطرده وعيره بالتبذير وقال قد كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل ونفعني امسا كي فصرت أكثر منك مالا وولدا وولى عنه مسرورا بماله وجنته فأمر الله تعالى البحر فركب تلك القرى وغرقها جميعها فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا قال الله جل جلاله ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله * وفي زمان قليمون الملك بنيت دمياط وملك قليمون تسعين سنة وعمل لنفسه ناوسافى الجبل الشرقي وحول اليه الاموال والجواهر وسائر الذخائر وجعل من داخله تماثيل تدور بلواليب في أيديهاسيوف من دخل قطعته وجعل عن يمينه ويساره أسدين من نحاس مذهب بلوالب من أتاه حطماه وزبر عليه هذا قبر قليمون بن اتريب بن قبطيم بن مصر عمر دهرا واتاه الموت فما استطاع له دفعا فمن وصل اليه فلا يسلبه ماعليه وليأخذ من بين يديه* ويقال أن تنيس أخ لدمياط وقال المسعودى في كتاب مروج الذهب وغيره تنيس كانت أرضالم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وكانت جنانا ونخلا وكرما وشجرا ومزارع وكانت فيها مجار على ارتفاع من الارض ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الارض ولا أحسن اتصالا من جنانها وكرومها ولم يكن بمصر كورة يقال انها تشبهها الا الفيوم وكان الماء منحدرا اليها لاينقطع عنها صيفا ولا شتاء يسقون جنانهم اذا شاؤوا وكذلك زروعهم وسائره يصب الى البحر من جميع خلجانه ومن الموضع المعروف بالاشتوم وقد كان بين البحر وبين هذه الارض مسيرة يوم وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوك الى قبرس تسلكه الدواب يبسا ولم يكن بين العريش وجزيرة قبرس فى البحر سير طويل حتي علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وقبرس فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان واحدي وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع التى تسمى اليوم بحيرة تنيس فأغرقه وصار يزيد فى كل عام حتي أغرقها بأجمعها فما كان من القرى التى في قرارها غرق

وأما الذى كان منها على ارتفاع من الارض فبقى منه تونة وبورا وغير ذلك مما هو باق الي هذا الوقت والماء محيط بها وكان أهل القري التى في هـذه البحيرة ينقلون موتاهم الى تنيس فنبشوهم واحدا بعد واحد وكان استحكام غرق هذه الارض بأجمها قبل أن تفتح مصر بمائة سـنة قال وقد كان لملك من الملوك التى كانت دارها الفرما مع أركون من أراكنة البلينا وما اتصل بها من الارض حروب عملت فيها خنادق وخلجان فتحت من النيل الي البحر يمتنع بها كل واحد من الآخر وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الارض * وقال في كتاب أخبار الزمان وكانت تنيس عظيمة لها مائة باب وقال ابن بطلان تنيس بلد صغير على جزيرة في وسط البحر ميله الى الجنوب عن وسط الاقليم الرابع خمس درج وأرضه سبخة وهواؤه مختلف وشرب أهله من مياه مخزونة في صهاريج تملأ في كل سنة عنـد عذوبة مياه البحر بدخول ماء النيل اليها وجميع حاجاتها مجلوبة اليها فى المراكب واكثر أغذية أهلهـا السمك والجبن وألبان البقر فان ضمان الجبن السلطانى سبعمائة دينار حسابا عن كل ألف قالب دينـار ونصف وضمان السمك عشرة آلاف دينار وأخلاق أهلها سهلة منقادة وطبائعهم مائلة الى الرطوبة والانوثة قال أبو السرى الطبيب انه كان يولد بها في كل سنة مائتا مخنث وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة واكثرهم يبيتون سكارى وهم قليلو الرياضة لضيق البلد وابدانهم ممتلئة الاخلاط وحصل بها مرض يقال له الفواق التنيسى أقام بأهلهـا ثلاثين سنة * وقال جامع تاريخ دمياط وكان على تنيس رجل يقال له ابو ثور من العرب المتنصرة فلما فتحت دمياط سار اليها المسلمون فبرز اليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور فى أيدي المسلمين وانهزام أصحابه فدخل المسلمون البلد وبنوا كنيستها جامعا وقسموا الغنائم وساروا الى الفرما فلم تزل تنيس بيد المسلمين الى أن كانت امرة بشر بن صفوان الكلبي على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك في شهر رمضان سنة احدى ومائة فنزل الروم تنيس فقتل مزاحم بن مسلمة المرادى أميرها في جمع من الموالى وفيهم يقول الشاعر

الم تربع فيخبرك الرجال * بما لاقى بتنيس الموالى

وكانت تنيس مدينة كبيرة وفيها آثار كثيرة للاوائل وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء واكثرهم حاكة وبها يحاك ثياب الشروب التى لايصنع مثلها في الدنيا وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لايدخل فيـه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيـه بالذهب بصناعة محكمة لاتحوج الى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو سادج بغير ذهب مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط وكان النيل اذا أطلق يشرب منه من بمشارق الفرما من ناحية جرجير وفاقوس من خليج

تنيس فكانت من أجل مدن مصر وان كانت شطا وديفو ودميرة وتونة وما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع فليس ذلك يقارب التنيسى والدمياطى وكان الحمل منها الى مابعد سنة ستين وثلثمائة يبلغ من عشرين ألف دينار الى ثلاثين الف دينار لجهاز العراق فلما تولى الوزير يعقوب بن تدبير كلس المال استأصل ذلك بالنوائب وكان يسكن بمدينة تنيس ودمياط نصارى تحت الذمة وكان أهل تنيس يصيدون السمانى وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم والسمانى طائر يخرج من البحر فيقع في تلك الشباك وكانت السفن تركب من تنيس الى الفرما وهي على ساحل البحر * ولما مات هرون الرشيد وقام من بعده ابنه محمد الامين وأراد الغدر والنكث بالمأمون كان على مصر حاتم بن هرثمة بن أعين من قبل الامين فلما ثار عليه أهل تنو ونمي بعث اليهم السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى فغلبا بعد الثمانية من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ثم ولى الامير جابر بن الاشعث الطائي مصر وصرف حاتم بن هرثمة وكان جابر لينا فلما تباعد مابين محمد الامين وبين أخيه عبدالله المأمون وخلع محمد أخاه من ولاية العهد وترك الدعاء له على المنابر وعهد الي ابنه موسى ولقبه بالشديد ودعى له تكلم الجند بمصر بينهم في خلع محمد غضبا للمأمون فبعث اليهم جابر ينهاهم عن ذلك ويخوفهم عواقب الفتن وأقبل السرى بن الحكم يدعو الناس الى خلع محمد وكان ممن دخل الى مصر في أيام الرشيد من جند الليث بن الفضل وكان خاملا فارتفع ذكره بقيامه في خلع محمد الامين * وكتب المأمون الي أشراف مصر يدعوهم الى القيام بدعوته فاجابوه وبايعوا المأمون فى رجب سنة ست وتسعين ومائة ووثبوا بجابر فاخرجوه وولوا عباد بن محمد فبلغ ذلك محمدا الامين فكتب الي رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشي وكان رئيس قيس الحوف فانقاد أهل الحوف كلهم معه يمنها وقيسها واظهروا دعوة الامين وخلع المأمون وساروا الى الفسطاط لمحاربة أهلها واقتتلوا فكانت بينهما قتلى ثم انصرفوا وعادوا مرارا الى الحرب فعقد عباد بن محمد لعبد العزيز الجروى وسيره في جيش ليحارب القوم فى دارهم فخرج في ذي القعدة سنة سبع وتسعين ومائة وحاربهم بعمريط فانهزم الجروى ومضى فى قومه من لخم وجذام الى فاقوس فقال له قومه لم لاتدعو لنفسك فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الارض فمضى فيهم الى تنيس فنزلها ثم بعث بعماله يجبون الخراج من أسفل الارض فبعث ربيعة بن قيس يمنعه من الجباية وسار أهل الحوف فى المحرم سنة ثمان وتسعين الى الفسطاط فاقتتلوا وقتل جمع من الفريقين وبلغ أهل الحوف قتل الامين فتفرقوا وولى امرة مصر مطلب بن عبد الله الخزاعي من قبل المأمون فدخلها في ربيع الاول وولى عبد العزيز الجروى شرطته ثم عزله وعقد له على حرب أسفل الارض ثم صرف المطلب وولى العباس بن موسي بن عيسي في شوال فولى عبد

العزيز الشرطة فلما ثار الجند وأعادوا المطلب في المحرم سنة تسع وتسعين هرب الجروى الى تنيس وأقبل العباس بن موسى بن عيسى من مكة الى الحوف فنزل ببلبيس ودعا قيسا الى نصرته ثم مضي الى الجروي بتنيس فأشار عليه أن ينزل دارقيس فرجع الى بلبيس في جمادى الآخرة وبها مات مسموما في طعام دسه اليه المطلب على يد قيس فدان أهل الاحواف للمطلب وبايعوه وسارعوا الى جب عميرة وسالموه عند مالقوه وبعث الى الجروى يأمره بالشخوص الى الفسطاط فامتنع من ذلك وسار في مراكبه حتي نزل شطنوف فبعث اليه المطلب السرى بن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم اليه ثم اجتهد فى الغدر بهم فتيقظوا له فمضى راجعا الى بنا فاتبعوه وحاربوه ثم عاد فدعاهم الى الصلح ولاطف السرى فخرج اليه في زلاج وخرج الجروي في مثله فالتقيا فى وسط النيل مقابل سندفا وقد أعد الجروى فى باطن زلاجه الحبال وأمر أصحابه بسندفا اذا اصق بزلاج السرى أن يجروا الحبال اليهم فاصق الجروي بزلاج السري فربطه في زلاجه وجر الحبال وأسر السرى ومضى به الى تنيس فسجنه بها وذلك فى جمادى الاولى ثم كر الجروي وقاتل فلقيه جموع المطلب بسنط سليط فى رجب فظفر ولما عزل عمر بن ملاك عن الاسكندرية ثار بالاندلسيين ودعا للجروى فأقبل عبد الله بن موسى بن عيسى الى مصر طالبا بدم اخيه العباس في المحرم سنة مائتين فنزل على عبد العزيز الجروى فسار معه في جيوش كثيرة العدد في البر والبحر حتى نزل الجيزة فخرج اليه المطلب فى أهل مصر فحاربوه في صفر فرجع الجروى الى شرقيون ومضى عبد الله بن موسى الى الحجاز وظهر المطلب على أن أبا حرملة فرجا الاسود هو الذى كاتب عبد الله بن موسى وحرضه على المسير فطلبه ففر الى الجروى وجد المطلب فى أمر الجروى فأخرج الجروي السرى بن الحكم من السجن وعاهده وعاقده على أن يثور بالمطلب ويخلعه فعاهده السرى على ذلك فاطلقه وأتى الى أهل مصر أن كتابا ورد بولايته فاستقبله الجند من أهل خراسان وعقدوا له عليهم وامتنع المصريون من ولايته فنزل داره بالحمراء وأمده قيس بجمع منهم وحارب المصريين فهزمهم وقتل منهم فطلب المطلب منه الامان فأمنه وخرج من مصر واستبد السرى بن الحكم بأمر مصر فى مستهل شهر رمضان * فلما قتل الاندلسيون عمر بن ملاك بالاسكندرية سار اليها الجروى في خمسين ألفا فبعث السرى الى تنيس بعثا فكر الجروى راجعا الى تنيس في محرم سنة احدى ومائتين فلما ثار الجند بالسرى في شهر ربيع الاول وبايعوا سليمان بن غالب قام عباد بن محمد عليه وخلعه وقام بالامر على بن حمزة بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس في مستهل شعبان فامتنع عباد أن يبايعه ولحق بالجروي ثم لحق به أيضاً سليمان بن غالب فكان معه وعاد السري الى ولاية مصر في شعبان وقوى سلطانه فلما كان في المحرم سنة اثنتين

ومائتين ورد كتاب المأمون اليه يأمره بالبيعة لولي عهده على بن موسى الرضى فبويع له بمصر وقام فى فساد ذلك ابراهيم بن المهدى ببغداد وكتب الى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولي عهده وبالوثوب على السرى فقام بذلك الحارث بن زرعة بن محرم بالفسطاط وعبد العزيز ابن الوزير الجروى بأسفل الارض ومسلمة بن عبد الملك الطحاوى الازدى بالصعيد وخالفوا السرى ودعوا الى ابراهيم بن المهدى وعقدوا على ذلك الامر لعبد العزيز بن عبد الرحمن الازدى فحاربه السرى وظفر به في صفر ولحق كل من كره بيعة على الرضى بالجروى لمنعته بتنيس وشدة سلطانه فسار الى الاسكندرية وملكها ودعى له بها وبلاد الصعيد ثم سار في جمع كبير لمحاربة السري واستعد كل منهما لصاحبه بأعظم ماقدر عليه فبعث اليه السرى ابنه ميمونا فالتقيا بشطنوف فقتل ميمون فى جمادى الاولى سنة ثلاث ومائتين وأقبل الجروى في مراكبه الى الفسطاط ليحرقها فخرج اليه أهل المسجد وسألوه الكف فانصرف عنها وحارب الاسكندرية غير مرة وقتل بها من حجر أصابه من منجنيقه فى آخر صفر سنة خمس ومائتين ومات السرى بعده بثلاثة أشهر فى آخر جمادى الاولى وقام بعد الجروي ابنه على بن عبد العزيز الجروى فحارب أبا نصر محمد بن السرى أمير مصر بعد أبيه بشطنوف ثم التقيا بدمنهور فيقال ان القتلي بينهما يومئذ كانوا سبعة آلاف وانهزم ابن السري الى الفسطاط فتبعته مراكب ابن الجروى ثم عادت فدخل أبو حرملة فرج بينهما حتى اصطلحا ومات ابن السرى فى شعبان سنة ست ومائتين فولي بعده أخوه عبيد الله بن السري فكف عن ابن الجروى وبعث المأمون مخلد بن يزيد بن مزيد الشيباني الى مصر فى جيش من ربيعة فامتنع عبيد الله بن السرى من التسليم له ومانعه فاقتتلوا وانضم على بن الجروي الى خالد بن يزيد وأقام له الانزال وأغاثه وسار حتى نزل على خندق عبيد الله بن السري فاقتتلا فى شهر ربيع الاول سنة سبع ومائتين وجرت بينهما حروب بعد ذلك آلت الى ترفع خالد الى أرض الحوف فكره ذلك ابن الجروى ومكر به حتى أخرجه من عمله الى غربي النيل فنزل نهيا وانصرف ابن الجروى الى تنيس فصار خالد فى ضر وجهد وعسكر له ابن السرى فى شهر رمضان وأسره وأخرجه من مصر الى مكة فى البحر وبعث المأمون بولاية عبيد الله بن السرى على مافى يده وهو فسطاط مصر وصعيدها وغربيها وبولاية على بن عبد العزيز الجروي تنيس مع الحوف الشرقي وضمنه خراجه وأقبل ابن الجروى على استخراج خراجه من أهل الحوف فمانعوه وكتبوا الى ابن السرى يستمدونه عليه فامدهم بأخيه فالتقيا بكورة بنا فى بلقينة فاقتتلوا في صفر سنة تسع ومائتين وامتدت الحروب بينهما الى اثناء ربيع الاول وهم متنصفون فانصرف ابن الجروى فيمن معه الى دمياط فسار ابن السرى الى محلة شريقون ونهبها وبعث الى تنيس

ودمياط فملكهما ولحق ابن الجروى بالفرما وسار منها الى العريش فنزل فيما بينها وبين غزة ثم عاد وأغار على الفرما في جمادى الآخرة ففر أصحاب ابن السرى من تنيس وسار ابن الجروي الي شطنوف فخرج اليه ابن السرى واقتتلا فكانت لابن الجروى فى أول النهار ثم أتاه كمين ابن السرى فانهزم وذلك في رجب فمضى الى العريش وسار ابن السرى الى تنيس ودمياط ثم أقبل ابن الجروى في المحرم سنة عشر ومائتين وملك تنيس ودمياط بغير قتال فبعث اليه ابن السرى البعوث فحاربهم فبيناهم في ذلك اذ قدم عبد الله بن طاهر فتلقاه ابن الجروى بالاموال والانزال وانضم اليه ونزل معه ببلبيس فامتنع ابن السرى ودافع ابن طاهر فتراخي له وبعث فجبي المال ونزل زفتا وبعث الى شطنوف عيسى الجلودي على جسر عقده من زفتا وجعل ابن الجروى على سفنه التى جاءته من الشام لمعرفته بالحرب فهزم مراكب ابن السرى في المحرم سنة احدى عشرة وصالح ابن طاهر عبيد الله بن السرى فى صفر وخلع عليه وأجازه بعشرة آلاف دينار وأقره بالخروج الى المأمون فسكنت فتن مصر بعبد الله بن طاهر * وفي سنة سبع وسبعين وثلثمائة ولدت بتنيس معزى جدياله قرون عدة ورأسه مع صدره وبدنه ومقدمه بصوف أبيض ومؤخره بشعر اسود وذنبه ذنب شاة وولدت امرأة سخلة لها رأس مدور ولها يدان ورجلان وذنب ولثلاث بقين من ذى الحجة من هذه السنة حدث بتنيس رعد وبرق وريح شديدة وسواد عظيم في الجو ثم ظهر وقت السحر فى السماء عمود نار احمرت منه السماء والارض أشد حمرة وخرج غبار ودخان يأخذ بالانفاس فلم يزل الى الرابعة من النهار حتى ظهرت الشمس ولم يزل كذلك خمسة أيام * وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة حضر عند قاضي تنيس أبي محمد عبد الله ابن أبي الريس رجل وامرأة فطالبت المرأة الرجل بفرض واجب عليه فقال الرجل تزوجت بها منذ خمسة أيام فوجدت لها ما للرجال وما للنساء فبعث اليها القاضى امرأة لتشرف عليها فأخبرت أن لها فوق القبل ذكرا بخصيتين والفرج تحتها والذكر أقلف وانها رائعة الحسن فطلقها الزوج * قال ابو عمرو الكندي حدثني أبو نصر أحمد بن على قال حدثني يس بن عبد الاحد قال سمعت أبي يقول لما دخل عبد الله بن طاهر مصر كنت فيمن دخل عليه فقال حدثنا عبد الله بن لهيعة عن أبي قبيل عن سبيع قال يا أهل مصر كيف بكم اذا كان فى بلدكم فتن فوليكم فيها الأعرج ثم الاصفر ثم الامرد ثم يأتي رجل من ولد الحسين لايدفع ولا يمنع تبلغ راياته البحر الاخضر يملأها عدلا فقلت كان ذلك كانت الفتنة فوليها السرى وهو الاعرج والاصفر ابنه أبو النصر والامرد عبيد الله بن السرى وأنت عبد الله بن طاهر بن الحسين ثم ان عبد الله بن طاهر سار الى الاسكندرية وأصلح أمرها وأخرج ابن الجروى الى العراق ثم قدم به الافشين الي مصر في ذى الحجة سنة خمس

عشرة وقد أمر الافشين أن يطالبه بالاموال التى عنـده فان دفعها اليه والا قتله فطالبه فلم يدفع اليه شيأ فقدمه بعد الاضحى بثلاث فقتله * وفي جمادى الآخرة سـنة تسع عشرة ومائتين ثار يحيي بن الوزير في تنيس فخرج اليه المظفر بن كندر أمير مصر فقاتله في بحيرة تنيس وأسره وتفرق عنه أصحابه * وفى سنة تسع وثلاثين ومائتين أمر المتوكل ببناء حصن على البحر بتنيس فتولى عمارته عنبسة بن اسحاق أمير مصر وأنفق فيـه وفي حصن دمياط والفرما مالا عظيما وفى سنة تسع وأربعين ومائتين عذبت بحيرة تنيس صيفا وشتاء ثم عادت ملحا صيفا وشتاء وكانت قبـل ذلك تقيم ستة أشهر عذبة وستة أشهر مالحة وفي سنة ثمان واربعين وثلثمائة وصلت مراكب من صقلية فنهبوا مدينة تنيس وفي سنة ثمان وسبعين وثلثمائة صيد بأشتوم تنيس حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعا ونصف من ذلك طول رأسه تسعة أذرع ودائر بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعا وفتحة فمه تسعة وعشرون شبرا وعرض ذنبـه خمسة أذرع ونصف وله يدان يجذف بهما طول كل يد ثلاثة أذرع وهو أملس أغبر غليظ الجلد مخطط البطن ببياض وسواد ولسانه أحمر وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع يعمل منـه أمشاط شبه الذبل وله عينان كعيني البقر فأمر أمير تنيس أبو اسحاق ابن لوبة به فشق بطنه وملح بمـائة أردب ملح ورفع فكه الاعلى بعود خشب طويل وكان الرجل يدخل الى جوفه بقفاف الملح وهو قائم غير منحن وحمل الى القصر حتي رآه العزيز بالله وفى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الاول سنة تسع وسبعين وثلثمائة شاهد أهـل تنيس تسعة أعمـدة من نار تلتهب في آفاق السماء من ناحية الشمال فخرج الناس الى ظاهر البـلد يدعون الله تعـالى حتى اصبحوا فخبت تلك النيران وفيهـا صيد ببحيرة تنيس حوت طوله ذراع ونصفه الاعلى فيـه رأس وعينان وعنق وصـدر على صورة أسد ويداه فى صدره بمخالبه ونصـفه الادني صورة حوت بغـير قشر فحمل الى القاهرة وفى سنة سبع وتسعين وثلثمائة ولدت جارية بنتا برأسين أحدهما بوجه أبيض مستدير والآخر بوجه أسمر فيه سهولة في كل وجه عينان فكانت ترضعهما وكلاهما مركب على عنق واحـد في جسد واحـد بيدين ورجلين وفرج ودبر فحملت الى العزيز حتى رآها ووهب لامها جمـلة من المـال ثم عادت الى تنيس وماتت بعـد شهور وفي سنة احدى وسبعين وخمسمائة وصل الى تنيس من شواني صقلية نحو أربعين مركبا فحصروها يومين وأقلعوا ثم وصـل اليها من صقلية أيضا في سنة ثلاث وسبعين نحو أربعين مركبا فقاتلوا أهل تنيس حتى ملـكوها وكان محمـد ابن اسحاق صاحب الاسطول قد حيل بينـه وبين مراكبه فتحيز فى طائفـة من المسلمين الى مصلى تنيس فلما أجنهم الليل هجم بمن معه البلد على الفرنج وهم في غفلة فأخـذ منهم مائة وعشرين فقطع رؤسهـم فاصبح الفرنج الي المصـلى وقاتلوا من بها من المسلمين فقتل

من المسلمين نحو السبعين وسار من بقى منهم الى دمياط فمال الفرنج على تنيس وألقوا فيها النار فأحرقوها وساروا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والاسرى الى جهة الاسكندرية بعد ما أقاموا بتنيس أربعة أيام ثم لما كانت سنة ست وسبعين وخمسمائة نزل فرنج عسقلان فى عشر حراريق على أعمال تنيس وعليها رجل منهم يقال له المعز فأسر جماعة وكان على مصر الملك العادل من قبل أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف عند ما سار الى بلاد الشام ثم مضى المعز وعاد فأسر ونهب فثار به المسلمون وقاتلوه فظفرهم الله به وقبضوا عليه وقطعوا يديه ورجليه وصلبوه * وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة انتدب السلطان لعمارة قلعة تنيس وتجديد الآلات بها عند ما اشتد خوف أهل تنيس من الاقامة بها فقدر لعمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار عن ثمن أصناف وآجر * وفي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة كتب باخلاء تنيس ونقل أهلها الى دمياط فأخليت في صفر من الذرارى والأثقال ولم يبق بها سوى المقاتلة في قلعتها * وفي شوال من سنة أربع وعشرين وستمائة أمر الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بهدم مدينة تنيس وكانت من المدن الجليلة تعمل بها الثياب السرية وتصنع بها كسوة الكعبة * قال الفاكهي فى كتاب أخبار مكة ورأيت كسوة مما يلى الركن الغربي يعني من الكعبة مكتوبا عليها مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة ورأيت شقة من قباطي مصر في وسطها الا انهم كتبوا في أركان البيت بخط دقيق أسود مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين ورأيت كسوة من كسا المهدي مكتوبا عليها بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة ورأيت كسوة من قباطي مصر مكتوبا عليها بسم الله بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة * قال المسبحي في حوادث سنة أربع وثمانين وثلثمائة وفي ذى القعدة ورد يحي بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهديته وهي أسفاط وتخوت وصناديق مال وخيل وبغال وحمير وثلاث مظال وكسوتان للكعبة * وفي ذي الحجة سنة اثنتين وأربعمائة وردت هدية تنيس الواردة في كل سنة منها خمس نوق مزينة ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها وتجافيف وصناعات عدة وثلاث قباب ديبقية بعماريتها ومتحرقات وبنود وما جرى الرسم بحمله من المتاع والمال والبز ولما قدم الحاكم استدعت أخته السيدة سيدة الملك الى عامل تنيس عن الحاكم بأن يحمل مالا كان اجتمع قبله ويعجل توجيهه

وقيل انه كان ألف ألف دينار وألفي ألف درهم اجتمعت من ارتفاع البلد لثلاث سنين وأمره الحاكم بتركها عنده فحمل ذلك اليها وبه استعانت على ما دبرت * وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة ورد الخبر على الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبي هاشم على بن الحاكم بأمر الله أن السودان وغيرهم ثاروا بتنيس وطلبوا أرزاقهم وضيقوا على العامل حتى هرب وانهم عاثوا فى البلد وأفسدوا ومدوا أيديهم الى الناس وقطعوا الطرقات وأخذوا من المودع ألفا وخمسمائة دينار فقام الجرجراي وقعد وقال كيف يفعل هـذا بخزانة السلطان وساءنا فعل هـذا بتنيس أوبيت المال وسير خمسين فارسا للقبض على الجناة وما زالت تنيس مدينة عامرة ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها ولا أحصن من عمارتها الى أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب فى سنة أربع وعشرين وستمائة فاستمرت خرابا ولم يبق منها الا رسومها فى وسط البحيرة وكان من جملة كورة تنيس بورا ومنها وايوان وشطا وبحيرتها الآن يصاد منها السمك وهى قليلة العمق يسار فيها بالعادى وتلتقى السفينتان هذه صاعدة وهذه نازلة بريح واحدة وقلع كل واحدة منهما مملوء بالريح سيرهما فى السرعة مستو توسط البحيرة عدة جزائر تعرف اليوم بالعزب جمع عزبة بضم العين المهملة وزاى ثم باء موحدة سكنها طائفة من الصيادين وفى بعضها ملاحات يؤخذ منها ملح عذب لذيذ ملوحته وماؤها ملح وقد يحلو أيام النيل *(تونة)* وكان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها تونة يعمل بها طراز تنيس ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا * قال الفاكهى ورأيت أيضاً كسوة لهرون الرشيد من قباطي مصر مكتوبا عليها بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة * (سمناى)* قرية من قرى تنيس غلبت عليها بحيرة تنيس فصارت جزيرة فلما كان فى شهر ربيع الاول سنة سبع وثلاثين وثمانمائة كشف عن حجارة وآجر بها فاذا عضادات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الامام المعز لدين الله وعلى بعضها اسم الامام العزيز بالله نزار ومنها ما عليه اسم الامام الحاكم بأمر الله ومنها ما عليه اسم الامام الظاهر لاعزاز دين الله ومنها ما عليه اسم المستنصر وهو أكثرها أخبرني بذلك من شاهده ورآه *(بورا)* كانت فيما بين تنيس ودمياط واليها ينسب السمك الذى يقال له البورى واليها ينسب أيضا بنو البورى الذين كانوا بالقاهرة والاسكندرية * وفي سنة عشر وستمائة وصل العدو اليها بشوانيه وسباها فقدمت اليها القطائع التي كانت على رشيد فسار عنها العدو *(القيس)* بفتح القاف وبعدها سين مهملة بلد ينسب اليها الثياب القيسية آثارها الى اليوم باقية على البحر الملح فيما بين السوادة والورادة وبعدها من مدينة الفرما قريب من ستة برد في البر وهناك تل عظيم من رمل خارج في البحر الشامي يقطع

الفرنج عنده الطريق على المارة وبالقرب من التل سباخ ينبت فيه ملح يحمله العربان الى غزة والرملة وبقرب هذا السباخ آبار يزرع عندها مقاثي لعربان تلك البوادي

(ذكر مدينة صا)

قال ابن وصيف شاه ولما قسم قبطيم بن مصرايم الارض بين أشمون وأتريب وقفط وصا انتقل كل واحد الى قسمه وحيزه فخرج صا بأهله وولده وحشمه الى حيزه وهو بلد البحيرة والاسكندرية حتى انتهى الى برقة ونزل مدينة صا قبل أن تبنى الاسكندرية وكان صا أصغر ولد أبيه وأحبهم اليه فلما ملك حيزه أمر بالنظر في العمارات وبناء المدائن والبلدان والهيا كل واظهار العجائب كما صنع اخوته وطلب الزيادة في ذلك * وقال مرهون الهندى صاحب بانه فبني من حد صا الى حدلوبية ومراقية على البحر أعلاما وجعل على رؤس تلك الاعلام مرائى من أخلاط شتى فكان منها مايمنع من دواب البحر وأذاها ومنها ما اذا قصدهم عدو من الجزائر وأصابها الشمس ألقت شعاعا على مراكبهم فأحرقها ومنها مايرى المدائن التي تحاذيهم من عدوة البحر وما يعمله أهلها ومنها ماينظر فيها الى أقليم مصر فيعلم منه مايخصب وما يجدب في كل سنة وجعل فيها حمامات تقد من نفسها وجعل مستشرفات ومنتزهات وكان ينزل كل يوم منها في موضع بمن يخصه من خدمه وحشمه وجعل حوالها بساتين وسرح فيها الطيور المغردة والوحش المستأمن والانهار المطردة والرياض المونقة وجعل شرفات قصوره من حجارة ملونة تلمع اذا أصابتها الشمس فينشر شعاعها على ماحولها ولم يدع شيئاً من آلة النعمة والرفاهية الا استعمله فكانت العمارة ممتدة في رمال رشيد ورمال الاسكندرية الى برقة وكان الرجل يسافر في أرض مصر لايحتاج الى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ولا يسير الا في ظلال تستره من الشمس وعمل في تلك الصحاري قصورا وغرس فيها غروسا وساق اليها من النيل أنهارا فكان يسلك من الجانب الغربي الى حد الغرب في عمارة متصلة فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد أهلها ولا يزال من دخل تلك الصحارى يحكي ما رآه فيها من الآثار والعجائب * قال مؤلفه رحمه الله حدثنى الثقة عمن دخل مدينة صا ومشى في خرابها فاذا هو بلبنة طولها أربعة أشبار فتناولها وأخذ يتأملها ثم كسرها فاذا فيها سنبلة قدر شبر وافر كانها كما حصدت وفركها بيده فخرج منها قمح أبيض كبار حبه جدا فى قدر حب اللوبيا فأ كله كله فلم يجد فيه تغيرا ودخل آخر اليها قبيل سنة تسعين وسبعمائة وأخذ منها لبنة طولها ذراع ونصف فى عرض ذراع فكسرها فاذا فيها سنبلة قمح ثخن كل قمحة منها فى مقدار مايكون أكبر من الحمص فلم يطق كسره الا بعد مارضه بالحجارة رضا ووجد بصا صنم لطيف طول أصبع فاتفق انه ألقى فى خابية ماء فصار خمرا وكان ذلك عند رجل من

تنيس فصلحت حاله من بيعه ذلك الخمر فطلبه الامير الا وحد مستولى تنيس وما زال به حتى أخذ الصنم منه

رمل الغرابى

اعلم أن هذا الرمل ممتد فى الارض ويسميه بعضهم الرمل الهبير وطوله من وراء جبل طي الى أن يتصل مشرقا بالبحر ويمضى من وراء جبل طي الى أرض مصر ثم الى بلد النوبة ويمتد الى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر ومنه عرق يضرب من القادسية الى البحرين فيعبر البحرين فيمر على مشارق خورستان وفارس الى أن يرد سجستان ويمر مشرقا الى مر وآخذا على جيحون فى برية خوارزم ويأخذ فى بلاد الحد لحية الى الصين والبحر المحيط فى جهة الشرق وهو على ما وصفته وسقته من المحيط بالمشرق الى المحيط بالمغرب وفيه جبال عظام لاترتقى وبعضه فى أرض سهلة ينتقل من مكان الى مكان ومنه أصفر لين اللمس وأحمر وأزرق سماوى وأسود حالك وأكحل مشبع كالنيل وأبيض كالثلج ومنه مايحكى الغبار نعومة ومنه خشن جريش اللمس وزعم بعضهم أن رمل الغرابي ومايتصل به من حد العريش الى أرض العباسة حادث * وذكر فى سبب كونه خبر فيه معتبر وهو أن شدّاد بن هداد بن شداد بن عاد أحد الملوك العادية قدم الى مصر وغلب بكثرة جيوشه أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ملك مصر وهدم مابناه هو وآباؤه وبني لنفسه اهراما ونصب أعلاما زبر عليها الطلسمات واختط موضع الاسكندرية وأقام هناك دهرا الى أن نزل به وبقومه وباء فخرجوا من أرض مصر الى جهة وادى القرى فيما بين المدينة النبوية وأرض الشام وعمروا الملاعب والمصانع لحبس المياه التي تجتمع من الامطار والسيول فكان سعة كل مصنع ميلا في ميل وغرسوا النخل وغيره وزرعوا أصناف الزراعات فيمابين راية وأيلة الى البحر الغربي وامتدت منازلهم من الدثنة الى العريش والجفار فى أرض سهلة ذات عيون تجرى وأشجار مثمرة وزروع كثيرة فأقاموا بهذه الارض دهرا طويلا حتى عثوا وبغوا وتجبروا وطغوا وقالوا نحن الا كثرون قوة الا شدون الاغلبون فسلط الله عليهم الريح فأهلكتهم ونسفت مصانعهم وديارهم حتى سحلتها رملا فما تراه من هذه الرمال التي بأرض الجفار مابين العباسة حيث المنزلة التي تعرف اليوم بالصالحية الى العريش من رمل مصانع العادية وسحالة صخورهم لما أهلكهم الله بالريح ودمرهم تدميرا واياك وانكار ذلك لغرابته ففي القرآن الكريم مايشهد لصحته قال تعالى وفي عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ماتذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم أى كالشيء الهالك البالي وقيل الرميم نبات الارض اذا يبس وديس وقيل الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم والرميم الخلق البالي من كل شيء *(مراقية)* مدينة مراقية كورة من كور مصر الغربية وهى آخر حد أرض مصر وفي آخر أرض مراقية

تلقى أرض انطابلس وهى برقة وبعدها من مدينة سنتريه نحو من بريدين وكان قطرا كبيرا
به نخل كثير ومزارع وبه عيون جارية وبها الي اليوم بقية وثمرها جيد الى الغاية وزرعها
اذا بذر ينبت من الحبة الواحدة من القمح مائة سنبلة وأقل ماتنبت تسعون سنبلة وكذلك
الارزبها فانه جيد زاك وبها الى اليوم بساتين متعددة وكانت مراقية في القديم من الزمان
سكنها البربر الذين نفاهم داود عليه السلام من أرض فلسطين فنزلها منهم خلائق ومنها
تفرقت البربر فنزلت زناتة ومغيلة وضريسة الجبال ونزلت لواتة أرض برقة ونزلت هوارة
طرابلس المغرب ثم انتشرت البربر الى السويس فلما كان في شوال سنة أربع وثلثمائة من
سنى الهجرة المحمدية جلى أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية خوفا من صاحب برقة ولم
تزل في اختلال الى أن تلاشت في زمننا وبها بعد ذلك بقية جيدة *(كوم شريك)* هذا
المكان بالقرب من الاسكندرية له ذكر في الاخبار عرف بشريك بن سمى بن عبد يغوث
ابن جزء المرادى القطيفى من الصحابة رضى الله عنهم وكان على مقدمة عمرو بن العاص
في فتح الاسكندرية الثانى فعندما كثرت جمائع الروم انحاز شريك الى هذا الكوم بأصحابه
ودافع الروم حتى أدركه عمرو وكوم شريك هذا من جملة حوف رمسيس *(غيفة)* قرية
تقارب مدينة بلبيس من الفسطاط اليها مرحلتان كانت منزلة قافلة الحاج ويقال ان صواع
الملك الذى فقد من مدينة مصر وجد في رحال اخوة يوسف عليه السلام بغيفة هذه
(سمنود) كان بها بربا عليه هيئة درقة فيها كتابة حكى ابن زولاق عن أبى القاسم مأمون
العدل انه نسخ الكتابة في قرطاس وصوره على درقة قال فما كنت أستقبل به أحدا الاولى
هاربا وكان بها أيضاً تماثيل وصور من يملك مصر فيهم قوم عليهم شاشيات وبأيديهم الحراب
وعليهم مكتوب هؤلاء يملكون مدينة مصر

ذكر مدينة بلبيس

وسميت فى التوراة أرض حاشان وفيها نزل يعقوب لما قدم على ولده يوسف عليهما
السلام فأنزله بأرض حاشان وهي بلبيس الى العلاقة من أجل مواشيهم قال ابن سعيد
بلبيس واليها يصل حكمه الى الورادة وهى آخر حد مصر واليها تنتهى المعاملة بفضة السواد
ويصير الناس يتعاملون بالفلوس بعدها الى العريش وهي أول الشام وقيل هي آخر مصر *
وقال أبو عبيد البكرى بلبيس بفتح أوله واسكان ثانيه بعده باء مثل الاولى مفتوحة أيضا
وياء ساكنة وسين مهملة وهو موضع قريب مصر معروف وذكر ابن خرداديه في كتاب
المسالك والممالك أن بين بلبيس ومدينة فسطاط مصر أربعة وعشرين ميلا *وذكر الواقدى
أن المقوقس زوج ابنته ارمانوسة من قسطنطين بن هرقل وجهزها بأموالها وجواريها
وغلمانها وحشمها لتسير اليه حتى يبني عليها في مدينة قيسارية وهم محاصرون لها فخرجت

الي بلبيس وأقامت بها وبعثت حاجبها الكبير فى ألفى فارس الي الفرما ليحفظ الطريق ولا يدع أحدا من الروم ولا غيرهم يعبر الي مصر وبعث المقوقس رسله الي اطراف بلاده ممايلى الشام أن لايتركوا أحدا يدخل أرض مصر مخافة أن يحدثوا بغلبة المسلمين على الشام فيدخل الرعب في قلوب عساكره فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية وسار عمرو بن العاص الى مصر نزل على بلبيس وبها أرمانوسة ابنة المقوقس فقاتل من بها وقتل منهم زهاء ألف فارس وأسر ثلاثة آلاف وانهزم من بقى الى المقوقس وأخذت ارمانوسة وجميع مالها وسائر ما كان للقبط في بلبيس فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير اليه ابنته أرمانوسة مكرمة في جميع مالها مع قيس بن أبي العاص السهمى فسر بقدومها ثم سار عمرو الى القصر ولم تزل من مدائن مصر الكبار حتى نزل عليها مرى ملك الفرنج وأخذها عنوة بعد حصار طويل وقتل منها آلافا ولها أخبار كثيرة وقد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر بعد سنة ست وثمانمائة بعد ما أدركناها وبها عمارة كثيرة وفيها عدة بساتين وأهلها أصحاب يسار ونعم سنية

﴿ ذكر بلد الورادة ﴾

الورادة من جملة الجفار قال عبيد الله بن عبد الله بن خرداديه في كتاب المسالك والممالك وصفة الطريق والارض من الرملة الى أزدود اثنا عشر ميلا ثم الى غزة عشرون ميلا ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلا في رمل ثم الى الورادة ثمانية عشر ميلا ثم الى الغريب عشرون ميلا ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلا قال الخليفة المأمون

للبلك كان بالميدا * ن أقصر منه بالفرما غريب في قرى مصر * يقاسي الهم والندما

ثم الى جرير ثلاثون ميلا ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلا ثم الى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلا ثم الى بلبيس أحد وعشرون ميلا ثم الى فسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلا * وقال جامع تاريخ دمياط ولما افتتح المسلمون الفرما بعد ما افتتحوا دمياط وتنيس ساروا الى البقارة فأسلم من بها وساروا منها الي الورادة فدخل أهلها في الاسلام وماحولها الى عسقلان * وقال القاضي الفاضل في متجددات شهر المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة وصابحنا الورادة فبتنا على مينا الورادة ودخلنا الورادة فرأيت تاريخ منارة جامعها سنة ثمان وأربعمائة واسم الحاكم بأمر الله عليها والورادة من جملة الجفار ويقال أخذ اسمها من الورود ولم يزل جامعها عامرا تقام به الجمعة الى مابعد السبعمائة وبلد الورادة القديمة في شرقى المنزلة التي يقال لها اليوم الصالحية وبها آثار عمائر ونخل قليل * (الصالحية) * هذه البلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شادى بأرض السباخ والعلاقة في أول الرمل الذي بين مصر والشام وأنشأ بها قصورا وجامعا وسوقا لتكون منزلة العساكر اذا خرجوا من الرمل وذلك في سنة أربع وأربعين وستمائة

ذكر مدينة ايلة

ذكر ابن حبيب أن أثال بضم أوله ثم ثاء مثلثة وادى أيلة وأيلة بفتح أوله على وزن فعلة مدينة على شاطئ البحر فيما بين مصر ومكة سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم عليه السلام وايلة أول حد الحجاز وقد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح بها التجارة الكثيرة وأهلها اخلاط من الناس وكانت حد مملكة الروم في الزمن الغابر وعلى ميل منها باب معقود لقيصر قد كان فيه مسلحته يأخذون المكس وبين ايلة والقدس ست مراحل والطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام على يوم وليلة من ايلة وكانت فى الاسلام منزلا لبني أمية وأكثرهم موالي عثمان بن عفان وكانوا سقاة الحاج وكان بها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة وكانت كثيرة النخل والزروع وعقبة أيلة لا يصعد اليها من هو راكب وأصلحها فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون وسوى طريقها ورم ما استرم منها وكان بأيلة مساجد عديدة وبها كثير من اليهود ويزعمون أن عندهم برد النبي صلى الله عليه وسلم وأنه بعثه اليهم أمانا وكانوا يخرجونه رداء عدنيا ملفوفا فى الثياب قد أبرز منه قدر شبر فقط ويقال ان ايلة هي القرية التي ذكرها الله تعالى فى كتابه حيث قال واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون وقد اختلف فى تعيين هذه القرية فقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والسدى هى أيلة وعن ابن عباس أيضا انها مدينة بين أيلة والطور وعن الزهري انها طبرية وقال قتادة وزيد بن أسلم هي ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونة يقال لها معناة وسئل الحسين بن الفضل هل نجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك الا قوتا والحرام يأتيك جزافا قال نعم في قصة ايلة اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم * وكان من خبر أهل القرية أنهم كانوا من بنى اسرائيل وقد حرم الله عليهم العمل في يوم السبت فزين لهم ابليس الحيلة وقال انما نهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان اليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الاحد وقيل كان الرجل يأخذ خيطا ويضع فيه وهقه ويلقيه فى ذنب الحوت وهو بحريك الهاء واسكانها حبل كالطول ويجعل في الطرف الآخر من الخيط وتدا ويتركه كذلك الى يوم الاحد ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يبتلى حتى كثر الصيد للحيتان ومشى به في الاسواق وأعلن الفسقة بصيده فقامت طائفة من بنى اسرائيل وجاهرت بالنهى واعتزلت وقالت لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان للناس لشأنا فعلوا على الجدار فاذا هم قردة فدخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الانس فجعلت تأتيهم فتشم

ثيابهم وتبكي فيقول الناهون للقردة ألم ننهكم فتقول برأسها نعم قال قتادة فصارت الشباب قردة والشيوخ خنازير فما نجا الا الذين نهوا وهلك سائرهم وقيل ان ذلك كان في زمن نبي الله داود عليه السلام وقيل ان ايلة أصلها أيليايه وقد وقع ذكرها في التوراة كذلك وقال الشريف محمد بن أسعد الجواني دكالة من البربر بطن من المصامدة وقالت طائفة ان دكالة ولد ايلة ويقال ايل الذى سميت به عقبة أيلة وأخرانهم من دغفل بن ايلة وانهم يعزون الى البربر ويقولون نحن من ربيعة الفرس وفي ذلك خلاف عظيم * وذكر المسعودي أن يوشع بن نون عليه السلام حارب السميدع بن هزبر بن مالك العمليق ملك الشام ببلد أيلة نحو مدين وقتله واحتوى على ملكه وفي ذلك يقول عون بن سعيد الجرهمي

ألم تر أن العماليق بن هرمز * بأيلة أمسى لحمه قد تمزعا

تداعت عليه من يهود جحافل * ثمانون ألفاً حاسرين ودرعا

وهي أبيات كثيرة وقال ابن اسحاق فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك أتاه يحنة بن روبة صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية وكتب لهم كتابا فهو عندهم وكتب ليحنة بن روبة بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسوله ليحنة بن روبة وأهل ايلة أساقفهم وسائرهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس وانه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل ابن حسنة باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك في سنة تسع من الهجرة ولم تزل مدينة أيلة عامرة آهلة * وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة طرق عبد الله بن ادريس الجعفرى أيلة ومعه بعض بنى الجراح ونهبها وأخذ منها ثلاثة آلاف دينار وعدة غلال وسبى النساء والاطفال ثم انه صرف عن ولاية وادي القرى فسارت اليه سرية من القاهرة لمحاربته * قال القاضي الفاضل وفي سنة ست وستين وخمسمائة أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب مراكب مفصلة وحملها على الجمال وسار بها من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة قلعة ايلة وكانت قد ملكها الفرنج وامتنعوا بها فنازلها في ربيع الاول وأقام المراكب وأصلحها وطرحها في البحر وشحنها بالمقاتلة والاسلحة وقاتل قلعة ايلة في البر والبحر حتى فتحها في العشرين من شهر ربيع الآخر وقتل من بها من الفرنج وأسرهم وأسكن بها جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى القاهرة في آخر جمادى الاولي * وفي سنة سبع وسبعين وصل كتاب النائب بقلعة ايلة ان المراكب على تحفظ وخوف شديد من الفرنج ثم وصل الايريس لعنه الله الى ايلة وربط العقبة وسير

عسكره الي ناحية تبوك وربط جانب الشام لخوفه من عسكر يطلبه من الشام أو مصر فلما كان في شعبان من السنة المذكورة كثر المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة حتى صارت به مياه استغني بها أهل القلعة عن ورود العين مدة شهرين وتأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر ووهت لضعف أساسها فتداركها أصحابها وأصلحوها * وذكر أبو الحسن المسعودى في كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان السكوكة وهم أمة لهم أربعة ملوك ملكوا أرض ايلة والحجاز وبني كل واحد منهم مدينة سماها باسمه وجعلوا سائر الارض خيمات وقسموها على ثلاثين كورة وجعلوها أربعة أعمال لكل عمل ملك يجلس على منبر ذهب في مدينته وعمل بربا وهى بيت الحكمة وعمل هيكلا لاخذ الكواكب وجعل فيه أصناما من ذهب كل صنم له مرتبة وكانت الاسكندرية واسمها رقودة فجعلوا لها خمس عشرة كورة وجعلوا فيها كبار الكهنة ونصبوا فى هيا كلها من أصنام الذهب أكثر مما فى غيرها وكان فيها مائتا صنم من ذهب وقسموا الصعيد على ثمانين كورة وجعلوه أربعة أقسام وكان عدد مدن أهل مصر الداخلة فى كورها ثلاثين مدينة فيها العجائب وقيل ان حميرا الاكبر واسمه العرنجج بن سبأ الاكبر واسمه عامر ويعرف بعبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان لما ملك بعد أبيه جمع جيوشه وسار يطأ الامم ويدوس الممالك كما فعل أبوه فأمعن فى المشرق حتى أبعد يأجوج ومأجوج الي مطالع الشمس ثم قفل نحو المغرب فجاءه قبائل من أهل اليمن من بني هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح يشكون من ثمود بن عابر ابن ارم بن سام بن نوح وما نزل بهم من ظلمهم فأمر برفعهم من أرض اليمن وأنزلهم ايلة فعمروها من ايلة الى ذات الاصال الى أطراف جبل نجد فقطعت ثمود هناك الصخور ونحتوا من الجبال البيوت وتكبروا وطغوا فبعث الله فيهم صالحا نبياً ورسولا فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ناقة من صخرة فأخرجها لهم فعقروها فأهلكهم الله بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * وقد ذكر أن موسى عليه السلام سار ببني اسرائيل بعد موت أخيه هرون الى أرض أولاد العيص وهى التى تعرف بجبال السراة جنب بلد الشوبك ثم مر فيها الى ايلة وتوجه بعد أيام الى برية باب حيث بلاد الكرك حتي حارب تلك الامم وكان الى جانب ايلة مدينة يقال لها عصيون جليلة عظيمة *(مربوط)* كورة من كور الاسكندرية كانت لشدة بياضها لا يكاد يبين فيها دخول الليل الا بعد وقت وكان الناس يمشون فيها وفي أيديهم خرق سود خوفا على أبصارهم ومن شدة بياضها لبس الرهبان السواد وكانت بلاد مربوط فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة وهى اليوم من قري الاسكندرية يزرع بها الفواكه وغيرها وقد وقفها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير على جهات بر بالجامع الحاكمي من القاهرة وبها جامع عمر في سنة ست وستين وستمائة ثم استأجرها

الملك المؤيد شيخ المحمودي في سنة احدى وعشرين وثمانمائة وجدد عمارة بستانها وقد خرب لترداد عرب لبدة وبرقة اليه فاستمرت في ديوان السلطان * (وادى هيب) * هذا الوادى بالجانب الغربي من أرض مصر فيما بين مربوط والفيوم يجلب منه الملح والنطرون عرف بهبيب بن محمد بن معقل بن الواقعة بن حزام بن عفان الغفارى أحد أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم شهد فتح مكة وروي عنه أبو تميم الجيشانى وأسلم مولي تجيب وسعيد ابن عبد الرحمن الغفارى وكان قد اعتزل عند فتنة عثمان رضى الله عنه بهذا الوادى فعرف به وكان يقول لا يفرق بين قضاء دين رمضان ويجمع بين الصلاتين في السفر ويقال لهذا الوادى أيضا وادى الملوك ووادى النطرون وبرية شهاب وبرية الاسقيط وميزان القلوب وكان به مائة دير للنصارى وبقى به سبعة ديورة وقد ذكرت عند ذكر الاديار من هذا الكتاب وهو واد كثير الفوائد فيه النطرون ويحصل منه مال كثير وفيه الملح الاندرانى والملح السلطاني وهو على هيئة ألواح الرخام وفيه الوكت والكحل الاسود ومعمل الزجاج وفيه الماسكة وهو طين أصفر في داخل حجر أسود يحك في الماء ويشرب لوجع المعدة وفيه البردى لعمل الحصر وفيه عين الغراب وهو ماء فى هيئة البركة وطولها نحو خمسة عشر ذراعا في عرض خمسة أذرع في مغار بالجبل لا يعلم من أين يأتي ولا الي أين يذهب وهو حلو رائق * ويذكر أنه خرج منه سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز فتلقوا عمرو ابن العاص بالطرانة مرجعه من الاسكندرية يطلبون أمانه لهم على أنفسهم وأديارهم فكتب لهم بذلك أمانا بقى عندهم وكتب لهم أيضا بجراية الوجه البحرى فاستمرت بأيديهم وان جرايتهم جاءت في سنة زيادة على خمسة آلاف أردب وهي الآن لا تبلغ مائة أردب

ذكر مدينة مدين

اعلم أن مدين امة شعيب هم بنو مديان بن ابراهيم عليه السلام وامهم قنطوراء ابنة يقطان الكنعانية ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم امم ومدين على بحر القلزم تحاذى تبوك على نحو ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شعيب وعمل عليها بيت * قال الفراء مدين اسم بلد وقطر وقيل اسم قبيلة سميت باسم أبيها مدين ويقال له مديان بن ابراهيم قاله مقاتل وغيره والجمهور على أن مدين اعجمى وقيل عربي فان كان عربيا فانه يحتمل أن يكون فعيلا من مدن بالمكان أقام به وهو بناء نادر وقيل مهمل أو مفعلا من دان فتصحيحه شاذ وهو ممنوع الصرف على كل حال سواء كان اسم الارض أو اسم القبيلة عجميا أو عربيا * وقال المسعودى قد تنازع أهل الشرائع في قوم شعيب بن نوفل بن رعويل بن مر بن عيقا بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وكان لسانه العربية فمنهم من رأى أنهم من العرب الداثرة والامم البائدة وبعض من ذكرنا من الاجيال الخالية

ومنهم من رأى أنهم من ولد المحصن بن جندل بن يعصب بن مدين بن ابراهيم الخليل وأن شعيبا آخرهم في النسب وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا فى ممالك متصلة فمنهم المسمى بأبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت وهم على ماذ كرنا بنو المحصن بن جندل وأحرف الجمل هى أسماء هؤلاء الملوك وهي الاثنان والعشرون حرفا التي عليها حساب الجمل وقد قيل في هذه الحروف غير ماذ كرنا من الوجوه فكان أبجد ملك مكة ومايليها من الحجاز وكان هوز وحطي ملكين ببلاد وج وهي الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد وكلمن وسعفص وقرشت ملوك بمدين وقيل ببلاد مصر وكان كلمن على ملك مدين ومن الناس من رأى أنه كان ملك جميع من سمينا مشاعا متصلا على ماذ كرنا وان عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم وان شعيبا دعاهم فكذبوه فوعدهم بعذاب يوم الظلة ففتح عليهم باب من السماء من نار ونجا شعيب بمن آمن معه الى الموضع المعروف بأيلة وهي غيضة نحو مدين فلما أحس القوم بالبلاء واشتد عليهم الحر وأيقنوا بالهلاك طلبوا شعيبا ومن آمن معه وقد أظلتهم سحابة بيضاء طيبة النسيم والهواء لا يجدون فيها ألم العذاب فأخرجوا شعيباومن آمن معه من مواضعهم وأزالوهم عن اماكنهم وتوهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم فجعلها الله عليهم نارا فأتت عليهم فرثت جارية بنت كلمن أباها وكانت بالحجاز فقالت

كلمن هدم ركني * هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه الـ * ـحتف نارا وسط ظله

كونت نارا فأضحت * دار قومي مضمحله

وقال المنتصر بن المنذر المدينى

الا ياشعيب قد نطقت مقالة * أبدت بها عمرا وتحيي بنى عمرو

هم ملكوا أرض الحجاز بأوجه * كمثل شعاع الشمس في صورة البدر

وهم قطنوا البيت الحرام وزينوا * قطورا وفازوا بالمكارم والفخر

ملوك بنى حطي وسعفص ذي الندى * وهوز أرباب الثنية والحجر

قال المسعودي ولهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب وسير وكيفية تغلبهم على هذه الممالك وتملكهم عليها وابادتهم من كان فيها قبلهم من الامم وقيل ان الايكة المذكورة فى قوله عز وجل ولقد كذب أصحاب الايكة المرسلين وفي قوله سبحانه وتعالى وان كان أصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم هي مدين وقيل من ساحل البحر الى مدين وقيل هي غيضة نحو مدين وقيل بل أصحاب الايكة الذين بعث اليهم شعيب كانوا بتبوك بين الحجر وأول الشام ولم يكن شعيب منهم وانما كان من مدين وقال أبو عبيد البكرى الايكة المذكورة فى كتاب الله تعالى التي كانت منازل قوم شعيب روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما

فيها روايتان احداهما ان الايكة من مدين الى شعيب والرواية الثانية انها من ساحل البحر الى مدين وكان شجرهم المقل والايكة عند أهل اللغة الشجر الملتف وكانوا أصحاب شجر ملتف وقال قوم الايكة الغيضة وليكة اسم البلد وما حولها كما قيل مكة وبكة وقال أبو جعفر النحاس ولا يعلم ليكة اسم البلد وقال ابن قتيبة وكان بعضهم يزعم ان بكة هو موضع المسجد وما حولها مكة كما فرق بين الايكة وليكة فقيل الايكة الغيضة وليكة البلد حولها * وقال البكري مدين بلد بالشام معلوم تلقاء غزة وهو المذكور في كتاب الله تعالى وهذا وهم بل مدين من أرض مصر وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الى مدينة مدين أميرهم زيد بن حارثة رضي الله عنه فأصاب سبيا من أهل ميتا قال ابن اسحاق وميتا هى السواحل فبيعوا وفرق بين الامهات والاولاد فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون فقال مالهم فأخبر خبرهم فقال لاتبيعوهم الا جميعا ومدين من منازل جذام بن عدى بن الحارث ابن مرة بن ادد بن زيد بن عمرو بن عزيب بن زيد بن كهلان وشعيب النبي المبعوث الى أهل مدين أحد بني وائل بن جذام وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوفد جذام مرحبا بقوم شعيب وأصهار موسي ولا تقوم الساعة حتي يتزوج فيكم المسيح ويولد له وقال محمد بن سهل الاحول مدين من أعراض المدينة مثل فدك والفرع ورهاط * قال مؤلفه رحمه الله تعالى وكان بارض مدين عدة مدائن كثيرة قد باد أهلها وخربت وبقى منها الى يومنا هذا وهو سنة خمس وعشرين وثمانمائة نحو الاربعين مدينة قائمة منها ما يعرف اسمه ومنها ما قد جهل اسمه فمما يعرف اسمه فيما بين أرض الحجاز وبلاد فلسطين وديار مصر ست عشرة مدينة منها في ناحية فلسطين عشر مدائن وهى الخلصة والسنيطة والمدرة والمنية والاعوج والحويرق والبئرين والماءين والسبع والملق وأعظم هذه المدائن العشر الخلصة والسنيطة وكثيرا ماتنقل حجارتها الى غزة ويبني بها هناك ومن مدائن مدين بناحية بحر القلزم والطور مدينة فاران ومدينة الرقة ومدينة القلزم ومدينة ايلة ومدينة مدين وبمدينة مدين الى الآن آثار عجيبة وعمد عظيمة * ووجد في مدينة الاعوج أعوام بضع وستين وسبعمائة جب بقلعتها بعيد المهوى يبلغ عمقه نحو مائة ذراع وبقاعه عدة أسفار على رفوف حمل منها سفر طوله ذراعان وأزيد قد غلف بلوحين من خشب وكتابته بالقلم المسند طول الالف واللام نحو شبر فوجد ببلاد الكرك من قرأه فاذا هو سفر من عشرة أسفار قد ابتدأه بحمد الله ثم قال خروج موسى من أرض مصر الي بلاد مدين وملوك بنى مدين فيما بعد شعيب فذكر لموسى عليه السلام عدة اسماء منها اسمه بالعربية موسى بن عمران وبالعبرانية موشى وبالفارسية داران و بالقبطية هروسيس وذكر أنه تزوج ابنة شعيب وأنه أقام بمدين ثماني حجج ثم قال لابن شعيب قد اتممت لك شرطك وسأزيدك سنتين فضلا مني

(بقية خبر مدينة مدين)

قال وخرج موسى متوجها الى مصر والملك يومئذ على مدين ابجد قال وقوى أمر أبجد فطغى حتى ملك الحجاز واليمن وكان له خمسة أولاد هم هوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت فأقام ابجد ملكا باليمن مائة سنة ومات وقد استخلف من بعده ابنه كلمن باليمن وجعل ابنه هوز على الحجاز وابنه حطي على أرض مصر وابنه سعفص على الجزيرة وبلادها حيث الموصل وحران الى أرض العراق وابنه قرشت على العراق ومشارفها من خراسان وكان قرشت هو الجبار فيهم وكان سعفص وهوز وكلمن أهل عدل وحلم وكان حطي صاحب بطش وجراة وكان بنو اسرائيل اذ ذاك بالشام فلم يملك أولاد ابجد أرض الشام ولا احتووا عليها وكانت مدة ملكهم نحوا من مائة وخمسين سنة فتم لهم بدولة أبيهم أبجد ثلثمائة سنة روزيت بن هوز وعرزيت بن حطي بن ابجد وأزيد ثم ملك بعدهم على بني اسرائيل نحو سبع سنين ثم خرجت الدولة عن أولاد أبجد وأقام هذا الكتاب عندهم زمانا ثم أعادوه الي الجب من قلعة الاعوج حدثني بهذا الخبر الحافظ المتقن الضابط أبو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن عبد الرحمن الغرياني التونسى المالكي قال حدثني به شتر ابن غنيم العامرى شيخ لقيه بارض فلسطين أنه شاهد الكتاب المذكور وهو شاب وحفظ منه ماتقدم ذكره وقيل ان مالك بن دعر بن حجر بن جديلة بن لخم كان له أربعة وعشرون ولدا ذكرا فكثرت أولادهم حتى بنوا المداين والقرى والحصون وعمروا بلاد مدين كلها وغلبوا على بلاد الشام ومصر والحجاز وغيرها خمسمائة سنة وقيل انما كان استيلاء ملوك مدين على مصر خمسمائة سنة بعد غرق فرعون موسى وهلاك دلوكة بنت زفان حتى أخرجهم منها نبي الله سليمان بن داود فعاد الملك الى القبط بعدهم

ذكر مدينة فاران

هذه المدينة بساحل بحر القلزم وهى من مدن العماليق على تل بين جبلين وفي الجبلين نقوب كثيرة لاتحصى مملوءة أمواتا ومن هناك الى بحر القلزم مرحلة واحدة ويقال له هناك ساحل بحر فاران وهو البحر الذى أغرق الله فيه فرعون وبين مدينة فاران والتيه مرحلتان ويذكر ان فاران اسم لجبال مكة وقيل اسم لجبال الحجاز وهى التى ذكرت في التوراة والتحقيق أن فاران والطور كورتان من كور مصر القبلية وهى غير فاران المذكورة في التوراة وقيل ان فاران بن عمرو بن عمليق هو الذى نسب اليه جبال الحرم فقيل جبال فاران وبعضهم يقول جبال فران وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين الي اليوم وبها نخل كثير مثمر أكلت من ثمره وبها نهر عظيم وهى خراب يمر بها العربان

ذكر أرض الجفار

اعلم أن الجفار اسم لخمس مدائن وهي الفرما والبقارة والورادة والعريش ورفح والجفار كله رمل وسمى بالجفار لشدة المشي فيه على الناس والدواب من كثرة رمله وبعد مراحله والجفار تجفر فيه الابل فاتخذ له هذا الاسم كما قيل للحبل الذى يهجر به البعير هجار وللذى يحجر به حجار وللذى يعقل به عقال وللذى يبطن به بطان وللذى يخطم به خطام وللذي يزم به زمام واشتقت البقارة من البقر والورادة من الوريد والعريش أخذ من العرش وقيل ان رفح اسم جبل * وكان يسكن الجفار في القديم خذام بن العريان ويقال ان أرض الجفار كانت في الدهر الاول والزمن الغابر متصلة العمارة كثيرة البركات مشهورة بالخيرات لكثرة زراعة أهلها الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً عذباً ثم صار بها نخل يحدق بها من كل النواحي الى أن دمرها الله تدميرا فصارت الى اليوم ذات رمل عظيم يسلك فيه الى العريش والى رفح كله قفر تعرف بقعته برمل الغرابى قليل الماء عديم المرعي لا أنيس به فسبحان محيل الاحوال

ذكر صعيد مصر

الصعيد المرتفع من الارض وقيل الارض المرتفعة من الارض المنخفضة وقيل مالم يخالطه رمل ولا سبخة وقيل هو وجه الارض وقيل الارض الطيبة وقيل هو كل تراب طيب وتسمية هذه الجهة من أرض مصر بهذا الاسم انما حدث فى الاسلام سماها العرب بذلك لانها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر ولذلك يقال فيها أعلى الارض ولانها أرض ليس فيها رمل ولا سباخ بل كلها أرض طيبة مباركة ويقال للصعيد أيضا الوجه القبلى * قال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه ولما حضرت مصرايم الوفاة عهد الى ابنه قبطيم وكان قد قسم أرض مصر بين بنيه فجعل لقبطيم من بلد قفط الى أسوان ولاشمون من بلد أشمون الى منف ولاتريب الحوف كله ولصا من ناحية صا البحيرة الى قرب برقة وقال لاخيه فارق لك من برقة الى الغرب فهو صاحب أفريقية وولده الافارق وأمر كل واحد من بنيه أن يبني لنفسه مدينة في موضعه * وقال ابن عبد الحكم فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم قطع مصر لكل واحد منهم قطعة يحوزها لنفسه ولولده وقسم لهم هذا النيل فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها وبه سميت قفط قفطا وما فوقها الي أسوان وما دونها الى أشمون في الشرق والغرب وقطع لاشمون من أشمون فما دونها في الشرق والغرب الى منف فسكن أشمون أشمون فسميت به وقطع لاتريب مابين منف الي صا فسكن أتريب فسميت به وقطع لصا ما بين صا الي البحر فسكن صا فسميت به فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء جزأين بالصعيد وجزأين بأسفل الارض * وقال أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر

الادفوي فى كتاب الطالع السعيد في تاريخ الصعيد مسافة اقليم الصعيد الاعلى مسيرة اثنى عشر يوما بسير الجمال وعرضه ثلاث ساعات وأكثر بحسب الاماكن العامرة ويتصل عرضه في الكورة الشرقية بالبحر الملح وأراضي البجة وفي الغربية بالواح وهى كورتان شرقية وغربية والنيل بينهما فاصل وأول الشرقية من مرج بنى هميم المتصلة أرضها بأراضى جرجا من عمل أخميم وآخرها من قبلى الهو ويليها أول أراضى النوبة وفي هذه الكورة تيج وقفط وقوص وأول الكورة الغربية برديس تتصل أرضها بأرض جرجا وفي هذه الكورة الغربية سمهود وآخر الكورة الغربية أسوان وبحافته أكثر النخل من الجانبين تكون مساحة الاراضي التي فيها النخل والبساتين تقارب عشرين ألف فدان والمستولى على اقليم الصعيد المشترى * ويقال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمراً فقصها بعض الولاة فلم تحمل في ذلك العام ولا تمرة واحدة وكانت هذه النخلة في الجانب الغربي وبيع منها في الغلاء كل ويبة بدينار ويقال لما صورت الدنيا لامير المؤمنين هرون بن محمد الرشيد لم يستحسن الا كورة سيوط من صعيد مصر فانها ثلاثون الف فدان في استواء من الارض لو وقعت فيها قطرة ماء لانتشرت في جميعها * وبالصعيد بقايا سحر قديم * حكى الامير طقطبا والي قوص في أيام الناصر محمد بن قلاون قال أمسكت امرأة ساحرة فقلت لها أريد أن أبصر شيئا من سحرك فقالت أجود عملى أن أسحر العقرب على اسم شخص بعينه فلا بد أن تقع عليه ويصيبه سمها فتقتله فقلت أريني هذا واقصديني بسحرك فأخذت عقرباً وعملت ما أحبت ثم أرسلت العقرب فتبعني وأنا أتنحي عنه وهو يقصدني فجلست على تخت وضعته على بركة ماء فاقبل العقرب الي ذلك الماء وأخذ في التوصل الي فلم يطق ذلك فمر الي الحائط وصعد فيه وأنا أشاهده حتى وصل الي السقف ومر فيه الى أن صار فوقى وألقى نفسه صوبى وسعى نحوى حتى قرب مني فضربته فقتلته ثم قتلت الساحرة أيضا * وأرض الصعيد كثيرة المواشى من الضأن وغير ذلك لكثرة نتاجه حتى ان الرأس الواحد من نعاج الضأن يتولد عنه فى عشر سنين ألف وأربع وعشرون رأسا وذلك بتقدير السلامة وأن تلد كلها اناثا وتلد مرة واحدة في كل سنة ولا تلد فى كل بطن غير رأس واحد والا فان ولدت فى السنة مرتين وكان في كل بطن رأسان تضاعف العدد وتأمل حساب ما قلناه تجده صحيحا وقد شوهد كثيرا أن من أغنام الصعيد ما يلد فى السنة ثلاث مرات ويلد في البطن الواحد ثلاثة أرؤس * وكانت الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد لست قبائل وهم بنو هلال وبلى وجهينة وقريش ولواته وبنو كلاب وكان ينزل مع هؤلاء عدة قبائل سواهم من الانصار ومن مزينة وبني دراج وبني كلاب وثعلبة وجذام * وبلغ من عمارة الصعيد أن الرجل في أيام الناصر محمد بن قلاون وما بعدها كان يمر من القاهرة الي أسوان فلا

يحتاج الي نفقة بل يجد بكل بلد وناحية عدة دور للضيافة اذا دخل داراً منها أحضر لدابته علفها وجئ له بما يليق به من الاكل ونحوه وآل أمره الآن الي أن لا يجد الرجل أحدا فيما بين القاهرة وأسوان يضيفه لضيق الحال ثم تلاشى أمر بلاد الصعيد منذ سنة الشراقي في أيام الاشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون سنة ست وسبعين وسبعمائة وتزايد تلاشيه فى أيام الظاهر برقوق لجور الولاة ولم يزل فى ادبار الي أن كانت سنة ست وثمانمائة وشرقت مصر بقصور مد النيل فدهى أهل الصعيد من ذلك بمالا يوصف حتى انه مات من مدينة قوص سبعة عشر ألف انسان ومات من مدينة سيوط أحد عشر ألف انسان ممن غسل وكفن ومن مدينة هوّ خمسة عشر ألف انسان وذلك كله سوى الطرحى على الطرقات ومن لا يعرف من الغرباء ونحوهم ثم دمر فى أيام المؤيد شيخ فلم يبق منه الا رسوم تبذل الولاة الجهد فى محوها نسأل الله حسن الخاتمة

ذكر الجنادل ولمع من أخبار أرض النوبة

الجندل ما يقل الرجل من الحجارة وقيل هو الحجر كله الواحدة جندلة والجندل الجنادل قال سيبويه وقالوا جندل يعنون الجنادل وصرفوه لنقصان البناء عما لا ينصرف وأرض جندلة ذات جندل وقيل الجندل المكان الغليظ فيه حجارة ومكان جندل كثير الجندل * قال عبد الله بن أحمد بن سليم الاسواني فى كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل * وأول بلد النوبة قرية تعرف بالقصر من أسوان اليها خمسة أميال وآخر حصن للمسلمين جزيرة تعرف ببلاق بينها وبين قرية النوبة ميل وهو ساحل بلد النوبة ومن أسوان الى هذا الموضع جنادل كثيرة الحجر لا تسلكها المراكب الا بالحيلة ودلالة من يخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك لان هذه الجنادل متقطعة وشعاب معترضة فى النيل ولانصبابه فيها خرير عظيم ودوى يسمع من بعد وبهذه القرية مسلحة وباب الى بلد النوبة ومنها الى الجنادل الاولى بن بلد النوبة عشر مراحل وهي الناحية التى يتصرف فيها المسلمون ولهم فيما قرب أملاك ويتجرون فى أعلاها وفيها جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم بالعربية وشجرها كثير وهى ناحية ضيقة شظفة كثيرة الجبال وما تخرج عن النيل وقراها متسطرة على شاطئه وشجرها النخل والمقل وأعلاها أوسع من أدناها وفى أعلاها الكروم والنيل لا يروى مزارعها لارتفاع أرضها وزرعها الفدان والفدانان والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب والقمح عندهم قليل والشعير أكثر والسلت ويعتقبون الارض لضيقها فيزرعونها فى الصيف بعد تطريتها بالزبل والتراب الدخن والذرة والجاورس والسمسم واللوبيا وفى هذه الناحية نجراش مدينة المريس وقلعة ابريم وقلعة أخري دونها وبها مينا تعرف بأدواء ينسب اليها لقمان الحكيم وذو النون وبها بربا عجيب ولهذه الناحية وال من

قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من أجل ولاتهم لقربه من أرض الاسلام ومن يخرج الى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه فى تجارة أو هدية اليه أو الى مولاه يقبل الجميع ويكافئ عليه بالرقيق ولا يطلق لاحد الصعود الى مولاه لا لمسلم ولا لغيره * وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى هى ساحل واليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم ولا تجاوزها المراكب ولا يطلق لاحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها الا باذن من صاحب جبلهم ومنها الى المقس الاعلى ست مراحل وهي جنادل كلها وشر ناحية رأيتها لهم لصعوبتها وضيقها ومشقة مسالكها أما بحرها فجنادل وجبال معترضة فيه حتى ان النيل ينصب من شعاب ويضيق فى مواضع حتى يكون سعة ما بين الجانبين خمسين ذراعا وبرها مجاوب ضيقة وجبال شاهقة وطرقات ضيقة حتى لايمكن الراكب أن يصعد منها والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها ورمال في غربها وشرقها وهذه الجبال حصنهم واليها يفزع أهل الناحية التي قبلها المتصلة بأرض الاسلام وفى جزائرها نخل يسير وزرع حقير وأكثر اكلهم السمك ويدهنون بشحمه وهى من أرض مريس وصاحب الجبل واليهم والمسلحة بالمقس الاعلى صاحبها من قبل كبيرهم شديد الضبط لها حتى ان عظيمهم اذا صار بها وقف به المسلحي وأوهم أنه يفتش عليه حتى يجد الطريق الى ولده ووزيره فمن دونهما ولا يجوزها دينار ولا درهم اذ كانوا لايتبايعون بذلك الا دون الجنادل مع المسلمين وما فوق ذلك لابيع بينهم ولا شراء وانما هى معاوضة بالرقيق والمواشي والجمال والحديد والحبوب ولا يطلق لاحد أن يجوزها الا باذن الملك ومن خالف كان جزاؤه القتل كائنا من كان وبهذا الاحتياط تنكتم أخبارهم حتي ان العسكر منهم يهجم على البلد الى البادية وغيرهم فلا يعلمون به والسنباذ الذى يخرط به الجوهر يخرج من النيل في هذه المواضع يغطس عليه فيوجد جسمه باردا مخالفا للحجارة فاذا أشكل عليه نفخ فيه بالفم فيعرق ومن هذه المسلحة الى قرية تعرف بساى جنادل أيضا وهي آخر كرسيهم ولهم فيها أسقف وفيها بربا ثم ناحية سقلودا وتفسيرها السبع ولاة وهى أشبه الارض بالارض المتاخمة لارض الاسلام في السعة والضيق في مواضع والنخل والكرم والزرع وشجر المقل وفيها شيء من شجر القطن ويعمل منه ثياب وخشة وبها شجر الزيتون وواليها من قبل كبيرهم وتحت يده ولاة يتصرفون وفيها قلعة تعرف بأصطنون وهي أول الجنادل الثلاثة وهي أشد الجنادل صعوبة لان فيها جبلا معترضا من الشرق الى الغرب في النيل والماء ينصب من ثلاثة أبواب وربما رجع الى بابين عند انحساره شديد الخرير عجيب المنظر يحدر الماء عليه من علو الجبل وقبليه فرش حجارة فى النيل نحو ثلاثة برد الى قرية تعرف بيستو وهي آخر قرى مريس وأول بلد مقرة ومن هذا الموضع الى حد المسلمين لسانهم مريسي وهي آخر عمل متملكهم

ثم ناحية بقون وتفسيرها العجب وهي عند اسمها لحسنها وما رأيت على النيل أوسع منها وقدرت أن سعة النيل فيها من الشرق الى الغرب مسيرة خمس مراحل الجزائر تقطعه والانهار منه تجري بينها على أرض منخفضة وقرى متصلة وعمارة حسنة بأبرجة حمام ومواش وأنعام وا كثر ميرة مدينتهم منها وطيورها النقيط والنوبي والببغا وغير ذلك من الطيور الحسان وأ كثر نزهة كبيرهم في هذه الناحية * قال وكنت معه في بعض الاوقات فكان سيرنا فى ظل شجر من الحافتين في الخلجان الضيقة وقيل ان التمساح لا يضر هناك ورأيتهم يعبرون أ كثر هذه الانهار سباحة ثم سفد بقل وهي ناحية ضيقة شبيهة بأول بلادهم الأن فيها جزائر حسانا وفيها دون المرحلتين نحو ثلاثين قرية بالابنية الحسان والكنائس والاديار والنخل الكثير والكروم والبساتين والزرع ومروج كبار فيها ابل وجمال صهب مؤبلة للنتاج وكبيرهم يكثر الدخول اليها لان طرفها القبلي يحاذي دنقلة مدينتهم ومن مدينة دنقلة دار المملكة الى أسوان خمسون مرحلة وذكر صفتها ثم قال انهم يسقفون مجالسهم بخشب السنط وبخشب الساج الذى يأتي به النيل في وقت الزيادة ستمالات منحوتة لايدرى من أين تأتي ولقد رأيت على بعضها علامة غريبة ومسافة مابين دنقلة الى أول بلد علوة أ كثر مما بينها وبين اسوان وفي ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشي والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف مافى الجانب الذي يلي أرض الاسلام وفي هذه الاماكن جزائر عظام مسيرة أيام فيها الجبال والوحش والسباع ومفاوز يخاف فيها العطش والنيل ينعطف من هذه النواحى الى مطلع الشمس والى مغربها مسيرة أيام حتي يصير المصعد كالمنحدر وهي الناحية التي تبلغ العطوف من النيل الى المعدن المعروف بالشلة وهو بلد يعرف بشنقير ومنه خرج العمرى وتغلب على هذه الناحية الى أن كان من أمره ماكان وفرس البحر يكثر في هذه المواضع ومن هذا الموضع طرق الى سواكن وباصع ودهلك وجزائر البحر ومنها عبر من نجا من بني أمية عند هربهم الى النوبة وفيها خلق من البجة يعرفون بالزنافج انتقلوا الى النوبة قديما وقطنوا هناك وهم على حدتهم في الرعي واللغة لايخالطون النوبة ولا يسكنون قراهم وعليهم وال من قبل النوبة

﴿ ذكر تشعب النيل من بلاد علوة ومن يسكن عليه من الامم ﴾

اعلم أن النوبة والمقرة جنسان بلسانين كلاهما على النيل فالنوبة هم المريس المجاورون لارض الاسلام وبين أول بلدهم وبين اسوان خمسة أميال ويقال ان سلها جد النوبة ومقرى جد المقرة من اليمن وقيل النوبة ومقرى من حمير وأ كثر أهل الانساب على انهم جميعا من ولد حام بن نوح وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية وأول أرض المقرة قرية تعرف بنافة على مرحلة من أسوان ومدينة ملكهم يقال لها نجراش على أقل من عشر

مراحل من أسوان ويقال ان موسى صلوات الله عليه غزاهم قبل مبعثه في أيام فرعون فأخرب نافة وكانوا صابئة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لها ثم تنصروا جميعا النوبة والمقرة ومدينة دنقلة هي دار مملكتهم وأول بلاد علوة قرى في الشرق على شاطىء النيل تعرف بالابواب ولهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح *والنيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار فمنها نهر يأتي من ناحية المشرق كدر الماء يجف في الصيف حتى يسكن بطنه فاذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء وزادت البرك التي فيه وأقبل المطر والسيول فى سائر البلد فوقعت الزيادة فى النيل وقيل ان آخر هذا النهر عين عظيمة تأتى من جبل قال مؤرخ النوبة وحدثني سميون صاحب عهد بلد علوة أنه يوجد فى بطن هذا النهر حوت لاقشر له ليس هو من جنس مافى النيل يحفر عليه قامة وأكثر حتى يخرج وهو كبير وعليه جنس مولد بين العلوة والبجة يقال لهم الديجيون وجنس يقال لهم بازة يأتى من عندهم طير يعرف بحمام بازين وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة ثم النيل الابيض وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن قال وقد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذي عندهم وعن لونه فذكر أنه يخرج من جبال الرمل أو جبل الرمل وانه يجتمع في بلد السودان في برك عظام ثم ينصب الى مالا يعرف وانه ليس بأبيض فاما أن يكون اكتسب ذلك اللون مما يمر عليه أو من نهر آخر ينصب اليه وعليه أجناس من جانبيه ثم النيل الاخضر وهو نهر يأتى من القبلة مما يلى الشرق شديد الخضرة صافى اللون جدا يرى مافي قعره من السمك وطعمه مخالف لطعم النيل يعطش الشارب منه بسرعة وحيتان الجميع واحدة غير أن الطعم مختلف ويأتى فيه وقت الزيادة خشب الساج والبقم والغثاء وخشب له رائحة كرائحة اللبان وخشب غليظ يحت ويعمل منه مقدام وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضا وقيل انه وجد فيه عود البخور قال وقد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة التي تأتى فيه وقت الزيادة علامة غريبة ويجتمع هذان النهران الابيض والاخضر عند مدينة متملك بلد علوة ويبقيان على ألوانهما قريبا من مرحلة ثم يختلطان بعد ذلك وبينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما قال وأخبرنى من نقل النيل الابيض وصبه في النيل الاخضر فبقى فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا وبين هذين النهرين جزيرة لايعرف لها غاية وكذلك لايعرف لهذين النهرين نهاية فأولهما يعرف عرضه ثم يتسع فيصير مسافة شهر ثم لاتدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض لان فيهما أجناسا كثيرة وخلقا عظيما قال وبلغني أن بعض متملكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها فلم يأت عليه بعد سنين وان في طرفها القبلي جنسا يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الارض مثل السراديب بالنهار من شدة حر الشمس ويسرحون في الليل وفيهم قوم عراة والانهار الاربعة الباقية تأتى أيضا من القبلة مما يلى الشرق أيضا فى وقت واحد ولا

يعرف لها نهاية أيضا وهي دون النهرين الابيض والاخضر في العرض وكثرة الخلجان والجزائر وجميع الانهار الاربعة تنصب فى الاخضر وكذلك الاول الذى قدمت ذكره ثم يجتمع مع الابيض وكلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن وغيرها وأحد هذه الاربعة يأتى مرة من بلاد الحبشة قال ولقد أكثرت السؤال عنها واستكشفتها من قوم عن قوم فما وجدت مخبرا يقول انه وقف على نهاية جميع هذه الانهار والذى انتهى اليه علم من عرفنى عن آخرين الى خراب وانه يأتي في وقت الزيادة في هذه الانهار آلة مراكب وأبواب وغير ذلك فيدل على عمارة بعد الخراب فاما الزيادة فيجمعون انها من الامطار مع مادة تأتى من ذاتها والدليل على ذلك النهر الذي يجف ويسكن بطنه ثم ينبع وقت الزيادة ومن عجائبه أن زيادته في أنهار مجتمعة وسائر النواحى والبلدان في مصر وما يليهـا والصعيد واسوان وبلد النوبة وعلوة وما وراء ذلك في زمان واحـد واكثر ما وقف عليه من هذه الزيادة أنه ربمـا وجدت مثلا باسوان ولاتوجد بقوص ثم تأتي بعد فاذا كثرت الامطار عندهم واتصلت السيول علم أنها سنة رى واذا قصرت الامطار علم أنها سنة ظمأ قال وأما من طرق بلاد الزنج فانهم أخبروني عن مسيرهم في بحر الصين الى بلاد الزنج بالريح الشمالى مساحلين للجانب الشرقي من جزيرة مصر حتى ينتهوا الى موضع يعرف برأس حفرى وهو عندهم آخر جزيرة مصر فينظرون كوكبا يهتدون به فيقصدون الغرب ثم يعودون الى البحرى ويصير الشمال في وجوههم حتى يأتوا الى قبيلة من بلاد الزنج وهى مدينة متملكهم وتصير قبلتهم للصلاة الى جدة قال وبعض الانهار الاربعة يأتي من بلاد الزنج لانه يأتي فيه الخشب الزنجي وسوبة مدينة العلوى شرقي الجزيرة الكبرى التى بين البحرين الابيض والاخضر فى الطرف الشمالى منها عند مجتمعهما وشرقيها النهر الذى يجف ويسكن بطنه وفيهـا ابنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين ومتملك علوة اكثر مالا من متملك المقرة وأعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى وبلده أخصب وأوسع والنخل والكرم عندهم يسير واكثر حبوبهم الذرة البيضاء التى مثل الارز منها خبزهم ومزرهم واللحم عندهم كثير لكثرة المواشى والمروج الواسعة العظيمة السعة حتى انه لا يوصل الي الجبل الا في أيام وعنـدهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ودينهم النصرانية يعاقبة وأساقفهم من قبل صاحب الاسكندرية كالنوبة وكتبهم بالرومية يفسرونهـا بلسانهم وهم أقل فهما من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولاينكرون ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش فليكن أمره وهو يتتوج بالذهب والذهب كثير فى بلده * ومما في بلده من العجائب أن في الجزيرة الكبرى التى بين البحرين جنسا يعرف بالكرنينا لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر فاذا

كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر واختط على مقدار ما معه وزرع في أربعة أركان الخطة يسيرا وجعل البذر في وسط الخطة وشيأ من المزر وانصرف عنه فاذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر فاذا كان وقت الحصاد حصد يسيرا منه ووضعه في موضع أراده ومعه مزر وينصرف فيجد الزرع قد حصد بأسره وجرن فاذا أراد دراسه وتذريته فعل به كذلك وربما أراد أحدهم أن ينقي زرعه من الحشيش فيلفظ بقلع شئ من الزرع فيصبح وقد قلع جميع الزرع وهذه الناحية التي فيها ماذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين يزرع جميعها في وقت واحد وميرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية فيوجهون المراكب فتوسق وربما وقع بينهم حرب * قال وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه ولا يرتابون به ولولا أن اشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثل لما ذكرت شيأ منه لشناعته فأما أهل الناحية فيزعمون أن الجن تفعل ذلك وانها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها وتعمل لهم عجائب وان السحاب يطيعهم * قال ومن عجائب ما حدثني به متملك المقرة للنوبة انهم يمطرون في الجبال ويلتقطون منه للوقت سمكا على وجه الارض وسألتهم عن جنسه فذكروا أنه صغير القدر بأذناب حمر قال وقد رأيت جماعة وأجناسا ممن تقدم ذكر اكثرهم يعترفون بالبارى سبحانه وتعالى ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ومنهم من لايعرف الباري ويعبد الشمس والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة وذكر أنه رأى رجلا في مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده فقال مسافته الي النيل ثلاثة أهلة وسأله عن دينه فقال ربي وربك الله ورب الملك ورب الناس كلهم واحد وانه قال له فأين يكون قال في السماء وحده وقال انه أذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل ودعوا الله فيجابون للوقت وتقضي حاجتهم قبل أن ينزلوا وسأله هل أرسل فيكم رسول قال لا فذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه وما أيدوا به من المعجزات فقال اذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ثم قال قد صدقتهم ان كانوا فعلوا * قال مؤلفه رحمه الله وقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة وبني بدنقلة جامع يأوى اليه الغرباء واعلم أن على ضفة النيل ايضا الكانم وملكها مسلم وبينه وبين بلاد مالى مسافة بعيدة جدا وقاعدة ملكه بلدة اسمها حيمي واول مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زرلا وآخرها طولا بلدة يقال لها كاكا وبينهما نحو ثلاثة أشهر وهم يتلثمون وملكهم متحجب لا يرى الا يومى العيدين بكرة وعند العصر وطول السنة لا يكلمه أحد الا من وراء حجاب وغالب عيشهم الارز وهو ينبت من غير بذر وعندهم القمح والذرة والتين والليمون والباذنجان واللفت والرطب ويتعاملون بقماش ينسج عندهم

اسمه دندى طول كل ثوب عشرة أذرع يشترون به من ربع ذراع فأكثر ويتعاملون أيضا بالودع والخرز والنحاس المكسر والورق وجميع ذلك بسعر ذلك القماش وفي جنوبها شعارى وصحارى فيها أشخاص متوحشة كالفيول قريبة من شكل الآدمي لا يلحقها الفارس تؤذى الناس ويظهر في الليل أيضا شبه نار تضئ فاذا مشى أحد ليلحقها بعدت عنه ولو جرى اليها لا يصل اليها بل لاتزال امامه فاذا رماها بحجر فأصابها تشظي منها شرر وتعظم عندهم اليقطينة حتى تصنع منها مراكب يعبر فيها فى النيل * وهذه البلاد بين أفريقية وبرقة ممتدة في الجنوب الى سمت الغرب الاوسط وهي بلاد قحط وشطن وسوء مزاج واول من بث بها الاسلام الهادى العثماني ادعى انه من ولد عثمان بن عفان رضى الله عنه وصارت بعده لليزنيين من بنى سيف بن ذى يزن وهم على مذهب الامام مالك بن انس رحمه الله والعدل قائم بينهم وهم يابسون فى الدين لا يلينون وبنوا بمدينة مصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق في سنى أربعين وستمائة وصارت وفودهم تنزل بها وسيرد ذكرها فى المدارس ان شاء الله تعالى

ذكر البجه ويقال انهم من البربر

اعلم أن أول بلد البجه من قرية تعرف بالخزية معدن الزمرذ في صحراء قوص وبين هذا الموضع وبين قوص نحو من ثلاث مراحل وذكر الجاحظ انه ليس في الدنيا معدن للزمرذ غير هذا الموضع وهو يوجد فى مغاير بعيدة مظلمة يدخل اليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ويحفر عليه بالمعاول فيوجد في وسط الحجارة وحوله غشيم دونه فى الصبغ والجوهر وآخر بلاد البجه أول بلاد الحبشة وهم فى بطن هذه الجزيرة أعني جزيرة مصر الي سيف البحر الملح مما يلى جزائر سواكن وباضع ودهلك وهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي بأخبية من جلود وأنسابهم من جهة النساء ولكل بطن منهم رئيس وليس عليهم متملك ولا لهم دين وهم يورثون ابن البنت وابن الاخت دون ولد الصلب ويقولون ان ولادة ابن الاخت وابن البنت اصح فانه ان كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال وكان لهم قديما رئيس يرجع جميع رؤسائهم الى حكمه يسكن قرية تعرف بهجر هى اقصى جزيرة البجه ويركبون النجب الصهب وتنتج عندهم وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضا والمواشى من البقر والغنم والضأن غاية في الكثرة عندهم وبقرهم حسان ململمة بقرون عظام ومنها جم وكباشهم كذلك منمرة ولها ألبان وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن واكلهم للجبن قليل وفيهم من يأكله وأبدانهم صحاح وبطونهم خماص وألوانهم مشرقة الصفرة ولهم سرعة فى الجرى يباينون بها الناس وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليه وعلى العطش يسابقون عليها الخيل ويقاتلون عليها وتدور بهم كما يشتهون

ويقطعون عليها من البلاد مايتفاوت ذكره ويتطاردون عليها في الحرب فيرمي الواحد منهم الحربة فان وقعت في الرمية طار اليها الجمل فأخذها صاحبها وان وقعت في الارض ضرب الجمل بجرانه الارض فأخذها صاحبها ونبغ منهم في بعض الاوقات رجل يعرف بكلاز شديد مقدام وله جمل ماسمع بمثله في السرعة وكان أعور وصاحبه كذلك التزم لقومه انه يشرف على مصلى مصر يوم العيد وقد قرب العيد قربا لايكون للبلوغ اليها في مثله حقيقة فوفى بذلك واشرف على المقطم وضربت الخيل خلفه فلم يلحق وهذا هو الذي أوجب أن يكون في السفح طليعة يوم العيد وكان الطولونية وغيرهم من أمراء مصر يوقفون في سفح الجبل المقطم مما يلى الموضع المعروف بالحبش جيشا كثيفا مراعيا للناس حتى ينصرفوا من عيدهم في كل عيد وهم أصحاب ذمة فاذا غدر أحدهم رفع المغدور به ثوبا على حربة وقال هذا عرش فلان يعنى أبا الغادر فتصير سيئة عليه الي أن يترضاه وهم يبالغون في الضيافة فاذا طرق أحدهم الضيف ذبح له فاذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب الانعام اليه سواء كانت له أو لغيره وان لم يكن شيء نحر راحلة الضيف وعوضه ماهو خير منها وسلاحهم الحراب السباعية مقدار طول الحديدة ثلاثة اذرع والعود أربعة اذرع وبذلك سميت سباعية والحديدة في عرض السيف لايخرجونها من أيديهم الا في بعض الاوقات لان في آخر العود شيأ شبيها بالفلكة يمنع خروجها عن ايديهم وصناع هذه الحراب نساء في موضع لايختلط بهن رجل الا المشترى منهن فاذا ولدت احداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها وان ولدت غلاما قتلته ويقلن ان الرجال بلاء وحرب ودرقهم من جلود البقر مشعرة ودرق مقلوبة تعرف بالا كسومة من جلود الجواميس وكذلك الدهلكية ومن دابة في البحر وقسيهم عربية كبار غلاظ من السدر والشوحط يرمون عليها بنبل مسموم وهذا السم يعمل من عروق شجر الغلف يطبخ على النار حتي يصير مثل الغرا فاذا أرادوا تجربته شرط أحدهم جسده وسيل الدم ثم شممه هذا السم فاذا تراجع الدم علم انه جيد ومسح الدم لئلا يرجع الى جسمه فيقتله فاذا أصاب الانسان قتل لوقته ولو مثل شرطة الحجام وليس له عمل فى غير الجرح والدم وان شرب منه لم يضر وبلدانهم كلها معادن وكلما تصاعدت كانت أجود ذهبا وأ كثر وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنيطيس والمرقشيتا والجمست والزمرذ وحجارة شطبا فاذا بلت الشطبة منها بزيت وقدت مثل الفتيلة وغير ذلك مما شغلهم طلب معادن الذهب عما سواه والبجه لاتتعرض لعمل شيء من هذه المعادن وفي أوديتهم شجر المقل والاهليلج والاذخر والشيح والسنا والحنظل وشجر البان وغير ذلك وباقصي بلدهم النخل وشجر الكرم والرياحين وغير ذلك مما لم يزرعه أحد وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة وعناق الارض والزباد ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان

على لون الذهب قليلة البقاء اذا صيدت ومن الطيور الببغا والنقيط والنوبي والقماري ودجاج الحبش وحمام بازين وغير ذلك وليس منهم رجل الا منزوع البيضة اليمني وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن وانه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج بمقدار ذكر الرجل ثم قل هذا الفعل عندهم وقيل ان السبب في ذلك أن ملكا من الملوك حاربهم قديما ثم صالحهم وشرط عليهم قطع ثدي من يولد لهم من النساء وقطع ذكور من يولد من الرجال أراد بذلك قطع النسل منهم فوفوا بالشرط وقلبوا المعنى في أن جعلوا قطع الثدى للرجال والفروج للنساء وفيهم جنس يقلعون ثناياهم ويقولون لا نتشبه بالحمير وفيهم جنس آخر فى آخر بلاد البجه يقال لهم البازه نساء جميعهم يتسمون باسم واحد وكذلك الرجال فطرقهم في وقت رجل مسلم له جمال فدعا بعضهم بعضا وقالوا هذا الله قد نزل من السماء وهو جالس تحت الشجرة فجعلوا ينظرون اليه من بعد * وتعظم الحيات ببلدهم وتكثر أصنافها ورؤيت حية فى غدير ماء قد أخرجت ذنبها والتفت على امرأة وردت فقتلتها فرؤي شحمها قد خرج من دبرها من شدة الضغطة وبها حية ليس لها رأس وطرفاها سواء منقشة ليست بالكبيرة اذا مشى الانسان على أثرها مات واذا قتلت وأمسك القاتل ماقتلها به من عود أو حربة في يده ولم يلقه من ساعته مات وقتلت حية منها بخشبة فانشقت الخشبة واذا تأمل هذه الحية أحد وهي ميتة أوحية أصابه ضررها وفي البجه شر وتسرع اليه ولهم في الاسلام وقبله اذية على شرق صعيد مصر خربوا هناك قرى عديدة وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحيانا لحاجتهم الى المعادن وكذلك الروم لما أن ملكوا مصر ولهم في المعادن آثار مشهورة وكان أصحابهم بها وقد فتحت مصر * قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم وتجمع لعبد الله بن سعد بن أبي سرح في انصرافه من النوبة على شاطئ النيل البجه فسأل عن شأنهم فأخبر أن ليس لهم ملك يرجعون اليه فهان عليه أمرهم وتركهم فلم يكن لهم عقد ولا صلح وكان أول من هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السلولي ويذكر أنه وجد في كتاب ابن الحبحاب لهم ثلثمائة بكر فى كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجارا غير مقيمين على أن لا يقتلوا مسلما ولا ذميا فان قتلوه فلا عهد لهم ولا يؤوا عبيد المسلمين وان يردوا آبقيهم اذا وقعوا اليهم ويقال انهم كانوا يؤاخذون بهذا وبكل شاة أخذها البجاوى فعليه أربعة دنانير وللبقرة عشرة وكان وكيلهم مقيما بالريف رهينة بيد المسلمين ثم كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب اسلاما ضعيفا وهم شوكة القوم ووجوههم وهم مما يلى مصر من أول حدهم الى العلاقى وعيذاب المعبر منه الى جدة وما وراء ذلك ومنهم جنس آخر يعرفون بالرنافج هم أكثر عددا من الحدارب غير أنهم تبع لهم وخفراؤهم يحمونهم ويجبونهم المواشي ولكل رئيس من الحدارب قوم من الرنافج

في حملته فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الرنافج قديما أظهر عليهم ثم كثرت اذيتهم على المسلمين وكان ولاة اسوان من العراق فرفع الى أمير المؤمنين المأمون خبرهم فأخرج اليهم عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم الكبير الذى يكون بقريتهم هجر المقدم ذكرها كتابا نسخته هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الامير أبى اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة ومائتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجه بأسوان انك سألتني وطلبت الى أن أومنك وأهل بلدك من البجه وأعقد لك ولهم أمانا علىّ وعلى جميع المسلمين فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابى هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من أرض مصر الى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لامير المؤمنين الا انك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجه وعلى أن تؤدى اليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجه وذلك مائة من الابل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال والخيار فى ذلك لامير المؤمنين ولولاته وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به أو قتل أحدا من المسلمين حرا أو عبدا فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وذمة جماعة المسلمين وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم وعلى أن أحدا منكم ان أعان المحاربين على أهل الاسلام بمال أودله على عورة من عورات المسلمين أو أثر لعزتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه وعلى أن أحدا منكم ان قتل أحدا من المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ حرا او عبدا أو احدا من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لاحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجه أو ببلاد الاسلام أو ببلاد النوبة أو في شئ من البلدان برا أو بحرا فعليه فى قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد المسلم عشر قيم وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة اضعافه وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجه تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ولا تؤوا أحدا من آبقى المسلمين فان أتاكم آت فعليكم أن تردوه الى المسلمين وعلى أن تردوا أموال المسلمين اذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة تلزم فى ذلك وعلى انكم ان نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لاتظهرون سلاحا ولا تدخلون المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها برا ولا بحرا ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل

الذمة ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالا وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفي للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج ورد ما أصابه البجه للمسلمين من دم ومال وعلى أن أحدا من البجه لا يمترض حد القصر الى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حدا لاعمدة عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجه الامان على ماسمينا وشرطنا في كتابنا هذا وعلى أن يوافي به أمير المؤمنين فان زاغ كنون اوعاث فلا عهد له ولا ذمة وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم من البجه وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه باعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البجه عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة الامير أبي اسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم ماوفي كنون بن عبد العزيز بجميع ماشرط عليه فان غير كنون أو بدل أحد من البجه فذمة الله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الامير أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم وترجم جميع مافي هذا الكتاب حرفا حرفا زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبدالله بن اسمعيل القرشي ثم نسق جماعة من شهود اسوان فأقام البجه على ذلك برهة ثم عادوا الى غزو الريف من صعيد مصر وكثر الضجيج منهم الى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله فندب لحربهم محمد بن عبد الله القمي فسأل أن يختار من الرجال من أحب ولم يرغب الى الكثرة لصعوبة المسالك فخرج اليهم من مصر في عدة قليلة ورجال منتخبة وسارت المراكب في البحر فاجتمع البجه لهم في عدد كثير عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك فشغلهم بكتاب طويل كتبه في طومار ولفه بثوب فاجتمعوا لقراءته فحمل عليهم وفي أعناق الخيل الاجراس فنفرت الجمال بالبجه ولم تثبت لصلصلة الاجراس فركب المسلمون أقفيتهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وقتل كبيرهم فقام من بعده ابن أخيه وبعث يطلب الهدنة فصالحهم على أن يطأ بساط أمير المؤمنين فسار الى بغداد وقدم على المتوكل بسر من رأى في سنة احدى وأربعين ومائتين فصولح على أداء الاداوة والبقط واشترط عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن وأقام القمي باسوان مدة وترك فى خزائنها ماكان معه من السلاح وآلة الغزو فلم تزل الولاة تأخذ منه حتى لم يبقوا منه شيئاً فلما كثر المسلمون فى المعادن واختلطوا بالبجه قل شرهم وظهر التبر لكثرة طلابه وتسامع الناس به فوفدوا من البلدان وقدم عليهم أبو عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربته النوبة فى سنة خمس وخمسين ومائتين ومعه

ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة فى البجه حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة اليهم من اسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التي تحمل من القلزم الى عيذاب ومالت البجه الى ربيعة وتروحوا اليهم وقيل ان كهان البجه قبل اسلام من أسلم منهم ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنون معافهم على ذلك فلما قتل العمرى واستولت ربيعة على الجزائر والاهم على ذلك البجه فأخرجت من خالفها من العرب وتصاهروا الى رؤساء البجه وبذلك كف ضررهم عن المسلمين والبجه الداخلة فى صحراء بلد علوة مما يلى البحر الملح الى أول الجبشة ورجالهم في الظعن والمواشى واتباع الرعى والمعيشة والمراكب والسلاح كحال الحدارب الا أن الحدارب أشجع وأهدى من الداخلة على كفرهم من عبادة الشيطان والاقتداء بكهانهم ولكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم معبدهم فيها فاذا رأوا استخباره عما يحتاجون اليه تعرى ودخل الى القبة مستدبرا ويخرج اليهم وبه أثر جنون وصرع يقول الشيطان يقرئكم السلام ويقول لكم ارحلوا عن هذه الجهة فان الرهط الفلاني يقع بكم وسألتم عن الغزو الى بلد كذا فسيروا فانكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا والجمال التي تأخذونها من موضع كذا هي لي والجارية الفلانية التى تجدونها فى الخباء الفلانى والغنم التى من صفتها كذا ونحو هذا القول فيزعمون أنه يصدقهم في أكثر من ذلك فاذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر ودفعوه الى الكاهن يتموله ويحرمون ألبان نوقها على من لم يقبل فاذا أرادوا الرحيل حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد فيزعمون أن ذلك الجمل لا يثور الا بجهد وكذلك سيره ويتصبب عرقا والخيمة فارغة لا شئ فيها وقد بقى في الحدارب جماعة على هذا المذهب ومنهم من يتمسك بذلك مع اسلامه * قال مؤرخ النوبة ومنه لخصت ما تقدم ذكره وقد قرأت في خطبة الاجناس لامير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه ذكر البجه والكجة ويقول عنهم شديد كلبهم قليل سلبهم فالبجه كذلك وأما الكجة فلا أعرفهم انتهى ما ذكره عبد الله بن أحمد مؤرخ النوبة * وقال أبو الحسن المسعودى فأما البجه فانها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر وتشعبوا فرقا وملكوا عليهم ملكا وفي أرضهم معادن الذهب وهو التبر ومعادن الزمرد وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب الى بلاد النوبة فيغزون ويسبون وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجه الى أن قوى الاسلام وظهر وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فاشتدت شوكتهم وتزوجوا من البجه فقويت البجه ثم صاهرها قوم من ربيعة فقويت ربيعة بالبجه على من ناواها وجاورها من قحطان وغيرهم ممن سكن تلك الديار وصاحب المعدن في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة بشر بن مروان بن اسحاق بن ربيعة يركب فى ثلاثة آلاف ألف من ربيعة وأحلافها

من مصر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجـه فى الجحف التحاوية وهم الحدارب وهم مسلمون من بين سائر البجه والداخلة من البجه كفار يعبدون صنماهم والبجه المالكة لمعدن الزمرذ يتصل ديارها بالعلاقى وهو معـدن الذهب وبين العلاقى والنيل خمس عشرة مرحلة وأقرب العمارة اليه مدينة أسوان وجزيرة سواكن أقل من ميل فى ميل وبينها وبين البحر الحبشى بحر قصير يخاض وأهلها طائفة من البجه تسمى الخاسـة وهم مسلمون ولهم بها ملك * وقال الهمداني نكح كنعان بن حام أرتيب بنت شاويل بن ترس ابن يافث فولدت له حقا والاساود ونوبة وقران والزنج والزغاوة وأجناس السودان وقيل البجه من ولد حام بن نوح وقيل من ولد كوش بن كنعان بن حام وقيل البجه قبيلة من الحبش أصحاب أخبية من شعر وألوانهم أشد سواداً من الحبشة يتزيون بزى العرب وليس لهم مـدن ولا قرى ولا مزارع ومعيشتهم مما ينقل اليهـم من أرض الحبشة وأرض مصر والنوبة وكانت البجه تعبد الاصنام ثم أسلموا في امارة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وفيهم كرم وسماحة وهم قبائل وأفخاذ لـكل فخذ رئيس وهم أهل نجدة وطعامهم اللحم واللبن فقط

ذكر مدينة أسوان

أسوان من قولهم أسى الرجل يأسى أسى اذا حزن ورجل أسيان وأسوان أى حزين وأسوان فى آخر بلاد الصعيد وهى ثغر من ثغور الاقليم يفصـل بين النوبة وأرض مصر وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضراوات والبقول وكانت كثيرة الحيوان من الابل والبقر والغنم ولحمانها هناك غاية في الطيب والسمن وكانت أسعارها أبدا رخيصة وبها تجارات وبضائع تحمل منها الى بلاد النوبة ولا يتصـل باسوان من شرقها بلد اسلامي وفي جنوبها جبل به معدن الزمرذ وهو فى برية منقطعة عن العمارة وعلى خمسـة عشر يوما من أسوان معدن الذهب ويتصل باسوان من غربيها الواحات ويسلك من أسوان الى عيذاب ويتوصل من عيذاب الى الحجاز والى اليمن والهند * قال المسعودى ومدينـة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان ونزار بن ربيعة ومضر وخلق كثير من قريش وأكثرهم من الحجاز والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير تودع النواة في الارض فتنبت نخلة ويؤكل من ثمرها بعد سنتين ولمن بأسوان ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها الى ملك النوبة وابتيعت هذه الضياع من النوبة في صدر الاسلام فى دولة بني أمية وبنى العباس وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم يوفد وفدهم الى الفسطاط ذكروا عنه ان أناساً من أهل مملـكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وانها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وانما تملـكهم على هذه الضياع تملك العبيد العامرين فيها فجعل المأمون أمرهم الى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها

من أهل العلم والشيوخ وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان انها ستنزع من أيديهم فاحتالوا على ملك النوبة بأن يقدموا الي من ابتيع منهم من النوبة انهم اذا حضروا حضرة الحاكم أن لا يقروا لملكهم بالعبودية وأن يقولوا سبيلنا معاشر النوبة سبيلكم مع ملككم يجب علينا طاعته وترك مخالفته فان كنتم أنتم عبيدا لملككم وأموالكم له فنحن كذلك فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما أوقفوهم عليه من هذا المعنى فمضى البيع لعدم اقرارهم بالرق لملكهم الى هذا الوقت وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين من وصفنا أحرار غير عبيد والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لاسوان وهي بلاد مريس * قال وأما النوبة فافترقت فرقتين فرقة فى شرق النيل وغربه فأناخت على شاطئه واتصلت ديارها بديار القبط من أرض صعيد مصر واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة ولحقوا بقريب من أعاليه وبنوا دار مملكة وهى مدينة عظيمة تدعى دنقلة والفرقة الاخرى من النوبة يقال لها علوة وبنوا مدينة عظيمة سموها سرقته والبلد المتصل مملكته بأرض أسوان يعرف بمريس واليه تضاف الريح المريسية وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان قال وفى الجانب الشرقي من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الاوائل تقطع منه العمد وغيرها فاما العمد والقواعد والرؤس التى يسميها أهل مصر الاسوانية ومنها حجارة الطواحين فتلك نقرها الاولون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين ومنها العمد التى بالاسكندرية * وفى ذى الحجة سنة أربع وأربعين وثلثمائة أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعاً من المسلمين فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل أنوجور بن الاخشيد في محرم سنة خمس وأربعين فساروا في البر والبحر وبعثوا بعدة من النوبة أسروهم فضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة وسار الخازن حتى فتح مدينة ابريم وسبى أهلها وقدم الى مصر في نصف جمادى الاولى سنة خمس وأربعين بمائة وخمسين أسيرا وعدة رؤس * وقال القاضى الفاضل ان متحصل ثغر أسوان فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة بلغ خمسة وعشرين ألف دينار وقال الكمال جعفر الادفوى وكان باسوان ثمانون رسولا من رسل الشرع وتحصل من أسوان في سنة واحدة ثلاثون ألف أردب تمراً وأخبرنا من وقف على مكتوب كان فيه أربعون شريفاً خاصة وان مكتوبا آخر رأى فيه ستين شريفاً دون من عداهم قال ووقفت أنا على مكتوب فيه نحو من أربعين مؤرخ بما بعد العشرين وستمائة من الهجرة * وكان بثغر أسوان بنو الكنز من ربيعة أمراء ممدوحون مقصودون صنع لهم الفاضل الشديد أبو الحسن بن عرام سيرة ذكر فيها مناقبهم وأسماء من مدحهم ومن ورد عليهم

ولما أرسل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا الى كنز الدولة وأصحابه ترحلوا عن البلاد فدخلوا بيوتهم فوجدوا بها قصائد من مدحهم منها قصيدة أبي محمد الحسن ابن الزبير قال فيها

ويجده أن خانه الدهر أو سطا * اناس اذا ما أنجد الذل أتهموا

أجاروا فما تحت الكواكب خائف * وجادوا فما فوق البسيطة معدم

وانه أجازه عليها بألف دينار ووقف عليه ساقية تساوى ألف دينار وكان باسوان رجال من العسكر مستعدون بالاسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه فلما زالت الدولة الفاطمية أهمل ذلك فسار ملك النوبة في عشرة آلاف ونزل تجاه أسوان في جزيرة وأسر من كان فيها من المسلمين ثم تلاشى بعد ذلك امر الثغر واستولى عليه اولاد الكنز من بعد سنة تسعين وسبعمائة فأفسدوا فساداً كبيراً وكانت لهم مع ولاة اسوان عدة حروب الى ان كانت المحن منذ سنة ست وثمانمائة وخرب اقاليم الصعيد فارتفعت يد السلطنة عن ثغر اسوان ولم يبق للسلطان في مدينة اسوان وال واتضع حاله عدة سنين ثم زحفت هوارة في محرم سنة خمس عشرة وثمانمائة الي اسوان وحاربت أولاد الكنز وهزموهم وقتلوا كثيرا من الناس وسبوا ماهناك من النساء والاولاد واسترقوا الجميع وهدموا سور مدينة اسوان ومضوا بالسبي وقد تركوها خرابا يبابا لا سكن بها فاستمرت على ذلك بعد ما كانت بحيث يقول عنها عبد الله ابن أحمد بن سليم الاسواني في كتاب أخبار النوبة ان أبا عبد الرحمن عبدالله بن عبدالحميد العمرى لما غلب على المعدن كتب الى اسوان يسأل التجار الخروج اليه بالجهاز من طريق المعدن فخرج اليه رجل يعرف بعثمان بن حيخلة التميمي في ألف راحلة فيها الجهاز والبر * وذكر أن العمرى لما عادالى بلادالبجه بعد حروبه للنوبة كثرت العمارة حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة اليهم من اسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التي تحمل من القلزم الى عيذاب قال ومما شاهده جماعة من شيوخنا الثقات باسوان بقرية تدعى اساشي هي من أسوان على مرحلتين ونصف انهم رأوا شرقها من جانب النيل قرية بسور وخارج بابها جميزة وناس يدخلون ويخرجون فاذا عبروا الى الموضع لم يجدوا شيئاً وهذا يكون في الشتاء دون الصيف قبل طلوع الشمس والناس مجمعون على رؤيتها وصحة هذا الخبر وكان بها أنواع من التمر وأنواع من الرطب منها نوع من الرطب أشد ما يكون من خضرة الساق وأمر هرون الرشيد أن يجمع له من ألوان تمر اسوان من كل صنف تمرة واحدة فجمع له ويبة ولا يعرف في الدنيا بسر يتتمر قبل أن يصير رطبا الا باسوان

(ذكر بلاق)

بلاق أجل حصن للمسلمين وهي جزيرة تقرب من الجنادل محيط بها النيل فيها بلد

كبير يسكنه خلق كثير من الناس وبها نخل عظيم ومنبر في جامع واليها تنتهي سفن النوبة وسفن المسلمين من اسوان وبينها وبين القرية التي تعرف بالقصر وهي أول بلد النوبة ميل واحد وبينها وبين اسوان أربعة أميال ومن اسوان الى هذا الموضع جنادل في البحر لاتسلكها المراكب الا بالحيلة ودلالة من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك وبالقصر مسلحة وباب الى بلد النوبة

(ذكر حائط العجوز)

هذا الحائط كان حصنا لارض مصر يحدق بجميعها وكان فيه محارس ومسالح ومن ورائه خليج يجري فيه الماء معقود عليه القناطر عملته دلوكة بنت زبا وقد وهي وتلاشي ولم يبق منه الا يسير في شط النيل الشرقي ينتهي الى اسوان قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم في كتاب فتوح مصر فبقيت مصر بعد غرقهم يعني فرعون وجنوده وليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق بها الا العبيد والاجراء والنساء فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت زبا وكان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت في شرف منهن وموضع وهي يومئذ بنت مائة سنة وستين سنة فملكوها فخافت أن يتناولها ملوك الارض فجمعت نساء الاشراف فقالت لهن ان بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ولا يمد عينه اليها وقد هلك أكابرنا وأشرافنا وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم وقد رأيت أن أبني حصنا أحدق به جميع بلادنا فأضع عليه المحارس من كل ناحية فانا لانأمن من أن يطمع فينا الناس فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت في كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالاجراس فاذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم الى بعض بالاجراس فأتاهم الخبر من أى جهة كانت في ساعة واحدة فنظروا في ذلك فمنعت بذلك مصر ممن أرادها وفرغت من بنائه في ستة أشهر وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كبيرة والله أعلم

(ذكر البقط)

البقط مايقبض من سبي النوبة في كل عام ويحمل الى مصر ضريبة عليهم فان كانت هذه الكلمة عربية فهى اما من قولهم في الارض بقط من بقل وعشب أى نبذ من مرعي فيكون معناه على هذا نبذة من المال او يكون من قولهم ان في بني تميم بقطا من ربيعة أى فرقة أو قطعة فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ومنه بقط الارض فرقة منها وبقط

الشئ فرقه والبقط أن تعطى الحبة على الثلث او الربع والبقط ايضا ماسقط من التمر اذا قطع فأخطأ المخرف فيكون معناه على هذا بعض مافى ايدى النوبة وكان يؤخذمنهم فى قرية يقال لها القصر مسافتها من أسوان خمسة اميال فيما بين بلد بلاق وبلد النوبة وكان القصر فرضة لقوص واول ماتقرر هذا البقط على النوبة فى امارة عمرو بن العاص لما بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد فتح مصر الى النوبة سنة عشرين وقيل سنة احدى وعشرين فى عشرين ألفا فمكث بها زمانا فكتب اليه عمرو يأمره بالرجوع اليه فلما مات عمرو رضى الله عنه نقض النوبة الصلح الذي جرى بينهم وبين عبد الله بن سعد وكثرت سراياهم الى الصعيد فأخربوا وأفسدوا فغزاهم مرة ثانية عبد الله بن سعد بن أبى سرح وهو على امارة مصر فى خلافة عثمان رضى الله عنه سنة احدى وثلاثين وحصرهم بمدينة دنقلة حصارا شديدا ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرف وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك وطلب ملكهم واسمه قليدوروث الصلح وخرج الى عبد الله وابدى ضعفا ومسكنة وتواضعا فتلقاه عبدالله ورفعه وقربه ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة وستين رأسا في كل سنة ووعده عبد الله بحبوب يهديها اليــه لما شكاله قلة الطعام ببلده وكتب لهم كتابا نسخته بعد البسملة عهد من الامير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض اسوان الى حد أرض علوة أن عبـد الله بن سعد جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيـد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة انـكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم أن لانحاربكم ولا ننصب لـكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وان عليكم رد كل آبق خرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه الى أرض الاسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره الى أن ينصرف عنـه وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأسا تدفعونها الى امام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيها ذكران واناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك الى والى اسوان وليس على مسلم دفع عدو عرض لـكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة الى أرض اسوان فان انتم آويتم عبدا لمسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأسا فقـد برئت منكم هذه الهدنة والامان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير

الحاكمين علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولنا عليكم بذلك أعظم ماتدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة احدى وثلاثين * وكانت النوبة دفعت الى عمرو بن العاص ماصولحوا عليه من البقط قبل نكثهم وأهدوا الى عمرو أربعين رأسا من الرقيق فلم يقبلها ورد الهدية الى كبير البقط ويقال له سمقوس فاشترى له بذلك جهازا وخمرا ووجهه اليه وبعث اليهم عبد الله بن سعد ماوعدهم به من الحبوب قمحا وشعيرا وعدسا وثيابا وخيلا ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسما يأخذونه عند دفع البقط في كل سنة وصارت الاربعون رأسا التي أهديت الى عمرو يأخذها والى مصر وعن أبي خليفة حميد بن هشام البحترى أن الذى صولح عليه النوبة ثلثمائة وستون رأسا لفئ المسلمين ولصاحب مصر أربعون رأسا ويدفع اليهم ألف أردب قمحا ولرسله ثلثمائة اردب ومن الشعير كذلك ومن الخمر الف اقتيز للمتملك ولرسله ثلثمائة اقتيز وفرسين من نتاج خيل الامارة ومن اصناف الثياب مائة ثوب ومن القباطى اربعة اثواب للمتملك ولرسله ثلاثة ومن البقطرية ثمانية اثواب ومن المعلمة خمسة اثواب وجبة مجملة للملك ومن قمص ابى بقطر عشرة اثواب ومن احاص عشرة اثواب وهى ثياب غلاظ قال ابو خليفة ليس في كتاب عبد الله بن وهب ولا في كتاب الواقدى تسمية ينتهى اليها وانما اخذت التسمية من ابي زكريا قال ابو زكريا سمعت والدى عمرو بن صالح يقول هذا الخبر فحفظت منه ماوقفت عليه وقال حضرت مجلس الامير عبد الله بن طاهر وهو على مصر فقال أنت عثمان بن صالح الذى وجهنا اليك في كتاب بقط النوبة قلت نعم فأقبل على محفوظ بن سليمان فقال ما أعجب أمر هذه البلدة وجهنا اليهم نطلب علماً من علومهم والى هذا الشيخ فما شفانا أحد منهم فقلت أصلح الله الامير ان الذي طلبت من خبر النوبة عندى قد حفظه شيوخ عن الشيوخ الذين حضروا هناك والهدنة والصلح الذى جرى بين عبد الله بن سعد وبين النوبة ثم حدثته عن أخبارهم كما سمعت فأنكر عطية الخمر فقلت قد أنكرها عبد العزيز بن مروان وكان هذا المجلس بفسطاط مصر سنة احدى عشرة ومائتين بعد أن تم الصلح بينه وبين عبد الله بن السرى بن الحكم التيمي الامير كان قبله قال عثمان بن صالح فوجه الامير الى الديوان بظهر المسجد الجامع بمصر فاستخرج منه خبر النوبة فوجده كما ذكرت فسره ذلك * وعن مالك بن أنس أنه كان يرى أن أرض النوبة الي حد علوة صلح وكان لا يجيز شراء رقيقهم وكان أصحابه مثل عبد الله بن عبد الحكم وعبد الله بن وهب والليث بن سعد ويزيد بن أبي حبيب وغيرهم من فقهاء مصر يرون خلاف ذلك قال الليث ابن سعد نحن أعرف بأرض النوبة من الامام مالك بن أنس انما صولحوا على أن لا نغزوهم

ولا نمنع منهم عدواً فما استرقه متملكهم أو غزا بعضهم بعضا فشراؤه جائز وما استرقه بغاة المسلمين وسراقهم فغير جائز وكان عند جماعة منهم جوار نوبيات لفرشهم ولم يزل النوبة يؤدون البقط فى كل سنة ويدفع اليهم ما تقدم ذكره الى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله أبي اسحاق بن الرشيد وكبير النوبة يومئذ زكرياء بن بحنس وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم ويمنع من اخراج الجهاز اليهم فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكرياء على أبيه بذله الطاعة لغيره واستعجزه فيما يدفع فقال له أبوه فما تشاء قال عصيانهم ومحاربتهم قال أبوه هذا شئ رآه السلف من آبائنا صوابا وأخشى أن يفضى هذا الامر اليك فتقدم على محاربة المسلمين غير اني أوجهك الى ملكهم رسولا فأنت ترى حالنا وحالهم فان رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة والا سألته الاحسان الينا فشخص فيرقي الى بغداد وكانت البلدان تزين له ويسير على المدن وانحدر بانحداره رئيس البجه بأسبابه ولقيا المعتصم فنظرا الى ما بهرهما من حال العراق في كثرة الجيوش وعظم العمارة مع ما شاهداه فى طريقهما فقرب المعتصم فيرقي وأدناه وأحسن اليه احسانا تاما وقبل هديته وكافأه بأضعافها وقال له تمن ما شئت فسأله فى اطلاق المحبوسين فاجابه الى ذلك وكبر في عين المعتصم ووهب له الدار التي نزلها بالعراق وأمر أن يشتري له في كل منزل من طريقه دار تكون لرسلهم فانه امتنع من دخول دار لاحد في طريقه فأخذ له بمصر دار بالجيزة وأخرى ببني وائل وأجرى لهم في ديوان مصر سبعمائة دينار وفرساً وسرجا ولجاماً وسيفاً محلى وثوبا مثقلا وعمامة من الخز وقميص شرب ورداء شرب وثيابا لرسله غير محدودة عند وصول البقط الى مصر ولهم حملان وخلع على المتولي لقبض البقط وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرفين معه ومايهدى اليهم بعد ذلك فغير محدود وهو عندهم هدية يجازون عليها ونظر المعتصم الى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقط وأنكر عطية الخمر وأجرى الحبوب والثياب التى تقدم ذكرها وقرر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين وكتب لهم كتابا بذلك بقى في يد النوبة وادعى النوبى على قوم من أهل أسوان أنهم اشتروا أملاكا من عبيده فأمر المعتصم بالنظر فى ذلك فأحضر والى البلد والمختار للحكم فيه التابعين من النوبة وسألاهم عما ادعاه صاحبهم من بيعهم فأنكروا ذلك وقالوانحن رعية فزال ما ادعاه وطلب أشياء غير ذلك من ازالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها الى الحد الذي بينهم وبين المسلمين لان المسلحة على أرضهم فلم يجبه الى ذلك ولم يزل الرسم جاريا بدفع البقط على هذا التقرير ويدفع اليهم ما أجراه المعتصم الى أن قدمت الدولة الفاطمية الى مصر ذكر ذلك مؤرخ النوبة وقال أبو الحسن المسعودي والبقط هومايقبض من السبي في كل سنة ويحمل الى مصر ضريبة عليهم وهو ثلثمائة رأس وخمسة وستون رأسا

لبيت المال بشرط الهدنة بين النوبة والمسلمين وللامير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأساً ولخليفته المقيم باسوان وهو المتولى لقبض البقط عشرون رأساً وللحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة أرؤس ولاثني عشر شاهدا عدول من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأساً من السبى على حسب ما جري به الرسم في صدر الاسلام في بدء ايقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة وقال البلادري فى كتاب الفتوحات ان المقرر على النوبة اربعمائة رأس يأخذون بها طعاما أي غلة وألزمهم أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبي جعفر المنصور ثلثمائة وستين رأسا وزرافة وفي سنة أربع وسبعين وستمائة كثر خبث داود متملك النوبة وأقبل الى أن قرب من مدينة أسوان وحرق عدة سواق بعد ما أفسد بعيذاب فمضى اليه والى قوص فلم يدركه وقبض على صاحب الخيل فى عدة من النوبة وحملهم الى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بقلعة الجبل فوسطهم وقدم سكندة ابن أخت متملك النوبة متظاما من خاله داود فجرد السلطان معه الامير شمس الدين آق سنقر الفارقاني الاستادار والامير عز الدين ايبك الافرم وأمير جاندار في جماعة كثيرة من العسكر ومن أجناد الولايات وعربان الوجه القبلى والزراقين والرماة ورجال الحراريق فساروا في أول شعبان من القاهرة حتى وصلوا الى أرض النوبة فخرجوا الى لقائهم على النجب بأيديهم الحراب وعليهم دكادك سود فاقتتل الفريقان قتالا كبيرا انهزم فيه النوبة وأغار الافرم على قلعة الدر وقتل وسبى وأوغل الفارقاني فى أرض النوبة برا وبحرا يقتل ويأسر فحاز من المواشي مالا يعد ونزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل ونفر المراكب من الجنادل ففر النوبة الى الجزائر وكتب لقمر الدولة نائب داود متملك النوبة أمانا فحلف لسكندة على الطاعة وأحضر رجال المريس ومن فر وخاض الافرم الى برج في الماء وحصره حتى أخذه وقتل به مائتين وأسر أخا لداود فهرب داود والعسكر في أثره مدة ثلاثة أيام وهم يقتلون ويأسرون حتى أذعن القوم وأسرت أم داود وأخته ولم يقدر على داود فتقرر سكندة عوضه وقرر على نفسه القطيعة في كل سنة ثلاث فيلة وثلاث زرافات وخمس فهود من اناثها ومائة نجيب أصهب وأربعمائة رأس من البقر المنتجة على أن تكون بلاد النوبة نصفين نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجنادل فانها كلها للسلطان لقربها من أسوان وهى نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل ما بها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية فيدفع كل بالغ منهم في السنة دينارا عيناً وكتب نسخة يمين بذلك حلف عليها الملك سكندة ونسخة يمين أخرى حلفت عليها الرعية وخرب الاميران كنائس النوبة وأخذ ما فيها وقبض على نحو عشرين أميرا من أمراء النوبة وأفرج عمن كان بأيدى

النوبة من أهل أسوان وعيذاب من المسلمين في أسرهم وألبس سكندة تاج الملك وأقعد على سرير المملكة بعد ما حلف والتزم أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب الي السلطان مع البقط القديم وهو اربعمائة رأس من الرقيق في كل سنة وزرافة من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة وستون رأسا ولنائبه بمصر أربعون رأسا على أن يطلق لهم اذا وصلوا بالبقط تاما من القمح ألف أردب لمتملكهم وثلثمائة أردب لرسله

ذكر صحراء عيذاب

اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون الى مكة شرفها الله تعالى الا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص ويعبرون هذه الصحراء الي عيذاب ثم يركبون البحر في الجلاب الى جدة ساحل مكة وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر الى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء الي قوص ومنها يردون مدينة مصر فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج حتى ان كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لا يعترض لها أحد الى أن يأخذها صاحبها فلم تزل مسلكا للحجاج في ذهابهم وايابهم زيادة على مائتى سنة من اعوام بضع وخمسين وأربعمائة الى أعوام بضع وستين وستمائة وذلك منذ كانت الشدة العظمى في أيام الخليفة المستنصر بالله ابي تميم معد بن الظاهر وانقطاع الحج في البر الى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الكعبة وعمل لها مفتاحا ثم اخرج قافلة الحاج من البر في سنة ست وستين وستمائة فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة وتلاشى امر قوص من حينئذ وهذه الصحراء مسافتها من قوص الى عيذاب سبعة عشر يوما ويفقد فيها الماء ثلاثة ايام متوالية وتارة يفقد اربعة ايام وعيذاب مدينة على ساحل بحر جدة وهى غير مسورة واكثر بيوتها اخصاص وكانت من اعظم مراسى الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة فلما انقطع ورود مراكب الهند واليمن اليها صارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن الى ان كانت اعوام بضع وعشرين وثمانمائة فصارت جدة أعظم مراسى الدنيا وكذلك هرمز فانها مرسى جليل وعيذاب فى صحراء لانبات فيها وكل ما يؤكل بها مجلوب اليها حتى الماء وكان لاهلها من الحجاج والتجار فوائد لاتحصى وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة وكانوا يكارون الحجاج الجلاب التي تحملهم في البحر الى جدة ومن جدة الى عيذاب فيجتمع لهم من ذلك مال عظيم ولم يكن فى أهل عيذاب الا من له جلبة فاكثر على قدر يساره وفى

وفي بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ فى جزائر قريبة منها تخرج اليه الغواصون فى وقت معين من كل سنة فى الزوارق حتى يوافوه بتلك الجزائر فيقيمون هنالك أياما ثم يعودون بما قسم لهم من الحظ والمغاص فيها قريب القعر وعيش أهل عيذاب عيش البهائم وهم أقرب الي الوحش فى أخلاقهم من الانس وكان الحجاج يجدون في ركوبهم الجلاب على البحر أهوالا عظيمة لان الرياح تلقيهم في الغالب بمراس فى صحارى بعيدة مما يلي الجنوب فينزل اليهم التجار من جبالهم فيكارونهم الجمال ويسلكون بهم على غير ماء فربما هلك اكثرهم عطشا وأخذ التجار ما كان معهم ومنهم من يضل ويهلك عطشا والذى يسلم منهم يدخل الى عيذاب كانه نشر من كفن قد استحالت هيآتهم وتغيرت صفاتهم وا كثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ومنهم من يساعده الريح فتحطه بمرسى عيذاب وهو الاقل وجلباتهم التي تحمل الحجاج في البحر لا يستعمل فيها مسمار البتة انما يخيط خشبها بالقنبار وهو متخذ من شجر النارجيل ويخللونها بدسر من عيدان النخل ثم يسقونها بسمن أودهن الخروع أو دهن القرش وهو حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى وقلاع هذه الجلاب من خوص شجر المقل ولا هل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت فانهم يبالغون في شحن الجلبة بالناس حتي يبقى بعضهم فوق بعض حرصا على الأجرة ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر بل يقولون دائما علينا بالالواح وعلى الحجاج بالارواح وأهل عيذاب من البجاة ولهم ملك منهم وبهاوال من قبل سلطان مصر وأدركت قاضيها عندنا بالقاهرة أسود اللون والبجاة قوم لادين لهم ولا عقل ورجالهم ونساؤهم أبدا عراة وعلى عوراتهم خرق وكثير منهم لايسترون عوراتهم وعيذاب حرها شديد بسموم محرق

ذكر مدينة الاقصر

هذه المدينة من مدائن الصعيد العظيمة يقال ان اهلها المريس ومنها الحمير المريسية

ذكر البلينا

هذه (٢) وذكر الكمال الادفوى أنه وقع بين أهل البلاد ووالى قوص فتوجهوا الى القاهرة وصرفوه وولى غيره وطلع الخطيب بالبلينا صحبته وكان اقطاعه ارمنت فلما وصل اليها أضافه أهلها بستين منسفا من طعام اللبن فقال للخطيب فى بلادكم مثل هذا فقال الخطيب وحلوى فلما وصل الى اخميم تقدم الخطيب الى البلينا فعند ما وصل الوالى اليها أخرجوا له ستين منسفا حلوى وستين منسفا شواء قال وبعض الحكام بها في عيد من الاعياد امتدحه من أهلها خمسة وعشرون شاعرا وفيها من لا يرضي بمدح القاضي وفيها من تقصر رتبته عن ذلك قال وكان فيها عدة مسابك للسكر ويوصف أهلها بالمكارم

(ذكر سمهود)

هذه المدينة بالجانب الغربي من النيل قال الادفوى كان بسمهود سبعة عشر حجرا لاعتصار قصب السكر ويقال ان الفار لايدخل قصبها

(ذكر ارجنوس)

هذه المدينة من جملة عمل البهنسا بها كنيسة بظاهرها فيها بئر يقال لها بئرسيرس صغيرة لها عيد يعمل فى اليوم الخامس والعشرين من بشنس أحد شهور القبط فيفور بها الماء عند مضى ست ساعات من النهار حتي يطفو ثم يعود الى ما كان عليه ويستدل النصارى على زيادة النيل في كل سنة بقدر ماعلا الماء من الارض فيزعمون أن الامر في النيل وزيادته يكون موافقا لذلك

(ذكر ابوبط)

هذه المدينة أيضا من جملة البهنساوية كان بها منارة محكمة البناء اذا هزها الرجل تحركت يمينا وشمالا فيرى ميلها رؤية ظاهرة بانتقال ظلها عن موضعه

(ذكر ملوى)

هذه المدينة بالجانب الغربى من النيل وأرضها معروفة بزراعة قصب السكر وكان بها عدة أحجار لاعتصاره وآخر من كان بها أولاد فضيل بلغت زراعتهم في أيام الناصر محمد بن قلاون ألفا وخمسمائة فدان من القصب في كل سنة فأوقع النشو ناظر الخاص الحوطة على موجودهم في سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة فوجد من جملة مالهم أربعة عشر ألف قنطار من القند حملها الى دار القند بمصر سوى العسل وألزمهم بحمل ثمانية آلاف قنطار بعد ذلك وافرج عنهم فوجدوا لهم حاصلا لم يهتد له النشو فيه عشرة آلاف قنطار قند سوى مالهم من عبيد وغلال وغير ذلك

(ذكر مدينة انصنا)

اعلم أن مدينة انصنا احدي مدائن صعيد مصر القديمة وفيها عدة عجائب منها الملعب ويقال انه كان مقياس النيل وانه من بناء دلوكة أحد من ملك مصر وكان كالطيلسان وفي دائره عمد على عدة أيام السنة الشمسية كلها من الصوان الاحمر الماتع ومسافة ما بين كل عمودين مقدار خطوة انسان وكان ماء النيل يدخل الى هذا الملعب من فوهة عند زيادة الماء فاذا بلغ ماء النيل الحد الذي كان اذ ذاك يحصل منه رى أرض مصر وكفايتها جلس الملك عند ذلك في مشرف له وصعد القوم من خواصه الى رؤس الاعمدة المذكورة فيتعادون عليها مابين ذاهب وآت ويتساقطون من الاعمدة الى الملعب وهو ممتلئ بالماء قال ابو عبيد البكرى أنصنا بفتح أوله واسكان ثانيه بعده صاد مهملة مكسورة ونون وألف كورة من كور مصر معروفة

منها كانت سرية النبي صلى الله عليه وسلم ام ابنه ابراهيم من قرية يقال لها حفن من قرى هذه الكورة ويقال ان سحرة فرعون كانوا منها وأنه جلبهم منها يوم الموعد للقاء موسي عليه السلام ويقال ان التمساح لايضر بساحل انصنا لطلاسم وضعت بها وانه اذا حاذى برهـا انقلب على ظهره حتى يجاوزها ويقال ان الذى بني مدينة انصنا اشمون بن مصرايم بن بيصر ابن حام بن نوح وهى واقعة في شرقى النيل وكانت حسنة البساتين والمنتزهات كثيرة الثمار والفواكه وهي الآن خراب وقال ابو حنيفة الدينورى ولا ينبت البنج الا بانصنا وهوعود ينشر منه ألواح للسفن وربما أرعفت ناشرها ويباع اللوح منها بخمسين دينارا ونحوها واذا شد لوح منها بلوح وطرح في الماء سنة أيام صارا لوحا واحدا وكان لانصنا سور عتيق هدمه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعل على كل مركب منحدر في النيل جزأ من حمل صخره الى القاهرة فنقل باسره اليها

(ذكر القيس)

اعلم أن القيس من البلاد التى تجاور مدينة البهنسا وكان يقال القيس والبهنسا قال ابن عبد الحكم بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث الى الصعيد فسار حتي اتى القيس فنزل بهـا فسميت به وقال ابن يونس قيس بن الحارث المرادى ثم الكعبي شهد فتح مصر يروى عن عمر بن الخطاب وكان يفتى الناس في زمانه روى عنه سويد بن قيس وقيل شديد بن قيس ابن ثعلبة وروى عنه عسكر بن سوادة وهو الذى فتح القرية بصعيد مصر المعروفة بالقيس فنسبت اليه وقال ابن الكندى ولهم ثياب الصوف واكسية المرعز وليس هى بالدنيـا الا بمصر وذكر بعض أهل مصر أن معاوية بن أبي سفيان لما كبر كان لايدفأ فاجتمعوا انه لايدفيه الا الاكسية تعمل بمصر من صوفها المرعز العسلي العين المصبوغ فعمل له منها عدد فما احتاج منهـا الا الى واحد ولهم طراز القيس والبهنسا في الستور والمضارب يعرفون به ومنه طراز أهل الدنيـا * وظهر بها بالقرب من البهنسا سرب فى أيام السلطـان الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب فأمر متولى البهنساوية بكشفـه فجمع له أهل المعرفة بالعوم والغطس فكانوا ما ينيف على مائتي رجل ما فيهم الا من نزل السرب فلم يجد له قرارا ولا جوانب فأمر بعمل مركب طويل رقيق بحيث يمكن ادخاله من رأس السرب وشحنه بالازواد والرجال وركب فيه حبالا مربوطة فى خوازيق عندرأس السرب وحمل مع الرجال آلات يعرفون بها أوقات الليل والنهار وعدة شموع وغيرهاممانستخرج به النار وتشعل به وأمرهم أن يسلكوا بالمركب في السرب حتى ينفد نصف مامعهم من الزاد فساروا بالمركب في ظلمة وهم يرخون الحبال ولا يجدون لما هم سائرون فيه من الماء جوانب فما زالوا حتى قلت ازوادهم فأبطلوا حركة المركب بالمجاذيف الى داخل السرب

وجروا الحبال ليرجعوا الى حيث دخلوا حتى انتهوا الى رأس السرب فكانت مدة غيبتهم في السرب ستة أيام أربعة منها دخولا الى جوفه وتطواف جوانبه ويومان رجوعا الى رأس السرب ولم يقفوا في هـذه المدة على نهاية السرب فكتب بذلك الامير علاء الدين الطنبغا والى البهنسا الى الملك الكامل فتعجب عجبا كثيرا واشتغل عن ذلك بمحاربة الفرنج على دمياط فلما رحلوا عن دمياط وعادوا الى القاهرة خرج بعد ذلك حتى شاهد السرب المذكور

ذكر دروط بلهاسة

اعلم أن دروط وهي بفتح الدال المهملة وضم الراء وسكون الواو وطاء اسم لثلاث قرى دروط أشموم من الاشمونين ودروط سريان من الاشمونين أيضا ودروط بلهاسة من ناحية البهنسا بالصعيد وبها جامع انشأه زياد بن المغيرة بن زياد بن عمرو العتكى ومات في المحرم سنة احدى وتسعين ومائة فدفن به وقال فيه الشاعر

حاف الجود حلفة بر فيها * مابرا الله واحداً كزياد
كان غيثا لمصر اذ كان حيا * وأمانا من السنين الشداد

ومات أخوه ابراهيم بن المغيرة سنة سبع وتسعين ومائة فقال الشاعر فيه

ابن المغيرة ابراهيم من ذهب * يزداد حسنا على طول الدهارير
لو كان يملك ما في الارض عجله * الى العفاة ولم يهمم بتأخير

ومات أحمد بن زياد بن المغيرة في المحرم سنة ست وثلاثين ومائتين فقال الشاعر فيه

أحمد مات ماجدا مفقودا * ولقد كان أحمد محمودا
ورث المجد عن أب ثم عم * مثله ليس بعده موجودا

ذكر سكر

هي من الاطفيحية تجاهها وادبه الى وقتنا هذا شكل جمل من الحجر كأكبر مايرى من الجمال وأحسنها هيئة وهو قائم على أربعة وقد استقبل بوجهه المشرق وعلى فخذه الايمن كتابة بقلمهم وهي أحرف مقطعة في ثلاثة أسطر ثم على نحو مائة وخمسين خطوة منه جمل آخر مثله سواء ووجهه الى وجه الجمل الاول وليس عليه كتابة وفيما بين الجملين المذكورين هيئة أعدال قد ملئت قماشا عدتها أربعون زكيبة موضوعة بالارض عشرين تجاه عشرين وجميعها من حجارة ولا يشك من رآها انها أحمال قماش وبعد مائة وخمسين خطوة منها جمل ثالث على هيئة الجملين المذكورين وهو أيضا قائم وظهره الى ظهر الجمل الثاني ووجهه الى الجبل وهناك آخر الوادي وليس على هذا الجمل أيضا كتابة أخبرني بذلك من لا أتهم روايته

(ذكر منية الخصيب)

هـذه المدينة تنسب الى الخصيب بن عبـد الحميد صاحب خراج مصر من قبل أمير

المؤمنين هرون الرشيد

(ذكر منية الناسك)

هي بلدة من جملة الاطفيحية عرفت بالناسك أخي الوزير بهرام الارمني في أيام الخليفة الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن محمد ولي من قبل أخيه مدينة قوص سنة تسع وعشرين وخمسمائة وولاية قوص يومئذ أجل ولايات مصر فجار على المسلمين واشتد عسفه واذاه لهم فعندما وصل الخبر بقيام رضوان بن ولخشي على بهرام وهزيمته منه وتقلده الوزارة بعده ثار أهل قوص بالناسك في جمادى الآخرة سنة احدى وثلاثين وخمسمائة وقتلوه وربطوا كلبا ميتا في رجله وسحبوه حتى ألقوه على مزبلة وكان نصرانيا

(ذكر الجيزة)

قال ابن سيده الجيزة الناحية والجانب وجمعها جيزوجيز والجيز جانب الوادي وقد يقال فيه الجيزة واعلم أن الجيزة اسم لقرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربي تجاه مدينة فسطاط مصر لها في كل يوم أحد سوق عظيم يجيء اليه من النواحي أصناف كثيرة جدا ويجتمع فيه عالم عظيم وبها عدة مساجد جامعة * وقد روى الحافظ أبو بكر بن ثابت الخطيب من حديث نبيط بن شريط قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيزة روضة من رياض الجنة ومصر خزائن الله في أرضه ويقال ان مسجد التوبة الذي بالجيزة كان فيه تابوت موسى عليه السلام الذى قذفته أمه فيه بالنيل وبها النخلة التي أرضعت مريم تحتها عيسى فلم يثمر غيرها* وقال ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب فاستحبت همدان ومن والاها الجيزة فكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يعلمه بما صنع الله للمسلمين وما فتح عليهم وما فعلوا في خططهم وما استحبت همدان من النزول بالجيزة فكتب اليه عمر يحمد الله على ما كان من ذلك ويقول له كيف رضيت أن تفرق أصحابك لم يكن ينبغي لك أن ترضى لاحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر ولا تدرى ما يفجأهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم اليك فان أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فئ المسلمين حصنا فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا وأعجبهم موضعهم بالجيزة ومن والاهم على ذلك من رهطهم يافع وغيرها وأحبوا ما هنالك فبني لهم عمرو بن العاص الحصن في الجيزة في سنة احدى وعشرين وفرغ من بنائه في سنة اثنتين وعشرين ويقال ان عمرو بن العاص لما سأل أهل الجيزة أن ينضموا الى الفسطاط قالوا مقدم قدمناه في سبيل الله ما كنا لنرحل منه الى غيره فنزلت يافع الجيزة فيها مبرح بن شهاب وهمدان وذو اصبح فيهم أبو شمر بن ابرهة وطائفة من الحجر * وقال القضاعي ولما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل الفسطاط جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك

الناحية فجعل فيها آل ذي أصبح من حمير وهم كثير ويافع بن زيد من رعين وجعل فيها همدان وجعل فيها طائفة من الازديين بني الحجر بن الهبو بن الازد وطائفة من الحبشة وديوانهم في الازد فلما استقر عمرو في الفسطاط أمر الذين خلفهم بالجيزة أن ينضموا اليه فكرهوا ذلك وقالوا هـذا مقدم قدمناه في سبيل الله وأقمنا به ما كنا بالذين نرغب عنه ونحن به منذ أشهر فكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بذلك يخبره أن همدان وآل ذي أصبح ويافعا ومن كان معهم أحبوا المقام بالجيزة فكتب اليه كيف رضيت أن تفرق عنك اصحابك وتجعل بينك وبينهم بحرا لاتدرى مايفجأهم فلعلك لاتقدر على غيائهم فاجمعهم اليك ولا تفرقهـم فان أبوا وأعجبهم مكانهم فابن عليهم حصنا من فيء المسلمين فجمعهم عمرو وأخـبرهم بكتاب عمر فامتنعوا من الخروج من الجيزة فأمر عمرو ببناء الحصن عليهـم فكرهوا ذلك وقالوا لاحصن احصن لنا من سيوفنا وكرهت ذلك همدان ويافع فأقرع عمرو بينهم فوقعت القرعة على يافع فبني فيهم الحصن في سـنة احدى وعشرين وفرغ من بنائه في سنة اثنتين وعشرين وأمرهم عمرو بالخطط بها فاختط ذو أصبح من حمير من الشرق ومضوا الى الغرب حتى بلغوا أرض الحرث والزرع وكرهوا أن يبني الحصن فيهـم واختط يافع بن الحرث من رعين بوسط الجيزة وبني الحصن في خططهم وخرجت طائفة منهم عن الحصن انفة منه واختطت بكيل بن جشم من نوف من همدان في مهب الجنوب من الجيزة في شرقيها واختطت حاشد بن جشم بن نوف في مهب الشمال من الجيزة في غربيها واختطت الجياوية بنوعامر بن بكيل في قبلي الجيزة واختطت بنو حجر بن ارحب بن بكيل في قبلي الجيزة واختط بنو كعب بن مالك بن الحجر بن الهبـو بن الازد فيما بين بكيل ويافع والحبشة اختطوا على الشارع الاعظم والمسجد الجامع بالجيزة بناه محمد بن عبد الله الخازن في المحرم سـنة خمسين وثلثمائة بأمر الامير على بن الاخشيد فتقدم كافور الى الخازن ببنائه وعمل له مستغلا وكان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة في مسجد همدان وهو مسجد مراحق بن عامر بن بكيل كان يجمع فيـه الجمعة في الجيزة وشارف بناء هذا الجامع مع الخازن أبو الحسن بن أبي جعفر الطحاوى واحتاجوا الى عمد للجامع فمضى الخازن في الليل الى كنيسة بأعمال الجيزة فقلع عمـدها ونصب بدلها أركانا وحمل العمد الى الجامع فترك أبو الحسن بن الطحاوى الصلاة فيـه مذ ذاك تورعا قال اليمني وقد كان ابن الطحاوى يصلي في جامع الفسطاط العتيق وبعض عمـده أو أكثرها ورخامه من كنائس الاسكندرية وأرياف مصر وبعضه بناه قرة بن شريك عامل الوليد بن عبد الملك ويقال ان بالجيزة قبر كعب الاحبار وانه كان بها أحجار ورخام قد صورت فيها التماسيح فكانت لاتظهر فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علوا وسفلا

وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة منع الملك الناصر محمد بن قلاون الوزير أن يتعرض الى شئ مما يحصل من مال الجيزة فصار جميعه يحمل اليه

ذكر سجن يوسف عليه السلام

قال القضاعى سجن يوسف عليه السلام ببوصير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن به المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين وكان الوحي ينزل عليه فيه وسطح السجن موضع معروف باجابة الدعاء يذكر أن كافور الاخشيدى سأل أبا بكر بن الحداد عن موضع معروف باجابة الدعاء ليدعو فيه فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن والنبي الآخر موسي عليه السلام وقد بني على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى أخبرنا أبو الحسن على بن ابراهيم الشرفي بالشرف قال حدثنا أبو محمد عبد الله بن الورد وكان قد هلكت أخته وورث منها موروثا وكنا نسمع عليه دائما وكان لسجن يوسف وقت يمضي الناس اليه يتفرجون فقال لنا يوما يا أصحابنا هذا أوان السجن ونريد أن نذهب اليه وأخرج عشرة دنانير فناولها لاصحابه وقال لهم ما اشتهيتموه فاشتروه. فمضى أصحاب الحديث واشتروا ما أرادوا وعدينا يوم أحد الجيزة كلنا وبتنا في مسجد همدان فلما كان الصباح مشينا حتي جئنا الى مسجد موسى وهو الذى في السهل ومنه يطلع الى السجن وبينه وبين السجن تل عظيم من الرمل فقال الشيخ من يحملني ويطلع بي الى هذا السجن حتى أحدثه بحديث لا أحدثه لاحد بعده حتي تفارق روحي الدنيا قال الشرفي فأخذت الشيخ وحملته حتي صرت فى أعلاه فنزل وقال معك ورقة قلت لا قال أبصر لى بلاطة فأخذ فحمة وكتب حدثني يحيي بن أيوب عن يحيي بن بكير عن زيد بن أسلم ابن يسار عن ابن عباس قال ان جبريل أتى الى يوسف في هذا السجن في هذا البيت المظلم فقال له يوسف من أنت الذي مذ دخلت السجن ما رأيت أحسن وجها منك فقال له أنا جبريل فبكي يوسف فقال ما يبكيك يا نبي الله فقال ايش يعمل جبريل في مقام المذنبين فقال أما علمت أن الله تعالى يطهر البقاع بالانبياء والله لقد طهر الله بك السجن وما حوله فما أقام الى آخر النهار حتى أخرج من السجن قال القضاعى سقط بين يحيي وزيد رجل وقال الفقيه أبو محمد أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى وذكر سجن يوسف لو سافر الرجل من العراق ليصلى فيه وينظر اليه لما عنفته في سفره وقال الفقيه أبو اسحاق المروزى لو سافر الرجل من العراق لينظر اليه ما عنفته * وذكر المسيحي في حوادث شهر ربيع الاول سنة خمس عشرة وأربعمائة ان العامة والسوقة طافت الاسواق بمصر بالطبول والبوقات يجمعون من التجار وأرباب الاسواق ماينفقونه في مضيهم الي سجن يوسف فقال لهم التجار شغلنا بعدم الاقوات يمنعنا من هذا وكان قد اشتد الغلاء وأنهوا حالهم الي الحضرة المطهرة

يعني أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله أبا الحسن على بن الحاكم بأمر الله فرسم لنائب الدولة أبي طاهر بن كافي متولى الشرطة السفلى الترسيم على التجار حتي يدفعوا اليهم ماجرت به رسومهم ورسم لهم بالخروج الى سجن يوسف ووعدوا أن يطلق لهم من الحضرة ضعف ما أطلق لهم في السنة الماضية من الهبة فخرجوا وفى يوم السبت لتسع خلون من جمادى الاولى ركب القائد الاجل عز الدولة وسناها معضاد الخادم الاسود فى سائر الاتراك ووجوه القواد وشق البلد ونزل الى الصناعة التى بالجسر بمن معه ثم خرج من هناك وعدى في سائر عساكره الى الجيزة حتي رتب لامير المؤمنين عساكر تكون معه مقيمة هناك لحفظه لانه عدى يوم الاثنين لاحدى عشرة خلت منه فى أربع عشاريات وأربع عشرة بغلة من بغال النقل وفي جميع من معه من خاصته وحرمه الي سجن يوسف عليه السلام وأقام هناك يومين وليلتين الي أن عاد الرمادية الخارجون الي السجن بالتماثيل والمضاحك والحكايات والسماجات فضحك منهم واستظرفهم وعاد الى قصره بكرة يوم الاربعاء لثلاث عشرة خلت منه وأقام أهل الاسواق نحو الاسبوعين يطرقون الشوارع بالخيال والسماجات والتماثيل ويطلعون الى القاهرة بذلك ليشاهدهم أمير المؤمنين ويعودون ومعهم سجل قد كتب لهم أن لا يعارض أحد منهم في ذهابه وعوده وأن يعتمد اكرامهم وصيانتهم ولم يزالوا على ذلك الى أن تكامل جميعهم وكان دخولهم من سجن يوسف يوم السبت لاربع عشرة بقيت من جمادي الاولى وشقوا الشوارع بالحكايات والسماجات والتماثيل فتعطل الناس في ذلك اليوم عن أشغالهم ومعايشهم واجتمع في الاسواق خلق كثير لنظرهم وظل الناس اكثر هذا اليوم على ذلك وأطلق لجميعهم ثمانية آلاف درهم وكانوا اثنى عشر سوقا ونزلوا مسرورين وبخارج مدينة الجيزة موضع يعرف بأبي هريرة فيظن من لا علم له أنه أبو هريرة الصحابى وليس كذلك بل هو منسوب الى ابن ابنته

(ذكر قرية ترسا)

قال القضاعى وذكر ان القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر بنى فى الجيزة قرية تعرف بترسا والقاسم هذا خرج الى مصر وولى خلافة عن ابيه عبيد الله بن الحبحاب السلولى على الخراج في خلافة هشام بن عبد الملك ثم امره هشام على خراج مصر حين خرج ابوه الى امارة افريقية في سنة ست عشرة ومائة فلم يزل الى سنة اربع وعشرين ومائة فنزع عن مصر وجمع لحفص بن الوليد عربها وعجمها فصار يلى الخراج والصلاة معا وبترسا هذه كانت وقعة هرون بن محمد الجعدى

(ذكر منية اندونة)

هى احدى قرى الجيزة عرفت بأندونة كاتب احمد المداينى الذى كان يتقلد ضياع موسى

ابن بغا التي بمصر فقبض احمد بن طولون علي اندونة هذا وكان نصرانيا فأخذ منه خمسين ألف دينار

(ذكر وسيم)

قال ابن عبد الحكم وخرج عبدالله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر الي وسيم وكانت لرجل من القبط فسأل عبد الله أن يأتيه الي منزله ويجعل له مائة ألف دينار فخرج اليه عبد الله بن عبد الملك وقيل انما خرج عبد الله الي قرية أبي النمرس مع رجل من الكتاب يقال له ابن حنظلة فأتى عبد الله العزل وولاية قرة بن شريك وهو هناك فلما بلغه ذلك قام ليلبس سراويله فلبسه منكوسا وقيل ان عبد الله لما بلغه العزل ردالمال على صاحبه وقال قد عزلنا وكان عبد الله قد ركب معه الي المعدية وعدى أصحابه قبله وتأخر فورد الكتاب بعزله فقال صاحب المال والله لا بد أن تشرف منزلى وتكون ضيفى وتأكل طعامى ووالله لا عادلى شيء من ذلك ولا أدعك منصرفا فعدى معه

(ذكر منية عقبة)

هذه القرية بالجيزة عرفت بعقبة بن عامر الجهني رضى الله عنه * قال ابن عبدالحكم كتب عقبة بن عامر الي معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما يسأله أرضا يسترفق فيها عند قرية عقبة فكتب له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع فقال له مولي له كان عنده أنظر أصلحك الله أرضا صالحة فقال عقبة ليس لنا ذلك ان فى عهدهم شروطاً ستة منها أن لا يؤخذ من أرضهم شئ ولا من نسائهم ولا من أولادهم ولا يزاد عليهم ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم وأنا شاهد لهم بذلك وفى رواية كتب عقبة الى معاوية يسأله نقيعاً فى قرية يبني فيه منازل ومساكن فأمر له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع فقال له مواليه ومن كان عنده أنظر الي أرض تعجبك فاختط فيها وابتن فقال انه ليس لنا ذلك لهم في عهدهم ستة شروط منها أن لا يؤخذ من أرضهم شئ ولا يزاد عليهم ولا يكلفوا غير طاقتهم ولاتؤخذ ذراريهم وأن يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم قال أبو سعيد بن يونس وهذه الأرض التى اقتطعها عقبة هى المنية المعروفة بمنية عقبة في جيزة فسطاط مصر * (عقبة بن عامر) بن عيسى بن عمرو بن عدي بن عمرو بن رفاعة بن مودوعة بن عدى ابن غنم بن الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة كذا نسبه أبو عمرو الكندى وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر عقبة بن عامر بن حسن الجهني من جهينة بن زيد بن مسود ابن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة وقد اختلف في هذا النسب يكنى أبا حماد وقيل أبا أسد وقيل أبا عمرو وقيل أبا سعاد وقيل أبا الاسود وقال خليفة بن خياط وقتل أبو عامر عقبة بن عامر الجهني يوم النهروان شهيدا وذلك سنة ثمان وثلاثين وهذا غلط منه وفي

كتابه بعد وفي سنة ثمان وخمسين توفى عقبة بن عامر الجهنى قال سكن عقبة بن عامر مصر وكان واليا عليها وابتنى بها دارا وتوفى فى آخر خلافة معاوية روى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وأبو امامة ومسلمة بن مخلد وأما رواته من التابعين فكثير وقال الكندي ثم وليها عقبة بن عامر من قبل معاوية وجمع له صلاتها وخراجها فجعل على شرطته حمادا وكان عقبة قارئا فقيها فرضيا شاعرا له الهجرة والصحبة السابقة وكان صاحب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء الذي يقودها في الاسفار وكان صرف عقبة عن مصر بمسلمة ابن مخلد لعشر بقين من ربيع الاول سنة أربعين فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وقال ابن يونس توفى بمصر سنة ثمان وخمسين ودفن في مقبرتها بالمقطم وكان يخضب بالسواد رحمه الله تعالي

﴿ ذكر حلوان ﴾

يقال انها تنسب الي حلوان بن بابليون بن عمرو بن امرئ القيس ملك مصر بن سبا ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان حلوان هذا بالشام على مقدمة أبرهة ذى المنار أحد التبابعة * قال ابن عبد الحكم وكان الطاعون قد وقع بالفسطاط فخرج عبد العزيز بن مروان من الفسطاط فنزل بحلوان داخلا في الصحراء فى موضع منها يقال له أبو قرقورة وهو رأس العين التى احتفرها عبد العزيز بن مروان وساقها الى نخيله التى غرسها بحلوان فكان ابن خديج يرسل الى عبد العزيز في كل يوم بخبر ما يحدث في البلد من موت وغيره فأرسل اليه ذات يوم رسولا فأتاه فقال له عبد العزيز ما اسمك فقال أبو طالب فثقل ذلك على عبد العزيز وغاظه فقال له عبد العزيز أسألك عن اسمك فتقول أبو طالب ما اسمك فقال مدرك فتفاءل بذلك ومرض فى مخرجه ذلك ومات هنالك فحمل في البحر يراد به الفسطاط حتى تغير فأنزل في بعض خصوص ساحل مريس فغسل فيه وأخرجت من هنالك جنازته وخرج معه بالمجامر فيها العود لما كان قد تغير من ريحه وأوصى عبد العزيز أن يمر بجنازته اذا مات على منزل جناب بن مرثد بن زيد بن هانئ الرعيني صاحب حرسه وكان صديقا له وقد توفى قبل عبد العزيز فمر بجنازته على باب جناب وقد خرج عيال جناب ولبسن السواد ووقفن على الباب صائحات ثم اتبعنه الى المقبرة وكان لنصيب من عبد العزيز ناحية فقدم عليه فى مرضه فاذن له فلما رأي شدة مرضه أنشأ يقول

ونزور سيدنا وسيد غيرنا * ليت التشكى كان بالعواد

لو كان يقبل فدية لفديته * بالمصطفى من طارفي وتلادي

فلما سمع صوته فتح عينيه وأمر له بألف دينار واستبشر بذلك آل عبد العزيز وفرحوا به ثم مات * وقال الكندى ووقع الطاعون بمصر فى سنة سبعين فخرج عبد العزيز بن

مروان منها الى الشرقيـة متنديا فنزل حلوان فأعجبته فاتخـذها وسكنها وجعل بها الحرس والاعوان والشرط فكان عليهـم جناب بن مرثد بحلوان وبني عبـد العزيز بحلوان الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وأحكمها وغرس نخلها وكرمها فقال ابن قيس الرقيات

سقيا لحلوان ذى الـكروم وما * صنف من تينـه ومن عنبه
نخـل مواقير بالقناء من الـ * ـبرني يهـتز ثم في سربه
أسود سـكانه الحمـام فما * ينفك غربانه على رطبـه

ولما غرس عبد العزيز نخل حلوان وأطعم دخله والجند معه فجعل يطوف فيه ويقف على غروسـه ومساقيه فقال يزيد بن عروة الجملي ألا قلت أيها الامير كما قال العبد الصالح ما شاء الله لا قوة الا بالله فقال أذكرتني شكراً يا غلام قل لانيتاس يزيد في عطائه عشرة دنانير * (عبد العزيز) بن مروان بن الحـكم بن أبي العاص بن أمية بن عبـد شمس بن عبد مناف القرشي الاموى أبو الاصبغ أمه ليلى ابنـة زبان بن الاصبغ الـكندى روى عن أبي هريرة وعقبة بن عامر الجهنى وروى عنه على بن رباح وبحير بن داخرة وعبيدالله ابن مالك الخولانى وكعب بن علقمة ووثقه النسائى وابن سـعد ولما سار أبوه مروان الى مصر بعثه فى جيش الى ايلة ليدخل مصر من تلك الناحية فبعث اليه ابن جحدم أمير مصر بجيش عليهم زهير بن قيس البلوى فلقى عبد العزيز ببصاق وهي سطح عقبة ايلة فقاتله فانهزم زهير ومن معه فلما غلب مروان على مصر في جمادي الآخرة سنة خمس وسـتين جعل صلاتها وخراجها الى ابنه عبد العزيز بعد ما أقام بمصر شـهرين فقال عبد العزيز يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحـد من بنى أبى فقال له مروان يا بني عمهم باحسـانك يكونوا كلهم بنى أبيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم وأوقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن لك عينا على غـيره وينقاد قومه اليك وقد جعلت معك أخاك بشرا مؤنساً وجعلت لك موسى بن نصير وزيرا ومشيرا وما عليك يا بني أن تكون أميرا بأقصى الارض أليس ذلك أحسن من اغلاق بابك وخمولك فى منزلك وأوصاه عند مخرجه من مصر الي الشام فقال أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأوصيك أن لا تجعل لداعى الله عليك سبيلا فان المؤذن يدعوالى فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وأوصيك أن لا تعد النـاس موعدا الا أنفذته لهم وان حملته على الاسنة وأوصيك أن لا تعجل فى شئ من الحـكم حتى تستشير فان الله لو أغنى أحدا عن ذلك لاغنى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عن ذلك بالوحى الذى يأتيه قال الله عز وجل وشاورهم فى الامر * وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة خمس وستين فوليها عبد العزيز على صلاتها وخراجها وتوفى مروان لهلال رمضـان

وبويع ابنه عبد الملك بن مروان فاقر أخاه عبد العزيز ووفد على عبد الملك في سنة سبع وستين وجعل على الحرس والخيل والاعوان جناب بن مرثد الرعيني فاشتد سلطانه وكان الرجل اذا أغاظ لعبد العزيز وخرج تناوله جناب ومن معه فضربوه وحبسوه وعبد العزيز أول من عرف بمصر فى سنة احدى وسبعين قال يزيد بن أبى حبيب أول من أحدث القعود يوم عرفة في المسجد بعد العصر عبد العزيز بن مروان * وفى سنة اثنتين وسبعين صرف بعث البحر الى مكة لقتال عبد الله بن الزبير وجعل عليهم مالك بن شرحبيل الخولاني وهم ثلاثة آلاف رجل فيهم عبد الرحمن بن بحنس مولى ابن ابزى وهو الذي قتل ابن الزبير وخرج الي الاسكندرية فى سنة أربع وسبعين ووفد على أخيه عبد الملك في سنة خمس وسبعين وهدم جامع الفسطاط كله وزاد فيه من جوانبه كلها في سنة سبع وسبعين وأمر بضرب الدنانير المنقوشة وقال ابن عفير كان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل وكتب عبد الملك اليه أن ينزل له عن ولاية العهد ليعهد الي الوليد وسليمان فأبى ذلك وكتب اليه ان يكن لك ولد فلنا أولاد ويقضى الله ما يشاء فغضب عبد الملك فبعث اليه عبد العزيز بعلى بن رباح يترضاه فلما قدم على عبد الملك استعطفه على أخيه فشكا عبد الملك وقال فرق الله بيني وبينه فلم يزل به علي حتى رضى فقدم علي عبد العزيز فأخبره عن عبد الملك وعن حاله ثم أخبره بدعوته فقال افعل أنا والله مفارقه والله مادعا دعوة قط الا أجيبت وكان عبد العزيز يقول قدمت مصر في امرة مسلمة بن مخلد فتمنيت بها ثلاث أمانى فأدركتها تمنيت ولاية مصر وأن أجمع بين امرأتي مسلمة ويحجبنى قيس بن كليب حاجبه فتوفي مسلمة وقدم مصر فوليها وحجبه قيس وتزوج امرأتى مسلمة وتوفى ابنه الاصبغ بن عبد العزيز لتسع بقين من ربيع الآخر سنة ست وثمانين فمرض عبد العزيز وتوفى ليلة الاثنين لثلاث عشرة خلت من جمادى الاولي سنة ست وثمانين فحمل فى النيل من حلوان الى الفسطاط فدفن بها * وقال ابن أبى مليكة رأيت عبد العزيز بن مروان حين حضره الموت يقول ألا ليتني لم أك شيئا مذكورا ألا ليتنى كنابتة من الارض أو كراعى ابل فى طرف الحجاز ولما مات لم يوجد له مال ناض الا سبعة آلاف دينار وحلوان والقيسارية وثياب بعضها مرقوع وخيل ورقيق وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما ولم يلها في الاسلام قبله أطول ولاية منه * وكان بحلوان في النيل معدية من صوان تعدى بالخيل تحمل فيها الناس وغيرهم من البر الشرقي بحلوان الى البر الغربى فلما كان (٣) وهذا من الاسرار التى في الخليقة فان جميع الاجسام المعدنية كالحديد والنحاس والفضة والرصاص والذهب والقصدير اذا عمل من شئ منها اناء يسع من الماء أكثر من وزنه فانه يعوم على

وجه الماء ويحمل ما يمكنه ولا يغرق وما برح المسافرون في بحر الهند اذا أظلم عليهم الليل ولم يروا ما يهديهم من الكواكب الي معرفة الجهات يحملون حديدة مجوفة على شكل سمكة ويبالغون فى ترقيقها جهد المقدرة ثم يعمل في فم السمكة شيء من مغناطيس جيداً ويحك فيها بالمغناطيس فان السمكة اذا وضعت فى الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبي بفمها واستدبرت القطب الشمالى وهذا أيضاً من أسرار الخليقة فاذا عرفوا جهتى الجنوب والشمال تبين منهما المشرق والمغرب فان من استقبل الجنوب فقد استدبر الشمال وصار المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره فاذا تحددت الجهات الاربع عرفوا مواقع البلاد بها فيقصدون حينئذ جهة الناحية التي يريدونها

ذكر مدينة العريش

العريش مدينة فيما بين أرض فلسطين وأقليم مصر وهى مدينة قديمة من جملة المدائن التى اختطت بعد الطوفان * قال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه عن مصرايم بن بيصر ابن حام بن نوح عليه السلام وكان غلاما مرفها فلما قرب من مصر بنى له عريشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الارض ثم بنى له بعد ذلك في هذا الموضع مدينة وسماها درسان أى باب الجنة فزرعوا وغرسوا الاشجار والجنان من درسان الى البحر فكانت كلها زروعا وجنانا وعمارة * وقال آخر انما سميت بذلك لان بيصر بن حام بن نوح تحمل في ولده وهم أربعة ومعهم أولادهم فكانوا ثلاثين ما بين ذكر وأنثى وقدم ابنه مصر بن بيصر أمامه نحو أرض مصر حتى خرج من حد الشام فتاهوا وسقط مصر في موضع العريش وقد اشتد تعبه ونام فرأى قائلا يبشره بحصوله في أرض ذات خير ودر وملك وفخر فانتبه فزعا فاذا عليه عريش من اطراف الشجر وحوله عيون ماء فحمد الله وسأله أن يجمعه بأبيه واخوته وان يبارك له في أرضه فاستجيب له وقادهم الله اليه فنزلوا فى العريش وأقاموا به فأخرج الله لهم من البحر دواب ما بين خيل وحمر وبقر وغنم وابل فساقوها حتى أتوا موضع مدينة منف فنزلوه وبنوا فيه قرية سميت بالقبطية مافة يعني قرية ثلاثين فنمت ذرية بيصر حتى عمروا الارض وزرعوا وكثرت مواشيهم وظهرت لهم المعادن فكان الرجل منهم يستخرج القطعة من الزبرجد يعمل منها مائدة كبيرة ويخرج من الذهب ما تكون القطعة منه مثل الاسطوانة وكالبعير الرابض * وقال ابن سعيد عن البيهقى كان دخول اخوة يوسف وأبويه عليهم السلام عليه بمدينة العريش وهي أول أرض مصر لانه خرج الى تلقيهم حتى نزل المدينة بطرف سلطانه وكان له هناك عرش وهو سرير السلطنة فأجلس أبويه عليه وكانت تلك المدينة تسمى في القديم بمدينة العرش لذلك ثم سمتها العامة مدينة العريش فغلب ذلك عليها ويقال انه كان ليوسف عليه السلام حرس في اطراف أرض مصر من جميع جوانبها فلما أصاب الشام القحط وسارت اخوة

يوسف لتمتار من مصر أقاموا بالعريش وكتب صاحب الحرس الى يوسف ان أولاد يعقوب الكنعاني يريدون البلد لقحط نزل بهم فعمل اخوة يوسف عند ذلك عرشا يستظلون به من الشمس حتي يعود الجواب فسمى الموضع العريش وكتب يوسف بالاذن لهم فكان من شأنهم ماقد ذكر في موضعه ويقال للعرش الج فهذا كما ترى وابن وصيف شاه أعرف بأخبار مصر * وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة طرق عبد الله بن ادريس الجعفرى العريش بمعاونة بني الجراح وأحرقها وأخذ جميع مافيها * وقال القاضي الفاضل وفى جمادي الآخرة سنة سبع وسبعين وخمسمائة ورد الخبر بأن نخل العريش قطع الفرنج أكثره وحملوا جذوعه الى بلادهم وملئت منه ولم يجدوا مخاطبا على ذلك ونقل عن ابن عبد الحكم أن الجفار بأجمعه كان أيام فرعون موسى في غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان وأن قول الله تعالى ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون عن هذه المواضع وأن العمارة كانت متصلة منه الى اليمن ولذلك سميت العريش عريشا وقيل انها نهاية التخوم من الشام وان اليه كان ينتهى رعاة ابراهيم الخليل عليه السلام بمواشيه وانه عليه السلام اتخذ به عريشا كان يجلس فيه حتى تحلب مواشيه بين يديه فسمى العريش من أجل ذلك وقيل ان مالك بن دعر بن حجر بن جذيلة بن لخم كان له أربعة وعشرون ولدا منهم العريش بن مالك وبه سميت العريش لانه نزل بها وبناها مدينة وعن كعب الاحبار أن بالعريش قبور عشرة انبياء

ذكر مدينة الفرماء

قال البكرى الفرماء بفتح أوله وثانيه ممدود على وزن فعلاء وقد يقصر مدينة تلقاء مصر وقال ابن خالويه فى كتاب ليس الفرما هذه سميت بأخي الاسكندر كان يسمي الفرما وكان كافرا وهي قرية أم اسمعيل بن ابراهيم انتهى ويقال اسمه الفرما بن فيلقوس ويقال فيه ابن فليس ويقال بليس وكانت الفرما على شط بحيرة تنيس وكانت مدينة خصباء وبها قابر جالينوس الحكيم وبني بها المتوكل على الله حصنا على البحر تولى بناءه عنبسة بن اسحاق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين عند ما بني حصن دمياط وحصن تنيس وأنفق فيها مالا عظيما ولما فتح عمرو بن العاص عين شمس أنفذ الى الفرماء أبرهة بن الصباح فصالحه أهلها على خمسمائة دينار هرقلية وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم فرحل عنهم الى البقارة * وفي سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة نزل الروم عليها فنفر الناس اليهم وقتلوا منهم رجلين ثم نزلوا في جمادى الاولى سنة تسع وأربعين وثلثمائة فخرج اليهم المسلمون وأخذوا منهم مركبا وقتلوا من فيه وأسروا عشرة * وقال اليعقوبي الفرما أول مدن مصر من جهة الشمال وبها أخلاط من الناس وبينها و بين البحر الاخضر ثلاثة أميال * وقال ابن الكندى ومنها الفرما وهى أكثر عجائب وأقدم آثارا ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق الى جزيرة قبرس في البر

فغلب عليها البحر ويقولون انه كان فيما غلب عليه البحر مقطع الرخام الا بلق وان مقطع الابيض بلوبية * وقال يحيي بن عثمان كنت أرابط في الفرما وكان بينها وبين البحر قريب من يوم يخرج الناس والمرابطون في أخصاص على الساحل ثم علا البحر على ذلك كله وقال ابن قديد وجه ابن المدبر وكان بتنيس الى الفرما فى هدم أبواب من حجارة شرقي الحصن احتاج أن يعمل منها جيرا فلما قلع منها حجر أو حجران خرج أهل الفرما بالسلاح فمنعوا من قلعها وقالوا هذه الابواب التي قال الله فيها على لسان يعقوب عليه السلام يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة والفرما بها النخل العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر والرطب من سائر الدنيا فيبتدئ هذا الرطب من حين يلد النخل فى الكوانين فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجيء البلح فى الربيع وهذا لايوجد فى بلد من البلدان لا بالبصرة ولا بالحجاز ولا باليمن ولا بغيرها من البلدان ويكون فى هذا البسر ماوزن البسرة الواحدة فوق العشرين درهما وفيه ماطول البسرة نحو الشبر والفتر * وقال ابن المأمون البطايحي فى حوادث سنة تسع وخمسمائة ووصلت النجابون من والى الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل الى أعمال الفرما فسير الافضل بن أمير الجيوش للوقت الى والى الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين بها وسير الراجل من العطوفية وأن يسير الوالي بنفسه بعد أن يتقدم الى العربان بأسرهم بأن يكونوا فى الطوالع ويطاردوا الفرنج ويشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر اليهم فاعتمد ذلك ثم أمر باخراج الخيام وتجهيز الاصحاب والحواشى فلما تواصلت العساكر وتقدمها العربان وطاردوا الفرنج وعلم بغدوين ملك الفرنج أن العساكر متواصلة اليه وتحقق أن الاقامة لاتمكنه أمر أصحابه بالنهب والتخريب والاحراق وهدم المساجد فأحرق جامعها ومساجدها وجميع البلد وعزم على الرحيل فاخذه الله سبحانه وتعالى وعجل بنفسه الى النار فكتم أصحابه موته وساروا بعد أن شقوا بطن بغدوين وملأوه ملحا حتى بقى الى بلاده فدفنوه بها وأما العساكر الاسلامية فانهم شنوا الغارات على بلاد العدو وعادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان وكتب الى الامير ظهير الدين طفدكين صاحب دمشق بأن يتوجه الى بلاد الفرنج فسار الى عسقلان وحملت اليه الضيافات وطولع بخبر وصوله فأمر بحمل الخيام وعدة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والاعلام وسيف ذهب ومنطقة ذهب وطوق ذهب وبدلة طقم وخيمة كبيرة مكملة ومرتبة ملوكية وفرشها وجميع آلاتها وما تحتاج اليه من آلات الفضة وسير برسم شمس الخواص وهو مقدم كبير خلعة مذهبة ومنطقة ذهب وسيف وسير برسم المميزين من الواصلين خلع وسيوف وسلم ذلك بثبت لاحد الحجاب وسير معه فراشان برسم الخيام وأمر بضرب الخيمة الكبيرة وفرشها وأن يركب والى عسقلان وظهير الدين وشمس الخواص وجميع الامراء الواصلين والمقيمين

بعسقلان الى باب الخيمة ويقبلوه ثم الى بساطها والمرتبة المنصوبة ثم يجلس الوالي وظهير الدين وشمس الخواص والمقدمون ويقف الناس بأجمعهم اجلالا وتعظيما ويخلع على الامير ظهير الدين وشمس الخواص وتشد المناطق في أوساطهما ويقلدا بالسيوف ويخلع بعدهما على المميزين ثم يسير ظهير الدين والمقدمون بالتشريف والاعلام والرايات المسيرة اليهم الى أن يصلوا الى الخيام التي ضربت لهم فاذا كان كل يوم يركب الوالي والاميران والمقدمون والعساكر الى الخيمة الملوكية ويتفاوضون فيما يجب من تدبير العساكر فامتثل ذلك وتواصلت الغارات على بلاد العدو وأسروا وقتلوا فسيرت اليهم الخلع ثانيا وجعل لشمس الخواص خاصة في هذه السفرة عشرة آلاف دينار وتسلم ظهير الدين الخيمة الكبيرة بما فيها وكان تقدير ماحصل له ولاصحابه ثلاثين ألف دينار وبلغ المنفق في هذه النوبة وعلى ذهاب بغدوين وهلاكه مائة ألف دينار * وفي شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة نزل الفرنج على الفرما في جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها وآخر أمرها أن الوزير شاور خربها لما خرج منها متوليها ملهم أخو الضرغام في سنة (٣) فاستمرت خرابا لم تعمر بعد ذلك وكان بالفرما والبقارة والورادة عرب من جذام يقال لهم القاطع وهو جرى بن عوف بن مالك بن شنوءة بن بديل بن جشم بن جذام منهم عبدالعزيز بن الوزير بن صابي بن مالك بن عامر بن عدى ابن حرش بن بقر بن نصر بن القاطع مات في صفر سنة خمس ومائتين وللسروي والجروى هنا أخبار كثيرة نبهنا عليها في كتاب عقد جواهر الاسفاط في أخبار مدينة الفسطاط وقال ابن الكندى وبها مجمع البحرين وهو البرزخ الذى ذكره الله عزوجل فقال مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان وقال وجعل بين البحرين حاجزا وهما بحر الروم وبحر الصين والحاجز بينهما مسيرة ليلة مابين القلزم والفرما وليس يتقاربان في بلد من البلدان أقرب منهما بهذا الموضع وبينهما في السفر مسيرة شهور

ذكر مدينة القلزم

القلزم بضم القاف وسكون اللام وضم الزاى وميم بلدة كانت على ساحل بحر اليمن في أقصاه من جهة مصر وهى كورة من كور مصر واليها ينسب بحر القلزم وبالقرب منها غرق فرعون وبينها وبين مدينة مصر ثلاثة أيام وقد خربت ويعرف اليوم موضعها بالسويس تجاه عجرود ولم يكن بالقلزم ماء ولا شجر ولا زرع وانما يحمل الماء اليها من آبار بعيدة وكان بها فرضة مصر والشام ومنها تحمل الحمولات الى الحجاز واليمن ولم يكن بين القلزم وفاران قرية ولا مدينة وهي نخل يسير فيه صيادو السمك وكذلك من فاران وجيلان الى أيلة قال ابن الطوير والبلد المعروف بالقلزم أكثرها باق الى اليوم ويراها الراكب السائر من مصر الى الحجاز

وكانت في القديم ساحلا من سواحل الديار المصرية ورأيت شيئاً من حسابه من جهة مستخدميه في حواصل القصر وما ينفق على واليه وقاضيه وداعيه وخطيبه والاجناد المركزين به لحفظه وقربه وجامعه ومساجده وكان مسكونا مأهولا * قال المسيحي في حوادث سنة سبع وثمانين وثلثمائة وفى شهر رمضان سامح أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أهل مدينة القلزم مما كان يؤخذ من مكوس المراكب وقال ابن خرداديه عن التجار فيركبون في البحر الغربي ويخرجون بالفرماء ويحملون تجاراتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى تجار جدة ثم يمضون الى السند والهند والصين ومن القلزم ينزل الناس في برية وصحراء ست مراحل الى أيلة ويتزودون من الماء لهذه المراحل الست ويقال ان بين القلزم وبحر الروم ثلاث مراحل وان ما بينهما هو البرزخ الذى ذكره الله تعالى بقوله بينهما برزخ لايبغيان

(التيه)

هو أرض بالقرب من أيلة بينهما عقبة لايكاد الراكب يصعدها لصعوبتها الا أنها مهدت في زمان خمارويه بن أحمد بن طولون ويسير الراكب مرحلتين في محض التيه هذا حتى يوافي ساحل بحر فاران حيث كانت مدينة فاران وهناك غرق فرعون والتيه مقدار أربعين فرسخا في مثلها وفيه تاه بنو اسرئيل أربعين سنة لم يدخلوا مدينة ولا أووا الى بيت ولا بدلوا ثوبا وفيه مات موسي عليه السلام ويقال ان طول التيه نحو من ستة أيام واتفق أن المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين في سنة اثنتين وخمسين وستمائة مر طائفة منهم بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام ثم ترآى لهم فى اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه فاذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أخضر فدخلوا بها وطافوا بها فاذا هي قد غلب عليها الرمل حتى طم أسواقها ودورها ووجدوا بها أواني وملابس وكانوا اذا تناولوا منها شيئاً تناثر من طول البلى ووجدوا فى صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهبا عليها صورة غزال وكتابة عبرانية وحفروا موضعا فاذا حجر على صهريج ماء فشربوا منه ماء أبرد من الثلج ثم خرجوا ومشوا ليلة فاذا بطائفة من العربان فحملوهم الى مدينة الكرك فدفعوا الدنانير لبعض الصيارفة فاذا عليها أنها ضربت في أيام موسى عليه السلام ودفع لهم فى كل دينار مائة درهم وقيل لهم ان هذه المدينة الخضراء من مدن بني اسرائيل ولها طوفان رمل يزيد تارة وينقص أخرى لايراها الا تائه والله أعلم

(ذكر مدينة دمياط)

اعلم أن دمياط كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس اثنا عشر فرسخا ويقال سميت بدمياط من ولد أشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ويقال ان ادريس

عليه السلام كان أول ما أنزل عليه ذو القوة والجبروت أنا الله مدين المدائن الفلك بأمرى وصنعي أجمع بين العذب والملح والنار والثلج وذلك بقدرتي ومكنون علمي الدال والميم والالف والطاء قيل هم بالسريانية دمياط فتكون دمياط كلمة سريانية أصلها دمط أى القدرة اشارة الى مجمع العذب والملح وقال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه دمياط بلد قديم بني في زمن قليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصرايم على اسم غلام كانت أمه ساحرة لقليمون * ولما قدم المسلمون الى أرض مصر كان على دمياط رجل من اخوال المقوقس يقال له الهاموك فلما افتتح عمرو بن العاص مصر امتنع الهاموك بدمياط واستعد للحرب فأنفذ اليه عمرو بن العاص المقداد بن الاسود في طائفة من المسلمين فحاربهم الهاموك وقتل ابنه في الحرب فعاد الى دمياط وجمع اليه أصحابه فاستشارهم في أمره وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال أيها الملك ان جوهر العقل لاقيمة له وما استغنى به أحد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد وما لاحد عليهم قدرة ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر والرأى أن تعقد مع القوم صلحا تنال به الامن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالا من المقوقس فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب منه فقتله وكان له ابن عارف عاقل وله دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها وبرز الهاموك للحرب فلم يشعر بالمسلمين الا وهم يكبرون على سور البلد وقد ملكوه فعند مارأى شطا بن الهاموك المسلمين فوق السور لحق بالمسلمين ومعه عدة من أصحابه ففت ذلك في عضد أبيه واستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط واستخلف المقداد عليها وسير بخبر الفتح الى عمرو بن العاص وخرج شطا وقد أسلم الى البرلس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مددا للمسلمين وعونا لهم على عدوهم وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس فبرز لاهلها وقاتلهم قتالا شديدا حتى قتل رحمه الله في المعركة شهيدا بعد ما انكي فيهم وقتل منهم فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به خارج دمياط وكان قتله في ليلة الجمعة النصف من شعبان فلذلك صارت هذه الليلة من كل سنة موسما يجتمع الناس فيها من النواحي عند شطا ويحيونها وهم على ذلك الى اليوم وما زالت دمياط بيد المسلمين الى أن نزل عليها الروم فى سنة تسعين من الهجرة فأسروا خالد بن كيسان وكان على البحر هناك وسيروه الى ملك الروم فأنفذه الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التي كانت بينه وبين الروم فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك نازل الروم دمياط فى ثلثمائة وستين مركبا فقتلوا وسبوا وذلك في سنة احدي وعشرين ومائة ولما كانت الفتنة بين الاخوين محمد الامين وعبد الله المأمون وكانت الفتن بأرض مصر طمع

الروم في البلاد ونازلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين ثم لما كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين فملكوها وما فيها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والاطفال وأهل الذمة فنفر اليهم عنبسة بن اسحاق يوم النحر في جيشه ونفر كثير من الناس اليهم فلم يدركوهم ومضى الروم الى تنيس فأقاموا باشتومها فلم يتبعهم عنبسة فقال يحيي بن الفضيل للمتوكل

أترضى بأن يوطا حريمك عنوة * وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتي دمياط والروم وثب * بتنيس رأى العين منه وأقرب
مقيمون بالاشتوم يبغون مثل ما * أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبرا ولا درى * من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا انا بدار مضيعة * بمصر وان الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط فابتدئ في بنائه يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وأنشأ من حينئذ الاسطول بمصر فلما كان في سنة سبع طرق الروم دمياط في نحو مائتي مركب فأقاموا يعبثون في السواحل شهرا وهم يقتلون ويأسرون وكانت للمسلمين معهم معارك ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الاخشيدى طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة في بضع وعشرين مركبا فقتلوا وأسروا مائة وخمسين من المسلمين * وفي سنة ثمان وأربعمائة ظهر بدمياط سمكة عظيمة طولها مائتان وستون ذراعا وعرضها مائة ذراع وكانت حمير الملاح تدخل في جوفها موسوقة فتفرغ وتخرج ووقف خمسة رجال في قحفها ومعهم المجاريف يجرفون الشحم ويناولونه الناس وأقام أهل تلك النواحى مدة طويلة يأكلون من لحمها وفى أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى والوزير حينئذ الصالح طلائع بن رزيك نزل على دمياط نحو ستين مركبا في جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة بعث بها لوجير بن رجا وصاحب صقلية فعاثوا وقتلوا ونزلوا تنيس ورشيد والاسكندرية فأكثروا فيها الفساد ثم كانت خلافة العاضد لدين الله في وزارة شاور بن مجير السعدي الوزارة الثانيــة عند ما حضر ملك الفرنج مرى الى القاهرة وحصرها وقرر على أهلها المــال واحترقت مدينة الفسطاط فنزل على تنيس وأشموم ومنية غمر وصاحب أسطول الفرنج في عشرين شونة فقتل وأسر وسبي وفي وزارة الملك الناصر صــلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد وصــل الفرنج الى دمياط في شهر ربيع الاول سنة خمس وستين وخمسمائة وهم فيما يزيد على ألف ومائتي مركب فخرجت العساكر من القاهرة وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار فأقامت الحرب مدة خمسة وخمسين يوما وكانت صعبة شديدة وانهم في هــذه

النوبة عدة من أعيان المصريين بموالاة الفرنج ومكاتبتهم وقبض عليهم الملك الناصر وقتلهم وكان سبب هذه النوبة أن الغز لما قدموا الى مصر من الشام صحبة أسد الدين شيركوه تحرك الفرنج لغزو ديار مصر خشية من تمكن الغز بها فاستمدوا اخوانهم أهل صقلية فأمدوهم بالاموال والسلاح وبعثوا اليهم بعدة وافرة فساروا بالدبابات والمجانيق ونزلوا على دمياط في صفر وهم في العدة التى ذكرنا من المراكب وأحاطوا بها بحرا وبرا فبعث السلطان بابن أخيه تقى الدين عمرو وأتبعه بالامير شهاب الدين الحازمي في العساكر الى دمياط وأمدها بالاموال والميرة والسلاح واشتد الامر على أهل دمياط وهم ثابتون على محاربة الفرنج فسير صلاح الدين الى نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام يستنجده ويعلمه بأنه لا يمكنه الخروج من القاهرة الى لقاء الفرنج خوفا من قيام المصريين عليه فجهز اليه العساكر شيئا بعد شئ وخرج نور الدين من دمشق بنفسه الى بلاد الفرنج التى بالساحل وأغار عليها واستباحها فبلغ ذلك الفرنج وهم على دمياط فخافوا على بلادهم من نور الدين أن يتمكن منها فرحلوا عن دمياط في الخامس والعشرين من ربيع الاول بعدما غرق لهم نحو الثلثمائة مركب وقلت رجالهم بفناء وقع فيهم وأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها وكان صلاح الدين يقول ما رأيت أكرم من العاضد أرسل الىَّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوي ما أرسله الى من الثياب وغيرها * وفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة رتبت المقاتلة على البرجين وشدت مراكب الى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ورمشعث سور المدينة وسدت ثلمه وأتقنت السلسلة التى بين البرجين فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار واعتبر السور فكان قياسه أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعا * وفى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة أمر السلطان بقطع أشجار بساتين دمياط وحفر خندقها وعمل جسر عند سلسلة البرج * وفى سنة خمس عشرة وستمائة كانت واقعة دمياط العظمى وكان سبب هذه الواقعة أن الفرنج في سنة أربع عشرة وستمائة تتابعت أمدادهم من رومية الكبري مقر البابا ومن غيرها من بلاد الفرنج وساروا الى مدينة عكا فاجتمع بها عدة من ملوك الفرنج وتعاقدوا على قصد القدس وأخذه من أيدى المسلمين فصاروا بعكا في جمع عظيم وبلغ ذلك الملك أبا بكر بن أيوب فخرج من مصر في العساكر الى الرملة فبرز الفرنج من عكا في جموع عظيمة فسار العادل الى بيسان فقصده الفرنج فخافهم لكثرتهم وقلة عسكره فاخذ على عقبة فيق يريد دمشق وكان أهل بيسان وما حولها قد اطمأنوا لنزول السلطان هناك فاقاموا في أماكنهم وما هو الا أن سار السلطان واذا بالفرنج قدوضعوا السيف فى الناس ونهبوا البلاد فحازوا من أموال المسلمين ما لايحصى كثرة وأخذوا بيسان وبانياس وسائر القري التى هناك وأقاموا ثلاثة أيام ثم عادوا الي مرج عكا بالغنائم والسبى

وهلك من المسلمين خلق كثير فاستراح الفرنج بالمرج أياما ثم عادوا ثانيا ونهبوا صيدا والشقيف وعادوا الى مرج عكا فاقاموا به وكان ذلك كله فيما بين النصف من شهر رمضان وعيد الفطر والملك العادل مقيم بمرج الصفر وقد سير ابنه المعظم عيسى بعسكر الى نابلس لمنع الفرنج من طروقها والوصول الى بيت المقدس فنازل الفرنج قلعة الطور سبعة عشر يوما ثم عادوا الى عكا وعزموا على قصد الديار المصرية فركبوا بجموعهم البحر وساروا الى دمياط في صفر فنزلوا عليها يوم الثلاثاء رابع ربيع الاول سنة خمس عشرة وستمائة الموافق لثامن حزيران وهم نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف راجل فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي وحفروا على عسكرهم خندقا وأقاموا عليه سورا وشرعوا في قتال برج دمياط فانه كان برجا منيعا فيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الملح من الدخول الى ديار مصر في النيل وذلك أن النيل اذا انتهي الى فسطاط مصر مر عليه في ناحية الشمال الى شطنوف فاذا صار الى شطنوف انقسم قسمين أحدهما يمر فى الشمال الى رشيد فيصب في البحر الملح والشطر الآخر يمر من شطنوف الى جوجر ثم يتفرق من عند جوجر فرقتين فرقة تمر الي أشموم فتصب فى بحيرة تنيس وفرقة تمر من جوجر الى دمياط فتصب فى البحر الملح هناك وتصير هذه الفرقة من النيل فاصلة بين مدينة دمياط والبر الغربي وهذا البر الغربي من دمياط يعرف بجزيرة دمياط يحيط بها ماء النيل والبحر الملح وفى مدة اقامة الفرنج بهذا البر الغربي عملوا الآلات والمراسي وأقاموا أبراجا يزحفون بها فى المراكب الى برج السلسلة ليملكوه فانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة ومصر وكان هذا البرج مشحونا بالمقاتلة فتحيل الفرنج عليه وعملوا برجا من الصواري على بسطة كبيرة وأقلعوا بها حتى أسندوها اليه وقاتلوا من به حتى أخذوه فبلغ نزول الفرنج على دمياط الملك الكامل وكان يخلف أباه الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معه من العساكر في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الفرنج لخمس خلون منه وأمر والى الغربية بجمع العربان وسار في جمع كبير وخرج الاسطول فأقام تحت دمياط ونزل السلطان بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط وامتدت عساكره الى دمياط لتمنع الفرنج من السور والقتال مستمر والبرج ممتنع مدة أربعة أشهر والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئا بعد شئ حتي تكاملت عند الملك الكامل واهتم الملك لنزول الفرنج على دمياط واشتد خوفه فرحل من مرج الصفر الى عالقين فنزل به المرض ومات في سابع جمادى الآخرة فكتم الملك المعظم عيسى موته وحمله فى محفة وجعل عنده خادما وطبيبا راكبا الي جانب المحفة والشرابدار يصلح الشراب ويحمله الي الخادم فيشربه ويوهم الناس أن السلطان شربه الى أن دخلوا به الي قلعة دمشق وصارت

اليها الخزائن والبيوتات فأعلن بموته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية بدمشق و بلغ الملك الكامل موت أبيه وهو بمنزلة لعادلية قرب دمياط. فاستقل بمملكة ديار مصر واشتد الفرنج وألحوا في القتال حتى استولوا على برج السلسلة وقطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم فى بحر النيل ويتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسرا عظيما لمنع الفرنج من عبور النيل فقاتلت الفرنج عليه قتالا شديدا الى أن قطعوه وكان قد أنفق على البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار وكان الكامل يركب فى كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتدبير الامور واعمال الحيلة في مكايدة الفرنج فأمر الملك الكامل أن يفرق عدة من المراكب فى النيل حتى تمنع الفرنج من سلوك النيل فعمد الفرنج الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجرى فيه قديما فحفروه وعمقوا حفره وأجروا فيه الماء الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم فيه الى بورة على أرض جيزة دمياط مقابل المنزلة التي بها السلطان ليقاتلوه من هناك فلما صاروا في بورة جاؤوه وقاتلوه فى الماء وزحفوا اليه عدة مرار فلم يظفروا منه بطائل ولم يتغير علي أهل دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج وأبواب المدينة مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر والعربان تختطف الفرنج في كل ليلة بحيث امتنعوا من الرقاد خوفا من غاراتهم فلما قوى طمع العرب فى الفرنج حتى صاروا يخطفونهم نهارا ويأخذون الخيم بمن فيها أكمن الفرنج لهم عدة كمناء وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأدرك الناس الشتاء وهاج البحر على مخيم المسلمين وغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم وألح الفرنج فى القتال وكادوا أن يملكوا فبعث الله ريحا قطعت مراسي مرمة الفرنج وكانت من عجائب الدنيا فمرت الى بر المسلمين فأخذوها فاذا هي مصفحة بالحديد لا تعمل فيها النار ومساحتها خمسمائة ذراع فكسروها فاذا فيها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا وبعث الكامل الى الآفاق سبعين رسولا يستنجد أهل الاسلام لنصرة المسلمين ويخوفهم من غلبة الفرنج على مصر فساروا فى شوال وأتته النجدات من حماه وحلب وبينا الناس فى ذلك اذ طمع الامير عماد الدين أحمد ابن الامير سيف الدين أبي الحسين على بن أحمد الهكارى المعروف بابن المشطوب فى الملك الكامل عند ما بلغه موت الملك العادل وكان له لفيف ينقادون اليه ويطيعونه وكان أميرا كبيرا مقدما عظيما في الاكراد الهكارية وافر الحرمة عند الملوك معدودا بينهم مثل واحد منهم وكان مع ذلك عالي الهمة غزير الجود واسع الكرم شجاعا أبي النفس تهابه الملوك وله الوقائع المشهورة وهو من أمراء دولة صلاح الدين يوسف فاتفق مع جماعة من الجند والاكراد على خلع الملك الكامل واقامة أخيه الملك الفائز ابراهيم ليصير له الحكم ووافقه الامير عز الدين الحميدى والامير أسد الدين الهكارى والامير مجاهد

الدين وجماعة من الامراء فلما بلغ ذلك الملك الكامل دخل عليهم وهم مجتمعون والمصحف بين أيديهم ليحلفوا للفائز فلما رأوه انفضوا نخشى على نفسه نخرج فاتفق وصول الصاحب صفى الدين بن سكر من آمد الى الملك الكامل فانه كان استدعاه بعد موت أبيه فتلقاه وأكرمه وذكر له ما هو فيه فضمن له تحصيل المال فلما كان فى الليل ركب الملك الكامل وتوجه من العادلية فى جريدة الى أشموم طناح فنزلها وأصبح العسكر بغير سلطان فركب كل منهم هواه ولم يعطف الاخ على أخيه وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان فبادر الفرنج في الصباح الى مدينة دمياط ونزلوا البر الشرقى يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة بغير منازع ولا مدافع وأخذوا سائر ما كان في عسكر المسلمين وكان شيئاً لا يحيط به الوصف وداخل السلطان وهم عظيم وكاد أن يفارق البلاد فانه تخيل من جميع من معه واشتد طمع الفرنج في أرض مصر كلها وظنوا أنهم قد ملكوها الا أن الله سبحانه وتعالى أغاث المسلمين وثبت السلطان ووافاه أخوه الملك المعظم بأشموم طناح فاشتد به أزره وقوى جاشه وأطلعه على ما كان من ابن المشطوب فوعده بازاحة ما يكره ثم ان المعظم ركب الى خيمة ابن المشطوب واستدعاه للركوب معه ومسايرته فاستمهله حتى يلبس خفيه وثياب الركوب فلم يمهله وأعجله فركب معه وسايره حتى خرج به من العسكر الكاملي ثم قال له يا عماد الدين هذه البلاد لك وأشتهى أن تهبها لنا وأعطاه نفقة وسلمه الى جماعة من أصحابه يثق بهم وقال لهم أخرجوه من الرمل ولا تفارقوه حتى يخرج من الشام فلم يسع ابن المشطوب الا امتثال ما قال المعظم لانه معه بمفرده ولا قدرة له على الممانعة فساروا به الى حماه ثم مضى منها الى المشرق ولما شيع الملك المعظم ابن المشطوب رجع الى الملك الكامل وأمر أخاه الفائز ابراهيم أن يسير الى ملوك الشام في رسالة عن أخيه الملك الكامل لاستدعائهم الى قتال الفرنج فمضى الى دمشق وخرج منها الى حماه فمات بها مسموما على ما قيل فثبت للملك الكامل أمر الملك وسكن روعه هذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط برا وبحرا وأحدقوا وضيقوا على أهلها ومنعوا القوت من الوصول اليهم وحفروا على عسكرهم المحيط بدمياط خندقا وبنوا عليه سورا وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال ويمانعونهم وقد غلت عندهم الاسعار لقلة الاقوات ثم ان المعظم فارق الملك الكامل وسار الى بلاد الشام وأقام الكامل لمحاربة الفرنج وانتدب شمائل أحد الجاندارية فى الركاب للدخول الى دمياط فكان يسبح فى الماء ويصل الى أهل دمياط فيعدهم بوصول النجدات فحظي بذلك عند الكامل وتقرب منه حتى عمله والى القاهرة واليه تنسب خزانة شمائل بالقاهرة فلم يزل الحال على ذلك الى أن دخلت سنة ست عشرة فجهز الملك المنصور محمد بن عمرو بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه ابنه المظفر تقى الدين محمودا الى مصر نجدة لخاله الملك الكامل على الفرنج

فى جيش كثيف فوصل الى العسكر وتلقاه الملك الكامل وأنزله فى ميمنة العسكر منزلة أبيه وجده عند السلطان صلاح الدين يوسف فألح الفرنج فى القتال وكان بدمياط نحو العشرين ألف مقاتل فنهكتهم الامراض وغلت عندهم الاسعار حتي بلغت بيضة الدجاجة عندهم عدة دنانير * قال الحافظ عبد العظيم المنذرى سمعت الشيخ أبا الحسن على بن فضل يقول كان لبعض بني خيار بقرة فذبحوها وباعوها فى الحصار فجاءت ثمانمائة دينار وقال فى المعجم المترجم سمعت الامير أبا بكر بن حسن بن خسويام يقول كنت بدمياط فى حصار العدو بها فبيع السكر بها بمائة وأربعين دينارا الرطل والدجاجة بثلاثين دينارا قال واشتريت ثلاث دجاجات بتسعين دينارا والراوية بأربعين درهما والقبر يحفر بأربعين مثقالا وأخذت أختى جملا فشقت جوفه وملأته دجاجا وفاكهة وبقلا وغير ذلك وخاطته ورمته في البحر وكتبت الي تقول قد فعلت كذا فاذا رأيتم جملا ميتا فخذوه فوقع لنا ليلا فأخذناه وكان فيه ما يساوى جملة ففرقته على الناس ثم عمل بعد ذلك ثلاثة جمال على هيئته ففطن لها الفرنج فأخذوها وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد من الموتى وعدمت الاقوات وصار السكر كعزة الياقوت وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه وآلت بهم الحال الى أن لم يبق بها سوى قليل من القمح والشعير فقط فتسور الفرنج وأخذوا منه البلد في يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان وكانت مدة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما ولما أخذوا البلد وضعوا السيف في الناس فتجاوزوا الحد فى القتل وأسرفوا في مقدار القتلى وبلغ ذلك السلطان فرحل بعد أخذ دمياط بيومين ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم ورأس بحر دمياط وحيز في المنزلة التى صار يقال لها المنصورة وحصن الفرنج أسوار دمياط وجعلوا الجامع كنيسة وبثوا سراياهم في القرى فقتلوا ونهبوا وسير السلطان الكتب الى الآفاق ليستحث الناس على الحضور لدفع الفرنج عن ملك مصر وشرع العسكر في بناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق بمنزلة المنصورة وجهز الفرنج من أسروه من المسلمين فى البحر الى عكا وخرجوا من دمياط ونازلوا السلطان تجاه المنصورة وصار بينهم وبينه بحر أشموم وبحر دمياط وكان الفرنج فى مائتي ألف راجل وعشرة آلاف فارس فقدم المسلمون شوانيهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة واجتمع الناس من القاهرة ومصر وسائر النواحي من اسوان الى القاهرة ووصل الامير حسام الدين يونس والفقيه تقى الدين أبو الطاهر محمد بن الحسن بن عبد الرحمن المحلى فأخرجا الناس من القاهرة ومصر ونودى بالنفير العام وخرج الامير علاء الدين جلدك وجمال الدين بن صيرم لجمع الناس فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقى فاجتمع عالم لايقع عليه حصر وأنزل السلطان على ناحية شارمساح ألف فارس فى آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس

بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر والبحر وسارت عساكر المسلمين من الشرق والشام الى الديار المصرية وكان قد خرج الفرنج من داخل البحر لمدد الفرنج على دمياط فقدم منهم أمم لا تحصي يريدون التوغل في أرض مصر فلما تكاملوا بدمياط خرجوا منها فى حدهم وحديدهم ونزلوا تجاه الملك الكامل كما تقدم فقدمت النجدات يقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى فتلقاهم الملك الكامل وأنزلهم عنده بالمنصورة فى ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة وتتابع مجيء الملوك حتي بلغت عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس فحاربوا الفرنج فى البر والبحر وأخذوا منهم ست شوانى وجلاسة وبطسة وأسروا من الفرنج ألفين ومائتين ثم ظفر المسلمون بثلاث قطائع أخر فتضعضع الفرنج لذلك وضاق بهم المقام فبعثوا يطلبون الصلح فقدم عند مجيء رسلهم أهل الاسكندرية فى ثمانية آلاف مقاتل وكان الذى طلب الفرنج القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف من الساحل ليرحلوا عن ديار مصر فبذل المسلمون لهم سائر ماذكر من البلاد خلا مدينة الكرك والشوبك فامتنع الفرنج من الصلح وقالوا لابد من أخذهم الكرك والشوبك ومبلغ ثلثمائة ألف دينار عوضا عما خربه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق من أسوار القدس وكان المعظم لما مات أبوه العادل واستولى الفرنج على دمياط ونازلوا الملك الكامل قبالة المنصورة خاف أن يصل منهم في البحر من يأخذ القدس ويحصنوا به فأمر بتخريب أسواره وكانت أسواره وأبراجه فى غاية العظمة والمنعة فأتى الهدم على جميعها ماخلا برج داود وانتقل أكثر الناس من القدس ولم يبق به الا القليل ونقل المعظم ماكان بالقدس من الاسلحة والآلات فامتنع المسلمون من اجابة الفرنج الى ذلك وقاتلوهم وعبر جماعة من المسلمين في بحر المحلة الى الارض التي عليها الفرنج وحفروا مكانا عظيما في النيل وكان في قوة الزيادة فركب الماء أكثر تلك الارض وصار حائلا بين الفرنج ومدينة دمياط وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة فأمر السلطان للوقت بنصب الجسور عند أشموم طناح فعبرت العساكر عليها وملكت الطريق التي يسلكها الفرنج الى دمياط اذا أرادوا الوصول اليها فاضطربوا وضاقت عليهم الارض واتفق مع ذلك وصول مرمة عظيمة للفرنج في البحر حولها عدة حراقات تحميها وقد ملئت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتهم شواني المسلمين وظفرها الله بهم فأخذها المسلمون وعندما علم الفرنج ذلك أيقنوا بالهلاك وصار المسلمون يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فهدموا حينئذ خيامهم ومجانيقهم وألقوا فيها النار وهموا بالزحف على المسلمين ومقاتلتهم ليخلصوا الى دمياط فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل والمياه الراكبة على الارض وخشوا من الاقامة لقلة أقواتهم فذلوا وسألوا

الامان على أن يتركوا دمياط للمسلمين فاستشار السلطان فى ذلك فاختلف الناس عليه فمنهم من امتنع من تأمين الفرنج ورأى أن يؤخذوا عنوة ومنهم من جنح الى اعطائهم الامان خوفا ممن وراءهم من الفرنج في الجزائر وغيرها ثم اتفقوا على الامان وأن يعطي كل من الفريقين رهائن فتقرر ذلك في تاسع شهر رجب سنة ثمان عشرة وسير لفرنج عشرين ملكا رهنا عند الملك الكامل وبعث الملك الكامل بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وجماعة من الامراء الى الفرنج وجلس السلطان مجلسا عظيما لقدوم ملوك الفرنج وقد وقف اخوته وأهل بيته بين يديه وصار في أبهة وناموس مهاب وخرج قسوس الفرنج ورهبانهم الى دمياط فسلموها للمسلمين في تاسع عشره وكان يوم تسليمها يوما عظيما وعندما تسلم المسلمون دمياط وصارت بأيديهم قدمت نجدة في البحر للفرنج فكان من جميل صنع الله تأخرها حتى ملكت دمياط بأيدى المسلمين فانها لو قدمت قبل ذلك لقوى بها الفرنج فان المسلمين وجدوا مدينة دمياط قد حصنها الفرنج وصارت بحيث لا ترام ولما تم الامر بعث الفرنج بولد السلطان وأمرائه اليه وسير اليهم السلطان من كان عنده من الملوك في الرهن وتقررت الهدنة بين الفرنج والمسلمين مدة ثماني سنين وكان مما وقع الصلح عليه أن كلا من المسلمين والفرنج يطلق ماعنده من الاسرى وحلف السلطان واخوته وحلفت ملوك الفرنج وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل الى دمياط باخوته وعساكره وكان يوم دخوله اليها من الايام المذكورة ورحل الفرنج الى بلادهم وعاد السلطان الي مقر ملكه وأطلقت الاسرى من ديار مصر وكان فيهم من له من أيام السلطان صلاح الدين يوسف وسارت ملوك الشام بعساكرها الى بلادها وعمت بشارة أخذ المسلمين مدينة دمياط من الفرنج سائر الآفاق فان التتر كانوا قد استولوا على ممالك المشرق فأشرف الفرنج على أخذ ديار مصر من ايدى المسلمين وكانت مدة نزول الفرنج على دمياط الى أن أقلعوا عنها سائرين الى بلادهم ثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يوما فلما كان في سنة ست وأربعين وستمائة حدث بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ورم في مأبضه تكون منه ناصور فتح وعسر برؤه فمرض من ذلك وانضاف اليه قرحة فى الصدر فلزم الفراش الا أن علو همته اقتضى مسيره من ديار مصر الى الشام فسار في محفة ونزل بقلعة دمشق فورد عليه رسول الامبرطور ملك الفرنج الالمانية بجزيرة صقلية في هيئة تاجر وأخبره سرا بأن بواش الذى يقال له رواد فرنس عازم على المسير الى أرض مصر وأخذها فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى محفة ونزل بأشموم طناح في المحرم سنة سبع وأربعين وجمع فى مدينة دمياط من الاقوات والازواد والاسلحة وآلات القتال شيئاً كثيرا خوفا أن يجرى على دمياط ماجرى في أيام أبيه فأخذت بغير

ذلك ولما نزل السلطان بأشموم كتب الى الامير حسام الدين أبي على بن أبي على الهدباني نائبه بديار مصر أن يجهز الاسطول من صناعة مصر فشرع في الاهتمام بذلك وشحن الاسطول بالرجال والسلاح وسائر مايحتاج اليه وسيره شيئاً بعد شيء وجهز السلطان الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ومعه الامراء والعساكر فنزل بجيرة دمياط من برها الغربي وصار النيل بينه وبينها فلما كان في الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر وردت مراكب الفرنج البحريين وفيها جموعهم العظيمة وقد انضم اليهم فرنج الساحل وأرسوا بازاء المسلمين وبعث ملكهم الى السلطان كتابا نصه أما بعد فانه لم يخف عليك اني أمين الامة العيسوية كما انه لايخفى على انك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار وأنا قد أبديت لك مافيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وأدخلت على الاقساء والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا اليك وقاتلك في أعز البقاع اليك فاما أن تكون البلاد لي فياهدية حصلت في يدى واما أن تكون البلاد لك والغلبة على فيدك العليا ممتدة الى وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك بأسياف القضاء فلما قرئ الكتاب على السلطان وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير ابن محمد الجواب بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين أما بعد فانه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغي علينا باغ الا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على أول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام * وفي يوم السبت ورد الفرنج وضربوا خيامهم في أكثر البلاد التي فيها عساكر المسلمين وكانت خيمة الملك رواد فرنس حمراء فناوشهم المسلمون القتال واستشهد يومئذ الامير نجم الدين يوسف ابن شيخ الاسلام والامير صارم الدين أزبك الوزيرى فلما أمسي الليل رحل الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ

بعساكر المسلمين جبنا وصلفا وسار بهم في بر دمياط وسار الى جهة أشموم طناح نخاف
من كان في مدينة دمياط وخرجوا منها على وجوههم فى الليل لايلتفتون الى شيء وتركوا المدينة
خالية من الناس ولحقوا بالعسكر فى أشموم وهم حفاة عرايا جياع حيارى بمن معهم من
النساء والاولاد ومروا هاربين الى القاهرة فأخذ منهم قطاع الطريق ماعليهم من الثياب
وتركوهم عرايا فشنعت القالة على الامير فخر الدين من كل أحد وعد جميع مانزل بالمسلمين
من البلاء بسبب هزيمته فان دمياط كانت مشحونة بالمقاتلة والازواد العظيمة والاسلحة
وغيرها خوفا أن يصيبها فى هذه المدة ما أصابها فى أيام الكامل فانه مأتى عليها ذاك الامن قلة
الاقوات بها ومع ذلك امتنعت من الفرنج أكثر من سنة حتى فنى أهلها كما تقدم ولكن
الله يفعل مايريد ولما أصبح الفرنج يوم الاحد لسبع بقين من صفر قصدوا دمياط فاذا
أبواب المدينة مفتحة ولا أحد يدفع عنها فظنوا أن ذلك مكيدة وتمهلوا حتى ظهر لهم خلوها
فدخلوا اليها من غير مانع ولا مدافع واستولوا على مابها من الاسلحة العظيمة وآلات الحرب
والاقوات الخارجة عن الحد فى الكثرة والاموال والامتعة صفوا بغير كلفة فأصيب الاسلام
والمسلمون ببلاء لولا لطف الله لمحى اسم الاسلام ورسمه بالكلية وانزعج الناس في القاهرة
ومصر انزعاجا عظيما لما نزل بالمسلمين مع شدة مرض السلطان وعدم حركته وأما السلطان
فانه اشتد حنقه على الامير فخر الدين وقال أما قدرت أنت والعساكر أن تقفوا ساعة بين
يدى الفرنج وأقام عليه القيامة لكن الوقت لم يكن يسع غير الصبر والاغضاء وغضب على
الكنانيين الذين كانوا بدمياط ووبخهم فقالوا ما نعمل اذا كانت عساكر السلطان بأجمعهم
وأمراؤه هربوا وأخربوا الزردخاناه كيف لانهرب نحن فأمر بشنقهم لكونهم خرجوا من
دمياط بغير اذن وكانت عدة من شنق من الامراء الكنانية زيادة على خمسين أميرا في ساعة
واحدة ومن جملتهم أمير جسيم له ابن جميل سأل أن يشنق قبل ابنه فأمر السلطان أن يشنق
ابنه قبله فشنق الابن ثم الاب ويقال ان شنق هؤلاء كان بفتوى الفقهاء نخاف جماعة من
الامراء وهموا بالقيام على السلطان فأشار عليهم الامير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ بأن
السلطان على خطة فان مات فقد كفيتم أمره والا فهو بين أيديكم وأخذ السلطان فى اصلاح
سور المنصورة وانتقل اليها لخمس بقين من صفر وجعل الستائر على السور وقدمت الشواني
الى تجاه المنصورة وفيها العدد الكاملة وشرع العسكر في تجديد الابنية هناك وقدم من العربان
وأهل النواحى ومن المطوعة خلق لايحصى عددهم وأخذوا في الاغارة على الفرنج فملأ
الفرنج اسوار مدينة دمياط بالمقاتلة والآلات فلما كان أول ربيع الاول قدم الى القاهرة
من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العربان ستة وثلاثون منهم فارسان وفي خامس ربيع الآخر
ورد منهم تسعة وثلاثون وفي سابعه ورد اثنان وعشرون أسيرا وفي سادس عشره ورد خمسة

وأربعون أسيرا منهم ثلاثة خيالة وفي ثامن عشر جمادى الاولى ورد خمسون أسيرا هذا ومرض السلطان يتزايد وقواه تتناقص حتى أيس الاطباء منه وفي ثالث عشر رجب قدم الى القاهرة سبعة وأربعون أسيرا وأحد عشر فارسا وظفر المسلمون بمسطح للفرنج في البحر فيه مقاتلة بالقرب من نستراوة فلما كانت ليلة الاحد لاربع عشرة مضت من شعبان مات الملك الصالح بالمنصورة فلم يظهر موته وحمل في تابوت الى قلعة الروضة وقام بأمر العسكر الامير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ فان شجرة الدر زوجة السلطان لما مات أحضرت الامير فخر الدين والطواشي جمال الدين محسنا واليه أمر المماليك البحرية والحاشية وأعلمتهما بموته فكتما ذلك خوفا من الفرنج لانهم كانوا قد أشرفوا على تملك ديار مصر فقام الامير فخر الدين بالتدبير وسيروا الى الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا الفارس اقطاى لاحضاره وأخذ الامير فخر الدين في تحليف العسكر للملك الصالح وابنه الملك المعظم بولاية العهد من بعده وللامير فخر الدين باتابكية العسكر والقيام بأمر الملك حتى حلفهم كلهم بالمنصورة وبالقاهرة في دار الوزارة عند الامير حسام الدين بن أبى على في يوم الخميس لاثنتى عشرة بقيت من شعبان وكانت العلامات تخرج من الدهاليز السلطانية بالمنصورة الى القاهرة بخط خادم يقال له سهيل لايشك من رآها انها خط السلطان ومشى ذلك على الامير حسام الدين بالقاهرة ولم يتفوه أحد بموت السلطان الى أن كان يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان ورد الامر الى القاهرة بدعاء الخطباء في الجمعة الثانية للملك المعظم بعد الدعاء للسلطان وأن ينقش اسمه على السكة فلما علم الفرنج بموت السلطان خرجوا من دمياط بفارسهم وراجلهم وشوانيهم تحاذيهم في البحر حتى نزلوا فارسكور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان فورد في يوم الجمعة من الغد كتاب الى القاهرة من العسكر أوله انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون وفيه مواعظ بليغة بالحث على الجهاد فقرئ على منبر جامع القاهرة وقد جمع الناس لسماعه فارتجت القاهرة ومصر وظواهرهما بالبكاء والعويل وأيقن الناس باستيلاء الفرنج على البلاد لخلو الوقت من ملك يقوم بالامر لكنهم لم يهنوا وخرجوا من القاهرة ومصر وسائر الاعمال فاجتمع عالم عظيم فلما كان يوم الثلاثاء أول شهر رمضان اقتتل المسلمون والفرنج فاستشهد العلائي أمير مجلس وجماعة ونزل الفرنج شارمساح وفي يوم الاثنين سابعه نزلوا البرمون فاضطرب الناس وزلزلوا زلزالا شديدا لقربهم من العسكر وفي يوم الاحد ثالث عشره وصلوا تجاه المنصورة وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم وخندقوا عليهم وأداروا على خندقهم سورا ستروه بكثير من الستائر ونصبوا المجانيق ليرموا بها على المسلمين وصارت شوانيهم بازائهم في بحر النيل وشوانى المسلمين بازاء المنصورة والتحم القتال برا وبحرا وفي سادس عشره نفر الى المسلمين ستة خيالة

أخبروا بمضايقة الفرنج وفي يوم عيد الفطر أسروا من الفرنج كند من أقارب الملك وأبلى عوام المسلمين في قتال الفرنج بلاء كبيرا وأنكوهم نكاية عظيمة وصاروا يقتلون منهم في كل وقت ويأسرون ويلقون أنفسهم في الماء ويعبرون فيه الي الجانب الذي فيه الفرنج ويحيلون في اختطاف الفرنج بكل حيلة ولا يهابون الموت حتى ان انسانا قور بطيخة وحملها على رأسه وغطس في الماء حتي حاذى الفرنج فظنه بعضهم بطيخة ونزل حتي يأخذها فخطفه وأتى به الى المسلمين وفي يوم الاربعاء سابع شوال أخذ المسلمون شونة للفرنج فيها كند ومائتا رجل وفي يوم الخميس النصف منه ركب الفرنج الى بر المسلمين واقتتلوا فقتل منهم أربعون فارسا وسير في عدة الى القاهرة بسبعة وستين أسيرا منهم ثلاثة من أكابر الدوادارية وفي يوم الخميس ثاني عشريه أحرقت للفرنج مرمة عظيمة في البحر واستظهر المسلمون عليهم وكان بحر أشموم فيه مخايض فدل بعض من لا دين له ممن يظهر الاسلام الفرنج عليها فركبوا سحر يوم الثلاثاء خامس ذي القعدة أو رابعه ولم يشعر المسلمون بهم الا وقد هجموا على العسكر وكان الامير فخر الدين قد عبر الى الحمام فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العسكر فركب دهشا غير معتد ولا متحفظ وساق ليأمر الامراء والاجناد بالركوب في طائفة من مماليكه فلقيه عدة من الفرنج الدوادارية وحملوا عليه ففر أصحابه وأتته طعنة في جنبه وأخذته السيوف من كل جانب حتى لحق بالله عز وجل وفى الحال غدت مماليكه في طائفة الى داره وكسروا صناديقه وخزائنه ونهبوا أمواله وخيوله وساق الفرنج عند مقتل الامير فخر الدين الى المنصورة ففر المسلمون خوفا منهم وتفرقوا يمنة ويسرة وكادت الكسرة أن تكون وتمحو الفرنج كلمة الاسلام من أرض مصر ووصل الملك روادفرنس الى باب قصر السلطان ولم يبق الا أن يملكه فأذن الله تعالى أن طائفة المماليك من البحرية والجمدارية الذين استجدهم الملك الصالح ومن جملتهم بيبرس البندقدارى حملوا على الفرنج حملة صدقوا فيها اللقاء حتى أزاحوهم عن مواقفهم وأبلوا في مكافحتهم بالسيوف والدبابيس فانهزموا وبلغت عدة من قتل من فرسان الفرنج الخيالة فى هذه النوبة ألفا وخمسمائة فارس وأما الرجالة فانها كانت وصلت الى الجسر لتعدى فلو تراخى الامر حتي صاروا مع المسلمين لاعضل الداء على أن هذه الواقعة كانت بين الازقة والدروب ولولا ضيق المجال لما أفلت من الفرنج أحد فنجا من بقى منهم وضربوا عليهم سورا وحفروا خندقا وصارت طائفة منهم في البر الشرقي ومعظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط وكانت البطاقة عند الكبسة سرحت على جناح الطائر الى القاهرة فانزعج الناس انزعاجا عظيما ووردت السوقة وبعض العسكر ولم تغلق أبواب القاهرة ليلة الاربعاء وفي يوم الاربعاء سقط الطائر بالبشارة بهزيمة الفرنج وعدة من قتل منهم فزينت القاهرة وضربت البشائر بقلعة الجبل وسار المعظم توران

شاه الى دمشق فدخلها يوم السبت آخر شهر رمضان واستولى على من بها ولاربع مضين
من شوال سقط الطائر بوصوله الي دمشق فضربت البشائر فى العسكر بالمنصورة وفي قلعة
الجبل وسار من دمشق لثلاث بقين منه فتواترت الاخبار بقدومه وخرج الامير حسام
الدين بن أبى على الى لقائه فوافاه بالصالحية لاربع عشرة بقيت من ذى القعدة ومن يومئذ
أعلن بموت الملك الصالح بعد ما كان قبل ذلك لا ينطق أحد بموته البتة بل الامور على
حالها والدهليز السلطانى بحاله والسماط على العادة وشجرة الدر أم خليل زوجة السلطان
تدبر الامور وتقول السلطان مريض ما اليه وصول ثم سار من الصالحية فتلقاه الامراء
والمماليك واستقر بقصر السلطنة من المنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي القعدة وفي أثناء
هذه المدة عمل المسلمون مراكب وحملوها على الجمال الي بحر المحلة والقوها فيه وشحنوها
بالمقاتلة فعند ما حاذت مراكب الفرنج بحر المحلة وتلك المراكب فيه مكمنة خرجت عليهم
ووقع الحرب بينهما وقدم الاسطول الاسلامى من جهة المنصورة وأحاط بالفرنج فظفر
باثنين وخمسين مركبا للفرنج وقتل وأسر منهم نحو ألف رجل فانقطعت الميرة عن الفرنج
واشتد عندهم الغلاء وصاروا محصورين فلما كان أول يوم من ذى الحجة أخذ الفرنج من
المراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق وفر من كان فيها من المسلمين وفى يوم عرفة
برزت الشوانى الاسلامية الى مراكب قدمت للفرنج فيها ميرة فأخذت منها اثنين وثلاثين
مركبا منها تسع شواني فوهنت قوة الفرنج وتزايد الغلاء عندهم وشرعوا فى طلب الهدنة
من المسلمين على أن يسلموا دمياط ويأخذوا بدلا منها القدس وبعض بلاد الساحل فلم
يجابوا الى ذلك فلما كان اليوم السابع والعشرون من ذى الحجة أحرق الفرنج أخشابهم
كلها وأتلفوا مراكبهم يريدون التحصن بدمياط ورحلوا في ليلة الاربعاء لثلاث مضين من
المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة الى دمياط وأخذت مراكبهم فى الانحدار قبالتهم فركب
المسلمون أقفيتهم بعد ما عدوا الى برهم وطلع الفجر من يوم الاربعاء وقد أحاط المسلمون
بالفرنج وقتلوا وأسروا منهم كثيرا حتي قيل ان عدد من قتل من الفرسان على فارسكور
يزيد على عشرة آلاف وأسر من الخيالة والرجالة والصناع والسوقة ما يناهز مائة ألف
ونهب من المال والذخائر والخيول والبغال مالا يحصى وانحاز الملك روادفرنس وأكابر
الفرنج الى تل ووقفوا مستسلمين وسألوا الامان فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحي
ونزلوا على أمانه وأحيط بهم وسيقوا الى المنصورة فقيد روادفرنس واعتقل في الدار التى
كان ينزل فيها القاضي فخر الدين ابراهيم ابن لقمان كاتب الانشاء ووكل به الطواشى صبيح
المعظمى واعتقل معه أخوه ورتب له راتب يحمل اليه في كل يوم ورسم الملك المعظم لسيف
الدين يوسف بن الطورى أحد من وصل صحبته من الشرق أن يتولى قتل الاسرى فكان

يخرج منهم كل ليلة ثلثمائة رجل ويقتلهم ويلقيهم في البحر حتى فنوا * ولما قبض على الملك روادفرنس رحل الملك المعظم من المنصورة ونزل بالدهليز السلطاني على فارسكور وعمل له برجا من خشب وتراخي في قصد دمياط وكتب بخطه الى الامير جمال الدين بن يغمور نائبه بدمشق وولده توران شاه الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وما النصر الا من عند الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وأما بنعمة ربك فحدث وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها نبشر المجلس السامى الجمالي بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين فانه كان قد استكمل أمره واستحكم شره ويئس العباد من البلاد والاهل والاولاد فنودوا لا تيأسوا من روح الله ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة وهى سنة ثمان وأربعين وستمائة تمم الله على الاسلام بركتها فتحنا الخزائن وبذلنا الاموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم الا الله جاؤا من كل فج عميق ومكان سحيق فلما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح علي ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا ولما كانت ليلة الاربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين فسرنا فى آثارهم طالبين وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل وقد حل بهم الخزى والويل فلما أصبحنا يوم الاربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج وأما الاسرى فحدث عن البحر ولا حرج والتجأ الفرنسيس الي المينة وطلب الامان فأمناه وأخذناه وأكرمناه وسلمناه دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته وبعث مع الكتاب غفارة الملك فرنسيس فلبسها الامير جمال الدين بن يغمور وهى أشكرلاط أحمر بفرو سنجاب فقال الشيخ نجم الدين بن اسرائيل

ان غفارة الفرنسيس جاءت * فهى حقاً لسيد الامراء
كبياض القرطاس لونا ولكن * صبغتها سيوفنا بالدماء

وقال آخر

أسيد أملاك الزمان بأسرهم * تنجزت من نصر الاله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمي العدى * ويلبس أثواب الملوك عبيده

وأخذ الملك المعظم يهدد زوجة أبيه شجرة الدر ويطالبها بمال أبيه فخافته وكاتبت مماليك الملك الصالح تحرضهم عليه وكان المعظم لما وصل اليه الفارس أقطاى الي حصن كيفا وعده أن يعطيه امرة فلم يف له بها وأعرض مع ذلك عن مماليك أبيه وأطرح أمراءه وصرف الامير حسام الدين بن أبي على عن نيابة السلطنة وأحضره الى العسكر ولم يعبأ به وأبعد غلمان أبيه واختص بمن وصل معه من المشرق وجعلهم فى الوظائف السلطانية فجعل الطواشي مسرورا خادمه استادارا وعمل صبيحا وكان عبدا حبشيا فخلا خازنداره وأمر أن

تكون له عصا من ذهب وأعطاه مالا جزيلا واقطاعات جليلة وكان اذا سكر جمع الشمع وضرب رؤسها بالسيف حتي تنقطع ويقول هكذا أفعل بالبحرية فانه كان فيه هرج وخفة واحتجب على العكوف بملاذه فنفرت منه النفوس وبقى كذلك الى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرم وقد جلس على السماط فتقدم اليه أحد المماليك البحرية وضربه بسيف قطع أصابع يديه ففر الى البرج فاقتحموا عليه وسيوفهم مصلتة فصعد أعلى البرج الخشب فرموه بالنشاب وأطلقوا النار في البرج فألقى نفسه ومر الى البحر وهو يقول ما أريد ملككم دعوني أرجع الى الحصن يامسلمين مافيكم من يصطنعني ويجيرني وسائر العساكر بالسيوف واقفة فلم يجبه أحد والنشاب يأخذه من كل ناحيـة وأدركوه فقطع بالسيوف ومات حريقا غريقا قتيلا في يوم الاثنين المذكور وترك على الشط ثلاثة أيام ثم دفن ولما قتل الملك المعظم اتفق اهل الدولة على اقامة شجرة الدر والدة خليل في مملكة مصر وأن يكون مقدم العسكر الامير عز الدين أيبك التركماني الصالحي وحلف الكل على ذلك وسيروا اليها عز الدين الرومى فقدم عليها في قلعة الجبل وأعلمها بما اتفق فرضيت به وكتبت على التواقيع علامتها وهي والدة خليل وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة وجرى الحديث مع الملك رواد فرنس في تسليم دمياط وتولى مفاوضته فى ذلك الامير حسام الدين بن أبي على الهدياني فأجاب الى تسليمها وأن يخلى عنه بعد محاورات وسير الى الفرنج بدمياط يأمرهم بتسليمها الى المسلمين فسلموها بعد جهد جهيد من كثرة المراجعات في يوم الجمعة ثالث صفر ورفع العلم السلطاني على سورها وأعلن فيها بكلمة الاسلام وشهادة الحق بعدما أقامت بيد الفرنج أحد عشر شهرا وسبعة أيام وأفرج عن الملك رواد فرنس وعن أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه الى البر الغربي وركبوا البحر من الغد وهو يوم السبت رابع صفر وأقلعوا الى عكا * وفي هـذه النوبة يقول الوزير جمال الدين يحيي بن مطروح

قل للفرنسيس اذا جئته * مقال نصح عن قؤول نصيح
آجرك الله عـلى ماجرى * من قبل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها * تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم * ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم * بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لايرى منهم * الا قتيل أو أسير جريح
وفقـك الله لامثالها * لعل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا * فرب غش قد أتى من نصيح
قل لهم أن أضمروا عودة * لاخـذ ثار أو لنقـد صحيح

دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشى صبيح

وقدر الله أن الفرنسيس هذا بعد خلاصه من هذه الواقعة جمع عدة جموع وقصد تونس فقال شاب من أهلها يقال له أحمد بن اسمعيل الزيات

يافرنسيس هذه أخت مصر * فتأهب لما اليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر * وطواشيك منكر ونكير

فكان هذا فالاحسنا فانه مات وهو على محاصرة تونس ولما تسلم الامراء دمياط وردت البشري الى القاهرة فضربت البشائر وزينت القاهرة ومصر فقدمت العساكر من دمياط يوم الخميس تاسع صفر فلما كان في سلطنة الاشرف موسى ابن الملك المسعود أقسيس ابن الملك الكامل والملك المعز عز الدين التركماني وكثر الاختلاف بمصر واستولى الملك الناصر يوسف ابن العزيز على دمشق اتفق أرباب الدولة بمصر وهم المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفا من مسير الفرنج اليها مرة أخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم في أسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة حتى خربت كلها ومحيت آثارها ولم يبق منها سوى الجامع وصار في قبليها أخصاص على النيل سكنها الناس الضعفاء وسموها المنشية وهذا السور هو الذي بناه أمير المؤمنين المتوكل على الله كما تقدم ذكره فلما استبد الملك الظاهر بيبرس البند قدارى الصالحي بمملكة مصر بعد قتل الملك المظفر قطز اخرج من مصر عدة من الحجارين في سنة تسع وخمسين وستمائة لردم فم بحر دمياط فمضوا وقطعوا كثيرا من القرابيص وألقوها في بحر النيل الذي ينصب من شمال دمياط في البحر الملح حتى ضاق وتعذر دخول المراكب منه الى دمياط وهو الى اليوم على ذلك لاتقدر مراكب البحر الكبار أن تدخل منه وانما ينقل مافيها من البضائع في مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم واحدها جرم وتصير مراكب بحر الملح واقفة بآخر البحر قريبا من ملتقى البحرين ويزعم أهل دمياط الآن أن سبب امتناع دخول مراكب البحر جبل في فم البحر أو رمل يتربى هناك وهذا قول باطل حملهم عليه مايجدونه من تلاف المراكب اذا هجمت على هذا المكان وجهلهم باحوال الوجود وما مر من الوقائع والى يومنا هذا يخاف على المراكب عند ورودها فم البحر وكثيرا ماتتلف فيه * وقد سرت اليه حتى شاهدته ورأيته من أعجب مايراه الانسان * وأما دمياط الآن فانها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط وعمل هناك أخصاص وما برحت تزداد الى أن صارت بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد ودورها تشرف على النيل الاعظم ومن ورائها البساتين وهى أحسن بلاد الله منظرا * وقد أخبرنى الامير الوزير المشير الاستادار يلبغا السالمي رحمه الله أنه لم ير في البلاد التي سلكها من سمرقند الى مصر أحسن من دمياط هذه فظننت أنه يغلو في

مدحها الى أن شاهدتها فاذا هي أحسن بلد وأنزهه * وفيها أقول

سقى عهد دمياط وحياه من عهد * فقد زادني ذكراه وجدا على وجد
ولا زالت الانواء تسقى سحابها * ديارا حكت من حسنها جنة الخلد
فياحسن هاتيك الديار وطيبها * فكم قد حوت حسنا يجل عن العد
فلله أنهار تحف بروضها * لكا لمرهف المصقول أو صفحة الخد
وبشنينها الريان يحكي متيما * تبدل من وصل الاحبة بالصد
فقام على رجليه في الدمع غارقا * يراعي نجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الاقدام تحسب انه * لطول انتظار من حبيب على وعد
ولا سيما تلك النواعير انها * تجدد حزن الواله المدنف الفرد
اطارحها شجوى وصارت كانما * تطارح شكواها بمثل الذي أبدى
فقد خلتها الافلاك فيها نجومها * تدور بمحض النفع منها وبالسعد
وفي البرك الغراء ياحسن نوفر * حلا وغدا بالزهو يسطو على الورد
سماء من البلور فيها كواكب * عجيبة صبغ اللون محكمة النضد
وفي شاطئ النيل المقدس نزهة * تعيد شباب الشيب فى عيشه الرغد
وتنشى رياحا تطرد الهم والاسى * وتنشى ليالي الوصل من طيبها عندى
وفي مرج البحرين جم عجائب * تلوح وتبدو من قريب ومن بعد
كأن التقاء النيل بالبحر اذ غدا * مليكان سارا فى الجحافل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا * ولا طعن الا بالمثقفة الملد
فظلا كما باتا وما برحا كما * هما من جليل الخطب في أعظم الجهد
فكم قد مضى لي من افانين لذة * بشاطئها العذب الشهي لذي الورد
وكم قد نعمنا فى البساتين برهة * بعيش هنيء فى أمان وفى سعد
وفى البرزخ المأنوس كم لي خلوة * وعند شطا عن أيمن العلم الفرد
هناك ترى عين البصيرة ما ترى * من الفضل والافضال والخير والمجد
فيارب هيئ لى بفضلك عودة * ومنّ بها في غير بلوى ولا جهد

وبدمياط حيث كانت المدينة التي هدمت جامع من أجل مساجد المسلمين تسميه العامة مسجد فتح وهو المسجد الذى أسسه المسلمون عند فتح دمياط أول مافتح الله أرض مصر على يد عمرو بن العاص وعلي بابه مكتوب بالقلم الكوفى انه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة وفيه عدة من عمد الرخام منها ما يعز وجود مثله وانما عرف بجامع فتح لنزول شخص يقال له فاتح به فقالت العامة جامع فتح وانما هو فاتح بن عثمان الاسمر التكرورى

قدم من مراكش الى دمياط على قدم التجريد وسقى بها الماء في الاسواق احتسابا من غير أن يتناول من أحد شيئا ونزل في ظاهر الثغر ولزم الصلاة مع الجماعة وترك الناس جميعا ثم أقام بناحية تونة من بحيرة تنيس وهى خراب نحو سبع سنين ورم مسجدها ثم انتقل من تونة الي جامع دمياط وأقام فى وكر بأسفل المنارة من غير أن يخالط أحدا الا اذا أقيمت الصلاة خرج وصلى فاذا سلم الامام عاد الي وكره فان عارضه أحد بحديث كلمه وهو قائم بعد انصرافه من الصلاة وكانت حاله أبدا اتصالا في انفصال وقربا في ابتعاد وأنسا فى نفار وحج فكان يفارق أصحابه عند الرحيل فلا يرونه الا وقت النزول ويكون سيره منفرداً عنهم لا يكلم أحدا الى أن عاد الى دمياط فأخذ في ترميم الجامع وتنظيفه بنفسه حتى نقي ما كان فيه من الوطواط بسقوفه وساق الماء الي صهاريجه وبلط صحنه وسبك سطحه بالجبس وأقام فيه وكان قبل ذلك من حين خربت دمياط لا يفتح الا فى يوم الجمعة فقط فرتب فيه اماما راتبا يصلي الخمس وسكن فى بيت الخطابة وواظب على اقامة الاوراد به وجعل فيه قراء يتلون القرآن بكرة وأصيلا وقرر فيه رجلا يقرأ ميعادا يذكر الناس ويعلمهم وكان يقول لو علمت بدمياط مكانا أفضل من الجامع لاقمت به ولو علمت في الارض بلدا يكون فيه الفقير أخمل من دمياط لرحلت اليه وأقمت به وكان اذا ورد عليه أحد من الفقراء ولا يجد ما يطعمه باع من لباسه ما يضيفه به وكان يبيت ويصبح وليس له معلوم ولا ما يقع عليه العين أو تسمعه الاذن وكان يؤثر في السر الفقراء والارامل ولا يسأل أحدا شيئا ولا يقبل غالباً واذا قبل ما يفتح الله عليه آثر به وكان يبذل جهده فى كتم حاله والله تعالى يظهر خيره وبركته من غير قصد منه لذلك وعرفت له عدة كرامات وكان سلوكه على طريق السلف من التمسك بالكتاب والسنة والنفور عن الفتنة وترك الدعاوى واطراحها وستر حاله والتحفظ فى أقواله وأفعاله وكان لا يرافق أحدا فى الليل ولا يعلم أحد يوم صومه من يوم فطره ويجعل دائما قول ان شاء الله تعالى مكان قول غيره والله ثم ان الشيخ عبد العزيز الدميرى أشار عليه بالنكاح وقال له النكاح من السنة فتزوج فى آخر عمره بامرأتين لم يدخل على واحدة منهما نهارا البتة ولا أكل عندهما ولا شرب قط وكان ليله ظرفا للعبادة لكنه يأتي اليهما أحيانا وينقطع أحيانا لاستغراق زمنه كله في القيام بوظائف العبادات وايثار الخلوة وكان خواص خدمه لايعلمون بصومه من فطره وانما يحمل اليه ما يأكل ويوضع عنده بالخلوة فلا يرى قط آكلا وكان يحب الفقر ويؤثر حال المسكنة ويتطارح على الخمول والجفا ويتواضع مع الفقراء ويتعاظم على العظماء والاغنياء وكان يقرأ في المصحف ويطالع الكتب ولم يره أحد يخط بيده شيئاً وكانت تلاوته للقرآن بخشوع وتدبر ولم يعمل له سجادة قط ولا أخذ على أحد عهدا ولا ابس طاقية ولا

قال أنا شيخ ولا أنا فقير ومتى قال في كلامه انا تفطن لما وقع منه واستعاذ بالله من قول أنا ولا حضر قط سماعا ولا أنكر على من يحضره وكان سلوكه صلاحا من غير اصلاح ويبالغ في الترفع على ابناء الدنيا ويترامى على الفقراء ويقدم لهم الاكل ولم يقدم لغني أكلا البتة واذا اجتمع عنده الناس قدم الفقير على الغني واذا مضى الفقير من عنده سار معه وشيعه عدة خطوات وهو حاف بغير نعل ووقف على قدميه ينظره حتى يتوارى عنه ومن كان من الفقراء يشار اليه بمشيخة جاس بين يديه بأدب مع امامته وتقدمه في الطريق ويقول ما أقول لاحد افعل أولا تفعل من أراد السلوك يكفيه أن ينظر الى أفعاله فان من لم يتسلك بنظره لايتسلك بسمعه وقال له شخص من خواصه ياسيدى ادع الله لنا أن يفتح علينا فنحن فقراء فقال ان أردتم فتح الله فلا تبقوا فى البيت شيئاً ثم اطلبوا فتح الله بعد ذلك فقد جاء لاتسأل الله ولك خاتم من حديد ومن كلامه الفقير بحال البكر اذا سأل زالت بكارته وسأله بعد خواصه أن يدعو له بسعة وشكا له الضيق فقال انا ما أدعو لك بسعة بل أطلب لك الافضل والاكمل وكان مع اشتغاله بالعبادة واستغراق أوقاته فيها لايغفل عن صاحبه ولا ينسى حاجته حتى يقضيها ويلازم الوفاء لاصحابه ويحسن معاشرتهم ويعرف احوال الناس على طبقاتهم ويعظم العلم ويكرم الايتام ويشفق على الضعفاء والارامل ويبذل شفاعته فى قضاء حوائج الخاص والعام من غير أن يمل ولا يتبرم بكثرة ذلك ويكثر من الايثار فى السر ولا يمسك لنفسه شيئاً ويستقل مامنه مع كثرة احسانه ويستكثر مايدفع اليه وان كان يسيرا ويكافئ عليه باحسن منه ولم يصحب قط أميرا ولا وزيرا بل كان في سلوكه وطريقه يرفع في تواضع ويعزز مع مسكنة وقرب في ابتعاد واتصال فى انفصال وزهد فى الدنيا وأهلها وكان أكبر من خبره ومن دعائه لنفسه ولمن يسأل له الدعاء اللهم بعدنا عن الدنيا وأهلها وبعدها عنا وما زال على ذلك الى أن مات آخر ليلة أسفر صباحها عن الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وستمائة وترك ولدين ليس لهما قوت ليلة وعليه مبلغ ألفى درهم دينا ودفن بجوار الجامع وقبره يزار الى يومنا هذا

ذكر شطا

شطا مدينة عند تنيس ودمياط واليها تنسب الثياب الشطوية ويقال انها عرفت بشطا بن الهاموك وكان أبوه خال المقوقس وكان على دمياط فلما فتح الله الحصن على يد عمرو بن العاص واستولى على أرض مصر جهز بعثا لفتح دمياط فنازلوها الى أن ملكوا سور المدينة فخرج شطا فى ألفين من اصحابه ولحق بالمسلمين وقد كان قبل ذلك يحب الخير ويميل الى مايسمعه من سيرة أهل الاسلام ولما ملك المسلمون دمياط امتنع عليهم صاحب تنيس فخرج شطا الى البرلس والدميرة وأشموم طناح يستنجد فجمع الناس لقتال أهل تنيس وسار بهم مع

من كان بدمياط من المسلمين ومن قدم مددا من عند عمرو بن العاص الى قتال أهل تنيس فالتقى الفريقان وأبلى شطا منهم بلاء حسنا وقتل من أبطال تنيس اثنى عشر رجلا واستشهد فى ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة احدى وعشرين من الهجرة فقبر حيث هو الآن خارج دمياط وبني على قبره وصار الناس يجتمعون هناك فى ليلة النصف من شعبان كل عام ويغدون للحضور من القرى وهم على ذلك الى يومنا هـذا وكانت تعمل كسوة الـكعبة بشطا قال الفاكهى" ورأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هرون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها بسم الله بركة من الله لعبد الله هرون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته فى طراز شطا كسوة الـكعبة سنة احدى وتسعين ومائة* ومن المواضع المشهورة بدمياط *(البرزخ)* وهو مسجد بحيرة دمياط تسميه العامة البرزخ ولا أعرف مستندهم في ذلك وشاهدت فيه عجبا وهو أن به منارة كبيرة مبنية من الآجر اذا هزها أحد اهتزت فلما صعدت أعلاها حيث يقف المؤذنون وحركتها رأيت ظلها قد تحرك بتحريكي لها ويوجد حول هذا المسجد رمم أموات يشبه أن تكون ممن استشهد فى وقائع الفرنج والله يعلم وأنتم لا تعلمون *(ديبق)* قرية من قرى دمياط ينسب اليها الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة والديبقى العلم المذهب وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل وحدثت هذه العمائم وغيرها في أيام العزيز بالله بن المعز سنة خمس وستين وثلثمائة الى أن مات فى شعبان سنة ست وثمانين وثلثمائة *(النحريرية)* قرية من الاعمال الغربية أسس حكرها الامير شمس الدين سنقر السعدى نقيب الجيش في أيام الناصر محمد بن قلاون وبالغ في عمارتها فبلغت في أيامه عشرة آلاف درهم فضة ثم خرج عنها فعمرت للسلطان واتسع أمرها حتى أنشئ فيها زيادة على ثلاثين بستانا ووصل حكرها لـكثرة سكانها الى ألف درهم فضة لـكل فدان وصارت بلدا كبير العمل يبلغ في السنة مابين خراجي وهلالي ثلثمائة ألف درهم فضة عنها خمسة عشر ألف دينار ذهبا ومات سنقر هذا في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة واليه تنسب المدرسة السعدية بخط حدرة البقر خارج باب زويلة *(جزيرة بني نصر)* منسوبة الى بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن وذلك أن بني حماس بن ظالم بن جعيل بن عمرو بن درهمان بن نصير بن معاوية بن بكر بن هوازن كانت لهم شوكة شديدة بأرض مصر وكثروا حتى ملؤا أسفل الارض وغلبوا عليها حتى قويت عليهم قبيـلة من البربر تعرف بلواتة ولواتة تزعم انها من قيس فأجلت بني نصر وأسكنتها الجدار فصاروا أهل قرى فى مكان عرف بهم وسط النيل وهى جزيرة بني نصر هذه

ذكر الطريق فيما بين مدينة مصر ودمشق

اعلم أن البريد أول من رتب دوابه الملك دارا بن بهمن بن كيشتاسف بن كيهراسف أحد ملوك الفرس وأما فى الاسلام فأول من أقام البريد أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبي جعفر المنصور أقامه فيما بين مكة والمدينة واليمن وجعله بغالا وابلا وذلك في سنة ست وستين ومائة وأصل هذه الكلمة بريد ذنب فان دارا أقام في سكك البريد دواب محذوفة الاذناب سميت بريد ذنب ثم عربت وحذف منها نصفها الاخير فقيل بريد وهـذا الدرب الذى الذى يسلكه العساكر والتجار وغيرهم من القاهرة على الرمل الى مدينة غزة ليس هو الدرب الذى يسلك فى القديم من مصر الى الشام ولم يحدث هذا الدرب الذى يسلك فيه من الرمل الآن الا بعد الخمسمائة من سني الهجرة عند ما انقرضت الدولة الفاطمية وكان الدرب أولا قبل استيلاء الفرنج على سواحل البلاد الشامية غير هـذا قال أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداديه فى كتاب المسالك والممالك وصفة الارض والطريق من دمشق الى الكسوة اثنا عشر ميلا ثم الى جاسم أربعة وعشرون ميلا ثم الى فيق أربعة وعشرون ميلا ثم الى طبرية مدينة الاردن ستة أميال ومن طبرية الى اللجون عشرون ميلا ثم الى القلنسوة عشرون ميلا ثم الى الرملة مدينة فلسطين أربعـة وعشرون ميلا والطريق من الرملة الى ازدود اثنا عشر ميلا ثم الى غزة عشرون ميلا ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلا فى رمل ثم الى الورادة ثمانية عشر ميلا ثم الى أم العرب عشرون ميلا ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلا ثم الي جرير ثلاثون ميلا ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلا ثم الى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلا ثم الى بلبيس أحد وعشرون ميلا ثم الى الفسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلا فهذا كما ترى انما كان الدرب المسلوك من مصر الى دمشق على غير ما هو الآن فيسلك من بلبيس الى الفرما فى البلاد التى تعرف اليوم ببلاد السباخ من الحوف ويسلك من الفرما وهى بالقرب من قطية الى أم العرب وهى بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والورادة ويقصدها قوم من الناس ويحفرون في كيمانها فيجدون دراهم من فضة خالصة ثقيلة الوزن كبيرة المقدار ويسلك من أم العرب الى الورادة وكانت بلدة فى غير موضعها الآن قد ذكرت فى هذا الكتاب فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية فى سنة تسعين وأربعمائة لاخذ البلاد من أيدى المسلمين وأخذ بغدوين الشوبك وعمره في سنة تسع وخمسمائة وكان قد خرب من تقادم السنين وأغار على العريش وهو يومئذ عامر بطل السفر حينئذ من مصر الي الشام وصار يسلك على طريق البر مع العرب مخافة الفرنج الى أن استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدى الفرنج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وأكثر من الايقاع بالفرنج وافتتح منهم عدة بلاد بالساحل

وصار يسلك هذا الدرب على الرمل فسلكه المسافرون من حينئذ الى أن ولي ملك مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب فأنشأ بأرض السباخ على طرف الرمل بلدة عرفت الى اليوم بالصالحية وذلك في سنة أربع وأربعين وستمائة وصار ينزل بها ويقيم فيها ونزل بها من بعده الملوك فلما ملك مصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى رتب البريد في سائر الطرقات حتي صار الخبر يصل من قلعة الجبل الى دمشق في أربعة أيام ويعود فى مثلها فصارت أخبار الممالك ترد اليه في كل جمعة مرتين ويحكم في سائر ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة وأنفق فى ذلك مالا عظيما حتي تم ترتيبه وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة وما زال أمر البريد مستمرا فيما بين القاهرة ودمشق يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيول المعدة للركوب وتعرف بخيل البريد وعندها عدة سواس وللخيل رجال يعرفون بالسواقين وأحدهم سواق يركب مع من رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ولا يركب أحد خيل البريد الا بمرسوم سلطاني فتارة يمنع الناس من ركوبه الا من انتدبه السلطان لمهماته وتارة يركبه من يريد السفر من الاعيان بمرسوم سلطاني وكانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج اليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الامن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة الي الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زادا ولا ماء فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبى أهلها وحرقها في سنة ثلاث وثمانمائة خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن وما دهوا به من كثرة الفتن عن اقامة البريد فاختل بانقطاعه طريق الشام خللا فاحشاً والامر على ذلك الي وقتنا هذا وهو سنة ثمان عشرة وثمانمائة

ذكر مدينة حطين

هذه المدينة آثارها الي اليوم باقية فيما بين حبوة والعاقولة بأرض العاقولة فيما بين قطيه والعريش تجاهها بميل ماء عذب تسميه العرب أبا العروق وهو شرقيها وهذه المدينة تنسب الى حطين ويقال حطى بن الملك أبى جاد المديني وأهل قطية اليوم يسمون تلك الارض ببلاد حطين والجفر وملك حطين هذا أرض مصر بعد موت أبيه وكان صاحب حرب وبطش وكان ينزل بقلعة فى جبال الاردن قريباً من طبرية واليه تنسب قرية حطين التى بها الآن قبر شعيب بالقرب من صفد

ذكر مدينة الرقة

هذه المدينة من جملة مدائن مدين فيما بين بحر القلزم وجبل الطور كان بها عندماخرج موسى عليه السلام ببني اسرائيل من مصر قوم من لخم آل فرعون يعبدون البقر واياهم

عني الله بقوله تعالى وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم الآية قال قتادة أولئك القوم من لخم وكانوا نزولا بالرقة وقيل كانت أصنامهم تماثيل البقر ولهذا أخرج لهم السامرى عجلا وآثار هذه المدينة باقية الى اليوم فيما بقى من مدينة فاران والقلزم ومدين وأيلة تمر بها الاعراب

ذكر عين شمس

وكان يقال لها فى القديم رعمساس وكانت عين شمس هيكلا يحج الناس اليه ويقصدونه من أقطار الارض في جملة ما كان يحج اليه من الهياكل التي كانت في قديم الدهر ويقال ان الصابئة أخذت هذه الهياكل عن عاد وثمود ويزعمون أنه عن شيث بن آدم وعن هرمس الاول وهو ادريس وان ادريس هو أول من تكلم في الجواهر العلوية والحركات النجومية وبنى الهياكل ومجد الله فيها ويقال ان الهياكل كانت عدتها في الزمن الغابر اثني عشر هيكلا وهي هيكل العلة الاولى وهيكل العقل وهيكل السياسة وهيكل الصورة وهيكل النفس وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات والهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس و بعده هيكل المشترى وهو مثلث ثم هيكل المريخ وهو مربع وهيكل الشمش وهو أيضاً مربع وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل وهيكل عطارد مثلث في جوف مربع مستطيل وهيكل القمر مثمن وعللوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا لما كان صانع العالم مقدسا عن صفات الحدوث وجب العجز عن ادراك جلاله وتعين أن يتقرب اليه عباده بالمقربين لديه وهم الروحانيون ليشفعوا لهم ويكونوا وسايط لهم عنده وعنوا بالروحانيين الملائكة وزعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة في أفلاكها وهى هياكلها وانه لا بد لكل روحاني من هيكل ولا بد لكل هيكل من فلك وأن نسبة الروحانى الى الهيكل نسبة الروح الى الجسد وزعموا أنه لا بد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم حتى يتوجه اليه العبد بنفسه ويستفيد منه ففزعوا الى الهياكل التي هى السيارات فعرفوا بيوتها من الفلك وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها وما لها من الايام والليالى والساعات والاشخاص والصور والاقاليم وغير ذلك مما هو معروف في موضعه من العلم الرياضى وسموا هذه السبعة السيارة أربابا وآلهة وسموا الشمس اله الآلهة ورب الارباب وزعموا أنها المفيضة على السبعة أنوارها والمظهرة فيها آثارها فكانوا يتقربون الى الهياكل تقربا الى الروحانيين لتقربهم الي البارى لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين وكل من تقرب الى شخص فقد تقرب الي روحه وكانوا يصلون لكل كوكب يوما يزعمون أنه رب ذلك اليوم وكانت صلاتهم في ثلاثة أوقات الاولى عند طلوع الشمس والثانية عند استوائها فى الفلك والثالثة عند غروبها فيصلون لزحل يوم السبت وللمشترى يوم الاحد وللمريخ يوم الاثنين وللشمس يوم الثلاثاء وللزهرة يوم الاربعاء ولعطارد يوم

الخميس وللقمر يوم الجمعة ويقال انه كان ببلخ هيكل بناه بنو حمير على اسم القمر لتعارض به الكعبة فكانت الفرس تحجه وتكسوه الحرير وكان اسمه نوبهر فلما تمجست الفرس عملته بيت نار وقيل للموكل بسدانته برمك يعني والى مكة وانتهت البرمكة الى جد خالد جد جعفر بن يحيي بن خالد فأسلم على يد هشام بن عبد الملك وسماه عبد الله وخرب هذا الهيكل قيس بن الهيثم في أول خلافة معاوية سنة احدى وأربعين وكان بناء عظيما حوله أروقة وثلثمائة وستون مقصورة لسكن خدامه وكان بصنعاء قصر غمدان من بناء الضحاك وكان هيكل الزهرة وهدم في خلافة عثمان بن عفان وكان بالاندلس في الجبل الفارق بين جزيرة الاندلس والارض الكبيرة هيكل المشترى من بناء كلوبطرة بنت بطليموس وكان بفرغانة بيت يقال له كلوسان هيكل للشمس بناه بعض ملوك فارس الاول خربه المعتصم وقد اختلف فيمن بني هيكل عين شمس وسأقص من أخباره مالم أره مجموعا في كتاب * قال ابن وصيف شاه وقد كان الملك منقاوس اذا ركب عملوا بين يديه التخاييل العجيبة فيجتمع الناس ويعجبون من أعمالهم وأمر أن يبنى له هيكل للعبادة يكون له خصوصا ويجعل فيه قبة فيها صورة الشمس والكواكب وجعل حولها أصناما وعجائب فكان الملك يركب اليه ويقيم فيه سبعة أيام وجعل فيه عمودين زبر عليهما تاريخ الوقت الذي عمله فيه وهما باقيان الى اليوم وهو الموضع الذي يقال له عين شمس ونقل الى عين شمس كنوزا وجواهر وطلسمات وعقاقير وعجائب ودفنها بها وبنواحيها وأقام ملكا احدى وتسعين سنة ومات من الطاعون وقيل من سم وعمل له ناوس في صحراء الغرب وقيل فى غربي قوص ودفن معه مصاحف الحكمة والصنعة وتماثيل الذهب والجوهر ومن الذهب المضروب شئ كثير ودفن معه تمثال روحاني الشمس من ذهب يلمع وله جناحان من زبرجد وصنم على صورة امرأته وكان يحبها فلما ماتت أمر أن تعمل صورتها فى الهيا كل كلها وعمل صورتها من ذهب بذؤابتين سوداوين وعليها حلة من جواهر منظومة وهي جالسة على كرسي وكان يجعلها بين يديه فى كل موضع يجلس فيه يتسلى بذلك عنها فدفنت هذه الصورة معه تحت رجليه كانها تخاطبه * وقال الحكيم الفاضل أحمد بن خليفة فى كتاب عيون الانباء فى طبقات الاطباء واشتاق فيثاغورس الى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا بمصر فورد على أهل مدينة الشمس المعروفة فى زماننا بعين شمس فقبلوه قبولا كريما وامتحنوه زمانا فلم يجدوا عليه نقصا ولا تقصيرا فوجهوا به الى كهنة منف كي يبالغوا فى امتحانه فقبلوه على كراهة واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيبا ولا أصابوا له عثرة فبعثوا به الى أهل ديوسوس ليمتحنوه فلم يجدوا عليه طريقا ولا الى ادحاضه سبيلا ففرضوا عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبته مخالفة لفرائض اليونانيين فقبل ذلك وقام به فاشتهر

اعجابهم به وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره الى أماسيس ملك مصر فأعطاه سلطانا على ضحايا الرب وعلى سائر قرابينهم ولم يعط ذلك لغريب قط ويقال انه كان للكواكب السبعة السيارة هياكل تحج الناس اليها من سائر أقطار الدنيا وضعها القدماء فجعلوا على اسم كل كوكب هيكلا في ناحية من نواحي الارض وزعموا أن البيت الاول هو الكعبة وانه مما أوصى ادريس الذى يسمونه هرمس الاول المثلث أن يحج اليه وزعموا أنه منسوب لزحل والبيت الثاني بيت المريخ وكان بمدينة صور من الساحل الشامي والبيت الثالث للمشترى وكان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد وموضعه الآن جامع بني أمية والبيت الرابع بيت الشمس بمصر ويقال انه من بناء هرشيك أحد ملوك الطبقة الاولى من ملوك الفرس وهو المسمى بعين شمس والبيت الخامس بيت الزهرة وكان بمنتيج والبيت السادس بيت عطارد وهو بصيدا من ساحل البحر الشامي والبيت السابع بيت القمر وكان بحران ويقال انه قلعتها ويسمى المدور ولم يزل عامرا الى أن خربه التتر ويقال انه كان هو هيكل الصابئة الاعظم * وقال شافع بن علي في كتاب عجائب البلدان وعين شمس مدينة صغيرة تشاهد سورها محدقا بها مهدوما ويظهر من أمرها انها كانت بيت عبادة وفيها من الاصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة مايكون طول الصنم بقدر ثلاثين ذراعا واعضاؤه على تلك النسبة من العظم وكل هذه الاصنام قائمة على قواعد وبعضها قاعد على نصبات عجيبة واتقانات محكمة وباب المدينة موجود الى الآن وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير على شكل الانسان وغيره من الحيوان وكتابة كثيرة بالقلم المجهول وقلما ترى حجرا خلا عن كتابة أو نقش أو صورة وفي هذه المدينة المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتي فرعون وصفة المسلة قاعدة مربعة طولها عشرة أذرع في مثلها عرضا في نحوها سمكا قد وضعت على أساس ثابت في الارض ثم أقيم عليها عمود مثلث مخروط ينيف طوله على مائة ذراع يبتدئ من القاعدة ببسطة قطرها خمسة أذرع وينتهي الى نقطة وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس الى نحو ثلاثة أذرع منها كالقمع وقد تزنجر بالمطر وطول المدة واخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة وكلها عليها كتابات بذلك القلم وكانت المسلتان قائمتين ثم خربت احداها وانصدعت من نصفها لعظم الثقل وأخذ النحاس من رأسها ثم ان حولها من الاصنام شيئاً كثيرا لايحصى عدده على نصف تلك العظمى أو يليها وقلما يوجد في هذه المسال الصغار ماهو قطعة واحدة بل فصوصها بعضها على بعض وقد تهدم أكثرها وانما بقيت قواعدها * وقال محمد بن ابراهيم الجزرى في تاريخه وفي رابع شهر رمضان يعني من سنة ست وخمسين وستمائة وقعت احدى مسلتي فرعون التي بأراضي المطرية من ضواحي القاهرة فوجدوا داخلها مائتي قنطار من نحاس وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار * ويقال ان عين شمس بناها الوليد بن دومع من الملوك العماليق وقيل بناها الريان بن الوليد

وكانت سرير ملكه والفرس تزعم أن هرشيك بناها * ويقال طول العمودين مائة ذراع وقيل أربعة وثمانون ذراعا وقيل خمسون ذراعا ويقال ان بخت نصر هو الذى خرب عين شمس لما دخل الى مصر وقال القضاعى وعين شمس وهى هيكل الشمس بها العمود ان اللذان لم ير أعجب منهما ولا من شأنهما طولهما في السماء نحو من خمسين ذراعا وهما محمولان على وجه الارض وبينهما صورة انسان على دابة وعلى رأسهما شبه الصومعتين من نحاس فاذا جاء النيل قطر من رأسيهما ماتستبينه وتراه منهما واضحا ينبع حتى يجري من أسافلهما فينبت فى أصلهما العوسج وغيره واذا دخلت الشمس دقيقة من الجدى وهو أقصر يوم فى السنة انتهت الى الجنوبى منهما فطلعت عليه على قمة رأسه ثم اذا دخلت دقيقة من السرطان وهو أطول يوم في السنة انتهت الى الشمالي منهما فطلعت على قمة رأسه وهما منتهى الميلين وخط الاستواء في الواسطة منهما ثم خطرت بينهما ذاهبة وجائية سائر السنة كذا يقول أهل العلم بذلك * وقال ابن سعيد في كتاب المغرب وكانت عين شمس فى قديم الزمان عظيمة الطول والعرض متصلة البناء بمصر القديمة حيث مدينة الفسطاط الآن ولما قدم عمرو بن العاص نازل عين شمس وكان جمع القوم حتى فتحها * وقال جامع السيرة الطولونية كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعتدل الخلق من كذان أبيض محكم الصنعة يخيل من استعرضه أنه ناطق فوصف لاحمد بن طولون فاشتاق الى تأمله فنهاه ندوسة عنه وقال ماراه وال قط الاعزل فركب اليه وكان هذا فى سنة ثمان وخمسين ومائتين وتأمله ثم دعا بالقطاعين وأمرهم باجتثاثه من الارض ولم يترك منه شيئاً ثم قال لندوسة خازنه ياندوسة من صرف منا صاحبه فقال أنت أيها الامير وعاش بعدها أحمد ثني عشرة سنة أميرا * وبني العزيز بالله نزار بن المعز قصورا بعين شمس * وقال أبو عبيد البكرى عين شمس بفتح الشين واسكان ثانيه بعده سين مهملة عين ماء معروفة قال محمد بن حبيب عين شمس حيث بني فرعون الصرح وزعم قوم أن عين شمس الى هذا الماء اضيف وأول من سمى هذا الاسم سبا بن يشجب وذكر الكلبي ان شمسا الذى تسموا به صنم قديم وقال ابن خرداديه واسطوانتين بعين شمس من أرض مصر ومن بقايا أساطين كانت هناك فى رأس كل اسطوانة طوق من نحاس يقطر من احداها ماء من تحت الطوق الى نصف الاسطوانة لايجاوزه ولا ينقطع قطره ليلا ولا نهارا فموضعه من الاسطوانة أخضر رطب ولا يصل الماء الى الارض وهو من بناء أو سهنك * وذكر محمد بن عبد الرحيم في كتاب تحفة الالباب أن هذا المنار مربع علوه مائة ذراع قطعة واحدة محدد الرأس على قاعدة من حجر وعلى رأس المنار غشاء من صفر كالذهب فيه صورة انسان على كرسي قد استقبل المشرق ويخرج من تحت ذلك الغشاء الصفر ماء يسيل مقدار عشرة أذرع وقد نبت منه شيء كالطحلب فلا يبرح لمعان الماء على تلك الخضرة أبدا

صيفا وشتاء لاينقطع ولا يصل الى الارض منه شئ وبعين شمس نبت يزرع كالقضبان يسمى البلسم يتخذ منه دهن البلسان لايعرف بمكان من الارض الا هناك وتؤ كل لحي هذه القضبان فيكون له طعم وفيه حرارة وحرافة لذيذة وبناحية المطرية من حاضرة عين شمس البلسان وهو شجر قصار يسقى من ماء بئر هناك وهـذه البئر تعظمها النصارى وتقـصدها وتغتسل بمـائها وتستشفي به ويخرج لاعتصار البلسان أوان ادراكه من قبـل السلطان من يتولى ذلك ويحفظه ويحمل الى الخزانة السلطانية ثم ينقل منه الى قلاع الشام والمـارستانات لمعالجة المبرودين ولا يؤخذ منه شئ الا من خزانةالسلطان بعد أخذ مرسوم بذلك وللملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج فيه غلو عظيم وهم يتهادونه من صاحب مصر ويرون أنهم لايصح عنـدهم لاحد أن يتنصر الى أن ينغمس في ماء المعمودية ويعتقدون انه لابد أن يكون في ماء المعمودية شئ من دهن البلسان ويسمونه الميرون وكان في القديم اذا وصل من الشام خبر انتهى الى صاحب عين شمس ثم يرد من عين شمس الى الحصن الذي عرف بقصر الشمع حيث الآن مدينة مصر ثم يرد من الحصن الى مدينة منف حيث كانت منف تخت الملك وسبب تعظيم النصارى لدهن البلسان ما ذكره في كتاب السنكسار وهو يشتمل على أخبار النصارى أن المسيح لما خرجت به أمه ومعهما يوسف النجار من بيت المقدس فرارا من هيرودس ملك اليهود نزلت به أول موضع من أرض مصر مدينة بسطة في رابع عشري بشنس فلم يقبلهم أهلها فنزلوا بظاهرها وأقاموا أياما ثم ساروا الى مدينـة سمنود وعدوا النيل الى الغربية ومشوا الى مدينة الاشمونين وكان بأعلاها اذ ذاك شكل فرس من نحاس قائم على أربعة أعمـدة فاذا قدم اليها غريب صهل فجاؤا ونظروا في أمر القادم فعند ما وصلت مريم بالمسيح عليه السلام الى المدينة سقط الفرس المذكور وتكسر فدخلت به أمه وظهرت له عليه السلام في الاشمونين آية وهو أن خمسة جمال محملة زاحمتهم في مرورهم فصرخ فيها المسيح في الاشمونين فصارت حجارة ثم انهم ساروا من الاشمونين وأقاموا بقرية تسمى فيلس مدة أيام ثم مضوا الى مدينة تسمى قس وقام وهي التي يقال لها اليوم القوصية فنطق الشيطان من أجواف الاصنام التي بها وقال ان امرأة أتت ومعها ولدها يريدون أن يخربوا بيوت معابدكم فخرج اليهم مائة رجل بسلاحهم وطردوهم عن المدينـة فمضوا الى ناحية ميرة في غربي القوصـية ونزلوا في الموضع الذي يعرف اليوم بدير المحرق وأقاموا به ستة أشهر وأياما فرأى يوسف النجار في منامه قائلا يخبره بموت هيرودس ويأمره أن يرجع بالمسيح الى القـدس فعادوا من ميرة حتي نزلوا حيث الموضع الذي يعرف اليوم في مدينة مصر بقصر الشمع وأقاموا بمغارة تعرف اليوم بكنيسة بوسرجة ثم خرجوا منها الى عين شمس فاستراحوا هناك بجوار ماء فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح وقد

اتسخت وصبت غسالتها بتلك الاراضي فأنبت الله هنالك البلسان وكان اذ ذاك بالاردن فانقطع من هناك وبقى بهذه الارض وغمرت هذه البئر التى هى الآن موجودة هناك على ذلك الماء الذى غسلت منه مريم وبلغني أنها الى الآن اذا اعتبرت يوجد ماؤها عيناً جارية في أسفلها فهذا سبب تعظيم النصارى لهذه البئر وللبلسان فانه انما سقى منها والله أعلم

المنصورة

هذه البلدة على رأس بحر أشموم تجاه ناحية طلخا بناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في سنة ست عشرة وستمائة عند ما ملك الفرنج مدينة دمياط فنزل في موضع هذه البلدة وخيم به وبني قصرا اسكناه وأمر من معه من الامراء والعساكر بالبناء فبنى هناك عدة دور ونصبت الاسواق وأدار عليها سورا مما يلى البحر وستره بالآلات الحربية والستائر وتسمى هذه المنزلة المدينة المنصورة ولم يزل بها حتي استرجع مدينة دمياط كما تقدم ذكره عند ذكر مدينة دمياط من كتابنا هذا فصارت مدينة كبيرة بها الحمامات والفنادق والاسواق ولما استنقذ الملك الكامل دمياط من الفرنج ورحل الفرنج الى بلادهم جلس بقصره في المنصورة وبين يديه اخوته الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسي صاحب بلاد الشرق وغيرهما من أهله وخواصه فأمر الملك الاشرف جاريته فغنت على عودها

ولما طغى فرعون عكا وقومه * وجاء الى مصر ليفسد فى الارض
أتي نحوهم موسى وفى يده العصا * فأغرقهم في اليم بعضاً على بعض

فطرب الاشرف وقال لها بالله كررى فشق ذلك على الملك الكامل وأسكتها وقال لجاريته غنى أنت فأخذت العود وغنت

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا * لما قد جرى في وقتنا وتجددا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه * وموسي جميعاً ينصران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حبارة أولها (أبي الوجد الا أن أبيت مسهدا) فأعجب ذلك الملك الكامل وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار فنهض القاضى الصدر الاجل الرئيس هبة الله بن محاسن قاضى غزة وكان من جملة الجلساء على قدميه وأنشد يقول

هنيئاً فان السعد جاء مخلدا * وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحا لنا بدا * مبينا وانعاما وعزا مؤبدا
تهلل وجه الارض بعد قطوبه * وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغي البحر الخضم بأهله ا * طغاة وأضحي بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه * صقيلا كما سل الحسام المهندا

فلم ينج الا كل شلو مجدل * ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الارض رافعا * عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه * وموسى جميعاً ينصران محمدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من أحسن ليلة مرت لملك من الملوك وكان عند انشاده يشير اذا قال عيسى الى عيسى المعظم واذا قال موسي الي موسى الاشرف واذا قال محمدا الى السلطان الملك الكامل وقد قيل ان الذي أنشد هذه الابيات انما هو راجح الحلى الشاعر

(العباسة)

هذه القرية فيما بين بلبيس والصالحية من أرض السدير لم يزل منتزها لملوك مصر وبها ولد العباس بن أحمد بن طولون فسماه لذلك أبوه العباس وولد بها أيضاً الملك الامجد تقى الدين عباس بن العادل أبي بكر بن أيوب وكان الملك الكامل محمد بن العادل يقيم بها كثيرا ويقول هذه تعلو مصر اذا أقمت بها أصطاد الطير من السماء والسمك من الماء والوحش من الفضاء ويصل الخبز من قلعة الجبل اليَّ بها في قلتي وهو سخن وبني بها آدرا ومناظر وبساتين وبنى أمراؤه بها أيضاً عدة مساكن فى البساتين ولم تزل العباسة على ذلك حتى أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل المنزلة الصالحية فتلاشى حينئذ أمر العباسة وخربت المناظر في سلطنة الملك المعز أيبك فلما كانت سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس مر على السدير وهو فم الوادي فأعجب به وبنى في موضع اختاره منه قرية سماها الظاهرية وأنشأ بها جامعا وذلك فى سنة ست وستين وستمائة * وسميت بالعباسة بنت أحمد بن طولون فانها خرجت الى هذا الموضع مودعة لبنت أخيها قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون لما حملت الى المعتضد وضربت هناك فساطيطها ثم بنت قرية فسميت باسمها

(ذكر مدينة قفط بصعيد مصر)

هذه المدينة عرفت بقفطريم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وكانت فى الدهر الاول مدينة الاقاليم وانما بدا خرابها بعد الاربعمائة من تاريخ الهجرة النبوية وآخر ما كان فيها بعد السبعمائة من سني الهجرة أربعون مسبكا للسكر وست معاصر للقصب ويقال كان فيها قباب بأعالي دورها وكانت اشارة من ملك من أهلها عشرة آلاف دينار أن يجعل في داره قبة وبالقرب منها معدن الزمرذ ولم يبطل الا من قريب فان قفطريم ولى الملك بعد أبيه قبطيم قال ابن وصيف شاه كان أكبر ولد أبيه وكان جبارا عظيم الخلق وهو الذى وضع أساسات الاهرام الدهشورية وغيرها وهو الذي بني مدينة دندرة ومدينة الاصنام وهلكت عاد بالريح في آخر أيامه وأثار من المعادن مالم يثره غيره وكان يتخذ من الذهب مثل حجر الرحى ومن الزبرجد مثل الاسطوانة ومن الاسبادشم

في صحراء الغرب كالقلة وعمل من العجائب شيئاً كثيرا وبني منارا عاليا على جبل قفطيرى منه البحر الشرقى ووجد هناك معدن زئبق فعمل منه تمثالا كالعمود لا يحـل ولا يذوب وعمل البركة التى سماها صيادة الطير اذا مر عليها طائر سقط فيها ولم يقدر على الحركة حتي يؤخذ وهذه البركة يقال انها هناك الى الآن وأما المنار فسقط وعمل عجائب كثيرة وفي أيامه أثار عبادة الاصنام التى كان الطوفان غرقها وزين الشيطان أمرها وعبادتها ويقـال انه بنى المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب وبنى غربي النيل وخاف الواحات الداخلة مدنا عمل فيها عجائب كثيرة ووكل بها الروحانيين الذين يمنعون منها فما يستطيع أحـد أن يدنو اليها ولا يدخلها الا أن يعمل قرابين لأولئك الروحانيين وأقام قفطريم ملـكا أربعمائة وثمانين سنة وأكثر العجائب عملت في وقته ووقت ابنه البودسير ولذلك كان الصعيد أكثر عجائب من أسـفل لان حيز قفطريم فيه ولما حضر قفطريم الوفاة عمل ناوسا في الجبـل الغربي قرب مدينة الـكهان في سرب تحت الارض معقود على آزاج الى الارض ونقر تحت الجبل دارا واسعة وجعل دورها خزائن منقورة وفي سقفها مسارب للرياح وباطن السرب وجميع الدار بالمرمر وجعل في وسط الدار مجلسا على ثمانية أركان مصفحا بالزجاج الملون المسبوك وجعل فى سقفه جواهر تسرج وجعل في كل ركن من أركان المجلس تمثالا من الذهب بيده كالبوق الذى يبوق به وتحت القبة دكة مصفحة بذهب ولها حواف من زبرجد وفوق الدكة فرش من حرير وجعل عليها جسد بعد أن لطخ بالادوية المجففة ووضع في جانبـه آلات كافور وسدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج مكلل وعن جوانب الدكة أربعة تماثيل مجوفات من زجاج مسبوك في صور النساء بأيديهن مراوح من ذهب وعلى صدره من فوق الثياب سيف فاخر قائمته من زبرجد وجعل فى تلك الخزائن من الذخائر وسبائك الذهب والتيجان والجوهر وبرابى الحـكم وأصناف العقاقير والطلسمات ومصاحف العلوم مالا يحصى كثرة وجعل على باب المجلس ديكا من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين مزبورا عليه آيات مانعة وجعل على كل مدخل أزج صورتين من نحاس بأيديهما سيفان وقدامهما بلاطة تحتها لوالب من وطئها ضرباه باسيافهما فقتلاه وفي سقف كل أزج كرة وعليها لطوخ مدبر يسرج فيقد طول الزمان وسد باب الازج بالاساطين المرصعة ورصوا على سقفه البلاط العظام وردموا فوقها الرمال وزبروا على باب الازج هذا المدخل الى جسد الملك المعظم المهيب الكريم الشديد قفطريم ذي الايد والفخر والغلبة والقهر أفل نجمه وبقى ذكره وعلمه فلا يصل أحد اليه ولا يقدر بحيلة عليه وذلك بعد سبعمائة وسبعين ودورات مضت من السنين *وقال المسعودي ومعدن الزمرذ في عمل الصعيد الاعلى من مدينة قفط ومنها يخرج الى هذا المعدن والموضع الذى هو فيه يعرف بالخربة وهي مفازة وجبال والبجه تحمي

هذا المكان المعروف بالخربة واليها يؤدى الحفارات من يرد الى حفر الزمرذ ووجدت جماعة من صعيد مصر من ذوى الدراية ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن وعرف هذا النوع من الجوهر يخبرون أنه يكثر ويقل في فصول السنة فيكثر في قوة مواد الهواء وهبوب نوع من الرياح الاربع وتقوى الخضرة فيه والشعاع النورى في أوائل الشهر والزيادة في نور القمر وبين الموضع المعروف بالخربة الذى فيه معدن الزمرذ وبين ما اتصل من العمارة وقرب منه من الديار مسيرة سبعة أيام وهي قفط وقوص وغيرهما من صعيد مصر وقوص راكبة النيل وبين النيل وقفط نحو من ميلين * ولمدينتي قفط وقوص أخبار عجيبة في بدء عمارتهما وما كان فى أيام القبط من أخبارها الا أن مدينة قفط فى هذا الوقت متداعية للخراب وقوص أعمر والناس فيها أكثر وكان بقفط بربا موكل بها روحاني فى صورة جارية سوداء تحمل صبيا أسود صغيرا حكى أنها رؤيت بها مرارا ومعدن الزمرذ فى البر المتصل باسوان وكان له ديوان فيه شهود وكتاب وينفق على العمال به وتنال لهم المؤن لحفره واستخراج الزمرذ منه وهو فى جبال مرملة يحفر فيه وربما سقط على الجماعة به فماتوا وكان يجمع مايخرج منه ويحمل الى الفسطاط ومنه يحمل الى البلاد وقد كان الناس يسيرون من قوص الى معدن الزمرذ فى ثمانية أيام بالسير المعتدل وكانت البجاه تنزل حوله وقريبا منه لاجل القيام بحفره وحفظه وهـذا المعدن فى الجبل الآخذ على شرقي النيل فى بحرى قطعة عظيمة من هـذا الجبل تسمى اقرشندة وليس هنـاك من الجبال أعلى منها وهو فى منقطع من البر لاعمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه والماء عنه مسيرة نصف يوم أو ازيد وهو مايحصل من المطر ويعرف بغديرأعين يكثر بكثرة المطر ويقل بقلته وهذا المعدن فى صدر مفازة طويلة فى حجر أبيض يستخرج منه الزمرذ وهذا الحجر الابيض ثلاثة أنواع أحدها يقال له طلق كافورى والثاني يقال له طلق فضى والثالث يقال له حجر جروى ويضرب فى هذه الحجارة حتى يخرج الزمرذ وهو كالعريق فيه وأنواعه الرياني وهو أقل من القليل لايخرج الا في النادر واذا استخرج ألقي في الزيت الحار ثم يحط في قطن ويصر ذلك القطن في خرق خام أونحوها وكان الاحتراز على هذا المعدن كثيرا جدا ويفتش الفعلة عند الخروج منه كل يوم حتى تفتش عوراتهم ومع ذلك فيختلسون منه بصناعات لهم في ذلك ولم يزل هـذا المعدن يستخرج منه الزمرذ الى أن ابطل العمل منه الوزير الصاحب علم الدين عبد الله بن زنبور في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون في سنة بضع وستين وسبعمائة *وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة كانت فتنة كبيرة بمدينة قفط سببها أن داعيا من بني عبد القوى ادعي أنه داود بن العاضد فاجتمع الناس عليه فبعث السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك العادل أبا بكر بن أيوب على جيش فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف وصلبهم على شجرها

ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم

ذكر مدينة دندرة

هي احدى مدن الصعيد الاعلى القديمة بناها قفطريم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وكان فيها بربا عظيمة فيها مائة وثمانون كوة تدخل الشمس في كل يوم من كوة حتى تأتي على آخرها ثم تكر راجعة الى حيث بدأت وكانت روحانيتها الموكلة بها تظهر في هيئة انسان له رأس أسد بقرنين وكان بها أيضا شجرة تعرف بشجرة العباس متوسطة وأوراقها خضر مستديرة اذا قال الانسان عندها يا شجرة العباس جاءك الفاس تجتمع أوراقها وتحزن لوقتها ثم تعود كما كانت وبين دندرة وبين قوص بريد واحد وكانت بربا دندرة أعظم من بربا اخميم

(ذكر الواحات الداخلة)

الواحات منقطعة وراء الوجه القبلي في مغاربه ولا تعد فى الولايات ولا في الاعمال ولا يحكم عليها من قبل السلطان وال وانما يحكم عليها من قبل مقطعها * وبلاد الواحات بين مصر والاسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة بعضها داخل ببعض وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ولا يفتقر الى سواه وأرضها شبية وزاجية وعيون حامضة الطعم تستعمل كاستعمال الخل وعيون مختلفة الطعوم من الحامض والقابض والمالح ولكل نوع منها خاصية ومنفعة وهي على قسمين واحات داخلة وواحات خارجة جملتها أربع واحات ويقال ان الواحات ولدو حويلا بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح وان أخر سبا بن كوش أبو الحبش وأبو شنبا بن كوش أبو زغاوة وأبو شفنحيا بن كوش أبو الحبش الرمرم * قال ابن وصيف شاه ويقال ان قفطريم بني المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب منها الماء القائم كالعمود لايخل ولا يذوب والبركة التي تسمى فلسطين أى صيادة الطير اذا مر عليها الطير سقط فيها ولم يمكنه الخروج منها حتى يؤخذ وعمل أيضا عمودا من نحاس عليه صورة طائر اذا قرب الاسد أو الحيات أو غيرها من الاشياء المضرة من تلك المدينة صفر تصفيرا عاليا فترجع تلك الدواب هاربة وعمل على أربعة أبواب هذه المدينة أربعة أصنام من نحاس لايقرب منها غريب الا ألقى عليه النوم والسبات فينام عندها ولا يبرح حتى يأتيه أهل المدينة وينفخون في وجهه ليقوم وان لم يفعلوا ذلك لا يزال نائما عند الاصنام حتى يهلك وعمل منارا لطيفا من زجاج ملون على قاعدة من نحاس وعمل على رأس المنار صورة صنم من أخلاط كثيرة وفي يده كالقوس كأنه يرمي عنها فان عاينه غريب وقف في موضعه ولم يبرح حتى يحيه أهل المدينة وكان ذلك الصنم يتوجه الى مهب الرياح الاربع من نفسه وقيل ان هذا الصنم على حاله الى الآن وان الناس تحاموا تلك المدينة على كثرة مافيها من الكنوز والعجائب الظاهرة خوفا

من ذلك الصنم أن تقع عين انسان عليه فلا يزال قائما حتى يتلف وكان بعض الملوك عمل على قلمه فما أمكنه وهلك لذلك خلق كثير ويقال انه عمل فى بعض المدائن الداخلة مرآة يري فيها جميع ما يسأل الانسان عنه وبني غربي النيل وخاف الواحات الداخلة مدنا عمل فيها عجائب كثيرة ووكل الروحانيين بها الذين يمنعون منها فما يستطيع أحد أن يدنو اليها ولا يدخلها أو يعمل قرابين أولئك الروحانيين فيصل اليها حينئذ ويأخذ من كنوزها ما أحب من غير مشقة ولا ضرر وبني الملك صا بن الساد وقيل صا بن مرقونس بداخل الواحات مدينة وغرس حولها نخلا كثيرا وكان يسكن منف وملك الاحياز كلها وعمل عجائب وطلسمات ورد الكهنة الى مراتبهم ونفي الملهيين وأهل الشر ممن كان يصحب الساد بن مرقونس وجعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون اليه مايجرى في حدودهم وعمل على غربي النيل منابر يوقد عليها اذا حزبهم امر أو قصدهم قاصد وكان لما ملك البلد بأسره جمع الحكماء اليه ونظر في نجومه وكان بها حاذقا فرأى أن بلده لابد أن تغرق بالطوفان من نيلها ورأى أنها تخرب على يد رجل يأتي من ناحية الشام فجمع كل فاعل بمصر وبني في الواح الاقصى مدينة جعل طول حصنها في الارتفاع خمسين ذراعا وأودعها جميع الحكم والاموال وهي المدينة التي وقع عليها موسى بن نصير في زمن بني أمية لما قدم من المغرب فلما دخل مصر أخذ على الواح الاقصى وكان عنده علم منها فأقام سبعة أيام يسير في رمال بين الغرب والجنوب فظهرت له مدينة عليها حصن وأبواب من حديد فلم يمكنه فتح الابواب وكان اذا صعد اليها الرجال وعلوا الحصن وأشرفوا على المدينة ألقوا أنفسهم فيها فلما أعياه أمرها مضى وهلك من أصحابه عدة قال وفي تلك الصحارى كانت متنزهات القوم ومدنهم العجيبة وكنوزهم الا أن الرمال غلبت عليها ولم يبق يملك ملك الاوقد عمل للرمل طلسما لدفعه ففسدت طلسماتها لقدم الزمان قال ولا ينبغي لاحد أن ينكر كثرة بنيانهم ولا مدائنهم ولا مانصبوه من الاعلام العظام فقد كان للقوم بطش لم يكن لغيرهم وان آثارهم لبينة مثل الاهرام والاعلام والاسكندرية وما في صحارى الشرق والجبال المنحوتة التي جعلوا كنوزهم فيها والاودية المنحوتة ومثل مابالصعيد من البرابى وما نقشوه عليها من حكمتهم فلو تعاطي جميع ملوك الارض أن يبنوا مثل الهرمين ماتهيأ لهم وكذلك أن ينقشوا ربما لطال بهم الامد ولم يمكنهم * وحكى عن قوم من البنائين في ضياع الغرب أن عاملا عندهم عنف بهم ففروا في صحراء الغرب ومعهم زاد الى أن تنصلح أحوالهم ويرجعوا فلما كانوا على مسيرة يوم وبعض آخر قدموا الى سفح جبل فوجدوا عيرا أهليا قد خرج من بعض الشعاب فتبعه بعضهم فانتهى الى مساكن وأشجار ونخل ومياه تطرد وقوم هناك يرعون ولهم مساكن وكلهم وأعجب بهم فجاء الى أصحابه وقدم بهم على أولئك القوم فسألوهم

عن حالهم فأخبروهم وأقاموا عندهم حتى صلحت أحوالهم وخرجوا ليأتوا بأهاليهم ومواشيهم ويقيموا عندهم فساروا مدة وهم لا يعرفون الطريق ولا يتأتى لهم العود فأسفوا على ما فاتهم * وضل آخرون عن الطريق في الغرب فوقعوا على مدينة عامرة كثيرة الناس والمواشي والنخل والشجر فأضافوهم وأطعموهم وسقوهم وباتوا فى طاحونة فسكروا من الشراب وناموا فلم ينتبهوا الا من حر الشمس فاذاهم في مدينة خراب ليس فيها أحد فخافوا وخرجوا وظلوا يومهم سائرين الى المساء فظهرت لهم مدينة أكبر من الاولى وأعمر وأكثر أهلا وشجرا ومواشي فأنسوا بهم وأخبروهم بخبر المدينة الاولى فجعلوا يعجبون منهم ويضحكون وانطلقوا بهم الى وليمة لبعض أهل المدينة فأكلوا وشربوا وعنوا بهم حتى سكروا فلما كان من الغد انتبهوا فاذاهم فى مدينة عظيمة ليس فيها أحد وحولها نخل قد تساقط ثمره وتكدس فخرجوا وهم يجدون ريح الشراب ومبادي الخمار فساروا يوما الى المساء واذا راع يرعى غنما فسألوه عن الطريق فدلهم فساروا بعض يوم من الغد فوصلوا مدينة الاشمونين بالصعيد قال وهذه مدائن القوم الداخلة القديمة قد غلب عليها الجان ومنها ما سترته عن العيون فلا ينظر اليها أحد وقال ان البودسير بن قفطريم بن قبطيم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام في أيامه بنيت بصحراء الغرب منابر ومنتزهات وحول اليها جماعة من أهل بيته فعمروا تلك النواحي وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عامرة كلها وأقامت على ذلك مدة كثيرة فخالطهم البربر ونكحوا منهم ثم تحاسدوا فكانت بينهم حروب خربت فيها تلك الجهات وبادت الابقية منازل تسمى الواحات

(ذكر مدينة سنترية)

ومدينة سنترية من جملة الواحات بناها مناقيوش بانى مدينة اخميم كان أحد ملوك القبط القدماء قال ابن وصيف شاه وكان في حزم أبيه وحنكته تعظم فى أعين أهل مصر وهو أول من عمل الميدان وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه وأول من عمل المارستان لعلاج المرضى والزمنى وأودعه العقاقير ورتب فيه الاطباء وأجري عليهم ما يسعهم وأقام الامناء على ذلك وصنع لنفسه عيدا فكان الناس يجتمعون اليه فيه وسماه عيد الملك فى يوم من السنة فيأكلون ويشربون سبعة أيام وهو مشرف عليهم من مجلس على عمد قد طوقت بالذهب وألبست فاخر الثياب المنسوجة بالذهب وعليه قبة مصفحة من داخل بالرخام والزجاج والذهب وفي أيامه بنيت سنترية في صحراء الواحات عملها من حجر أبيض مربعة وفي كل حائط باب في وسطه شارع الى حائط محاذ له وجعل فى كل شارع يمنة ويسرة أبوابا تنتهي طرقاتها الى داخل المدينة وفي وسط المدينة ملعب يدور به من كل ناحية سبع درج وعليه قبة من خشب مدهون على عمد عظيمة من رخام وفي وسطه منار من رخام عليه صنم من

صوان أسود يدور مع الشمس بدورانها وبسائر نواحي القبة صور معلقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة فكان الملك يجلس على الدرجة العالية من المامب وحوله بنوه وأقاربه وأبناء الملوك وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة والوزراء وعلى الثالثة رؤساء الجيش وعلى الرابعة الفلاسفة والمنجمون والاطباء وأرباب العلوم وعلى الخامسة أصحاب العمارات وعلى السادسة أصحاب المهن وعلى السابعة العامة فيقال لكل صنف منهم أنظروا الى من دونكم ولا تنظروا الى من فوقكم لا تلحقونهم وهذا ضرب من التأديب وقتلته امرأته بسكين فمات وكان ملكه ستين سنة وسنترية الآن بلد صغير يسكنه نحو ستمائة رجل من البر يعرفون سيوة ولغتهم تعرف بالسيوية تقرب من لغة زناتة وبها حدائق نخل وأشجار من زيتون وتين وغير ذلك وكرم كثير وبها الآن نحو العشرين عيناً تسيح بماء عذب ومسافتها من الاسكندرية أحد عشر يوما ومن جيزة مصر أربعة عشر يوما وهى قرية يصيب أهلها الحمي كثيرا وتمرها غاية في الجودة وتعبث الجن بأهلها كثيرا وتختطف من انفرد منهم وتسمع الناس بها عزيف الجن

(ذكر الواحات الخارجة)

بناها أحد ملوك القبط الاول ويقال له البودسير بن قفطيم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام قال ابن وصيف شاه وأراد البودسير أن يسير مغربا لينظر الى ما هنالك فوقع على أرض واسعة متخرقة بالمياه والعيون كثيرة العشب فبني فيها مناير ومتنزهات وأقام فيها جماعة من أهل بيته فعمروا تلك النواحي وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عمارة كلها وأقامت كذلك مدة كثيرة وخالطهم البربر فنكح بعضهم من بعض ثم انهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض فكانت بينهم حروب فخرب ذلك البلد وباد أهله الابقية منازل تسمى الواحات * وقال المسعودي وأما بلاد الواحات فهى بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والغرب وأرض الاحابش من النوبة وغيرهم وبها أرض شبية وزاجية وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم وصاحب الواحات في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة عبد الملك بن مروان وهو رجل من لواتة الا أنه مرواني المذهب ويركب في آلاف من الناس خيلا ونجبا وبينه وبين الاحابش نحو من ستة أيام وكذلك بينه وبين سائر ماذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة وفي أرضه خواص وعجائب وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ولا يفتقر اليه ويحمل من أرضه التمر والزبيب والعناب * وحدثني وكيل أبي الشيخ المعز حسام الدين عمرو بن محمد بن زنكي الشهرزورى أنه سمع ببلاد الواحات أن فيها شجرة نارنج يقطف منها في سنة واحدة أربعة عشر ألف حبة نارنج صفراء سوى ما يتناثر وسوى ما هو أخضر فلم أصدق ذلك لغرابته وقمت حتي شاهدت الشجرة المذكورة

فاذا هى كأعظم ما يكون من شجر الجميز بمصر وأكبر وسألت مستوفي البلد عنها فأحضر الىَّ جرائد حسباناته وتصفحها حتى أوقفنى على أن منها في سنة كذا قطف من النارنجة الفلانية أربعة عشر ألف حبة نارنج مستوية صفراء سوى ما بقي عليها من الاخضر وسوى ما تناثر منها وهو صغير * وبالواحات الشب الابيض بواد تجاه مدينة ادفو كان في زمن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر وفي زمن ابنه الصالح نجم الدين أيوب على مقطعى الواحات حمل ألف قنطار شب أبيض في كل سنة الى القاهرة ويطلق لهم في نظير ذلك جوالى الواحات ثم أهمل هذا فبطل * وفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة سار ملك النوبة في جيش عظيم الى الواحات فأوقع بأهلها وقتل منها وأسر كثيرا

(ذكر مدينة قوص)

اعلم أن قوص أعظم مدائن الصعيد وهى على النيل بنيت بعد قفط في أيام ملك من ملوك القبط الاول يقال له سدان بن عديم بن البودسير بن قفطريم قيل سميت باسم قوص ابن قفط بن أخميم بن سيفاف بن أشمن بن مصر قال ابن وصيف شاه سدان بن عديم هو الذى بنى الاهرام الدهشورية من الحجارة التى قطعت في زمن أبيه وعمل مصاحف النيرنجات وهيكل أرمنت وعمل في المدائن الداخلة من أنصنا هيكلا وأقام فيه في أتريب وهيكلا في شرقى الاسكندرية وبنى في الجانب الشرقي مدائن وفي أيامه بنيت قوص العالية وأسكن فيها قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعات وكانت الحبش والسودان قد عاثوا في بلده فأخرج لهم ابنه منقاوش في جيش عظيم فقتل منهم وسبى واستعبد الذين سباهم وصار ذلك سنة لهم واقتطع معدن الذهب من أرضهم وأقام ذلك السبي يعملون فيه ويحملون الذهب اليه وهو أول من أحب الصيد واتخذ الجوارح وولد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب الاهلية وعمل من العجائب والطلسمات لكل فن ما لا يحصى كثرة * وقال الادفوى في تاريخ الصعيد وقوص بجانب قفط حكي بعض المؤرخين انها شرعت فى العمارة وشرعت قفط في الخراب من سنة أربعمائة قيل انه حضر مرة قاضي قوص فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة الى لقائه *وفي شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة أحضر الى الملك الظاهر بيبرس فلوس وجدت مدفونة بقوص فأخذ منها فلس فاذا على أحد وجهيه صورة ملك واقف وفى يده اليمنى ميزان وفى اليسري سيف وعلى الوجه الآخر رأس فيه اذن كبيرة وعين مفتوحة وبدائر الفلس كتابة فقرأها راهب يونانى فكان تاريخه الى وقت قراءته ألفين وثلثمائة سنة وفيه أنا غلياث الملك ميزان العدل والكرم فى يمينى لمن أطاع والسيف في يسارى لمن عصي وفي الوجه الآخر أنا غلياث الملك أذنى مفتوحة لسماع المظلوم وعيني مفتوحة أنظر بها مصالح ملكى وقوص كثيرة العقارب والشام أبرص وبها صنف من

العقارب القتالات حتى انه كان يقال بها أ كلة العقرب لانه كان لا يرجى لمن اسعته حياة واجتمع بها مرة في يوم صائف على حائط الجامع سبعون سام أبرص صفا واحدا وكان الواحد من أهلها اذا مشى في الصيف ليلا خارج داره يأخذ بأحدى يديه مسرجة تضئ له وبالاخرى مشك من حديد يشك به العقارب ثم انها تلاشت بعد سنة ثمانمائة فلما كانت الحوادث والمحن مات بها سبعة عشر ألف انسان في سنة ست وثمانمائة وكانت من العمارة بحيث انه تعطل منها في شراقى البلاد سنة ست وسبعين وسبعمائة مائة وخمسون مغلقا والمغلق عندهم بستان من عشرين فدانا فصاعدا وله ساقية بأربعة وجوه وذلك سوى ما تعطل مما هو دون ذلك وهو كثير جداً

(ذكر مدينة أسنا)

قال الادفوي وذكر أن أسنا في سنة حصل منها أربعون ألف أردب تمر واثنا عشر ألف أردب زبيب واسنا تشتمل على ما يقارب ثلاثة عشر ألف منزل وقيل انه كان بها في وقت سبعون شاعرا

(ذكر مدينة ادفو)

ومدينة ادفو يقال بالدال المهملة ويقال أيضا بالتاء المثناة من فوق قال الادفوى أخبرني الخطيب العدل أبو بكر خطيب ادفو أن جمارة طرحت ثلاثة شماريخ في كل شمروخ تمرة واحدة وانه قلع الجمارة بأصلها ووزنها فجاءت خمسة وعشرين درهما كلها بجريدها وخشبها وذلك بأدفو ولما كان بعد سنة سبعمائة حفر صناع الطوب فظهرت صورة شخص من حجر شكل امرأة متربعة على كرسي وعليها مثال شبكة وفي ظهرها لوح مكتوب بالقلم اليوناني رأيتها على هذه الحالة في مدينة ادفو

(اهناس)

هي كورة من كور الصعيد يقال ان عيسى بن مريم عليه السلام ولد بها وان نخلة مريم عليها السلام التي ذكرت في قوله تعالى وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيالم تزل بها الى آخر أيام بنى أمية والذى عليه الجماهرة أن عيسى عليه السلام انما ولد بقرية بيت لحم من مدينة بيت المقدس وباهناس شجر البنج

ذكر مدينة البهنسا

هذه المدينة في جهة الغرب من النيل بها تعمل الستور البهنسية وينسج المطرز والمقاطع السلطانية والمضارب الكبار والثياب المحبرة وكان يعمل بها من الستور مايبلغ طول الستر الواحد ثلاثين ذراعا وقيمة الزوج مائتا مثقال ذهب واذا صنع بها شئ من الستور والاكسية والثياب من الصوف أو القطن فلابد أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوبا على ذلك مضوا

جيلا بعد جيل * وقبط مصر مجمعون على أن المسيح وأمه مريم كانا بالبهنسا ثم انتقلا عنها الى القدس * وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى عن المسيح وأمه وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين الربوة البهنسا وهذه المدينة بناها ملك من القبط يقال له مناوش بن منقاوش * قال ابن وصيف شاه واستخلف مناوش الملك فطلب الحكمة مثل أبيه واستخرج كتبها واكرم أهلها وبذل فيهم الجوائز وطلب الاغراب في عمل العجائب وكان كل من ملوكهم يجهد جهده في أن يعمل له غريبة من الاعمال لم تعمل لمن كان قبله وثبت فى كتبهم وزبر على الحجارة فى تواريخهم وهو أول من عبد البقر من أهل مصر وكان السبب فى ذلك أنه اعتل علة يئس منه فيها فرأى فى منامه صورة روحاني عظيم يقول له انه لايخرجك من علتك الا عبادتك البقر لان الطالع كان وقت حلولها بك صورة ثور بقرنين ففعل ذلك وأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة وعمل له مجلسا فى قصره وسقفه بقبة مذهبة فكان يبخره ويطيب موضعه ووكل به سائسا يقوم به ويكنس تحته ويعبده سرا من أهل مملكته فبرأ من علته وهو أول من عمل العجل في علته فكان يركب عليها البيوت من فوقها قباب الخشب وعمل ذلك من أحب من نسائه وخدمه الى المواضع والمنتزهات وكان البقر يجره فاذا مر بمكان نزهة أقام فيه واذا مر بمكان خراب أمر بعمارته فيقال انه نظر الى ثور من البقر الذى يجر عجلاته أبلق حسن الشية فأمر بترفيهه وسوقه بين يديه اعجابا به وجعل عليه جلامن ديباج فلما كان فى يوم وقد خلا فى موضع صار اليه وقد انفرد عن عبيده وخدمه والثور قائم اذ خاطبه الثور وقال له لو رفهني الملك عن السير معه وجعلنى فى هيكل وعبدني وأمر أهل مملكته بعبادتي كفيته جميع مايريد وعاونته على أمره وقويته فى مملكته وأزلت عنه جميع علله فارتاع لذلك وأمر بالثور فغسل وطيب وأدخل فى هيكل وأمر بعبادته فأقام ذلك الثور يعبد مدة وصار فيه آية وهو أنه لايبول ولا يروث ولا يأكل الا اطراف ورق القصب الاخضر فى كل شهر مرة فافتتن الناس به وصار ذلك أصلا لعبادة البقر وبنى مواضع كنز فيها كنوزا وأقام عليها أعلاما وبنى في صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس وأقام فيها منارا ودفن حولها كنوزا ويقال ان هذه المدينة قائمة وان قوما جازوا بها من نواحى الغرب وقد ضلوا الطريق فسمعوا بها عزيف الجن ورأوا ضوأ يتراأى بها وفي بعض كتبهم أن ذلك الثور بعد مدة من عبادتهم له أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف ويؤخذ من رأسه شعرات ومن ذنبه ومن نحاتة قرونه وأظلافه ويجعل في التمثال المذكور وعرفهم أنه يلحق بعالمه وأمرهم أن يجعلوا جسده في جرن من حجر أحمر ويدفن في الهيكل وينصب تمثاله عليه وزحل في شرفه والشمس تنظر اليه من تثليث القمر زائد النور وينقش على التمثال علامات الكواكب السبعة ففعلوا ذلك وكللوه بجميع الاصناف من الجواهر وجعلوا عينيه جزعتين

وغرسوا في الهيكل عليه شجرة بعد مادفنوه في الجرن الاحمر وبنوا منارا طوله ثمانون ذراعا على رأسه قبة تتلون كل يوم لونا حتى تمضى سبعة أيام ثم تعود الى اللون الاول وكسوا الهيكل ألوان الثياب وشقوا نهرا من النيل الى الهيكل وجعل حوله طلسمات رؤسها رؤس القرود على أبدان الناس كل واحد منها لدفع مضرة وجلب منفعة وأقام عند الهيكل أربعة اصنام على أربعة أبواب ودفن تحت كل صنم صنفا من الكنوز وكتب عليها قربانها وبخورها واسكنها الشجرة فكانت تعرف بمدينة الشجرة ومنها كانت اصناف الشجر تخرج وهو أول من عمل النيروز بمصر وفي زمانه بنيت البهنسا وأقام بها اسطوانات وجعل فيما فوقها مجلسا من زجاج أصفر عليه قبة مذهبة اذا طلعت الشمس القت شعاعها على المدينة ويقال انه ملكهم ثمانمائة وثلاثين سنة ودفن في أحد الاهرام الصغار القبلية وقيل في غربى الاشمونين ودفن معه من المال والجوهر والعجائب شيء كثير وأصناف الكواكب (٣) السبعة التي يرى الدفين والحية وألف سرج ذهبا وفضة وعشرة آلاف جام وغضار من ذهب وفضة وزجاج وألف عقاقير لفنون الاعمال وزبروا عليه اسمه ومدة ملكه ووقت موته * وفي سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ظهر بالاشمونين في واد بين جبلين فساقي مربعة مملوءة ماء عذبا صافيا فمشى شخص على حافتها طول يوم وليلة فلم يبلغ آخرها ويقال انها من عمل سوريد باني الاهرام لتكون عدة لما كانوا قد توقعوه من حدوث طوفان ناري فردم هذا الوادى بعد ذلك خوفا من تلاف الناس * يقول الشيخ الامام محمد بن أحمد الغرياني حدثنى على بن حسن بن خالد الشعرى ثلاث مرات لم يختلف قوله على فيها قال حدثنى رجل من فزارة الساكنين بكورة البهنسا قال خرجت أنا ورجل رفيق لي نرتاد البلاد ونطلب الرزق في الارض وذلك بعد سنة عشر وثمانمائة فقطعنا الجبل الغربى من ناحية البهنسا وسرنا متوكلين على الله تعالى فأقمنا أياما ونحن نمشي مابين الغرب والجنوب فوقعنا فى واد كثير الشجر والنبات والماء والكلاليس فيه أنيس وهو واد واسع فى الطول والعرض نحو يوم في الطول ويوم فى العرض كله أعين وبساتين نخل وزيتون كثير الابل والمعز والذئب والضبع به كثير والابل به متوحشة وكذلك المعز قد صارت به وحشية بعد أن كانت آنسة به وليس بالوادى لارائح ولا غادمن الناس قال فأخبرنى أنهما أقاما بالوادى نحوا من شهرين أو ثلاثة وانهما رأيا فى وسط الوادي مدينة حصينة منيعة عالية السور شامخة القصور فاذا تقربا من سورها سمعا ضجيجا عظيما وأصواتا مهولة مخوفة ورأيا دخانا يرتفع الى جو السماء حتى يغطي سور المدينة وجميع مافيها وان تلك الابل الوحشيـة عدت على رواحلهما الانسيـة فآذتها وقتلتها فتحيل عند ذلك الرجلان الفزاريان بحيل وفتلا حبالا وأشراكا شباكا من ليف النخل وقيـدا تلك الابل الوحشية وفتلا خوصا وضفرا قفافا من الخوص لزادهما وملآها تمرا وزلالا من تلك الابل الوحشية

مكان رواحلهما عوضا عنها وركباها متوجهين نحو الشرق وحملا معهما من الجريد أعنى جريد
النخل مايعرفان به الطريق التى بينهما وبينها ويجعلان ذلك أمارات لمرورهما اليها فكانا كلما مرا
على شرف جعلا عليه جريدتين علما حتى وصلا الى الجبل الغربى من مصر فنزلا الى البهنسا
فعرفا قومهما وتحملا بأهاليهما فلما علوا سطح الجبل الغربى وجدا كل مافرقاه من جريد
النخل على رؤس الآكام مجتمعا فى مكان واحد فى أعلى الجبل فرجعا عند ذلك لاهاليهما
ومن معهم الى أرض البهنسا وهذا ماحدثنى به والله أعلم

ذكر مدينة الاشمونين

كانت من أعظم مدن الصعيد يقال انها من بناء أشمون بن مصر بن بيصر بن حام
ابن نوح عليه السلام * وقال ابن وصيف شاه كان أشمون أعدل ولد أبيه وأرغبهم في
صنعة تبقى ويبقى ذكرها وهو الذى بني المجالس المصفحة بالزجاج الملون وسط النيل وتقول
القبط انه بني سربا تحت الارض من الاشمونين الى أنصنا تحت النيل وقيل انه حفره وعمله
لبناته لانهن كن يمضين الي هيكل الشمس وكان هذا السرب مبلط الارض والحيطان والسقف
بالزجاج الثخين الملون وقيل ان أشمون كان أطول اخوته ملكا وقال أهل الاثر انه ملك
ثمانمائة سنة وان قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة من ملكه وأقاموا تسعين سنة واستولوا
على البلد فانتقلوا الى الدثينة من طريق الحجاز الى وادى القرى فعمروها واتخذوا بها
المنازل والمصانع وسلط الله عليهم الذر فأهلكهم وعاد ملك مصر الى أشموم ويقال انه عمل
على باب الاشمونين اوزة من نحاس فكان الغريب اذا جاء ليدخل المدينة صاحت الاوزة
وصفقت بجناحيها فيعلم به فان أحبوا منعوه وان أحبوا تركوه وكثرت الحيات في وقته
فكانوا يصيدونها ويعملون من لحومها أدوية وترياقات ثم ساقوها بسحرهم الي وادى
الحيات في جبال لوبية ومراقية فسجنوها هناك * وقال في كتاب هروشيش ان أشمون
ابن قبط أول ملوك المصريين وانه كان في زمان شاروح بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالخ
ابن أرفخشد بن سام بن نوح وان سني الدنيا صارت الى زمان شاروح ألفين وتسعمائة
وخمس سنين يكون ذلك بعد الطوفان بستمائة وثلاث وستين سنة وبها كانت فرهة الخيل
والبغال والحمير وكان يعمل بهافرش القرمز الذى يشبه الارمنى وكان ينزل بأرض الاشمونين
عدة بطون من بني جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه وكانوا بادية أصحاب شوكة وكان
معهم بنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان حلفاء لهم ومعهم بطن آخر يقال لهم بنو عسكر
يقال ان أباهم كان مولى لعبد الملك بن مروان ويزعمون أنهم من بني أمية صلبية وكان
معهم أيضا حلفاء لهم بنو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ينزلون أرض دلجة عند أشمون

ذكر مدينة اخميم

ضبطها البكري بكسر الهمزة واسكان الخاء ثم ميم وياء وميم على بناء افعيل وهي في الجانب الشرقي من النيل والذى بناها مناقيوش أحد ملوك القبط الاول * قال ابن وصيف شاه كان جلدا محتكما فاستأنف العمارة وبني القرى ونصب الاعلام وجمع الحكم ومصاحف الملوك والحكماء وعمل العجائب وبنى لنفسه مدينة انفرد بها وعمل عليها حصنا ونصب عليه أربعة أعلام فى كل ركن من أركانه علم وبين تلك الاعلام ثمانون صنما من نحاس واخلاط فى أيديها السلاح وزبر على صدرها آياتها وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر وأبصرهم بأخذ التماسيح والسباع وكان يعلم الغلمان السحر فاذا حذقوا علم غيرهم فأمر الملك أن يبني له مدينة ويحول اليها وهى اخميم فملكهم مناقيوش نيفا وأربعين سنة ومات فدفن فى الهرم المحاذى لاطفيح ومعه شئ كثير من المال والجوهر والآنية والتماثيل وزبر عليه اسمه والوقت الذى هلك فيه قال وذكر أهل اخميم أن رجلا أتي من الشرق وكان يلزم البربا ويأتى اليه كل يوم بجور وخلوق فيبخر ويطيب صورة فى عضادة الباب فيجد تحتها ديناراً فيأخذه وينصرف ففعل ذلك مدة حتى وشى به غلام له الى عامل البلد فقبض عليه فبذل مالا وخرج عن البلد * وكانت بربا اخميم من أعجب البرابى وأعظمها قد بنيت لخزن برهم فانهم قضوا على أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرائن لكنهم اختلفوا فيه فقال بعضهم تكون نار فتحرق ما على جميع وجه الارض وقال آخرون بل يكون ماء فعملوا هذه البرابي قبل الطوفان وكان فى هذه البربا صور الملوك الذين يملكون مصر وكانت مبنية بحجر المرمر وطول كل حجر منها خمسة أذرع في سمك ذراعين وهى سبعة دهاليز سقوفها حجارة طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع مدهونة باللازورد وغيره من الاصباغ التى يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهان منها الآن لجدتها وكان كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة السيارة وجدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيآت والمقادير فيها رموز علوم القبط من الكيمياء والسيمياء والطلسمات والطب والنجوم والهندسة وغير ذلك أودعوها تلك الصور * وذكر ابن جبير فى رحلته أن طول هذه البربا مائتان وعشرون ذراعا وسعتها مائة وسبعون ذراعا وأنها قائمة على أربعين سارية سوى الحيطان دور كل سارية خمسون شبرا وبين كل ساريتين ثلاثون شبرا ورؤسها في نهاية العظم كلها منقشة من أسفلها الى أعلاها ومن رأس كل سارية الى الاخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت فيها ما ذرعه ستة وخمسون شبرا طولا فى عرض عشرة أشبار وارتفاع ثمانية أشبار وسطحها من ألواح الحجارة كأنها فرش واحد فيه التصاوير البديعة والاصبغة الغريبة كهيئة الطيور والآدميين وغير ذلك فى داخلها وخارجها وعرض حائط البربا ثمانية عشر شبرا من حجارة مرصوصة كذا قاسها ابن جبير فى سنة ثمان

وسبعين وخمسمائة ويقال ان ذا النون عرف منها علم الكيمياء وما زالت هذه البربا قائمة الي سنة ثمانين وسبعمائة نخربها رجل من أهل اخميم يعرف بالخطيب كمال الدين بن بكر الخطيب علم الدين علي ونال منها مالا فلم تطل حياته ومات ومن حينئذ تلاشى أمر اخميم الى أن خربت وقد ذكر جماعة أن بربا اخميم كانت في هيئة غلام أمرد عريان وأن قوما دخلوها مرة فتبعهم وأخذ يضربهم ضربا وجيعا حتى خرجوا هاربين وحكي مثل ذلك عمن دخل الاهرام أيضا * وقد حكي أن رجلا ألصق على صورة من بربا اخميم شمعة فكان اذا تركها في موضع التجأت العقارب اليها واذا وضع الشمعة في تابوت اجتمعت العقارب حوله ويقال انه كان في بربا اخميم شيطان قائم على رجل واحدة وله يد واحدة وقد رفعها الي الهواء وفي جبهته وحواليه كتابة وله احليل ظاهر ملتصق بالحائط وكان يذكر أن من احتال حتى ينقب على ذلك الاحليل حتى يخرجه من غير أن ينكسر ويعلقه على وسطه فانه لايزال منعظا الي أن ينزعه ويجامع ماأحب ولا يفتر مادام معلقا عليه وأن بعض من ولي اخميم اقتلعه فوجد منه شيئا عجيبا من ذلك وكانت الانطاع تجاب من اخميم وبها تعمل ويقال انه كان بها اثنا عشر ألف عريف على السحرة وكان بها شجر البنج ويقال ان الذي بني بربا اخميم اسمه دومريا وانه جعل هذه البربا مثلا للامم الآتية بعده وكتب فيها تواريخ الامم والاجيال ومفاخرهم التي يفتخرون بها وصور فيها الانبياء والحكماء وكتب فيها من يأتي من الملوك الى آخر الدهر وكان بناؤه اياها والنسر برأس الحمل والنسر يقيم عندهم في كل برج ثلاثة آلاف سنة قالت والنسر في زماننا بآخر باب برج الجدى فيكون على ذلك لهذه البربا منذ بنيت نحو الثلاثين الف سنة * وذكر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم القيسي" في كتاب تحفة الالباب أن هذه البربا مربعة من حجارة منحوتة ولها أربعة أبواب يفضى كل باب الى بيت له أربعة أبواب كلها مظلمة ويصعد منها الي بيوت كالغرف على قدرها

﴿ ذكر مدينة العقاب ﴾

قال المسعودى مدينة العقاب غربي اهرام أبو صير بالجيزة على مسيرة خمسة أيام بلياليها للراكب المجد وقد عوّر طريقها وعمى المسلك اليها والسمت الذى يؤدى نحوها وفيها عجائب البنيان والجواهر والاموال * وقال ابن وصيف شاه وكان الوليد بن دومع العمليقى" قد خرج في جيش كثيف يتنقل في البلدان ويقهر ملوكها فلما صار بالشام وجه غلاماً له يقال له عون فسار الى مصر وفتحها ثم سار فتاقاه عون ودخل مصر فاستباح أهلها ثم سنح له أن يقف على مصب النيل فخرج في جيش كثيف واستخلف عوناً على مصر وأقام في غيبته أربعين سنة وان عوناً بعد سبع سنين من مسيره تجبر وادعى أنه الملك وأنكر أن يكون غلام الوليد وانما هو أخوه وغلب بالسحر وسبى الحرائر فمال الناس اليه ولم يدع

امرأة من بنات ملوك مصر الا نكحها ولا مالا الا أخذه وقتل صاحبه وهو مع ذلك يكرم الـكهنة ويعظم الهياكل فاتفق انه رأى الوليد فى منامه وهو يقول له من أمرك أن تتسمى باسم الملك وقد علمت أنه من فعل ذلك استحق القتل ونكحت بنات الملوك وأخذت الاموال بغير واجب ثم أمر بقدر ملئت زيتاً وأحميت حتى غلت ونزع ثيابه ليلقيه فيها فأتاه عقاب فاختطفه وحلق به فى الجو وجعله في هوة على رأس جبل فسقط الى واد فيه حماة منتنة فانتبه مرعوباً وقص ذلك على كهنته فقالوا نحن نخلصك منه بأن تعمل عقاباً وتعبده فانه الذى خلصك في نومك فقال أشهد لقد قال لي اعرف لي هذا المقام ولا تنسه فعمل عقاباً من ذهب وجعل عينيه جوهرتين ووشحه بالجوهر وعمل له هيكلا لطيفاً وأرخي عليه ستور الحرير وأقبلوا على تبخيره وقربانه حتى نطق لهم فأقبل عون على عبادته ودعا الناس الى ذلك فأجابوه ثم أمر فجمع له كل صانع بمصر وأخرج أصحابه الى صحراء الغرب لطلب أرض سهلة حسنة الاستواء يدخل اليها من مواضع صعبة وجبال وعرة بحيث يقرب من مغيض الماء التي هي اليوم الفيوم وكانت مغيضاً لماء النيل حتى أصلحها يوسف عليه السلام ليجرى الماء منها الى المدينة فخرجوا وأقاموا شهرا يطوفون حتى وجدوا بغيته فلم يبق بمصر فاعل ولا مهندس ولا أحد له بصر بالبناء وقطع الصخور ونحتها الا وجه اليها وأنفذ الف رجل من الجيش وسبعمائة ساحر لمعاونتهم وأنفذ معهم الآلات والازواد على العجل وطريق هذه العجل الى الفيوم في صحراء الغرب واضحة من خلف الاهرام فلما تكامل له ما أراد من نحت الحجارة خطوا المدينة فرسخين فى مثلهما وحفروا في الوسط بئرا جعلوا فيها تمثال خنزير من نحاس بأخلاط ونصبوه على قاعدة نحاس ووجهه الى الشرق وذلك بطالع بيت زحل واستقامته وسلامته وكان في شرفه وذبحوا خنزيرا والطخوا التمثال بدمه في وجهه وبخروه بشئ من شعره وحشوا جوفه بدمه وشعره وعظامه ولحمه ومرارته وجعلوا في اذنيه من مرارته وحرقوا بقية الخنزير وجعلوا رماده فى قلة من نحاس بين يدي التمثال ونقشوه بآيات زحل ثم شقوا فى البئر من الجهات الاربع فى كل جهة سربا الى حيطان المدينة وعملوا على أفواهها منافس تجذب الهواء وسدوا البئر وعقدوا فيها قبة على عمد مرتفعة على حيطان المدينة وجعلوا فيها شوارع يتصل كل شارع بباب من أبواب المدينة وفصلوها بالطرقات والمنازل وجعلوا حول القبة تماثيل فرسان من نحاس بأيديها حراب ووجوهها تجاه الابواب وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود فوقه حجر أحمر عليه حجر أصفر من فوقه حجر أخضر وفوق الجميع حجر أبيض يشف وكلها مبنية بالرصاص المصبوب بين الحجارة وفى قلوبها اعمدة من حديد على بناء الاهرام وجعلوا طول حصنها ستين ذراعا في عرض عشرين وعلى رأس كل باب حصن بأعلاه عقاب كبير من صفر وأخلاط قد نشر

جناحيه وهو أجوف وعلى كل ركن فارس بيده حربة ووجهه الى خارج المدينة وساق الماء الى الباب الشرقي يحدر فى صببه الى الباب الغربي ويخرج الى صهاريج وكذلك من الباب الجنوبى الى الشمالي وقرب للعقاب عقبانا ذكورا واجتاب الرياح الى أفواه التماثيل فصار يسمع لها اصوات هائلة ووكل بها ارواحا تمنع الداخل اليها الا أن يكون من أهلها ونصب العقاب الذى يتعبد له تحت القبة فى وسط المدينة على قاعدة بأربعة اركان على كل ركن وجه شيطان وجعلها على عمود يديرها فكان العقاب يدور الى الجهات فيقيم فى كل جهة ربع السنة فلما تم ذلك نقل الى المدينة الاموال والجواهر التي بمصر من عهد الملوك والتماثيل والحكم وتراب الفضة والعقاقير والسلاح وحول اليها كبار السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار وقسم المساكن بينهم فلا يختلط أهل صناعة بسواهم وعمل بها ربضا لاصحاب المهن والزراعة وعقد على تلك الانهار قناطر يمشى عليها الداخل الى المدينة وجعل الماء يدور حول الربض ونصب عليها أعلاما وحرسا ثم غرس وراء ذلك مما يتصل بالبرية النخل والكرم وجميع اصناف الشجر على أقسام مقسومة ومن وراء ذلك كله مزارع الغلات من كل جهة كل ذلك خوفا من الوليد * قال وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام وكان يقيم فيها ويخرج اليها ثم يعود الى منف وكان لها أربعة أعياد فى السنة وهى الاوقات التي يحول العقاب فيها فلما تم لعون ذلك اطمأن قلبه الى أن وافى اليه كتاب الوليد من النوبة يأمره بحمل الازواد ونصب الاسواق فوجه اليه فى البر والبحر بما أراد وحول أهله ومن اصطفاه من بنات الملوك والكبراء الى المدينة فلما قرب الوليد خرج اليها وتحصن فيها واستخلف على منف فقدم الوليد وقد سمع مافعله عون فغضب وهم أن يبعث اليه جيشا فعرف بخبر المدينة ومنعتها وخبر السحرة فكتب اليه أن يقدم عليه ويحذره عاقبة التخلف فأجابه ماعلى الملك مني مؤنة ولا تعرض ولا عيب في بلده لانى عبده وأنا له ردء فى هذا المكان من كل عدو يأتيه من الغرب ولا أقدر على المسير اليه لخوفى منه فليقرنى الملك بحالي كأحد عماله وأوجه اليه مايلزمني من خراجه وهداياه وبعث اليه بأموال جليلة وجوهر نفيس فكف عنه وأقام الوليد بمصر حتى مات

ذكر مدينة الفيوم

اعلم أن موضع الفيوم كان مغيض ماء النيل فلما ولي السيد يوسف الصديق عليه السلام تدبير أمور مصر عمرها * قال ابن وصيف شاه ثم ملك الريان بن الوليد وهو فرعون يوسف والقبط تسميه نهراوش فجلس على سرير الملك وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا متمكنا فوعد بالجميل وأسقط عن الناس خراج ثلاث سنين وفرق المال في الخاص والعام وملك على البلد رجلا من أهل بيته يقال له أطفين وهو الذي يسميه أهل الاثر العزيز فأمر أن ينصب

له في قصر الملك سرير من فضة يجلس عليه ويغدو فيه ويروح الى باب الملك ويخرج العمال والكتاب بين يديه فكفى نهراوش ماخاف ستره وقام بجميع أموره وخلاه للذته فانغمس نهراوش في لهوه ولم ينظر في عمل ولا ظهر للناس حينا والبلد عامر وهو لايسأل عن شئ وعمل له مجالس من زجاج ملون وحولها ماء فيه أسماك مفرطة وبلور ملون فكان اذا وقعت عليه الشمس ظهر له شعاع عجيب وعملت له عدة متنزهات على عدد أيام السنة فكان كل يوم في موضع منها وعمل له في كل موضع من الآنية والفرش ماليس لغيره فاتصل بملوك النواحي تشاغله بلذته وتدبير أطفين فسار ملك من العماليق يقال له أبو قابوس عاكر بن يحوم الى مصر ونزل على حدودها فجهز اليه العزيز جيشا عليه قائد يقال له بريانس فأقام يحاربه ثلاث سنين فظفر به العمليقي وقتله وهدم الاعلام والمصانع وقوى طمعه في البلد فاجتمع الناس الى قصر الملك واستغاثوا فخرج اليهم وعرض جيوشه وخرج في ستمائة ألف مقاتل سوي الاتباع فالتقوا من وراء الحوف وكان بينهما قتال شديد فانهزم العمليقي وتبعه نهراوش الى حد الشام وقتل خلقا من أصحابه وأفسد زروعهم وأشجارهم وحرق وصاب ونصب أعلاما على الاماكن التي وصلها وزبر عليها اني لمن تجاوز هذا المكان بالمرصاد وقيل انه بلغ الموصل وضرب على أهل الشام خراجا وبني عند العريش مدينة لطينة وشحنها بالرجال ورجع الى مصر فحشد من جميع الاعمال جنودا واستعد لغزو ملك الغرب وخرج في سبعمائة ألف فمر بأرض البربر وأجلي كثيرا منهم وجهز قائدا في السفن من ناحية رقودة الى جزائر بني يافث فعاث فيها وخرج بن ناحية أرض البربر فقتل وصالح بعضهم على مال حملوه اليه ومضى الى أفريقية وقرطاجنة فصالحوه على مال ومر حتى بلغ مصب البحر الاخضر الى بحر الروم وهو موضع أصنام النحاس فأقام هناك صنما زبر عليه اسمه وتاريخ خروجه وضرب على أهل تلك النواحي الخراج وعدى الى الارض الكبيرة وسار الى الاندلس فحاربه ملكها اياما ثم صالحه على مال وأن يمنع من يغزو مصر من ناحيته وانصرف على غير البحر مشرقا في بلاد البربر فلم يمر بأمة الا ودخلت في طاعته ومر في الجنوب فقتل خلقا وبعث قائدا الى مدينة على البحر الاسود فخرج اليه ملكها وذكر له حال الريان ومصالحة الملوك له فقال مابلغنا أحد قط وسأله القائد عن البحر هل ركبه أحد قط فقال مايقدر أحد على ركوبه وربما أظله غمام فلا يرى اياما وقدم الريان فحملوا الهدايا اليه وفاكهة أكثرها الموز وحجارة سوداء اذا جعلت في الماء صارت بيضاء ثم سار الملك على أمم السودان الى مملكة الدمدم الذين يأكلون الناس فخرجوا اليه عراة فهزمهم وظفر بهم ومر على البحر المظلم فغشيهم منه غمام فترجع شمالا حتى انتهى الى تمثال من حجر أحمر يومئ بيده ارجعوا وعلى صدره مزبور ماورائي أحد فسار الي مدينة النحاس فلم يصل اليها ومضى الى الوادى

المظلم فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة ولا يرون أحداً لشدة ظلمته وسار الى وادى الرمل فرأى على معبره أصناما عليها اسماء الملوك فأقام عليه صنما زبر عليه اسمه فلما أثبت الرمل جاز عليه الى الخراب المتصل بالبحر الاسود فرأى سباعا يزئر بعضها على بعض فحكم أنه لا مذهب له من ورائها فرجع وعدى وادى الرمل ومر بأرض العقارب فهلك بعض اصحابه ودفعوا عن أنفسهم أذاها بالرقى وجازها الى مدينة الحكماء وتعرف بمدينة السكند ففروا منه الى جبل فأقام عليه اياما حتى كاد يهلك جيشه عطشا فنزل اليه من الجبل رجل من أفاضل الحكماء وقد لبس شعره جسده فقال للملك أين تريد أيها المغرور الممدود له في الاجل المرزوق فوق الكفاية أتعبت نفسك وجيشك ألا اجترأت بما تملكه واتكلت على خالقك وربحت الراحة وتركت العناء والغرر بهذا الخلق فعجب من قوله وسأله عن الماء فدله عليه وسأله عن موضعهم فقال موضع لا يصل اليه أحد ولا بلغه قبلك أحد فقال ماعيشك قال من أصول النبات نقنع به ويكفينا اليسير قال فمن أين تشربون قال من الامطار والثلوج قال فلم هربتم منا قال زهادة في مخالطتكم والا فليس لنا ما نخافكم عليه قال فكيف بكم اذا حميت الشمس قال نأوى الى غيران تحت هذا الجبل قال فهل لكم في مال اخلفه لكم قال انما يريد المال أهل الترف ونحن لا نستعمل منه شيئاً استغنينا عنه بما قد اكتفينا به وعندنا منه مالو رأيته لاحتقرت ماعندك قال فأرنيه فانطلق بنفر من أصحابه الى أرض في سفح جبالهم فيها قضبان ذهب نابتة وأراهم واديالهم في حافتيه حجارة زبرجد وفيروز فأمر نهراوش أصحابه أن يحملوا من كبار تلك الحجارة ففعلوا ورأى الحكيم جماعة الملك يصلون الى صنم يحملونه معهم فسأل الملك أن لا يقيم بأرضهم وخوفه من عبادة الاصنام فودعه وسار فلم يمر بأمة الا أثر فيها حتى بلغ النوبة فصالحهم على مال وأقام على دنقلة صنما وزبر عليه اسمه ومسيره وسار يريد مدينة منف فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقونه بالفرح والسرور والرياحين والطيب الى أن بلغ منف فخرج أهلها اليه مع العزيز بأصناف الرياحين والطيب وكان العزيز قد بني له مجلسا من زجاج ملون وفرشه بأحسن فرش وغرس حوله الاشجار والرياحين وجعل فيه بحرة من زجاج سماوى وفي أرضه شبه السمك من زجاج أبيض فنزل الملك فيه وأقام الناس يأكلون ويشربون اياما كثيرة وتفقد جيشه ففقد منهم سبعين ألفا ووجد فيهم ممن أسره نيفا وخمسين ألفا فكانت مدة غيبته عن مصر في مسيره هذا احدى عشرة سنة فلما بلغ الملوك قدومه هابوه واشتد بأسه وتجبر وبني في الجانب الشرقي قصورا من رخام ونصب عليها أعلاما وأمر بالعمارة واصلاح الجسور واستنباط الاراضى حتى زاد الخراج على مائة ألف ألف دينار ودخل الى البلد في أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه اخوته وباعوه وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف اليوم فوقف الغلام ونودى عليه وهو *

يوسف الصديق ابن يعقوب بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم وسلامه فاشتراه اطفين ليهديه الى الملك فلما أتى به قصره رأته امرأته زليخا وهى ابنة عمه فقالت اتركه لنا نربيه لينفعنا وكان من أمرها ماقصه الله تعالى فى القرآن فكانت تكتم حبه حتى غلبت فخلت به وتزينت له وعرفته أنها تحبه وانه ان واتاها على ماتريده منه حبته بمال عظيم فامتنع من ذلك ورأت أن تغلبه فما زالت تعاركه وهو ممتنع منها الى أن وافي زوجها وراه وهو هارب منها وكان العزيز عنينا لا ياتي النساء فجعل يوسف يعتذر اليه وقالت انى كنت نائمة فأتانى يراودنى عن نفسي وتبين من شاهد أهلها أن الامر من قبل امرأته فقال ليوسف أعرض عن هذا أى عن اعتذارك وقال لها استغفرى لذنبك وقد كان خبر أطفين والغلام بلغ الملك وكان نهراوش عاود العكوف على اللهو والاحتجاب عن الناس واتصل خبر زليخا ويوسف بنساء الخاصة فعيرنها بذلك فدعت جماعة منهن وصنعت لهن طعاما وشرابا وعملت مجلسين مذهبين وفرشتهما بديباج أصفر مذهب وأرخت عليهما ستور الديباج وأمرت المواشط بتزيين يوسف واخراجه من المجلس الذى يحاذى المجلس الذى كانت مع النسوة فيه وكان المجلس محاذيا للشمس فأخذته المواشط ونظمن شعره بأصناف الجواهر وألبسنه ثوب ديباج أصفر قد نسج بدارات حمر مذهبة فيها اطيار صغار خضر مبطن ببطانة خضراء ومن تحته غلالة حمراء وعلى رأسه تاج قد نظم بالدر والجوهر وأخرجن من تحت التاج أطراف شعره على جبهته ورددن ذوائبه على صدره وجعلن جبهته مكشوفة والتاج محيط بها وفي اذنيه قرطى جوهر ومن خلف طوق القباء شعر مسبل بين كتفيه منظوم مشبك بالذهب والجوهر وفي عنقه طوق منظوم بذهب مشدد بجوهر أحمر ودر فاخر وفى وسطه منطقة ذهب فيها الوان جوهر ملون ولها معاليق منظومة وألبسنه خفين أبيضين منقوشين بأخضر على نقوش ذهب وجعلن للقباء الذى عليه وشاحين وافراور يحيط بأسفله وكميه من جوهر أخضر وعقربن صدغيه على خديه وكحلن عينيه ودفعن اليه مذبة شعرها أخضر فلما فرغ النساء من طعامهن وشربن أقداحا قدمت اليهن سكاكين قبضهن من جوهر ليقطعن بها الفاكهة فيقال انهن اخذن اترجا وهن يقطعنه اذ قالت لهن قد بلغني حديثكن في أمري مع عبدى فقلن لها الامر كما بلغك لانك أعلى قدرا من هذا ومثلك يرتفع عن أولاد الملوك لحسنك وشرفك فكيف ترضين بغلامك فقالت لم يبلغكن الصدق ولا هو عندى بهذا وأومأت الى المواشط أن يخرجن يوسف فرفعن الستور عن المجلس الذى يحاذى مجلسها وبرز منه يوسف محاذيا بوجهه الشمس فأشرق المجلس وما فيه من وجه يوسف وأقبل بالمذبة وهن يرمقنه فوقف على رأس زليخا يذب عنها فاشتغل النساء برؤيته وجعلن يقطعن أيديهن موضع الفاكهة التي كانت معهن ولا يعين الكلام ذهولا منهن بما رأين من حسن يوسف فقالت

لهن زليخا مالكن قد اشتغلتن عن خطابي بالنظر الى عبدي فقلن معاذ الله ماهذا عبدك
ان هذا الاملاك كريم ولم يبق منهن امرأة الا حاضت وأنزلت شهوة من محبته فقالت زليخا
عند ذلك فهذا الذي لمتنني فيه فقلن ماينبغي لاحد أن يلومك في هذا ومن لامك فقد ظلمك
فدونكه قالت قد فعلت فأبي على فخاطبنه لي فكانت كل واحدة منهن تخاطبه وتدعوه سرا
الى نفسها وتبتذل له وهو يمتنع عليها فاذا يئست منه أن يجيبها لنفسها خاطبته من جهة زليخا
وقالت مولاتك تحبك وأنت تكرهها ماينبغي أن تخالفها فقال مالي بذلك حاجة فلما رأين ذلك
اجمعن على أخذه غصبا فقالت زليخا لايجوز هذا لكنه ان لم يفعل لامنعنه اللذات ولأسجننه
وأنتزع جميع ماأعطيته فقال يوسف رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه فأقسمت
بالهها وكان صنما من زبرجد أخضر باسم عطارد انه ان لم يفعل لتعجلن له ذلك ثم أمرت بنزع
ثيابه وألبسته الصوف وسألت العزيز حبسه ليزول ماقذفها به فأمر به فحبس ورأى الملك
في منامه كان آتيا أتاه فقال له ان فلانا وفلانا قد عزما على قتلك يريد صاحبي طعامه وشرابه
فلما أصبح قررهما فاعترفا له وقيل اعترف أحدهما وأنكر الآخر فأمر بحبسهما وكان اسم
صاحب الطعام راسان واسم صاحب الشراب مرطس وكان يوسف عليه السلام وهو في
السجن رؤفا بمن فيه ويعدهم الفرج فأخبره صاحبا طعام الملك وشرابه برؤياهما التي قصها
الله في كتابه فوقع كما قصه يوسف ورأى الملك البقرات والسنابل فعرفه الساقي خبر يوسف
فمضى اليه وقصها عليه فلما عاد الى الملك قال جيؤني به فقال يوسف ما أخرج أو يكشف
أمر النسوة اللاتي من أجلهن حبست فكشف عن ذلك فاعترفت زليخا بالقصة ووجه اليه
فأخرج وغسل من درن السجن وألبس مايليق بالدخول على الملوك فلما رآه امتلأ قلبه من
حبه واكباره وسأله عن الرؤيا ففسرها كما قال الله تعالى فقال الملك ومن يقوم لي بذلك
قال أنا فخلع عليه خلع الملوك وألبسه تاجا وأمر أن يطاف به وركب الجيش معه وتردد الى
قصر الملك وجلس على سرير العزيز واستخلفه الملك على ملكه مكانه * ويقال ان العزيز
أطفين كان قدمات فزوجه امرأته وقال لها يوسف هذا أصلح مما أردت فقالت اعذرني ان
زوجي كان عنينا ولم ترك امرأة الاصبا قلبها اليك من حسنك وجاءت سنو خصب في مصر
فجمع يوسف الغلال وخزنها وأكثر منها فلما جاءت سنو الجدب بدأ النيل في النقصان وكان
ينقص كل سنة أكثر من التي قبلها فقحط البلد حتى بيع القمح بالمال والجوهر والدواب
والثياب والآنية والعقار وكاد أهل مصر يرحلون عنها لولا تدبير يوسف وقحط الشام أيضاً
وكان من مجيء اخوة يوسف ماقصه الله تعالى ووجه الى أبيه فحمل الى مصر وجميع أهله
وخرج في وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك وكان يعقوب مهابا فأعظمه الملك وسأله
عن سنه وصناعته وعبادته فقال سني عشرون ومائة سنة وأما صناعتي فلنا غنم ترعى ننتفع بها

وأعبد رب العالمين الذى خلقك وخلقنى وهو اله آبائي والهك واله كل شئ وكان في مجلس الملك كاهن جليل القدر فقال للملك انى أخاف أن يكون خراب مصر على يد ولد هـذا فقال له الملك فأنى لنا خبره فقال الكاهن ليعقوب أرنى الهك أيها الشيخ قال الهى أعظم من أن يرى قال فانا نرى آلهتنا قال ان آلهتكم من ذهب وفضة وحجارة وجوهر ونحاس وخشب مما يعمله بنو آدم وهم عبيد الهى لااله الا هو العزيز الحكيم قال الكاهل ان كل شئ لاتراه العيون ليس بشئ فغضب يعقوب وكذبه وقال ان الله شئ لا كالاشياء وهو خالق كل شئ لااله الا هو قال فصفه لنا قال انما يوصف المخلوق لكنه خالق واحد قديم مدبر أزلي يرى ولا يرى وقام يعقوب مغضبا فأجلسه الملك وأمر الكاهن فكف عنه فقال الكاهن انا نجد فى كتبنا أن خراب مصر يجرى على ايدى هؤلاء فقال الملك هذا يكون في ايامنا قال لاولا الى مدة كثيرة والصواب أن يقتله الملك ولا يبقى من ذريته أحدا فقال الملك ان كان الامر كما تقول فلا يمكننا أن ندفعه ولا نقدر على قتل هؤلاء وأنزل يعقوب ومن معه بوادى السدير الى أن مات فحمل الى قرية ابراهيم عليه السلام ودفن عنده ويقال أن نهراوش الملك آمن وكتم ايمانه خوفا من فساد أمره وأقام ملكا مائة وعشرين سنة وفي وقته عمل يوسف الفيوم فان أهل مصر كانوا وشوا به الى الملك وقالوا قد كبر ونقص نفعه فاختبره فقال له انى وهبت هذه الناحية لابنتي وكانت مغايض للماء قدبرها لها فعملها يوسف واحتال للمياه حتى أخرجها وقلع او حالها وساق المنهى وبنى اللاهون وجعل الماء فيها مقسوما موزونا وفرغ منها في شهور أربعة فعجبوا من حكمته * ويقال انه أول من هندس بمصر ومات نهراوش فخلف ابنه درمجوش وسمته أهل الاثر دارم بن الريان وهو الفرعون الرابع عندهم فخالف سنة أبيه وكان يوسف خليفته فقبل منه بعضا وخالفه في البعض فمات يوسف فى أيامه وله مائة وعشرون سنة فكفن وجعل في تابوت من رخام ودفن فى الجانب الغربى فأخصب ونقص الشرقى فحول اليه فأخصب ونقص الغربى فاتفقوا على أن يجعلوه فى الشرقى عاما وفى الغربي عاما ثم حدث لهم من الرأى أن يجعلوا له حلقا وثاقا ويشدوا التابوت فى وسط النيل فأخصب الجانبان كلاهما * وقال ابن عبد الحكم فملكهم الريان بن الوليد بن دومع وهو صاحب يوسف النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأى الملك رؤياه التى رأى وعبرها يوسف أرسل اليـه الملك فأخرجه من السجن قال ابن عباس رضي الله عنهما فأتاه الرسول فقال ألق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جددا وقم الى الملك فدعاله أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سـنة فلما أتاه رأى غلاما حدثا فقال أيعلم هذا رؤياي ولا تعلمها السحرة والكهنة وأقعده قدامه وقال له لاتخف قال فلما استنطقه وسأله عظم في عينيه وجعل اليه أمره فدفع اليه خاتمه وولاه ما خلف بابه وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب بالطبل

بمصر ان يوسف خليفة الملك * وعن عكرمة أن فرعون قال ليوسف قد سلطتك على مصر غير أني أريد أن أجعل كرسي أطول من كرسيك بأربع أصابع قال يوسف نعم وأجلسه على السرير ودخل الملك بيته مع نسائه وفوض أمر مصر كلها اليه فبسبب عبارة رؤيا الملك ملك يوسف مصر * وعن الليث بن سعد قال حدثني مشيخة لنا قالوا اشتد الجوع على أهل مصر فاشتروا الطعام بالذهب حتى لم يجدوا ذهبا فاشتروا بالفضة حتى لم يجدوا فضة فاشتروا بأغنامهم حتى لم يجدوا غنما فلم يزل يبيعهم الطعام حتى لم يبق لهم فضة ولا ذهب ولا شاة ولا بقرة في تلك السنين فأتوه في الثالثة فقالوا لم يبق لنا الا أنفسنا وأهلونا وأرضونا فاشترى يوسف أرضهم كلها لفرعون ثم أعطاهم يوسف طعاما يزرعونه على أن لفرعون الخمس ويقال في خبر بناء يوسف عليه السلام مدينة الفيوم أنه لما وزر لفرعون ثلاثين سنة عزله فقال لم عزلتني فقال لم أعزلك لريبة ولا أنسى بركتك ولكن آبائي عهدوا الى أن لا يتولى لنا وزير أكثر من ثلاثين سنة وأنا نخشى أن يتأصل الوزير حتى يدبر على الملك فقال له يوسف قد علمت نصحي لك حتى صيرت ديار مصر كلها ملكا لك فأقطعني أرضا تكون لقوتي وقوت أهلي وعشيرتي فقال له فرعون اختر حيث شئت فمشى يوسف في قفار الارض حتى رأى أرض الفيوم وفيها جبل حائل بين النيل وبينها فوزن ماء النيل حتى رأى أن قاعها يركبه النيل فخرق خرقا في ذلك الجبل وساق الماء فيه الى الفيوم فسقى الارض وعمل في جوانب الماء ثلثمائة وستين قرية على عدد أيام السنة وشحنها بالغلال والاقوات التي ازدرعها فكان اذا نقص النيل ووقع الجوع بأرض مصر باع كل يوم ماجمعه في قرية من قرى الفيوم حتى ملك مصر لنفسه كما جمعها للملك فعظم شأن يوسف وكثر ماله فرده الملك بعد مدة الى وزارته وتوفى وهو وزير فأوصى بخروج جثته الى الارض المقدسة فخرج بها هارون بن افرايم بن يوسف في مائة ألف من بنى اسرائيل فهزمته الجبابرة فيما بين مصر والشام وهلك أكثر من معه وعاد بمن بقى معه الى مصر فأقاموا بها حتى بعث الله موسى بن عمران عليه السلام الى فرعون رسولا فخرج ببنى اسرائيل من مصر ومعه جثة يوسف عليه السلام وفي ذلك الزمان استنبطت الفيوم وقيل كان سبب ذلك أن يوسف عليه السلام لما ملك مصر وعظمت منزلته من فرعون وجاوز سنه مائة سنة قال وزراء الملك له ان يوسف قل علمه وتغير عقله ونفدت حكمته فعنفهم فرعون ورد عليهم مقالتهم وأساء اللفظ لهم فكفوا ثم عاودوه بذلك القول بعد سنين فقال لهم هلموا ماشئتم من أى شئ أختبره به وكان بلد الفيوم يومئذ يدعى الجوبة وانما كانت لمصالة ماء الصعيد وفضوله فاجتمع رأيهم على أن تكون هى المحنة التي يمتحنون بها يوسف فقالوا لفرعون سل يوسف أن يصرف ماء الجوبة عنها ويخرجه منها فتزداد بلدا الى بلدك وخراجا الى خراجك فدعا يوسف فقال تعلم مكان

ابنتي فلانة مني وقد رأيت اذا بلغت أن أطلب لها بلدا واني لم أصب لها الا الجوبة وذلك أنه بلد بعيد قريب لايرى بوجه من الوجوه الا من غابة أو صحراء وكذلك ليست هى تؤتى من ناحية من النواحي من مصر الا من مفازة وصحراء فالفيوم وسط مصر كمثل مصر في وسط البلاد لان مصر لا تؤتى من ناحية من النواحي الا من صحراء أو مفازة قال وقد اقتطعتها اياها فلا تتركن وجها ولا نظرا الا بلغتـه فقال يوسف نعم أيها الملك متى أردت ذلك فابعث الى فاني ان شاء الله فاعل ذلك قال ان أحبه الى وأرفعه اعجله فأوحي الي يوسـف أن تحفر ثلاثة خلج خليجا من أعلى الصـعيد من موضع كذا الى موضع كذا وخليجا شرقيا من موضع كذا الى موضع كذا وخليجا غربيا من موضع كذا الى موضع كذا فوضع يوسف العمال لحفر خليج المنهى من أعلى أشمون الى اللاهون وأمر البنائين أن يحفروا اللاهون وحفر خليج الفيوم وهو الخليج الشرقى وحفر خليجا بقرية يقال لهـا بنهمت من قرى الفيوم وهو الخليج الغربى فخرج ماؤها من الخليج الشرقى فصب في النيل وخرج من الخليج الغربى فصب فى صحراء بنهمت الى الغرب فلم يبق فى الجوبة ماء ثم أدخلها الفعلة فقطع ما كان فيها من القصب والطرفاء وأخرجه منها وكان ذلك ابتداء جرى النيل وقد صارت أرض الجوبة نقية برية وارتفع ماء النيل فدخل في رأس المنهي فجرى فيه حتي انتهـي الى اللاهون فقطعه الى الفيوم فدخل خليجها فسقاها فصارت لجة من النيل وخرج اليها الملك ووزراؤه وكان هذا كله فى سبعين يوما فلما نظر اليها الملك قال لوزرائه أولئك هـذا عمـل الف يوم فسـميت الفيوم وأقامت تزرع كما تزرع غوائط مصر قال وقد سمعت فى استخراج الفيوم غير هذا أن يوسف عليه السلام ملك مصر وهو ابن ثلاثين فأقام يدبرها أربعين سنة فقال أهل مصر قد كبر يوسـف واختلف رأيه فعزلوه وقالوا اختر لنفسـك من الموات أرضا نقطعها لنفسك وتصلحها وتعمل رأيك فيها فان رأينـا من رأيك وحسن تدبيرك ما نعـلم انك في زيادة من عقلك رددناك الى ملكك فاعترض البرية فى نواحى مصر فاختار موضع الفيوم فاعطيها فشـق اليها خليج المنهي من النيل حتي أدخله الفيوم كلها وفرغ من حفر ذلك كله فى سنة * قال يزيد بن أبى حبيب وبلغنا أنه انما عمل ذلك بالوحي وقوى على ذلك بكثرة الفعلة والاعوان فنظروا فاذا الذى أحياه يوسف من الفيوم لا يعلمون له بمصر كلها مثلا ولا نظيرا فقالوا ماكان يوسف قط أفضل عقـلا ولا رأيا ولا تدبيرا منه اليوم فردوا اليه الملك فأقام ستين سنة أخرى تمام مائة سنة حتي مات وهو ابن ثلاثين ومائة سنة قال ثم بلغ يوسـف قول وزراء الملك وانه انما كان ذلك على المحنة منهم له فقال للملك عنـدى من الحكمة والتدبير غير ما رأيت فقال له الملك وما ذاك قال أنزل الفيوم من كل كورة من كور مصر أهـل بيت وآمر أهل كل بيت أن يبنوا لانفسهم قرية وكانت قرى الفيوم على

عدد كور مصر فاذا فرغوا من بناء قراهم صيرت لكل قرية من الماء بقدر ما أصير لها من الارض لايكون في ذلك زيادة ولانقص وأصير لكل قرية شربا في زمان لاينالهم الماء الا فيه واصير مطاطئا للمرتفع ومرتفعا للمطاطئ باوقات من الساعات في الليل والنهار وأصير لها قبضات فلا يقصر باحد دون حقه ولا يزداد فوق قدره فقال له فرعون هذا من ملكوت السماء قال نعم فبدأ يوسف فأمر ببنيان القرى وحدد لها حدودا وكانت أول قرية عمرت بالفيوم قرية يقال لها سانه وهي القرية التي كانت تنزلها بنت فرعون ثم امر بحفر الخليج وبنيان القناطر فلما فرغوا من ذلك استقبل وزن الارض ووزن الماء ومن يومئذ حدثت الهندسة ولم يكن الناس يعرفونها قبل ذلك وكان أول من قاس النيل بمصر يوسف ووضع مقياسا بمنف * قال جامعه وفي التوراة ان فرعون ألزم بني اسرائيل البناء وضرب اللبن فبنوا له عدة مدن محصنة منها فيثوم وعرمسيس قال الشارح هي الفيوم وحوف رمسيس وفي زمان الريان بن الوليد دخل يعقوب عليه السلام وولده مصر وهم ثلاثة وسبعون نفسا ما بين رجل وامرأة فأنزلهم يوسف مابين عين شمس الى الفرما وهي أرض ريفية برية وكان يعقوب لما دنا من مصر أرسل يهودا الى يوسف فخرج اليه يوسف فلقيه فالتزمه وبكى فلما دخل يعقوب على فرعون كلمه وكان يعقوب شيخا كبيراً حليما حسن الوجه واللحية جهير الصوت فقال له فرعون أيها الشيخ كم أتي عليك قال عشرون ومائة وكان بهمن ساحر فرعون قد وصف صفة يعقوب ويوسف وموسي صلوات الله عليهم في كتبه وأخبر أن خراب مصر وهلاك أهلها يكون على أيديهم ووضع البربايات وصفات من تخرب مصر على يديه فلما رأى يعقوب قام الى مجلسه فكان أول ماسأله عنه أن قال من تعبد أيها الشيخ قال له يعقوب أعبد الله اله كل شيء فقال فكيف تعبد من لاتري قال يعقوب انه أعظم وأجل من أن يراه أحد قال فنحن نري آلهتنا قال يعقوب ان آلهتكم من عمل أيدى بنى آدم من يموت ويبلى وان الهي لأعظم وأرفع وهو أقرب الينا من حبل الوريد فنظر بهمن الى فرعون فقال هذا الذى يكون هلاك بلادنا على يديه قال فرعون أفي أيامنا أوفي أيام غيرنا قال ليس في أيامك ولا أيام بنيك قال الملك فهل تجد هذا فيما قضى به الحكم قال نعم قال فكيف تقدر أن تقيل من يريد الهه هلاك قومه على يديه فلا يعبأ بهذا الكلام* وعن كعب أن يعقوب عاش في أرض مصر ست عشرة سنة فلما حضرته الوفاة قال ليوسف لا تدفنى بمصر فاذا مت فاحملونى فادفنونى في مغارة جبل جيرون وجيرون مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام وبينه وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا قال فلما مات لطخوه بمر وصبر وجعلوه في تابوت من ساج فكانوا يفعلون به ذلك أربعين يوما حتي كلم يوسف فرعون فأعلمه أن أباه قد مات وانه سأله أن يقبره في أرض كنعان فأذن له وخرج معه أشراف أهل مصر

حتى دفنه وانصرف وقيل قبر يعقوب بمصر فأقام بها نحوا من ثلاث سنين ثم حمل الى بيت المقدس وأوصاهم بذلك عند موته قال ثم مات الريان بن الوليد فملكهم من بعده ابنه دارم بن الريان وفي زمانه توفى يوسف عليه السلام فلما حضرته الوفاة قال انكم ستخرجون من أرض مصر الى أرض آبائكم فاحملوا عظامي معكم فمات فجعلوه فى تابوت ودفنوه في أحد جانبي النيل فأخصب الجانب الذى كان فيه وأجدب الجانب الآخر فحولوه الى الجانب الآخر فأخصب الجانب الذى حولوه اليه وأجدب الآخر فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه فجعلوها في صندوق من حديد وجعلوا فيه سلسلة وأقاموا عمودا على شاطئ النيل وجعلوا في اصله سكة من حديد وجعلوا السلسلة في السكة وألقوا الصندوق في وسط النيل فاخصب الجانبان جميعا* وكان سبب حمل عظام يوسف من مصر الى الشام أن سارة ابنة أسر بن يعقوب عمرت حتى صارت عجوزا كبيرة ذاهبة البصر فلما سرى موسى عليه السلام ببنى اسرائيل غشيتهم ضبابة حالت بينهم وبين الطريق أن يبصروه وقيل لموسي لن تعبر الا ومعك عظام يوسف قال ومن يدرى أين موضعها قالوا عجوز كبيرة ذاهبة البصر تركناها في الديار فرجع موسى فلما سمعت حسه قالت ماردك قال أمرت أن أحمل عظام يوسف قالت ما كنتم لتعبروا الا وأنا معكم قال دليني على عظام يوسف فدلته عليها فأخذ عظام يوسف معه الى التيه *(يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم)* خليل الرحمن صلوات الله عليهم أحد الاسباط الاثنى عشر ولد بارض كنعان من بلاد الشام ورأى الاحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين وعمره سبع عشرة سنة وكاد اخوته على ذلك وباعوه من قوم مدنيين فساروا به الى مصر وباعوه لقائد فرعون فأقام في منزله اثنى عشر شهرا ثم راودته امرأة العزيز عن نفسه فاعتصم وكذبت عليه الى أن حبس ومكث في السجن عشر سنين وقيل غير ذلك فلم يزل في السجن الى أن رأى الساقى والخباز ذينك المنامين وفسر لهما يوسف وخرجا فأنسى الساقي يوسف سنتين الى أن رأى الملك البقر والسنابل فذكره وأتاه فقص عليه الرؤيا وعبرها فأخرج من السجن وله حينئذ ثلاثون سنة فاستوزره الملك ومن ذلك الوقت الى أن صار يعقوب الي مصر تسع سنين منها سبع سنين من سني الشبع وسنتان من سني الجوع وكان ليعقوب في السنة التى صار فيها الى مصر مائة سنة وثلاثون سنة وكان أهل بيته حينئذ سبعين نفسا ومنذ سار الى مصر الى أن ولد موسى عليه السلام مائة وثلاثون سنة أخرى فلما مضى له بمصر سبع عشرة سنة توفي وعمره مائة وسبع وأربعون سنة فخاف الاسباط حينئذ مقابلة يوسف اياهم فقالوا ان أباك أوصى أن تغفر ذنب اخوتك فانك وهم عبيد الله اله أبيك فبكى يوسف وقال لهم لا تحتاجون الي ذلك ووعدهم بخير تممه لهم ومات يوسف وله مائة سنة وعشر سنين والله أعلم

ذكر ما قيل في الفيوم وخلجانها وضياعها

قال اليعقوبي كان يقال في متقدم الايام مصر والفيوم لجلالة الفيوم وكثرة عمارتها وبها القمح الموصوف وبها يعمل الخيش * وحكى المسعودى أن معنى الفيوم ألف يوم * قال القضاعي الفيوم وهي مدينة دبرها يوسف النبي عليه السلام بالوحي وكانت ثلثمائة وستين ضيعة تمير كل ضيعة منها مصر يوما واحدا فكانت تمير مصر السنة وكانت تروى من اثنى عشر ذراعا ولا يستبحر ما زاد على ذلك فان يوسف عليه السلام اتخذ لهم مجرى ورتبه ليدوم لهم دخول الماء فيه وقومه بالحجارة المنضدة وبنى به اللاهون * وقال ابن رضوان الفيوم يخزن فيه ماء النيل ويزرع عليه مرات في السنة حتى انك ترى هذا الماء اذا خلي يغير لون النيل وطعمه وأكثر ما تحس هذه الحالة في البحيرة التي تكون في أيام القيظ سفط ونهيا وصاعدا الى ما يلى الفيوم وهذه حالة تزيد في رداءة أهل المدينة يعني مصر ولا سيما اذا هبت ريح الجنوب فان الفيوم فى جنوب مدينة مصر على مسافة بعيدة من أرضها وقال القاضى السعيد أبو الحسن على بن القاضي المؤتمن بقية الدولة أبي عمرو عثمان بن يوسف القرشى المخزومي في كتاب المنهاج في علم الخراج وهذه الاعمال من أحسن الاشياء تدبيرا وأوسعها أرضاً وأجودها قطرا وانما غلب على بعضها الخراب لخلوها من أهلها واستيلاء الرمل على كثير من أرضها وقد وقفت على دستور عمله أبو اسحاق ابراهيم بن جعفر بن الحسن بن اسحاق لذكر خلجان الاعمال المدثورة وما عليها من الضياع وقد أوردته ههنا وان كان منه ما قد دثر ومنه ما تغيرت أسماؤه ومنه ما جهلت مواضعه بالدثور ولكن أوردته ليعلم منه حال العامر الآن ويستقصى به من له رغبة في عمارة مايقدر عليه من الغامر وفي ايراده مصلحة ليعلم شرب كل موضع ونسخته *(دستور)* على ما أوضحه الكشف من حال الخلج الامهات بمدينة الفيوم وما لها من المواضع وشرب كل ضيعة منها ورسمها فى السد والفتح والتعديل والتحرير وزمان ذلك عمل في جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة نبتدئ بعون الله وحسن توفيقه بذكر حال البحر الاعظم الذى منه هذه الخلج فنذكر مادته التي صلاحه بصلاحها *(خليج الفيوم الاعظم)* يصل الماء الى هذا الخليج من البحر الصغير المعروف بالمنهى ذي الحجر اليوسفى وفوقه هذا البحر عند الجبل المعروف بكرسى الساحرة من أعمال الاشمونين ومنه شرب بعض الضياع الاشمونية والقيسية والاهناسية وعلى جانبيه ضياع كثيرة شربها منه وشرب كروم ماله كروم منها قال *(الحجر اليوسفى)* والحجر اليوسفى جدار مبني بالطوب والجير المعروف عند المتقدمين بالصاروج وهو الجير والزيت وبناؤه من جهة الشمال الى الجنوب ويتصل من نهايته من الجنوب بجدار بناؤه مثل بنائه على استقامة من الغرب الى الشرق ويحصره ميلان منه فى نهايته وطوله مائتا

ذراع بذراع العمل ويتصل بهذا الجدار على طول ثمانين ذراعا منه من جهة الغرب نهاية
الجدار الاعظم من الجنوب وفائدة بناء الجدار الاعظم رد الماء اذا انتهى الى حدود اثنتى
عشرة ذراعا الى مدينة الفيوم وطول مايتصل منه الجدار الذى من جهة الغرب الى الشرق
ثم يتصل بالميل ثم ينخفض من حدود هذا الميل الى ميل مثله يقابله من جهة الشمال خمسون
ذراعا و بعد مابين هذين الميلين وهو المنخفض مائة ذراع وعشرة أذرع ومقدار المنخفض
منه اربعة أذرع وهـذا المنخفض هو الذى يسد بجسر من حشيش يسمى ابشا وعرض
ما يجري عليه الماء وهو موضع اللبش وما قابله الى جهة الشرق اربعون ذراعا وعليه
مسك اللبش الثاني ويتصل بهذا الميل الى جهة الشمال ماطوله ثلثمائة واثنان وسبعون ذراعا
ثم يتصل به على نهاية هذا الطول جدار يمر على استقامته الى الحجر مبنى بالحجر طوله على
استقامته الى جهة الشرق مائة ذراع ثم ينخفض أيضا من حيث يتصل بهذا الجدار ما طوله
عشرون ذراعا وقدر المنخفض منه ذراعان وهذا المنخفض أيضا يسد بجسر حشيش يسمى
اللكبد وطول بقية الجدار الى نهايته من جهة الشمال مائة وستة و ثلاثون ذراعا وقبالة هذا
بطوله منه مباطل وفيه قناطر مبنية بالحجر كانت قديما ترد الماء الى الفيوم من الخليج القديم
الذى عنده السدود اليوم وكان عليها أبواب وعدتها عشر قناطر قديمة فيكون جميع ذرع
الجدار الاعظم من نهايته سبعمائة واثنين وسبعين ذراعا بذراع العمل دون الجدار المعترض
من الغرب الى الشرق ويمر هـذا الجدار الاعظم من كلتا جهتيه جميعا حتى يتصل بالجبل
فتوجد آثاره في القيظ مرورا على غير استقامة وعرضه مختلف وكلما انتهى الى سطحه قل
عرضه وعرض أعلاه مع الظاهر من أسفله جميعا ستة عشر ذراعا وفيه منافس يخرج منها الماء
وهي برابخ زجاج ملونة بشبه المينا وأزرق وسليماني وهو من العجائب الحسنة فى عظم البناء
واتقانه لانه من الابنية اللاحقة بمنارة الاسكندرية وبناء الاهرام فمن معجزته أن النيل يمر
عليه من عهد يوسف عليه السلام الى هـذه الغاية وما تغير عن مستقره ويدخل الماء من
هذا البحر فى هذا الزمان الى مدينة الفيوم من خليجها الاعظم مابين أرض الضيعتين المعروفتين
بدمونة واللاهون ومنه شرب هاتين الضيعتين وغيرهما سيحا ومنه شرب كرومها بالدواليب
على أعناق البقر وان قصر النيل عن الصعود الى سوادها سقيت منه على أعناق البقر وزرعت
وينتهى فى الخليج الاعظم الى خليج يعرف بخليج الاواسي وليس عليه رسم فى سدولا فتح
ولا تعديل وينتهى الى الضيعة المعروفة ببياض فيملأ بركها وغيرها من البرك وللبرك مقاسم يصل الى
كل مقسم منها لغايته ومقدار شرب ما عليه وينتهي الى الضيعة المعروفة بالاوسية الكبرى
فمنه شربها من مقسمين لها وبرسمها باب ومنه يشرب نخلها وشجرها وعلى هذا الحد طاحونة
تعمل بالماء ثم ينتهى الى ثلاثة مقاسم آخرها الضيعة المعروفة ببرطينة منها مقسم لها ومقسم

لقبالات عدة والمقسم الثالث يسقى أحد أحياء النخل وبهذا الحى سواق وبساتين قد خربت وجميز دائر به وكان بها بيوت فى أقنية النخل ثم ينتهى الى حي ثان على صفة الاول ثم ينتهى الي الضيعة المعروفة بالجوبة فيملأ بركها وينتهى الى ثلاثة مقاسم في صف وفوقها خليج معطل ويشرب من هذه المقاسم عدة ضياع ثم ينتهى الماء من هذا الخليج الى البطس وهو نهايته وعلى الخليج الاعظم بعد هذا أبالبز شربها منه من أفواه لها سيحا فاذا نضب ماء النيل نصب على أفواهها برسم صيد السمك شباك ثم ينتهى الخليج الاعظم على يمنة من يريد الفيوم الي خليج يعرف *(بخليج سمسطوس)* منه شرب سمسطوس وغيرها وأبالبز كثيرة تجاوز الصحراء من المشرق منه ومن قبليه وهي ما بين هذا الخليج وخليج الاواسى ثم ينتهى الخليج الاعظم أيضا الى *(خليج ذهالة)* ومنه شرب عدة ضياع وعليه يزرع الارز وغيره ثم ينتهى الخليج الاعظم الى ثلاث خلج ثم ينتهى الى *(خليج بينطاوة)* وبهذا الخليج ثلاثة ابواب قديمة يوسفية سعة كل باب منها ذراعان بذراع العمل ويمر فيه الماء وينتهى أيضا الى بابين يوسفيين ورسم هذا الخليج أن يسد هو وسائر المطاطية على استقبال عشر تخلو من هاتور الى سلخه ويفتح على استقبال كيهك الى عشر تبقى منه ثم يسد الى عشر تخلو من طوبة ثم يفتح ليلة الغيطاس الى سلخ طوبة ثم يسد على استقبال أمشير الى عشرة تبقى منه ثم يفتح لعشر تبقى منه الى عشر تخلو من برمهات ثم يفتح الى عشر تخلو من برمودة ثم يعدل فى موضعه وقد خرب ما على بحريه من الضياع ويشرب منه عدة ضياع ولهذا الخليج مغيض معمول تحت الجبل بقبو يخرج منه الماء فى زمان تكاثره ثم ينتهى الخليج الاعظم الى *(خليج دله)* وهو من المطاطية وحكمه فى السد والفتح والتعديل والتحسين كما تقدم وهو على يسرة من يريد المدينة وله بابان يوسفيان مبنيان بالحجر سعة كل منهما ذراعان وربع ومنه شرب عدة ضياع أمهات وغيرها وفي وسطه مفيض لزمان الاستبحار يفتح فيفيض الماء الى البركة العظمى وفي أقصى هذه البركة أيضا مفيض له أبواب يقال انها كانت من حديد فاذا زادت فتحت الابواب فيمضى الماء الى الغرب وقيل انه يمر الى سنترية وكان على هذين الخليجين بساتين وكروم كثيرة تشرب على أعناق البقر وينتهى الخليج الاعظم الى *(خليج المجنونة)* سمى بذلك لعظم مايصير اليه من الماء وحكمه في السد وغيره على ما ذكر ومنه شرب ضياع كثيرة وبه تدار طواحين واليه تصير مصالات مياه الضياع القبلية والى بركة في أقصى مدينة الفيوم تجاور الجبل المعروف بأبي قطران ويلقى ماينصب من مصالات الضياع البحرية فيها وهى البركة العظمى ثم ينتهي الخليج الاعظم الى *(خليج تلاله)* وله بابان يوسفيان متينان مبنيان بالحجر سعة كل منهما ذراعان وثلثا ذراع وليس فيه رسم سد ولا فتح ولا تعديل ولا تحييز الا في تقصير النيل فانه يحيز بحشيش ومنه شرب طوائف المدينة وعدة

أراض وضياع وفيه فوهة خليج البطش الذي اليه مفاضل المياه وفيه أبواب تسد حتى يصعد الماء الى أراض مرتفعة بقدر معلوم واذا حدث بالسد حدث يفسده كانت النفقة عليه من الضياع التي تشرب منه بقدر استحقاقها ثم ينتهي الخليج الاعظم الى خلجان من جانبيه في قبليه وبحريه ثم ينتهي الى *(خليج سموه)* وهو على يمنة من يريد مدينة الفيوم وهو من المطاطئة وله بابان يوسفيان سعة كل منهما ذراعان ونصف وحكمه حكم ماتقدم ومنه شرب طوائف كثيرة وعدة ضياع وينتهي الى أربعة مقاسم بأبواب والى خلجان تسقي ضياعا كثيرة منها *(خليج تبدود)* فيه عين حلوة فاذا سد هذا الخليج سقى منها أراضي ما جاورها وظهرت هذه العين لما عدم الماء وحفر هذا الموضع ليعمل بئرا فظهرت منه هذه العين فاكتفى بها ثم ينتهي الخليج الاعظم الى خلجان بها شاذروانات ومقاسم قديمة يوسفية وبها أبواب يوسفية بها رسوم في السد والفتح يشرب منها ضياع كثيرة ورسم الترع أن يسد جميعها على استقبال عشرة أيام تخلو من هاتور الى سلخه وتفتح على استقبال كيهك مدة عشرين يوما وتسد لعشر تبقى منه الى الغطاس وتفتح يوم الغطاس الى سلخ طوبة وتسد على استقبال أمشير عشرين يوما ثم تفتح لعشر تبقى منه الي عشرين من برمهات وتفتح عشرة أيام تخلو من برمودة ثم تعدل فيهم بعمارتها ولهم في التعديل قسم تعطي منه كل ناحية شربها بالعدل بقوانين معروفة عندهم وقد اختصرت أسماء الضياع التى ذكرها لخراب أكثرها الآن والله أعلم

ذكر فتح الفيوم ومبلغ خراجها وما فيها من المرافق

قال ابن عبد الحكم فلما تم الفتح للمسلمين بعث عمرو بن العاص جرائد الخيل الى القرى التي حولها فأقامت الفيوم سنة لايعلم المسلمون بمكانها حتى أتاهم رجل فذكرها لهم فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفي فلما سلكوا في المجابة لم يروا شيئاً فهموا بالانصراف فقالوا لاتعجلوا سيروا فان كان قد كذب فما أقدركم على ماأردتم فلم يسيروا الا قليلا حتي طلع لهم سواد الفيوم فهجموا عليها فلم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم قال ويقال بل خرج مالك بن ناعمة الصدفي وهو صاحب الاشقر على فرسه ينفض المجابة ولا علم له بما خلفها من الفيوم فلما رأى سوادها رجع الى عمرو فأخبره بذلك قال ويقال بل بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث الى الصعيد فسار حتى أتى القيس فنزل بها وبه سميت القيس فراث على عمرو خبره فقال ربيعة بن حبيش كفيت فركب فرسه فأجاز عليه البحر وكانت أنثى فأتاه بالخبر ويقال انه أجاز من ناحية الشرقية حتى انتهى الى الفيوم وكان يقال لفرسه الاعمى والله أعلم * وقال ابن الكندي في كتاب فضائل مصر ومنها كورة الفيوم وهي ثلثمائة وستون قرية دبرت على عدد أيام السنة لاتنقص عن الري فان قصر النيل في سنة

من السنين مار بلد مصر كل يوم قرية وليس في الدنيا مابنى بالوحى غير هـذه الكورة ولا بالدنيا بلد أنفس منه ولا أخصب ولا أكثر خيرا ولا أغزر أنهارا ولو قايسنا بأنهار الفيوم أنهار البصرة ودمشق لكان لنا بذلك الفضل ولقد عد جماعة من أهل العقل والمعرفة مرافق الفيوم وخيرها فاذا هي لا تحصي فتركوا ذلك وعدوا مافيها من المباح مما ليس عليـه ملك لاحد من مسلم ولا معاهد يستعين به القوي والضعيف فاذا هو فوق السبعين صنفا * وقال ابن زولاق في كتاب الدلائل على امراء مصر للكندى وعقدت لكافور الاخشيدي الفيوم في هذه السنة يعنى سنة ست وخمسين وثلثمائة ستمائة ألف دينار ونيفا وعشرين ألف دينار * وقال القاضى الفاضل في كتاب متجددات الحوادث ومن خطه نقلت ان الفيوم بلغت في سنة خمس وثمانين وخمسمائة مبلغ مائة ألف واثنين وخمسين ألف دينار وسبعمائة وثلاثة دنانير وقال البكري والفيوم معروف هنالك يغل فى كل يوم ألفى مثقال ذهبا

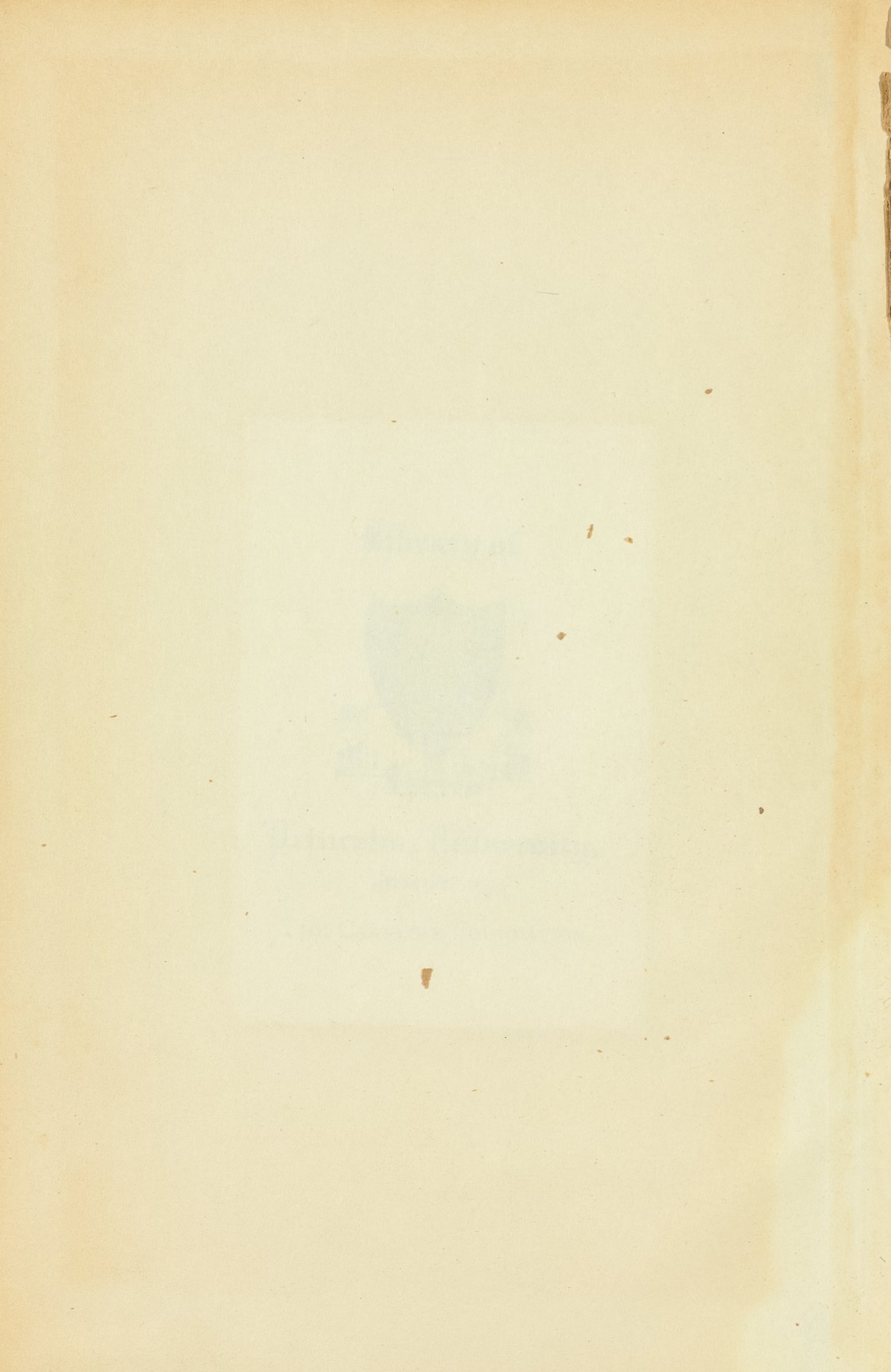
مدينة النحريرية

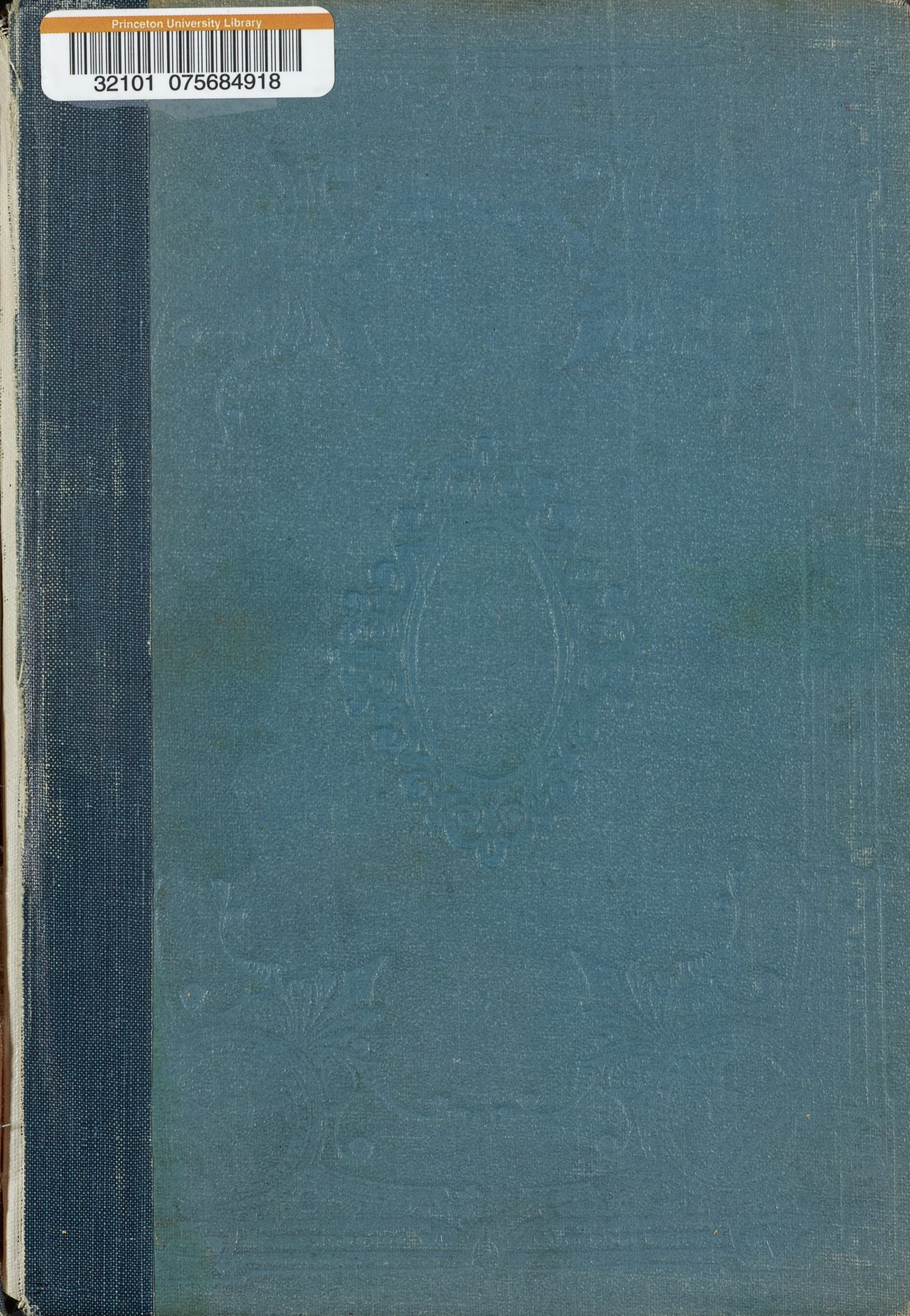
كانت أرضا مقطعة لعشرة من أجناد الحلقة من جملتهم شمس الدين سنقر السعدي فأخذ قطعة من أراضى زراعتها وجعلها اصطبلا لدوابه وخيله فشكاه شركاؤه الى السلطان الملك المنصور قلاون فسأله عن ذلك فقال أريد أن أجعله جامعا تقام فيه الخطبة فأذن له السلطان في ذلك فابتدأ عمارته في اخريات سنة ثلاث وثمانين وستمائة حتي كمل فى سنة خمس وثمانين فعمل له السلطان منبرا وأقيمت به الجمعة واستمرت الى يومنا هذا وأنشأ السعدى حوانيت حول الجامع فلم تزل بيده حتى مات وورثها ابناه عز الدين خليل وركن الدين عمر فباعاها بعد مدة للامير شيخو العمري فجعلها مما وقفه على الخانكاه والجامع اللذين انشأهما بخط صليبة جامع ابن طولون خارج القاهرة فعمرت هذه الارض بعمارة الجامع وسكنها الناس فصارت مدينة من مدائن أراضى مصر بحيث بلغت انوال القزازين فيها

(٣) وترقي سنقر السعدى في الخدم حتى صار من الامراء وولي نقيب المماليك السلطانية وأنشا المدرسة السعدية خارج القاهرة قريبا من حدرة البقر فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل في سنة خمس عشرة وسبعمائة وبنى أيضا رباطا للنساء وكان شديد الرغبـة في العمائر محبا للزراعة كثير المال ظاهر الغني ثم انه أخرج الي طرابلس وبها مات سنة ثمان وعشرين وسبعمائة

(تم الجزء الأول من الخطط المقريزية ويليه الجزء الثانى وأوله ذكر تاريخ الخليقة)






Princeton University Library
32101 075684918